



الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء التاسع عشر

يطلب من
المكتبة الإسلامية
طهران

فهرس الجزء التاسع عشر

سورة الجن

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « قل أوحى إلى أنه أسمع نقر من الجن ... » الآيات . فيه مسائل : أوجه القراءات في « أوحى » . هل رأى النبي صلى الله عليه وسلم الجن في ليلتهم أم لم يرهم ؟ الأحاديث الواردة في قصة أستماعهم للقرآن . حديث النهى عن الاستنجاء بالعظم والبعر . اختلاف أهل العلم في أصل الجن . الكلام على أن الجن يأكلون خلافا للأطباء والفلاسفة . الجن يتصورون لنا في صور الحيات لحديث « الموطأ » . مشركو مكة لم يدركوا ما أدركته الجن بتدبرها للقرآن . اختلاف القراء في فتح همزة « أن » وكسرها في السورة . معنى « جد ربنا » والقراءات فيها ... ١
- تفسير قوله تعالى : « وأنه كان يقول سفيها على الله شططا ... » الآيات . معنى الشطط وأصله . تعوذ العرب بالجن في الجاهلية ... ٨
- تفسير قوله تعالى : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا ... » الآيات . الكلام على حراسة السماء من الشياطين . اختلاف السلف في أن الحراسة كانت قبل البعثة أو بعدها ... ١٠
- تفسير قوله تعالى : « وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك ... » الآيات . الكلام على أن الجن منهم المؤمن والكافر . لم يبعث الله قط رسولا من الجن ولا من أهل البادية ولا من النساء ... ١٤
- تفسير قوله تعالى : « وأن لو أستقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا ... » الآية من قول الله تعالى . أينما كان المال كانت الفتنة . معنى الصعد في اللغة ... ١٦

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « وأن المساجد لله ... » الآية . فيه مسائل : بيان المراد بالمساجد . إضافة المساجد لله تشریف . يجوز إضافة المساجد لغير الله تعريفا . يجوز اتخاذ المساجد لغير الصلاة مما يمس مصالح المسلمين . لا تتخذ المساجد هزوا ومتجرا ومجلسا . آداب دخول المساجد ١٩
- تفسير قوله تعالى : « وأنه لما قام عبد الله يدعوه ... » الآيات . « عبد الله » هنا محمد صلى الله عليه وسلم . قوله : « لبدا » فيه أربع لغات وقراءات . سبب نزول قوله تعالى : « قال إنما أدعوربي » ٢١
- تفسير قوله تعالى : « قل إني لن يجيرني من الله أحد » الآيات ٢٤
- تفسير قوله تعالى : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ... » الآيات . فيه مسئلتان : معنى الغيب . المراد بالرسول في قوله : « إلا من أرتضى من رسول » جبريل أو الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . لا يعلم الغيب أحد سوى الله ومن أرتضاه من الرسل . ليس المنجم ومن ضاهاه ممن أرتضاه بل هو كافر بالله مفتر عليه . رد بعض العلماء على المنجمين . رد الإمام على رضى الله عنه على أحد المنجمين أيضا لما أراد لقاء الخوارج ٢٦

سورة المزمل

تفسير قوله تعالى : « يا أيها المزمل . قم الليل إلا قليلا ... » الآيات . فيه مسائل : أصل « المزمل » والقراءات فيه . « يا أيها المزمل » خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم . أقوال العلماء في معنى « المزمل » وحديث السيدة عائشة رضى الله عنها . ليس المزمل من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم . في خطابه بهذا الاسم فائدتان : الملاطفة ، والتنبيه لكل راقد ليله . حركة الميم في « قم » الكسر أو الضم وحكى الفتح . الكلام على حد الليل . اختلاف العلماء في فرضية قيام الليل . هل كان أمر القيام خاصا به صلى الله عليه وسلم أوله وللأنبياء قبله ، أوله

صفحة

- ولأتمته . الأحاديث الواردة في فضل قيام الليل . اختلاف العلماء في النسخ
 للأمر بالقيام . الكلام على معنى ترتيب القرآن وفضل قارئه ٣٠
- تفسير قوله تعالى : « إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً » . الأقوال في معنى ثقل القرآن ٣٧
 تفسير قوله تعالى : « إن ناشئة الليل هي أشد وطأ ... » الآيتين . فيه مسائل :
 معنى « ناشئة الليل » . ليس في القرآن ما ليس في لغة العرب . في هذه الآية
 دليل على فضل صلاة الليل على صلاة النهار . اختلاف العلماء في وقت ناشئة
 الليل . صلاة الليل أثقل على المصلي . رد ابن الأنباري على من قال : من قرأ
 بحرف يوافق معنى حرف من القرآن فهو مصيب . القراءات في « سبحا » وبيان
 معناها ٣٨
- تفسير قوله تعالى : « وأذكر اسم ربك ... » الآية . فيه مسائل : بيان الأقوال
 في المراد بذكر الله في الآية . الكلام على معنى التبتل ، والتبتل المأمور به والمنهى عنه ٤٢
- تفسير قوله تعالى : « رب المشرق والمغرب ... » الآيات . الكلام على نسخ
 قوله تعالى : « وأصبر على ما يقولون » بآية القتال . قوله : « وذرنى والمكذبين »
 نزلت في صناديد قريش ٤٤
- تفسير قوله تعالى : « إن لدينا أنكالا وجميما ... » الآيات . بيان معنى الأنكال .
 بركة الطعام في كيله لحديث النبي صلى الله عليه وسلم ٤٥
- تفسير قوله تعالى : « إنا أرسلنا إليكم رسولا ... » الآيات . الكلام على تعليق
 « يوما » في قوله تعالى : « فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا »
 والفرع في ذلك اليوم ٤٧
- تفسير قوله تعالى : « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ... » الآية .
 فيه مسائل : هذه الآية ناسخة لفرضية قيام الليل . الكلام على المراد بقراءة
 ما تيسر من القرآن . المشهور أن نسخ قيام الليل كان في حق الأمة ، وبقيت

صفحة

- الفرضية في حق النبي صلى الله عليه وسلم . بيان علة تخفيف قيام الليل . كسب المال بمنزلة الجهاد . صلاة الليل نسخت بإيجاب الصلوات الخمس . اختلاف العلماء في قدر ما يلزم أن يقرأ به في الصلاة . بيان معنى القرض الحسن في قوله تعالى : « وأقرضوا الله قرضاً حسناً » ٥٠

سورة المدثر

- تفسير قوله تعالى : « يا أيها المدثر . قم فأندر ... » الآيات . فيه مسائل : بيان الأقوال في سبب تدثر النبي صلى الله عليه وسلم . في الخطاب بالمدثر ملاطفة من الكريم إلى الحبيب . قوله تعالى : « وربك فكبر » يقتضى بعمومه تكبير الصلاة ، ومراد فيه أيضاً تكبير التنزيه . في قوله تعالى : « وثيابك فطهر » ثمانية أقوال ٥٨
- تفسير قوله تعالى : « والرجز فأهجر » الآية . بيان القراءات في « والرجز » ومعناها تفسير قوله تعالى : « ولا تمنن تستكثر » الآية . فيه مسائل : في الآية أحد عشر تأويلاً . ترجيح أحد الأقوال . القراءات في « ولا تمنن » ٦٥
- تفسير قوله تعالى : « فإذا نقر في الناقور ... » الآيات . معنى النقر في كلام العرب . إعراب « يومئذ » ٦٦
- تفسير قوله تعالى : « ذرني ومن خلقت وحيداً ... » الآيات . « ذرني » كلمة وعيد . المفسرون على أن الوحيد هو الوليد بن المغيرة . الأقوال في سبب تسميته بالوحيد . الكلام على مال الوليد وأولاده . « صعوداً » جبل من نار أو صخرة في جهنم ٦٨
- تفسير قوله تعالى : « إنه فكر وقدر ... » الآيات . وصف الوليد للقرآن بأنه ليس من قول البشر . تعبير قریش له بأنه صبأ . تفكيره في وصف النبي صلى الله عليه وسلم بالساحر والقرآن بالسحر ٦٩
- ٧٢

- ٧٥ « ساصيله سقر... » الآيات . تفسير قوله تعالى : « عليها تسعة عشر... » الآيتين . الكلام على عدد خزنة جهنم وتعذيبهم لأهلها . القراءات في « تسعة عشر »
- ٧٧ « كلا والقمر... » الآيات . الكلام على « كلا » وهل يجوز الوقف عليها أولا . يجوز قراءة « أدبر » بألف و « دبر » بغير ألف ، و « أسفر » و « سفر » كذلك . « إحدى » بني ابتداء للتأنيث . « رهينة » أسم بمعنى الرهن وليس مؤنثا . اختلاف العلماء في تعيين أصحاب اليمين . بيان صحة الشفاعة للذنين من أهل التوحيد... ..
- ٨٢ « فما لهم عن التذكرة معرضين... » الآيات . المعرضون هم أهل مكة . بيان المراد بالإعراض عن القرآن . اختلاف المفسرين في تفسير القسورة . طلب جماعة من كفار قريش صحفا من الله برسالة محمد

سورة القيامة

- ٨٩ « لا أقسم بيوم القيامة... » الآيات . الكلام على « لا » في الآية . اختلاف المفسرين في المراد بالنفس اللوامة . بيان سبب نزول قوله تعالى : « أيحسب الإنسان أن لن نجعم عظامه » . الكلام على المراد بتسوية البنان
- ٩٤ « فإذا برق البصر... » الآيات . بيان القراءات في « برق » ومعناها . الكلام على جمع الشمس والقمر يوم القيامة . أوجه القراءات في « المفر » . معنى الوزر في اللغة . بيان الأعمال التي تنفع الإنسان بعد موته... ..
- تفسير قوله تعالى : « بل الإنسان على نفسه بصيرة... » الآيتين . بيان المراد بالبصيرة ومعنى الهاء فيها . الآية فيها دليل على قبول إقرار المرء على نفسه . حكم

صفحة	
٩٨	إقرار المرء على الغير بوارث أو دين . لا يصح الإقرار إلا من مكلف غير محجور عليه . الاعتذار بعد الإقرار لا يقبل . حكم إقرار المملوك... ..
١٠٤	تفسير قوله تعالى : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ... » الآيات
	تفسير قوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة ... » الآيات . الكلام على رؤية الباري جل وعلا يوم القيامة... ..
١٠٥	تفسير قوله تعالى : « كلا إذا بلغت التراقي ... » الآيات
١٠٩	تفسير قوله تعالى : « فلا صدق ولا صلى ... » الآيات . بيان أن الآية نزلت في أبي جهل . « أولى لك فأولى » تهديد ووعيد
١١١	تفسير قوله تعالى : « يحسب الإنسان أن يترك سدى ... » الآيات
١١٤	

سورة الإنسان

١١٦	تفسير قوله تعالى : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر ... » الآيات . الكلام معنى « هل » في الآية . بيان الأطوار التي مرت على خلق آدم عليه السلام . أطوار خلق الإنسان . سؤال حبر من اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم عن ماء الرجل وماء المرأة... ..
١٢١	تفسير قوله تعالى : « إنا أعتدنا للكافرين سلاسل ... » الآية . الكلام على معنى « سلاسل » وإعرابها
١٢٢	تفسير قوله تعالى : « إن الأبرار يشربون من كأس ... » الآيتين . الكلام على عيون الجنة
١٢٥	تفسير قوله تعالى : « يوفون بالنذر ... » الآيات . بيان معنى النذر وما يندرج فيه . الأقوال في المراد بالمسكين واليتيم والأسير . الكلام على من نزلت فيهم الآية . الرد على من قال إنها نزلت في علي وفاطمة رضي الله عنهما

صفحة	
١٣٣	تفسير قوله تعالى : « إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا ... » الآيات ...
١٣٨	تفسير قوله تعالى : « ويطاف عليهم بأنية من فضة ... » ...
	تفسير قوله تعالى : « ويطوف عليهم ولدان مخلدون ... » الآيات . الكلام على نعيم أهل الجنة . بيان إعراب « إستبرق » وأنه معرب . حديث النبي صلى الله عليه وسلم في شأن الرجل الحبشى ...
١٤١	تفسير قوله تعالى : « إنا نحن نزلنا عليك القرآن ... » الآيات . الأقوال في سبب نزول قوله تعالى : « ولا تطع منهم آثما أو كفورا » ، ومعنى « أو » في الآية
١٤٦	تفسير قوله تعالى : « إن هذه تذكرة ... » الآيات ...
١٥٠	

سورة المرسلات

	تفسير قوله تعالى : « والمرسلات عرفا ... » الآيات . أقوال المفسرين في المراد بالمرسلات . الكلام على الهمزة في « أقت » ...
١٥٢	
١٥٧	تفسير قوله تعالى : « ألم نهلك الأولين ... » الآيات ...
	تفسير قوله تعالى : « ألم نجعل الأرض كفاتا ... » الآيات . فيه مسئلتان : في الآية دليل على وجوب دفن الميت . النباش تقطع يده ...
١٥٨	
	تفسير قوله تعالى : « أنطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ... » الآيات . الأمر للكفار يوم القيامة . الكلام على الظل ذى الشعب الثلاث . جواز آذخار الحطب والفحم والقوت ...
١٦٠	
١٦٤	تفسير قوله تعالى : « هذا يوم لا ينطقون ... » الآيات . قراءة يوم بالنصب والرفع
	تفسير قوله تعالى : « إن المتقين فى ظلال وعيون ... » الآيات . الظلال للمؤمنين فى مكان الظل ذى الشعب للكفار ...
١٦٥	
	تفسير قوله تعالى : « وإذا قيل لهم أركعوا لا يركعون ... » الآيات . الآية نزلت فى ثقيف أو يقال ذلك فى الآخرة . هذه الآية حجة على أن الركوع ركن فى الصلاة
١٦٦	

صفحة

سورة عم

- تفسير قوله تعالى : « عم يتساءلون ... » الآيات . الكلام على أصل « عم »
 ١٦٧
 والتأستفهام بها ومعناها . بيان المراد بالنبا العظيم فى الآفة
 ١٦٩
 تفسير قوله تعالى : « ألم نجعل الأرض مهادا ... » الآيات
 تفسير قوله تعالى : « إن يوم الفصل كان ميقاتا ... » الآيات . حديث النبى صلى
 ١٧٣
 الله عليه وسلم فى حشر الناس على صور مختلفة
 تفسير قوله تعالى : « إن جهنم كانت مرصادا ... » الآيات . الكلام على معنى
 الرصد ، وأن على النار رصدا . بيان معنى الأحقاب ومدة الحقب . الأقوال
 فى أن الآفة تدل على الخلود أو لا تدل عليه
 ١٧٤
 تفسير قوله تعالى : « إن للمتقين مفازا ... » الآيات
 ١٨٠
 تفسير قوله تعالى : « رب السموات والأرض ... » الآيات . اختلاف المفسرين
 فى المراد بالروح فى الآفة . بيان المراد بالكافر فى قوله تعالى : « ويقول الكافر
 ١٨٣
 يا ليتنى كنت ترابا »

سورة النازعات

- تفسير قوله تعالى : « والنازعات غرقا ... » الآيات . أقوال المفسرين فى معنى
 النازعات . بيان معنى تدبير الملائكة للأمر فى قوله : « فالمدبرات أمرا » .
 ١٨٨
 الكلام على الحافرة والساهرة فى الآفة
 تفسير قوله تعالى : « هل أتاك حديث موسى ... » الآيات . حديث موسى تسليية
 للنبي صلى الله عليه وسلم . فى « طوى » ثلاث قراءات
 ١٩٨
 تفسير قوله تعالى : « أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ... » الآيات . معنى الآفة
 ٢٠١
 التقريع . بيان معنى سمك السماء ودحو الأرض

صفحة	
٢٠٤	تفسير قوله تعالى : « فإذا جاءت الطامة الكبرى ... » الآيات
	تفسير قوله تعالى : « فأما من طغى ... » الآيات . بيان سبب نزولها : إشار
٢٠٥	الدنيا على الآخرة سبب في الهلاك
	تفسير قوله تعالى : « يسألونك عن الساعة ... » الآيات . بيان سبب نزولها .
٢٠٧	تقوم الساعة بغضب الله تعالى على عباده

سورة عبس

	تفسير قوله تعالى : « عبس وتولى . أن جاءه الأعمى ... » الآيات . فيه مسائل :
	مارواه أهل التفسير في سبب النزول . الآية عتاب من الله تعالى لنبيه صلى الله
	عليه وسلم . المؤمن الفقير خير من الغنى . ما فعله ابن أم مكتوم كان فيه نوع
٢٠٩	جفاء . الآية لها نظائر من القرآن في عتاب النبي صلى الله عليه وسلم
٢١٢	تفسير قوله تعالى : « أما من أستغنى . فانت له تصدى ... » الآيات
	تفسير قوله تعالى : « قتل الإنسان ما أكفره ... » الآيات . سبب نزول الآية .
٢١٥	دعاء النبي صلى الله عليه وسلم على عتبة بن أبي لهب وتمزيق الأسد له
	تفسير قوله تعالى : « فلينظر الإنسان إلى طعامه ... » الآيات . ما يصير إليه طعام
٢١٨	الإنسان مثل للدنيا . الأقوال في معنى الأب
	تفسير قوله تعالى : « فإذا جاءت الصاخة ... » الآيات . الصاخة النفخة الثانية .
٢٢١	الكلام على فرار الإنسان من أهله في المحشر

سورة التكوير

	تفسير قوله تعالى : « إذا الشمس كورت ... » الآيات . الكلام على أصل
	التكوير ومعناه . بيان ما يحدث يوم القيامة من خراب الدنيا . سبب وأد العرب
٢٢٥	في الجاهلية للبنات والكلام عليه

صفحة

تفسير قوله تعالى : « فلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس ... » الآيات . « الخنس »

الكواكب أو بقر الوحش . لله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته . الكلام على

معنى « عسعس » ٢٣٤

تفسير قوله تعالى : « ولقد رآه بالأفق المبين ... » الآيات . أقوال العلماء في رؤية

النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام في صورته ٢٣٩

سورة الأنفطار

تفسير قوله تعالى : « إذا السماء أنفطرت ... » الآيات . من أشرط الساعة أن

تخرج الأرض ذهبها وفضتها ٢٤٢

تفسير قوله تعالى : « يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ... » الآيات . الأقوال

في المراد بالإنسان هنا وسبب غروره ٢٤٣

تفسير قوله تعالى : « وإن عليكم لحافظين ... » الآيات . فيه مسائل : الآثار

الواردة في إكرام الكرام الكاتبين . اختلاف العلماء في الكفار هل عليهم حفظة

أم لا ؟ كيف تعلم الملائكة أن العبد قد هم بحسنة أو سيئة ٢٤٥

تفسير قوله تعالى : « إن الأبرار لفي نعم ... » الآيات ٢٤٧

سورة المطففين

تفسير قوله تعالى : « ويل للمطففين ... » الآيات . فيه مسائل : بيان سبب

النزول . لكل شيء وفاء وتطفيف . أقوال أهل اللغة في مأخذ المطفف .

هل يجوز الوقف على « كالوا » و « وزنوا » أولا ؟ الأحاديث الواردة في شدة

عذاب المطففين ٢٤٨

تفسير قوله تعالى : « كلا إن كتاب الفجار لفي سجين ... » الآيات . الكلام على

معنى « سجين » وموضعه . الأحاديث الواردة في خبث أرواح الكفار ورد أعمالهم ٢٥٤

- تفسير قوله تعالى : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ... » الآيات . بيان
 معنى الرين . في قوله تعالى : « إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » دليل رؤية
 ٢٥٧
 الله عز وجل يوم القيامة
 تفسير قوله تعالى : « كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين ... » الآيات . الكلام على أن
 روح المؤمن إذا قبضت تلقىها الملائكة بالبشرى . « عليون » أسم موضوع
 ٢٦٠
 على صفة الجمع ولا واحد له
 تفسير قوله تعالى : « إن الأبرار لفي نعيم ... » الآيات . بيان معنى « رحيق »
 ٢٦٢
 في الآية و « مختوم »
 تفسير قوله تعالى : « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ... » الآيات .
 ٢٦٥ بيان سبب النزول . إن بين الجنة والنار كوى ينظر منها المؤمن إلى عدوه في النار

سورة الأنشاق

- تفسير قوله تعالى : « إذا السماء أنشقت ... » الآيات . أنشاق السماء من أشرط
 الساعة . أقوال العلماء في جواب « إذا » في الآية . الجمهور على أن قوله :
 ٢٦٧
 « إذا السماء أنشقت » خبر وليس بقسم
 تفسير قوله تعالى : « يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا ... » الآيات .
 الأقوال في المراد بالإنسان ومعنى الكدح في كلام العرب . من نوقش الحساب
 ٢٦٩
 عذب
 تفسير قوله تعالى : « وأما من أوتى كتابه وراء ظهره ... » الآيات . الآية نزلت
 ٢٧٠ في الأسود بن عبد الأسد ثم هي عامة . « يحور » كلمة بالحشية ومعناها يرجع
 تفسير قوله تعالى : « فلا أقسم بالشفق ... » الآيات . « لا » صلة . اختلاف العلماء
 في « الشفق » وهل هو الحمرة أو البياض ؟ معنى الوسق في اللغة وفي الآية .

صفحة

- بيان معنى « لتركبن طبقا عن طبق » . تغير أحوال الإنسان دليل على حدوث العالم وإثبات الصانع . هل قوله تعالى : « وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون » من عزائم السجود أولا ؟ ٢٧٢
- تفسير قوله تعالى : « بل الذين كفروا يكذبون ... » الآيات . بيان سبب النزول . « إلا الذين آمنوا » استثناء منقطع أو هو بمعنى الواو ٢٧٩

سورة البروج

- تفسير قوله تعالى : « والسماء ذات البروج ... » الآيات . الأقوال في معنى « البروج » . اختلاف أهل التأويل في معنى « وشاهد ومشهود » . يشهد المال على صاحبه والأرض بما عمل عليها ٢٨١
- تفسير قوله تعالى : « قتل أصحاب الأخدود ... » الآيات . الكلام على الذين خددوا الأخاديد وقعدوا عليها . قصة الغلام الذي صبر على أذى قومه ولم يرجع عن دينه . في الآية تأنيس للمؤمنين . هل الآية منسوخة أولا ؟ ٢٨٤
- تفسير قوله تعالى : « إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ... » الآيات ٢٩٣
- تفسير قوله تعالى : « هل أتاك حديث الجنود ... » الآيات . في الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم . خص فرعون وثمود لشهرتهما في بلاد العرب ٢٩٥
- تفسير قوله تعالى : « والله من وراءهم محيط ... » الآيات . القرآن به بيان ما بالناس حاجة إليه من أحكام الدين والدنيا . الكلام على اللوح المحفوظ ٢٩٦

آسـتدراك

ورد في الجزء الخامس عشر من هذا التفسير صفحة ٢٥٩ البيت الآتي محرفاً :

الضاريون عميراً عن بيوتهم * بالليل يوم عمير ظالم عادى

وصوابه :

الضارين عميراً عن بيوتهم * بالتل يوم عمير ظالم عادى

والبيت للقطامي وأسمه عمير بن شيم من قصيدة يمدح بها زفر بن الحرث الكلابي ؛ وكان زفر أسره في الحرب ، فن عليه ، ووهب له مائة ناقة ، وردّه إلى قومه . وقد ساق ابن الشجري البيت في كتابه (الأمل) شاهداً على إضافة « يوم » إلى جملة الأبتداء ما

محمد محمد حسنين

المصحح بالقسم الأدبي بدار الكتب المصرية

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

سورة الجن

مكية في قول الجميع . وهي ثمان وعشرون آية

قوله تعالى : قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا
سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۗ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا
أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ أى قل يا محمد لأمتك أوحى الله إلىّ على
لسان جبريل ﴿ أَنَّهُ اسْتَمَعَ ﴾ إلىّ ﴿ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ وما كان عليه السلام عالماً به قبل أن
أوحى إليه . هكذا قال ابن عباس وغيره على ما يأتى . وقرأ ابن أبي عبلة « أُوحى » على الأصل ؛
يقال : أوحى إليه ووحى فقلبت الواو همزة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَإِذَا الرُّسُلُ أُقْتَتِ » وهو
من القلب المطلق جوازه فى كل واو مضمومة . وقد أطلقه المازنى فى المكسورة أيضاً
كإشاح وإسادة و « إِعَاءِ أَخِيهِ » ونحوه .

الثانية - وأختلف هل رآهم النبي صلى الله عليه وسلم أم لا؟ فظاهر القرآن يدل على
أنه لم يرههم ؛ لقوله تعالى : « اسْتَمَعَ » وقوله تعالى : « وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ
الْقُرْآنَ » وفى صحيح مسلم والترمذى عن ابن عباس قال : ماقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) اللفظ لمسلم وأما الترمذى فى لفظه زيادة .

على الجن وما رآهم، أنطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم؛ فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ماذا إلا من شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فأنظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء؟ فأنطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فمز النفر الذين أخذوا نحو تهامة وهو بنخل عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا «إنا سمعنا قرآنا عجبا، يهدي إلى الرشيد فأمانا به ولن نشرك ربنا أحدا» فأنزل الله عز وجل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم «قل أوحى إلي أنه أسمع نفرا من الجن». رواه الترمذي عن ابن عباس قال: قول الجن لقومهم «لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا» قال: لما رآه يصلي وأصحابه يصلون بصلاته فيسجدون بسجوده قال: فعجبوا من طواعة أصحابه له قالوا لقومهم «لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا» قال: هذا حديث حسن صحيح؛ ففي هذا الحديث دليل على أنه عليه السلام لم يرا الجن ولكنهم حضروه وسمعوا قراءته. وفيه دليل على أن الجن كانوا مع الشياطين حين تجسسوا الخبر بسبب الشياطين لما رموا بالشهب. وكان المرميون بالشهب من الجن أيضا. وقيل لهم شياطين كما قال: «شياطين الإنس والجن» فإن الشيطان كل ممتزج وخارج عن طاعة الله. وفي الترمذي عن ابن عباس قال: كان الجن يصعدون إلى السماء يستمعون إلى الوحي فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعا، فاما الكلمة فتكون حقا وأما ما زاد فيكون باطلا، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم منعوا مقاعدهم، فذكروا ذلك لإبليس ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك، فقال لهم إبليس: ما هذا إلا من أمر قد حدث في الأرض! فبعث جنوده فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما يصلي بين جبلين - أراه قال بمكة - فاتوه فأخبروه فقال: هذا الذي حدث في الأرض. قال: هذا حديث حسن صحيح. فدل

هذا الحديث على أن الجن رموا كما رميت الشياطين . وفي رواية السدي : أنهم لما رموا أتوا إبليس فأخبروه بما كان من أمرهم فقال : آيتوني من كل أرض بقبضة من تراب أشمها فاتوه فشم فقال : صاحبكم بمكة . فبعث نفرا من الجن قيل : كانوا سبعة . وقيل : تسعة منهم زوبعة . وروى عاصم عن زر قال : قدم رهط زوبعة وأصحابه على النبي صلى الله عليه وسلم . وقال الثمالي : بلغني أنهم من بني الشيصبان ، وهم أكثر الجن عددا ، وأقوام شوكة ، وهم عامة جنود إبليس . وروى أيضا عاصم عن زر أنهم كانوا سبعة نفر ، ثلاثة من أهل حران وأربعة من أهل نصيبين . وحكى جوير عن الضحاك أنهم كانوا تسعة من أهل نصيبين ، قرية باليمن غير التي بالعراق . وقيل : إن الجن الذين أتوا مكة جن نصيبين ، والذين أتوه نخلة جن ينوي . وقد مضى بيان هذا في سورة «الأحقاف» . قال عكرمة : والسورة التي كان يقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم «أقرأ باسم ربك» وقد مضى في سورة «الأحقاف» التعريف باسم النفر من الجن فلا معنى لإعادة ذلك . وقيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم رأى الجن ليلة الجن وهو أثبت ؛ روى عامر الشعبي قال : سألت علقمة هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن؟ فقال علقمة : أنا سألت ابن مسعود فقلت : هل شهد أحد منكم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن؟ قال : لا ، ولكنا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب ، فقلنا استطير أو أغتيل ، قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما أصبح إذا هو يحيى من قبل حراء ، فقلنا : يا رسول الله ! فقدناك وطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ؛ فقال : "أتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن" فأطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ، وسألوه الزاد وكانوا من جن الجزيرة ؛ فقال : "لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحما وكل بعره علف لدوابكم" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم الجن" قال ابن العربي : وابن مسعود أعرف من ابن عباس ؛ لأنه شاهده وابن عباس سمعه

(١) راجع ج ١٦ ص ٢١١ فابدها .

وليس الخبر كالمعاينة . وقد قيل : إن الجحّ أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم دفعتين إحداهما بمكة وهي التي ذكرها ابن مسعود، والثانية بنخلة وهي التي ذكرها ابن عباس . قال البيهقي : الذي حكاه عبد الله بن عباس إنما هو في أول ما سمعت الجحّ قراءة النبي صلى الله عليه وسلم وعلمت بحاله ، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرحم كما حكاه ، ثم أتاه داعي الجحّ مرة أخرى فذهب معه وقرأ عليهم القرآن كما حكاه عبد الله بن مسعود . قال البيهقي : والأحاديث الصحاح تدل على أن ابن مسعود لم يكن مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجحّ ، وإنما سار معه حين انطلق به وبغيره يريه آثار الجحّ وآثار نيرانهم . قال : وقد روى من غير وجه أنه كان معه ليلئذ ، وقد مضى هذا المعنى في سورة «الأحقاف» والحمد لله . روى عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «أمرت أن أتلو القرآن على الجحّ فمن يذهب معي» فسكتوا ، ثم قال الثانية ، ثم قال الثالثة ، ثم قال عبد الله بن مسعود : أنا أذهب معك يا رسول الله ، فأنطلق حتى جاء المَجُون عند شِعْب أَبِي دُبٍ نَخَطٌ عَلَى خَطِّ فَقَالَ : «لا تجاوزه» ثم مضى إلى المَجُون فأنحدر عليه أمثال المَجَل يحدرون الحجارة بأقدامهم ، يمشون يقرعون في دُفوفهم كما تَقْرَع النَّسُوة في دُفوفها حتى غَشَوْه فلا أراه ، فقامت فأومى إلى بيده أن اجلس ، فتلا القرآن فلم يزل صوته يرتفع ، ولصقوا بالأرض حتى ما أراهم ، فلما أنفتل إلى قال : «أردت أن تأتيني» قلت : نعم يا رسول الله . قال : «ما كان ذلك لك هؤلاء الجحّ أتوا يستمعون القرآن ثم ولّوا إلى قومهم منذرين فسألوني الزاد فزودتهم العظم والبعر فلا يَسْتِطِيبَنَّ أَحَدُكُمْ بَعْظُ وَلَا بَعْرُ» قال عكرمة : وكانوا آثني عشر ألفا من جزيرة الموصل . وفي رواية : أنطلق بي عليه السلام حتى إذا جئنا المسجد الذي عند حائط عوف خط لي خطا ، فأتاه نفر منهم فقال أصحابنا كأنهم رجال الزُطِّ وكان وجوههم المَكَاكِي ، فقالوا : ما أنت؟ قال : «أنا نبي الله» قالوا : فن

(١) شعب أبي دب يقال فيه مدفن آمنة بنت وهب أم النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) الزط : جنس من السودان والهنود .

(٣) المكاكي : جمع مكوك وهو طاس يشرب فيه أعلاه ضيق ووسطه واسع ، وميكال معروف لأهل العراق

بهذه الصفة أيضا . ولعله من باب قول العرب : ضرب مكوك رأسه على التشبيه .

يشهد لك على ذلك؟ قال: "هذه الشجرة" فقال: "يا شجرة" بقاءت تجز عروقها لها
 قعاقع حتى أنتصبت بين يديه، فقال: "على ماذا تشهدين" قالت: أشهد أنك رسول الله .
 فرجعت كما جاءت تجز بعروقها المجارة، لها قعاقع حتى عادت كما كانت . ثم روى أنه عليه
 السلام لما فرغ وضع رأسه على حجر ابن مسعود فرقد ثم أستيقظ فقال: "هل من وضوء"
 قال: لا، إلا أن معي إداوة فيها نبيذ . فقال: "هل هو إلا تمر وماء" فتوضأ منه .
 الثالثة - قدمضى الكلام في الماء في سورة «المجر»^(١) وما يستنجى به في سورة «براءة»^(٢)
 فلا معنى للإعادة .

الرابعة - واختلف أهل العلم، في أصل الجن، فروى إسماعيل عن الحسن البصرى:
 أن الجن ولد إبليس والإنس ولد آدم، ومن هؤلاء وهؤلاء مؤمنون وكافرون، وهم شركاء
 في الثواب والعقاب، فمن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمناً فهو ولي الله، ومن كان من هؤلاء
 وهؤلاء كافراً فهو شيطان . وروى الضحاك عن ابن عباس: أن الجن هم ولد الجنان وليسوا
 بشياطين وهم يؤمنون، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر، والشياطين هم ولد إبليس لا يموتون إلا
 مع إبليس . واختلفوا في دخول مؤمنى الجن الجنة على حسب الاختلاف في أصلهم؛ فمن زعم
 أنهم من الجنان لا من ذرية إبليس قال: يدخلون الجنة بإيمانهم . ومن قال: إنهم من ذرية
 إبليس فلهم فيه قولان: أحدهما - وهو قول الحسن يدخلونها . الثانى - وهو رواية مجاهد
 لا يدخلونها وإن صرفوا عن النار . حكاه الماوردى . وقد مضى في سورة «الرحمن»^(٣) عند قوله
 تعالى: «لَمْ يَطْمِئِنُّنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ» بيان أنهم يدخلونها .

الخامسة - قال البيهقى في روايته: وسأله الزاد وكانوا من جن الجزيرة فقال: "لكم كل
 عظم" دليل على أنهم يأكلون ويأطعمون . وقد أنكر جماعة من كفرة الأطباء والفلاسفة الجن،
 وقالوا: إنهم بسائط ولا يصح طعامهم . أجتراء على الله وأفتراء القرآن والسنة ترد عليهم،

(٢) راجع ج ٨ ص ٢٥٩ فابعدا .

(١) راجع ج ١٠ ص ١٥ فابعدا .

(٣) راجع ج ١٧ ص ١٨١

وليس في المخلوقات بسيط مركب مزدوج إنما الواحد الواحد سبحانه ، وغيره مركب ليس بواحد كيفما تصرف حاله . وليس يمتنع أن يراهم النبي صلى الله عليه وسلم في صورهم كما يرى الملائكة . وأكثر ما يتصوِّرون لنا في صور الحيات ؛ ففي الموطأ أن رجلاً حديث عهد بعرس استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنصاف النهار أن يرجع إلى أهله . الحديث ، وفيه : فإذا حية عظيمة منطوية على الفراش فأهوى إليها بالرحم فانتظمتها . وذكر الحديث . وفي الصحيح أنه عليه السلام قال : ” إن لهذه البيوت عوامر فإذا رأيتم منها شيئاً فخرجوا عليها ثلاثاً فإن ذهب وإلا فآقتلوه فإنه كافر“ وقال : ”أذهبوا فادفنوا صاحبكم^(١)“ وقد مضى هذا المعنى في سورة «البقرة»^(٢) وبيان التحريم عليهن . وقد ذهب قوم إلى أن ذلك مخصوص بالمدينة ؛ لقوله في الصحيح : ” إن بالمدينة جنًّا قد أسلموا“ وهذا لفظ مختص بها فيختص بحكمها . قلنا : هذا يدل على أن غيرها من البيوت مثلها ؛ لأنه لم يعلل بجرمة المدينة فيكون ذلك الحكم مخصوصاً بها ، وإنما علل بالإسلام ، وذلك عام في غيرها ، ألا ترى قوله في الحديث مخبراً عن الجنِّ الذي لقي : وكانوا من جنِّ الجزيرة ؛ وهذا بين يعضده قوله : ” ونهى عن عوامر البيوت“ وهذا عام . وقد مضى في سورة «البقرة» القول في هذا فلا معنى للإعادة .

قوله تعالى : ﴿ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ أي في فصاحة كلامه . وقيل : عجا في بلاغة مواعظه . وقيل : عجا في عظم بركته . وقيل : قرآنا عزيزا لا يوجد مثله . وقيل : يعنون عظيماً . ﴿ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴾ أي إلى مرشد الأمور . وقيل : إلى معرفة الله تعالى . و « يَهْدِي » في موضع الصفة أي هادياً . ﴿ فَأَمَّا بِهِ ﴾ أي فأهتدينا به وصدقنا أنه من عند الله ﴿ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ أي لا نرجع إلى إبليس ولا نطيعه ؛ لأنه الذي كان بعثهم ليأتوه بالخبر ثم رمى الجنِّ بالشهب . وقيل : لا نتخذ مع الله إلهاً آخر ؛ لأنه المتفرد بالربوبية . وفي هذا تعجيب المؤمنين بذهاب مشركي قريش عما أدركته الجنُّ بتدبرها القرآن . وقوله

(١) هذا ينبغي أن يكون قبل الحديث السابق له كما في ابن العربي .

(٢) راجع ج ١ ص ٣١٥ فأبعدها طبعة ثانية .

تعالى : « أَسْمَعُ نَفْرٍ مِّنَ الْجَنِّ » أى آستمعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فعملوا أن ما يقرؤه كلام الله . ولم يذكر المستمع إليه لدلالة الحال عليه . والنفر الرهط ، قال الخليل : ما بين ثلاثة إلى عشرة . وقرأ عيسى الثقفى « يَهْدِي إِلَى الرَّشْدِ » بفتح الراء والشين .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا ۖ كَانَ عَلْقَمَةٌ وَيَجِي وَالْأَعْمَشُ وَحَمْزَةٌ وَالْكَسَائِيُّ وَأَبْنُ عَامِرٍ وَخَلْفٌ وَحَفْصٌ وَالسَّلْمِيُّ يَنْصَبُونَ » أن « فى جميع السورة فى آثنى عشر موضعا وهو « أَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا » « وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ » « وَأَنَا ظَنَّنَا » « وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ » « وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا » « وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ » « وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ » « وَأَنَا لَا نَدْرِي » « وَأَنَا مِنَ الصَّالِحُونَ » « وَأَنَا ظَنَّنَا أَنَّ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ » « وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى » « وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمُونَ » عطفاً على قوله : « أَنَّهُ أَسْمَعُ نَفْرٍ » و « أَنَّهُ أَسْمَعُ » لا يجوز فيه إلا الفتح ؛ لأنها فى موضع اسم فاعل « أَوْحَى » فما بعده معطوف عليه . وقيل : هو محمول على الهاء فى « آمَنَّا بِهِ » أى و ب « أَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا » وجاز ذلك وهو مضممر مجرور لكثرة حرف الجار مع « أن » . وقيل : المعنى أى وصدقنا أنه جد ربنا . وقرأ الباقر كلها بالكسر وهو الصواب ، وأختره أبو عبيدة وأبو حاتم عطفاً على قوله : « فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا » لأنه كله من كلام الجن . وأما أبو جعفر وشيبة فإنهما فتحا ثلاثة مواضع ؛ وهى قوله تعالى : « وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا » « وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ » « وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ » قالوا : لأنه من الوحي وكسرا ما بقى ؛ لأنه من كلام الجن . وأما قوله تعالى : « وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ » فكلهم فتحوا إلا نافعاً وشيبة وزر بن حبيش وأبو بكر والمفضل عن عاصم فإنهم كسروا لا غير . ولا خلاف فى فتح همزة « أَنَّهُ أَسْمَعُ نَفْرٍ مِّنَ الْجَنِّ » « وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا » « وَأَنْ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ » و « أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا » وكذلك لا خلاف فى كسر ما بعد القول ؛ نحو قوله تعالى : « فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا » و « قَالَ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي » و « قُلْ إِنْ أَدْرِي » و « قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ » وكذلك لا خلاف فى كسر ما كان بعد فاء الجزاء ؛ نحو قوله تعالى : « فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ » و « فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ » لأنه موضع ابتداء .

(١) كذا فى الأصل على قراءة نافع . وقراءة حفص « قل » .

قوله تعالى : « جَدُّ رَبَّنَا » الجَدُّ في اللغة العظمة والجلال ؛ ومنه قول أنس : كان الرجل إذا حفظ البقرة وآل عمران جَدُّ في عيوننا . أى عَظُمَ وِجَلٌ ؛ فمعنى « جَدُّ رَبَّنَا » أى عظمته وجلاله ؛ قاله عكرمة ومجاهد وقتادة . وعن مجاهد أيضا : ذِكره . وقال أنس بن مالك والحسن وعكرمة أيضا : غناه . ومنه قيل للحظ جَدُّ ورجل مجدود أى محظوظ ؛ وفي الحديث : «ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدُّ» قال أبو عبيدة والخليل : أى ذا الغنى ، منك الغنى إنما تنفعه الطاعة . وقال ابن عباس : قدرته . الضحاك : فعله . وقال القرظي والضحاك أيضا : آلاؤه ونعمه على خلقه . وقال أبو عبيدة والأخفش : ملكه وسلطانه . وقال السدي : أمره . وقال سعيد بن جبیر : « وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبَّنَا » أى تعالى ربنا . وقيل : إنهم عنوا بذلك الجَدُّ الذى هو أب الأب ويكون هذا من قول الجن . وقال محمد بن علي بن الحسين وأبوه جعفر الصادق والربيع : ليس لله تعالى جَدُّ ، وإنما قالته الجن للجهالة فلم يؤخذوا به . وقال القشيري : ويجوز إطلاق لفظ الجَدُّ في حق الله تعالى ؛ إذ لو لم يجوز لما ذكر في القرآن ، غير أنه لفظ موهم فتجنبه أولى . وقراءة عكرمة « جَدُّ » بكسر الجيم على ضد الهزل . وكذلك قرأ أبو حيوة ومحمد بن السَّمِيع . ويروى عن ابن السَّمِيع أيضا وأبي الأشهب « جَدَّا رَبَّنَا » وهو الجدوى والمنفعة . وقرأ عكرمة أيضا « جَدَّا » بالتنوين « رَبَّنَا » بالرفع على أنه مرفوع بـ « تعالى » و « جَدَّا » منصوب على التمييز . وعن عكرمة أيضا « جَدُّ » بالتنوين والرفع « رَبَّنَا » بالرفع على تقدير : تعالى جَدُّ جَدُّ رَبَّنَا ، بفتح الثانى بدل من الأقرول وحذف وأقيم المضاف إليه مقامه . ومعنى الآية ؛ وأنه تعالى جلال ربنا أن يتخذ صاحبة وولدا للاستئناس بهما والحاجة إليهما ، والرب يتعالى عن ذلك كما يتعالى عن الأنداد والنظراء .

قوله تعالى : وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَا ظَنُّنَا أَن لَّنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَأَلْجُنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴾ الهاء في « أنه » للامر أو الحديث ، وفي « كان » اسمها وما بعدها الخبر . ويجوز أن تكون « كان » زائدة . والسفيه هنا إبليس في قول مجاهد وابن جريح وقتادة . ورواه أبو بردة بن أبي موسى عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : المشركون من الجن ؛ قال قتادة : عصاه سفيه الجن كما عصاه سفيه الإنس . والشطط والاشتطاط الغلو في الكفر . وقال أبو مالك : هو الجور . الكلي : هو الكذب . وأصله البعد فيعبر به عن الجور لبعده عن العدل ، وعن الكذب لبعده عن الصدق ؛ قال الشاعر :

بأية حال حكّموا فيك فاشتطوا * وما ذاك إلا حيث يممك^(١) الوخط

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا ظَنَنَّآ ﴾ أي حسبنا ﴿ أَنَّ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ فلذلك صدقناهم في أن الله صاحبة وولدا حتى سمعنا القرآن وتبيننا به الحق . وقرأ يعقوب والمجدي وابن أبي إسحق « أَنَّ لَنْ تَقُولَ^(٢) » . وقيل : أنقطع الإخبار عن الجن ها هنا فقال الله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ ﴾ فمن فتح وجعله من قول الجن ردها إلى قوله : « أَنَّهُ أَسْمَعُ » ومن كسر جعلها مبتدأ من قول الله تعالى . والمراد به ما كانوا يفعلونه من قول الرجل إذا نزل بوادٍ : أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه ؛ فببيت في جواره حتى يصبح ؛ قاله الحسن وابن زيد وغيرهما . قال مقاتل : كان أول من تعوذ بالجن قوم من أهل اليمن ، ثم من بني حنيفة ، ثم فشا ذلك في العرب ، فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم . وقال كردم بن أبي السائب : خرجت مع أبي إلى المدينة أول ما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ، فأوانا المبيت إلى راعي غنم ، فلما أنتصف الليل جاء الذئب فحمل حملاً من الغنم ، فقال الراعي : يا عامر الوادي [أنا] جارك . فنادى منادٍ يأسرحان أرسله ، فأتى الحمل^(٣) يشند^(٤) . وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ

(١) يممك فصدك . والوخط الطعن بالرمح ، ومن معانيه أيضا الشيب .

(٢) قال الأوسى : « تَقَوْلَ » أصله تنقول بناءين فحذفت إحداهما ، فكذبا مصدر مؤكد لأن الكذب هو التقول .

(٣) الزيادة من الدرالمشور للسيوطي . (٤) يشند : يعدو .

الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿١٠﴾ أى زاد الجنُّ الإنسَ «رَهَقًا» أى خَطِيئَةً وإثماً؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة . والرَهَقُ الإِثْمُ فى كلام العرب وغَشِيَانُ المحارم ؛ ورجلٌ رَهَقٌ إذا كان كذلك . ومنه قوله تعالى : « وَتَرَهَّقَهُمْ ذِلَّةٌ ۗ » وقال الأعشى :

لا شىءَ ينفعنى من دونِ رؤيتِها * هل يَشْتَفِى وامِقٌ ما لم يُصَبِ رَهَقًا

يعنى إثماً، وأضيفت الزيادة إلى الجنِّ إذ كانوا سبباً لها . وقال مجاهد أيضاً : « فزادوهم » أى إن الإنس زادوا الجنَّ طغياناً بهذا التعمُّد، حتى قالت الجنُّ سدنا الإنس والجنُّ . وقال قتادة أيضاً وأبو العالية والربيع وابن زيد : أزداد الإنس بهذا فرقاً وخوفاً من الجنِّ . وقال سعيد بن جبير : كفرا . ولا خفاء أن الاستعاذة بالجنِّ دون الاستعاذة بالله كفر وشرك . وقيل : لا يطلق لفظ الرجال على الجنِّ ؛ فالمعنى : وأنه كان رجال من الإنس يعوذون من شر الجنِّ برجال من الإنس، وكان الرجل من الإنس يقول مثلاً : أعوذ بحذيفة بن بدر من جنِّ هذا الوادى . قال القشيري : وفى هذا تحمُّك إذ لا يبعد إطلاق لفظ الرجال على الجنِّ .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴾ هذا من قول الله تعالى للإنس ، أى وأن الجنَّ ظنوا أن لن يبعث الله الخلق كما ظننتم . الكاى : المعنى ظنت الجنُّ كما ظنت الإنس أن لن يبعث الله رسولا إلى خلقه يقيم به الحجَّة عليهم . وكل هذا توكيد للحجَّة على قريش ؛ أى إذا آمن هؤلاء الجنُّ بمحمد فأنتم أحق بذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ۗ ﴾ ﴿١٠﴾ وَأَنَا كَمَا نَقَعْدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ ﴾ هذا من قول الجنِّ أى طلبنا خبرها كما جرت عادتنا ﴿ فَوَجَدْنَاهَا ﴾ قد ﴿ مُلْتَأَتْ حَرَسًا شَدِيدًا ﴾ أى حَفَظَةٌ يعنى الملائكة والحرس جمع حارس

(وَشُهَبًا) جمع شهاب وهو أنقضاض الكواكب المحرقة لهم عن استراق السمع . وقد مضى القول فيه في سورة « الحجر »^(١) « والصفات »^(٢) و « وجد » يجوز أن يقدر متعديا إلى مفعولين فالأول الهاء والألف ، و « مُلِئْتُ » في موضع المفعول الثاني . ويجوز أن يتعدى إلى مفعول واحد ويكون « مُلِئْتُ » في موضع الحال على إضمار قد و « حَرَسًا » نصب على المفعول الثاني بـ « مُلِئْتُ » و « شديدا » من نعت الحرس أى ملئت ملائكة شدادا . ووحد الشديد على لفظ الحرس ؛ وهو كما يقال : السلف الصالح بمعنى الصالحين ، وجمع السلف أسلاف وجمع الحرس أحراس ؛ قال :

« تجاوزتُ أحراسًا وأهوالَ معشِرٍ »

ويجوز أن يكون « حَرَسًا » مصدرا على معنى حُرست حراسة شديدة .

قوله تعالى : (وَأَنَا كَأَنَّكَ تَقَعُدُّ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا) « منها » أى من السماء و « مَقَاعِدَ » مواضع يقعد في مثلها لاستماع الأخبار من السماء ؛ يعنى أن مرده الجن كانوا يفعلون ذلك ليستمعوا من الملائكة أخبار السماء حتى يلقوها إلى الكهنة على ما تقدم بيانه ، فحرسها الله تعالى حين بعث رسوله بالشهب المحرقة ، فقالت الجن حينئذ : « فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا » يعنى بالشهاب الكواكب المحرقة ؛ وقد تقدم بيان ذلك . ويقال : لم يكن أنقضاض الكواكب إلا بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وهو آية من آياته . وأختلف السلف هل كانت الشياطين تُقذَف قبل المبعث ، أو كان ذلك أمرا حدث لمبعث النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقال الكلبي : وقال قوم لم تكن تحرس السماء في الفترة بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما وسلامه خمسمائة عام ، وإنما كان من أجل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها وحرست بالملائكة والشهب .

(١) راجع ج ١٠ ص ١٠ فا بعدها . (٢) راجع ج ١٥ ص ٦٦ فا بعدها .

(٣) هو أمرؤ القيس و يروى : * تجاوزت أحراسا إليها ومعشرا * وتام البيت وهو من معلقته :

* على حراسا لو يثرون . قنلى *

قلت : ورواه عطية العوفي عن ابن عباس ؛ ذكره البيهقي . وقال عبد الله بن عمر : لما كان اليوم الذي نُبئ رسول الله صلى الله عليه وسلم مُنعت الشياطين ورُموا بالشُّهب . وقال عبد الملك بن سَابور : لم تكن السماء تحرس في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، فلما بُعث محمد صلى الله عليه وسلم حُرست السماء ، ورُميت الشياطين بالشُّهب ، ومُنعت عن الدنو من السماء . وقال نافع بن جبیر : كانت الشياطين في الفترة تسمع فلا تُرمى ، فلما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رُميت بالشُّهب . ونحوه عن أبي بن كعب قال : لم يُرمَ بنجم منذ رُفِع عيسى حتى نُبئ رسول الله صلى الله عليه وسلم فرُمي بها . وقيل : كان ذلك قبل المبعث ، وإنما زادت بمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إنذارا بحاله ؛ وهو معنى توله تعالى : « مُلئت » أي زيد في حرسها ؛ وقال أوس بن حجر وهو جاهلي :

فَأَنْقَضَ كَالدَّرِيِّ يَتَّبِعُهُ * نَقَعَ يَشُورُ تَخَالَهُ طُنْبًا

وهذا قول الأكثرين . وقد أذكر الجاحظ هذا البيت وقال : كل شعر روى فيه فهو مصنوع ، وأن الرمي لم يكن قبل المبعث . والقول بالرمي أصح ؛ لقوله تعالى : « فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا » . وهذا إخبار عن الجن ، أنه زيد في حرس السماء حتى امتلات منها ومنهم ؛ ولما روى عن ابن عباس قال : بينما النبي صلى الله عليه وسلم جالس في نفر من أصحابه إذ رمي بنجم فقال : « ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية » قالوا : كنا نقول يموت عظيم أو يولد عظيم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنها لا تُرمى لموت أحد ولا لحياته ولكن ربنا سبحانه وتعالى إذا قضى أمرا في السماء سبَّح حملة العرش ثم سبَّح أهل كل سماء حتى ينتهي التسبيح إلى هذه السماء ويستخبر أهل السماء حملة العرش ماذا قال ربكم فيخبرونهم ويخبر أهل كل سماء حتى ينتهي الخبر إلى هذه فتتخطف الجن فيرمون فما جاءوا به فهو حق ولكنهم يزيدون فيه » وهذا يدل على أن الرجم كان قبل المبعث . وروى الزهري نحوه عن علي بن الحسين عن علي بن أبي طالب عن ابن عباس . وفي آخره قيل للزهري : أكان يُرمى في الجاهلية؟ قال : نعم . قلت : أفرايت قوله سبحانه « وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ

مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلْسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَصَدًا» قال : غُلِظَتْ وَشُدَّتْ أَمْرُهَا حِينَ بُعِثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . ونحوه قال القتيبي . قال ابن قتيبة : كان ولكن أشتدت الحراسة بعد المبعث ، وكانوا من قبل يسترقون ويُرمون في بعض الأحوال ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم مُنعت من ذلك أصلا . وقد تقدم بيان هذا في سورة « والصفات » عند قوله : « وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ . دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ » قال الحافظ : فلو قال قائل كيف نتعرض الجن لإحراق نفسها بسبب آستماع خبر بعد أن صار ذلك معلوما لهم ؟ فالجواب أن الله تعالى ينسيهم ذلك حتى تعظم المحنة ، كما ينسى إبليس في كل وقت أنه لا يسلم ، وأن الله تعالى قال له : « وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ » ولولا هذا لما تحقق التكليف . والرصد قيل من الملائكة ؛ أى ورصدا من الملائكة . والرصد الحافظ للشيء والجمع أرصاد ، وفي غير هذا الموضع يجوز أن يكون جمعا كالحرس والواحد راصد . وقيل : الرصد هو الشهاب أى شهابا قد أرصد له ليرجم به ؛ فهو فَعَلٌ بمعنى مفعول كالتحبط والنفض .

قوله تعالى : « وَأَنَا لَأَنْدَرِي أَشْرًا رِيدَ بَيْنَ فِي الْأَرْضِ » أى هذا الحرس الذى حرست بهم السماء (أم أراد بهم ربههم رَشَدًا) أى خيرا . قال ابن زيد : قال إبليس لا ندرى هل أراد الله بهذا المنع أن ينزل على أهل الأرض عذابا أو يرسل إليهم رسولا . وقيل : هو من قول الجن فيما بينهم قبل أن يسمعوا قراءة النبي صلى الله عليه وسلم . أى لا ندرى أَشْرًا رِيدَ بَيْنَ فِي الْأَرْضِ بإرسال محمد إليهم ، فإنهم يكذبونه ويهلكون بتكذيبه كما هلك من كذب من الأمم ، أم أراد أن يؤمنوا فيهدوا ؛ فالشر والرشد على هذا الكفر والإيمان ؛ وعلى هذا كان عندهم علم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، ولما سمعوا قراءته علموا أنهم منعوا من السماء حراسة للوحى . وقيل : لا ؛ بل هذا قول قالوه لقومهم بعد أن أنصرفوا إليهم منذرين ؛ أى لما آمنوا أشفقوا ألا يؤمن كثير من أهل الأرض فقالوا : إنا لا ندرى أيكفر أهل الأرض بما آمننا به أو يؤمنون .

قوله تعالى : **وَإِنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا** ﴿١١﴾ **وَإِنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا** ﴿١٢﴾

قوله تعالى : **(وَإِنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ)** هذا من قول الجن ؛ أى قال بعضهم لبعض لما دعوا أصحابهم إلى الإيمان بحمد صلى الله عليه وسلم ، وإنا كنا قبل آستماع القرآن منا الصالحون ومنا الكافرون . وقيل : **« وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ »** أى ومن دون الصالحين فى الصلاح ، وهو أشبه من حمله على الإيمان والشرك . **(كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا)** أى فرقا شتى ؛ قاله السدى . الضحاك : أديانا مختلفة . قتادة : أهواء متباينة ، ومنه قول الشاعر :

القَائِضُ الْبَاسِطُ الْهَادِي بِطَاعَتِهِ * فِي فِتْنَةِ النَّاسِ إِذْ أَهْوَأُوهُمْ قِدْدُ

والمعنى : أى لم يكن كل الجن كفارا بل كانوا مختلفين ، منهم كفار ومنهم مؤمنون صلحاء ، ومنهم مؤمنون غير صلحاء . وقال المسيب : كنا مسلمين ويهود ونضارى ومجوس . وقال السدى فى قوله تعالى : **« طَرَائِقَ قِدْدًا »** قال : فى الجن مثلكم قدرية ومرجئة وخوارج ورافضة وشيعة وسنية . وقال قوم : أى وأنا بعد آستماع القرآن مختلفون منا المؤمنون ومنا الكافرون . أى ومنا الصالحون ومنا مؤمنون لم يتناهوا فى الصلاح . والأقول أحسن ؛ لأنه كان فى الجن من آمن بموسى وعيسى وقد أخبر الله عنهم أنهم قالوا : **« إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ »** وهذا يدل على إيمان قوم منهم بالتوراة ، وكان هذا مبالغة منهم فى دعاء من دعوهم إلى الإيمان . وأيضا لا فائدة فى قولهم : نحن الآن منقسمون إلى مؤمن وإلى كافر . والطرائق جمع الطريقة وهى مذهب الرجل ؛ أى كنا فرقا مختلفة . ويقال : القوم طرائق أى على مذاهب شتى . والقِدْدُ نحو من الطرائق وهو توكيد لها واحدا قِدَّة . يقال : لكل طريق قِدَّة وأصلها من قَدَّ السيور وهو قطعها ؛ قال لبيد يرثى أخاه أَرَبَدَ :

لم تَبْلُغِ العَيْنُ كُلَّ نَهْمَتِهَا * لَيْلَةَ تُمَسِّي الجِيَادُ كَالْقَدَدِ^(١)

وقال آخر :

وَلَقَدْ قُلْتُ وَزَيْدٌ حَاسِرٌ * يَوْمَ وَلَّتْ خَيْلُ عَمْرٍو قَدَدًا

والقَد بالكسر سير يُقَد من جلد غير مدبوغ ؛ ويقال : ماله قَدٌ ولا خِفْ فالقَدُ إناء من جلد والقحف من خشب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنَّ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ ﴾ الظن هنا بمعنى العلم واليقين وهو خلاف الظن في قوله تعالى : « وَأَنَا ظَنَنَّا أَنَّ لَنْ تَقُولَ » « وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا » أى علمنا بالاستدلال والتفكر في آيات الله أنا في قبضته وسلطانه لن نفوته بهرب ولا غيره . و (هَرَبًا) مصدر في موضع الحال أى هارين .

قوله تعالى : وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ؕ آمَنَّا بِهِ ؕ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ ؕ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْقَاسِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأَوْلِيكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الْقَاسِمُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ﴾ يعنى القرآن ﴿ آمَنَّا بِهِ ﴾ وبالله وصدقنا محمدا صلى الله عليه وسلم على رسالته . وكان صلى الله عليه وسلم مبعوثا إلى الإنس والجن . قال الحسن : بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم إلى الإنس والجن ، ولم يبعث الله تعالى قط رسولا من الجن ولا من أهل البادية ولا من النساء ؛ وذلك قوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ » وقد تقدم هذا المعنى . وفى الصحيح : « وبعثت إلى الأحمر والأسود »

(١) يقول : لم تبلغ العين من البكاء على أربد كل ما تريد فى هذه الليلة التى فيها الخيل كالقدد من شدة السير

والإنعاب . (٢) راجع ج ٩ ص ٢٧٤

أى الإنسان والجن . (فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا) قال ابن عباس : لا يخاف أن ينقص من حسناته ولا أن يزداد في سيئاته ؛ لأن البخس النقصان والرهق العدوان وغشيان المحارم ؛ قال الأعشى :

لَا شَيْءَ يَنْفَعُنِي مِنْ دُونِ رُؤْيَيْهَا * هَلْ يَشْتَفِي وَامِقٌ مَا لَمْ يُصِبْ رَهَقًا

الوامق المحب ؛ وقد ومقه يمهقه بالكسر أى أحبه فهو وامق . وهذا قول حكاه الله تعالى عن الجن ؛ لقوة إيمانهم وصحة إسلامهم . وقراءة العامة « فَلَا يَخَافُ » رفعا على تقدير فإنه لا يخاف . وقرأ الأعمش ويحيى وإبراهيم « فَلَا يَخْفُ » جزما على جواب الشرط وإلغاء الفاء .

قوله تعالى : (وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْقَاسِطِينَ) أى وأنا بعد آستماع القرآن مختلفون فمننا من أسلم ومننا من كفر . والقاسط الجائر ؛ لأنه عادل عن الحق والمقسط العادل ؛ لأنه عادل إلى الحق ؛ [يقال :] قسط أى جار وأقسط إذا عدل ؛ قال الشاعر :

قَوْمٌ هُمْ قَتَلُوا ابْنَ هِنْدٍ عَنُوءَ * عَمْرًا وَهُمْ قَسَطُوا عَلَى النَّعْمَانِ

(فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا) أى قصدوا طريق الحق وتوخوه ومنه تحزى القبلة (وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ) أى الجائرون عن طريق الحق والإيمان (فَكَانُوا لِيَجَهَنَّمَ حَطَبًا) أى وقودا . وقوله : « فَكَانُوا » أى فى علم الله تعالى .

قوله تعالى : (وَاللَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا)

لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا)

قوله تعالى : (وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ) هذا من قول الله تعالى . أى لو آمن من هؤلاء الكفار لو سعنا عليهم فى الدنيا وبسطنا لهم فى الرزق . وهذا محمول على الوحي ؛ أى أوحى إلى أن لو استقاموا . ذكر ابن بحر : كل ما فى هذه السورة من « إن » المكسورة المنقلة فهى حكاية لقول الجن الذين آستموا القرآن فرجعوا إلى قومهم منذرين ، وكل ما فيها من

أن المفتوحة المخففة فهي وحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال ابن الأنباري : ومن كسر الحروف وفتح « وَأَنَّ لَوْ أَسْتَقَامُوا » أضمر يمينا تاما تأويلها : والله أن لو استقاموا على الطريقة ؛ كما يقال في الكلام : والله أن قمت لقمتُ والله لو قمت قمتُ ؛ قال الشاعر :

أَمَا وَاللَّهِ أَنَّ لَوْ كُنْتَ حُرًّا • وَمَا بِالْحُرِّ أَنْتَ وَلَا الْعَبِيْقُ

ومن فتح ما قبل المخففة نسقها - أعني الخفيفة - على « أَوْحَى إِلَى أَنَّهُ » « وَأَنَّ لَوْ أَسْتَقَامُوا » أو على « آمَنَّا بِهِ » وبأن لو استقاموا . ويجوز لمن كسر الحروف كلها إلى « أن » المخففة أن يعطف المخففة على « أَوْحَى إِلَى » أو على « آمَنَّا بِهِ » ويستغنى عن إضمار اليمين . وقراءة العامة بكسر الواو من « لَوْ » لالتقاء الساكنين . وقرأ ابن وثاب والأعمش بضم الواو . و (مَاءً غَدَقًا) أى وإسعا كثيرا، وكانوا قد حبس عنهم المطر سبع سنين ؛ يقال : غَدَقْتُ الْعَيْنُ تَغْدَقُ فَهِيَ غَدِيقَةٌ إِذَا كَثُرَ مَائُهَا . وقيل : المراد الخلق كلهم أى « لَوْ أَسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ » طريقة الحق والإيمان والهدى وكانوا مؤمنين مطيعين « لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا » أى كثيرا (لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ) أى لنختبرهم كيف شكرهم فيه على تلك النعم . وقال عمر في هذه الآية : أينما كان الماء كان المال وأينما كان المال كانت الفتنة . فمعنى « لَأَسْقِينَهُمْ » لوسعنا عليهم في الدنيا، وضرب الماء الغدق الكثير لذلك مثلا ؛ لأن الخير والرزق كله بالمطر يكون فأقيم مقامه ؛ كقوله تعالى : « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » وقوله تعالى : « وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجَائِهِمْ » أى بالمطر . والله أعلم . وقال سعيد بن المسيب وعطاء بن أبي رباح والضحاك وقتادة ومقاتل وعطية وعبيد بن عمير والحسن : كان والله أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين ، ففتحت عليهم كنوز كسرى وقيصر والمقوقس والنجاشي ففتنوا بها ، فوثبوا على إمامهم فقتلوه . يعنى عثمان بن عفان . وقال الكلبي وغيره : « وَأَنَّ

(١) وفي حاشية الحمل نقلا عن القرطبي « قال ابن الأنباري : ومن قرأ بالكسر فيما تقدم وفتح « وَأَنَّ لَوْ أَسْتَقَامُوا »

أضمر قسما تقديره : والله « أن لو استقاموا على الطريقة ، أو عطفه على « أنه استمع » أو على « آمنا به » وعلى هذا يكون جميع ما تقدم معترضا بين المعطوف والمعطوف عليه » .

لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ « التي هم عليها من الكفر فكانوا كلهم كفارا لوسعنا أرزاقهم مكرها بهم وأستدراجا لهم ، حتى يفتنوا بها فنعذبهم بها في الدنيا والآخرة . وهذا قول قاله الربيع ابن أنس وزيد بن أسلم وأبنة والكلبي والثمالى ويمان بن رباب وابن كيسان وأبو مجلز ؛ وأستدلوا بقوله تعالى : « فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ » الآية ؛ وقوله تعالى : « وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالزَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ » الآية ؛ والأول أشبه ؛ لأن الطريقة معروفة بالألف واللام فالأوجب أن تكون طريقته طريقة الهدى ؛ ولأن الاستقامة لا تكون إلا مع الهدى . وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا » قالوا : وما زهرة الدنيا؟ قال : « بركات الأرض » وذكر الحديث . وقال عليه السلام : « فوالله ما الفقر أخشى عليكم وإنما أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا [كما بسطت على من قبلكم] فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم » .

قوله تعالى : « وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ » يعنى القرآن ؛ قاله ابن زيد . وفي إعراضه عنه وجهان : أحدهما عن القبول إن قيل إنها في أهل الكفر . الثانى عن العمل إن قيل إنها في المؤمنين . وقيل : « وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ » أى لم يشكر نعمه (يَسْلُكُهُ عَذَابًا صَعَدًا) قرأ الكوفيون وعياش عن أبي عمرو « يَسْلُكُهُ » بالياء وأختره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لذكر اسم الله أولا فقال : « وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ » . الباقون « نَسْلُكُهُ » بالنون . وروى عن مسلم بن جندب ضم النون وكسر اللام . وكذلك قرأ طلحة والأعرج وهما لغتان سلكه وأسلكه بمعنى أى ندخله . « عَذَابًا صَعَدًا » أى شاقا شديدا . قال ابن عباس : هو جبل في جهنم كلما جعلوا أيديهم عليه ذابت . وعن ابن عباس : أن المعنى مشقة من العذاب . وذلك معلوم فى اللغة أن الصعد المشقة ، تقول : تصعدنى الأمر إذا شق عليك ؛ ومنه قول عمر : ما تصعدنى شيء ما تصعدتنى خطبة النكاح . أى ما شق على .

(١) الزيادة من صحيح الترمذى .

وعذاب صَعَدُ أي شديد . والصَّعَد مصدر صَعِدَ ؛ يقال : صَعِدَ صَعَدًا وصُعُودًا فوصف به العذاب ؛ لأنه يتصعد المعذب أي يعلوه ويغلبه فلا يطيقه . وقال أبو عبيدة : الصَّعَد مصدر أي عذابا ذا صَعَدٍ ، والمشى في الصَّعُود يشق . والصَّعُود العقبة الكؤود . وقال عكرمة : هو صحرة ملساء في جهنم يُكَلَّفُ صعودها فإذا انتهى إلى أعلاها حُدِرَ إلى جهنم . وقال الكلبي : يكلف الوليد بن المغيرة أن يصعد جبلا في النار من صحرة ملساء ، يجذب من أمامه بسلاسل ، ويضرب من خلفه بمقامع حتى يبلغ أعلاها ، ولا يبلغ في أربعين سنة ، فإذا بلغ أعلاها أُحْدِرَ إلى أسفلها ، ثم يكلف أيضا صعودها ، فذلك دأبه أبدا ، وهو قوله تعالى : « سَأْرِهْقُهُ صَعُودًا » .

قوله تعالى : **وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** ﴿١٨﴾

فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : **(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ)** « أَنْ » بالفتح قيل : هو مردود إلى قوله تعالى : « قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ » أي قل أوحى إليّ أن المساجد لله . وقال الخليل : أي ولأن المساجد لله . والمراد البيوت التي تبنيتها أهل الملل للعبادة . وقال سعيد بن جبیر : قالت الجن كيف لنا أن نأتى المساجد ونشهد معك الصلاة ونحن ناءون عنك ؟ فنزلت « وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ » أي بنيت لذكر الله وطاعته . وقال الحسن : أراد بها كل البقاع ؛ لأن الأرض كلها مسجد للنبي صلى الله عليه وسلم ، يقول : « أينما كنتم فصلوا » « فأينما صليتم فهو مسجد » وفي الصحيح : « وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا » . وقال سعيد بن المسيّب وطأنق ابن حبيب : أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها العبد ، وهي القدمان والركبتان واليدين والوجه ؛ يقول : هذه الأعضاء أنعم الله بها عليك فلا تسجد لغيره بها فتجحد نعمة الله . قال عطاء : مساجدك أعضاؤك التي أمرت أن تسجد عليها لا تذللها لغير خالقها . وفي الصحيح عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أمرت أن أسجد على سبعة أعظم الجبهة - وأشار بيده إلى أنفه - واليدين والركبتين وأطراف القدمين » . وقال العباس قال النبي .

صلى الله عليه وسلم : ” إذا سجد العبد سجد معه سبعة آراب^(١) ” . وقيل : المساجد هي الصلوات : أى لأن السجود لله . قاله الحسن أيضا ؛ فإن جعلت المساجد المواضع فواحدتها مسجدا بكسر الجيم ، ويقال بالفتح ؛ حكاة الفراء . وإن جعلتها الأعضاء فواحدتها مسجدا بفتح الجيم . وقيل : هو جمع مسجدا وهو السجود ، يقال : سجدت سجودا ومسجدا ؛ كما تقول : ضربت فى الأرض ضربا ومضربا بالفتح إذا سرت فى ابتغاء الرزق . وقال ابن عباس : المساجد هنا مكة التى هى القبلة وسميت مكة المساجد ؛ لأن كل أحد يسجد إليها . والقول الأقول أظهر هذه الأقوال إن شاء الله ، وهو مروى عن ابن عباس رحمه الله .

الثانية — قوله تعالى : « لِّلّهِ » إضافة تشريف وتكريم ، ثم خص بالذكر منها البيت العتيق فقال : « وَظَهَرَ بَيْتِي » وقال عليه السلام : ” لا تُعَمَلُ الْمَطِيَّ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ ” الحديث خرجه الأئمة . وقد مضى الكلام فيه . وقال عليه السلام : ” صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ” قال ابن العربى : وقد روى من طريق لا بأس بها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ” صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام فإن صلاة فيه خير من مائة صلاة فى مسجدى ” ولو صح هذا لكان نصا .

قلت : هو صحيح بنقل العدل عن العدل حسب ما بيناه فى سورة « إبراهيم »^(٣) .

الثالثة — المساجد وإن كانت لله ملكا وتشريفا فإنها قد تنسب إلى غيره تعريفا فيقال : مسجد فلان . وفى صحيح الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم سابق بين الخليل التى أضمرت من الحيفاء وأمدتها ثنية الوداع ، وسابق بين الخليل التى لم تضمر من الثنية إلى مسجد بنى زريق . وتكون هذه الإضافة بحكم المحلية كأنها فى قبلتهم ، وقد تكون بتحييسهم ، ولا خلاف بين الأمة فى تحييس المساجد والقناطر والمقابر وإن اختلفوا فى تحييس غير ذلك .

(١) آراب : أعضاء واحدتها « إرب » بالكسر والسكون .

(٢) راجع ج ١٠ ص ٢١١ والرواية المشهورة فى الصحاح ” لا تشد الرحال ” كما مر للقرطبي .

(٣) راجع ج ٩ ص ٣٧١ فابعدا .

الرابعة - مع أن المساجد لله لا يذكر فيها إلا الله فإنه تجوز القسمة فيها للأموال .
ويجوز وضع الصدقات فيها على رسم الأشتراك بين المساكين وكل من جاء أكل . ويجوز
حبس الغريم فيها ، وربط الأسير والنوم فيها ، وسكنى المريض فيها ، وفتح الباب للجار إليها ،
وإنشاد الشعر فيها إذا عيرى عن الباطل . وقد مضى هذا كله مبينا في سورة « براءة »^(١) .
« والنور »^(٢) وغيرهما .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ هذا توبيخ للمشركين في دعائهم
مع الله غيره في المسجد الحرام . وقال مجاهد : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كتائبهم
وبيعهم أشركوا بالله ، فأمر الله نبيه والمؤمنين أن يخلصوا لله الدعوة إذا دخلوا المساجد كلها .
يقول : فلا تشركوا فيها صنما وغيره مما يعبد . وقيل : المعنى أفردوا المساجد لذكر الله ،
ولا تتخذوها هزوا ومتجرا ومجلسا ، ولا طرقا ، ولا تجعلوا لغير الله فيها نصيبا . وفي الصحيح :
« من نشد ضالة في المسجد فقولوا لا ردها الله عليك فإن المساجد لم تُبن لهذا » وقد مضى
في سورة « النور » ما فيه كفاية من أحكام المساجد والحمد لله .

السادسة - روى الضحاك عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم : كان إذا
دخل المسجد قدم رجله اليمنى . وقال : « وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا » اللهم
أنا عبدك وزائرک وعلى كل مزور حق وأنت خير مزور فأسألك برحمتك أن تفك رقبتى من النار
فإذا خرج من المسجد قدم رجله اليسرى ؛ وقال : « اللهم صب على الخير صبا ولا تنزع عني
صالح ما أعطيتني أبدا ولا تجعل معيشتي كذا وأجعل لى فى الأرض جدا » أى غنى .

قوله تعالى : **وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ
عَلَيْهِ لِبَدًا ۝ ١٩ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ۝ ٢٠
قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝ ٢١**

(١) راجع ج ٨ ص ١٠٤ فابدها . (٢) راجع ج ١٢ ص ٢٦٥ فابدها .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ يجوز الفتح أى أوحى الله إليه أنه . ويجوز الكسر على الاستئناف . و « عبد الله » هنا محمد صلى الله عليه وسلم حين كان يصلى ببطن نخلة ويقرأ القرآن ، حسب ما تقدم أول السورة . ﴿ يَدْعُوهُ ﴾ أى يعبده . وقال ابن جريج : « يَدْعُوهُ » أى قام إليهم داعيا إلى الله تعالى . ﴿ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ قال الزبير بن العوام : هم الجن حين أستمعوا القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم . أى كاد يركب بعضهم بعضا أزدحاما ويسقطون حرصا على سماع القرآن . وقيل : كادوا يركبونه حرصا ؛ قاله الضحاك . ابن عباس : رغبة فى سماع الذكر . وروى برد عن مكحول : إن الجن بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الليلة وكانوا سبعين ألفا ، وفرغوا من بيعته عند أنشاق الفجر . وعن ابن عباس أيضا : إن هذا من قول الجن لما رجعوا إلى قومهم أخبروهم بما رأوا من طاعة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأتمامهم به فى الركوع والسجود . وقيل : المعنى كاد المشركون يركب بعضهم بعضا حرصا على النبي صلى الله عليه وسلم . وقال الحسن وقتادة وابن زيد : يعنى « لما قام عبد الله » مجد بالدعوة تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه وأبى الله إلا أن ينصره ويتم نوره . وأختار الطبرى أن يكون المعنى : كادت العرب يجتمعون على النبي صلى الله عليه وسلم ويتظاهرون على إطفاء النور الذى جاء به . وقال مجاهد : قوله « لِبَدًا » جماعات وهو من تلبد الشيء على الشيء أى تجمع ، ومنه اللبد الذى يفرش لتراتم صوفه ، وكل شيء ألصقته إصاقا شديدا فقد لبدته ، وجمع البدة لبدة مثل قربة وقرب . ويقال للشعر الذى على ظهر الأسد لبدة وجمعها لبدة ؛ قال زهير :

لدى أسيد شاكي السلاح مُقَدِّفٍ * له لبدة أظفاره لم تُقَلِّمِ

ويقال للجراد الكثير لبدة . وفيه أربع لغات وقراءات ؛ فتح الباء وكسر اللام ، وهى قراءة العامة . وضم اللام وفتح الباء ، وهى قراءة مجاهد وابن محيصن وهشام عن أهل الشام واحدها لبدة . وبضم اللام والباء ، وهى قراءة أبى حنيفة ومحمد بن السميع وأبى الأشهب العقيلي

والمجْدري واحدها لَبْدٌ مثل سَقْفٍ وَسُقْفٍ وَرَهْنٌ وَرُهْنٌ . وبضم اللام وشد الباء وفتحها ،
وهي قراءة الحسن وأبي العالبة والأعرج والمجْدري أيضا واحدها لايد مثل راكع ورُكع
وساجد وسُجّد . وقيل : اللَّبْدُ بضم اللام وفتح الباء الشيء الدائم ؛ ومنه قيل لنسر لقمان لَبْدٌ
لدوامه وبقائه ؛ قال النابغة :

* أَخْنَى عَلَيْهَا الَّذِي أَخْنَى عَلَى لُبْدٍ *

القشيري : وقرئ «أبدا» بضم اللام والباء وهو جمع لَبِيدٍ وهو الجوّالِق الصغير . وفي الصحاح :
[وقوله تعالى] « أَهْلَكَتُ مَالًا لُبْدًا » أي جمًّا . ويقال أيضا : الناس لَبْدٌ أي مجتمعون ،
واللبد أيضا الذي لا يسافر ولا يبرح [منزله] . قال الشاعر :

مِنْ أَمْرِي ذِي سَمَاجٍ لَا تَزَالُ لَهُ * بَزْلَاءُ يَعْيبُهَا الْجَنَامَةُ اللَّبِيدُ

ويروى اللَّبِيدُ . قال أبو عبيد : وهو أشبه . والبزلاء ذو الرأي الجيد وفلان نهاض ببزلاء إذا كان
ممن يقوم بالأمر العظام ؛ قال الشاعر :

إِنِّي إِذَا شَغَلْتُ قَوْمًا فُرُوجُهُمْ * رَحْبُ الْمَسَالِكِ نَهَاضٌ بِبَزْلَاءِ

ولَبْدٌ آخر نسور لقمان وهو ينصرف ؛ لأنه ليس بمعدول . وتزعم العرب أن لقمان هو الذي
بعثته عاد في وفدتها إلى الحرم يستسقى لها ، فلما أهلكوا خير لقمان بين بقاء سبع بعرات^(٣)
سُمُرٍ مِنْ أَظْفِ عُقْرِ فِي جَبَلٍ وَعَيْرٍ لَا يَمْسُهَا الْقَطْرُ أَوْ بقاء سبعة أنسر كلما هلك نسر خلف
بعده نسر فأختار النُّسور ، وكان آخر نُسوره يسمى لَبْدًا ، وقد ذكرته الشعراء ؛ قال النابغة :

أَضْحَتْ خَلَاءً وَأَمْسَى أَهْلُهَا أَحْتَمَلُوا * أَخْنَى عَلَيْهَا الَّذِي أَخْنَى عَلَى لُبْدِ

واللَّبِيدُ الجوّالِق الصغير ؛ يقال : ألبدت القربة جعلتها في لَبِيدٍ . ولَبِيدٌ اسم شاعر من بني عامر .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي ﴾ أي قال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي »
﴿ وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ وكذا قرأ أكثر القراء « قَالَ » على الخبر . وقرأ حمزة وعاصم « قُلْ » على

(١) الزيادة من اللسان مادة « لبد » . (٢) هو الراعي ؛ والبزلاء أيضا الحاجة التي أحكم أمرها ،
والجنامة الذي لا يبرح من محله وبلدته . (٣) قال شارح القاموس : هو بالعين المهملة ، ويوجد في بعض نسخ
الصحاح « بقرات » بالقاف والذي في نسخ القاموس هو الأشبه إذ لا تنولد البقر من الظباء .

الأمر . وسبب نزولها أن كفار قريش قالوا له : إنك جئت بأمر عظيم وقد فاديت الناس كلهم فأرجع عن هذا فنحن نجيرك فنزلت .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ أى لا أقدر أن أدفع عنكم ضرا ولا أسوق لكم خيرا . وقيل : « لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا » أى كفرا « وَلَا رَشَدًا » أى هدى أى إنما على التبليغ . وقيل : الضر العذاب والرشد النعيم . وهو الأَوَّل بعينه . وقيل : الضر الموت والرشد الحياة .

قوله تعالى : قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٤﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْجُدُونَ مَنْ أَضَعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقْرَبٌ مَّا تُوَعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ ﴾ أى لا يدفع عذابه عنى أحد إن استحفظته ؛ وهذا لأنهم قالوا أترك ما تدعو إليه ونحن نجيرك . وروى أبو الجوزاء عن ابن مسعود قال : أنطلقت مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجن حتى أتى المَجْمُون نَفْطَ عَلَى خَطَا، ثم تقدم إليهم فأزدهموا عليه فقال سيدهم يقال له وِردان : أنا أَرَجُلُهُمْ عَنْكَ ؛ فقال : ”إني لن يجيرني من الله أحد“ ذكره الماوردي . قال : ويحتمل معنيين أحدهما لن يجيرني مع إجارة الله لى أحد . الثانى لن يجيرنى مما قدره الله تعالى على أحد . ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ أى ملتجأ ألبأ إليه ؛ قاله قتادة . وعنه : نصيرا ومولى . السدى : حرزا . الكلبي : مدخلا فى الأرض مثل السرب . وقيل : وليا ولا مولى . وقيل : مذهبا ولا مسلكا . حكاه ابن شجرة والمعنى واحد ؛ ومنه قول الشاعر :

(١) أَرَجُلُهُمْ أى أدفعهم وفى نسخة أَرَجُلُهُمْ بِالْحَاءِ أى أنجيمهم .

يَا لَهْفَ نَفْسِي وَلَهْفِي، غَيْرُ مُجْدِيَةٍ * عَنِّي وَمَا مِن قَضَاءِ اللَّهِ مُلْتَحِدٌ

﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ فإن فيه الأمان والنجاة ؛ قاله الحسن . وقال قتادة : «إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ» فذلك الذي أملكه بتوفيق الله ، فأما الكفر والإيمان فلا أملكهما . فعلى هذا يكون مردودا إلى قوله تعالى : «قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا» أى لا أملك لكم إلا أن أبلغكم . وقيل هو استثناء منقطع من قوله : «لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا» أى إلا أن أبلغكم أى لكن أبلغكم ما أرسلت به ؛ قاله الفراء . وقال الزجاج : هو منصوب على البدل من قوله : «مُلْتَحِدًا» أى «وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا» إلا أن أبلغ ما يأتيني من الله ورسالاته ؛ أى ومن رسالاته التى أمرنى بتبليغها . أو إلا أن أبلغ عن الله وأعمل برسالته فأخذ نفسى بما أمر به غيرى . وقيل هو مصدر و «لا» بمعنى لم و «إن» للشرط والمعنى لن أجِدَ من دونه ملتحدا أى إن لم أبلغ رسالات ربي بلاغا .

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فى التوحيد والعبادة . ﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ كسرت إن ؛ لأن ما بعد فاء الجزاء موضع ابتداء وقد تقدم . ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ نصب على الحال ، وجمع «خالدين» لأن المعنى لكل من فعل ذلك ، فوحد أولا للفظ «من» ثم جمع للمعنى . وقوله ﴿أَبَدًا﴾ دليل على أن العصيان هنا هو الشرك . وقيل : هو المعاصى غير الشرك ، ويكون معنى «خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا» إلا أن أعفوا وتلحقهم شفاعة ولا محالة إذا خرجوا من الدنيا على الإيمان يلحقهم العفو . وقد مضى هذا المعنى مبينا فى سورة «النساء»^(١) وغيرها .

قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ «حَتَّىٰ» هنا مبتدأ أى «حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ» من عذاب الآخرة أو ما يوعدون من عذاب الدنيا ، وهو القتل ببدر ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حينئذ ﴿مَنْ أضعفُ ناصِرًا﴾ أهم أم المؤمنون . ﴿وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ معطوف .

(١) راجع ج ٥ ص ٣٣٣ فابعدا .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرَى أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ ﴾ يعني قيام الساعة . وقيل : عذاب الدنيا أى لا أدرى فد «إن» بمعنى «ما» أو «لا» ؛ أى لا يعرف وقت نزول العذاب ووقت قيام الساعة إلا الله ، فهو غيب لا أعلم منه إلا ما يعرفنيه الله . و « ما » فى قوله « مَا يُوعَدُونَ » يجوز أن تكون بمعنى الذى ويقدر حرف العائد . ﴿ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴾ أى غاية وأجلا .
وقرأ العامة بإسكان الياء من ربى . وقرأ الحرميان وأبو عمرو بالفتح .

قوله تعالى : عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَن
أَرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِن خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾
فيه مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ ﴾ « عالم » رفعا نعتا لقوله « رَبِّي » . وقيل :
أى هو « عالم الغيب » والغيب ما غاب عن العباد . وقد تقدم بيانه فى أول سورة « البقرة »
﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَن أَرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ فإنه يظهره على ما يشاء من غيبه ؛
لأن الرسل مؤيدون بالمعجزات ، ومنها الإخبار عن بعض الغائبات ؛ وفى التنزيل « وَأَنبَأَكُم
بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ » . وقال ابن جبير : « إِلَّا مَن أَرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ » هو
جبريل عليه السلام . وفيه بعد والأولى أن يكون المعنى ؛ أى لا يظهر على غيبه إلا من ارتضى
أى أصطفى للنبوة فإنه يطلع على ما يشاء من غيبه ؛ ليكون ذلك دالا على نبوته .

الثانية - قال العلماء رحمة الله عليهم : لما تمدح سبحانه بعلم الغيب وأستأثر به دون خلقه ،
كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه ، ثم أستثنى من ارتضاه من الرسل ، فأودعهم
ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم ، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم . وليس
المنجم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى وينظر فى الكتب ويزجر بالطير ممن ارتضاه من

(١) راجع ج ١ ص ١٦٣ فا بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) راجع ج ٤ ص ٩٥

رسول فيطلعه على ما يشاء من غيبه ، بل هو كافر بالله مفتر عليه بحدسه وتخيئه وكذبه . قال بعض العلماء : وليت شعري ما يقول المنجم في سفينة ركب فيها ألف إنسان على اختلاف أحوالهم ، وتباين رتبهم ، فيهم الملك والسوقة ، والعالم والجاهل ، والغني والفقير ، والكبير والصغير ، مع اختلاف طوالهم ، وتباين مواليدهم ، ودرجات نجومهم ، فعمهم حكم الفرق في ساعة واحدة؟ فإن قال المنجم قبحه الله : إنما أغرقهم الطالع الذي ركبوا فيه ، فيكون على مقتضى ذلك أن هذا الطالع أبطل أحكام تلك الطوالع كلها على اختلافها عند ولادة كل واحد منهم ، وما يقتضيه طالعه المخصوص به فلا فائدة أبدا في عمل المواليد ، ولا دلالة فيها على شقي ولا سعيد ، ولم يبق إلا معاندة القرآن العظيم . وفيه استحلال دمه على هذا التنجيم ؛ ولقد أحسن الشاعر حيث قال :

حُكْمُ الْمُنْجِمِ أَنَّ طَالِعَ مَوْلِيدِي * يَقْضِي عَلَيَّ بِمَيْتَةِ الْغَرَقِ
قُلْ لِلْمُنْجِمِ صَبْحَةُ الطُّوفَانِ هَلْ * وُلِدَ الْجَمِيعُ بِكُوكَبِ الْغَرَقِ

وقيل لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما أراد لقاء الخوارج : أتلقاهم والقمر في العقرب ؟ فقال رضي الله عنه : فأين قمرهم ؟ وكان ذلك في آخر الشهر . فأنظر إلى هذه الكلمة التي أجاب بها ، وما فيها من المبالغة في الرد على من يقول بالتنجيم ، والإفحام لكل جاهل يحقق أحكام النجوم . وقال له مسافر بن عوف : يا أمير المؤمنين ! لا تسرف في هذه الساعة وسرف في ثلاث ساعات يمضين من النهار . فقال له علي رضي الله عنه : ولم ؟ قال : إنك إن سرت في هذه الساعة أصابك وأصاب أصحابك بلاء وضر شديد ، وإن سرت في الساعة التي أمرتك بها ظفرت وظهرت وأصبت ما طلبت . فقال علي رضي الله عنه : ما كان لمحمد صلى الله عليه وسلم منجم ولا لنا من بعده — في كلام طويل محتج فيه بآيات من التنزيل — فمن صدقك في هذا القول لم آمن عليه أن يكون كمن آخذ من دون الله ندا أوضدا ، اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك . ثم قال للتكلم : نكذبك ونخالفك ونسير في الساعة التي تنهانا عنها . ثم أقبل على الناس فقال : يا أيها الناس إياكم وتعلم النجوم إلا ما تهتدون

به في ظلمات البر والبحر ؛ وإنما المنجم كالساحر والساحر كالكافر والكافر في النار ، والله
لئن بلغني أنك تنظر في النجوم وتعمل بها لأخلدنك في الحبس ما بقيت وبقيت ، ولأحرمك
العطاء ما كان لي سلطان . ثم سافر في الساعة التي نهاه عنها ، واتي القوم فقتلهم وهي وقعة
النهروان الثابتة في الصحيح لمسلم . ثم قال : لو سرنا في الساعة التي أمرنا بها وظفرنا وظهرنا
لقال قائل سار في الساعة التي أمر بها المنجم ، ما كان لمحمد صلى الله عليه وسلم منجم
ولا لنا من بعده ، فتح الله علينا بلاد كسرى وقصر وسائر البلدان — ثم قال : يا أيها الناس !
توكلوا على الله وثقوا به ، فإنه يكفى ممن سواه . (فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا)
يعني ملائكة يحفظونه عن أن يقرب منه شيطان ، فيحفظ الوحي من استراق الشياطين
والإلقاء إلى الكهنة . قال الضحاك : ما بعث الله نبيا إلا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين
عن أن يتشبهوا بصورة الملك ، فإذا جاءه شيطان في صورة الملك قالوا : هذا شيطان فأحذره .
وإن جاءه الملك قالوا : هذا رسول ربك . وقال ابن عباس وابن زيد : « رَصَدًا » أي
حفظة يحفظون النبي صلى الله عليه وسلم من أمامه وورائه من الجن والشياطين . قال قتادة
وسعيد بن المسيب : هم أربعة من الملائكة حفظة . وقال الفراء : المراد جبريل ؛ كان
إذا نزل بالرسالة نزلت معه ملائكة يحفظونه من أن تستمع الجن الوحي فيلقوه إلى كهنتهم
فيسبقوا به الرسول . وقال السدي : « رَصَدًا » أي حفظة يحفظون الوحي ، فما جاء من
عند الله قالوا إنه من عند الله ، وما ألقاه الشيطان قالوا إنه من الشيطان . و « رَصَدًا »
نصب على المفعول . وفي الصحاح : والرَّصَدُ القوم يرصدون كالحرس يستوى فيه الواحد
والجمع والمذكر والمؤنث وربما قالوا أرصادا والراصد للشيء الراقب له ؛ يقال : رَصَدَهُ يرصده
رَصَدًا ورَصَدًا . والترصد الترقب والمرصد موضع الرصد .

(١) هذا الكلام يناق قول صلى الله عليه وسلم : « إن الله قد عصمني من الإنس والجن » (الحديث ج ٦ ص ٢٤٤)

وأن الشياطين لا يمكن أن يناووا منه عليه السلام ، فكيف يلقون إليه حتى لا يفرق بين ما يلقونه وبين الوحي إلى أن
تبينه له الملائكة .

قوله تعالى : لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ .

وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿لِيَعْلَمَ﴾ قال قتادة ومقاتل : أى ليعلم محمد أن الرسل قبله قد أبلغوا الرسالة كما بلغ هو الرسالة . وفيه حذف يتعلق به اللام ؛ أى أخبرناه بحفظنا الوحي ليعلم أن الرسل قبله كانوا على مثل حالته من التبليغ بالحق والصدق . وقيل : ليعلم محمد أن قد أبلغ جبريل ومن معه إليه رسالة ربه ؛ قاله ابن جبير . قال : ولم ينزل الوحي إلا ومعه أربعة حفظة من الملائكة عليهم السلام . وقيل : ليعلم الرسل أن الملائكة بلغوا رسالات ربهم . وقيل : ليعلم الرسول أى رسول كان أن الرسل سواه بلغوا . وقيل : أى ليعلم إبليس أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم سليمة من تخليطه وأستراق أصحابه . وقال ابن قتيبة : أى ليعلم الجن أن الرسل قد بلغوا ما أنزل عليهم ولم يكونوا هم المبلغين بأستراق السمع عليهم . وقال مجاهد : ليعلم من كذب الرسل أن المرسلين قد بلغوا رسالات ربهم . وقراءة الجماعة «لِيَعْلَمَ» بفتح الياء وتأويله ما ذكرناه . وقرأ ابن عباس ومجاهد وحמיד ويعقوب بضم الياء أى ليعلم الناس أن الرسل قد أبلغوا . وقال الزجاج : أى ليعلم الله أن رسله قد أبلغوا رسالاته بفتح الياء ؛ كقوله تعالى : «وَمَا يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ» المعنى ؛ ليعلم الله ذلك علم مشاهدة كما علمه غيبا . ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أى أحاط علمه بما عندهم ؛ أى بما عند الرسل وما عند الملائكة . وقال ابن جبير : المعنى ؛ ليعلم الرسل أن ربهم قد أحاط علمه بما لديهم فيبلغوا رسالاته . ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ أى أحاط بعدد كل شيء وعرفه وعلمه فلم يخف عليه منه شيء . و«عددا» نصب على الحال ؛ أى أحصى كل شيء في حال العدد ، وإن شئت على المصدر ؛ أى أحصى وعد كل شيء عددا ، فيكون مصدر الفعل المحذوف . فهو سبحانه المحصى المحيط العالم الحافظ لكل شيء . وقد بينا جميعه في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنی . والحمد لله وحده .

سورة المزمل

وهي سبع وعشرون آية مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر .

وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها « وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ » والتي تليها ؛ ذكره
الماوردي . وقال الثعلبي : قوله تعالى « إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ » إلى آخر السورة
فإنه نزل بالمدينة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ ﴿١﴾ قُمْ أَلَيْلَ إِلَّا قَائِلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ
أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَائِلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾
فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ) قال الأخفش سعيد : « المزمل » أصله
المتزمل فأدغمت التاء في الزاي وكذلك « المدثر » . وقرأ أبو بن كعب على الأصل « المتزمل »
و « المدثر » . وسعيد « المزمل »^(١) . وفي أصل « المزمل » قولان : أحدهما أنه المتحمل ؛
يقال : زمل الشيء إذا حمه ، ومنه الزاملة ؛ لأنها تحمل القماش^(٢) . الثاني أن المزمل هو
الملقف ؛ يقال : تزمل وتدثر بثوبه إذا تغطى وزمل غيره إذا غطاه ، وكل شيء لُفِّفَ فقد
زُمِلَ ودُثِرَ ؛ قال امرؤ القيس :

* كَبِيرُ أَنَاسٍ فِي بِحَاثِ مُزْمِلٍ^(٣) *

(١) لعل هذا ما أراده بعض المفسرين بقولهم : قرأ بعض السلف « المزمل » بفتح الزاي وتخفيفها وفتح الميم

وشدها . (٢) قماش البيت مناعه .

(٣) صدر البيت : * كأن أبانا في أفانين ودقه *

الثانية - قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ » هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وفيه ثلاثة أقوال : الأول قول عكرمة « يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ » بالنبوة والمترم للرسالة . وعنه أيضا : يا أيها الذي زُمَّلَ هذا الأمر أي حمله ثم فتر؛ وكان يقرأ « يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ » بتخفيف الزاي وفتح الميم وتشديد يدها على حذف المفعول، وكذلك « الْمُدَّثَرُ » والمعنى المزمل نفسه والمدثر نفسه ، أو الذي زَمَّله غيره . الثاني « يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ » بالقرآن ؛ قاله ابن عباس . الثالث المزمل بثيابه ؛ قاله قتادة وغيره . قال النخعي : كان مترملا بقطيفة . عائشة : يبرط طولها أربعة عشر ذراعا ، نصفه على وأنا نائمة ، ونصفه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ، والله ما كان خزا ولا قزا ولا مرعزاً ولا لإبريسما ولا صوفاً ؛ كان سداه شعرا ولحمته وبراً ؛ ذكره الثعالبي .

قلت : وهذا القول يدل على أن السورة مدنية ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بها إلا في المدينة . وما ذكر من أنها مكية لا يصح . والله أعلم . وقال الضحاك : ترمز بثيابه لمنامه . وقيل : بلغه من المشركين سوء قول فيه ، فأشد عليه فتزمل في ثيابه وتدثر فتزلت : « يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ » و « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثَرُ » . وقيل : كان هذا في ابتداء ما أوحى إليه ، فإنه لما سمع قول الملك ونظر إليه أخذته الرعدة فأتى أهله فقال : « زملوني دثروني » روى معناه عن ابن عباس . وقالت الحكماء : إنما خاطبه بالمزمل والمدثر في أول الأمر ؛ لأنه لم يكن بعد آثر شيئاً من تبليغ الرسالة . قال ابن العربي : وأختلف في تأويل « يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ » فمنهم من حمه على حقيقته ، قيل له : يامن تلفف في ثيابه أو في قطيفته قم ؛ قاله إبراهيم وقتادة . ومنهم من حمه على المجاز كأنه قيل له : يامن ترمز بالنبوة ؛ قاله عكرمة . وإنما يسوغ هذا التفسير لو كانت الميم مفتوحة مشددة بصيغة المفعول الذي لم يسم فاعله ، وأما وهو بلفظ الفاعل فهو باطل .

قلت : وقد بينا أنها على حذف المفعول ، وقد قرئ بها فهي صحيحة المعنى . قال :
وأما من قال إنه زمل القرآن فهو صحيح في المجاز لكنه قد قدمنا أنه لا يحتاج إليه .

(١) المرعزاء بكسر الميم والعين : الزغب الذي تحت شعر العنز .

الثالثة - قال السهيلي : ليس المزمل بأسم من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يعرف به كما ذهب إليه بعض الناس وعدوه في أسمائه ، وإنما المزمل أسم مشتق من حالته التي كان عليها حين الخطاب ، وكذلك المدثر . وفي خطابه بهذا الأسم فائدتان : إحداهما الملاطفة فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة سموه بأسم مشتق من حالته التي هو عليها ؛ كقول النبي صلى الله عليه وسلم لعل حين غاضب فاطمة رضى الله عنهما ، فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب فقال له : " قم يا أبا تراب " إشعاراً له أنه غير عاتب عليه وملاطفة له . وكذلك قوله عليه السلام لحذيفة : " قم يا نومان " وكان نائماً ملاطفة له وإشعاراً لترك العتب والتأنيب . فقول الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : « يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلِ . قُمْ » فيه تأنيس وملاطفة ؛ ليستشعر أنه غير عاتب عليه . والفائدة الثانية التنبيه لكل متزمل راقداً ليلته ليتنبه إلى قيام الليل وذكر الله تعالى فيه ؛ لأن الأسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل ذلك العمل وأتصف بتلك الصفة .

الرابعة - قوله تعالى : (قُمْ اللَّيْلَ) قراءة العامة بكسر الميم لالتقاء الساكنين . وقرأ أبو السَّمَّال بضم الميم إتباعاً لضمة القاف . وحكى الفتح لحفته . قال عثمان بن جنى : الغرض بهذه الحركة التبليغ بها هرباً من ألتقاء الساكنين ، فبأى حركة تحركت فقد وقع الغرض . وهو من الأفعال القاصرة غير المتعدية إلى مفعول ، فأما ظرف الزمان والمكان فسائغ فيه إلا أن ظرف المكان لا يتعدى إليه إلا بواسطة ؛ لاتقول : قمت الدار حتى تقول قمت وسط الدار وخارج الدار . وقد قيل : إن « قم » هنا معناه صلِّ ؛ عبر به عنه وأستعير له حتى صار عرفاً بكثرة الأستعمال .

الخامسة - « اللَّيْلَ » حدّ الليل من غروب الشمس إلى طلوع الفجر . وقد تقدّم بيانه في سورة « البقرة »^(١) وأختلف هل كان قيامه فرضاً وحتماً ، أو كان ندباً وحصاً ، والدلائل تقوى أن قيامه كان حتماً وفرضاً ؛ وذلك أن الندب والحص لا يقع على بعض الليل

(١) راجع ج ٢ ص ١٩٢ طبعة ثانية .

دون بعض ؛ لأن قيامه ليس مخصوصا به وقتا دون وقت . وأيضا فقد جاء التوقيت بذلك عن عائشة وغيرها على ما يأتي . وأختلف أيضا هل كان فرضا على النبي صلى الله عليه وسلم وحده ، أو عليه وعلى من كان قبله من الأنبياء ، أو عليه وعلى أمته ؛ ثلاثة أقوال : الأول قول سعيد بن جبیر لتوجه الخطاب إليه خاصة . الثاني قول ابن عباس ، قال : كان قيام الليل فريضة على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى الأنبياء قبله . الثالث قول عائشة وابن عباس أيضا وهو الصحيح ؛ كما في صحيح مسلم عن زرارة بن أوفى أن سعد بن هشام بن عامر أراد أن يغزوا في سبيل الله ؛ الحديث . وفيه فقلت لعائشة : أنبئيني عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : ألسنتَ تقرأ « يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ » قلت : بلى ! قالت : فإن الله عز وجل آفترض قيام الليل في أول هذه السورة فقام صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولا ، وأمسك الله عز وجل خاتمها آثني عشر شهرا في السماء ، حتى أنزل الله عز وجل في آخر هذه السورة التخفيف ، فصار قيام الليل تطوعا بعد فريضة . وذكر الحديث . وذَكَرَ وكيع ويعلی قالا : حدثنا مسعر عن سماك الحنفي قال : سمعت ابن عباس يقول لما أنزل أول « يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ » كانوا يقومون نحو من قيامهم في شهر رمضان حتى نزل آخرها ، وكان بين أولها وآخرها نحو من سنة . وقال سعيد بن جبیر : مكث النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عشر سنين يقومون الليل فنزل بعد عشر سنين « إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ » نخفف الله عنهم .

السادسة - قوله تعالى : (إِلَّا قَلِيلًا) استثناء من الليل ، أي صلّ الليل كله إلا يسيرا منه ؛ لأن قيام جميعه على الدوام غير ممكن ، فامتنى منه القليل لراحة الجسد . والقليل من الشيء ما دون النصف ؛ فحكى عن وهب بن منبه أنه قال : القليل ما دون المعشار والسدس . وقال الكلبي ومقاتل : الثالث . ثم قال تعالى : (نِصْفَهُ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا) فكان ذلك تخفيفا إذ لم يكن زمان القيام محدودا ، فقام الناس حتى ورمت أقدامهم ، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى : « عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ » . وقال الأخفش : « نِصْفَهُ » أي أو نصفه ؛ يقال : أعطه درهما درهمين ثلاثة يريد أو درهمين أو ثلاثة . وقال الزجاج : « نِصْفَهُ » بدل من الليل

و « إِلَّا قَلِيلًا » استثناء من النصف . والضمير في « منه » و « عليه » للنصف . المعنى :
قم نصف الليل أو أنقص من النصف قليلا إلى الثلث أو زد عليه قليلا إلى الثلثين ؛ فكأنه
قال : قم ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه . وقيل : إن « نصفه » بدل من قوله « قليلا » وكان
مخيرا بين ثلاث : بين قيام النصف بتمامه ، وبين الناقص منه ، وبين قيام الزائد عليه ، كأن
تقدير الكلام : قم الليل إلا نصفه ، أو أقل من نصفه ، أو أكثر من نصفه . وفي صحيح مسلم
عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” ينزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا
كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأول فيقول أنا الملك أنا الملك من ذا الذي يدعوني فأستجيب
له من ذا الذي يسألني فأعطيته من ذا الذي يستغفري فأغفر له فلا يزال كذلك حتى يضيء
الفجر ” ونحوه عن أبي هريرة وأبي سعيد جميعا وهو يدل على ترغيب قيام ثلثي الليل .
وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إذا مضى شطر
الليل - أو ثلثاه - ينزل الله ” الحديث . رواه من طريقين عن أبي هريرة هكذا على الشك .
وقد جاء في كتاب النسائي عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالا قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : ” إن الله عز وجل يمهل حتى يمضي شطر الليل الأول ثم يأمر مناديا
يقول هل من داع يستجاب له هل من مستغفر يغفر له هل من سائل يعطى ” صححه أبو محمد
عبد الحق فبين هذا الحديث مع صحته معنى النزول ، وأن ذلك يكون عند نصف الليل .
وخرج ابن ماجه من حديث ابن شهاب ، عن أبي سلمة وأبي عبد الله الأغر ، عن أبي هريرة
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” ينزل ربنا تبارك وتعالى حين يبقى ثلث الليل الآخر
كل ليلة فيقول من يسألني فأعطيته من يدعوني فأستجيب له من يستغفري فأغفر له حتى
يطلع الفجر ” فكانوا يستحبون صلاة آخر الليل على أوله . قال علماءنا : وبهذا الترتيب
انتظم الحديث والقرآن فإنهما يبصران من مشكاة واحدة . وفي الموطأ وغيره من حديث
ابن عباس : بث عند خالتي ميمونة حتى إذا أنتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل
استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام إلى شئ معلق فتوضأ وضوءا خفيفا . وذكر الحديث .

السابعة - اختلف العلماء في الناسخ للأمر بقيام الليل ؛ فعن ابن عباس وعائشة أن الناسخ للأمر بقيام الليل قوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثِي اللَّيْلِ » إلى آخر السورة . وقيل قوله تعالى : « عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ » . وعن ابن عباس أيضا : هو منسوخ بقوله تعالى : « عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ » . وعن عائشة أيضا والشافعي ومقاتل وابن كيسان : هو منسوخ بالصلوات الخمس . وقيل الناسخ لذلك قوله تعالى : « فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ » . قال أبو عبد الرحمن السلمي : لما نزلت « يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ » قاموا حتى ورمت أقدامهم وسوفهم ، ثم نزل قوله تعالى : « فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ » . قال بعض العلماء : وهو فرض نسخ به فرض ؛ كان على النبي صلى الله عليه وسلم خاصة لفضله ؛ كما قال تعالى : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ » .

قلت : القول الأول يعم جميع هذه الأقوال ، وقد قال تعالى : « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » فدخل فيها قول من قال إن الناسخ للصلوات الخمس . وقد ذهب الحسن وابن سيرين إلى أن صلاة الليل فريضة على كل مسلم ولو على قدر حلب شاة . وعن الحسن أيضا أنه قال في هذه الآية : الحمد لله تطوع بعد الفريضة . وهو الصحيح إن شاء الله تعالى ؛ لما جاء في قيامه من الترغيب والفضل في القرآن والسنة . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كنت أجعل للنبي صلى الله عليه وسلم حصيرا يصلي عليه من الليل ، فتسامع الناس به ، فلما رأى جماعتهم كره ذلك ، وخشى أن يكتب عليهم قيام الليل ، فدخل البيت كالمغضب ، فجعلوا يتحننون ويتفلون فخرج إليهم فقال : « أَيُّهَا النَّاسُ أَكَلَفُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ مِنَ الثَّوَابِ حَتَّىٰ تَمَلُّوا مِنَ الْعَمَلِ وَإِنْ خَيْرَ الْعَمَلِ أَدُومُهُ وَإِنْ قَلَّ » فنزلت « يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ » فكتب عليهم ، فأنزل بمنزلة الفريضة حتى أن كان أحدهم ليربط الحبل فيتعلق به ، فكشوا ثمانية أشهر فرحمهم الله وأنزل « إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثِي اللَّيْلِ » فردهم الله إلى الفريضة ، ووضع عنهم قيام الليل إلا ما تطوعوا به .

(١) أكلفوا : هو من كلفت بالأمر إذا أولعت به وأحيت .

قلت : حديث عائشة هذا ذكره الثعلبي ، ومعناه ثابت في الصحيح إلى قوله : ” وإن قل “ وبقية يدل على أن قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ » نزل بالمدينة وأنهم مكثوا ثمانية أشهر يقومون . وقد تقدم عنها في صحيح مسلم : حولا . وحكى الماوردي عنها قولاً ثالثاً وهو ستة عشر شهراً لم يذكر غيره عنها . وذكر عن ابن عباس أنه كان بين أول المزمّل وآخرها سنة ؛ قال : فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان فرضاً عليه ؛ وفي نسخه عنه قولان : أحدهما – أنه كان فرضه عليه إلى أن قبضه الله تعالى . الثاني – أنه نسخ عنه كما نسخ عن أمته . وفي مدة فرضه إلى أن نسخ قولان : أحدهما – المدة المفروضة على أمته في القولين الماضيين يريد قول ابن عباس حولا وقول عائشة ستة عشر شهراً . الثاني – أنها عشر سنين إلى أن خفف عنه بالنسخ زيادةً في التكليف ليميزه بفعل الرسالة ؛ قاله ابن جبير .

قلت : هذا خلاف ما ذكره الثعلبي عن سعيد بن جبيرة حسب ما تقدم فتأمل . وسيأتي لهذه المسئلة زيادة بيان في آخر السورة إن شاء الله تعالى .

الثامنة – قوله تعالى : ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ أى لاتعجل بقراءة القرآن بل اقرأه في مهل وبيان مع تدبر المعاني . وقال الضحاك : اقرأه حرفاً حرفاً . وقال مجاهد : أحب الناس في القراءة إلى الله أعقلهم عنه . والترتيل التنضيد والتنسيق وحسن النظام ؛ ومنه ثفر رَتَّلَ ورتَّلَ بكسر العين وفتحها إذا كان حسن التنضيد . وقد تقدم بيانه في مقدمة الكتاب .^(١) وروى الحسن أن النبي صلى الله عليه وسلم مر برجل يقرأ آية ويبكى فقال : ” ألم تسمعوا إلى قول الله عز وجل « وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً » هذا الترتيل “ . وسمع علقمة رجلاً يقرأ قراءة حسنة فقال : لقد رتل القرآن فداه أبي وأمي . وقال أبو بكر بن طاهر : تدبر في لطائف خطابه ، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه ، وقلبك بفهم معانيه ، وسرك بالإقبال عليه . وروى عبد الله بن عمرو قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : ” يؤتى بقارئ القرآن يوم القيامة فيوقف في أول درج الجنة ويقال له اقرأ وأرتقي ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر

(١) راجع ج ١ ص ١٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

آية تقرأها " خرجه أبو داود وقد تقدم في أول الكتاب ^(١) . وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمدّ صوته بالقراءة مداً .

قوله تعالى : **إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا** ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : **(إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا)** هو متصل بما فرض من قيام الليل أى سنلقى عليك بافتراض صلاة الليل قولاً ثقيلاً يثقل حمله ؛ لأن الليل للنوم ، فمن أمر بقيام أكثره لم يتعباً له ذلك إلا بجمل شديد على النفس ومجاهدة للشيطان ، فهو أمر يثقل على العبد . وقيل : إنا سنوحى إليك القرآن وهو قول ثقيل يثقل العمل بشرائعه . قال قتادة : ثقيل والله فرائضه وحدوده . مجاهد : حلاله وحرامه . الحسن : العمل به . أبو العالية : ثقيلاً بالوعد والوعيد والحلال والحرام . محمد بن كعب : ثقيلاً على المنافقين . وقيل : على الكفار ؛ لما فيه من الاحتجاج عليهم ، والبيان لضلالتهم وسب آلهتهم ، والكشف عما حرفة أهل الكتاب . السدى : ثقيل بمعنى كريم ؛ مأخوذ من قولهم : فلان ثقيل على أى يكرم على . الفراء : « ثَقِيلًا » رزينا ليس بالخفيف السفساف لأنه كلام ربنا . وقال الحسين بن الفضل : ثقيلاً لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق ، ونفس مزينة بالتوحيد . وقال ابن زيد : هو والله ثقيل مبارك كما ثقل في الدنيا يثقل في الميزان يوم القيامة . وقيل « ثَقِيلًا » أى ثابتاً كثبوت الثقيل في محله ، ويكون معناه أنه ثابت الإعجاز لا يزول إعجازه أبداً . وقيل : هو القرآن نفسه ؛ كما جاء في الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته وضعت جرائها — يعنى صدرها — على الأرض فما تستطيع أن تتحرك حتى يُسرى ^(٢) عنه . وفي الموطأ وغيره أنه عليه السلام سئل كيف يأتيك الوحي؟ فقال : " أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فيفصم عني وقد وعيت ما قال وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعنى ما يقول " . قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيتته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً . قال ابن العربي : وهذا أولى ؛ لأنه الحقيقة ، وقد جاء

(١) راجع ج ١ ص ٨ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) أى الوحي .

« وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » وقال عليه السلام : « بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ »
وقيل : القول في هذه السورة هو قول لا إله إلا الله ؛ إذ في الخبر : خفيفة على اللسان ثقيلة
في الميزان ؛ ذكره القشيري .

قوله تعالى : **إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً** ﴿٦١﴾
إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٦٢﴾
فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : **(إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ)** قال العلماء : ناشئة الليل أى أوقاته وساعاته
لأن أوقاته تنشأ أولاً فأولاً ؛ يقال : نشأ الشيء ينشأ إذا ابتدأ وأقبل شيئاً بعد شيء فهو ناشئ
وأنشأه الله فنشأ ، ومنه نشأت السحابة إذا بدأت وأنشأها الله ؛ فناشئة فاعلة من نشأت
تنشأ فهى ناشئة ، ومنه قوله تعالى : **« أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ »** والمراد
أن ساعات الليل الناشئة ، فأكتفى بالوصف عن الأسم فالتأنيث للفظ ساعة ، لأن كل ساعة
تحدث . وقيل : الناشئة مصدر بمعنى [قيام الليل] كالحاطئة والكاذبة ؛ أى إن نشأة الليل هى
أشد وطأ . وقيل : إن ناشئة الليل قيام الليل . قال ابن مسعود : الحبشة يقولون نشأ
أى قام . فلعله أراد أن الكلمة عربية ولكنها شائعة في كلام الحبشة غالباً عليهم ، وإلا فليس
في القرآن ما ليس في لغة العرب . وقد تقدم بيان هذا في مقدمة الكتاب مستوفى .^(١)

الثانية — بين تعالى في هذه الآية فضل صلاة الليل على صلاة النهار ، وأن الاستكثار
من صلاة الليل بالقراءة فيها ما أمكن أعظم للأجر ، وأجلب للثواب .
وآختلف العلماء في المراد بناشئة الليل ؛ فقال ابن عمر وأنس بن مالك : هو ما بين
المغرب والعشاء ، تمسكاً بأن لفظ نشأ يعطى الابتداء فكان بالأولية أحق ؛ ومنه قول الشاعر :

(١) زيادة تفنضها العبارة ؛ وهى كذلك في كتب التفسير .

(٢) راجع ج ١ ص ٦٨ فا بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

ولولا أن يُقال صَبَا نُصِيبُ * لَقَلْتُ بِنَفْسِي النَّشَأَ الصَّغَارُ

وكان علي بن الحسين يصلي بين المغرب والعشاء ويقول: هذا ناشئة الليل. وقال عطاء وعكرمة: إنه بدء الليل. وقال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: هي الليل كله؛ لأنه ينشأ بعد النهار وهو الذي اختاره مالك بن أنس. قال ابن العربي: وهو الذي يعطيه اللفظ وتقتضيه اللغة. وقالت عائشة وابن عباس أيضا ومجاهد: إنما الناشئة القيام بالليل بعد النوم. ومن قام أول الليل قبل النوم فما قام ناشئة. فقال يمان وابن كيسان: هو القيام من آخر الليل. وقال ابن عباس: كانت صلاتهم أول الليل. وذلك أن الإنسان إذا نام لا يدري متى يستيقظ. وفي الصحاح: وناشئة الليل أول ساعاته. وقال القتيبي: إنه ساعات الليل؛ لأنها تنشأ ساعة بعد ساعة. وعن الحسن ومجاهد: هي ما بعد العشاء الآخرة إلى الصبح. وعن الحسن أيضا: ما كان بعد العشاء فهو ناشئة. ويقال: ما ينشأ في الليل من الطاعات؛ حكاها الجوهري.

الثالثة - قوله تعالى: ﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً ﴾ قرأ أبو العالية وأبو عمرو وابن أبي إسحق ومجاهد وحيد وابن محيصن وابن عامر والمغيرة وأبو حيوية « وِطَاءً » بكسر الواو وفتح الطاء والمد، واختاره أبو عبيد. الباقيون « وَطْأً » بفتح الواو وسكون الطاء مقصورة، واختاره أبو حاتم؛ من قولك: أشدت على القوم وطأة سلطانهم. أي ثقل عليهم ما حملهم من المؤن ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: « اللهم أشدد وطأتك على مضر » فالمعنى أنها أثقل على المصلي من ساعات النهار. وذلك أن الليل وقت منام وتودع وإجمام، فمن شغله بالعبادة فقد تحمل المشقة العظيمة. ومن مذ فهو مصدر واطأت وِطَاءً ومواطأة أي وافقته. ابن زيد: واطأته على الأمر مواطأة إذا وافقته من الوفاق، وفلان يواطئ اسمه آسمى، وتواطؤوا عليه أي توافقوا؛ فالمعنى أشد موافقة بين القلب والبصر والسمع واللسان؛ لأنقطاع الأصوات والحركات؛ قاله مجاهد وابن أبي مليكة وغيرهما. وقال ابن عباس بمعناه أي يواطئ السمع القلب؛ قال الله تعالى: « لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ » أي ليوافقوا. وقيل: المعنى أشد مهادا للتصرف في التفكير والتدبر. والوَطَاءُ خلاف الْغِطَاءِ. وقيل: « أَشَدُّ وَطْأً » بسكون الطاء وفتح

الواو أى أشد ثباتاً من النهار ؛ فإن الليل يخلو فيه الإنسان بما يعمله فيكون ذلك أثبت للعمل وأنفى^(١) لما يلهى ويشغل القلب . والوطء الثبات تقول : وطئت الأرض بقدمى . وقال الأخفش : أشد قياماً . الفراء : أثبت قراءة وقياماً . وعنه : « أَشَدُّ وَطْأً » أى أثبت للعمل وأدوم لمن أراد الاستكثار من العبادة ، والليل وقت فراغ عن اشتغال المعاش ، فعبادته تدوم ولا تنقطع . وقال الكلبي : « أَشَدُّ وَطْأً » أى أشد نشاطاً للمصلى ؛ لأنه فى زمان راحته . وقال عبادة : « أَشَدُّ وَطْأً » أى نشاطاً للمصلى وأخف ، وأثبت للقراءة .

الرابعة - قوله تعالى : (وَأَقْوَمُ قِيلاً) أى القراءة بالليل أقوم منها بالنهار ، أى أشد استقامة واستمراراً على الصواب ؛ لأن الأصوات هادئة ، والدنيا ساكنة ، فلا يضطرب على المصلى ما يقرؤه . قال قتادة ومجاهد : أى أصوب للقراءة وأثبت للقول ؛ لأنه زمان التفهم . وقال أبو على : « أَقْوَمُ قِيلاً » أى أشد استقامة لفراغ البال بالليل . وقيل : أى أعجل لإجابة للدعاء . حكاه ابن شجرة . وقال عكرمة : عبادة الليل أتم نشاطاً ، وأتم إخلاصاً ، وأكثر بركة . وعن زيد ابن أسلم : أجدر أن يتفقه فى القرآن . وعن الأعمش قال : قرأ أنس بن مالك « إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَصْوَبُ قِيلاً » فقيل له : « وَأَقْوَمُ قِيلاً » فقال : أقوم وأصوب وأهياً سواء . قال أبو بكر الأنباري : وقد ترمى ببعض هؤلاء الزائغين إلى أن قال : من قرأ بحرف يوافق معنى حرف من القرآن فهو مصيب إذا لم يخالف معنى ولم يأت بغير ما أراد الله وقصد له ، واحتجوا بقول أنس هذا ، وهو قول لا يعرج عليه ولا يلتفت إلى قائله ؛ لأنه لو قرأ بالفاظ تخالف ألفاظ القرآن إذا قاربت معانيها واشتملت على عامتها لحاز أن يقرأ فى موضع « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » الشكر للبارئ ملك المخلوقين ، ويتسع الأمر فى هذا حتى يبطل لفظ جميع القرآن ، ويكون التالى له مفترياً على الله عز وجل ، كاذباً على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا حجة لهم فى قول ابن مسعود : نزل القرآن على سبعة أحرف ، إنما هو كقول أحدكم : هَلُمَّ وتعال وأقبل ، لأن هذا الحديث يوجب أن القراءات الماثورة المنقولة بالأسانيد

(١) فى نسخة : وأنقى .

الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم إذا اختلفت ألفاظها، وآتفت معانيها، كان ذلك فيها بمنزلة الخلاف في هلم وتعال وأقبل، فأما ما لم يقرأ به النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتابعوهم رضى الله عنهم فإنه من أورد حرفاً منه في القرآن بهت ومال وخرج عن مذهب الصواب . قال أبو بكر: والحديث الذى جعلوه قاعدتهم فى هذه الضلالة حديث لا يصح عن أحد من أهل العلم ؛ لأنه مبنى على رواية الأعمش عن أنس ، فهو مقطوع ليس بمتصل فيؤخذ به من قبل أن الأعمش رأى أنسا ولم يسمع منه .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ قراءة العامة بالحاء غير معجمة أى تصرفاً فى حواجبك ، وإقبالا وإدبارا وذهابا ومجيئاً . والسبح الجرى والدوران ، ومنه السابح فى الماء ؛ لتقلبه بيديه ورجليه . وفرس سابح شديد الجرى ؛ قال امرؤ القيس :

مِسْحٌ إِذَا مَا السَّابِحَاتُ عَلَى الْوَنَى * أَثَرْنَ الْغُبَارَ بِالْكَدِيدِ الْمُرْكَلِ^(١)

وقيل : السبح الفراغ ، أى إن لك فراغاً للحاجات بالنهار . وقيل : « إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا » أى نوما والتسبح التمدد ؛ ذكره الخليل . وعن ابن عباس وعطاء : « سَبْحًا طَوِيلًا » يعنى فراغاً طويلاً لنومك وراحتك ، فأجعل ناشئة الليل لعبادتك . وقال الزجاج : إن فاتك فى الليل شىء فلك فى النهار فراغ الاستدراك .

وقرأ يحيى بن يعمر وأبو وائل « سَبْحًا » بالخاء المعجمة . قال المهدوى : ومعناه النوم ؛ روى ذلك عن القارئى بهذه القراءة . وقيل : معناه الخفة والسعة والأستراحة ؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة وقد دعت على سارق رداؤها : « لَا تُسَبِّخِي عَنْهُ بَدْعَائِكَ عَلَيْهِ » أى لا تخففى عنه إثمه ؛ قال الشاعر :

(١) مسح : معناه يصب الجرى صبا . والونى : الفتور والكلال . والكديده : الموضع الغليظ . والمركل : الذى يركل بالأرجل . ومعنى البيت : إن الخيل السريعة إذا فترت فأنارت الغبار بأرجلها من التعب جرى هذا الفرص جريا سهلا كما يسبح السحاب المطر .

فَسَبِّحْ عَلَيْكَ اللَّهُمَّ وَأَعْلَمُ بِأَنَّهُ * إِذَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ شَيْئًا فَكَانَ

الأصمعيّ : يقال سَبَّخَ اللهُ عَنْكَ الحُمَّى أَي خَفَّفَهَا . وَسَبَّخَ الحَرُّ فترَوَّخَفَ . والتَّسْبِيخُ النوم الشديد . والتَّسْبِيخُ أَيضاً توسيع القطن والكُتَّان والصَّوْف وتنفيسها ؛ يقال للمرأة : سَبَّخِي قَطْنَكَ . والتَّسْبِيخُ من القطن ما يَسْبَخُ بعد النَّدْفِ أَي يُلَفُّ لتغزله المرأة ، والقِطْعَةُ منه سَبِيخَةٌ ، وكذلك من الصَّوْف والوبر ، ويقال لقطع القطن سَبَّاخٌ ؛ قال الأخطل يصف القنَّاص والكلاب :

فَأَرْسَلُوهُنَّ يَذْرِيْنَ التَّرَابَ كَمَا * يَذْرِي سَبَّاخٌ قُطْنِ نَدْفٍ أَوْتَارِ

وقال ثعلب : السَّبَّخُ بالخاء التردد والأضطراب ؛ والسَّبَّخُ أَيضاً السكون ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " الحُمَّى من فَيْحِ جَهَنَّمَ فَسَبَّخُوهَا بالماء " أَي سَكَّنُوهَا ؛ وقال أبو عمرو : السَّبَّخُ النوم والفراغ .

قلت : فعلى هذا يكون من الأضداد ، وتكون بمعنى السَّبَّخِ بالخاء غير المعجمة .

قوله تعالى : **وَإِذْ كَرَّمْنَا نَسْمَ رَبِّكَ وَتَبَدَّلَ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً** ﴿٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : **(وَإِذْ كَرَّمْنَا نَسْمَ رَبِّكَ)** أَي أَدَعَهُ بِأَسْمَائِهِ الحَسَنِي لِيَحْصَلَ لَكَ مع الصلاة محمود العاقبة . وقيل : أَي أَفْصَدَ بِعَمَلِكَ وَجْهَ رَبِّكَ . وقال سهل : أَقْرَأَ بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فِي أَبْتِدَاءِ صَلَاتِكَ تَوْصِيلاً بِرُكَّةِ قِرَاءَتِهَا إِلَى رَبِّكَ ، وَتَقَطَّعَكَ عَمَّا سِوَاهُ . وقيل : إِذْ كَرَّمْنَا نَسْمَ رَبِّكَ فِي وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ، لِتَوْفُّرِ عَلِي طَاعَتِهِ وَتَعَدُّلِ عَنِ مَعْصِيَتِهِ . وقال الكلبي : صَلَّ لِرَبِّكَ أَي بِالنَّهَارِ .

قلت : وهذا حسن فإنه لما ذكر الليل ذكر النهار ؛ إذ هو قسيمه ؛ وقد قال الله تعالى :

« وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ » على ما تقدم .^(١)

(١) راجع ج ١٣ ص ٦٥ فابعدا .

الثانية - قوله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ التبتل الانقطاع إلى عبادة الله عز وجل .
 أى أنقطع بعبادتك إليه ولا تشرك به غيره . يقال : بتلت الشيء أى قطعتة ، ومنه قولهم :
 طَلَّقَهَا بَتَّةً بَتَّةً ، وهذه صَدَقَةٌ بَتَّةً بَتَّةً ؛ أى بائنة منقطعة عن صاحبها ؛ أى قطع ملاكته عنها
 بالكلية ؛ ومنه صريم البتول لأنقطاعها إلى الله تعالى ، ويقال للراهب متبتل ؛ لأنقطاعه عن
 الناس وأنفراده بالعبادة . قال :

تُضِيءُ الظَّلَامَ بِالْعِشَاءِ كَأَنَّهَا * مَنَارَةٌ مُسِي رَاهِبٍ مُتَبَتِّلٍ^(١)

وفي الحديث النهى عن التبتل وهو الانقطاع عن الناس والجماعات . وقيل : إن أصله
 عند العرب التفرد ؛ قاله ابن عرفة . والأول أقوى لما ذكرنا . ويقال : كيف قال
 « تبتيلا » ولم يقل تبتيلا ؟ قيل له : لأن معنى تَبَتَّلَ بَتَّلَ نَفْسَهُ ، فجاء به على معناه مراعاة
 لحق الفواصل .

الثالثة - قد مضى في « المائدة »^(٢) في تفسير قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
 لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ » [حال الدين في الكراهية]^(٣) لمن تبتل وأنقطع وسلك سبيل
 الرهبانية بما فيه كفاية . قال ابن العربي : وأما اليوم وقد مرَّجت عهدُ الناس ، وخفَّت
 أماناتهم ، وأستولى الحرام على الحطام^(٤) ، فالعزلة خير من الخلطة ، والعزبة أفضل من
 التأهل ، ولكن معنى الآية : أنقطع عن الأوثان والأصنام وعن عبادة غير الله ، وكذلك
 قال مجاهد : معناه أخلص له العبادة ، ولم يرد التبتل فصار التبتل مأمورا به في القرآن
 منها عنه في السنة ، ومتعلق الأمر غير متعلق النهى فلا يتناقضان ، وإنما بعث ليبين للناس
 ما نزل إليهم ؛ فالتبتل المأمور به الانقطاع إلى الله بإخلاص العبادة كما قال تعالى :
 « وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » والتبتل المنهى عنه هو سلوك مسلك النصارى

(١) البيت من معلقة امرئ القيس ومعناه : إذا أبتست بالليل رأيت لناياها بريقا وضوا ، وإذا برزت
 في الظلام أستنار وجهها حتى يفلب ظلمة الليل . ومسى راهب أى إمساؤه .

(٢) راجع ج ٦ ص ٢٦١ فابعدها . (٣) الزيادة من ابن العرب .

(٤) في نسخة : الحكام .

في ترك النكاح والترهب في الصوامع ، لكن عند فساد الزمان يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر ، يفرز بدينه من الفتن .

قوله تعالى : رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ
وَكَيْلًا ﴿٩﴾ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي
وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ) قرأ أهل الحرمين وأبن محيصر ومجاهد وأبو عمرو وأبن أبي إسحق وحفص « رَبُّ » بالرفع على الابتداء والخبر (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) .
وقيل : على إضمار « هو » . الباقون « رَبُّ » بالخفض على نعت الرب تعالى في قوله تعالى :
« وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ » « رَبُّ الْمَشْرِقِ » ومن علم أنه رب المشارق والمغارب أنقطع بعمله
وأمله إليه . (فَاتَّخِذْهُ وَكَيْلًا) أى قائما بأمورك . وقيل : كفيلا بما وعدك .

قوله تعالى : (وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ) أى من الأذى والسب والاستهزاء ، ولا تجزع
من قولهم ولا تمتنع من دعائهم . (وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا) أى لا تتعرض لهم ، ولا تشتغل
بمكافاتهم ، فإن في ذلك ترك الدعاء إلى الله . وكان هذا قبل الأمر بالقتال ، ثم أمر بعد بقتالهم
وقتلهم ، فنسخت آية القتال ما كان قبلها من الترك ، قاله قتادة وغيره . وقال أبو الدرداء :
إنا لنكشِرَ في وجوه [أفوام] ونضحك إليهم وإن قلوبنا لتقلبهم أو لتلعنهم .

قوله تعالى : (وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ) أى أرض بى لعقابهم . نزلت في صنديد قريش
ورؤساء مكة من المستهزئين . وقال مقاتل : نزلت في المُطْعِمِينَ يوم بدر وهم عشرة . وقد
تقدم ذكرهم في « الأنفال » . وقال يحيى بن سلام : إنهم بنو المغيرة . وقال سعيد بن جبیر
أخبرت أنهم اثنا عشر رجلا . (أُولِي النَّعْمَةِ) أولى الغنى والترفة واللذة في الدنيا . (وَمَهِّلْهُمْ)

(١) الزيادة من نهاية ابن الأثير . (٢) راجع ج ٨ ص ٥٣ .

قَلِيلًا) يعنى إلى مدة آجالهم . قالت عائشة رضى الله عنها : لما نزلت هذه الآية لم يكن إلا يسيرا حتى وقعت وقعة بدر . وقيل : « وَمَهْلُهُمْ قَلِيلًا » يعنى إلى مدة الدنيا .

قوله تعالى : **إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾** وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ
وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ
كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾

قوله تعالى : **(إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا)** الأنكال القيود . عن الحسن ومجاهد وغيرهما واحدها نكل وهو ما منع الإنسان من الحركة . وقيل سمي نكلا ؛ لأنه ينكل به . قال الشعبي أترون أن الله تعالى جعل الأنكال في أرجل أهل النار خشية أن يهربوا ؟ لا والله ولكنهم إذا أرادوا أن يرتفعوا أستفلت بهم . وقال الكلبي : الأنكال الأغلال . والأول أعرف في اللغة ؛ ومنه قول الخنساء :

دَعَاكَ فَقَطَّعْتَ أَنْكَالَهُ * وَقَدْ كُنَّ قَبْلَكَ لَا تُقَطِّعُ^(١)

وقيل : إنه أنواع العذاب الشديد ؛ قاله مقاتل . وقد جاء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يحب النكل على النكل » بالتحريك ، قاله الجوهري . قيل : وما النكل ؟ قال : « الرجل القوي المجرب على الفرس القوي المجرب » ، ذكره الماوردي . قال : ومن ذلك سمي القيد نكلا لقوته ، وكذلك الغل وكل عذاب قوى فأشد . والجحيم النار المؤججة . **(وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ)** أى غير سائغ ؛ يأخذ بالخلق لا هو نازل ولا هو خارج ، وهو الغسيل والزقوم والضريع ؛ قاله ابن عباس . وعنه أيضا : أنه شوك يدخل الحلق فلا ينزل ولا يخرج . وقال الزجاج : أى طعامهم الضريع ؛ كما قال : « لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ » وهو شوك كالعوسج . وقال مجاهد : هو الزقوم ، كما قال : « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ » . والمعنى واحد وقال حمران بن أعين : قرأ النبي صلى الله عليه وسلم « إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا . وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ »

(١) في ديوان الخنساء : ظن .

فصعق . وقال خلود بن حسان : أمسى الحسن عندنا صائماً ، فأتيته بطعام فعرضت له هذه الآية « إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيماً . وَطَعَامًا » فقال : أرفع طعامك . فلما كانت الثانية أتته بطعام فعرضت له هذه الآية ، فقال : أرفعوه . ومثله في الثالثة ، فأنطلق أبنته إلى ثابت البناني ويزيد الضبي ويحيى البكاء فحدثهم بقاءوه فلم يزالوا به حتى شرب شربة من سويق . والغصّة الشجا وهو ما ينشأ في الحلق من عظم أو غيره وجمعها غصص . والغصص بالفتح مصدر قولك : غصصت يا رجل تغص فانت غاص بالطعام وغصان ، وأغصصته أنا ، والمنزل غاص بالقوم أى ممتلئ بهم .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ أى تتحرك وتضطرب بمن عليها . وآنصب « يَوْمَ » على الظرف أى ينكل بهم ويعذبون « يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ » . وقيل : ينزع الخافض يعنى هذه العقوبة فى يوم ترجف الأرض والجبال . وقيل : العامل « ذرني » أى وذرني والمكذبين يوم ترجف الأرض والجبال . ﴿ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً ﴾ أى وتكون والكثيب الرمل المجتمع ؛ قال حسان :

عَرَفْتُ دِيَارَ زَيْنَبَ بِالْكَثِيبِ * نَخَطُ الْوَحْيِ فِي الْوَرَقِ الْقَشِيبِ^(١)

والمهيل الذى يمتز تحت الأرجل . قال الضحاك والكلبى : المهيل هو الذى إذا وطئته بالقدم زل من تحتها ، وإذا أخذت أسفله أنهال . وقال ابن عباس : « مهيلاً » أى رملا سائلا متناثرا . وأصله مهبول وهو مفعول من قولك : هلت عليه التراب أهيله هيلاً إذا صببته . يقال : مهيل ومهبول ، ومكيل ومكيول ، ومدين ومديون ، ومعين ومعيون ؛ قال الشاعر :

قَدْ كَانَ قَوْمُكَ يَحْسَبُونَكَ سَيِّدًا * وَإِخَالُ أَنْكَ سَيِّدٌ مَعِيُونَ^(٢)

وفى حديث النبى صلى الله عليه وسلم أنهم شكوا إليه الجذوبة ؛ فقال : « أتكيلون أم تهيلون »

(١) ويروى فى الرق . والوحى هنا الكتابة . والقشيب : الحديد . شبه حسان رضى الله عنه آثار الديار بالسطور .

(٢) هو عباس بن مرداس .

قالوا : نهبيل . قال : ” يكلوا طعامكم بيارك لكم فيه “ . وأهلت الدقيق لغة في هلت فهو مهال ومهبيل . وإنما حذف الواو ؛ لأن الياء تثقل فيها الضمة فحذفت فسكنت هي والواو فحذفت الواو لالتقاء الساكنين .

قوله تعالى : **إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾** **إِن هَذِهِ تَذَكُّرٌ فَمَنْ شَاءَ آتَّخِذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾**

قوله تعالى : **(إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا)** يريد النبي صلى الله عليه وسلم أرسله إلى قريش **(كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا)** وهو موسى **(فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ)** أى كذب به ولم يؤمن . قال مقاتل : ذكر موسى وفرعون ؛ لأن أهل مكة أزدروا محمدا صلى الله عليه وسلم وأستخفوا به ؛ لأنه ولد فيهم كما أن فرعون أزدري موسى ؛ لأنه رباه ونشأ فيما بينهم ، كما قال تعالى : **« أَلَمْ نُزَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا »** . قال المهدوى : ودخلت الألف واللام في الرسول لتقدم ذكره ؛ ولذلك آختر في أول الكتب سلام عليكم وفي آخرها السلام عليكم . **(وَبِيلاً)** أى ثقيلًا شديدًا وضرب وبيل وعذاب وبيل أى شديد ، قاله ابن عباس ومجاهد . ومنه مطروابل أى شديد ؛ قاله الأخفش . وقال الزجاج : **أى ثقيلًا غليظًا** . ومنه قيل للمطر وابل . وقيل : مهلكا [والمعنى عاقبناه عقوبة غليظة] قال :

أَكَلْتِ بَيْنِكَ أَكْلَ الضَّبِّ حَتَّى * وَجَدْتِ مَرَارَةَ الْكَلْبِ الْوَبِيلِ

وأستوبل فلان كذا أى لم يحمده عاقبته . وماء وبيل ؛ أى وخيم غير مرىء ، وكلاً مستوبل وطعام وبيل ومستوبل إذا لم يمرى ولم يستمرأ ؛ قال زهير :

(١) الزيادة من حاشية الجمل نقلها عن القرطبي ونص بأنها عبارته .

فَقَضَوْا مَنَآيَا بَيْنَهُمْ ثُمَّ أَصْدَرُوا * إِلَى كَلْبٍ مُّسْتَوْبِلٍ مُّتَوَخِّمٍ

وقالت الخنساء :

لَقَدْ أَكَلْتُ بِجِيلَةٍ يَوْمَ لَاقَتْ * فَوَارِسَ مَالِكِ أَكْلًا وَبَيْلًا

والوبيل أيضا العصا الضخمة ؛ قال :

لَوْ أَصْبَحَ فِي يُمْنِي يَدَيَّ زِمَامُهَا * وَفِي كَفِّي الْأُنْحَرَى وَبَيْلٌ تُحَاذِرُهُ

وكذلك الموبل بكسر الباء ، والموبلة أيضا الحزمة من الحطب ، وكذلك الوبيل ؛

قال طرفة :

* عَقِيلَةُ شَيْخٍ كَالْوَبِيلِ يَلْنَدِدُ^(١) *

قوله تعالى : (فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا) هو توبيخ وتقرير .
 أى كيف تتقون العذاب إن كفرتم . وفيه تقديم وتأخير ؛ أى كيف تتقون يوما يجعل
 الولدان شيبا إن كفرتم . وكذا قراءة عبد الله وعطية . قال الحسن : أى بأى صلاة تتقون
 العذاب ؟ بأى صوم تتقون العذاب ؟ . وفيه إضمار ؛ أى كيف تتقون عذاب يوم .
 وقال قتادة : والله ما يتقى من كفر بالله ذلك اليوم بشيء . و « يوما » مفعول بـ « تتقون »
 على هذه القراءة وليس بظرف ، وإن قدر الكفر بمعنى الجحود كان اليوم مفعول « كفرتم » .
 وقال بعض المفسرين : وقف التمام على قوله « كفرتم » والابتداء « يوما » يذهب إلى أن اليوم
 مفعول « يجعل » والفعل لله عز وجل ، وكأنه قال : يجعل الله الولدان شيبا فى يوم . قال
 ابن الأنبارى : وهذا لا يصلح ؛ لأن اليوم هو الذى يفعل هذا من شدة هوله . المهدوى :
 والضمير فى « يجعل » يجوز أن يكون لله عز وجل ، ويجوز أن يكون لليوم ، وإذا كان لليوم
 صلح أن يكون صفة له ، ولا يصلح ذلك إذا كان الضمير لله عز وجل إلا مع تقدير حذف ؛
 كأنه قال : يوما يجعل الله الولدان فيه شيبا . ابن الأنبارى : ومنهم من نصب اليوم

(١) يندد شديد الخصومة . وصدرا البيت :

* فرت كهأة ذات خيف جلالة *

بـ « كفرتم » وهذا قبيح ؛ لأن اليوم إذا علق بـ « كفرتم » أحتاج إلى صفة . أى كفرتم بيوم . فإن أحتاج محتج بأن الصفة قد تحذف وينصب ما بعدها ، أحتججنا عليه بقراءة عبد الله « فَكَيْفَ تَتَّقُونَ يَوْمًا » .

قلت : هذه القراءة ليست متواترة ، وإنما جاءت على وجه التفسير . وإذا كان الكفر بمعنى الجحود فـ « يوما » مفعول صريح من غير صفة ولا حذفها ؛ أى فكيف تتقون الله وتحشونه إن جحدتم يوم القيامة والجزاء . وقرأ أبو السَّهْمَالِ قَعْنَبُ « فكيف تتقون » بكسر النون على الإضافة . و « الْوِلْدَانَ » الصبيان . وقال السدى : هم أولاد الزنى . وقيل : أولاد المشركين . والعموم أصح ؛ أى يشيب فيه الصغير من غير كبر . وذلك حين يقال : « يا آدم قم فأبعث بعث النار » . على ما تقدم في أول سورة « الحج »^(١) . قال القشيري : ثم إن أهل الجنة يغير الله أحوالهم وأوصافهم على ما يريد . وقيل : هذا ضرب مثل لشدة ذلك اليوم وهو مجاز ؛ لأن يوم القيامة لا يكون فيه ولدان ، ولكن معناه أن هيئة ذلك اليوم بحال لو كان فيه هناك صبي لشاب رأسه من الهيبة . ويقال : هذا وقت الفزع ، وقبل أن ينفخ في الصور نفخة الصعق ؛ فالله أعلم . الزمخشري : وقد مر بي في بعض الكتب أن رجلا أمسى فاحم الشعر كحك الغراب ، فأصبح وهو أبيض الرأس والهيئة كالثغامة ، فقال : أريت القيامة والجنة والنار في المنام ، ورأيت الناس يقادون في السلاسل إلى النار ، فمن هول ذلك أصبحت كما ترون . ويجوز أن يوصف اليوم بالطول ، وأن الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة والشيب .

قوله تعالى : ﴿ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ﴾ أى متشققة لشدته . ومعنى « بِهِ » أى فيه ؛ أى فى ذلك اليوم لهوله . هذا أحسن ما قيل فيه . ويقال : مثقلة به إنقالا يؤدى إلى أنفطارها لعظمتها عليها وخشيتها من وقوعه ؛ كقوله تعالى : « ثُقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » . وقيل « بِهِ » أى له أى لذلك اليوم ؛ يقال : فعلت كذا بجرمتك ولحرمتك والباء واللام وفى متقاربة فى مثل هذا الموضع ؛ قال الله تعالى : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ » أى فى يوم القيامة . وقيل : « بِهِ » أى بالأمر أى السماء منفطر بما يجعل الولدان شيئا .

(١) راجع ج ١٢ ص ٢ فا بعدها .

وقيل : منظر بالله أى بأمره . وقال أبو عمرو بن العلاء : لم يقل منظره ؛ لأن مجازها السقف ؛ تقول : هذا سماء البيت ؛ قال الشاعر :

فَلَوْ رَفَعَ السَّمَاءَ إِلَيْهِ قَوْمًا * لَحِقْنَا بِالسَّمَاءِ وَبِالسَّحَابِ

وفى التنزيل : « وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا » . وقال الفراء : السماء يذكر ويؤنث . وقال أبو على : هو من باب الجراد المنتشر ، والشجر الأخضر ، و « أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ » . وقال أبو على أيضا : أى السماء ذات أنفطار ؛ كقولهم : امرأة مرضع أى ذات إرضاع فجرى على طريق النسب . (كَانَ وَعْدُهُ) أى بالقيامة والحساب والجزاء (مَفْعُولًا) كأننا لاشك فيه ولا خلف . وقال مقاتل : كان وعده بأن يظهر دينه على الدين كله .

قوله تعالى : (إِنْ هَذِهِ تَذِكْرَةٌ) يريد هذه السورة أو الآيات عظة . وقيل : آيات القرآن إذ هو كالسورة الواحدة . (فَمَنْ شَاءَ آتَّخِذْ إِلَىٰ رَبِّهِ) أى من أراد أن يؤمن ويتخذ بذلك إلى ربه (سَبِيلًا) أى طريقا إلى رضاه ورحمته فليغرب فقد أمكن له ؛ لأنه أظهر له الحجج والدلائل . ثم قيل : نسخت بآية السيف ، وكذلك قوله تعالى : « فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ » قال الثعلبي : والأشبه أنه غير منسوخ .

قوله تعالى : إِنْ رَبِّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَلَّنْ نَحْضُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَأَعْرُوفٌ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَنْتَعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَعْرُوفٌ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّذِينَ أَنْتُمْ مُؤْمِنُونَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾

فيه ثلاث عشرة مسألة :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ ﴾ هذه الآية تفسير لقوله تعالى : « قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا . نِصْفَهُ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ » كما تقدم ، وهي النسخة لفرضية قيام الليل كما تقدم . « تَقُومُ » معناه تصلى و ﴿ أَدْنَى ﴾ أى أقل . وقرأ ابن السَّمِيعِ وَأَبُو حِيوة وهشام عن أهل الشام ﴿ ثُلثِي ﴾ بإسكان اللام . ﴿ وَنِصْفِهِ وَثُلْثِهِ ﴾ بالخفض قراءة العامة عطفًا على « ثُلثِي » ؛ المعنى : تقوم أدنى من ثلثي الليل ومن نصفه وثلثه . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ كقوله تعالى : « عَلِمَ أَنَّ لَنَا مَحْصُوهً » فكيف يقومون نصفه أو ثلثه وهم لا يحصونه . وقرأ ابن كثير والكوفيون « وَنِصْفَهُ وَثُلْثَهُ » بالنصب عطفًا على « أَدْنَى » التقدير : تقوم أدنى من ثلثي الليل وتقوم نصفه وثلثه . قال الفراء : وهو أشبه بالصواب ؛ لأنه قال أقل من الثلثين ، ثم ذكر نفس القلة لا أقل من القلة . القشيري : وعلى هذه القراءة يحتمل أنهم كانوا يصيبون الثلث والنصف ؛ لخفة القيام عليهم بذلك القدر ، وكانوا يزيدون وفي الزيادة إصابة المقصود ، فأما الثلثان فكان يثقل عليهم قيامه فلا يصيبونه وينقصون منه . ويحتمل أنهم أمروا بقيام نصف الليل ، ورخص لهم في الزيادة والنقصان ، فكانوا يتهمون في الزيادة إلى قريب من الثلثين وفي النصف إلى الثلث . ويحتمل أنهم قدر لهم النصف وأنقص إلى الثلث والزيادة إلى الثلثين ، وكان فيهم من يفى بذلك ، وفيهم من يترك ذلك إلى أن نسخ عنهم . وقال قوم : إنما افترض الله عليهم الربع وكانوا ينقصون من الربع . وهذا القول تحكم .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى يعلم مقادير الليل والنهار على حقائقها ، وأتم تعلمون بالتحزى والاجتهاد الذى يقع فيه الخطأ . ﴿ عَلِمَ أَنَّ لَنَا مَحْصُوهً ﴾ أى لن تطبقوا معرفة حقائق ذلك والقيام به . وقيل : أى لن تطبقوا قيام الليل . والأول أصح ؛ فإن قيام الليل ما فرض كله قط . قال مقاتل وغيره : لما نزلت « قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا . نِصْفَهُ

(١) فى نسخة : قال النقاش .

أَوْ أَنْقُصَ مِنْهُ قَلِيلًا . أَوْ زِدَ عَلَيْهِ « شق ذلك عليهم ، وكان الرجل لا يدرى متى نصف الليل من ثلثه ، فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطئ ، فانتفخت أقدامهم ، وانتفعت ألوانهم ، فرحمهم الله وخفف عنهم ؛ فقال تعالى : « عِلْمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ » و « أَنْ » مخففة من الثقيلة ؛ أى علم أنكم لن تحصوه ؛ لأنكم إن زدتم ثقل عليكم ، واحتجتم إلى تكليف ما ليس فرضاً ، وإن نقصتم شق ذلك عليكم .

الثالثة - قوله تعالى : (فَتَابَ عَلَيْكُمْ) أى فعاد عليكم بالعفو ، وهذا يدل على أنه كان فيهم من ترك بعض ما أمر به . وقيل : أى فتاب عليكم من فرض القيام إذ عجزتم . وأصل التوبة الرجوع كما تقدم ؛ فالمعنى رجع لكم من تثقيل إلى تخفيف ، ومن عسر إلى يسر . وإنما أمروا بحفظ الأوقات على طريق التحزى ، نخفف عنهم ذلك التحزى . وقيل : معنى « وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » يخلقهما مقدرين ؛ كقوله تعالى : « وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا » . ابن العربى : تقدير الحلقة لا يتعلق به حكم ، وإنما يربط الله به ما يشاء من وظائف التكليف .

الرابعة - قوله تعالى : (فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ) فيه قولان : أحدهما أن المراد نفس القراءة ؛ أى فأقروا فيما تصلون به بالليل ما خفف عليكم . قال السدى : مائة آية . الحسن : من قرأ مائة آية في ليلة لم يحاجه القرآن . وقال كعب : من قرأ في ليلة مائة آية كتب من القانتين . وقال سعيد : خمسون آية .

قلت : قول كعب أصح ؛ لقوله عليه السلام : « من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين »^(١) أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده من حديث عبد الله بن عمرو . وقد ذكرناه فى مقدمة الكتاب^(٢) والحمد لله .

القول الثانى : (فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ) أى فصلوا ما تيسر عليكم والصلاة تسمى قرآناً ؛ كقوله تعالى : « وَقُرْآنَ الْفَجْرِ » أى صلاة الفجر . ابن العربى : وهو الأصح ؛ لأنه عن الصلاة أخبر وإليها يرجع القول .

(٢) راجع ج ١ ص ٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

(١) أى أعطى من الأجر قطاراً .

قلت : الأول أصح حملا للخطاب على ظاهر اللفظ ، والقول الثاني مجاز فإنه من تسمية الشيء ببعض ما هو من أعماله .

الخامسة - قال بعض العلماء قوله تعالى : « فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ » نسخ قيام الليل ونصفه والنقصان من النصف والزيادة عليه . ثم احتمل قول الله عز وجل : « فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ » معنيين أحدهما أن يكون فرضا ثانيا ؛ لأنه أزيل به فرض غيره . والآخر أن يكون فرضا منسوخا أزيل بغيره كما أزيل به غيره ؛ وذلك لقوله تعالى : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عسى أَنْ يبعثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا » فأحتمل قوله تعالى : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ » أى يتهدد بغير الذى فرض عليه مما تيسر منه . قال الشافعى : فكان الواجب طلب الاستدلال بالسنة على أحد المعنيين ، فوجدنا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تدل على أن لا واجب من الصلاة إلا الخمس .

السادسة - قال القشيري أبو نصر : والمشهور أن نسخ قيام الليل كان فى حق الأمة ، وبقيت الفريضة فى حق النبى صلى الله عليه وسلم . وقيل : نسخ التقدير بمقدار وبقى أصل الوجوب ؛ كقوله تعالى : « فَمَا اسْتيسَّرَ مِنَ الْهَدْيِ » فالهدى لا بد منه ، كذلك لم يكن بد من صلاة الليل ، ولكن فوض قدره إلى اختيار المصلى ؛ وعلى هذا فقد قال قوم : فرض قيام الليل بالليل باق . وهو مذهب الحسن . وقال قوم : نسخ بالكلية فلا تجب صلاة الليل أصلا . وهو مذهب الشافعى . ولعل الفريضة التى بقيت فى حق النبى صلى الله عليه وسلم هى هذا ، وهو قيامه ومقداره مفوض إلى خيرته . وإذا ثبت أن القيام ليس فرضا فقوله تعالى : « فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ » معناه آقرأوا إن تيسر عليكم ذلك وصلوا إن شئتم . وصار قوم إلى أن النسخ بالكلية تقرر فى حق النبى صلى الله عليه وسلم أيضا ، فما كانت صلاة الليل واجبة عليه . وقوله : « نَافِلَةً لَكَ » محمول على حقيقة النفل . ومن قال : نسخ المقدار وبقى أصل وجوب قيام الليل ثم نسخ ، فهذا النسخ الثانى وقع ببيان مواقيت الصلاة ؛ كقوله تعالى : « أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ » وقوله : « فَسَبِّحْ أَنْ لَمَسَ نِجْمٌ وَحِينَ

تُصْبِحُونَ» وما في الخبر من أن الزيادة على الصلوات الخمس تطوع . وقيل : وقع النسخ بقوله تعالى : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ » والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وللأمة ، كما أن فرضية الصلاة وإن خوطب بها النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ . قُمِ اللَّيْلَ » كانت عامة له ولغيره . وقد قيل : إن فرضية الليل أمتدت إلى ما بعد الهجرة ونسخت بالمدينة ؛ لقوله تعالى : « عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » وإنما فرض القتال بالمدينة ؛ فعلى هذا بيان المواقيت جرى بمكة فقيام الليل نسخ بقوله تعالى : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ » . وقال ابن عباس : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم نسخ قول الله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ » وجوب صلاة الليل .

السابعة - قول الله تعالى : (عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى) الآية ؛ بين سبحانه علة تخفيف قيام الليل ، فإن الخلق منهم المريض ويشق عليهم قيام الليل ، ويشق عليهم أن تفوتهم الصلاة ، والمسافر في التجارات قد لا يطيق قيام الليل ، والمجاهد كذلك تخفف الله عن الكل لأجل هؤلاء . و « أَنْ » في « أَنَّ سَيَكُونُ » مخففة من الثقيلة ؛ أي علم أنه سيكون .

الثامنة - سوى الله تعالى في هذه الآية بين درجة المجاهدين والمكتسبين المال الحلال للنفقة على نفسه وعياله والإجسان والإفضال ، فكان هذا دليلا على أن كسب المال بمنزلة الجهاد ؛ لأنه جمعه مع الجهاد في سبيل الله . وروى إبراهيم عن علقمة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من جالب يجلب طعاما من بلد إلى بلد فيبيعه بسعر يومه إلا كانت منزلته عند الله منزلة الشهداء » ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » وقال ابن مسعود : أيما رجل جاب شيئا إلى مدينة من مدائن المسلمين صابرا محتسبا ، فباعه بسعر يومه كان له عند الله منزلة الشهداء . وقرأ « وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ » الآية . وقال ابن عمر : ما خلق الله موتة أموتها بعد الموت في سبيل الله أحب إلى من الموت بين شعبي رحلي أبتغي من

فضل الله ضاربا في الأرض . وقال طاوس : الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله . وعن بعض السلف أنه كان بواسط ، فجهز سفينة حنطة إلى البصرة ، وكتب إلى وكيله : يبع الطعام يوم تدخل البصرة ، ولا تؤخره إلى غد ، فوافق سعة في السعر ، فقال التجار للوكيل : إن آخرته جمعة ربحت فيه أضعافه ، فأخره جمعة فربح فيه أمثاله ، فكتب إلى صاحبه بذلك ، فكتب إليه صاحب الطعام : يا هذا ! إنا كنا قنعنا بربح يسير مع سلامة ديننا ، وقد جنيت علينا جناية ، فإذا أتاك كتابي هذا فخذ المال وتصدق به على فقراء البصرة ، وليتني أنجو من الاحتكار كفافا لا على ولا لى . وروى أن غلاما من أهل مكة كان ملازما للمسجد ، فافتقده ابن عمر ، فمشى إلى بيته فقالت أمه : هو على طعام له يبيعه ، فلقبه فقال له : يا بنى ! مالك وللطعام ؟ فهلا إبلا ، فهلا بقرا ، فهلا غنما : إن صاحب الطعام يحب المحل ، وصاحب الماشية يحب الغيث .

التاسعة - قوله تعالى : « فَأَقْرَأُوا مَا تيسر مِنْهُ » أى صلوا ما أمكن ، فأوجب الله من صلاة الليل ما تيسر ، ثم نسخ ذلك بإيجاب الصلوات الخمس على ما تقدم . قال ابن العربي : وقد قال قوم إن فرض قيام الليل سن في ركعتين من هذه الآية ، قاله البخارى وغيره ، وعقد بابا ذكر فيه حديث " يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ يُضْرَبُ عَلَى كُلِّ عُقْدَةٍ مَكَانَهَا عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ فَإِنْ آسْتَيْقِظَ فَذَكَرَ اللَّهَ آنَحَلَتْ عُقْدَةٌ فَإِنْ تَوَضَّأَ آنَحَلَتْ عُقْدَةٌ فَإِنْ صَلَّى آنَحَلَتْ عُقْدَةً كُلِّهَا فَأَصْبَحَ نَشِيْطًا طَيِّبَ النَّفْسِ وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسَلَانَ " وذكر حديث سُمْرَةَ بن جُنْدَبٍ عن النبي صلى الله عليه وسلم في الرؤيا قال : "أما الذى يُثَلِّغُ رَأْسَهُ بِالْحَجْرِ فَإِنَّهُ يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ وَيَنَامُ عَنِ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ " وحديث عبد الله بن مسعود قال : ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل ينام الليل كله فقال : " ذلك رجل بال الشيطان في أذنيه " فقال ابن العربي : فهذه أحاديث مقتضية حمل مطلق الصلاة على المكتوبة فيحمل المطلق على المقيد ، لأحتماله له ، وتسقط الدعوى ممن عينه

(١) قافية الرأس مؤخره ، وقيل : وسطه ؛ أراد تنقيه في النوم وإطالته .

(٢) الثلغ : وهو ضربك الشئ الرطب بالشئ اليابس حتى ينشخش .

(٣) يرفضه : يتركه .

لقيام الليل . وفي الصحيح واللفظ للبخاري : قال عبد الله بن عمرو، قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل " ولو كان فرضا ما أقره النبي صلى الله عليه وسلم عليه ، ولا أخبر بمثل هذا الخبر عنه ، بل كان يذمه غاية الذم . وفي الصحيح عن عبد الله بن عمر قال : كان الرجل في حياة النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى رؤيا قصها على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكنت غلاما شابا عزبا ، وكنت أنام في المسجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأيت في النوم كأن ملكين أخذاني فذهبا بي إلى النار ، فإذا هي مطوية كطى البئر ، وإذا لها قرنان ، وإذا فيها ناس قد عرفتهم ، فجعلت أقول : أعوذ بالله من النار . قال : ولقينا ملك آخر ، فقال لي : لم ترع^(١) . فقصصتها على حفصة ، فقصصتها حفصة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : " نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل " فكان بعد لا ينام من الليل إلا قليلا ، فلو كان ترك القيام معصية لما قال له الملك : لم ترع . والله أعلم .

العاشرة - إذا ثبت أن قيام الليل ليس بفرض ، وأن قوله : « فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ » . « فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ » محمول على ظاهره من القراءة في الصلاة ، فأختلف العلماء في قدر ما يلزمه أن يقرأ به في الصلاة ؛ فقال مالك والشافعي : فاتحة الكتاب لا يجزئ العدول عنها ولا الأقتصار على بعضها ، وقدره أبو حنيفة بآية واحدة من آي القرآن كانت . وعنه ثلاث آيات ؛ لأنها أقل سورة . ذكر القول الأول الماوردي والثاني ابن العربي . والصحيح ما ذهب إليه مالك والشافعي على ما بيناه في سورة « الفاتحة^(٢) » أول الكتاب والحمد لله . وقيل : إن المراد به قراءة القرآن في غير الصلاة ؛ قال الماوردي : فعلى هذا يكون مطلق هذا الأمر محمولا على الوجوب ، أو على الاستحباب دون الوجوب . وهذا قول الأكثرين ؛ لأنه لو وجب عليه أن يقرأه لوجب عليه أن يحفظه . الثاني أنه محمول على الوجوب ؛ ليقف بقراءته على إعجازه ، وما فيه من دلائل التوحيد وبعث الرسل ، ولا يلزمه إذا قرأه وعرف إعجازه ودلائل

(١) لم ترع : لا روع ولا خوف عليك بعد ذلك . (٢) راجع ج ١ ص ١٢٣ طبعة ثانية أو ثالثة .

التوحيد منه أن يحفظه ؛ لأن حفظ القرآن من القرب المستحبة دون الواجبة . وفي قدر ما تضمنه هذا الأمر من القراءة خمسة أقوال : أحدها جميع القرآن ؛ لأن الله تعالى يسره على عباده ؛ قاله الضحاك . الثاني ثلث القرآن ؛ حكاه جويبر . الثالث مائتا آية ؛ قاله السدي . الرابع مائة آية ؛ قاله ابن عباس . الخامس ثلاث آيات كأقصر سورة ؛ قاله أبو خالد الكناي . الحادية عشرة – قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ (١) يعني المفروضة وهي الخمس لوقتها . ﴿ وَأَتُوا الزَّكَاةَ ﴾ الواجبة في أموالكم ؛ قاله عكرمة وقتادة . وقال الحرث العكلى : صدقة الفطر لأن زكاة الأموال وجبت بعد ذلك . وقيل : صدقة التطوع . وقيل : كل أفعال الخير . وقال ابن عباس : طاعة الله والإخلاص له .

الثانية عشرة – قوله تعالى : ﴿ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ القرض الحسن ما قصد به وجه الله تعالى خالصا من المال الطيب . وقد مضى في سورة « الحديد »^(١) بيانه . وقال زيد بن أسلم : القرض الحسن النفقة على الأهل . وقال عمر بن الخطاب : هو النفقة في سبيل الله . الثالثة عشرة – ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ تقدم في سورة « البقرة »^(٢) . وروى عن عمر بن الخطاب أنه أخذ حيسا – يعني تمرا بلبن – فجاءه مسكين فأخذه ودفعه إليه . فقال بعضهم : ما يدري هذا المسكين ما هذا؟ فقال عمر : لكن رب المسكين يدري ما هو . وكأنه تأول « وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ » أي مما تركتم وخلقتم ، ومن الشح والتقصير . ﴿ وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ قال أبو هريرة : الجنة ؛ ويحتمل أن يكون أعظم أجرا ؛ لإعطائه بالحسنة عشرا . ونصب « خيرا وأعظم » على المفعول الثاني لـ « تَجِدُوهُ » و « هو » فصل عند البصريين ، وعماد في قول الكوفيين لا محل له من الإعراب . و « أجرا » تمييز . ﴿ وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ﴾ أي سلوه المغفرة لذنوبكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لما كان قبل التوبة ﴿ رَحِيمٌ ﴾ لكم بعدها ؛ قاله سعيد بن جبير . ختمت السورة .

(١) راجع ج ١٧ ص ٢٥٢

(٢) راجع ٢ ص ٧٣ طبعة ثانية .

سورة المدثر

مكية في قول الجميع وهي ست وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾

وَوَيْلٌ لَّكَ فَطَهَّرْ ﴿٤﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى ؛ (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) أى يا ذا الذى قد تدثر بثيابه ، أى تغشى بها ونام ، وأصله المتدثر فأدغمت التاء فى الدال لتجانسهما . وقرأ أبى « المتدثر » على الأصل . وقال مقاتل : معظم هذه السورة فى الوليد بن المغيرة . وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحدث — قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدث عن فترة الوحي — قال فى حديثه : ” فبينما أنا أمشى سمعت صوتا من السماء فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بجراء جالسا على كرسى بين السماء والأرض “ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” بَخِثْتُ^(١) مِنْهُ فَرَقًا فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ زَمَلُونِي زَمَلُونِي فَدَثَرُونِي فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ” (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ . وَوَيْلٌ لَّكَ فَطَهَّرْ . وَالرُّحْزَ فَأَنْجُرْ) ” فى رواية — قبل أن تفرض الصلاة — وهى الأوثان قال : ” ثم تتابع الوحي “ نرجه الترمذى أيضا وقال : حديث حسن صحيح . قال مسلم : وحدثنا زهير بن حرب ، قال : حدثنا الوليد بن مسلم ، قال : حدثنا الأوزاعى قال : سمعت يحيى يقول : سألت أبا سلمة أى القرآن أنزل قبل ؟ قال : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » فقلت : أو « اقرأ » فقال :

(١) جثت أى فزعت وخفت وفى رواية جثت بناءً على معناه .

سألت جابر بن عبد الله أي القرآن أنزل قبل؟ قال: «يأيها المدثر» فقلت: أو «أقرأ» فقال جابر: أحدثكم ما حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «جاورت بحراء شهرا فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت بطن الوادي فنوديت فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أر أحدا ثم نوديت فنظرت فلم أر أحدا ثم نوديت فرفعت رأسي فإذا هو على العرش في الهواء - يعني جبريل صلى الله عليه وسلم - فأخذتني رجفة شديدة فأتيت خديجة فقلت دثروني فدثروني فصبوا علي ماء فأنزل الله عز وجل «يأيها المدثر. قم فأنذر. وربك فكبر. وثيابك فطهر» خرجه البخاري وقال فيه: «فأتيت خديجة فقلت دثروني وصبوا علي ماء باردا فدثروني وصبوا علي ماء باردا فنزلت «يأيها المدثر. قم فأنذر. وربك فكبر. وثيابك فطهر. والرجز فاهجر. ولا تمنن تستكثر»^(١). ابن العربي: وقد قال بعض المفسرين إنه جرى على النبي صلى الله عليه وسلم من عقبه [بن ربيعة] أمر فرجع إلى منزله مغموما، فقلق وأضطجع فنزلت: «يأيها المدثر» وهذا باطل. وقال القشيري أبو نصر: وقيل بلغه قول كفار مكة أنت ساحر فوجد من ذلك غمًا وحُمًّا فدثرت بثيابه، فقال الله تعالى: «قم فأنذر» أي لا تفكر في قولهم وبلغهم الرسالة. وقيل: أجمع أبو لهب وأبو سفيان والوليد بن المغيرة والنضر بن الحرث وأميمة بن خلف والعاص بن وائل ومطيم بن عدى وقالوا: قد اجتمعت وفود العرب في أيام الحج، وهم يتساءلون عن أمر محمد وقد اختلفتم في الإخبار عنه؛ فمن قائل يقول مجنون، وآخر يقول كاهن، وآخر يقول شاعر، وتعلم العرب أن هذا كله لا يجتمع في رجل واحد، فسموا محمدا بأسم واحد يجتمعون عليه وتسميه العرب به، فقام منهم رجل فقال: شاعر؛ فقال الوليد: سمعت كلام ابن الأبرص وأميمة بن أبي الصلت، وما يشبهه كلام محمد كلام واحد منهما؛ فقالوا: كاهن. فقال: الكاهن يصدق ويكذب وما كذب محمد قط؛ فقام آخر فقال: مجنون؛ فقال الوليد: المجنون يخنق الناس وما خنق محمد قط. وأنصرف الوليد إلى بيته فقالوا: صبا الوليد بن المغيرة؛ فدخل عليه أبو جهل وقال: مالك يا أبا عبد شمس!

(١) الزيادة من ابن العربي.

هذه قريش تجمع لك شيئاً يعطونك، زعموا أنك قد آحتجت وصبأت . فقال الوليد : مالى إلى ذلك حاجة، ولكنى فكرت فى عهد، فقلت : ما يكون من الساحر؟ فقيل : يفرق بين الأب وأبنة ، وبين الأخ وأخيه، وبين المرأة وزوجها، فقلتُ : إنه ساحر . شاع هذا فى الناس وصاحوا يقولون : إن عهدا ساحر . ورجع رسول الله صلى عليه وسلم إلى بيته محزوناً فتدثر بقطيفة، ونزلت : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » . وقال عكرمة : معنى « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » أى المدثر بالنبوة وأثقالها . أبى العربنى : وهذا مجاز بعيد؛ لأنه لم يكن تنبأ بعد . وعلى أنها أول القرآن لم يكن تمكن منها بعد أن كانت ثانياً ما نزل .

الثانية - قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » ملاطفة فى الخطاب من الكريم إلى الحبيب إذا ناداه بحاله ، وعبر عنه بصفته ، ولم يقل يا عهد ويا فلان ليستشعر اللين والملاطفة من ربه كما تقدم فى سورة « المزمل » . ومثله قول النبي صلى الله عليه وسلم لعلى إذ نام فى المسجد : « قم أبا تراب » وكان نخرج مغاضباً لفاطمة رضى الله عنها فسقط رداءه وأصابه ترابه؛ خرج مسلم . ومثله قوله عليه الصلاة والسلام لحذيفة ليلة الخندق : « قم يا نومان » وقد تقدم .

الثالثة - قوله تعالى : « قُمْ فَأَنْذِرْ » أى خوف أهل مكة وحذرهم العذاب إن لم يسلموا . وقيل : الإنذار هنا إعلامهم بنبوته؛ لأنه مقدمة الرسالة . وقيل : هو دعائهم إلى التوحيد؛ لأنه المقصود بها . وقال الفراء : قم فصل وأمر بالصلاة .

الرابعة - قوله تعالى : « وَرَبِّكَ فَكْبِّرْ » أى سيدك ومالكك ومصالح أمرك فعظم، ووصفه بأنه أكبر من أن يكون له صاحبة أو ولد . وفى حديث أنهم قالوا : بِمِ تَفْتَحُ الصَّلَاةُ؟ فنزلت « وَرَبِّكَ فَكْبِّرْ » أى وصفه بأنه أكبر . قال أبى العربنى : وهذا القول وإن كان يقتضى بعمومه تكبير الصلاة ، فإنه مراد فيه تكبير التقديس والتنزيه بنزع الأنداد والأصنام دونه ، ولا تتخذ ولياً غيره ، ولا تعبد سواه ، ولا ترى لغيره فعلاً إلا له ، ولا نعمة إلا منه ؛ وقد روى أن أبا سفيان قال يوم أحد : أعلُّ هُبَلٌ ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « قولوا الله أعلُّ وأجلُّ » وقد صار هذا اللفظ بعرف الشرع فى تكبير العبادات كلها أذانا

وصلاة وذكر بقوله : « الله أكبر » وحمل عليه لفظ النبي صلى الله عليه وسلم الوارد على الإطلاق في مواردها ، منها قوله : « تحريمها التكبير وتحليلها التسليم » والشرع يقتضى بعرفه ما يقتضى بعمومه ، ومن موارد الإهلال بالذبايح لله تخلصاً له من الشرك ، وإعلاناً باسمه في النّسك ، وإفراداً لما شرع منه لأمره بالسّفك .

قلت : قد تقدّم في أول سورة « البقرة ^(١) » أن هذا اللفظ « الله أكبر » هو المتعبد به في الصلاة ، المنقول عن النبي صلى الله عليه وسلم . وفي التفسير : إنه لما نزل قوله تعالى « وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ » قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « الله أكبر » فكبرت خديجة وعلمت أنه الوحي من الله تعالى ؛ ذكره القشيري .

الخامسة - الفاء في قوله تعالى : « وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ » دخلت على معنى جواب الجزاء كما دخلت في « فَأَنْذِرْ » أى قم فأنذر وقم فكبر ربك ؛ قاله الزجاج . وقال ابن جنى : هو كقولك زيدا فأضرب ؛ أى زيدا أضرب ، فالفاء زائدة .

السادسة - قوله تعالى : (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) فيه ثمانية أقوال : أحدها أن المراد بالثياب العمل . الثانى القلب . الثالث النفس . الرابع الجسم . الخامس الأهل . السادس الخلق . السابع الدين . الثامن الثياب الملبوسات على الظاهر . فمن ذهب إلى القول الأوّل قال : تاويل الآية وعملك فأصلح ؛ قاله مجاهد وابن زيد . وروى منصور عن أبي رزين قال : يقول وعملك فأصلح ؛ قال : وإذا كان الرجل خبيث العمل قالوا إن فلانا خبيث الثياب ، وإذا كان حسن العمل قالوا إن فلانا طاهر الثياب ؛ ونحوه عن السدى . ومنه قول الشاعر :

لاهُمَّ إِنَّ عَامِرَ بْنَ جَهْمٍ * أَوْذَمَ حَجًّا فِي ثِيَابٍ دُسِمٍ ^(٢)

(١) راجع ج ١ ص ١٧٥ .

(٢) ثياب دسم : ومخنة ؛ ومعنى البيت : أنه حج وهو متدنس بالذنوب . وأوذم الحج أوجب .

ومنه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” يُحْشَرُ الْمَرْءُ فِي ثَوْبَيْهِ الَّذِينَ مَاتَ عَلَيْهِمَا “ يعنى عمله الصالح والطالح ؛ ذكره الماوردى . ومن ذهب إلى القول الثانى قال : إن تأويل الآية وقلبك فطهر ؛ قاله ابن عباس وسعيد بن جبير ؛ دليله قول امرئ القيس :

* فَسَلِّ ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسِلِ^(١) * .

أى قلبى من قلبك . قال الماوردى : ولهم فى تأويل الآية وجهان ؛ أحدهما - معناه وقلبك فطهر من الإثم والمعاصى ؛ قاله ابن عباس وقتادة . الثانى - وقلبك فطهر من الغدر ؛ أى لا تغدر فتكون دنس الثياب . وهذا مروى عن ابن عباس ، وأستشهد بقول غيلان بن سلمة الثقفى :

فإنى بحمد الله لا ثوبَ فأجر * لبستُ ولا من غدرَةٍ أتقنعُ

ومن ذهب إلى القول الثالث قال : تأويل الآية ونفسك فطهر ؛ أى من الذنوب . والعرب تكنى عن النفس بالثياب ؛ قاله ابن عباس . ومنه قول عنتره :

فَشَكَّكْتُ بِالرُّمْحِ الطَّوِيلِ ثِيَابَهُ * ليس الكريمُ على القنَا بمُحَرَّمِ

وقال امرؤ القيس :

* فَسَلِّ ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسِلِ * .

وقال^(٢) :

ثِيَابُ بَنِي عَوْفٍ ظَهَارَى نَقِيَّةٌ * وَأَوَجُّهُمُ بِيضُ الْمَسَافِرِ غُرَّانُ

أى أنفس بنى عوف . ومن ذهب إلى القول الرابع قال : تأويل الآية وجسمك فطهر ؛ أى عن المعاصى الظاهرة . ومما جاء عن العرب فى الكناية عن الجسم بالثياب قول ليلى ، وذكرت إبلا :

رموها بأثيابٍ خفافٍ فلا ترى * لها شَبَهَا إِلَّا النَّعَامَ الْمُتَفَرًّا

(١) صدر البيت : * وإن كنت قد ساءت منى خليفة *

(٢) نسب المؤلف هذا البيت فيما سياتى لابن أبى كبشة مرة ولأمرئ القيس مرة أخرى ، وفى « اللسان »

و « شرح القاموس » أنه لأمرئ القيس ولم نعرطه فى ديوانه ، وقد نسه ابن العربى لابن أبى كبشة .

أى ركبوها فرموها بأنفسهم . ومن ذهب إلى القول الخامس قال : تأويل الآية وأهلك فطهرهم من الخطايا بالوعظ والتأديب ؛ والعرب تسمى الأهل ثوبا ولباسا وإزارا ؛ قال الله تعالى : «هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لِهِنَّ» . الماوردي : ولهم في تأويل الآية وجهان ؛ أحدهما - معناه ونساءك فطهر باختيار المؤمنات العفاف . الثانى - الاستمتاع بهن فى القبل دون الدبر، فى الطهر لا فى الحيض . حكاه ابن بحر . ومن ذهب إلى القول السادس قال : تأويل الآية وخلقتك فحسن . قاله الحسن والقرطبي ؛ لأن خلق الإنسان مشتمل على أحواله أشتمال ثيابه على نفسه . وقال الشاعر :

وَيَحْيَى لَا يُلَامُ بِسَوْءِ خُلُقِي * وَيَحْيَى طَاهِرُ الْأَثْوَابِ حُرٌّ

أى حسن الأخلاق . ومن ذهب إلى القول السابع قال : تأويل الآية ودينك فطهر . وفى الصحيحين عنه عليه السلام قال : «ورأيت الناس وعليهم ثياب منها ما يبلغ الثدى ومنها ما دون ذلك ورأيت عمر بن الخطاب وعليه إزار يجتره» . قالوا : يا رسول الله فما أقلت ذلك ؟ قال : الدين . وروى ابن وهب عن مالك أنه قال : ما يعجبني أن أقرأ القرآن إلا فى الصلاة والمساجد لا فى الطرق، قال الله تعالى : «وَتِيَابَكَ فَطَهَّرْ» يريد مالك أنه كنى عن الثياب بالدين . وقد روى عبد الله بن نافع عن أبى بكر بن عبد العزيز بن عبد الله ابن عمر بن الخطاب عن مالك بن أنس فى قوله تعالى : «وَتِيَابَكَ فَطَهَّرْ» أى لا تلبسها على غدره ؛ ومنه قول أبى كبشة :

ثِيَابُ بَنِي عَوْفٍ طَهَارَى تَقِيَّةٌ * وَأَوْجُهُهُمْ بِيضُ الْمَسَافِرِ غُرَانُ

يعنى بطهارة ثيابهم سلامتهم من الدنئات، ويعنى بغرة وجوههم تنزيههم عن المحرمات، أو جمالهم فى الحلقة أو كليهما ؛ قاله ابن العربى . وقال سفيان بن عيينة : لا تلبس ثيابك على كذب ولا جور ولا غدر ولا إثم ؛ قاله عكرمة . ومنه قول الشاعر :

* أَوْدَمَ حَجًّا فى ثِيَابِ دُسِيمِ *

أى قد دنسها بالمعاصى . وقال النابغة :

رِقَاقُ النَّعَالِ طَيِّبٌ مُجْزَأَتُهُمْ * يُحْيُونَ بِالرَّيْحَانِ يَوْمَ السَّبَاسِبِ^(١)

ومن ذهب إلى القول الثامن قال : إن المراد بها الثياب الملبوسات فلهم في تأويله أربعة أوجه ؛ أحدهما — معناه وثيابك فأنق ؛ ومنه قول امرئ القيس :
* ثِيَابُ بَنِي عَوْفٍ طَهَارَى نَقِيَّةٌ *

الثاني — وثيابك فشمّر وقصّر ؛ فإن تقصير الثياب أبعدهم من النجاسة ، فإذا أنجرت على الأرض لم يؤمن أن يصيبها ما ينجسها ؛ قاله الزجاج وطاوس . الثالث — « وَثِيَابَكَ فَطَهَّرْ » من النجاسة بالماء ؛ قاله محمد بن سيرين وأبن زيد والفقهاء . الرابع — لا تلبس ثيابك إلا من كسب حلال لتكون مطهرة من الحرام . وعن ابن عباس : لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طاهر . ابن العربي وذكر بعض ما ذكرناه : ليس بممتنع أن تحمل الآية على عموم المراد فيها بالحقيقة والمجاز ، وإذا حملناها على الثياب المعلومة الطاهرة فهي تتناول معنيين : أحدهما — تقصير الأذيال ؛ لأنها إذا أرسلت تدنست ، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لغلام من الأنصار وقد رأى ذيله مسترخيا : أرفع إزارك فإنه أتقى وأنقى وأبقى . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إِزْرَةُ الْمُؤْمِنِ إِلَى أَنْصَافِ سَاقِيهِ لَا جَنَاحَ عَلَيْهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَعْبَيْنِ وَمَا كَانَ أَسْفَلَ مِنْ ذَلِكَ فَفِي النَّارِ » فقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم الغاية في لباس الإزار الكعب وتوعد ما تحته بالنار ، فما بال رجال يرسلون أذيالهم ويطلقون ثيابهم ، ثم يتكلفون رفعها بأيديهم ، وهذه حالة الكبر ، وقائدة العجب ، [وأشد ما في الأمر أنهم يعصون وينجسون ويلحقون أنفسهم]^(٢) بمن لم يجعل الله معه غيره ولا الحق به سواه . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خِيَلًا » ولفظ الصحيح : « مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ خِيَلًا لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . قال أبو بكر : يا رسول الله ! إن أحد

(١) البيت من قصيدة مدح بها عمرو بن الحرث الغساني . وأراد برقاق النعال أنهم ملوك لا يخضفون نعمالم ، وبطيب مجزأتهم عفتهم . والسباسب يوم « السعائين » وهو يوم عيد عند النصارى وكان المدوح نصرانيا .

(٢) الإزرة بالكسر : الحالة وهبة الأتزار .

(٣) الزيادة من ابن العربي .

شقي إزارى يسترخى إلا أنى أتعاهد ذلك منه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لست ممن يصنعه خيلاء " فعم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنهى وأستثنى الصديق ، فأراد الأديباء إلحاق أنفسهم بالرفعاء^(١) ، وليس ذلك لهم . والمعنى الثانى - غسلها من النجاسة وهو ظاهر منها صحيح فيها . المهديون : وبه أستدل بعض العلماء على وجوب طهارة الثوب ؛ قال ابن سيرين وابن زيد : لا تصل إلا فى ثوب طاهر . وأحتج بها الشافعى على وجوب طهارة الثوب . وليست عند مالك وأهل المدينة بفرض ، وكذلك طهارة البدن ، ويدل على ذلك الإجماع على جواز الصلاة بالاستجمار من غير غسل . وقد مضى هذا القول فى سورة « براءة »^(٢) مستوفى .

قوله تعالى : وَالرَّجَزَ فَأَهْجُرَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : (وَالرَّجَزَ فَأَهْجُرَ) قال مجاهد وعكرمة : يعنى الأوثان ؛ دليله قوله تعالى : « فَأَجْتَذَبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ » وقاله ابن عباس وابن زيد . وعن ابن عباس أيضا : والمائم فأهجر؛ أى فأترك . وكذا روى مغيرة عن إبراهيم النخعى قال : الرجز الإثم . وقال قتادة : الرجز إسامف ونائله صنمان كانا عند البيت . وقيل : الرجز العذاب على تقدير حذف المضاف ؛ المعنى وعمل الرجز فأهجر ، أو العمل المؤدى إلى العذاب . وأصل الرجز العذاب ، قال الله تعالى : « لئن كُشِفَتْ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ » وقال تعالى : « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ » فسميت الأوثان رجزا ؛ لأنها تؤدى إلى العذاب . وقراءة العامة « الرَّجْزَ » بكسر الراء . وقرأ الحسن وعكرمة ومجاهد وابن محيصن وحفص عن عاصم . « وَالرَّجْزَ » بضم الراء وهما لغتان مثل الذُّكْر والذُّكْر . وقال أبو العالية والربيع والكسائى : الرَّجْزُ بالضم الصنم وبالكسر النجاسة والمعصية . وقال الكسائى أيضا : بالضم الوثن وبالكسر العذاب . وقال السدى : الرَّجْزُ بضم الراء الوعيد .^(٣)

(١) فى ابن العربى : بالأفصيا . (٢) راجع ج ٨ ص ٢٦١ فابعدا .

(٣) قوله بنصب الراء ... كذا فى نسخ الأصل ولم يظفر به فى المراجع التى بأيدينا .

قوله تعالى : وَلَا تَمُنُّنَ تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَلَا تَمُنُّنَ تَسْتَكْثِرُ) فيه أحد عشر تأويلاً؛ الأول — لا تمن على ربك بما تتحملة من أثقال النبوة ، كالذي يستكثر ما يتحملة بسبب الغير . الثاني — لا تعط عطية تلمس بها أفضل منها ؛ قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة . قال الضحاك : هذا حرمه الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه مأمور بأشرف الآداب وأجل الأخلاق ، وأباحه لأُمَّته ؛ وقاله مجاهد . الثالث — عن مجاهد أيضاً : لا تضعف أن تستكثر من الخير ؛ من قولك جبل متين إذا كان ضعيفاً ؛ ودليله قراءة ابن مسعود « وَلَا تَمُنُّنَ تَسْتَكْثِرُ مِنَ الْخَيْرِ » . الرابع — عن مجاهد أيضاً والربيع : لا تعظم عملك في عينك أن تستكثر من الخير فإنه مما أنعم الله عليك . قال ابن كيسان : لا تستكثر عملك فتراه من نفسك ، إنما عملك منة من الله عليك ؛ إذ جعل الله لك سبيلاً إلى عبادته . الخامس — قال الحسن : لا تمن على الله بعملك فتستكثره . السادس — لا تمن بالنبوة والقرآن على الناس فتأخذ منهم أجراً تستكثره . السابع — قال القرظي : لا تعط مالك مصانعة . الثامن — قال زيد بن أسلم : إذا أعطيت عطية فأعطها لربك . التاسع — لا تقل دعوت فلم يستجب لي . العاشر — لا تعمل طاعة وتطلب ثوابها ، ولكن أصبر حتى يكون الله هو الذي يثيبك عليها . الحادي عشر — لا تفعل الخير لترأى به الناس .

الثانية — هذه الأقوال وإن كانت مرادة فأظهرها قول ابن عباس : لا تعط لتأخذ أكثر مما أعطيت من المال ؛ يقال : مننت فلانا كذا أي أعطيته . ويقال للعطية المنّة ؛ فكأنه أمر بأن تكون عطاياه لله لا لأرتقاب ثواب من الخلق عليها ؛ لأنه عليه السلام ما كان يجمع الدنيا ؛ ولهذا قال : ” ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم ” وكان ما يفضل من نفقة عياله مصروفاً إلى مصالح المسلمين ؛ ولهذا لم يورث ؛ لأنه كان لا يملك لنفسه الآذخار والافتناء ، وقد عصمه الله تعالى عن الرغبة في شيء من

الدنيا ؛ ولذلك حرمت عليه الصدقة وأبيحت له الهدية ، فكان يقبلها ويثيب عليها . وقال :
 « لو دعيت إلى كراع^(١) لأجبت ولو أهدي إلى ذراع لقبلت » ابن العربي : وكان يقبلها
 سنة ولا يستكثرها شرعة ، وإذا كان لا يعطى عطية يستكثرها فلا أغنياء أولى بالاجتناب ؛
 لأنها باب من أبواب المذلة ، وكذلك قول من قال : إن معناها لا تعطى عطية تنتظر ثوابها ،
 فإن الانتظار تعلق بالأطعام ، وذلك في حيزه بحكم الامتناع ، وقد قال الله تعالى له :
 « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ
 خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ » وذلك جائز لسائر الخلق ؛ لأنه من متاع الدنيا ، وطلب الكسب والتكاثر بها .
 وأما من قال أراد به العمل أي لا تمن بعملك على الله فتستكثره فهو صحيح ؛ فإن ابن آدم
 لو أطاع الله عمره من غير فتور لما بلغ لنعم الله بعض الشكر .

الثالثة - قوله تعالى : « وَلَا تَمُنُّ » قراءة العامة بإظهار التضعيف . وقرأ أبو السَّمَّالِ
 العدوي وأشهب العقيلي والحسن « وَلَا تَمُنُّ » مدغمة مفتوحة . « تَسْتَكْثِرُ » قراءة العامة
 بالرفع وهو في معنى الحال ، تقول : جاء زيد يركض أي راكضا ؛ أي لا تعط شيئا مقدرا
 أن تأخذ بدله ما هو أكثر منه . وقرأ الحسن بالجزم على جواب النهي وهو رديء ؛ لأنه
 ليس بجواب . ويجوز أن يكون بدلا من « تَمُنُّ » كأنه قال : لا تستكثر . وأنكره أبو حاتم
 وقال : لأن المنّ ليس بالاستكثار فيبدل منه . ويحتمل أن يكون سكن تخفيفا كعضد .
 أو أن يعتبر حال الوقف . وقرأ الأعمش ويحيى « تَسْتَكْثِرُ » بالنصب توهم لام كي كأنه
 قال : ولا تمن لتستكثر . وقيل : هو بإضمار « أن » كقوله^(٢) :

« أَلَا أَيُّهَا الزَّاجِرِيُّ أَحْضِرِ الْوَعَىٰ »

ويؤيده قراءة ابن مسعود « وَلَا تَمُنُّ أَنْ تَسْتَكْثِرَ » . قال الكسائي : فإذا حذف « أن »
 رفع وكان المعنى واحدا . وقد يكون المنّ بمعنى التعدد على المنعم عليه بالنعيم ، فيرجع إلى

(١) الكراع بوزان غراب وهو مستدق الساق من الرجل . وهو من البقر والغنم بمنزلة الوظيف من الفرس والبعير .

(٢) البيت لطرفة بن العبد من معلقته وتماهه :

* وأن أشهد الذات هل أنت مخلدى *

القول [الثاني] (١)، وَيَعُضِدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: «لَا تُبْطِلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى» وقد يكون مراداً في هذه الآية . والله أعلم .

قوله تعالى : **وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ** ﴿٧﴾

قوله تعالى : **(وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ)** أى ولسيدك ومالكك فأصبر على أداء فرائضه وعبادته . وقال مجاهد : على ما أوديت . وقال ابن زيد : حملت أمراً عظيماً ؛ محاربة العرب والعجم فأصبر عليه لله . وقيل : فأصبر تحت موارد القضاء لأجل الله تعالى . وقيل : فأصبر على البلاء ؛ لأنه يمتحن أولياءه وأصفياءه . وقيل : على أوامره ونواهيه . وقيل : على فراق الأهل والأوطان .

قوله تعالى : **فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ** ﴿٨﴾ **فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ**

عَسِيرٌ ﴿٩﴾ **عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ** ﴿١٠﴾

قوله تعالى : **(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ)** إذا نفخ في الصور . والناقور فاعول من النقر ؛ كأنه الذى من شأنه أن ينقر فيه للتصويت ، والنقر فى كلام العرب الصوت ؛ ومنه قول امرئ القيس :

أخفَّضَهُ بِالنَّقْرِ لَمَّا عَمَلَتْهُ * وَرَفَعُ طَرْفًا غَيْرَ خَافٍ غَضِيضٍ

وهم يقولون : نقر بأسم الرجل إذا دعاه مختصاً له بدعائه . وقال مجاهد وغيره : هو كهيئة البوق ويعنى به النفخة الثانية . وقيل : الأولى ؛ لأنها أول الشدة الهائلة العامة . وقد مضى الكلام فى هذا مستوفى فى «النمل» و «الأنعام» وفى كتاب «التذكرة» والحمد لله . وعن أبى حبان قال : أمنا زراً بن أوفى فلما بلغ «فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ» نحرمتنا . **(فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ)** أى فذلك اليوم يوم شديد **(عَلَى الْكَافِرِينَ)** أى على من كفر

(١) زيادة يقتضها المعنى . (٢) راجع ج ١٣ ص ٢٣٩ فأبدها . (٣) راجع ج ٧ ص ٢٠

بالله وبأنبيائه صلى الله عليهم (غَيْرِيسِيرٍ) أى غير سهل ولا هين؛ وذلك أن عقدهم لا تنحل إلا إلى عقدة أشد منها، بخلاف المؤمنين الموحدين المذنبين فإنها تنحل إلى ما هو أخف منها حتى يدخلوا الجنة برحمة الله تعالى . و «يَوْمئِذٍ» نصب على تقدير فذلك يوم عسير يومئذ . وقيل : جرّ بتقدير حرف جرّ مجازه : فذلك فى يومئذ . وقيل : يجوز أن يكون رفعا إلا أنه بنى على الفتح لإضافته إلى غير متمكن .

قوله تعالى : ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأَرْهَقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا) «ذَرْنِي» أى دعنى ؛ وهى كلمة وعيد وتهديد . «وَمَنْ خَلَقْتُ» أى دعنى والذى خلقته وحيدا ؛ فـ«وَحِيدًا» على هذا حال من ضمير المفعول المحذوف ؛ أى خلقته وحده لا مال له ولا ولد، ثم أعطيته بعد ذلك ما أعطيته . والمفسرون على أنه الوليد بن المغيرة المخزومي، وإن كان الناس خلقوا مثل خلقته . وإنما خص بالذكر لأختصاصه بكفر النعمة وإيذاء الرسول عليه السلام، وكان يسمى الوحيد فى قومه . قال ابن عباس : كان الوليد يقول أنا الوحيد بن الوحيد ليس لى فى العرب نظير، ولا لأبى المغيرة نظير، وكان يسمى الوحيد؛ فقال الله تعالى : «ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ» بزعمه «وَحِيدًا» لا أن الله تعالى صدقه بأنه وحيد . وقال قوم : إن قوله تعالى «وَحِيدًا» يرجع إلى الرب تعالى على معنيين ؛ أحدهما — ذرنى وحدى معه فأنا أجزيك فى الأنتقام منه عن كل منتقم . والثانى — أنى أنفردت بخلقى ولم يشركنى فيه أحد، فأنا أهلكه ولا أحتاج إلى ناصر فى إهلاكه ؛ فـ«وَحِيدًا» على هذا حال من ضمير الفاعل وهو التاء فى «خَلَقْتُ» والأول قول مجاهد ؛ أى خلقته وحيدا فى بطن أمه لا مال له ولا ولد فأنعمت عليه فكفر ؛ فقوله «وَحِيدًا» على هذا يرجع إلى الوليد ؛ أى لم يكن له شىء فملكته . وقيل : أراد بذلك ليدله على أنه يبعث وحيدا

كما خلق وحيدا . وقيل : الوحيد الذي لا يُعرف أبوه وكان الوليد معروفا بأنه دعى ؛ كما ذكرنا في قوله تعالى : « عُلِّبَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ » وهو في صفة الوليد أيضا .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴾ أى خولته وأعطيته مالا ممدودا ، وهو ما كان للوليد بين مكة والطائف من الإبل والمجور والنعم والحنان والعييد والجواري ؛ كذا كان ابن عباس يقول . وقال مجاهد : غلة ألف دينار ؛ وقاله سعيد بن جبير وابن عباس أيضا . وقال قتادة : ستة آلاف دينار . وقال سفيان الثوري وقتادة : أربعة آلاف دينار . الثوري أيضا : ألف ألف دينار . مقاتل : كان له بستان لا ينقطع خيره شتاء ولا صيفا . وقال عمر رضی الله عنه : « وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا » غلة شهر بشهر . النعمان بن سالم : أرضا يزرع فيها . القشيري : والأظهر أنه إشارة إلى ما لا ينقطع رزقه ، بل يتوالى كالزرع والضرع والتجارة .

قوله تعالى : ﴿ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴾ أى حضورا لا يغيبون عنه في تصرف . قال مجاهد وقتادة : كانوا عشرة . وقيل : اثنا عشر ؛ قاله السدي والضحاك . قال الضحاك : سبعة ولدوا بمكة وخمسة ولدوا بالطائف . وقال سعيد بن جبير : كانوا ثلاثة عشر ولدا . مقاتل : كانوا سبعة كلهم رجال ؛ أسلم منهم ثلاثة ؛ خالد وهشام والوليد بن الوليد . قال : فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله وولده حتى هلك . وقيل : شهودا ؛ أى إذا ذكر ذكروا معه ؛ قاله ابن عباس . وقيل : شهودا ؛ أى قد صاروا مثله في شهود ما كان يشهده ، والقيام بما كان يباشره . والأول قول السدي ؛ أى حاضرين مكة لا يظعنون عنه في تجارة ولا يغيبون . قوله تعالى : ﴿ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴾ أى بسطت له في العيش بسطا حتى أقام ببلدته مطمئنا مترفها يرجع إلى رأيه . والتمهيد عند العرب التوطئة والتهيئة ومنه مهَّد الصبي . وقال ابن عباس : « وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا » أى وسعت له ما بين اليمن والشام ؛ وقاله مجاهد . وعن مجاهد أيضا في « مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا » أنه المال بعضه فوق بعض كما يمهد الفراش .

(١) في نسخة : لا يتبين .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ أى ثم إن الوليد يطمع بعد هذا كله أن أزيده في المال والولد . ﴿ كَلَّا ﴾ أى ليس يكون ذلك مع كفره بالنعم . وقال الحسن وغيره : أى ثم يطمع أن أدخله الجنة ، وكان الوليد يقول : إن كان مجد صادقاً فما خلقت الجنة إلا لى ؛ فقال الله تعالى رداً عليه وتكذيباً له « كَلَّا » أى لست أزيده ، فلم يزل يرى النقصان في ماله وولده حتى هلك . و « ثُمَّ » في قوله تعالى : « ثُمَّ يَطْمَعُ » ليست بتم التي للنسق ولكنها تعجيب ؛ وهى كقوله تعالى : « وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدُلُونَ » وذلك كما تقول : أعطيتك ثم أنت تجفوني كلمة تعجب من ذلك . وقيل : يطمع أن أترك ذلك في عقبه ؛ وذلك أنه كان يقول : إن مجداً مبتوراً أى أبترو وينقطع ذكره بموته . وكان يظن أن ما رزق لا ينقطع بموته . وقيل : أى ثم يطمع أن أنصره على كفره . و « كَلَّا » قطع للرجاء عما كان يطمع فيه من الزيادة ؛ فيكون متصلاً بالكلام الأول . وقيل : « كَلَّا » بمعنى حقاً ويكون ابتداءً . ﴿ إِنَّهُ ﴾ يعنى الوليد ﴿ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴾ أى معانداً للنبي صلى الله عليه وسلم وما جاء به ؛ يقال : عاند فهو عنيذ مثل جالس فهو جالس ؛ قاله مجاهد . وعند يعنيد بالكسر أى خالف ورد الحق وهو يعرفه فهو عنيذ وعانيد . والعانيد البعير الذى يجور عن الطريق ويعدل عن القصد والجمع عند مثل راكع وركع ؛ وأنشد أبو عبيدة قول الحارثي :

إِذَا رَكِبْتُ فَأَجْعَلَانِي وَسَطًا^(١) * إِنِّي كَبِيرٌ لَا أُطِيقُ الْعُنْدًا

وقال أبو صالح : « عَنِيدًا » معناه مباعداً ، قال الشاعر :

أَرَانَا عَلَى حَالٍ تُفَرِّقُ بَيْنَنَا * نَوَى غَرَبَةً^(٢) إِنِّ الْفِرَاقَ عُنُودٌ

قتادة : جاحداً . مقاتل : معرضاً . ابن عباس : جحوداً . وقيل : إنه المجاهر بعدوانه . وعن مجاهد أيضاً قال : مجانباً للحق معانداً له معرضاً عنه . والمعنى كله متقارب . والعرب تقول : عند الرجل إذا عتا وجاوز قدره . والعنود من الإبل الذى لا يخالط الإبل إنما هو في ناحية . ورجل عنود إذا كان يحل وحده لا يخالط الناس . والعنيد من التجبر . وعرق

(١) رواية لسان العرب : * إذا رحلت فاجعلوني وسطاً *

(٢) نوى غربة : بعبدة .

عاند إذا لم يرقأ دمه ، كل هذا قياس واحد وقد مضى في سورة « إبراهيم »^(١) . وجمع العنيد عند مثل رفيف ورغف .

قوله تعالى : (سَأَرْهُقُهُ) أى سأكلفه . وكان ابن عباس يقول : سألجئه ، والإرهاق فى كلام العرب أن يُحمل الإنسان على الشيء . (صَعُودًا) « الصَّعُودُ جبل من نار يتصعد فيه سبعين خريفًا ثم يهوى به كذلك فيه أبدا » رواه أبو سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ نرجه الترمذى وقال فيه حديث غريب . وروى عطية عن أبى سعيد قال : صخرة فى جهنم إذا وضعوا عليها أيديهم ذابت فإذا رفعوها عادت ، قال : فيبلغ أعلاها فى أربعين سنة يجذب أمامه بسلاسل و يضرب من خلفه بمقامع ، حتى إذا بلغ أعلاها رُمى به إلى أسفلها ، فذلك دأبه أبدا . وقد مضى هذا المعنى فى سورة « قُلْ أُوحِيَ »^(٢) . وفى التفسير : إنه صخرة ملساء يكاف صعودها فإذا صار فى أعلاها حُدِر فى جهنم ، فيقوم يهوى ألف هام من قبل أن يبلغ قرار جهنم ، يحترق فى كل يوم سبعين مرة ثم يعاد خلقا جديدا . وقال ابن عباس : المعنى سأكلفه مشقة من العذاب لا راحة له فيه . ونحوه عن الحسن وقتادة . وقيل : إنه تصاعد نفسه للزعر وإن لم يتعقبه موت ، ليعذب من داخل جسده كما يعذب من خارجه .

قوله تعالى : إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ) يعنى الوليد فكر فى شأن النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن . و « قَدَّرَ » أى هيا الكلام فى نفسه ؛ والعرب تقول : قدرت الشيء إذا هيأته ؛ وذلك أنه لما نزل « حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم » إلى قوله « إليه المصير » سمعه الوليد يقرؤها فقال : والله لقد سمعت منه كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ،

(٢) راجع ص ١٨ فا بعدها من هذا الجزء .

(١) راجع ج ٩ ص ٣٤٩

وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغديق ، وإنه ليعلو ولا يُعلَى عليه ، وما يقول هذا بشر . فقالت قريش : صَبَا الوليدُ لتصبونَ قريش كلها . وكان يقال للوليد ريجانة قريش ؛ فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه فمضى إليه حزينا ؟ فقال له : مالي أراك حزينا . فقال له : ومالي لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك بها على كبر سنك ، ويزعمون أنك زينت كلام محمد ، وتدخل على ابن أبي كبشة وابن أبي حنيفة لتنال من فضل طعامهما ، فغضب الوليد وتكبر وقال : أنا أحتاج إلى كسر محمد وصاحبه ، فأنتم تعرفون قدر مالي ، واللآت والعزى ما بي حاجة إلى ذلك ، وإنما أنتم تزعمون أن محمدا مجنون ، فهل رأيتموه قط يَخْنُقُ ؟ . قالوا : لا والله . قال : وتزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه نطق بشعر قط ؟ قالوا : لا والله . قال : فتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه كذبا قط ؟ قالوا : لا والله . قال : فتزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه تكهن قط ، ولقد رأينا للكهنة أسجعا وتخالجا فهل رأيتموه كذلك ؟ قالوا : لا والله . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يسمى الصادق الأمين من كثرة صدقه . فقالت قريش للوليد : فما هو ؟ ففكر في نفسه ، ثم نظر ، ثم عبس ، فقال : ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ ! فذلك قوله تعالى : « إِنَّهُ فَكَّرَ » أى فى أمر محمد والقرآن « وَقَدَّرَ » فى نفسه ماذا يمكنه أن يقول فيهما . (فَقْتَلَ) (١) أى لعن . وكان بعض أهل التأويل يقول : معناها فقهر وغلب ، وكل مُدَلِّلٌ مُقْتَلٌ ؛ قال الشاعر :

وما ذرَفَتْ عينك إلا لتقدحى * بسهميك فى أعشار قلبٍ مُقتلٍ

وقال الزهرى : عُدْبٌ ؛ وهو من باب الدعاء . (كَيْفَ قَدَّرَ) قال ناسٌ : « كيف » تعجيب ؛ كما يقال للرجل تتعجب من صنيعه : كيف فعلت هذا ؟ وذلك كقوله : « أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ » . (ثُمَّ قُتِلَ) أى لعن لعنا بعد لعن . وقيل : فقتل بضرب من العقوبة ، ثم قتل بضرب آخر من العقوبة (كَيْفَ قَدَّرَ) أى على أى حال قدر . (ثُمَّ نَظَرَ) أى شئء يرد الحق ويدفعه . (ثُمَّ عَبَسَ) أى قَطَبَ بين عينيه فى وجوه المؤمنين ؛ وذلك

(١) هو أمرؤ القيس .

أنه لما حمل قريشا على ما حملهم عليه من القول في محمد صلى الله عليه وسلم بأنه ساحر مرت على جماعة من المسلمين فدعوه إلى الإسلام فعبس في وجوههم . وقيل : عبس وبسر على النبي صلى الله عليه وسلم حين دعاه . والعبس مصدر عبس يعبس عبسا وعبوسا إذا قطب . والعبس ما يتعلق بأذنان الإبل من أبعارها وأبوالها ؛ قال أبو النجيم :

كَانَتْ فِي أَذْنَيْهِ الشُّوْلِ * مِنْ عَبَسِ الصَّيْفِ قُرُونِ الْأَيْلِ

(وبسر) أى كَلَح وجهه وتغير لونه ؛ قاله قتادة والسدي ؛ ومنه قول بشر بن أبي خازم :

صَبَحْنَا تَمِيمًا غَدَاةَ الْجِفَارِ (١) * بِشَبَاءٍ مَلُومَةٍ بِاسِرَةٍ

(٢) وقال آخر :

وَقَدْ رَأَيْتُ مِنْهَا صُدُودَ رَأَيْتُهُ * وَإِعْرَاضُهَا عَنْ حَاجَتِي وَبُسُورُهَا

وقيل : إن ظهور العبوس في الوجه بعد المحاورة ، وظهور البسور في الوجه قبل المحاورة . وقال قوم : بسر وقف لا يتقدم ولا يتأخر . قالوا : وكذلك يقول أهل اليمن إذا وقف المركب فلم يجئ ولم يذهب قد بسر المركب وأبسر أى وقف وقد أبسرنا . والعرب تقول : وجه باسر بين البسور إذا تغير وأسود . (ثم أدبر) أى ولى وأعرض ذاهبا إلى أهله . (وأستكبر) أى تعظم عن أن يؤمن . وقيل : أدبر عن الإيمان وأستكبر حين دعى إليه . (فقال إن هذا) أى ما هذا الذى أتى به محمد صلى الله عليه وسلم (إلا سحر يوثر) أى يآثره عن غيره . والسحر الخديعة وقد تقدم بيانه في سورة « البقرة » . وقال قوم : السحر إظهار الباطل في صورة الحق . والأثر مصدر قولك : أثرت الحديث آثره إذا ذكرته عن غيرك ؛ ومنه قيل : حديث مأثور أى ينقله خلف عن سلف ؛ قال امرؤ القيس :

(١) الجفار : موضع . وقيل هو ماء لبني تميم . (٢) هو توبة بن الحرير . وزاد بعض النسخ بعد هذا

البيت ما يأتي كحاشية : « قوله بشباء أراد بكنية شباء . ومنه قول عنتره :

وكتيبة لبستها بكنية * شباء باسلة يخاف رداها

و يقال : كتيبة ملهبة وملهومة أيضا أى مجتمعة مضموم بعضها إلى بعض . وصخرة ملهومة وملهبة أى مستديرة

صلبة ، قاله الجوهري . (٣) راجع ج ٢ ص ٤٣ فا بعدها .

ولو عن نثا غيره جاءني * وجرح اللسان بجرح اليد

لقلت من القول ما لا يزا * ل يؤثر عني يد المسند^(١)

يريد آخر الدهر . وقال الأعشى :

إن الذي فيه تماريما^(٢) * بين السامع والآثر

ويروى بين . (إن هذا إلاً قول البشر) أى ما هذا إلا كلام المخلوقين يختدع به القلوب كما تختدع بالسحر . قال السدى : يعنون أنه من قول سيار عبد لبنى الحضرمي ، كان يجالس النبي صلى الله عليه وسلم فنسبوه إلى أنه تعلم منه ذلك . وقيل : أراد أنه تلقنه من أهل بابل . وقيل : عن مسيلمة . وقيل : عن عدى الحضرمي الكاهن . وقيل : إنما تلقنه ممن ادعى النبوة قبله فنسج على منوالهم . قال أبو سعيد الضرير : إن هذا إلا سحر يؤثر أى يورث .

قوله تعالى : سَأْصَلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : (سَأْصَلِيهِ سَقَرَ) أى سأدخله سقر كي يصلح حرما . وإنما سميت سقر من سقرته الشمس إذا أذابته ولوحته وأحرقته جلدة وجهه . ولا ينصرف للتعريف والتأنيث . قال ابن عباس : هى الطبقة السادسة من جهنم ، وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "سأل موسى ربه فقال أى رب أى عبادك أفقر فقال صاحب سقر" ذكره الثعلبي : (وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ) هذه مبالغة فى وصفها ؛ أى وما أعلمك أى شىء هى ، وهى كلمة تعظيم ، ثم فسر حالها فقال : (لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ) أى لا تترك لهم عظما ولا لحما ولا دما إلا أحرقتة .

(١) يقول : لو أتاني هذا النبأ عن حديث غيره لقلت قولا يشيع فى الناس و يؤثر عن آخر الدهر . والنثا ما يحدث به من

خير وشر . والمسند الدهر .

(٢) الذى فى ديوان الأعشى طبع أوربا : تداريما .

(٣) فى بعض النسخ : من قول أبى اليسر سيار .

وكرر اللفظ تأكيذا . وقيل : لا تبقى منهم شيئا ، ثم يعادون خلقا جديدا ، فلا تذر أن تعاود إحراقهم هكذا أبدا . وقال مجاهد : لا تبقى من فيها حيا ولا تذر ميتا تحرقهم كلما جددوا . وقال السدي : لا تبقى لهم لحما ولا تذر لهم عظما . (لَوَّاحَةٌ لِلْبَشْرِ) أى مغيرة من لاحة إذا غيره . وقراءة العامة « لَوَّاحَةٌ » بالرفع نعت لـ «سَقَرُ» في قوله تعالى : « وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ » .

وقرأ عطية العوفي ونصر بن عاصم وعيسى بن عمر « لَوَّاحَةٌ » بالنصب على الاختصاص للهوىيل . وقال أبو رزين : تلفح وجوههم لفحة تدعها أشد سوادا من الليل ؛ وقاله مجاهد .

والعرب تقول : لاحة البرد والحرق والسقم والحزن إذا غيره ؛ ومنه قول الشاعر :

(١)
تَقُولُ مَا لَاحَكَ يَا مُسَافِرَ * يَا بِنْتَ عَمِّي لَاحِنِي الْهَوَاجِرُ

وقال آخر :

(٢)
وَتَعْجَبُ هِنْدٌ أَنْ رَأَتْ نِيَّ شَاحِبًا * تَقُولُ لَشَيْءٍ لَوَّحْتَهُ السَّمَائِمُ

وقال رؤبة بن العجاج :

(٣)
لَوَّحَ مِنْهُ بَعْدَ بُدْنٍ وَسَنَقٍ * تَلْوِيحَكَ الضَّامِرِ يُطَوِي لِلْسَّبَقِ

وقيل : إن اللوح شدة العطش ؛ يقال : لاحة العطش ولوَّحه أى غيره . والمعنى أنها معطشة للبشر أى لأهلها ؛ قاله الأخفش ، وأنشد :

سَقَتْنِي عَلَى لَوِّحٍ مِنَ الْمَاءِ شَرِبَةً * سَقَاهَا بِهَا اللَّهُ الرَّهَامَ الْغَوَادِيَا

يعنى باللوح شدة العطش ، والتاح أى عطش . والرَّهَامُ جمع رِهْمَةٍ بالكسروهى المطرة الضعيفة ، وأرهمت السحابة أنت بالرَّهَامِ . وقال ابن عباس : «لَوَّاحَةٌ» أى تلوح للبشر من مسيرة خمسمائة عام . الحسن وابن كيسان : تلوح لهم جهنم حتى يروها عيانا ؛ نظيره : « وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ »

(١) الهواجر جمع هاجرة وهى شدة الحر عند منتصف النهار .

(٢) السائم جمع سموم وهى الريح الحارة .

(٣) لوحه السفر غيره وأضمره والبدن السمن واكتناز اللحم . والسبق الشبع حتى يكون كالنخمة . الضامر :

الفرس . يطوى يجوع لأجل السباق .

وفي البشر وجهان : أحدهما - أنه الإنس من أهل النار ؛ قاله الأخفش والأكثرون .
الثاني - أنه جمع بشرة وهي جلدة الإنسان الظاهرة ؛ قاله مجاهد وقتادة . وجمع البشر أبقار
وهذا على التفسير الأول ، وأما على تفسير ابن عباس فلا يستقيم فيه إلا الناس لا الجلود ؛
لأنه من لاح الشيء يُلوح إذا لمع .

قوله تعالى : عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ
إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ
وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى
لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : (عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ) أي على سقر تسعة عشر من الملائكة يلقون فيها أهلها .
ثم قيل : على حملة النار تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها ؛ مالك وثمانية عشر ملكا .
ويحتمل أن تكون التسعة عشر نقيبا ، ويحتمل أن يكون تسعة عشر ملكا بأعيانهم .
وعلى هذا أكثر المفسرين . الثعلبي : ولا ينكر هذا ، فإذا كان ملك واحد يقبض أرواح
جميع الخلائق كان أحرى أن يكون تسعة عشر على عذاب بعض الخلائق . وقال ابن جريج :
نعت النبي صلى الله عليه وسلم خزنة جهنم . فقال : ” فكأن أعينهم البرق وكان أفواههم
الصياصي يجزون أشعارهم لأحدهم من القوة مثل قوة الثقلين يسوق أحدهم الأمة وعلى رقبتة
جبل فيرميهم في النار ويرمى فوقهم الجبل ” .

قلت : وذكر ابن المبارك قال حدثنا حماد بن سلمة ، عن الأزرق بن قيس ، عن رجل من بني تميم قال : كنا عند أبي العوام فقرا هذه الآية « وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ . لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ . لَوَاحٍ لِلْبَشِيرِ . عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ » فقال ما تسعة عشر ؟ تسعة عشر ألف ملك أو تسعة عشر ملكا ؟ قال قلت : لا بل تسعة عشر ملكا . فقال : وأنى تعلم ذلك ؟ فقلت : لقول الله عز وجل : « وَمَا جَعَلْنَا عَدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا » قال : صدقت هم تسعة عشر ملكا بيد كل ملك منهم مرزبة لها شعبتان فيضرب الضربة فيهوى بها في النار سبعين ألفا . وعن عمرو بن دينار : كل واحد منهم يدفع بالدفعة الواحدة في جهنم أكثر من ربيعة ومضر . وخرج الترمذي عن جابر بن عبد الله قال : قال ناس من اليهود لأناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم ؟ قالوا : لا ندري حتى نسأل نبينا . فجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد غلب أصحابك اليوم ، فقال : « وبم غلبوا » قال : سألهم يهود هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم قال : « فماذا قالوا » قال : قالوا لا ندري حتى نسأل نبينا . قال : « أفغلب قوم سألوا عما لا يعلمون فقالوا لا نعم حتى نسأل نبينا لكنهم قد سألوا نبيهم فقالوا أرنا الله جهرة على بأعداء الله إني سألهم عن تربة الجنة وهي الدرهمك » فلما جاءوا قالوا : يا أبا القاسم كم عدد خزنة جهنم ؟ قال : « هكذا وهكذا » في مرة عشرة وفي مرة تسعة . قالوا : نعم . قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : « ما تربة الجنة » قال : فسكنوا هنيهة ثم قالوا : أخبزة يا أبا القاسم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الخبز من الدرهمك » قال أبو عيسى : هذا حديث غريب إنما نعرفه من هذا الوجه من حديث مجالد عن الشعبي عن جابر . وذكر ابن وهب قال : حدثنا عبد الرحمن بن زيد ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في خزنة جهنم : « ما بين منكب أحدهم كما بين المشرق والمغرب » . وقال ابن عباس : ما بين منكب الواحد منهم مسيرة سنة ، وقوة الواحد منهم أن يضرب بالمقمع فيدفع بتلك الضربة سبعين ألف إنسان في قعر جهنم .

(١) المرزبة عصية من حديد والمطرقة الكبيرة التي للحداد .

قلت: والصحيح إن شاء الله أن هؤلاء التسعة عشر هم الرؤساء والنقباء، وأما حملتهم فالعبارة تعجز عنها كما قال الله تعالى: «وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ». وقد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى عليه وسلم: «يؤتى بجهم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجزونها». وقال ابن عباس وقتادة والضحاك: لما نزل «عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ» قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم! أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة جهنم تسعة عشر، وأنتم الدّهم - أي العدد - والشجعان، فيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم! قال السدي: فقال أبو الأشد بن كلدة الجُمحى لا يهولنكم التسعة عشر، أنا أدفع بمنكبي الأيمن عشرة من الملائكة، وبمنكبي الأيسر التسعة، ثم تمرّون إلى الجنة. يقولها مستهزئاً. في رواية: إن الحرث بن كلدة قال أنا أ كفيكم سبعة عشر وأ كفوني أتم أثنين. وقيل: إن أبا جهل قال أفيعجز كل مائة منكم أن يبطشوا بواحد منهم ثم تخرجون من النار؟ فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ أي لم نجعلهم رجالاً فتعاطون مغالبتهم. وقيل: جعلهم ملائكة لأنهم خلاف جنس المعدّين من الجن والإنس، فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرأفة والرقّة ولا يستروحون إليهم، ولأنهم أقوم خلق الله بحق الله وبالغضب له فتؤمن هوادتهم، ولأنهم أشد خلق الله بأساً وأقواهم بطشاً. ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً﴾ أي بلية. وروى عن ابن عباس من غير وجه قال: ضلالة للذين كفروا يريد أبا جهل وذويه. وقيل: إلا عذاباً، كما قال تعالى: «يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ. ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ» أي جعلنا ذلك سبب كفرهم وسبب العذاب. وفي «تِسْعَةَ عَشَرَ» سبع قراءات: قراءة العامة «تِسْعَةَ عَشَرَ». وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وطلحة بن سليمان «تِسْعَةَ عَشَرَ» بإسكان العين. وعن ابن عباس «تِسْعَةُ عَشَرَ» بضم الهاء.

(١) ورد في الأصول ست قراءات فقط ولعل السابعة قراءة سليمان بن قنة «تسعة عشر» بضم التاء وهمزة مفتوحة وسكون العين وضم الشين وجر الراء. وتعقب السمين هذه القراءات فقال: «في هذه الكلمة قراءات شاذة وتوجيهات تشاكلها».

وعن أنس بن مالك « تِسْعَةٌ وَعَشْرٌ » وعنه أيضا « تِسْعَةٌ وَعَشْرٌ » . وعنه أيضا « تِسْعَةٌ
 أَعْشُرٌ » ذكرها المهدوي وقال : من قرأ « تِسْعَةَ عَشْرَ » أسكن العين لتوالي الحركات .
 ومن قرأ « تِسْعَةَ وَعَشْرَ » جاء به على الأصل قبل التركيب ، وعطف عشرا على تسعة ،
 وحذف التنوين لكثرة الاستعمال ، وأسكن الراء من عشر على نية السكوت عليها . ومن قرأ
 « تِسْعَةَ عَشْرَ » فكأنه من التداخل ؛ كأنه أراد العطف وترك التركيب فرفع هاء التانيث
 ثم راجع البناء وأسكن . وأما « تِسْعَةُ أَعْشُرَ » فغير معروف ، وقد أنكرها أبو حاتم .
 وكذلك « تِسْعَةٌ وَعَشْرٌ » لأنها محمولة على « تِسْعَةُ أَعْشُرَ » والواو بدل من الهمزة وليس
 لذلك وجه عند النحويين . الزمخشري : وقرئ « تِسْعَةُ أَعْشُرَ » جمع عَشِيرٍ مثل يَمِينٍ
 وَأَيْمَنُ .

قوله تعالى : ﴿ لَيْسَتَيْنِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ أى ليوقن الذين أعطوا التوراة والإنجيل
 أن عدد خزنة جهنم موافقة لما عندهم ؛ قاله ابن عباس وقتادة والضحاك ومجاهد وغيرهم .
 ثم يحتمل أنه يريد الذين آمنوا منهم كعبد الله بن سلام . ويحتمل أنه يريد الكل .
 ﴿ وَيَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ بذلك ؛ لأنهم كلما صدقوا بما فى كتاب الله آمنوا ، ثم ازدادوا
 إيمانا لتصدقهم بعدد خزنة جهنم . ﴿ وَلَا يَرْتَابَ ﴾ أى ولا يشك ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾
 أى أعطوا الكتاب ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ أى المصدقون من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فى أن
 عدد خزنة جهنم تسعة عشر . ﴿ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أى فى صدورهم شك
 ونفاق من منافق أهل المدينة ، الذين ينجُمون فى مستقبل الزمان بعد الهجرة ، ولم يكن بمكة
 نفاق وإنما نجُم بالمدينة . وقيل : المعنى ؛ أى وليقول المنافقون الذين ينجُمون فى مستقبل
 الزمان بعد الهجرة . ﴿ وَالْكَافِرُونَ ﴾ أى اليهود والنصارى ﴿ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ يعنى
 بعدد خزنة جهنم . وقال الحسين بن الفضل : السورة مكية ولم يكن بمكة نفاق ؛ فالمرض
 فى هذه الآية الخلاف و « الْكَافِرُونَ » أى مشركو العرب . وعلى القول الأول أكثر المفسرين .
 ويجوز أن يراد بالمرض الشك والارتياب ؛ لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين وبعضهم

قاطعين بالكذب، وقوله تعالى إخباراً عنهم : «مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ» أى ما أراد الله «بِهَذَا» العدد الذى ذكره حديثاً أى ما هذا من الحديث ؛ قال الليث : المثل الحديث ؛ ومنه « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ » أى حديثها والخبر عنها (كَذَلِكَ) أى كإضلال الله أبا جهل وأصحابه المنكرين لخزنة جهنم (يُضِلُّ اللَّهُ) أى يخزى ويعمى (مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي) أى ويرشد (مَنْ يَشَاءُ) كإرشاد أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : « كذلك يضل الله » عن الجنة « من يشاء ويهدى » إليها « من يشاء » . (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) أى وما يدري عدد ملائكة ربك الذين خلقهم لتعذيب أهل النار « إِلَّا هُوَ » أى إلا الله جل ثناؤه . وهذا جواب لأبى جهل حين قال : أما لمحمد من الجنود إلا تسعة عشر؟! وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقسم غنائم حنين ، فاتاه جبريل بجلوس عنده ، فاتى ملك فقال : إن ربك يأمرك بكذا وكذا، فخشى النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون شيطانا، فقال : « يا جبريل أتعرفه » فقال : هو ملك وما كل ملائكة ربك أعرف . وقال الأوزاعي قال موسى : « يا رب من فى السماء قال ملائكتى قال كم عدتكم يا رب قال آثنى عشر سبطا قال كم عدت كل سبب قال عدد التراب » . ذكرهما الثعلبي . وفى الترمذى عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَنْطَبَّ مَا فِيهَا مَوْضِعَ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جِهَتَهُ لِلَّهِ سَاجِدًا » .

قوله تعالى : (وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشِيرِ) يعنى الدلائل والمجج والقرآن . وقيل : « وَمَا هِيَ » أى وما هذه النار التى هى سقر « إِلَّا ذِكْرٌ » أى عظة « لِلْبَشِيرِ » أى للخلق . وقيل : نار الدنيا تذكرة لنار الآخرة . قاله الزجاج . وقيل : أى ما هذه العدة « إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشِيرِ » أى ليتذكروا ويعلموا كمال قدرة الله تعالى ، وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار ؛ فالكتابة على هذا فى قوله تعالى : « وَمَا هِيَ » ترجع إلى الجنود ؛ لأنه أقرب مذكور .

قوله تعالى : كَلَّا وَالْقَمَرَ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ
 إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَنْ شَاءَ
 مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾
 إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾
 مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنْ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ
 نُنْطَعِ الْمَسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَحُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ
 بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ آتَانَا الْيَقِينَ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : (كَلَّا وَالْقَمَرَ) قال الفراء : « كَلَّا » صلة للقسم ، التقدير أى والقمر .
 وقيل : المعنى ؛ حقا والقمر فلا يوقف على هذين التقديرين على « كَلَّا » وأجاز الطبري الوقف
 عليها ، وجعلها ردا للذين زعموا أنهم يقاومون خزنة جهنم ؛ أى ليس الأمر كما يقول من زعم
 أنه يقاوم خزنة النار . ثم أقسم على ذلك جل وعز بالقمر وبما بعده فقال : (وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ)
 أى ولى وكذلك « دَبَرَ » . وقرأ نافع وحمزة وحفص « إِذَا أَدْبَرَ » الباقون « إِذَا » بآلف و« دَبَرَ »
 بغير آلف وهما لغتان بمعنى ؛ يقال : دبرو أدبر ، وكذلك قبل الليل وأقبل . وقد قالوا أمس
 الدابر والمدبر ، قال صخر بن عمرو بن الشريد السلمي :

وَلَقَدْ قَتَلْنَاكُمْ شَاءَ وَمَوْحَدًا * وَتَرَكْتُ مُرَّةً مِثْلَ أَمْسِ الدَّابِرِ

ويروى المدبر . وهذا قول الفراء والأخفش . وقال بعض أهل اللغة : دبر الليل إذا مضى
 وأدبر أخذ في الإدبار . وقال مجاهد : سألت ابن عباس عن قوله تعالى « وَاللَّيْلِ إِذَا دَبَرَ »
 فسكت حتى إذا دَبَرَ قال : يا مجاهد ! هذا حين دَبَرَ الليل . وقرأ محمد بن السَّمِيعِ « وَاللَّيْلِ
 إِذَا أَدْبَرَ » بالفين ، وكذلك في مصحف عبد الله وأبي بالفين . وقال قطرب من قرأ « دَبَرَ »
 فيعنى أقبل ، من قول العرب دبر فلان إذا جاء من خلفي . قال أبو عمرو : وهى لغة قريش .

وقال ابن عباس في رواية عنه : الصواب « أدبر » إنما يدبر ظهر البعير . وأختار أبو عبيد « إذا أدبر » قال : لأنها أكثر موافقة للحروف التي تليه ؛ ألا تراه يقول (وَالصُّبْحُ إِذَا اسْفَرَ) فكيف يكون أحدهما « إذ » والآخر « إذا » وليس في القرآن قسم تعقبه « إذ » وإنما يتعقبه « إذا » . ومعنى « أسفر » أضاء . وقراءة العامة « أسفر » بالألف . وقرأ ابن السميع « سَفَرَ » . وهما لغتان . يقال : سَفَر وجهُ فلان وأسفر إذا أضاء . وفي الحديث : « أسفروا بالفجر فإنه أعظم للأجر » أي صلوا صلاة الصبح مسافرين ، ويقال : طَوَّلُوها إلى الإسفار والإسفار الإِنارة . وأسفر وجهه حسنا أي أشرق ، وسَفَرَت المرأة كشفت عن وجهها فهي سافرة . ويجوز أن يكون [من] سَفَر الظلام أي كمنسه كما يُسَفَر البيت أي يُكنس ، ومنه السَّفِير لما سقط من ورق الشجر وتحات ؛ يقال : إنما سمي سفيرا لأن الريح تَسْفِرُه أي تَكُنسه . والمِسْفرة المِكنسة .

قوله تعالى : (إِنَّهَا لِإِحْدَى الْكُبَرِ) جواب القسم ؛ أي إن هذه النار « لِإِحْدَى الْكُبَرِ » أي لإحدى الدواهي . وفي تفسير مقاتل « الْكُبَرِ » أسم من أسماء النار . وروى عن ابن عباس « إِنَّهَا » أي إن تكذيبهم بمحمد صلى الله عليه وسلم « لِإِحْدَى الْكُبَرِ » أي لكبيرة من الجبائر . وقيل : أي إن قيام الساعة لإحدى الْكُبَرِ . وَالْكُبَرُ هي العظام من العقوبات ؛ قال الرازي :
يا بن المعلِّ نزلت إحدى الْكُبَرِ * داهية الدهر وصمء الغير

وواحدة « الْكُبَرِ » كبرى مثل الصغرى والصغرة والعظمى والعظم . وقرأ العامة « لِإِحْدَى » وهو أسم بنى ابتداء للتأنيث وليس مبنيًا على المذكور ؛ نحو عقبي وأخرى وألفه ألف قطع لا تذهب في الوصل . وروى جرير بن حازم عن ابن كثير « إِنَّهَا لِاحْدَى الْكُبَرِ » بحذف الهمزة . (نَذِيرًا لِلْبَشَرِ) يريد النار أي إن هذه النار الموصوفة « نَذِيرًا لِلْبَشَرِ » فهو نصب على الحال من المضمرة في « إِنَّهَا » قاله الزجاج . وَذُكِّرَ ؛ لأن معناه معنى العذاب ، أو أراد ذات إنذار على معنى النسب ؛ كقولهم امرأة طالق وطاهر . وقال الخليل : النذير مصدر كالنكير ولذلك يوصف به المؤنث . وقال الحسن : والله ما أنذر الخلائق بشيء أدهى منها . وقيل : المراد بالنذير محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أي قم نذيرا للبشر أي مخوفا لهم

ف « نذيرا » حال من « قُمْ » في أول السورة حين قال : « قُمْ فَأَنْذِرْ » قاله أبو علي الفارسي وأبن زيد، وروى عن ابن عباس وأنكره الفراء . ابن الأنباري : وقال بعض المفسرين معناه « يأبى المدثر قم نذيرا للبشر . وهذا قبيح ؛ لأن الكلام قد طال فيما بينهما . وقيل : هو من صفة الله تعالى . روى أبو معاوية الضرير : حدثنا إسماعيل بن سميع عن أبي رزين « نذيرا للبشر » قال يقول الله عز وجل : أنا لكم نذير فاتقوها . و « نذيرا » على هذا نصب على الحال ؛ أي « وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً » منذرا بذلك البشر . وقيل : هو حال من « هو » في قوله تعالى : « وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ » . وقيل : هو في موضع المصدر كأنه قال : إنذارا للبشر . قال الفراء : يجوز أن يكون النذير بمعنى الإنذار أي أنذر إنذارا ؛ فهو كقوله تعالى : « فَكَيْفَ كَانَ نَذِيرٍ » أي إنذارى ؛ فعلى هذا يكون راجعا إلى أول السورة أي « قم فأنذر » أي إنذارا . وقيل : هو منصوب بإضمار فعل . وقرا ابن أبي عبلة « نذيرٌ » بالرفع على إضمار هو . وقيل : أي إن القرآن نذير للبشر لما تضمنه من الوعد والوعيد .

قوله تعالى : ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ اللام متعلقة بـ « نذيرا » ؛ أي نذيرا لمن شاء منكم أن يتقدم إلى الخير والطاعة ، أو يتأخر إلى الشر والمعصية ؛ نظيره : « وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ » أي في الخير « وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ » عنه . قال الحسن : هذا وعيد وتهديد وإن خرج مخرج الخبر ، كقوله تعالى : « فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ » . وقال بعض أهل التأويل : معناه لمن شاء الله أن يتقدم أو يتأخر ؛ فالمشيئة متصلة بالله جل ثناؤه ، والتقديم الإيمان والتأخير الكفر . وكان ابن عباس يقول : هذا تهديد وإعلام أن من تقدم إلى الطاعة والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم جوزى بثواب لا ينقطع ، ومن تأخر عن الطاعة وكذب محمدا صلى الله عليه وسلم عوقب عقابا لا ينقطع . وقال السدي : « لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ » إلى النار المتقدم ذكرها « أَوْ يَتَأَخَّرَ » عنها إلى الجنة .

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ أى مرتبنة بكسبها ، مأخوذة بعملها ، إما خلصها وإما أوبقها وليست « رهينة » تأنيث رهين فى قوله تعالى : « كُلُّ أَمْرٍ يُرَىٰ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ » لتأنيث النفس ؛ لأنه لو قصدت الصفة ل قيل رهين ؛ لأن فعلا بمعنى مفعول يستوى فيه المذكر والمؤنث . وإنما هو أسم بمعنى الرهن كالشقيقة بمعنى الشتم ؛ كأنه قيل : كل نفس بما كسبت رهين ؛ ومنه بيت الحماسة :

أبعد الذى بالنعيف نعيف كويكب * رهينة رمس ذى تراب وجندل^(١)

كأنه قال رهن رمس . والمعنى : كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك ﴿ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ فإنهم لا يرتنون بذنوبهم . واختلف فى تعيينهم ؛ فقال ابن عباس : الملائكة . على بن أبى طالب : أولاد المسلمين لم يكتسبوا فرتنوا بكسبهم . الضحاك : الذين سبقتم لهم من الله الحسنى ، ونحوه عن ابن جريح ؛ قال : كل نفس بعملها محاسبة « إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ » وهم أهل الجنة فإنهم لا يحاسبون . وكذا قال مقاتل أيضا : هم أصحاب الجنة الذين كانوا عن يمين آدم يوم الميثاق حين قال الله لهم : هؤلاء فى الجنة ولا أبالى . وقال الحسن وأبن كيسان : هم المسلمون المخلصون ليسوا بمرتنين ؛ لأنهم أدوا ما كان عليهم . وعن أبى ظبيان عن ابن عباس قال : هم المسلمون . وقيل : إلا أصحاب الحق وأهل الإيمان . وقيل : هم الذين يعطون كتبهم بأيمانهم . وقال أبو جعفر الباقر : نحن وشيعتنا أصحاب اليمين ، وكل من أبغضنا أهل البيت فهم المرتنون . وقال الحكم : هم الذين اختارهم الله لخدمته فلم يدخلوا فى الرهن ؛ لأنهم خدام الله وصفوته وكسبهم لم يضرهم . وقال القاسم : كل نفس مأخوذة بكسبها من خير أو شر إلا من أعتمد على الفضل والرحمة دون الكسب والخدمة ، فكل من أعتمد على الكسب فهو مرهون ، وكل من أعتمد على الفضل فهو غير مأخوذ به .

﴿ فِي جَنَّاتٍ ﴾ أى فى بساتين ﴿ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أى يسألون ﴿ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى المشركين

(١) النعيف من الأرض المكان المرتفع فى أعراض . والبيت من قول عبد الرحمن بن زيد العذرى وقد قتل أخوه وعرضت عليه الدية فأبى أن يأخذها وأخذ بناره .

(مَا سَلَكَكُمْ) أى أدخلكم (فِي سَقَرٍ) كما تقول : سلكت الخيط في كذا أى أدخلته فيه . قال الكلبي : فيسأل الرجل من أهل الجنة الرجل من أهل النار باسمه ، فيقول له : يا فلان . وفي قراءة عبد الله بن الزبير « يا فلان ما سَلَكَكَ فِي سَقَرٍ » . وعنه قال : قرأ عمر بن الخطاب « يا فلان ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ » وهي قراءة على التفسير لا أنها قرآن كما زعم من طعن في القرآن ؛ قاله أبو بكر بن الأنباري . وقيل : إن المؤمنين يسألون الملائكة عن أقربائهم فتسأل الملائكة المشركين فيقولون لهم « مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ » . قال الفراء : في هذا ما يقوى أن أصحاب اليمين الولدان ؛ لأنهم لا يعرفون الذنوب . (قَالُوا) يعنى أهل النار (لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ) أى المؤمنين الذين يصلون . (وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ) أى لم نك نتصدق . (وَكُنَّا نَحْوُضُ مَعَ الْحَائِضِينَ) أى كنا نخالط أهل الباطل في باطلهم . وقال ابن ريد : نخوض مع الحائضين في أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو قولهم - لعنهم الله - كاهن مجنون شاعر ساحر . وقال السدي : أى وكنا نكذب مع المكذبين . وقال قتادة : كلما غوى غاو غويننا معه . وقيل معناه : وكنا أتباعا ولم نكن متبوعين . (وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ) أى لم نك نصدق بيوم القيامة يوم الجزاء والحكم . قوله تعالى : (حَتَّىٰ آتَانَا الْيَقِينَ) أى جاءنا ونزل بنا الموت ؛ ومنه قوله تعالى : « وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ » .

قوله تعالى : (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) هذا دليل على صحة الشفاعة للذنين ؛ وذلك أن قوما من أهل التوحيد عذبوا بذنوبهم ثم شُفِعَ فيهم فرحمهم الله بتوحيدهم والشفاعة فأخرجوا من النار ، وليس للكفار شفيع يشفع فيهم . وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : يشفع نبيكم صلى الله عليه وسلم رابع أربعة ؛ جبريل ثم إبراهيم ثم موسى أو عيسى ثم نبيكم صلى الله عليه وسلم ثم الملائكة ثم النبيون ثم الصديقون ثم الشهداء ، ويبقى قوم في جهنم فيقال لهم : « مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ » . قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ » إلى قوله : « فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ » قال عبد الله بن مسعود : فهؤلاء هم الذين يبقون في جهنم . وقد ذكرنا إسناده في كتاب « التذكرة » .

قوله تعالى : **فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَانَهُمْ حَمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَتَتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مَنشُورَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾**

قوله تعالى : **(فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ)** أى فما لأهل مكة قد أعرضوا وولوا عما جئتهم به . وفى تفسير مقاتل : الإعراض عن القرآن من وجهين ؛ أحدهما الجحود والإنكار ، والوجه الآخر ترك العمل بما فيه . و « مُعْرِضِينَ » نصب على الحال من الهاء والميم فى « لَهُمْ » وفى اللام معنى الفعل ؛ فانتصاب الحال على معنى الفعل . **(كَانَهُمْ)** أى كأن هؤلاء الكفار فى فرارهم من محمد صلى الله عليه وسلم **(حَمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ)** قال ابن عباس : أراد الحمر الوحشية . وقرأ نافع وابن عامر بفتح الفاء أى مُنْفِرَةٌ مذعورة ؛ وأختره أبو عبيد وأبو حاتم . الباقيون بالكسر أى نافرة . يقال : نفرت وأستنفرت بمعنى ؛ مثل عَجِبْتُ وَأَسْتَعْجَبْتُ وَسَخَّرْتُ وَأَسْتَسَخَّرْتُ ؛ وأنشد الفراء :

أَمْسِكَ حِمَارَكَ إِنَّهُ مُسْتَنْفِرٌ * فى إِثْرِ أَحْمَرَةٍ عَمَدَنْ لِعُزْبِ (١)

قوله تعالى : **(فَتَتْ)** أى نفرت وهربت **(مِنْ قَسْوَرَةٍ)** أى من رماة يرمونها . وقال بعض أهل اللغة : إن القسور الرامى وجمعه القسورة . وكذا قال سعيد بن جبيرة وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك وابن كيسان : القسورة هم الرماة والصيادون ، ورواه عطاء عن ابن عباس وأبو [ظبيان] (٢) عن أبى موسى الأشعري . وقيل : إنه الأسد . قاله أبو هريرة وابن عباس أيضا . ابن عرفة : من القسر بمعنى القهر أى إنه يقهر السباع والحمر الوحشية تهرب من السباع . وروى أبو حمزة عن ابن عباس قال : ما أعلم القسورة الأسد فى لغة أحد من العرب ولكنها عُصَبُ الرجال ؛ قال : فالقسورة جمع الرجال وأنشد :

(١) غرب كسكر أسم موضع وجبل دون الشام فى بلاد بنى كلاب .

(٢) فى الأصول : أبو حيان وهو تحريف والتصحيح من تفسير الثعلبى « والتهديب » .

يا بنت كوني خيرةً لحيرة * أخوالها الجن وأهل القسورة

وعنه : ركز الناس أي حسهم وأصواتهم . وعنه أيضا : « فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ » أي من حبال الصيادين . وعنه أيضا القسورة بلسان العرب الأسد، وبلسان الحبشة الرماة؛ وبلسان فارس شير، وبلسان النبط أريا . وقال ابن الأعرابي : القسورة أول الليل؛ أي فرت من ظلمة الليل . وقاله عكرمة أيضا . وقيل : هو أول سواد الليل، ولا يقال لآخر سواد الليل قسورة . وقال زيد بن أسلم : من رجال أقوياء، وكل شديد عند العرب فهو قسورة وقسور . وقال لبيد بن ربيعة :

إذا ما هتفنا هتفةً في ندينا * أتانا الرجال العائدون القساور

قوله تعالى : ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً ﴾ أي يعطى كتبا مفتوحة ؛ وذلك أن أبا جهل وجماعة من قريش قالوا : يا محمد ! آيتنا بكتب من رب العالمين مكتوب فيها أنى قد أرسلت إليك محمدا ؛ صلى الله عليه وسلم ؛ نظيره : « وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقَيْكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ » . وقال ابن عباس : كانوا يقولون إن كان محمد صادقا فليصبح عند كل رجل منا صحيفة فيها براءته وأمنه من النار . قال مطر الوراق : أرادوا أن يعطوا بغير عمل . وقال الكلبي : قال المشركون بلغنا أن الرجل من بني إسرائيل كان يصبح عند رأسه مكتوبا ذنبه وكفارته فأتنا بمثل ذلك . وقال مجاهد : أرادوا أن ينزل على كل واحد منهم كتاب فيه من الله عز وجل إلى فلان بن فلان . وقيل : المعنى أن يذكر بذكر جميل ؛ فجعلت الصحف موضع الذكر مجازا . وقالوا : إذا كانت ذنوب الإنسان تكتب عليه فما بالناس لا نرى ذلك . ﴿ كَلَّا ﴾ أي ليس يكون ذلك . وقيل : حقا . والأول أجود؛ لأنه رد لقولهم . ﴿ بَلْ لَا يَخَافُونَ الآخرة ﴾ أي لا أعطيهم ما يتمنون لأنهم لا يخافون الآخرة آغترارا بالدنيا . وقرأ سعيد بن جبیر « صُحُفًا مُنشَرَةً » بسكون الحاء والنون؛ فأما تسكين الحاء فتخفيف، وأما النون فشاذ . إنما يقال : نشرت الثوب وشبهه ولا يقال أنشرت . ويجوز أن يكون شبه الصحيفة بالميت كأنها ميتة بطيها، فإذا نشرت حيث، بفاء على أنشر الله الميت كما شبه إحياء الميت بنشر الثوب؛ فقليل فيه نشر الله الميت فهي لغة فيه .

قوله تعالى : **كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ** ﴿٥٤﴾ **فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ** ﴿٥٥﴾
وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾
قوله تعالى : **(كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ)** أى حقاً إن القرآن عظة . **(فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ)** أى أتعظ
به . **(وَمَا يَذْكُرُونَ)** أى وما يتعظون **(إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)** أى ليس يقدرّون على الاتعاض
والتذكر إلا بمشيئة الله ذلك لهم . وقراءة العامة « **يَذْكُرُونَ** » بالياء وأختره أبو عبيد؛ لقوله
تعالى : **« كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ »** . وقرأ نافع ويعقوب بالتاء ، وأختره أبو حاتم لأنه أعم
وأنفقوا على تخفيفها . **(هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ)** فى الترمذى وسنن ابن ماجه عن أنس
ابن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فى هذه الآية **« هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ
الْمَغْفِرَةِ »** قال : **« قال الله تبارك وتعالى أنا أهل أن أتقى فمن اتقانى فلم يجعل معى إلهاً فإنا
أهل أن أغفرله »** لفظ الترمذى وقال فيه : حديث حسن غريب . وفى بعض التفسير : هو
أهل المغفرة لمن تاب إليه من الذنوب الكبار ، وأهل المغفرة أيضاً للذنوب الصغار باجتنب
الذنوب الكبار . وقال محمد بن نصر : أنا أهل أن يتقنى عبدى ، فإن لم يفعل كنت أهلاً
أن أغفرله وأرحمه ، وأنا الغفور الرحيم .

سورة القيامة

مكية وهى تسع وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : **لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ** ﴿١﴾ **وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** ﴿٢﴾
أَلَيْسَ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ **بَلَى قَدِيرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّىَ
بَنَانَهُ** ﴿٤﴾ **بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ** ﴿٥﴾ **يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمِ
الْقِيَامَةِ** ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ قيل : إن « لا » صلة وجاز وقوعها في أول السورة ؛ لأن القرآن متصل بعبءه ببعض فهو في حكم كلام واحد ؛ ولهذا قد يذكر الشيء في سورة ويجيء جوابه في سورة أخرى ؛ كقوله تعالى : « وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ » وجوابه في سورة أخرى : « مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ » ومعنى الكلام أقسم بيوم القيامة ؛ قاله ابن عباس وابن جبير وأبو عبيدة ؛ ومثله قول الشاعر :

تَذَكَّرْتُ لَيْلِي فَاغْتَرَبْتَنِي صَبَابَةً * فَكَادَ صَمِيمُ الْقَلْبِ لَا يَتَقَطَّعُ

وحكى أبو الليث السمرقندي : أجمع المفسرون أن معنى « لَا أُقْسِمُ » أقسم ، وأختلفوا في تفسير « لا » قال بعضهم : « لا » زيادة في الكلام للزينة ويجرى في كلام العرب زيادة « لا » كما قال في آية أخرى : « قَالَ مَا مَنَّكَ أَنْ لَا تَسْجُدَ » يعني أن تسجد ، وقال بعضهم : « لا » ردُّ لكلامهم حيث أنكروا البعث فقال : ليس الأمر كما زعمتم .

قلت : وهذا قول الفراء ؛ قال الفراء : وكثير من النحويين يقولون « لا » صلة ولا يجوز أن يبدأ بحمد ثم يجعل صلة ؛ لأن هذا لو كان كذلك لم يعرف خبر فيه بحمد من خبر لا بحمد فيه ، ولكن القرآن جاء بالرد على الذين أنكروا البعث والجنة والنار ، بغاء الإقسام بالرد عليهم [في كثير من الكلام المبتدأ منه وغير المبتدأ^(١)] وذلك كقولهم لا والله لا أفعل فـ«لا» ردُّ لكلام قد مضى ، وذلك كقولك : لا والله إن القيامة لحق ، كأنك أ كذبت قوما أنكروه . وأنشد غير الفراء لأمرئ القيس :

فلا وأبيك أبنة العامري * لا يدعى القوم أني أفر

وقال غوية بن سلمى :

ألا نادى أمانةً بأحتمال * لتحزنتني فلا بك ما أبالي

وفائدتها توكيد القسم في الرد . قال الفراء : وكان من لا يعرف هذه الجهة يقرأ «لأقسم» بغير ألف ؛ كأنها لام تأكيد دخلت على أقسم وهو صواب ؛ لأن العرب تقول : لأقسم بالله

(١) الزيادة من تفسير الفراء .

وهي قراءة الحسن وأبن كثير والزهرى وأبن هُرْمَز . (**بِیَوْمِ الْقِیَامَةِ**) أى بیوم یقوم الناس فیہ لربہم ، ولله عز وجل أن یقسم بما شاء . (**وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**) لاختلاف فی هذا بین القراء وهو أنه أقسم سبحانه بیوم القیامة تعظیما لشأنه [ولم یقسم بالنفس ^(١)] . وعلى قراءة ابن کثیر أقسم بالأولی ولم یقسم بالثانیة . وقیل : « **وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** » رد آخر وأبتداء قسم بالنفس اللوامة . قال الثعلبی : والصحیح أنه أقسم بهما جمیعا . ومعنی « **بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** » أى بنفس المؤمن الذی لا تراه إلا یلوم نفسه ، یقول : ما أردتُ بكذا ؟ فلا تراه إلا وهو یعاتب نفسه ؛ قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم . قال الحسن : هی والله نفس المؤمن ما یرى المؤمن إلا یلوم نفسه : ما أردتُ بكلامی ؟ ما أردتُ بأکلی ؟ ما أردتُ بحدیث نفسی ؟ والفاجر لا یحاسب نفسه . وقال مجاهد : هی التی تلوم على ما فات وتندم ، فتلوم نفسها على الشر لم فعلته ، وعلى الخیر لم لا تستکثر منه . وقیل : إنها ذات اللوم . وقیل : إنها تلوم نفسها بما تلوم علیه غيرها ؛ فعلى هذه الوجوه تكون اللوامة بمعنی اللائمة وهو صفة مدح ؛ وعلى هذا یجىء القسم بها سائغا حسنا . وفى بعض التفسیر أنه آدم علیه السلام لم یزل لائما لنفسه على معصیته التی أخرج بها من الجنة . وقیل : اللوامة بمعنی الملوامة المذمومة — عن ابن عباس أيضا — فهی صفة ذم وهو قول من نفى أن یرى أن یكون قسما ؛ إذ لیس للعاصی خطر یقسم به ، فهی كثيرة اللوم . وقال مقاتل : هی نفس الکافر یلوم نفسه ، ویتحسرفى الآخرة على ما فترط فى جنب الله . وقال الفراء : لیس من نفس محسنة أو مسیئة إلا وهی تلوم نفسها ، فالمحسن یلوم نفسه أن لو كان أزداد إحسانا ، والمسیء یلوم نفسه ألا یرى أن یكون أرعوى عن إساءته .

قوله تعالى : (**أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَنَّ عِظَامَهُ**) فنعیدها خلقا جدیدا بعد أن صارت رفاتا . قال الزجاج : أقسم بیوم القیامة وبالنفس اللوامة لیجمعن العظام للبعث ، فهذا جواب القسم . وقال النحاس : جواب القسم محذوف أى لتبعثن ؛ ودل علیه قوله تعالى : « **أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَنَّ عِظَامَهُ** » للإحیاء والبعث . والإنسان هنا الکافر

(١) الزيادة من تفسیر ابن عطیة وغيره .

المكذّب للبعث . والآية نزلت في عدى بن ربيعة قال للنبي صلى الله عليه وسلم : حدثني عن يوم القيامة متى تكون ، وكيف أمرها وحالها؟ فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ؛ فقال : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد ولم أومن به ، أو يجمع الله العظام ؟ ! ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : «اللهم آكفني جارِي السوء عدِي بن ربيعة والأخنس بن شريق» . وقيل نزلت في عدو الله أبي جهل حين أنكر البعث بعد الموت . وذكر العظام والمراد نفسه كلها ؛ لأن العظام قالب الخلق . (بَلَى) وقف حسن ثم ابتدئ (قَادِرِينَ) . قال سيبويه : على معنى نجمعها قادرين فـ «قَادِرِينَ» حال من الفاعل المضمرة في الفعل المحذوف على ما ذكرناه من التقدير . قيل : المعنى بلى نقدر قادرين . قال الفراء : « قَادِرِينَ » نصب على الخروج من « تَجَمَّع » أى نقدر ونقوى « قَادِرِينَ » على أكثر من ذلك . وقال أيضا : يصلح نصبه على التكرير أى « بَلَى » فليحسبنا قادرين . وقيل : المضمرة كما أى كما قادرين في الابتداء ، وقد اعترف به المشركون . وقرأ ابن أبي عبلة وابن السميع « بَلَى قَادِرُونَ » بتأويل نحن قادرون . (عَلَى أَنْ تُسَوَّى بَنَانُهُ) البنان عند العرب الأصابع واحدها بنانة ؛ قال النابغة :

مُخَضَّبٍ رَخِصٍ كَأَنَّ بَنَانَهُ * عَمَّ يَكَادُ مِنَ اللِّطَافَةِ يُعْقَدُ

وقال عنتره :

وَأَنَّ المَوْتَ طَوَّعَ يَدِي إِذَا مَا * وَصَلْتُ بَنَانَهَا بِالْهِنْدُوَانِي

فنبه بالبنان على بقية الأعضاء . وأيضا فإنها أصغر العظام فخصها بالذكر لذلك . قال القتيبي والزجاج : وزعموا أن الله لا يبعث الموتى ولا يقدر على جمع العظام ؛ فقال الله تعالى : بلى قادرين على أن نعيد السُّلَامِيَّاتِ على صغرها ، ونؤلف بينها حتى تستوى ، ومن قدر على هذا فهو على جمع الكبار أقدر . وقال ابن عباس وعامة المفسرين : المعنى « عَلَى أَنْ تُسَوَّى بَنَانُهُ » أى نجعل أصابع يديه ورجليه شيئا واحدا نحف البعير أو تكافر الحمار أو كظف الخنزير ، ولا يمكنه أن يعمل به شيئا ، ولكنا فزقنا أصابعه حتى يأخذ بها ما شاء . وكان الحسن

يقول : جعل لك أصابع فانت تبسطهن ، وتقبض بهن ، ولو شاء الله لجمعهن فلم نتق الأرض إلا بكفيك . وقيل : أى تقدر أن نعبد الإنسان فى هيئة البهائم ، فكيف فى صورته التى كان عليها ؛ وهو كقوله تعالى : « وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِيهَا لَا تَعْلَمُونَ » .

قلت : والتأويل الأول أشبه بمساق الآية . والله أعلم .

قوله تعالى : (بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ) قال ابن عباس : يعنى الكافر يكذب بما أمامه من البعث والحساب . وقاله عبد الرحمن بن زيد ؛ ودليله (يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ) أى يسأل متى يكون ؟ على وجه الإنكار والتكذيب . فهو لا يقنع بما هو فيه من التكذيب ، ولكن ياتم لما بين يديه . ومما يدل على أن الفجور التكذيب ما ذكره القتيبي وغيره : أن أعرابيا قصده عمر بن الخطاب رضى الله عنه وشكا إليه نقب إبله ودبرها ، وسأله أن يحمله على غيرها فلم يحمله ، فقال الأعرابي :

أَقْسَمَ بِاللَّهِ أَبُو حَفِصٍ عُمَرَ * مَا مَسَّهَا مِنْ نَقَبٍ وَلَا دَبْرٍ
* فَأَغْفِرْ لَهُ اللَّهُمَّ إِنَّ كَانَ فَجْرًا *

يعنى إن كان كذبنى فيما ذكرت . وعن ابن عباس أيضا : يعجل المعصية ويسوف التوبة . وفى بعض الحديث قال : يقول سوف أتوب ولا يتوب ؛ فهو قد أخلف فكذب . وهذا قول مجاهد والحسن وعكرمة والسدى وسعيد بن جبیر يقول : سوف أتوب ، سوف أتوب حتى يأتية الموت على أشتر أحواله . وقال الضحاک : هو الأمل يقول سوف أعيش وأصيب من الدنيا ولا يذكر الموت . وقيل : أى يعزم على المعصية أبدا وإن كان لا يعيش إلا مدة قليلة . فالهاء على هذه الأقوال للإنسان . وقيل : الهاء ليوم القيامة . والمعنى بل يريد الإنسان ليكفر بالحق بين يدي يوم القيامة . والفجور أصله الميل عن الحق . « يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ » أى متى يوم القيامة .

قوله تعالى : فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ
 الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُجُ ﴿١٠﴾ كَلَّا
 لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبِّئُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ
 بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : (فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ) قرأ نافع وأبان عن عاصم « بَرَقَ » بفتح الراء معناه لمع
 بصره من شدة شخوصه فتراه لا يَطْرِيفُ . قال مجاهد وغيره : هذا عند الموت . وقال الحسن :
 هذا يوم القيامة . وقال فيه معنى الجواب عما سأل عنه الإنسان كأنه يوم القيامة « إِذَا بَرَقَ
 الْبَصَرُ . وَخَسَفَ الْقَمَرُ » . والباقون بالكسر « بَرَقَ » ومعناه تحير فلم يَطْرِيفُ ؛ قاله أبو عمرو
 والزجاج وغيرهما . قال ذو الرمة :

ولو أن لُقْمَانَ الحكيم تَعَرَّضْتُ * لِعَيْنِيهِ مَيَّ سَافِرًا كَادَ يَبْرُقُ

الفراء والخليل : « بَرَقَ » بالكسر فَرَزَعٌ وَبُهِتٌ . والعرب تقول للإنسان المتحير المبهوت :
 قد بَرَقَ فهو بَرِيقٌ ؛ وأنشد الفراء :

(١)
 فَنَفْسِكَ فَانْعَ وَلَا تَنْعِنِي * وَدَاوِ الْكُلُومَ وَلَا تَبْرُقِ

أى لا تَفْرَعِ من كثرة الكلوم التي بك . وقيل : بَرَقَ يَبْرُقُ بالفتح شق عينيه وفتحهما . قاله
 أبو عبيدة ؛ وأنشد قول الكلابي :

(٢)
 لما أتاني ابنُ عُمَيْرٍ رَاغِبًا * أَعْطَيْتُهُ عَيْسًا صِهَابًا فَبَرَّقُ

أى فتح عينيه . وقيل : إن كسر الراء وفتحها لغتان بمعنى .

(١) قائله طرفه .

(٢) في غير القرطبي : لما أتاني ابن صبيح . والعيس العهاب هي الإبل التي خالط بياضها حمرة وهي تعد عند

العرب من أشرفها .

قوله تعالى : ﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ أى ذهب ضوؤه . والخسوف فى الدنيا إلى أنجلاء بخلاف الآخرة فإنه لا يعود ضوؤه . ويحتمل أن يكون بمعنى غاب ؛ ومنه قوله تعالى : « نَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ » وقرأ ابن أبى إسحق وعيسى والأعرج . « وَخُسِفَ الْقَمَرُ » بضم الخاء وكسر السين يدل عليه « وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ » . وقال أبو حاتم محمد بن إدريس : إذا ذهب بعضه فهو الكسوف ، وإذا ذهب كله فهو الخسوف . ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ أى جمع بينهما فى ذهاب ضوءهما فلا ضوء للشمس كما لا ضوء للقمر بعد خسوفه ، قاله الفراء والزجاج . قال الفراء : ولم يقل جمعت ؛ لأن المعنى جمع بينهما . وقال أبو عبيدة : هو على تغليب المذكر . وقال الكسائى : هو محمول على المعنى كأنه قال الضوءان . المبرد : التانيت غير حقيقى . وقال ابن عباس وآبن مسعود : جمع بينهما أى قرن بينهما فى طلوعهما من المغرب أسودين مكورين مظلمين مقررنين كأنهما ثوران عقيران . وقد مضى الحديث بهذا المعنى فى آخر سورة « الأنعام »^(١) . وفى قراءة عبد الله « وَجُمِعَ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ » وقال عطاء بن يسار : يجمع بينهما يوم القيامة ثم يقذفان فى البحر فيكون نار الله الكبرى . وقال على وآبن عباس : يجعلان فى [نور]^(٢) المحجب . وقد يجتمعان فى نار جهنم ؛ لأنهما قد عبدا من دون الله ولا تكون النار عذابا لهما لأنهما جماد ، وإنما يفعل ذلك بهما زيادة فى تبيكت الكافرين وحسرتهم . وفى مسند أبى داود الطيالسى ، عن يزيد الرقاشى ، عن أنس بن مالك يرفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الشمس والقمر ثوران عقيران فى النار » وقيل : هذا الجمع أنهما يجتمعان ولا يفترقان ، ويقربان من الناس فيلحقهم العرق لشدة الحر ، فكان المعنى يجمع حرهما عليهم . وقيل : يجمع الشمس والقمر فلا يكون ثم تعاقب ليل ولا نهار .

قوله تعالى : ﴿ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُغُ ﴾ أى يقول ابن آدم ، ويقال أبو جهل ؛ أى ابن المهرب . قال الشاعر :

(١) راجع ج ٧ ص ١٤٦ فا بعدها . (٢) الزيادة من كتب التفسير .

أين المفرُّ والكِبَاشُ تَنْتِطِحُ * وأى كَبِشٍ حاد عنها يَفْتَضِحُ

المسوردي : ويحتمل وجهين ؛ أحدهما « أين المفرُّ » من الله أستجيا منه . الثاني « أين المفرُّ » من جهنم حذرا منها . ويحتمل هذا القول من الإنسان وجهين : أحدهما - أن يكون من الكافر خاصة في عَرَصَةِ الْقِيَامَةِ دون المؤمن ؛ لثقة المؤمن ببشرى ربه . الثاني - أن يكون من قول المؤمن والكافر عند قيام الساعة لهول ما شاهدوا منها . وقراءة العامة « المفرُّ » بفتح الفاء وأختره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأنه مصدر . وقرأ ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة بكسر الفاء مع فتح الميم ؛ قال الكسائي : هما لغتان مثل مَدَبَ ومَدَبَ ومَصَّحَ ومَصَّحَ . وعن الزهري بكسر الميم وفتح الفاء . المهدي : من فتح الميم والفاء من « المفرُّ » فهو مصدر بمعنى الفرار ، ومن فتح الميم وكسر الفاء فهو الموضع الذي يفر إليه . ومن كسر الميم وفتح الفاء فهو الإنسان الجيد الفرار ؛ فالمعنى أين الإنسان الجيد الفرار وان ينجو مع ذلك .

قلت : ومنه قول امرئ القيس :

* مَكْتَرِ مَفْتَرٍ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعَا ^(١)

يريد أنه حسن الكثر والفتز جيده . (كَلَّا) أى لا مفر فـ «كلا» رد وهو من قول الله تعالى ، ثم فسر هذا الرد فقال : (لَا وَزَرَ) أى لا ملجأ من النار . وكان ابن مسعود يقول : لا حصن . وكان الحسن يقول : لا جبل . وابن عباس يقول : لا ملجأ . وابن جبيل : لا محيص ولا منعة . والمعنى فى ذلك كله واحد . والوزر فى اللغة ما يلجأ إليه من حصن أو جبل أو غيرهما ؛ قال الشاعر :

لَعَمْرِي مَا لَلْفَتَى مِنْ وَزْرٍ * مِنَ الْمَوْتِ يُدْرِكُهُ وَالْكِبَرُ

قال السدي : كانوا فى الدنيا إذا فزعوا تحصنوا فى الجبال ، فقال الله لهم : لا وزر

يعصمكم يومئذ منى ؛ قال طرفة :

وَلَقَدْ تَعَلَّمُ بَكْرًا أَنْتَا * فَاضِلُوا الرَّأْيِ فِي الرَّوْعِ وَزَرَ

* بكهود صخر حطه السيل من عل *

(١) تمام البيت :

أى ملجأ للخائف . ويروى : وَقُرَّ . ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ أى المنتهى ؛ قاله قتادة . ونظيره : «وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى» . وقال ابن مسعود : إلى ربك المصير والمرجع . وقيل : أى المستقر فى الآخرة حيث يقتره الله تعالى ؛ إذ هو الحاكم بينهم . وقيل : إن «كَلَّا» من قول الإنسان لنفسه إذا علم أنه ليس له مفر قال لنفسه : «كَلَّا لَا وَزَرَ . إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ» .

قوله تعالى : ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ﴾ أى يخبر ابن آدم برا كان أو فاجرا ﴿بِمَا قَدَّمَ وَآخَرَ﴾ أى بما أسلف من عمل سيء أو صالح ، أو أخر من سنة سيئة أو صالحة يُعمل بها بعده ؛ قاله ابن عباس وابن مسعود . وروى منصور عن مجاهد قال ينبأ بأقول عمله وآخره . وقاله النخعي . وقال ابن عباس أيضا : أى بما قدم من المعصية وأخر من الطاعة . وهو قول قتادة . وقال ابن زيد : «بِمَا قَدَّمَ» من أمواله لنفسه «وَأَخَرَ» خلف للورثة . وقال الضحاك : ينبأ بما قدم من فرض وأخر من فرض . قال القشيري : وهذا الإنباء يكون فى القيامة عند وزن الأعمال . ويجوز أن يكون عند الموت .

قلت : والأقول أظهر ؛ لما خرجه ابن ماجه فى سننه من حديث الزهري ؛ حدثني أبو عبد الله الأغر عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إِنَّمَا يَأْتِيَنَّ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ عِلْمًا عَلَيْهِ وَنَشْرُهُ وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ أَوْ مَصْحَفًا وَرَثَهُ أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ أَوْ بَيْتًا لِابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ تَلَحُّقَهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ» وخرجه أبو نعيم الحافظ بمعناه من حديث قتادة عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «سَبْعٌ يَجْرِي أَجْرُهُنَّ لِلْعَبْدِ بَعْدَ مَوْتِهِ وَهُوَ فِي قَبْرِهِ مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا أَوْ أَجْرَى نَهْرًا أَوْ حَفَرَ بَرًّا أَوْ غَرَسَ نَخْلًا أَوْ بَنَى مَسْجِدًا أَوْ وَرَّثَ مَصْحَفًا أَوْ تَرَكَ وَرَثًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ» فقوله : «بَعْدَ مَوْتِهِ وَهُوَ فِي قَبْرِهِ» نص على أن ذلك لا يكون عند الموت ، وإنما يخبر بجميع ذلك عند وزن عمله ، وإن كان يبشر بذلك فى قبره . ودل على هذا أيضا قوله الحق : «وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ» وقوله تعالى : «وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ» وهذا لا يكون إلا فى الآخرة بعد وزن الأعمال . والله أعلم .

وفي الصحيح : " من سنّ في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء " .

قوله تعالى : **بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٦﴾**

قوله تعالى : (**بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ**) قال الأخفش : جعله هو البصيرة ، كما تقول للرجل أنت حجة على نفسك . وقال ابن عباس : « **بَصِيرَةٌ** » أى شاهد وهو شهود جوارحه عليه : يده بما بطش بهما ، ورجلاه بما مشى عليهما ، وعيناه بما أبصر بهما . والبصيرة الشاهد ، وأنشد الفراء :

كَأَنَّ عَلَى ذِي الْعَقْلِ عَيْنًا بَصِيرَةً * بِمَقْعَدِهِ أَوْ مَنْظَرٍ هُوَ نَاطِرُهُ
يُحَاذِرُ حَتَّى يَحْسَبَ النَّاسَ كُلَّهُمْ * مِنَ الْخَوْفِ لَا تَخْفَى عَلَيْهِمْ سَرَائِرُهُ

ودليل هذا التأويل من التزويل قوله تعالى : « **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** » . وجاء تأنيث البصيرة لأن المراد بالإنسان هاهنا الجوارح ، لأنها شاهدة على نفس الإنسان ، فكأنه قال : بل الجوارح على نفس الإنسان بصيرة ، قال معناه القتي وغيره . وناس يقولون هذه الهاء في قوله : « **بَصِيرَةٌ** » هي التي يسميها أهل الإعراب هاء المبالغة كالهاء في قولهم : داهية وعلامة وراوية . وهو قول أبي عبيد . وقيل المراد بالبصيرة الكاتبان اللذان يكتبان ما يكون منه من خير أو شر ، يدل عليه قوله تعالى : « **وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ** » فيمن جعل المعاذير السُّتور . وهو قول السدي والضحاك . وقال بعض أهل التفسير : المعنى بل على الإنسان من نفسه بصيرة ، أى شاهد فحذف حرف الجر . ويجوز أن يكون بصيرة نعتاً لاسم مؤنث فيكون تقديره : بل الإنسان على نفسه عين بصيرة ، وأنشد الفراء :

* كَأَنَّ عَلَى ذِي الْعَقْلِ عَيْنًا بَصِيرَةً *

وقال الحسن في قوله تعالى : « بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بِصِيرَةٌ » يعنى بصير بعيوب غيره جاهل بعيوب نفسه . (وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ) أى ولو أرخى سُتوره . والسُّتر بلغة أهل اليمن معذار؛ قاله الضحاك؛ وقال الشاعر :

ولكنها ضنّت بمنزل ساعة * علينا وأطت فوقها بالمعاذير

قال الزجاج : المعاذير السُّتور والواحد معذار ؛ أى وإن أرخى ستره ؛ يريد أن يخفى عمله فنفسه شاهدة عليه . وقيل : أى ولو أعتذر فقال لم أفعل شيئا لكان عليه من نفسه من يشهد عليه من جوارحه ، فهو وإن أعتذر وجادل عن نفسه فعليه شاهد يكذب عذره ؛ قاله مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير وعبد الرحمن بن زيد وأبو العالية وعطاء والفتراء والسدى أيضا ومقاتل . قال مقاتل : أى لو أدلى بعذر أو حجة لم ينفعه ذلك ، نظيره قوله تعالى : « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ » وقوله : « وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَدِرُونَ » فالمعاذير على هذا مأخوذ من العذر ؛ قال الشاعر :

وإياك والأمر الذى إن توسعت * موارده ضاقت عليك المصادر

فما حسن أن يعذر المرء نفسه * وليس له من سائر الناس عاذر

وأعتذر رجل إلى إبراهيم النخعي فقال له : قد عذرتك غير معتذر ، إن المعاذير يشوبها الكذب . وقال ابن عباس : « وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ » أى لو تجرد من ثيابه . حكاها الماوردي .

قلت : والأظهر أنه الإدلاء بالحجة والاعتذار من الذنب ؛ ومنه قول النابغة :

ها إن ذى عذرة إلا تكن نفعت * فإن صاحبها مشارك النكد

والدليل على هذا قوله تعالى فى الكفار : « وَاللّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » وقوله تعالى فى المنافقين : « يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ » . وفى الصحيح أنه يقول : « يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ وَبِكَابِكَ وَبِرَسُولِكَ وَبَصَلَّتْ وَصَمْتُ وَتَصَدَّقْتُ وَيَتْنِي بَخِيرٌ

(١) ما أستطاع“ الحديث . وقد تقدم في « حم السجدة » وغيرها . والمعاذير والمعاذير جمع معذرة ؛ ويقال : عذرته فيما صنع أعذره عذرا وعذرا والاسم المعذرة والعذرى ؛ قال الشاعر :

* إِنِّي حُدِّدْتُ وَلَا عُدْرِي لِمَحْدُودِ *

وكذلك العذرة وهي مثل الركبة والجلسة ؛ قال النابغة :

هَائِنَّا تَاعِدْرَةٌ إِلَّا تَكُنْ نَفَعَتْ * فَإِنْ صَاحِبَهَا قَدْ تَاهَ فِي الْبَلَدِ (٣)

وتضمنت هذه الآية خمس مسائل :

الأولى - قال القاضي أبو بكر بن العربي قوله تعالى : « بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ » : فيها دليل على قبول إقرار المرء على نفسه ؛ لأنها شهادة منه عليها ؛ قال الله سبحانه وتعالى : « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ولا خلاف فيه ؛ لأنه إخبار على وجه تنفي التهمة عنه ؛ لأن العاقل لا يكذب على نفسه ، وهي المسئلة :

الثانية - وقد قال سبحانه في كتابه الكريم : « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَأَشْهَدُوا وَإِنَّا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ » ثم قال تعالى : « وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا » وهو في الآثار كثير ؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم : « آغْدُ يَا أُنَيْسُ عَلَى امْرَأَةٍ هَذَا فَإِنِ اعْتَرَفَتْ فَأَرْجَمَهَا » . فأما إقرار الغير على الغير بوارث أو دين فقال مالك : الأمر المجتمع عليه عندنا في الرجل يهلك وله بنون ، فيقول أحدهم : إن أبي قد أقز أن فلانا أبنه أن ذلك النسب لا يثبت بشهادة إنسان واحد ،

(١) راجع ج ١ ص ٣٥٠ ففيه معنى ما أشار إليه القرطبي وأما الحديث فقد أوردته في سورة الأنعام ج ٦ ص ٤٠٢

(٢) فائله الجموح الظفري . وقيل : هو راشد بن عبد ربه . وعذرى مقصور . وفي اللسان : صواب إنشاده ؛ لولا

حددت . على إرادة أن ، تقديره : لولا أن حددت لأن لولا التي معناها امتناع الشيء لوجود غيره هي مخصوصة بالأسماء . وقد تقع بعدها الأفعال على تقدير أن . (٣) تقدم البيت برواية : ها إن ذى - مشارك الكمد . وهما روايتان .

ولا يجوز إقرار الذي أقتر إلا على نفسه في حصته من مال أبيه ، يعطى الذي شهد له قدر الذي يصيبه من المال الذي في يده . قال مالك : وتفسير ذلك أن يهلك الرجل ويترك آبنين ويترك ستمائة دينار ، ثم يشهد أحدهما بأن أباه الهالك أقتر أن فلانا آبنه ، فيكون على الذي شهد للذي أستلحق مائة دينار ، وذلك نصف ميراث المستلحق لو لحق ، وإن أقتر له الآجر أخذ المائة الأخرى فأستكمل حقه وثبت نسبه . وهو أيضا بمنزلة المرأة تقتر بالدين على أبيها أو على زوجها وينكر ذلك الورثة ، فعليها أن تدفع إلى الذي أقترت له قدر الذي يصيبها من ذلك الدين لو ثبت على الورثة كلهم ، إن كانت امرأة فورثت الثمن دفعت إلى الغريم ثمن دينه ، وإن كانت أبنه ورثت النصف دفعت إلى الغريم نصف دينه ، على حساب هذا يدفع إليه من أقتر له من النساء .

الثالثة - لا يصح الإقرار إلا من مكلف لكن بشرط ألا يكون محجورا عليه ؛ لأن المجر يسقط قوله إن كان لحق نفسه ، فإن كان لحق غيره كالمريض كان منه ساقط ومنه جائز . وبيانه في مسائل الفقه . وللعبد حالتان في الإقرار إحداهما في آبتدائه ولا خلاف فيه على الوجه المتقدم . والثانية في آتهائه وذلك مثل إبهام الإقرار ، وله صور كثيرة وأمهاها ست : الصورة الأولى - أن يقول له عندي شيء ؛ قال الشافعي : لو فسره بتمرة أو كسرة قبل منه . والذي تقتضيه أصولنا أنه لا يقبل إلا فيما له قدر ، فإذا فسره به قبل منه وحلف عليه . الصورة الثانية - أن يفسر هذا بخمر أو خنزير أو مالا يكون مالا في الشريعة لم يقبل باتفاق ولو ساعده عليه المقتر له . الصورة الثالثة - أن يفسره بمختلف فيه مثل جلد الميتة أو سرقين أو كلب ، فإن رده لم يحكم عليه حاكم آخر غيره بشيء ؛ لأن الحكم قد نفذ بإبطاله . وقال بعض أصحاب الشافعي : يلزم الخمر والخنزير وهو قول باطل . وقال أبو حنيفة : إذا قال له على شيء لم يقبل تفسيره إلا بمكيل أو موزون ؛ لأنه لا يثبت في الذمة بنفسه إلا هما . وهذا ضعيف فإن غيرهما يثبت في الذمة إذا وجب ذلك إجماعا . الصورة الرابعة - إذا قال له : عندي مال قبل تفسيره بما لا يكون مالا في العادة كالدرهم والدرهمين ما لم يجئ من قرينة

الحال ما يحكم عليه بأكثر منه . الصورة الخامسة — أن يقول له : عندي مال كثير أو عظيم ؛ فقال الشافعي : يقبل في التوبة . وقال أبو حنيفة : لا يقبل إلا في نصاب الزكاة . وقال علماءنا في ذلك أقوالا مختلفة ؛ منها نصاب السرقة والزكاة والدية وأقله عندي نصاب السرقة ؛ لأنه لا يُبَيَّنُ عُضْوُ الْمُسْلِمِ إِلَّا فِي مَالٍ عَظِيمٍ . وبه قال أكثر الحنفية . ومن يعجب فيتعجب لقول الليث بن سعد : إنه لا يقبل في أقل من اثنين وسبعين درهما . فقليل له : ومن أين تقول ذلك ؟ قال ؛ لأن الله تعالى قال : « لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ » وغزواته وسراياه كانت اثنتين وسبعين . وهذا لا يصح ؛ لأنه أخرج حُنيْنا منها ، وكان حقه أن يقول يُقْبَلُ فِي أَحَدٍ وَسَبْعِينَ ، وقد قال الله تعالى : « أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا » وقال : « لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ » وقال : « وَلَعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا » . الصورة السادسة — إذا قال له عندي عشرة أو مائة أو ألف فإنه يفسرها بما شاء ويقبل منه ، فإن قال ألف درهم أو مائة وعبد أو مائة وخمسون درهما فإنه يُفَسِّرُ الْمَبْهُمَ وَيُقْبَلُ مِنْهُ . وبه قال الشافعي . وقال أبو حنيفة : إن عطف على العدد المبهم مكيلا أو موزونا كان تفسيرا ؛ كقوله : مائة وخمسون درهما ؛ لأن الدرهم تفسير للخمسين ، والخمسين تفسير للمائة . وقال ابن خيران الأصبخري من أصحاب الشافعي : الدرهم لا يكون تفسيرا في المائة والخمسين إلا للخمسين خاصة ويُفَسَّرُ هُوَ الْمِائَةَ بِمَا شَاءَ .

المسئلة الرابعة — قوله تعالى : « وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ » ومعناه لو اعتذر بعد الإقرار لم يقبل منه . وقد اختلف العلماء فيمن رجع بعد ما أقر في الحدود التي هي خالص حق الله ؛ فقال أكثرهم منهم الشافعي وأبو حنيفة : يقبل رجوعه بعد الإقرار . وقال به مالك في أحد قوليهِ ، وقال في القول الآخر : لا يقبل إلا أن يذكر لرجوعه وجها صحيحا . والصحيح جواز الرجوع مطلقا ؛ لما روى الأئمة منهم البخاري ومسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم رد المقتر بالزنى مرارا أربعا كل مرة يعرض عنه ، ولما شهد على نفسه أربع مرات دعاه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : « أَبْكَ جَنُونَ » قال : لا . قال : « أَحْصَيْتَ » قال : نعم . وفي حديث البخاري : « لَعَلَّكَ قَبَاتٌ أَوْ غَمَزَتْ أَوْ نَظَرَتْ » . وفي النسائي وأبي داود : حتى قال له في الخامسة

(١) "أجامعتها" قال : نعم . قال : "حتى غاب ذلك منك في ذلك منها" قال : نعم . قال : "كما يغيب المرود في المكحلة والرشاء في البئر" . قال : نعم . ثم قال : "هل تدري ما الزنى" قال : نعم ؛ أتيت منها حراما مثل ما يأتي الرجل من أهله حلالا . قال : "فما تريد مني" قال : أريد أن تطهرني . قال : فأمر به فرُجِم . قال الترمذي وأبو داود : فلما وجد مَسَّ الحجارة فرَّيشتد فضربه رجل بلحِي جمل وضربه الناس حتى مات . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "هَلَّا تَرَكَتُمُوهُ" وقال : أبو داود والنسائي ؛ ليتثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما لترك حدّ فلا . وهذا كله طريق للرجوع وتصريح بقبوله . وفي قوله عليه السلام : "لعلك قبّلت أو غمّزت" إشارة إلى قول مالك : إنه يقبل رجوعه إذا ذكر وجهها .

الخامسة - وهذا في الحر المالك لأمر نفسه ، فأما العبد فإن إقراره لا يخلو من أحد قسمين : إما أن يقتر على بدنه ، أو على ما في يده وذمته ، فإن أقتر على بدنه فيما فيه عقوبة من القتل فما دونه نفذ ذلك عليه . وقال محمد بن الحسن : لا يقبل ذلك منه ؛ لأن بدنه مستغرق لحق السيد ، وفي إقراره إتلاف حقوق السيد في بدنه ؛ ودليلنا قوله صلى الله عليه وسلم : "من أصاب من هذه القاذورات شيئا فليستتر بستر الله فإن من يُبَدِّ لنا صفحته نُقِم عليه الحدّ" المعنى أن محل العقوبة أصل الحلقة وهي [الدِّمِيَّة] (٣) في الآدمية ولا حق للسيد فيها ، وإنما حقه في الوصف والتبع وهي المالية الطارئة عليه ، ألا ترى أنه لو أقتر بمال لم يقبل حتى قال أبو حنيفة : إنه لو قال سرقت هذه السلعة أنه لم تقطع يده وأخذها المقتل . وقال علماءنا : السلعة للسيد ويُتبع العبد بقيمتها إذا عتق ؛ لأن مال العبد للسيد إجماعا ، فلا يقبل قوله فيه ولا إقراره عليه ، لا سيما وأبو حنيفة يقول : إن العبد لا ملك له . ولا يصح أن يملك ولا يملك ، ونحن وإن قلنا إنه يصح تملكه ، ولكن جميع ما في يده لسيدته بإجماع على القولين . والله أعلم .

(١) اللفظ في رواية لأبي داود . (٢) يشند : يعدو .

(٣) التصحيح من ابن العربي وفي الأصول «الدِّمِيَّة» .

قوله تعالى : لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۗ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ
 وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)
 كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) .

قوله تعالى : (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ) في الترمذی عن سعید بن جبیر عن
 ابن عباس قال : كان رسول الله صلى عليه وسلم إذا نزل عليه القرآن يحرك به لسانه ، يريد أن
 يحفظه ، فأنزل الله تبارك وتعالى : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ » قال : فكان يحرك به
 شفثيه . وحرك سفيان شفثيه . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . ولفظ مسلم عن
 ابن جبیر عن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة ، كان يحرك
 شفثيه ، فقال لي ابن عباس : أنا أحركهما كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحركهما ، فقال
 سعید : أنا أحركهما كما كان ابن عباس يحركهما يحرك شفثيه ، فأنزل الله عز وجل (لَا تُحَرِّكْ
 بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ) قال جمعه في صدره ثم تقرأه (فَإِذَا قَرَأْتَهُ
 فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) قال فاستمع له وأنصت . ثم إن علينا أن تقرأه ؛ قال : فكان رسول الله صلى
 الله عليه وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل عليهما السلام أستمع ، وإذا أنطلق جبريل عليه السلام
 قرأه النبي صلى الله عليه وسلم كما أقرأه ؛ خرجه البخاري أيضا . ونظير هذه الآية قوله تعالى :
 « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ » وقد تقدم (١) وقال عامر الشعبي : إنما
 كان يعجل بذكره إذا نزل عليه من حبه له ، وحلاوته في لسانه ، فنهى عن ذلك حتى يجتمع ؛
 لأن بعضه مرتبط ببعض . وقيل : كان عليه السلام إذا نزل عليه الوحي حرك لسانه
 مع الوحي مخافة أن ينساه فنزلت « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ »
 ونزل « سُنُّرْتُكَ فَلَا تَنْسَى » ونزل « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ » قاله ابن عباس . « وَقُرْآنَهُ » أي
 وقراءته عليك . والقراءة والقرآن في قول الفراء مصدران . وقال قتادة : « فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ »

(١) راجع ج ١١ ص ٢٥٠

أى فأتبع شرائعه وأحكامه . وقوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ أى تفسير ما فيه من الحدود والحلال والحرام ؛ قاله قتادة . وقيل : ثم إن علينا بيان ما فيه من الوعد والوعيد وتحقيقهما . وقيل : أى إن علينا أن نبينه بلسانك . قوله تعالى : ﴿ كَلَّا ﴾ قال ابن عباس : أى إن أبا جهل لا يؤمن بتفسير القرآن وبيانه . وقيل : أى « كَلَّا » لا يُصَلُّون ولا يزكون يريد كفار مكة . ﴿ بَلْ تُحِبُّونَ ﴾ أى بل تحبون يا كفار أهل مكة ﴿ الْعَاجِلَةَ ﴾ أى الدار الدنيا والحياة فيها ﴿ وَتَذُرُونَ ﴾ أى تدعون ﴿ الْآخِرَةَ ﴾ والعمل لها . وفى بعض التفسير قال : الآخرة الجنة . وقرأ أهل المدينة والكوفيون « بَلْ تُحِبُّونَ » « وَتَذُرُونَ » بالتاء فهما على الخطاب وأختره أبو عبيد ؛ قال : ولولا الكراهة لخلاف هؤلاء القراء لقرأتها بالياء ؛ لذكر الإنسان قبل ذلك . الباقيون بالياء على الخبر وهو اختيار أبي حاتم ، فمن قرأ بالياء فردا على قوله تعالى : « يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ » وهو بمعنى الناس . ومن قرأ بالتاء فعلى أنه واجههم بالتفريع ؛ لأن ذلك أبلغ فى المقصود ؛ نظيره : « إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا » .

قوله تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ الأول من النضرة التى هى الحسن والنعمه . والثانى من النظر أى وجوه المؤمنين مشرقة حسنة ناعمة ؛ يقال : نَضَّرَهُمُ اللهُ يَنْضُرُهُمْ نَضْرَةً وَنَضَارَةً وهو الإشراق والعيش والعتى ؛ ومنه الحديث " نَضَّرَ اللهُ أُمَّرَاءَ سَمِيعٍ مَقَاتِلِي فَوْعَاهَا " . « إِلَىٰ رَبِّهَا » إلى خالقها ومالكها « نَاظِرَةٌ » أى تنظر إلى ربها ؛ على هذا جمهور العلماء . وفى الباب حديث صُهَيْبٍ خَرَجَهُ مُسْلِمٌ وَقَدْ مَضَىٰ فِي « يُونُسَ » عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ » . وكان ابن عمر يقول : أكرم أهل الجنة

(١) نضره ونضره بالتشديد وأنضره أى نعمه ، يروى الحديث بالتخفيف والتشديد من النضارة وهى فى الأصل حسن

الوجه والبريق . (٢) راجع ج ٨ ص ٣٣٠

على الله من ينظر إلى وجهه غُدوة وعَشية . ثم تلا هذه الآية « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ » . وروى يزيد النحوي عن عكرمة قال : تنظر إلى ربها نظرا . وكان الحسن يقول : نضرت وجوههم ونظروا إلى ربهم .

وقيل : إن النظر هنا أنتظار ما لهم عند الله من الثواب . وروى عن ابن عمر ومجاهد . وقال عكرمة : تنتظر أمر ربها . حكاه الماوردي عن ابن عمر وعكرمة أيضا . وليس معروفا إلا عن مجاهد وحده . واحتجوا بقوله تعالى : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ » وهذا القول ضعيف جدا ، خارج عن مقتضى ظاهر الآية والأخبار . وفي الترمذي عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه وخدمه وسريره مسيرة ألف سنة وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غُدوة وعَشية » ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ » قال هذا حديث غريب . وقد روى عن ابن عمر ولم يرفعه . وفي صحيح مسلم عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « جنتان من فضة آيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم جلّ وعزّ إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » . وروى جرير بن عبد الله قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوسا ، فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : « إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » ثم قرأ « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ » متفق عليه . وخرجه أيضا أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن صحيح . وخرج أبو داود عن أبي رزين العقيلي قال : قلت يا رسول الله أكلنا يرى ربه ؟ قال ابن معاذ : مُخْلِياً به يوم القيامة ؟ قال : « نعم يا أبا رزين » قال : وما آية ذلك في خلقه ؟ قال « يا أبا رزين أليس كلّم يرى القمر » قال ابن معاذ : ليلة البدر مُخْلِياً به . قلنا : بلى . قال : « فالله أعظم » [قال ابن معاذ قال] :

(١) الزيادة من مسند أبي داود .

” فإنما هو خلق من خلق الله — يعني القمر — فالله أجل وأعظم “ . وفي كتاب النسائي عن صهيب قال : ” فيكشف الحجاب فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر ولا أفتر لأعينهم “ وفي التفسير لأبي إسحق الثعلبي عن الزبير عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” يتجلى ربنا عز وجل حتى ينظروا إلى وجهه فيخزون له سُجَّداً فيقول أرفعوا رؤوسكم فليس هذا بيوم عبادة “ قال الثعلبي : وقول مجاهد أنها بمعنى تنتظر الثواب من ربها ولا يراه شيء من خلقه فتأويل مدخول ؛ لأن العرب إذ أرادت بالنظر الانتظار قالوا نظرته ؛ كما قال تعالى : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ » « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ » و « مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً » وإذا أرادت به التفكير والتدبر قالوا نظرت فيه ، فأما إذا كان النظر مقروناً بذكر إلى وذكر الوجه فلا يكون إلا بمعنى الرؤية والعيان . وقال الأزهري : إن قول مجاهد تنتظر ثواب ربها خطأ ؛ لأنه لا يقال نظر إلى كذا بمعنى الانتظار ، وإن قول القائل نظرت إلى فلان ليس إلا رؤية عين ، كذلك تقوله العرب ؛ لأنهم يقولون نظرت إليه إذا أرادوا نظر العين ، فإذا أرادوا الانتظار قالوا نظرته ؛ قال : —

فَإِنَّمَا إِنِّ تَنْظُرَانِي سَاعَةً * مِنَ الدَّهْرِ تَنْفَعُنِي لَدَى أُمَّ جَنْدَبٍ

لما أراد الانتظار قال تنظراني ولم يقل تنظران إلى ؛ وإذا أرادوا نظر العين قالوا نظرت إليه ؛ قال : —

نَظَرْتُ إِلَيْهَا وَالنُّجُومُ كَأَنَّهَا * مَصَابِيحُ رُهْبَانٍ تُشَبُّ لِقْفَالِ^(١)

وقال آخر : —

نَظَرْتُ إِلَيْهَا بِالْمُحَصَّبِ مِنْ مَنِيَّ * وَبِى نَظَرٌ لَوْلَا التَّجْرُجُ عَارِمٌ^(٢)

وقال آخر :

إِنِّي إِلَيْكَ لِمَا وَعَدْتَ لِنَظَرٍ * نَظَرَ الْفَقِيرِ إِلَى الْغَنِيِّ الْمُوَسِّرِ

(١) تشب : توقد . والقفال جمع قافل وهو الراجع من السفر . والبيت من قصيدة لأمرئ القيس .

(٢) في نسخ الأصل نظرة ، والصواب ما ذكرنا كما في ديوان قائله وهو عمر بن ربيعة .

أى إني أنظر إليك بذل ؛ لأن نظر الذل والخضوع أرق لقلب المسئول ؛ فأما ما
استدلوا به من قوله تعالى : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ » فإنما ذلك
في الدنيا . وقد مضى القول فيه في موضعه مستوفى ^(١) . وقال عطية العوفى : ينظرون
إلى الله لا تحيط أبصارهم به من عظامته ، ونظره يحيط بهم ، يدل عليه « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ
وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ » قال القشيري أبو نصر : وقيل : «إلى» واحد الآلاء أى نعمه منتظرة .
وهذا أيضا باطل ؛ لأن واحد الآلاء يكتب بالألف لا بالياء ، ثم الآلاء نعمه الدفع ^(٢) ، وهم
في الجنة لا ينتظرون دفع نقمة عنهم ، والمتنظر للشيء مُتَنَفِّصُ العيش فلا يوصف أهل الجنة
بذلك . وقيل : أضاف النظر إلى الوجه ؛ وهو كقوله تعالى : « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ »
والماء يجري في النهر لا النهر . ثم قد يذكر الوجه بمعنى العين ؛ قال الله تعالى : « فَأَلْقُوهُ عَلَى
وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا » أى على عينيه . ثم لا يبعد قلب العادة غدا حتى يخلق الرؤية والنظر
في الوجه ؛ وهو كقوله تعالى : « أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ » فقيل : يارسول الله ! كيف
يمشون في النار على وجوههم؟ قال : «الذى أمشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم على وجوههم» .
﴿ وَوَجُوهُهُمُ يَوْمَئِذٍ بِآسِرَةٍ ﴾ أى وجوه الكفار يوم القيامة كالحة كاسفة عابسة . وفي الصحاح :
وَبَسَرَ الفحلُ الناقصة وأبَسَرها إذا ضربها من غير ضَبَعَةٍ ، وبَسَرَ الرجلُ وجهه بسورا أى كَلَحَ
يقال : عَبَسَ وبَسَرَ . وقال السدى : « بِآسِرَةٍ » أى متغيرة والمعنى واحد . ﴿ تَنْظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا
فَاقِرَةٌ ﴾ أى توقن وتعلم ، والفاقرة الداهية والأمر العظيم ؛ يقال : فقرته الفاقرة أى كسرت
فقار ظهره . قال معناه مجاهد وغيره . وقال قتادة : الفاقرة الشر . السدى : الهلاك . ابن
عباس وابن زيد : دخول النار . والمعنى متقارب . وأصلها الوسم على أنف البعير بحديدة أو
نار حتى يخلص إلى العظم ؛ قاله الأصمعي . يقال : فقَرْتُ أنفَ البعير إذا حزته بحديدة
ثم جعلت على موضع الحز الجبرير ^(٣) وعليه وتر ملوى لتدللّه بذلك وتروضه ؛ ومنه قولهم : قد
عُجِلَ به الفاقرة . وقال النابغة :

(١) راجع ج ٧ ص ٥٤ (٢) هكذا في كل الأصول . (٣) الجبرير جبل من آدم يخطم به البعير .

أَبَى لِي قَبْرٌ لَا يَزَالُ مُقَابِلِي * وَضَرْبَةٌ فَأَسُّ فَوْقَ رَأْسِي فَاقِرَةٌ

أى كاسرة .

قوله تعالى : كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالتَّتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾ « كَلَّا » رَدْعٌ وَزَجْرٌ أَيْ بَعِيدٌ أَنْ يُؤْمِنَ الْكَافِرُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ فَقَالَ : « إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ » أَيْ بَلَغَتِ النَّفْسُ أَوْ الرُّوحُ التَّرَاقِيَ ، فَأَخْبَرَ عَمَّا لَمْ يَجْرُلْهُ ذَكَرَ لِعَلِّمِ الْمَخَاطِبَ بِهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : « حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ » وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ » وَقَدْ تَقَدَّمَ ^(١) . وَقِيلَ : « كَلَّا » مَعْنَاهُ حَقًّا أَيْ حَقًّا إِنْ الْمَسَاقُ إِلَى اللَّهِ « إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ » أَيْ إِذَا آرْتَقَتِ النَّفْسُ إِلَى التَّرَاقِي . وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ : إِذَا بَلَغَتِ نَفْسَ الْكَافِرِ التَّرَاقِيَ . وَالتَّرَاقِي جَمْعُ تَرْقُوعٍ وَهِيَ الْعِظَامُ الْمَكْتَنِفَةُ لِنُقْرَةِ النَّحْرِ ، وَهِيَ مُقَدَّمُ الْحَلْقِ مِنْ أَعْلَى الصُّدْرِ ، وَهِيَ مَوْضِعُ الْحَشْرِجَةِ ، قَالَ دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَةِ ^(٢) .

وَرُبَّ عَظِيمَةٍ دَافَعَتْ عَنْهُمْ * وَقَدْ بَلَغَتْ نَفُوسُهُمُ التَّرَاقِيَ

وقد يكتفى عن الإشفاء على الموت ببلوغ النفس التراقي ، والمقصود تذكيرهم بشدة الحال عند نزول الموت .

قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ اختلف فيه فقيل : هو من الرقية ، عن ابن عباس وعكرمة وغيرهما . روى سيماء عن عكرمة قال : مَنْ رَاقٍ يَرْقِي أَيْ يَشْفِي . وروى ميمون بن مهران عن ابن عباس : أَيْ هَلْ مِنْ طَبِيبٍ يَشْفِيهِ ، وَقَالَ أَبُو قِلَابَةَ وَقْتَادَةَ ؛ وَقَالَ الشَّاعِرُ : هَلْ لِلْفَتَى مِنْ بَنَاتِ الدَّهْرِ مِنْ وَاقٍ * أَمْ هَلْ لَهُ مِنْ حِمَامِ الْمَوْتِ مِنْ رَاقٍ

(١) راجع ج ١٥ ص ١٩٥ وج ١٧ ص ٢٣٠ فابعدا .

(٢) كذا في الأصل والبيت لابنته عمرة من قصيدة لها ترضى بها أباها كما في شعراء النصرانية .

وكان هذا على وجه الاستبعاد والياس ؛ أى من يقدر أن يرقى من الموت . وعن ابن عباس أيضا وأبى الجوزاء أنه من رَقِيَ يَرَقَى إِذَا صَعِدَ ، والمعنى : من يَرَقَى بروحه إلى السماء ؟ أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ وقيل : إن ملك الموت يقول مَنْ رَاقٍ ؟ أى من يَرَقَى بهذه النفس ؛ وذلك أن نفس الكافر تكره الملائكة قربها ، فيقول ملك الموت : يا فلان أصعد بها . وأظهر عاصم وقوم النون فى قوله تعالى : « مَنْ رَاقٍ » واللام فى قوله : « بَلْ رَانَ » لئلا يشبه مَرَّاق وهو بائع المَرَقَة ، وبران فى تثنية البرء . والصحيح ترك الإظهار ، وكسرة القاف فى « مَنْ رَاقٍ » وفتحة النون فى « بَلْ رَانَ » تكفى فى زوال اللبس . وأمثلة مما ذكر : قصد الوقف على « مَنْ » و « بَلْ » فأظهرهما ؛ قاله الفشيري .

قوله تعالى : (وَظَنَّ) أى أيقن الإنسان (أَنَّهُ الْفِرَاقُ) أى فراق الدنيا والأهل والمال والولد ، وذلك حين عين الملائكة . وقال الشاعر :

فِرَاقٌ لَيْسَ يُشَبَّهُهُ فِرَاقٌ * قَدْ أَنْقَطَعَ الرَّجَاءُ عَنِ التَّلَاقِ

(وَالتَّفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ) أى فأتصلت الشدة بالشدة ؛ شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة ؛ قاله ابن عباس والحسن وغيرهما . وقال الشعبي وغيره : المعنى آلتفت ساقا الإنسان عند الموت من شدة الكرب . وقال قتادة : أما رأيتَه إذا أشرف على الموت يضرب إحدى رجله على الأخرى . وقال سعيد بن المسيب والحسن أيضا : هما ساقا الإنسان إذا التفتا فى الكفن . وقال زيد بن أسلم : آلتفت ساق الكفن بساق الميت . وقال الحسن أيضا : ماتت رجلاه ، ويبتست ساقاه فلم تجملاه ، ولقد كان عليهما جَوَّالاً . قال النحاس : القول الأول أحسنها . وروى على ابن أبى طلحة عن ابن عباس : « وَالتَّفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ » قال آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة ، فتلتقى الشدة بالشدة إلا من رحمه الله ؛ أى شدة كرب الموت بشدة هول المطع ؛ والدليل على هذا قوله تعالى : « إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ » وقال . مجاهد : بلاء بلاء . يقول : تتابعت عليه الشدائد . وقال الضحاك وابن زيد : آجتمع عليه أمران شديدان الناس يُجَهَّزُونَ جسده والملائكة يُجَهَّزُونَ رُوحه ، والعرب لا تذكر الساق إلا فى المحن

والشدائد العظام ؛ ومنه قولهم : قامت الدنيا على ساق ، وقامت الحرب على ساق .
قال الشاعر :

« وقامت الحربُ بنا على ساق ^(١) *

وقد مضى هذا المعنى في آخر سورة « ن وَالْقَلَمِ » ^(٢) . وقال قوم : الكافر تُعَذَّبُ رُوحه عند خروج نفسه فهذه الساق الأولى ، ثم يكون بعدهما ساق البعث وشدائده . ﴿ إِلَى رَبِّكَ ﴾ أى إلى خالقك ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى يوم القيامة ﴿ الْمَسَاقِ ﴾ أى المرجع . وفي بعض التفاسير قال : يسوقه ملكه الذى كان يحفظ عليه السيئات . والمساق المصدر من ساق يسوق ، كالمقال من قال يقول .

قوله تعالى : فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ^(٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ^(٣٢)
ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمِطُّ ^(٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ^(٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ
فَأُولَىٰ ^(٣٥)

قوله تعالى : ﴿ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ﴾ أى لم يصدق أبو جهل ولم يصل . وقيل : يرجع هذا إلى الإنسان فى أول السورة وهو أسم جنس . والأول قول ابن عباس . أى لم يصدق بالرسالة « وَلَا صَلَّى » ودعا لربه وصلى على رسوله . وقال قتادة : فلا صدق بكتاب الله ولا صلى لله . وقيل : ولا صدق بماله ذخراله عند الله ، ولا صلى الصلوات التى أمره الله بها . وقيل : فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه . قال الكسائى : « لا » بمعنى لم ولكنه يقرن بغيره ؛ تقول العرب : لا عبد الله خارج ولا فلان ، ولا تقول : مررت برجل لا محسن حتى يقال ولا مجمل ، وقوله تعالى : « فَلَا أَفْتَحَمَ الْعُقَبَةَ » ليس من هذا القبيل ؛ لأن معناه أفلا أفتحم ؛ أى فهلا أفتحم فحذف ألف الأستفهام . وقال الأخفش : « فَلَا صَدَقَ » أى لم يصدق ؛ كقوله : « فَلَا أَفْتَحَمَ » أى لم يفتحم ولم يشترط أن يعقبه

(١) صدر البيت : • صبرا أمام إنه شرباق •

(٢) راجع ج ١٨ ص ٢٤٨ وما بعدها .

بشيء آخر، والعرب تقول : لاذهب أى لم يذهب ، فحرف النفي ينفي الماضى كما ينفي المستقبل ؛ ومنه قول زهير :

* فَلَا هُوَ أَبْدَاهَا وَلَمْ يَتَقَدِّمِ ^(۱) *

قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ أى كذب بالقرآن وتولى عن الإيمان ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمْتَطِي ﴾ أى يتبختر افتخارا بذلك ؛ قاله مجاهد وغيره . مجاهد : المراد به أبو جهل . وقيل : « يَمْتَطِي » من المَطَا وهو الظُّهر والمعنى يَلْوِي مَطَاه . وقيل : أصله يَمْتَطَط وهو التمدد من التكسل والتناقل ، فهو يتناقل عن الداعى إلى الحق ؛ فأبدل من الطاء ياء كراهة التضعيف والتمطى يدل على قلة الأكرات وهو التمدد ، كأنه يمد ظُهره ويلويه من التبخر . والمَطِيطَةُ الماء الخائر فى أسفل الحوض ؛ لأنه يمتطط أى يمتد ؛ وفى الخبر ” إذا مشت أمتى المَطِيطَاء ^(۲) وخدمتهم فارس والروم كان بأسهم بينهم “ والمَطِيطَاء التبخر ومد اليدين فى المشى .

قوله تعالى : ﴿ أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ . ثُمَّ أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ ﴾ تهديد بعد تهديد ، ووعيد بعد وعيد ، أى فهو وعيد أربعة لأربعة ؛ كما روى أنها نزلت فى أبى جهل الجاهل بربه فقال : « فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى . وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى » أى لاصدق رسول الله ، ولا وقف بين يديّ فصلى ، ولكن كذب رسولى وتولى عن التصلية بين يديّ . فترك التصديق خصلة ، والتكذيب خصلة ، وترك الصلاة خصلة ، والتولى عن الله تعالى خصلة ، بخاء الوعيد أربعة مقابلة لترك الخصال الأربعة . والله أعلم . لايقال : فإن قوله « ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمْتَطِي » خصلة خامسة ؛ فإننا نقول : تلك كانت عادته قبل التكذيب والتولى فأخبر عنها . وذلك بين فى قول قتادة على ما ذكره . وقيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من المسجد ذات يوم ، فاستقبله أبو جهل على باب المسجد مما يل باب بنى مخزوم ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم

(۱) صدر البيت : * وكان طوى كشعا على مستكنة *

(۲) المطيطاء يمد ويقصر قال ابن الأثير : وهى من المصغرات التى لم يستعمل لها مكبر .

(۳) فى نسخة ذات ليلة .

بيده ، فهزه مرة أو مرتين ثم قال له : ” أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ” فقال له أبو جهل : أتهددني؟ فوالله إني لأعزُّ أهل الوادي وأكرمهم . ونزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال لأبي جهل . وهي كلمة وعيد . قال الشاعر :

فَأَوْلَى ثَمَّ أَوْلَى ثَمَّ أَوْلَى * وَهَلْ لِلدَّرِّ يُحْلِبُ مِنْ مَرَدِّ

قال قتادة : أقبل أبو جهل بن هشام يتبختر فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيده فقال : ” أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثَمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ” فقال : ما تستطيع أنت ولا ربك لي شيئا ، إني لأعزُّ من بين جليلها . فلما كان يوم بدر أشرف على المسلمين فقال : لا يُعبد الله بعد هذا اليوم أبدا . فضرب الله عنقه وقتله شر قتلة . وقيل : معناه الويل لك ، ومنه قول الخنساء :

هَمَمْتُ بِنَفْسِي كُلِّ الْهَمُومِ * فَأَوْلَى لِنَفْسِي أَوْلَى لَهَا
سَأَحْمِلُ نَفْسِي عَلَى آلَةٍ * فَإِمَّا عَلَيْهَا وَإِمَّا لَهَا

الآلة الحالة والآلة السرير أيضا الذي يحمل عليه الميت ؛ وعلى هذا التأويل قيل : هو من المقلوب ؛ كأنه قيل : أويل ، ثم أخر الحرف المعتل ، والمعنى الويل لك حيا والويل لك ميتا ، والويل لك يوم البعث ، والويل لك يوم تدخل النار ؛ وهذا التكرير كما قال ^(٢) :

* لَكَ الْوَيْلَاتُ إِنَّكَ مُرْجَلِي *

أى لك الويل ثم الويل ثم الويل ، وضَعَّفَ هذا القول . وقيل : معناه الذم لك أولى من تركه إلا أنه كثير في الكلام فحذف . وقيل : المعنى أنت أولى وأجدر بهذا العذاب . وقال أبو العباس أحمد بن يحيى : قال الأصمعي أَوْلَى في كلام العرب معناه مُقَارَبَةُ الْهَلَاكِ ، كأنه يقول : قد وَلَيْتَ الْهَلَاكَ ، قد دَانَيْتَ الْهَلَاكَ ؛ وأصله من الْوَلَى وهو الْقُرْبُ ؛ قال الله

(١) في نسخ من الأصل على آلة بفتح فشد وهي الحربة وصوابه آلة أى حالة .

(٢) هو أمرؤ القيس ، والبيت بتمامه :

ويوم دخلت الحدر خدر عنيزة * فقالت لك الويلات إنك مرجلي

تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ » أى يَقْرُبُونَ مِنْكُمْ ؛ وَأَنْشُدِ الْأَصْمَعِي :

* وَأَوْلَى أَنْ يَكُونَ لَهُ الْوَلَاءُ *

أى قارب أن يكون له ؛ وَأَنْشُدِ أَيْضًا :

* أَوْلَى لِمَنْ هَاجَتْ لَهُ أَنْ يَكْدَا *

أى قد دنا صاحبها الكمد . وكان أبو العباس ثعلب يستحسن قول الأصمعي ويقول : ليس أحد يفسر كتفسير الأصمعي . النحاس : العرب تقول أولى لك كدت تهلك ثم أفلت ، وكان تقديره : أولى لك وأولى بك الهلكة . المهدي قال : ولا تكون أولى أفعل منك ، وتكون خبر مبتدأ محذوف ، كأنه قال : الوعيد أولى له من غيره ؛ لأن أبا زيد قد حكى : أَوْلَاةُ الْآنَ إِذَا أَوْعَدُوا . فدخول علامة التأنيث دليل على أنه ليس كذلك . و «لَكَ» خبر عن «أولى» . ولم ينصرف «أولى» لأنه صار علما للوعيد فصار كرجل اسمه أحمد . وقيل : التكرير فيه على معنى ألزم لك على عمك السىء الأول ، ثم على الثانى والثالث والرابع كما تقدم .

قوله تعالى : **أَيَّحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نَظْفَةً مِّن مَّنِيِّ يَمِينِي ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَتْ عَلَقَةً نَّخْلًا فَسَوَّى ﴿٣٨﴾ فَعَمَلٌ مِنْهُ**
الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُخَيَّرَ
الْمَوْتَى ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : **(أَيَّحْسَبُ الْإِنْسَانُ)** أى يظن ابن آدم **(أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)** أى أن يُخَلَّى مُهْمَلًا فَلَا يُؤْمَرُ وَلَا يُنْهَى ؛ قاله ابن زيد ومجاهد ، ومنه إبل سُدًى ترعى بلا راع . وقيل : أيحسب أن يترك فى قبره كذلك أبدا لا يُبعث . وقال الشاعر :

فَأَقْسِمُ بِاللَّهِ جَهْدَ الْيَمِينِ * مَا تَرَكَ اللَّهُ شَيْئًا سُدًى

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُنْيَى ﴾ (١) أى من قطرة ماء تُمنى في الرحم أى تُراق فيه ؛ ولذلك سميت مَنِيَّ لإِرافة الدماء . وقد تقدّم . والنطفة الماء القليل ؛ يقال : نطف الماء إذا قطر . أى ألم يك ماء قليلا فى صُلب الرجل وترائب المرأة . وقرأ حفص « مِنْ مَنِيٍّ يُنْيَى » بالياء وهى قراءة ابن محيصن ومجاهد ويعقوب وعيَّاش عن أبى عمرو وأختره أبو عبيد لأجل المنيّ . الباكون بالنساء ؛ لأجل النطفة وأختره أبو حاتم . ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً ﴾ أى دما بعد النطفة ، أى قد رَبَّبه تعالى بهذا كله على خِسة قدره . ثم قال : ﴿ نَحَلَقَ ﴾ أى فقدر ﴿ فَسَوَى ﴾ أى فسواه تسوية وعدله تعديلا يجعل الروح فيه ﴿ بِجَعَلٍ مِنْهُ ﴾ أى من الإنسان . وقيل : من المنيّ . ﴿ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ أى الرجل والمرأة . وقد احتج بهذا من رأى إسقاط الخنثى . وقد مضى فى سورة « الشورى » (٢) أن هذه الآية وقريتها إنما خرجتا مخرج الغالب . وقد مضى فى أول سورة « النساء » (٣) أيضا القول فيه ، وذكرنا فى آية الموارد حكمه فلا معنى لإعادته ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ ﴾ أى أليس الذى قدر على خلق هذه النَّسَمَة من قطرة من ماء ﴿ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ أى على أن يعيد هذه الأجسام كهيئتها للبعث بعد البلى . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قرأها قال : « سبحانك اللهم وبلى » وقال ابن عباس : من قرأ « سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » إماما كان أو غيره فليقل : « سبحان ربي الأعلى » ومن قرأ « لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ » إلى آخرها إماما كان أو غيره فليقل : « سبحانك اللهم بلى » ذكره الثعلبي من حديث أبى إسحق السَّبَّيْعِيّ عن سعيد ابن جبیر عن ابن عباس . ختمت السورة والحمد لله .

(١) راجع ج ١٧ ص ١١٨ و ص ٢١٦

(٢) راجع ج ١٦ ص آية ٥٢

(٣) راجع ج ٥ ص ٢

سورة الانسان

وهي إحدى وثلاثون آية

مكية في قول ابن عباس ومقاتل والكلبي . وقال الجمهور : مدنية . وقيل : فيها مكي ، من قوله تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا » إلى آخر السورة وما تقدمه مدني .

وذكر ابن وهب قال : وحدثنا ابن زيد قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقرأ « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ » وقد أنزلت عليه وعنده رجل أسود كان يسأل النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له عمر بن الخطاب : لا تُثقل على النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « دَعَا يَا بَنِي الْخَطَابِ » قال : فنزلت عليه هذه السورة وهو عنده ، فلما قرأها عليه وبلغ صفة الجنان زفر زفرة فخرجت نفسه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَخْرَجَ نَفْسٌ صَاحِبِكُمْ - أَوْ أَخِيكُمْ - الشُّوقَ إِلَى الْجَنَّةِ » وروى عن ابن عمر بخلاف هذا اللفظ وسيأتي . وقال القشيري : إن هذه السورة نزلت في علي بن طالب رضي الله عنه . والمقصود من السورة عام . وهكذا القول في كل ما يقال إنه نزل بسبب كذا وكذا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَاهُ الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾

قوله تعالى : (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا) « هل » بمعنى قد ، قاله الكسائي والفراء وأبو عبيدة . وقد حكى عن سيبويه « هل » بمعنى قد . قال الفراء : هل تكون بخمدا وتكون خبرا فهذا من الخبر ، لأنك تقول : هل أعطيتك؟ تُقرره

بانك أعطيته، والمجد أن تقول : هل يقدر أحد على مثل هذا . وقيل : هي بمنزلة الاستفهام ، والمعنى أتى . والإنسان هنا آدم عليه السلام ؛ قاله قتادة والثوري وعكرمة والسدي . وروى عن ابن عباس « حِينَ مِنَ الدَّهْرِ » قال ابن عباس في رواية أبي صالح : أربعون سنة مرت به ، قبل أن ينفخ فيه الروح وهو ملقى بين مكة والطائف . وعن ابن عباس أيضا في رواية الضحاك أنه خلق من طين ، فأقام أربعين سنة ، ثم من حمي مسنون أربعين سنة ، ثم من صَلْصَالٍ أربعين سنة ، فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة . وزاد ابن مسعود فقال : أقام وهو من تراب أربعين سنة ، فتم خلقه بعد مائة وستين سنة ، ثم نفخ فيه الروح . وقيل : الحين المذكور هاهنا لا يُعرَفُ مقداره . عن ابن عباس أيضا . حكاه الماوردي . « لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكَورًا » قال الضحاك عن ابن عباس : لا في السماء ولا في الأرض . وقيل : أى كان جسدا مصورا ترابا وطينا لا يُذكر ولا يُعرَف ولا يُدرى ما اسمه ولا ما يراد به ، ثم نُفِخَ فيه الروح فصار مذكورا ؛ قاله الفراء وقطرب وثلعب . وقال يحيى بن سلام : لم يكن شيئا مذكورا في الخلق وإن كان عند الله شيئا مذكورا . وقيل : ليس هذا الذِّكْرُ بمعنى الإخبار فإن إخبار الرب عن الكائنات قديم ، بل هذا الذِّكْرُ بمعنى الخطر والشرف والقدر ؛ تقول : فلان مذكور أى له شرف وقدر . وقد قال تعالى : « وَإِنَّهُ لَدِكُّكَ وَلِقَوْمِكَ » أى قد أتى على الإنسان حين لم يكن له قدر عند الخليفة . ثم لما عرَّفَ اللهُ الملائكة أنه جعل آدم خليفة ، وحمله الأمانة التي عجز عنها السموات والأرض والجبال ، ظهر فضله على الكل فصار مذكورا . قال القشيري : وعلى الجملة ما كان مذكورا للخلق وإن كان مذكورا لله . وحكى محمد بن الجهم عن الفراء : « لَمْ يَكُنْ شَيْئًا » قال : كان شيئا ولم يكن مذكورا . وقال قوم : النفي يرجع إلى الشيء ؛ أى قد مضى مُدَدٌ من الدهر وآدم لم يكن شيئا يذكر في الخليفة ؛ لأنه آخر ما خلقه من أصناف الخليفة ، والمعدوم ليس بشيء حتى يأتي عليه حين . والمعنى قد مضت عليه أزمنة وما كان آدم شيئا ولا مخلوقا ولا مذكورا لأحد من الخليفة . وهذا معنى قول قتادة ومقاتل . قال قتادة : إنما خلق الإنسان حديثا ما نعلم من خليفة الله جل ثناؤه خليفة

كانت بعد الإنسان . وقال مقاتل : في الكلام تقديم وتأخير ، وتقديره : هل أتى حين من الدهر لم يكن الإنسان شيئاً مذكوراً ؛ لأنه خلقه بعد خلق الحيوان كله ، ولم يخلق بعده حيواناً . وقد قيل : « الإنسان » في قوله تعالى : « هل أتى على الإنسان حينٌ » عنى به الجنس من ذرية آدم ، وأن الحين تسعة أشهر مدة حمل الإنسان في بطن أمه « لم يكن شيئاً مذكوراً » إذ كان علقه ومضغه ؛ لأنه في هذه الحالة جماد لا خطر له . وقال أبو بكر رضى الله عنه لما قرأ هذه الآية : ليتها تمت فلا يُبتلى . أى ليت المدة التي أتت على آدم لم تكن شيئاً مذكوراً تمت على ذلك فلا يلد ولا يُبتلى أولاده . وسمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلاً يقرأ « هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً » فقال ليتها تمت .

قوله تعالى : (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ) أى ابن آدم من غير خلاف (مِنْ نُطْفَةٍ) أى من ماء يقطر وهو المنى ، وكل ماء قليل فى وعاء فهو نطفة ؛ كقول عبد الله بن رَوَاحَةَ يعاتب نفسه :
مَالِي أَرَاكَ تَكْرِهِينَ الْجَنَّةَ * هل أنتِ إِلَّا نُطْفَةٌ فِي شَنَةِ^(١)

وجمعها نُطْفٌ وَنُطَافٌ . (أَمْشَاجٌ) أخلاط واحدها مِشْجٌ وَمِشِيجٌ مثل خِذْنٌ وَخِذِينٌ ؛ قال رؤبة :

يَطْرَحْنَ كُلُّ مُعْجَلٍ نَسَاجَ * لَمْ يُنْكَسْ جِلْدًا فِي دَمِ أَمْشَاجِ

ويقال : مَشَجْتُ هذا بهذا أى خلطته فهو مَمْشُوجٌ وَمِشِيجٌ مثل مَخْلُوطٌ وَخَلِيطٌ . وقال المبرد : واحد الأَمْشَاجِ مَشِيجٌ يقال مَشِجَ يَمْشِجُ إذا آخَلَطَ وهو هنا آخَلَطَ النُطْفَةَ بِالدَّمِ ؛ قال الشَّيْخُ :

طَوْتُ أَحْشَاءَ مُرْتِجَةٍ لَوْقَتِ * عَلَى مَشِجٍ سَلَّاتُهُ مَهِينُ

وقال الفراء : أَمْشَاجٌ أخلاط ماء الرجل وماء المرأة والدَّمُ وَالْعَلَقَةُ ، ويقال للشئ من هذا إذا خُلِطَ مِشِيجٌ كَقَوْلِكَ خَلِيطٌ ، وَمَمْشُوجٌ كَقَوْلِكَ مَخْلُوطٌ . وروى عن ابن عباس رضى الله عنه

(١) الشنة : القرية .

قال : الأمشاج الحمرة في البياض والبياض في الحمرة . وهذا قول يختاره كثير من أهل اللغة ؛
قال الهذلي^(١) :

كَانَ الرَّيْشَ وَالْفُوقَيْنِ مِنْهُ * خِلَافَ النَّصْلِ سَيْطَ بِهِ مَشِيحُ

وعن ابن عباس^(٢) أيضا قال : يختلط ماء الرجل وهو أبيض غليظ بماء المرأة وهو أصفر رقيق فيخلق منهما الولد ، فما كان من عصب وعظم وقوة فهو من ماء الرجل ، وما كان من لحم ودم وشعر فهو من ماء المرأة . وقد روى هذا مرفوعا ؛ ذكره البزار . وروى عن ابن مسعود : أمشاجها عروق المضغة . وعنه : ماء الرجل وماء المرأة وهما لونان . وقال مجاهد : نطفة الرجل بيضاء وحمراء ونطفة المرأة خضراء وصفراء . وقال ابن عباس : خلق من ألوان ؛ خلق من تراب ، ثم من ماء الفرج والرحم ، وهي نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظم ثم لحم ونحوه . قال قتادة : هي أطوار الخلق ؛ طور علقة وطور نطفة وطور عظاما ثم يكسو العظام لحما ؛ كما قال في سورة «المؤمنين» «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ» الآية . وقال ابن السكيت : الأمشاج الأخلاط ؛ لأنها ممتزجة من أنواع نخلق الإنسان منها ذا طبائع مختلفة . وقال أهل المعاني : الأمشاج ما جمع وهو في معنى الواحد ؛ لأنه نعت للنطفة ؛ كما يقال : برمة أعشار^{وهو قوله} وثوب أخلاق . وروى عن أبي أيوب الأنصاري : قال جاء خبر من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أخبرني عن ماء الرجل وماء المرأة ؛ فقال : «ماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة أصفر رقيق فإذا علا ماء المرأة آنتت وإذا علا ماء الرجل أذكرت» فقال الخبر : أشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسول الله . وقد مضى هذا القول مستوفى في سورة «البقرة» .
(نبتليه) أي نختبره . وقيل : نقدر فيه الابتلاء وهو الاختبار . وفيما يختبر به وجهان ؛ أحدهما —

(١) هو عمرو بن الداخل الهذلي : سيط به أي خرج قذذ من الريش مختلط من الدم والماء .

(٢) وفي حاشية الجمل نقلا عن القرطبي ما يأتي :

والمعنى : «من نطفة قد آتزوج فيها الماءان وكل منهما مختلف الأجزاء متباين الأوصاف في الرقة والنعن والنوام ، والخواص تجتمع من الأخلاط وهي العناصر الأربعة ، ماء الرجل غليظ أبيض وماء المرأة رقيق أصفر فأيهما علا كان الشبه له» .

نختبره بالخير والشر؛ قاله الكاظمي . الثاني — نختبر شكره في السراء وصبره في الضراء؛ قاله الحسن .
وقيل : « نَبْتَلِيهِ » نُكَلِّفُهُ . وفيه أيضا وجهان ؛ أحدهما — بالعمل بعد الخلق ؛ قاله مقاتل .
الثاني — بالدين ليكون مأمورا بالطاعة ومنهيا عن المعاصي . وروى عن ابن عباس : « نَبْتَلِيهِ »
نصرفه خلقا بعد خلق ؛ لنبتليه بالخير والشر . وحكى محمد بن الجهم عن الفراء قال : المعنى
والله أعلم ﴿ جَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ لنبتليه وهي مُقَدِّمَةٌ معناها التأخير .

قلت : لأن الأبتلاء لا يقع إلا بعد تمام الخلقة . وقيل : « جَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا » يعني
جعلنا له سمعا يسمع به الهدى وبصرا يبصر به الهدى .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ أى بينا له وعرفناه طريق الهدى والضلال
والخير والشر ببعث الرسل فآمن أو كفر ؛ كقوله تعالى : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » . وقال
مجاهد : أى بينا له السبيل إلى الشقاء والسعادة . وقال الضحاك وأبو صالح والسدي :
السبيل هنا خروج من الرحم . وقيل : منافعه ومضاره التى يهتدى إليها بطبعه وكمال عقله .
﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ أى أيهما فعل فقد بينا له . قال الكوفيون : « إِنْ » ها هنا
تكون جزاء و « ما » زائدة أى بينا له الطريق إن شَكَرَ أو كَفَرَ . واختاره الفراء ولم يجزه
البصريون ؛ إذ لا تدخل « إِنْ » للجزاء على الأسماء إلا أن يضمم بعدها فعل . وقيل :
أى هديناه الرشداً أى بينا له سبيل التوحيد بنصب الأدلة عليه ؛ ثم إن خلقنا له الهداية أهتدى
وآمن ، وإن خذلناه كفر . وهو كما تقول : قد نصحت لك إن شئت فاقبل وإن شئت
فأترك ؛ أى فإن شئت فتحذف الفاء وكذا « إِمَّا شَاكِرًا » والله أعلم . ويقال : هديته السبيل
وللسبيل وإلى السبيل . وقد تقدم فى « الفاتحة ^(١) » وغيرها . وجمع بين الشاكر والكفور
ولم يجمع بين الشكور والكفور مع اجتماعهما فى معنى المبالغة ؛ نفيًا للمبالغة فى الشكر وإثباتًا لها
فى الكفر ؛ لأن شكر الله تعالى لا يُؤدَّى فأنتفت عنه المبالغة ، ولم تنتف عن الكفر المبالغة ،
فقلَّ شكره لكثرة النعم عليه وكثر كفره وإن قلَّ مع الإحسان إليه . حكاه الماوردى .

(١) راجع ج ١ ص ١٤٧ و ص ١٦٠ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴾ بين حال الفريقين ، وأنه تعبّد العقلاء وكلفهم ومكّنهم مما أمرهم فمن كفر فله العقاب ، ومن وحد وشكر فله الثواب . والسلاسل القيود في جهنم طول كل سلسلة سبعون ذراعا كما مضى في «الحاقّة» .
وقرأ نافع والكسائي وأبو بكر عن عاصم وهشام عن ابن عامر « سَلَاسِلًا » متونا . الباقون بغير تنوين . ووقف قُبُلْ وابن كثير وحمزة بغير ألف . الباقون بالألف . فأما « قَوَارِيرَ » الأول فنونه نافع وابن كثير والكسائي وأبو بكر عن عاصم ، ولم ينون الباقون . ووقف فيه يعقوب وحمزة بغير ألف . والباقون بالألف . وأما « قَوَارِيرَ » الثانية فنونه أيضا نافع والكسائي وأبو بكر ، ولم ينون الباقون ، فمن نون قرأها بالألف ، ومن لم ينون أسقط منها الألف ، وأختار أبو عبيد التنوين في الثلاثة ، والوقف بالألف أتباعا لخط المصحف ؛ قال : رأيت في مصحف عثمان « سَلَاسِلًا » بالألف و « قَوَارِيرًا » الأول بالألف وكان الثاني مكتوبا بالألف فحُكَّتْ فرأيت أثرها هناك بيّنا . فمن صرف فله أربع حجج : أحدها — أن الجموع أشبهت الآحاد بجمعت جمع الآحاد ، فجعلت في حكم الآحاد فصرفت . الثانية — أن الأخفش حكى عن العرب صرف جميع ما لا ينصرف إلا أفعل منك ، وكذا قال الكسائي والفراء هو على لغة من يُجْرِي الأسماء ، كلها إلا قولهم هو أظرف منك فإنهم لا يُجْرُونَهُ ؛ وأنشد ابن الأنباري في ذلك قول عمرو بن كلثوم :

كَأَنَّ سُيُوفَنَا فِينَا وَفِيهِمْ * نَحَارِيقُ بِأَيْدِي لَاعِينَا

وقال لبيد :

وَجُرُورِ أَيْسَارٍ دَعَوْتُ لِحَيْفِهَا * بِمَغَالِقِي مُتَشَابِهٍ أَجْسَامُهَا

وقال لبيد أيضا :

فَضْلًا وَذُو كَرِيمٍ يُعِينُ عَلَى النَّدَى * سَمَحٌ كَسُوبٍ رَغَائِبٍ غَنَامُهَا

فصرف مخاريق ومغالق ورغائب وسبيلها ألا تُصرف . والحجة الثالثة - أن يقول تونت قوارير الأول لأنه رأس آية، ورءوس الآي جاءت بالنون؛ كقوله جل وعز : «مذكورا . سَمِعًا بَصِيرًا» فنونا الأول ليوقف بين رءوس الآي، وتونا الثاني على الجوارر للأول . والحجة الرابعة - أتباع المصاحف وذلك أنهما جميعا في مصاحف مكة والمدينة والكوفة بالألف . وقد احتج من لم يصرفهن بأن قال : إن كل جمع بعد الألف منه ثلاثة أحرف أو حرفان أو حرف مشدد لم يُصرف في معرفة ولا نكرة، فالذي بعد الألف منه ثلاثة أحرف قولك : قناديل ودنانير ومناديل ، والذي بعد الألف منه حرفان قول الله عز وجل : «لَهْدَمَت صَوَامِعُ» لأن بعد الألف منه حرفين، وكذلك قوله : «وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا» والذي بعد الألف منه حرف مشدد شَوَابٌ ودَوَابٌ . وقال خلف : سمعت يحيى بن آدم يحدث عن ابن إدريس قال : في المصاحف الأول الحرف الأول بالألف والثاني بغير ألف؛ فهذا حجة لمذهب حمزة . وقال خلف : رأيت في مصحف ينسب إلى قراءة ابن مسعود الأول بالألف والثاني بغير ألف . وأما أفعل منك فلا يقول أحد من العرب في شعره ولا في غيره هو أفعل منك متونا؛ لأن من تقوم مقام الإضافة فلا يجمع بين تنوين وإضافة في حرف؛ لأنهما دليلان من دلائل الأسماء ولا يجمع بين دليلين؛ قاله الفراء وغيره .

قوله تعالى : ﴿ وَأَغْلَالًا ﴾ جمع غُلُّ تُغَلُّ بها أيديهم إلى أعناقهم . وعن جبير بن نفير عن أبي الدرداء كان يقول : أرفعوا هذه الأيدي إلى الله جل ثناؤه قبل أن تُغَلُّ بالأغلال . وقال الحسن : إن الأغلال لم تجعل في أعناق أهل النار؛ لأنهم أعجزوا الرب سبحانه ولكن إذلالا . ﴿ وَسَعِيرًا ﴾ تقدم القول فيه .

قوله تعالى : إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥٠﴾

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٥١﴾

قوله تعالى : (إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ) الأبرار أهل الصدق واحدهم برٌّ، وهو من أمثل أمر الله تعالى . وقيل : البر الموحد والأبرار جمع بار مثل شاهد وأشهد، وقيل : هو جمع بر مثل نهر وأنهار؛ وفي الصحاح : وجمع البر الأبرار وجمع البار البررة، وفلان يبرُّ خالقه ويتبرره أى يُطِيعه والأم برة بولدها . وروى ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” إنما سماهم الله أجل شأوه الأبرار لأنهم برُّوا الآباء والأبناء كما أن لوالدك عليك حقاً كذلك لولدك عليك حقاً “ . وقال الحسن : البر الذى لا يؤذى الذر . وقال قتادة : الأبرار الذين يؤذون حق الله ويوفون بالنذر . وفي الحديث : ” الأبرار الذين لا يؤذون أحدا “ . (يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ) أى من إناء فيه الشراب . قال ابن عباس : يريد الخمر . والكأس فى اللغة الإناء فيه الشراب ، وإذا لم يكن فيه شراب لم يُسمَّ كأساً . قال عمرو بن كلثوم :

صَبْنَتِ الْكَأْسَ عَنَّا أُمَّ عَمْرٍو * وَكَانَ الْكَأْسُ مَجْرَاهَا الْيَمِينَا^(١)

وقال الأصمعى : يقال صَبْنَتَ عَنَّا الْهَدِيَّةَ أو ما كان من معروف تَصْبِنُ صَبْنًا بِمَعْنَى كَفَفْتَ ؛ قاله الجوهرى . (كَانَتْ مِرْأَجُهَا) أى شوبها وخطها ؛ قال حسان :

كَانَتْ سَيْبِيَّةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ * يَكُونُ مِرْأَجُهَا عَسَلٌ وَمَاءُ^(٢)

ومنه مزاج البدن وهو ما يمازجه من الصفراء والسوداء والحرارة والبرودة . (كَافُورًا) قال ابن عباس : هو أسم عين ماء فى الجنة يقال له عين الكافور . أى يمازجه ماء هذه العين التى تسمى كافورا . وقال سعيد عن قتادة : تُمَزَجُ لُحْمٌ بِالْكَافُورِ وَتُخْتَمُ بِالْمَسْكِ . وقاله مجاهد . وقال عكرمة : مِرْأَجُهَا طَعْمُهَا . وقيل : إنما الكافور فى ریحها لا فى طعمها . وقيل : أراد كالكافور فى بياضه وطيب رائحته وبرده ؛ لأن الكافور لا يشرب ؛ كقوله تعالى : « حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا » أى نكار . وقال ابن كيسان : طَبَّ بِالْمَسْكِ وَالْكَافُورِ وَالزَّنْبَجِيلِ . وقال

(١) الرواية المشهورة فى الملقات : صددت الكأس .

(٢) السبيبة : الخمر . وسميت بذلك لأنها تستنى أى تشتري لتشرب ؛ وفى بعض النسخ : كان خبيثة ، وهى المصونة

المضنون بها لتفاستها . وبيت رأس : موضع بالأردن مشهور بالخمر .

مقاتل : ليس بكافور الدنيا ولكن سمي الله ما عنده بما عندكم حتى تهتدى لها القلوب، وقوله :
« كَان مِزَاجُهَا » « كَان » زائدة أى من كأس مِزَاجُهَا كَافُورٌ . (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ)
قال الفراء : إن الكافور أسم لعين ماء في الجنة ؛ فـ «عَيْنًا» بدل من كافور على هذا . وقيل :
بدل من كأس على الموضع . وقيل : هى حال من المضمرة في مِزَاجُهَا . وقيل : نصب على
المدح ؛ كما يُذَكَّرُ الرَّجُلُ فتقول : العاقل اللبيب أى ذكرتم العاقل اللبيب فهو نصب بإضمار
أعنى . وقيل : يشربون عينا . وقال الزجاج : المعنى من عين . ويقال : كافور وقافور .
والكافور أيضا وعاء طلع النخل وكذلك الكُفْرَى . قاله الأصمعى .

وأما قول الراعى :

تَكْسُو المَفَارِقَ وَاللَّبَاتِ ذَا أَرَجٍ * مِ ن قُصْبِ مُعْتَلِفِ الكَافُورِ دَرَّاجِ

فإن الظبي الذى يكون منه المسك إنما يرعى سُنبَلَ الطَّيْبِ بفعله كافورا . (يَشْرَبُ بِهَا)
قال الفراء : يشرب بها ويشربها سواء في المعنى ، وكأن يشرب بها يروى بها وينقع ؛ وأنشد :
شَرِبْنَ بِمَاءِ البَحْرِ ثُمَّ تَرَفَعَتْ * مَتَى بَلَّحِجِ خُضِرٍ هُنَّ نَبِيحِ^(١)

قال : ومثله فلان يتكلم بكلام حسن ويتكلم كلاما حسنا . وقيل : المعنى يشربها والباء
زائدة . وقيل : الباء بدل « من » تقديره يشرب منها ؛ قاله القتيبي . (يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا)
فيقال : إن الرجل منهم يمشى في بيوتاته ويصعد إلى قصوره ، ويده قضيب يشير به إلى
الماء فيجرى معه حيثما دار في منازل على مستوى الأرض في غير أخدود ، ويتبعه حيثما صعد
إلى أعلى قصوره ؛ وذلك قوله تعالى : « عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا »
أى يُشَقِّقُونَهَا شَقًّا كما يفجر الرجل النهر ها هنا وها هنا إلى حيث يريد . وعن ابن أبي نجيح عن
مجاهد « يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا » يقودونها حيث شاءوا ، وتتبعهم حيثما مالوا مالت معهم . وروى

(١) قاله أبو ذؤيب يصف السحابات ، والباء في « بماء » بمعنى « من » و « متى » معناها « في » في لغة هذيل

[ونبيح : أى مرعى مع صوت .

ابو مقاتل عن أبي صالح عن سعد عن أبي سهل^(١) عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أربع عيون في الجنة عينان تجريان من تحت العرش إحداهما التي ذكر الله « يُفَجَّرُونَهَا تَفْجِيرًا » [والأخرى الزنجبيل^(٢)] والأخرى نَضَاحَتَانِ من فوق العرش إحداهما التي ذكر الله [عينا فيها تسمى^(٣)] « سَلْسَبِيلَا » والأخرى التَّسْنِيمُ " ذكره الترمذي الحكيم في « نوادير الأصول » . وقال : فَالتَّسْنِيمُ للمقربين خاصة شرابا لهم ، والكافور للأبرار شرابا لهم ؛ يمزج للأبرار من التَّسْنِيمِ شرابهم ، وأما الزنجبيل والسلسبيل فللأبرار منها مزاج هكذا ذكره في التنزيل وسكت عن ذلك لمن هي شرب ، فما كان للأبرار مزاج فهو للمقربين صرف وما كان للأبرار صرف فهو لسائر أهل الجنة مزاج ، والأبرار هم الصادقون ، والمقربون هم الصَّادِقُونَ .

قوله تعالى : يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾
وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ
لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ﴾ أى لا يُخْلِفُونَ إذا نَذَرُوا . وقال معمر عن قتادة : بما فرض الله عليهم من الصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة وغيره من الواجبات . وقال مجاهد وعكرمة : يوفون إذا نذروا في حَقِّ الله جل ثناؤه . وقال الفراء والجرجاني : وفي الكلام إضمار ؛ أى كانوا يوفون بالنذر في الدنيا . والعرب قد تزيد مرة « كان » وتحذف أخرى . والنذر حقيقة ما أوجبه المكلف على نفسه من شىء يفعلُه . وإن شئت قلت في حده : النذر هو إيجاب المكلف على نفسه من الطاعات ما لو لم يوجبه لم يلزمه . وقال الكلبي : « يُوفُونَ بِالنَّذْرِ » أى يتممون العهود والمعنى واحد ؛ وقد قال الله تعالى :

(١) هذا السند في الأصول : أبو مقاتل عن صالح بن سعيد عن أبي سهل الخ وصوبناه من التذكرة للقرطبي .

(٢) الزيادة من الدر المنثور . (٣) الزيادة من التذكرة والدر المنثور .

« ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ » أى أعمال نسكهم التى ألزموها أنفسهم بإحرامهم بالبحر . وهذا يقوى قول قتادة . وإن النذر يندرج فيه ما ألزمه المرء بإيمانه من أمثال أمر الله ؛ قاله القشيري . وروى أشهب عن مالك أنه قال : « يُؤْفُونَ بِالنَّذْرِ » هو نذر العتق والصيام والصلاة . وروى عنه أبو بكر بن عبد العزيز قال مالك « يُؤْفُونَ بِالنَّذْرِ » قال : النذر هو اليمين .

قوله تعالى : ﴿ وَيَخَافُونَ ﴾ أى يَحَذَرُونَ ﴿ يَوْمًا ﴾ أى يوم القيامة . ﴿ كَانَتْ شَرَّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ أى عاليا داهيا فاشيا وهو فى اللغة ممتدا ؛ والعرب تقول : أستطار الصّدع فى القارورة والزجاجة وأستطال إذا امتد ؛ قال الأعشى :

وَبَانَتْ وَقَدْ أَسَارَتْ^(۱) فِي الْفَوْأِ * دِ صَدْعًا عَلَى نَأْيِهَا مُسْتَطِيرًا

ويقال : أستطار الحريق إذا أنتشر . وأستطار الفجر إذا أنتشر الضوء .

وقال حسان :

وَهَانَ عَلَى سَرَاةِ بَنِي لُؤَى * حَرِيقٌ بِالْبُورَةِ مُسْتَطِيرٌ^(۲)

وكان قتادة يقول : أستطار والله شرُّ ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض . وقال

مقاتل : كان شره فاشيا فى السموات فأنشقت ، وتناثرت الكواكب ، وفزعت الملائكة ، وفى الأرض نُسِفَتِ الجبالُ وغارت المياه .

قوله تعالى : ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : على قِلْتِهِ

وحبهم إياه وشهوتهم له . وقال الداراني : على حب الله . وقال الفُضَيْل بن عِيَاض : على

حب إطعام الطعام . وكان الربيع بن خيثم إذا جاءه السائل قال : أطمعوه سُكْرًا فإن الربيع

يحب السُّكْرَ . ﴿ مَسْكِينًا ﴾ أى ذا مسكنة . وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : هو

الطواف يسألك مالك ﴿ وَيَتِيًّا ﴾ أى من يتامى المسلمين . وروى منصور عن الحسن : أن

(۱) وروى : أورش .

(۲) سراة بنى لؤى أى خبارهم . والبورة : موضع بينى قريظة ؛ يشير إلى ما فعله المسلمون بينى قريظة .

يتيما كان يحضر طعام ابن عمر ، فدعا ذات يوم بطعامه ، وطلب اليتيم فلم يجده ، وجاءه بعد ما فرغ ابن عمر من طعامه فلم يجده الطعام ، فدعاه بسويق وعسل ؛ فقال : دونك هذا فوالله ما غُيِّنَتْ ؛ قال الحسن وابن عمر : والله ما غُيِّنَ . (وَأَسِيرًا) أى الذى يؤسر فيحبس . فروى أبو صالح عن ابن عباس قال : الأسير من أهل الشرك يكون فى أيديهم . وقاله قتادة . وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : الأسير هو المحبوس . وكذا قال سعيد ابن جبير وعطاء : هو المسلم يُحبَس بحق . وعن سعيد بن جبير مثل قول قتادة وابن عباس . قال قتادة : لقد أمر الله بالأسرى أن يُحَسِّنَ إليهم ، وأن أسراهم يومئذ لأهل الشرك ، وأخوك المسلم أحق أن تطعمه . وقال عكرمة : الأسير العبد . وقال أبو حمزة الثمالي : الأسير المرأة ، يدل عليه قوله عليه السلام : « استوصوا بالنساء خيرا فإنهن عوانٌ عندكم » أى أسيرات . وقال أبو سعيد الخدرى : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا » فقال : « المسكين الفقير واليتيم الذى لا أب له والأسير المملوك والمسجون » ذكره الثعلبي . وقيل : نسخ إطعام المسكين آية الصدقات ، وإطعام الأسير [آية] السيف ؛ قاله سعيد بن جبير . وقال غيره : بل هو ثابت الحكم ، وإطعام اليتيم والمسكين على التطوع ، وإطعام الأسير لحفظ نفسه إلى أن يتخير فيه الإمام . الماوردى : ويحتمل أن يريد بالأسير الناقص العقل ؛ لأنه فى أسر خبله وجنونه ، وأسر المشرك أنتقام يقف على رأى الإمام ؛ وهذا بر وإحسان . وعن عطاء قال : الأسير من أهل القبلة وغيرهم .

قلت : وكانت هذا القول عام يجمع جميع الأقوال ، ويكون إطعام الأسير المشرك قرينة إلى الله تعالى ، غير أنه من صدقة التطوع ، فأما المفروضة فلا . والله أعلم . ومضى القول فى المسكين واليتيم والأسير وأشتقاق ذلك من اللغة فى « البقرة »^(١) مستوفى والحمد لله .

(١) راجع ج ٢ ص ١٤ فابعد و ص ٢١

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ ﴾ أى يقولون بالسنتهم للمسكين واليتيم والأسير
« إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ » فى الله جل ثناؤه فزعا من عذابه وطمعا فى ثوابه . ﴿ لَا نُزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً ﴾
أى مكافأة . ﴿ وَلَا شُكُورًا ﴾ أى ولا أن تثنوا علينا بذلك ؛ قال ابن عباس : كذلك كانت
نياتهم فى الدنيا حين أطعموا . وعن سالم عن مجاهد قال : أما لانهم ما تكلموا به ولكن علمه
الله جل ثناؤه منهم فأثنى به عليهم ؛ ليرغب فى ذلك راغب . وقاله سعيد بن جبیر حكاة عنه
القشيري . وقيل : إن هذه الآية نزلت فى مطعم بن ورقاء الأنصارى نذر نذرا فوفى به .
وقيل : نزلت فىمن تكفل بأسرى بدر وهم سبعة من المهاجرين ؛ أبو بكر وعمر وعلی والزبير
وعبد الرحمن بن عوف وسعد وأبو عبيدة رضى الله عنهم ؛ ذكره الماوردى . وقال مقاتل :
نزلت فى رجل من الأنصار أطعم فى يوم واحد مسكينا ویتیا وأسيرا . وقال أبو حمزة
الثمالی : بلغنى أن رجلا قال یا رسول الله أطعمنى فإنى والله مجهود ؛ فقال : «والذى نفسى
بيده ما عندى ما أطعمك ولكن أطلب » فأتى رجلا من الأنصار وهو يتعشى مع امرأته
فسأله وأخبره بقول النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقالت المرأة : أطعمه وآسقه . ثم أتى النبي
صلى الله عليه وسلم يتيم فقال : یا رسول الله ! أطعمنى فإنى مجهود . فقال : « ما عندى
ما أطعمك ولكن أطلب » فاستطعم ذلك الأنصارى فقالت المرأة : أطعمه وآسقه ، فأطعمه
ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم أسير فقال : یا رسول الله ! أطعمنى فإنى مجهود . فقال :
« والله ما معى ما أطعمك ولكن أطلب » . فجاء الأنصارى فطلب ، فقالت المرأة : أطعمه
وآسقه . فنزلت : « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا » ذكره الثعلبي . وقال
أهل التفسير : نزلت فى على وفاطمة رضى الله عنهما وجارية لهما اسمها فضة .

قلت : والصحيح أنها نزلت فى جميع الأبرار ، ومن فعل فعلا حسنا ؛ فهى عامة . وقد ذكر
النقاش والثعلبي والقشيري وغير واحد من المفسرين فى قصة على وفاطمة وجاريتهما حديثا
لا يصح ولا يثبت ، رواه ليث عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله عز وجل : « يُؤْفُونَ بِالنَّذْرِ
وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا . وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا » قال :

مرض الحسن والحسين فعادهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وعادهما عامة العرب ؛ فقالوا :
يا أبا الحسن - ورواه جابر الجعفي عن قنبر مولى علي قال : مرض الحسن والحسين حتى
عادهما أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا أبا الحسن -
رجع الحديث إلى حديث ليث بن أبي سليم - لو نذرت عن ولدك شيئاً ، وكل نذر ليس له وفاء
فليس بشيء . فقال رضي الله عنه : إن برأ ولداي صمت لله ثلاثة أيام شكراً . وقالت
جارية لهم نوبية . إن برأ سيدي صمت لله ثلاثة أيام شكراً . وقالت فاطمة مثل ذلك .
وفي حديث الجعفي فقال الحسن والحسين : علينا مثل ذلك فألبس الغلامان العافية ، وليس
عند آل محمد قليل ولا كثير ، فأنطلق علي إلى شمعون بن حاريا الخيبري وكان يهودياً فاستقرض
منه ثلاثة أصوع من شعير ، فجاء به فوضعه ناحية البيت ، فقامت فاطمة إلى صاع فطحته
وأخبزته ، وصلى علي مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين يديه .
وفي حديث الجعفي : فقامت الجارية إلى صاع من شعير فخبزت منه خمسة أقراص لكل
واحد منهم قرص ، فلما مضى صيامهم الأول وضع بين أيديهم الخبز والملح الجريش ؛ إذ أتاهم
مسكين فوقف بالباب وقال : السلام عليكم أهل بيت محمد - في حديث الجعفي -
أنا مسكين من مساكين أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنا والله جائع ؛ أطمعوني أطمعكم
الله من موائد الجنة . فسمعه علي رضي الله عنه فأنشأ يقول ^(١) :

فاطم ذات الفضل واليقين * يا بذت خير الناس أجمعين
أما ترين البأس المسكين * قد قام بالباب له حنين
يشكو إلى الله ويستكين * يشكو إلينا جائع حزين
كل أمرئ بكسبه رهين * وفاعل الخيرات يستبين

(١) هذه الأبيات والتي بعدها كل النسخ مجمعة على تحريفها ، ولقد أحسن أبو حيان إذ يقول فيها : وذكر النقاش
في ذلك حكاية طويلة جداً ، ظاهرة الأخلاق ، وفيها أشعار للمسكين واليتيم والأسير يخاطبون بها بيت النبوة ، وأشعار
لفاطمة رضي الله عنها تخاطب كل واحد منهم ، ظاهرها الأخلاق لسفساف ألفاظها وكسر أبياتها وسفاطة معانيها .
وسياتي للقول رحمه الله ما يضعف هذا الحديث ويزينه .

مَوْعِدُنَا جَنَّةَ عَلِيِّينَ * حَرَمَهَا اللَّهُ عَلَى الضَّالِّينَ
وَاللَّبِخِيلِ مَوْقِفٍ مِهِينٍ * تَهْوَى بِهِ النَّارُ إِلَى سَجِينٍ
شَرَابُهُ الْحَمِيمُ وَالغَسِيلِينَ * مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ يَقْمِ سَمِينٍ
* وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَيَّ حِينٍ *

فأنشأت فاطمة رضى الله عنها تقول :

أَمْرُكَ عِنْدِي يَا بَنَ عَمِّ طَاعَةٌ * مَا بِي مِنْ أَوْمٍ وَلَا وَضَاعَةٌ
غَدَيْتُ فِي الْخَبْزِ لَهُ صِنَاعَةٌ * أَطْعِمُهُ وَلَا أَبَالِي السَّاعَةَ
أَرْجُو إِذَا أَشْبَعْتُ ذَا الْمَجَاعَةَ * أَنَّ الْحَقَّ الْأَخْيَارَ وَالْمَجَاعَةَ
* وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ لِي شَفَاعَةً *

فأطعموه الطعام، ومكثوا يومهم ولياتهم لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القراح، فلما أن كان في اليوم الثاني قامت إلى صاع فطحتته وأختبرته، وصلى على مع النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين أيديهم فوقف بالباب يتيم فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد: يتيم من أولاد المهاجرين أستشهد والذى يوم العقبة^(١). أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة. فسمعه على فأنشأ يقول :

فَاطِمَةُ بِنْتُ السَّيِّدِ الْكَرِيمِ * بِنْتُ نَبِيِّ لَيْسَ بِالزَّنِيمِ
لَقَدْ أَتَى اللَّهُ بِذِي الْيَتِيمِ * مَنْ يَرْحَمُ الْيَوْمَ يَكُنْ رَحِيمِ
وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَيَّ سَلِيمِ * قَدْ حُرِّمَ الْخَالِدُ عَلَى اللَّئِيمِ
أَلَّا يَجُوزَ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمِ * يَزَلُ فِي النَّارِ إِلَى الْجَحِيمِ
* شَرَابُهُ الصَّدِيدُ وَالْحَمِيمِ *

فأنشأت فاطمة رضى الله عنها تقول :

أَطْعِمَهُ الْيَوْمَ وَلَا أَبَالِي * وَأَوْثِرِ اللَّهُ عَلَى عِيَالِي
أَمْسَوْا جِيَاعاً وَهُمْ أَشْبَالِي * أَصْغَرُهُمْ يُقْتَلُ فِي الْقِتَالِ

(١) كذا في الأصل .

يَكْرَبَلَا يُقْتَلُ بِأَغْيَالٍ * ياويل للقاتل من وبالٍ
 تهوى به النار إلى سفالٍ * وفي يديه الغل والأغلال
 * كبولة زادت على الأبال *

فاطعموه الطعام ومكثوا يومين وليلتين لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القراح ، فلما كانت في اليوم الثالث قامت إلى الصاع الباقي فطحته وأختبرته ، وصلى على مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين أيديهم ، إذ أتاهم أسير فوقف بالباب فقال : السلام عليكم أهل بيت محمد نأسروننا وتشدوننا ولا تطعموننا ! أطمعوني فإني أسير محمد . فسمعه على فأنشأ يقول :

فاطم يا بنت النبي أحمد * بنت نبي سيد مسود
 وسماه الله فهو محمد * قد زانه الله بحسن أغيد
 هذا أسير للنبي المهتد * مثقل في غله مقيد
 يشكو إلينا الجوع قد تمدد * من يطعم اليوم يجده في غد
 عند العلي الواحد الموحد * ما يزرع الزارع سوف يحصد
 * أعطيه لالا تجعله أقعد *

فأنشأت فاطمة رضي الله تعالى عنها تقول :

لم يبق مما جاء غير صاع * قد ذهبت كفى مع الذراع
 أنسأى والله هما جيع * يارب لا تركهما ضياع
 أبوهما للخير ذو أصطناع * يصطنع المعروف بإبتداع
 عبئ الذراعين شديد الباع * وما على رأسي من قناع
 * إلا قناعاً تسجه أنساع *

فأعطوه الطعام ومكثوا ثلاثة أيام ولياليها لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القراح ، فلما أن كان في اليوم الرابع ، وقد قضى الله النذر أخذ بيده اليمنى الحسن وبيده اليسرى الحسين وأقبل نحو

رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع، فلما أبصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يا أبا الحسن ما أشد ما يسوءني ما أرى بكم أنطلق بنا إلى أبتى فاطمة" فأطلقوا إليها وهي في محرابها، وقد لصق بطنها بظهرها، وغارت عيناها من شدة الجوع، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرف المجاعة في وجهها بكى وقال: "واغوثاه يا الله أهل بيت محمد يموتون جوعاً" فهبط جبريل عليه السلام وقال: السلام عليك ربك يقرئك السلام يا محمد خذ هنيئاً في أهل بيتك. قال: "وما آخذ يا جبريل" فأقرأه « هَلْ آتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ » إلى قوله: « وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَنُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا » قال الترمذي الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول: فهذا حديث مزوقٌ مزيفٌ قد تطرّف فيه صاحبه حتى تشبهه على المستمعين، فالجاهل بهذا الحديث بعض شفتيه تلهفاً ألا يكون بهذه الصفة، ولا يعلم أن صاحب هذا الفعل مذموم؛ وقد قال الله تعالى في تنزيهه: « يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ » وهو الفضل الذي يفضل عن نفسك وعيالك، ووجرت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم متواترة بأن "خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى". "وأبدأ بنفسك ثم بمن تعول" وأفترض الله على الأزواج نفقة أهاليهم وأولادهم. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كفني بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت" أفيحسب عاقل أن علياً جهل هذا الأمر حتى أجهد صبيانا صغاراً من أبناء خمس أوست على جوع ثلاثة أيام ولياليهن؟! حتى تضوروا من الجوع، وغارت العيون منهم؛ لخلاء أجوافهم، حتى أبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بهم من الجهد. هب أنه آثر على نفسه هذا السائل، فهل كان يجوز له أن يحمل أهله على ذلك؟! وهب أن أهله سمحت بذلك لعلّ فهل جازله أن يحمل أطفاله على جوع ثلاثة أيام ولياليهن؟! ما يروج مثل هذا إلا على حمقى جهال؛ أبي الله لقلوب متذبة أن تظن بعلى مثل هذا. وليت شعري من حفظ هذه الأبيات كل ليلة عن علي وفاطمة، وإجابة كل واحد منهما صاحبه، حتى أذاه إلى هؤلاء الرواة؟! فهذا وأشباهه من أحاديث أهل السجون فيما أرى؛ بلغني أن قوماً

يُخَلِّدُونَ فِي السَّجُونَ فَيَبْقُونَ بِلا حَيْسَلَةٍ ، فَيَكْتُبُونَ أَحَادِيثَ فِي السَّمَرِ وَأَشْبَاهِهِ ، وَمِثْلَ هَذِهِ
الْأَحَادِيثِ مَفْتَعَلَةٌ ، فَإِذَا صَارَتْ إِلَى الْجِهَابِذَةِ رَمَوْا بِهَا وَزَيَّفُوهَا ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَلَهُ آفَةٌ
وَمَكِيدَةٌ ، وَآفَةُ الدِّينِ وَكَيْدُهُ أَكْثَرُ .

قوله تعالى : **إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا** ﴿١١﴾ **فَوْقَهُمْ**
اللَّهُ شَرٌّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : **(إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا)** «عَبُوسًا» من صفة اليوم ،
أى يوماً تعبس فيه الوجوه من هوله وشدته ، فالمعنى نخاف يوماً ذا عبوس . وقال ابن عباس :
يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل منه عرق كالقطران . وعن ابن عباس : العَبُوسُ الضَّيِّقُ
وَالْقَمْطَرِيرُ الطويل ، قال الشاعر :

* شَدِيدًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا *

وقيل : القَمْطَرِيرُ الشَّدِيدُ ، تقول العرب : يوم قَمْطَرِيرٍ وَقَمْطَرٍ وَعَصِيبٍ بمعنى ، وأنشد
الفراء :

بَنِي عَمَّنَا هَلْ تَذْكُرُونَ بَلَاءَنَا * عَلَيْكُمْ إِذَا مَا كَانَ يَوْمُ قَمْطَرٍ

بضم القاف . وَأَقْمَطَرٌ إِذَا أَشْتَدَّ . وقال الأَخْفَشُ : القَمْطَرِيرُ أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ الْأَيَّامِ
وَأَطْوَلُهُ فِي الْبَلَاءِ ، قال الشاعر :

فَفَرُّوا إِذَا مَا الْحَرْبُ نَارُ غُبَارِهَا * وَجَحَّ بِهَا الْيَوْمُ الْعَبُوسُ الْقَمْطَرُ

وقال الكسائي : يقال أَقْمَطَرُ الْيَوْمُ وَأَزْمَهُرُ أَقْمَطَرَارًا وَأَزْمَهُرَارًا وهو القَمْطَرِيرُ وَالزَّمْهَرِيرُ ،
ويوم مَقْمَطَرٌ إِذَا كَانَ صَعْبًا شَدِيدًا ، قال الهذلي^(١) :

بَنُو الْحَرْبِ أَرْضِعْنَا لَهُمْ مَقْمَطَرَةً * وَمَنْ يَلْقَ مِنَّا ذَلِكَ الْيَوْمَ يَهْرَبُ

(١) البيت لحذيفة بن أنس الهذلي والذي في ديوان الهذليين :

بنو الحرب أرضعنا بها مقمطرة * ومن يلق منا يلق سيد مدرب

أرضعنا مبنى للجھول . مقمطرة من أقطرت الناقة إذا لقت . و يلق بنى للجھول فى اللفظين . والسيد عند هذيل
الأسد . والمدرب الضارى .

وقال مجاهد : إن العُبوس بالشفيتين والقمطيرير بالجهة والحاجبين بفعلها من صفات الوجه المتغير من شدائد ذلك اليوم؛ وأنشد ابن الأعرابي :

يَغْدُو عَلَى الصَّيْدِ يَعُودُ مِنْ كَسْرِ * وَيَقْمَطِرُ سَاعَةً وَيَكْفَهْرُ

وقال أبو عبيدة : يقال رجل قَمَطِرير أى متقبض ما بين العينين . وقال الزجاج : يقال أَقْمَطِرَتِ الناقةُ إذا رَفَعَتْ ذَنبَهَا وَجَمَعَتْ قَطْرِيهَا وَزَمَّتْ بِأَنْفِهَا ؛ فَأَشْتَقَهُ مِنَ الْقَطْرِ وَجَعَلَ الميم مزيدة . قال أسد بن ناعصة :

وَأَصْطَلَيْتُ الْحُرُوبَ فِي كُلِّ يَوْمٍ * بِاسِيلِ الشَّرِّ قَمَطِرِيرِ الصَّبَاحِ

قوله تعالى : ﴿ فَوَقَّاهُمُ اللَّهُ ﴾ أى دفع عنهم ﴿ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ ﴾ أى بأسه وشدته وعذابه ﴿ وَلَقَّاهُمْ ﴾ أى أتاهم وأعطاهم حين لقوه أى رأوه ﴿ نَضْرَةً ﴾ أى حسناً ﴿ وَسُرُورًا ﴾ أى حبوراً . قال الحسن ومجاهد : « نَضْرَةٌ » فى وجوههم « وَسُرُورًا » فى قلوبهم . وفى النضرة ثلاثة أوجه : أحدها أنها البياض والنقاء ؛ قاله الضحاك . الثانى الحسن والبهاء ؛ قاله ابن جبير . الثالث أنها أثر النعمة ؛ قاله ابن زيد .

قوله تعالى : وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١١٢﴾ مَتَّكِعِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا ﴾ على الفقر . وقال القرظى : على الصوم . وقال عطاء : على الجوع ثلاثة أيام وهى أيام النذر . وقيل : بصبرهم على طاعة الله ، وصبرهم على معصية الله ومحارمه . و « ما » مصدرية وهذا على أن الآية نزلت فى جميع الأبرار ومن فعل فعلا حسنا . وروى ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الصبر فقال : « الصبر أربعة أولها الصبر عند الصدمة الأولى والصبر على أداء الفرائض والصبر على اجتناب محارم الله والصبر على المصائب » . ﴿ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ أى أدخلهم الجنة وألبسهم الحرير . أى يسمى

بحرير الدنيا وكذلك الذى فى الآخرة [وفيه] ما شاء الله عز وجل من الفضل . وقد تقدم أن^(١) من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة ، وإنما ألبسه من ألبسه فى الجنة عوضاً عن حبسهم أنفسهم فى الدنيا عن الملابس التى حرم الله فيها .

قوله تعالى : ﴿ مُتَكِينِينَ فِيهَا ﴾ أى فى الجنة ؛ ونصب « مُتَكِينِينَ » على الحال من الهاء والميم فى « جَزَاهُمْ » والعامل فيها جزى ولا يعمل فيها « صَبَرُوا » ؛ لأن الصبر إنما كان فى الدنيا والآخرة فى الآخرة . وقال الفراء . وإن شئت جعلت « مُتَكِينِينَ » تابعا كأنه قال جزاهم جنة « مُتَكِينِينَ فِيهَا » . ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ السرر فى المجال وقد تقدم . وجاءت عن العرب أسماء تحتوى على صفات : أحدها الأريكة لا تكون إلا فى حَجَلَة على سرير ، ومنها السَّجَل وهو الدلو الممتلى ماء فإذا صَفِرَتْ لم تُسَمَّ سَجَلًا ، وكذلك الذُّنُوب لا تُسَمَّى ذُنُوبًا حتى تُمَلَأَ ، والكأس لا تُسَمَّى كأسًا حتى تُتْرَعَ من الخمر ، وكذلك الطَّبَق الذى تُهْدَى عليه الهدية مهدي ، فإذا كان فارغا قيل طَبَقٌ أو خِوَانٌ ؛ قال ذو الرِّمَّة :

خُدُودٌ جَفَّتْ فِي السَّيْرِ حَتَّى كَأَنَّهَا * يُبَاشِرُنَ بِالْمَعْزَاءِ مَسَّ الْأَرَائِكِ^(٣)

أى الفرش على السرر . ﴿ لَا يَرُونَ فِيهَا شَمْسًا ﴾ أى لا يرون فى الجنة شدة حرِّ حرِّ الشمس ﴿ وَلَا زَمَهْرِيرًا ﴾ أى ولا بردا مفرطاً ؛ قال الأعشى :

مَنْعَةً طِفْلَةً كَالْمَهَا * لَمْ تَرَشْمَسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا^(٤)

وعن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أشتكت النار إلى ربها عز وجل قالت يا رب أكل بعضى بعضاً فجعل لها نفسين نفساً فى الشتاء ونفساً فى الصيف فشدة ما تجدون من البرد من زمهريرها وشدة ما تجدون من الحر فى الصيف

(١) راجع : ج ١٢ ص ٢٩ (٢) راجع : ج ١٠ ص ٣٩٨

(٣) المعزاء الأرض الصلبة يقول : من شدة الحاجة إلى النوم يرون الأرض الصلبة ذات الحجارة مثل الفرش على

الأرائك وهى السرر . ويروى : خدودا على أنه مفعول لفعل فى البيت قبله .

(٤) الذى فى ديوان الأعشى طبع أوربا : مبتلة الخلق مثل المهامة ... الخ .

من سُمومها“ . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ”إن هواء الجنة سَجَسَج لا حر ولا برد“
والسَجَسَج الظل الممتد كما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس . وقال مرة الهمداني : الزمهير
البرد القاطع . وقال مقاتل بن حيان : هو شيء مثل رءوس الإبر ينزل من السماء في غاية
البرد . وقال ابن مسعود : هو لون من العذاب وهو البرد الشديد ، حتى إن أهل النار إذا
ألقوا فيه سألوا الله أن يعذبهم بالنار ألف سنة أهون عليهم من عذاب الزمهير يوماً واحداً .
قال أبو النجم :

* أو كنت ريحاً كنت زمهرياً *

وقال ثعلب : الزمهير القمر بلغة طيء ، قال شاعرهم :

وايلة ظلامها قد اعتكر * قطعتها والزمهير مازهر

ويروى : ما ظهر ؛ أى لم يطالع القمر . فالمعنى لا يرون فيها شمساً كشمس الدنيا ولا قمرًا
كقمر الدنيا ؛ أى إنهم فى ضياء مستديم لا ليل فيه ولا نهار ؛ لأن ضوء النهار بالشمس
وضوء الليل بالقمر . وقد مضى هذا المعنى مجوداً فى سورة « مريم » عند قوله تعالى :
« وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةٌ وَعِشْيَاءٌ » . وقال ابن عباس : بينما أهل الجنة إذ رأوا نورا
ظنوه شمساً قد أشرقت بذلك النور الجنة ، فيقولون : قال ربنا « لا يرون فيها شمساً
ولا زمهرياً » فما هذا النور ؟ فيقول لهم رضوان : ليست هذه شمس ولا قمر ، ولكن هذه
فاطمة وعلى ضحكا فأشرقت الجنان من نور ضحكهما ، وفيهما أنزل الله تعالى « هل أتى على
الإنسان » . وأنشد :

أنا مولى لفتى * أنزل فيه هل أتى
ذاك على المرتضى * وابن عم المصطفى

قوله تعالى : ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا ﴾ أى ظل الأشجار فى الجنة قريبة من الأبرار ، فهى
مظلة عليهم زيادة فى نعيمهم وإن كان لا شمس ولا قمر ثم ؛ كما أن أمشاطهم الذهب والفضة

(١) راجع ج ١١ ص ١٢٧

وإن كان لا وسخ ولا شعث ثم . ويقال : إن ارتفاع الأشجار في الجنة مقدار مائة عام ، فإذا أشتهى ولي الله ثمرتها دانت حتى يتناولها . وانتصبت « دانية » على الحال عطفاً على « متكئين » كما تقول : في الدار عبد الله متكئاً ومرسلة عليه المجال . وقيل : أنتصبت نعنا للجنة ؛ أي وجزاهم جنة دانية فهي صفة لموصوف محذوف . وقيل : على موضع « لا يرون فيها شمساً ولا زمهرياً » ويرون دانية . وقيل : على المدح أي دنت دانية . قاله الفراء . « ظللاًها » الظلال مرفوعة بدانية ، ولو قرئ برفع دانية على أن تكون الظلال مبتدأ ودانية الخبر لحاز ، وتكون الجملة في موضع الحال من الهاء والميم في « جزاهم » وقد قرئ بذلك . وفي قراءة عبد الله « ودانياً عليهم » لتقدم الفعل . وفي حرف أبي « ودان » رفع على الاستئناف . (ودللت) أي سُخِّرَتْ لهم (قُطُوفُهَا) أي ثمارها (تَدْلِيلاً) أي تسخييراً فيتناولها القائم والقاعد والمضطجع لا يرد أيديهم عنها بعد ولا شوك ؛ قاله قتادة . وقال مجاهد : إن قام أحد ارتفعت له ، وإن جلس تدلت عليه ، وإن اضطجع دنت منه فأكل منها . وعنه أيضاً : أرض الجنة من ورق ، وترابها الزعفران ، وطيبها مسك أذفر ، وأصول شجرها ذهب وورق ، وأفنانها اللؤلؤ والزبرجد والياقوت ، والتمر تحت ذلك كله ؛ فمن أكل منها قائماً لم تؤذِه ، ومن أكل منها قاعداً لم تؤذِه ، ومن أكل منها مضطجعا لم تؤذِه . وقال ابن عباس : إذا هم أن يتناول من ثمارها تدلت إليه حتى يتناول منها ما يريد ، وتذليل القطوف تسهيل التناول . والقطوف الثمار الواحد قِطْف بكسر القاف سمي به لأنه يُقَطَف ، كما سمي الجنى لأنه يجنى . « تَدْلِيلاً » تأكيد لما وصف به من الدل ؛ كقوله تعالى : « وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا » « وكلم الله موسى تكليماً » . الماوردي : ويحتمل أن يكون تذليل قُطُوفِهَا أن تبرز لهم من أكلها ، وتخلص لهم من نواها .

قلت : وفي هذا بعد ؛ فقد روى ابن المبارك ، قال أخبرنا سفيان عن حماد عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال : نخل الجنة جذوعها زُمرْد أخضر ، وكرُّها ذهب أحمر ، وسَعَفُهَا كُسُوة لأهل الجنة ، منها مُقَطَّعَاتُهُمْ وحُلَلُهُمْ ، وثمرها أمثال القلال والدلاء ، أشد

بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل ، وألين من الزبد ليس فيه عجم . قال أبو جعفر النحاس :
ويقال المذلل الذي قد ذلله الماء أى أرواه . ويقال المذلل الذى يُفَيِّئُهُ أدنى ريح لنعتمه ،
ويقال المذلل المسوى ؛ لأن أهل الحجاز يقولون : ذلل نخلك أى سَوَّه ، ويقال المذلل
القريب المتناول ؛ من قولهم : حائط ذليل أى قصير . قال أبو حنيفة : وهذه الأقوال التى
حكيناها ذكرها أهل العلم باللغة وقالوها فى قول امرئ القيس :

* وساق كانبوب السقي المذلل^(١) *

قوله تعالى : وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِعَانِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ
قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا
كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾

قوله تعالى : (وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِعَانِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ) أى يدور على هؤلاء الأبرار
الخدم إذا أرادوا الشراب « بِعَانِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ » قال ابن عباس : ليس فى الدنيا شىء مما
فى الجنة إلا الأسماء ؛ أى ما فى الجنة أشرف وأعلى وأبقى . ثم لم تنف الأوانى الذهبية بل المعنى
يسقون فى أوانى الفضة ، وقد يسقون فى أوانى الذهب . وقد قال تعالى : « يُطَافُ عَلَيْهِمْ
بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ » . وقيل : نبه بذكر الفضة على الذهب ؛ كقوله : « سَرَابِيلَ
تَقِيكُمْ الْحَرَّ » أى والبرد فنبه بذكر أحدهما على الثانى . والأكواب الكيزان العظام التى
لا آذان لها ولا عرى ، الواحد منها كُوب ؛ وقال عدي :

مَتَّجَا تَفْرَعُ^(٢) أَبْوَابُهُ * يَسْعَى عَلَيْهِ الْعَبْدُ بِالْكُوبِ

وقد مضى فى « الزخرف » . (كَانَتْ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ) أى فى صفاء القوارير
وبياض الفضة ؛ فصفاؤها صفاء الزجاج وهى من فضة . وقيل : أرض الجنة

(١) الأنبوب : البردى . والدق : النخل المسق . شبه ساق المرأة بردى قد نبت تحت نخل ، فالنخل يظله

من الشمس وذلك أحسن ما يكون منه . وصدر البيت : وكشح لطيف كالجديل مخصر .

(٢) يروى : تخفق . بدل تفرع . (٣) راجع ج ١٦ ص ١١١ فأبعدها .

من فضة ، والأواني تتخذ من تربة الأرض التي هي منها . ذكره ابن عباس وقال : ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتم في الدنيا شبهه إلا القوارير من فضة . وقال : لو أخذت فضة من فضة الدنيا فضربتها حتى تجعلها مثل جناح الذباب لم ترمن ورائها الماء ، ولكن قوارير الجنة مثل الفضة في صفاء القوارير . (قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا) قراءة العامة بفتح القاف والdal ؛ أى قَدَرها لهم السقاة الذين يطوفون بها عليهم . قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : أتوا بها على قدر ربيهم بغير زيادة ولا نقصان . الكلبي : وذلك ألد وأشهى ؛ والمعنى قَدَرتها الملائكة التي تطوف عليهم . وعن ابن عباس أيضا : قَدَروها على ملء الكف لا تزيد ولا تنقص حتى لا تؤذيهم بثقل أو بإفراط صغر . وقيل : إن الشاربين قَدَرُوا لها مقادير في أنفسهم على ما آسَتهوا وقَدَرُوا . وقرأ عبيد بن عمير والشَّعبي وابن سيرين « قَدَرُوهَا » بضم القاف وكسر الdal أى جعلت لهم على قدر إرادتهم . وذكر هذه القراءة المهدوى عن عليّ وابن عباس رضى الله عنهما ؛ وقال : ومن قرأ « قَدَرُوهَا » فهو راجع إلى معنى القراءة الأخرى ، وكان الأصل قَدَرُوا عليها فحذف حرف الجر ؛ والمعنى قُدِّرَتْ عليهم ؛ وأنشد سيبويه :

آلَيْتَ حَبَّ الْعِرَاقِ الذَّهْرَ آكُلُهُ * وَالْحَبُّ يَأْكُلُهُ فِي الْقَرْيَةِ السُّوسُ

وذهب إلى أن المعنى على حَبِّ العراق . وقيل : هذا التقدير هو أن الأقداح تطير فتغترف بمقدار شهوة الشارب ؛ وذلك قوله تعالى : « قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا » أى لا يفضل عن الرى ولا ينقص منه ، فقد أُلِّمَت الأقداح معرفة مقدار رى المشتهى حتى تغترف بذلك المقدار . ذكر هذا القول الترمذى الحكيم في « نواذر الأصول » .

قوله تعالى : (وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا) وهى الخمر فى الإناء . (كَان مِرَاجِهَا زَنْجَبِيلًا) « كان » صلة أى مزاجها زنجبيل أو كان فى حكم الله زنجبيل . وكانت العرب تستلذ من

(١) أى فى بياضها .

(٢) قائله المتلهم . وىروى : أطمعه . والرواية الصحيحة فى « آليت » بالفتح لأنه يخاطب عمرو بن هند الملك ، وكان قد أقسم ألا يطعم المتلهم حب العراق . فقال له المتلهم مستهزئا آليت على حب العراق لا أطمعه ، وقد وجدت منه بالشام ما يفتى عما عندك فنه هناك كثير بحيث يأكله السوس . وأراد بالقرية الشام .

الشراب ما يزوج بالزنجبيل لطيب رائحته ؛ لأنه يحدو اللسان ، ويهضم المأكول ، فرغبوا في نعيم الآخرة بما اعتقدوه نهاية النعمة والطيب . وقال المسيب بن علس يصف ثغر المرأة :

وَكَأَنَّ طَعْمَ الزَّجْجِيلِ بِهِ * إِذْ ذُقْتَهُ وَسُلَافَةَ الْخَمْرِ

ويروى : الكرم . وقال آخر^(١) :

كَأَنَّ جَنِيًّا مِنَ الزَّجْجِيَّةِ * لِي بَاتَ بِفِيهَا وَأُرِيًّا مُشَارَا

ونحوه قول الأعشى :

كَأَنَّ الْقَرْنُقُلَ وَالزَّجْجِيَّةِ * لِي بَاتَا بِفِيهَا وَأُرِيًّا مُشُورَا .

وقال مجاهد : الزنجبيل اسم للعين التي منها مزاج شراب الأبرار . وكذا قال قتادة : والزنجبيل اسم العين التي يشرب بها المقربون صرفا وتمزج لسائر أهل الجنة . وقيل : هي عين في الجنة يوجد فيها طعم الزنجبيل . وقيل : إن فيه معنى الشراب الممزوج بالزنجبيل .

والمعنى كأن فيها زنجبيلا . (عَيْنًا) بدل من كأس . ويجوز أن ينتصب بإضمار فعل أي يسقون عينا . ويجوز نصبه بإسقاط الخافض أي من عين على ما تقدم في قوله تعالى : « عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ » . (فِيهَا) أي في الجنة (تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا) السلسبيل الشراب اللذيذ وهو فعيل من السلاسة ؛ تقول العرب : هذا شراب سلس وسلسل وسلسبيل بمعنى أي طيب الطعم لذيقه . وفي الصحاح : وتسلسل الماء في الحلق جرى ، وسلسلته أنا صببته فيه ، وماء سلسل وسلسل سهل الدخول في الحلق لعذوبته وصفائه ، والسلسل بالضم مثله . وقال الزجاج : السلسبيل في اللغة اسم لما كان في غاية السلاسة فكانت العين سميت بصفقتها . وعن مجاهد قال : سلسبيل حديدة الجرى تسيل في حلوقهم أنسلالا . ونحوه عن ابن عباس : إنها الحديدة الجرى . ذكره الماوردي ؛ ومنه قول حسان بن ثابت رضي الله عنه :

(١) الذي في ديوان الأعشى هذا البيت لا الذي بعده ، وفيه : خالط فاها ... الخ والظاهر أن البيتين واحد

وأختلفت الرواية .

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عَلَيْهِمْ * بَرْدَى يُصَفَّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسِلِ^(١)

وقال أبو العالية ومقاتل : إنما سميت سلسبيلاً ؛ لأنها تسيل عليهم في الطرق وفي منازلهم ، تتبع من أصل العرش من جنة عدن إلى أهل الجنة . وقال قتادة : سلسلة منقاد ماؤها حيث شاءوا . ونحوه عن عكرمة . وقال الففال : أى تلك عين شريفة فسئل سبيلاً إليها . وروى هذا عن علي رضي الله عنه . وقوله : « تُسَمَّى » أى لأنها مذكورة عند الملائكة وعند الأبرار وأهل الجنة بهذا الاسم . وصرف سلسبيل ؛ لأنه رأس آية ؛ كقوله تعالى : « الظُّنُونَا » و « السَّبِيلَا » .

قوله تعالى : وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَنَابِهِمْ ثِيَابٌ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوْا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَلَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ) بَيْنَ مَنْ الَّذِي يَطُوفُ عَلَيْهِمْ بِالْآيَةِ ؛ أى ويخدمهم ولدان مُخَلَّدُونَ لأنهم أخف في الخدمة . ثم قال : « مُخَلَّدُونَ » أى باقون على ما هم عليه من الشَّباب والغَضَاضة والحُسْن ، لا يهرمون ولا يتغيرون ويكونون على سن واحدة على مر الأزمنة . وقيل : مُخَلَّدُونَ لا يموتون . وقيل : مُسَوَّرُونَ مُقَرَّبُونَ ؛ أى مُحَلَّنُونَ والتخليد التحلية . وقد تقدم هذا . (إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا) أى ظننتهم من حسنهم وكثرتهم وصفاء ألوانهم لؤلؤا مفرقا في عرصة المجلس ، واللؤلؤ إذا نُثر بساطا كان أحسن منه منظوما . وعن المأمون أنه ليلة زُفَّت إليه بوران بنت الحسن بن سهل ، وهو

(١) البريص : نهر بدمشق . وبردَى نهر آخر بدمشق أيضا أى ماء بردى . ويصفق : يمزج . والرحيق : الخمر البيضاء . (٢) راجع ج ١٧ ص ٢٠٢ فما بعدها .

على بساط منسوج من ذهب، وقد تترت عليه نساء دار الخليفة اللؤلؤ، فنظر إليه منشورا على ذلك البساط فأستحسن المنظر وقال : لله درُّ أبي نُوَاس كأنه أبصر هذا حيث يقول :

كَأَنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ فَقَاقِعِهَا * حَصْبَاءُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

وقيل : إنما شبههم بالمشور ؛ لأنهم سراع في الخدمة ، بخلاف الحور العين إذ شبههن باللؤلؤ المكنون المخزون لأنهن لا يمتنن بالخدمة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ « ثمَّ » ظرف مكان أى هناك فى الجنة ، والعامل فى « ثمَّ » معنى « رَأَيْتَ » أى وإذا رأيت ببصرك « ثمَّ » . وقال الفراء : فى الكلام « ما » مضمرة أى وإذا رأيت ما ثمَّ ؛ كقوله تعالى : « لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ » أى ما بينكم . وقال الزجاج : « ما » موصولة بتمَّ على ما ذكره الفراء ، ولا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة ، ولكن « رَأَيْتَ » يتعدى فى المعنى إلى « ثمَّ » والمعنى إذا رأيت ببصرك « ثمَّ » ويعنى بتمَّ الجنة ، وقد ذكر الفراء هذا أيضا . والنعم سائر ما يتنعم به . والمُلْكُ الكبير آستئذان الملائكة عليهم السلام ؛ قاله السُّدى وغيره . قال الكلبي : هو أن يأتى الرسول من عند الله بكرامة من الكسوة والطعام والشراب والتحف إلى ولى الله وهو فى منزله فيستأذن عليه ، فذلك المُلْكُ العظيم . وقاله مقاتل بن سليمان . وقيل : المُلْكُ الكبير هو أن يكون لأحدهم سبعون حاجبا ، حاجبا دون حاجب ، فبينما ولى الله فيما هو فيه من اللذة والسرور إذ يستأذن عليه ملك من عند الله ، قد أرسله الله بكتاب وهدية وتُحفة من رب العالمين لم يرها ذلك الولى فى الجنة قط ، فيقول للحاجب الخارج : آستأذن على ولى الله فإن معى كتابا وهدية من رب العالمين . فيقول هذا الحاجب للحاجب الذى يليه : هذا رسول من رب العالمين ، معه كتاب وهدية يستأذن على ولى الله ؛ فيستأذن كذلك حتى يبلغ إلى الحاجب الذى يلي ولى الله فيقول له : يا ولى الله ! هذا رسول من رب العالمين يستأذن عليك ، معه كتاب وتُحفة من رب العالمين أفيؤذن له ؟ فيقول : نعم ! فأذنوا له . فيقول ذلك الحاجب الذى يليه : نعم فأذنوا له . فيقول الذى يليه للآخر كذلك حتى يبلغ

الحاجب الآخر، فيقول له : نَمَّ أيها الملك ؛ قد أذن لك ، فيدخل فيسلم عليه ويقول : السَّلَامُ يقرئك السَّلَام ، وهذه مُخْفَةٌ وهذا كِتَابٌ من رَبِّ العالمين إليك . فإذا هو مكتوب عليه : من الحى الذى لا يموت إلى الحى الذى لا يموت . فيفتحه فإذا فيه : سلام على عبدى وولاي ورحمتى وبركاتى يا ولى أما أن لك أن تشاق إلى رؤية ربك ؟ فيستخفه الشوق فيركب البراق فيطير به البراق شوقاً إلى زيارة علام الغيوب ، فيعطيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقال سفيان الثورى : بلغنا أن الملك الكبير تسليم الملائكة عليهم ؛ دليله قوله تعالى : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ » . وقيل : الملك الكبير كون التيجان على رؤوسهم كما تكون على رأس ملك من الملوك . وقال الترمذى الحكيم : يعنى ملك التكوين فإذا أرادوا شيئاً قالوا له كُنْ . وقال أبو بكر الوراق : ملك لا يتعبه هُلك . وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم : ” إن الملك الكبير هو [أن]^(١) أدناهم منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألفى عام يرى أقصاه كما يرى أدناه ” قال : ” وإن أفضلهم منزلة من ينظر في وجه ربه تعالى كل يوم مرتين ” سبحان المنعم .

قوله تعالى : (عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ) قرأ نافع وحزمة وآبن محيصن « عَلَيْهِمْ » ساكنة الياء ، وأختاره أبو عبيد اعتباراً بقراءة ابن مسعود وآبن وثاب وغيرهما « عَلَيْهِمْ » وبتفسير آبن عباس : أما رأيت الرجل عليه ثيابٌ يعلوها أفضل منها . الفراء : وهو مرفوع بالابتداء وخبره « ثِيَابٌ سُنْدُسٌ » وأسم الفاعل يراد به الجمع . ويجوز في قول الأخفش إفراده على أنه أسم فاعل متقدم و « ثِيَابٌ » مرتفعة به وسدت مسد الخبر والإضافة فيه في تقدير الانفصال لأنه لم يُخَصَّ ، وأبتدى به لأنه أختص بالإضافة . وقرأ الباقون « عَلَيْهِمْ » بالنصب . وقال الفراء : هو كقولك فوقهم ، والعرب تقول : قومك داخل الدار فينصبون داخل على الظرف لأنه محل . وأنكر الزجاج هذا وقال : هو مما لانعرفه في الظروف ، ولو كان ظرفاً لم يجز إسكان الياء ولكنه نصب على الحال من شيئين : أحدهما الهاء والميم في قوله :

(١) زيادة يقتضيا المعنى .

« يَطُوفُ عَلَيْهِمْ » أى على الأبرار « وِلْدَانٌ » عاليا الأبرار ثيابٌ سندس؛ أى يطوف عليهم فى هذه الحال ، والثانى أن يكون حالا من الولدان أى « إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لَوْلَا مَشُورًا » فى حال علو الثياب أبدانهم . وقال أبو على : العامل فى الحال إما « لَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا » وإما « جَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا » قال : ويجوز أن يكون ظرفا فصيرف . المهدوى : ويجوز أن يكون اسم فاعل ظرفا ؛ كقولك هو ناحية من الدار، وعلى أن عاليا لما كان بمعنى فوق أجرى مجراه بفعل ظرفا . وقرأ ابن محيصة وابن كثير وأبو بكر عن عاصم « خُضِرَ » بالجر على نعت السندس « وَإِسْتَبْرَقٌ » بالرفع نسقا على الثياب ، ومعناه عاليهم [ثيابٌ]^(١) سندس وإستبرق . وقرأ ابن عامر وأبو عمرو ويعقوب « خُضِرَ » رفعا نعتا للثياب « وَإِسْتَبْرَقٌ » بالخفض نعتا للسندس ، وأختره أبو عبيد وأبو حاتم لجودة معناه ؛ لأن الخضر أحسن ما كانت نعتا للثياب فهى مرفوعة ، وأحسن ما عطف الإستبرق على السندس عطف جنس على جنس ، والمعنى عاليهم ثيابٌ خُضِرَ من سندس وإستبرق أى من هذين النوعين . وقرأ نافع وحفص كلاهما بالرفع ويكون « خُضِرَ » نعتا للثياب ؛ لأنهما جميعا بلفظ الجمع « وَإِسْتَبْرَقٌ » عطفا على الثياب . وقرأ الأعمش وابن وثاب وحمزة والكسائى كلاهما بالخفض ويكون قوله « خُضِرَ » نعتا للسندس ، والسندس اسم جنس وأجاز الأخفش وصف اسم الجنس بالجمع على أستقباح له ؛ وتقول : أهلك الناس الدينارُ الصُّفْرُ والدرهمُ البِيضُ ؛ ولكنه مُستبعد فى الكلام . والمعنى على هذه القراءة : عاليهم ثيابٌ سندسٍ خُضِرَ وثيابٌ إستبرقٍ . وكلهم صرف الإستبرق إلا ابن محيصة فإنه فتحه ولم يصرفه فقرأ « وَإِسْتَبْرَقٌ » نصبا فى موضع الجر على منع الصرف لأنه أعجمى وهو غلط ؛ لأنه نكرة يدخله حرف التعريف ؛ تقول الإستبرق إلا أن يزعم أنه قد يجعل عاما لهذا الضرب من الثياب . وقرئ « وَأَسْتَبْرَقٌ » بوصل الهمزة والفتح على أنه سُمِّيَ بِأَسْتَبْرَقٍ من البريق وليس بصحيح أيضا ؛ لأنه مُعَرَّبٌ مشهور تعريبه وأن أصله أَسْتَبْرَقُ^(٢) والسندس ما رَقَّ من الدِّيَبَاجِ والإستبرق ما غلُظ منه . وقد تقدّم .

(١) زيادة تفضيها العبارة . (٢) فى الأصل إستبرق وهو تحريف والتصويب من القاموس الفارسي .

وفى الألفاظ الفارسية وشرح القاموس أصله : « أسبر » . (٣) راجع ج ١٠ ص ٣٩٧ وج ١٧ ص ١٧٩

قوله تعالى : ﴿ وَحُلُّوا ﴾ عطف على « وَيَطُوفُ » . ﴿ أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ وفي سورة فاطر « يُحَلِّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ » وفي سورة الحج « يُحَلِّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَوَلُؤْلُؤًا » فقيل : حُلِّيَ الرجل الفضة وحلَّى المرأة الذهب . وقيل : تارة يلبسون الذهب وتارة يلبسون الفضة . وقيل : يجمع في يد أحدهم سواران من ذهب وسواران من فضة وسواران من لؤلؤ ليجتمع لهم محاسن الجنة ؛ قاله سعيد بن المسيب . وقيل : أى لكل قوم ماتميل إليه نفوسهم . ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ قال عليّ رضي الله عنه في قوله تعالى : « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا » قال : إذا توجه أهل الجنة إلى الجنة مروا بشجرة يخرج من تحت ساقها عينان فيشربون من إحداهما ، فتجري عليهم بنصرة النعيم ، فلا تتغير آبشارهم ، ولا تتشعث أشعارهم أبداً ، ثم يشربون من الأخرى فيخرج ما في بطونهم من الأذى ، ثم تستقبلهم خزنة الجنة فيقولون لهم : « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طَبِّئْمْ فَأَدْخُلُوهَا خَالِدِينَ » . وقال النخعيّ وأبو قلابة : هو إذا شربوه بعد أكلهم طهرهم ، وصار ما أكلوه وما شربوه رَشْحَ مِسْكٍ ، وَضُمَّتْ بَطُونُهُمْ . وقال مقاتل : هو من عين ماء على باب الجنة ، تنبع من ساق شجرة ، من شرب منها نزع الله ما كان في قلبه من غلٍّ وغشٍّ وحسدٍ ، وما كان في جوفه من أذى وقذر . وهذا معنى ما روى عن عليّ إلا أنه في قول مقاتل عين واحدة وعليه فيكون فعولاً للمبالغة ، ولا يكون فيه حجة للخنفى أنه بمعنى الطاهر . وقد مضى بيانه في سورة « الفرقان » ^(١) والحمد لله . وقال طيب الجمال : صَلَّيْتُ خَلْفَ سَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْعَتَمَةِ فَقَرَأُ « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا » وجعل يُحَرِّكُ شَفْتَيْهِ وَفَمَهُ كَأَنَّهُ يَمُصُّ شَيْئًا ، فلما فرغ قيل له : أتشرب أم تقرأ ؟ فقال : والله لو لم أجد لذته عند قراءته كلذته عند شربه ما قرأته .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً ﴾ أى يقال لهم إنما هذا جزاء لكم أى ثواب . ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُمْ ﴾ أى عملكم ﴿ مَشْكُورًا ﴾ أى من قبل الله ، وشكره للعبد قبول طاعته ، وثناؤه عليه ، وإثابته إياه . وروى سعيد عن قتادة قال : غَفَّرَ لَهُمُ الذَّنْبَ وَشَكَرَهُمُ الْحُسْنَى . وقال

(١) راجع ج ١٣ ص ٣٩ فابعدا .

مجاهد : « مَشْكُورًا » أى مقبولاً والمعنى متقارب ؛ فإنه سبحانه إذا قبل العمل شكره ، فإذا شكره أثاب عليه بالجزيل ؛ إذ هو سبحانه ذو الفضل العظيم . روى عن ابن عمر : أن رجلاً حبشياً قال : يا رسول الله ! فضلتُم علينا بالصُّور والألوان والنبوة ، أفرأيت إن آمنتُ بما آمنتَ به ، وعملتُ بما عملتَ أكأئن أنا معك في الجنة ؟ قال : ” نعم والذي نفسى بيده إنه ليُرى بياضُ الأسود في الجنة وضيأؤه من مسيرة ألف عام ” ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : ” من قال لا إله إلا الله كان له بها عند الله عهد ومن قال سبحان الله والحمد لله كان له بها عند الله مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة ” فقال الرجل : كيف نهلك بعدها يا رسول الله ؟ فقال : ” إن الرجل ليأتى يوم القيامة بالعمل لو وضعه على جبل لأثقله فتجىء النعمة من نعم الله فتكاد أن تستنفد ذلك كله إلا أن يُلطف الله برحمته ” قال : ثم نزلت « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ » إلى قوله : « وَمُلْكًا كَبِيرًا » قال الحبشى : يا رسول الله ! وإن عيني لترى ما ترى عينك في الجنة ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ” نعم ” فبكى الحبشى حتى فاضت نفسه . قال ابن عمر : فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدليه في حفرتة ويقول : « إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا » قلنا : يا رسول الله وما هو ؟ قال : ” والذي نفسى بيده لقد أوقفه الله ثم قال أى عبدى لأبيضن وجهك ولأبوتنك من الجنة حيث شئت فنعم أبحر العاملين ” .

قوله تعالى : **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٢﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِغْ مِنْهُمْ عَيْبًا أَوْ كُفُورًا ﴿٢٣﴾ وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٤﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٥﴾**

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴾ ما أفتريته ولا هجئت به من عندك ولا من تلقاء نفسك كما يدعيه المشركون . ووجه اتصال هذه الآية بما قبل أنه سبحانه لما ذكر أصناف الوعد والوعيد بين أن هذا الكتاب يتضمن ما بالناس حاجة إليه ، فليس بسحر

(١) في نسخة : يتعطف .

ولا كهانة ولا شعر وأنه حق . وقال ابن عباس : أنزل القرآن متفرقا آية بعد آية ولم ينزل جملة واحدة؛ فلذلك قال « نَزَّلْنَا » وقد مضى القول في هذا مبينا والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ أي لقضاء ربك . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : أصبر على أذى المشركين ؛ هكذا قضيت . ثم نسخ بآية القتال . وقيل : أي أصبر لما حكم به عليك من الطاعات ، أو أنتظر حكم الله إذ وعدك أنه ينصرك عليهم ولا تستعجل فإنه كائن لا محالة . ﴿ وَلَا تَطِغْ مِنْهُمْ آثِمًا ﴾ أي ذا إثم ﴿ أَوْ كَفُورًا ﴾ أي لا تطع الكفار . فروى معمر عن قتادة قال قال أبو جهل : إن رأيت مجداً يصلّي لأطان على عنقه . فأنزل الله عز وجل : « وَلَا تَطِغْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا » . ويقال : نزلت في عتبة بن ربيعة والوليد ابن المغيرة ، وكانا أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضان عليه الأموال والتزويج على أن يترك ذكر النبوة ، ففيهما نزلت « وَلَا تَطِغْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا » . قال مقاتل : الذي عرض التزويج عتبة بن ربيعة ؛ قال : إن بناتي من أجمل نساء قريش ؛ فأنا أزوجهك ابنتي من غير مهر ، وأرجع عن هذا الأمر . وقال الوليد : إن كنت صنعت ما صنعت لأجل المال ، فأنا أعطيك من المال حتى ترضى وأرجع عن هذا الأمر ؛ فترأت . ثم قيل « أَوْ » في قوله تعالى : « آثِمًا أَوْ كَفُورًا » أوكد من الواو ؛ لأن الواو إذا قلت : لا تطع زيدا وعمرا فأطاع أحدهما كان غير عاص ؛ لأنه أمره ألا يطيع الآثمين ، فإذا قال : « لَا تَطِغْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا » فـ « أو » قد دلت على أن كل واحد منهما أهل أن يعصى ؛ كما أنك إذا قلت : لا تخالف الحسن أو ابن سيرين ، أو أتبع الحسن أو ابن سيرين فقد قلت : هذان أهل أن يتبعا وكل واحد منهما أهل لأن يتبع ؛ قاله الزجاج . وقال الفراء : « أو » هنا بمنزلة « لا » كأنه قال : ولا كفورا ؛ قال الشاعر :

لَا وَجَدَ ثَمَلِي كَمَا وَجَدْتُ وَلَا * وَجَدَ عَجُولٍ أَضَلَّهَا رُبْعُ (٢)
أَوْ وَجَدَ شَيْخٍ أَضَلَّ نَاقَتَهُ * يَوْمَ تَوَافَى الْجَجِيحُ فَأَنْدَفَعُوا

(١) راجع ج ١٣ ص ٢٩ (٢) العجول من النساء والإبل الواله التي فقدت ولدها ، سميت بذلك لعجلتها في جينتها وذهاها جزعا ، وهي هنا الناقة . والرعب كضرب الفصيل ينتج في الربيع .

أراد ولا وجد شيخ . وقيل : الآثم المنافق ، والكفور الكافر الذي يظهر الكفر ؛ أى لا تطع منهم آثماً ولا كفوراً . وهو قريب من قول الفراء .

قوله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ أى صلّ لربك أول النهار وآخره ، ففي أوله صلاة الصبح وفي آخره صلاة الظهر والعصر . ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ ﴾ يعنى صلاة المغرب والعشاء الآخرة ﴿ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾ يعنى التطوع فى الليل ؛ قاله ابن حبيب .

وقال ابن عباس وسفيان : كل تسبيح فى القرآن فهو صلاة . وقيل : هو الذكر المطلق سواء كان فى الصلاة أو فى غيرها . وقال ابن زيد وغيره : إن قوله « وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً » منسوخ بالصلوات الخمس . وقيل : هو نذب . وقيل : هو مخصوص بالنبي صلى الله عليه وسلم . وقد تقدم القول فى مثله فى سورة « المزمل » وقول ابن حبيب حسن . وجمع الأصيل الأصائل والأصل ؛ كقولك سفائن وسفن ؛ قال :

* ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل *

وقال فى الأصائل وهو جمع الجمع :

لَعَمْرِي لَأَنْتَ الْبَيْتُ أَكْرَمُ أَهْلُهُ * وَأَقْعُدُ فِي أَيْمَانِهِ بِالْأَصَائِلِ

وقد مضى هذا فى آخر « الأعراف » مستوفى . ودخلت « مِنْ » على الظرف للتبويض ، كما دخلت على المفعول فى قوله تعالى : « يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ » .

قوله تعالى : إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أُمَّثْلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴾ توبيخ وتقرير ، والمراد أهل مكة . والعاجلة الدنيا ﴿ وَيَذُرُونَ ﴾ أى ويدعون ﴿ وَرَاءَهُمْ ﴾ أى بين أيديهم ﴿ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾

(١) قاله أبو ذؤيب الهذلى . (٢) راجع ج ٧ ص ٣٥٥ وما بعدها .

أى عسيرا شديدا كما قال : « ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى يتركون الإيمان بيوم القيامة . وقيل : « وَرَاءَهُمْ » أى خلفهم ، أى ويذرون الآخرة خلف ظهورهم فلا يعملون لها . وقيل : نزلت في اليهود فيما كتموه من صفة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحة نبوته . وحبهم العاجلة أخذهم الرشا على ما كتموه . وقيل : أراد المنافقين ؛ لأستبطنهم الكفر وطلب الدنيا . والآية تعم . واليوم الثقيل يوم القيامة . وإنما سمي ثقيلًا لشدائده وأهواله . وقيل : للقضاء فيه بين عباده .

قوله تعالى : (نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ) أى من طين . (وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ) أى خلقهم ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ومقاتل وغيرهم . والأسر الخلق ؛ قال أبو عبيد : يقال فرس شديد الأسر أى الخلق . ويقال : أسره الله جل ثناؤه إذا شدد خلقه ؛ قال لبيد :
سَاهِمُ الْوَجْهِ شَدِيدُ أَسْرِهِ * مُشْرِفُ الْحَارِكِ مَحْبُوكُ الْكَيْدِ^(١)
وقال الأخطل :

مِنْ كُلِّ مُجْتَنِبٍ شَدِيدِ أَسْرِهِ * سَالِسِ الْقِيَادِ تَخَالُهُ مُحْتَالًا^(٢)

وقال أبو هريرة والحسن والربيع : شددنا مفاصلهم وأوصالهم بعضها إلى بعض بالعروق والعصب . وقال مجاهد في تفسير الأسر : هو الشرج ، أى إذا خرج الغائط والبول تقبض الموضع . وقال ابن زيد : الأسر القوة . وقال ابن أحرى يصف فرسا :

يَمْشِي بِأَوْظْفَةٍ شَدَادِ أَسْرَهَا * صُمَّ السَّنَائِكِ لَا تَقِي بِالْجَدِّجِ^(٣)

وأشتقاقه من الإسار وهو القُد الذى يشد به الأقتاب ؛ يقال : أسرت القتب أسرا أى شدته وربطته ؛ ويقال : ما أحسن أسر قتيبه أى شدته وربطته ؛ ومنه قولهم : خذه

(١) ورد في اللسان مادة (حبك) : أنشد بيت لبيد على هذه الصورة : مشرف الحارك محبوك الكفل (وكذلك هو في ديوانه) ، ومحبوك الكفل : مدحه . وفي مادة حرك أنشد الشطر :
* مغبط الحارك محبوك الكفل *

أما الشطر الذى في التفسير هنا فهو لأبي دؤاد وقد مر في ج ١٧ ص ٣٢ .

(٢) مجتنب . فمتعل من الجنبة وهى الفرس تقاد ولا تركب ، وكانوا يركبون الإبل ويجنبون الخيل فإذا صاروا إلى الحرب ركبوا الخيل . (٣) الجدجد : الأرض الصلبة . ولا تقى : لا تنوق ولا تهيب .

بأسره إذا أرادوا أن يقولوا هو لك كله ؛ كأنهم أرادوا تعكيمة وشده لم يفتح ولم ينقص منه شيء . ومنه الأسير لأنه كان يُكتف بالإسار . والكلام خرج مخرج الامتنان عليهم بالنعم حين قابلوها بالمعصية . أى سَوَّيْتُ خَلْقَكَ وَأَحْكَمْتَهُ بِالْقَوَى ثُمَّ أَنْتَ تَكْفُرْ بِي . (وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا) قال ابن عباس : يقول لو نشاء لأهلكناهم وجئنا بأطوع لله منهم . وعنه أيضا : لغيرنا محاسنهم إلى أسمى الصور وأقبحها . كذلك روى الضحاك عنه . والأقول رواه عنه أبو صالح .

قوله تعالى : **إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا** (٢٩) **وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا** (٣٠) **يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** (٣١)

قوله تعالى : (**إِنَّ هَذِهِ**) أى السورة (**تَذْكِرَةٌ**) أى موعظة (**فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا**) أى طريقا موصلا إلى طاعته وطلب مرضاته . وقيل : « سَبِيلًا » أى وسيلة . وقيل : وجهة وطريقا إلى الجنة . والمعنى واحد . (**وَمَا تَشَاءُونَ**) أى الطاعة والاستقامة واتخاذ السبيل إلى الله (**إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ**) فأخبر أن الأمر إليه سبحانه ليس إليهم ، وأنه لا تنفذ مشيئة أحد ولا تتقدم إلا أن تتقدم مشيئته . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « **وَمَا يَشَاءُونَ** » بالياء على معنى الخبر عنهم . والباقون بالتاء على معنى المخاطبة لله سبحانه . وقيل : إن الآية الأولى منسوخة بالثانية . والأشبه أنه ليس بنسخ بل هو تبين أن ذلك لا يكون إلا بمشيئته . قال الفراء : « **وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ** » جواب لقوله : « **فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا** » ثم أخبرهم أن الأمر ليس إليهم فقال : « **وَمَا تَشَاءُونَ** » ذلك السبيل « **إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ** » لكم . (**إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا**) بأعمالكم (**حَكِيمًا**) فى أمره ونهيه لكم . وقد مضى فى غير موضع .

(١) عكمت المناع شدته ، والمكام الحبط الذى يعك به ، وعكمت البعير شدت عليه العك .

(٢) فى نسخة : إلى الخير .

﴿ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ أى يدخله الجنة راحم له ﴿ وَالظَّالِمِينَ ﴾ أى ويعذب الظالمين فنصبه بإضمار يعذب . قال الزجاج : نصب الظالمين لأن قبله منصوب ؛ أى يدخل من يشاء فى رحمته ويعذب الظالمين أى المشركين ويكون ﴿ أَعَدَّ لَهُمْ ﴾ تفسيراً لهذا المضمرة كما قال الشاعر :

أَصْبَحْتُ لَا أَحْمِلُ السَّلَاحَ وَلَا * أَمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَفَرَا
وَالذَّبَّ أَخْشَاهُ إِنْ مَرَّرْتُ بِهِ • وَحَدَى وَأَخْشَى الرِّيَّاحَ وَالْمَطْرَا

أى أخشى الذب أخشاه . قال الزجاج : والأختيار النصب وإن جاز الرفع ؛ تقول : أعطيت زيدا وعمرا أعددت له بئرا فيختار النصب ؛ أى وبررت عمرا أو أبرت عمرا . وقوله فى « حم عسق » : « يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ » أرتفع لأنه لم يذكر بعده فعل يقع عليه فينصب فى المعنى ؛ فلم يجز العطف على المنصوب قبله فأرتفع بالابتداء . وها هنا قوله : « أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا » يدل على ويعذب بفاز النصب . وقرأ أبان بن عثمان « وَالظَّالِمُونَ » رفعا بالابتداء والخبر ﴿ أَعَدَّ لَهُمْ ﴾ . ﴿ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أى مؤلماً موجعاً . وقد تقدم هذا فى سورة « البقرة »^(١) وغيرها والحمد لله . ختمت السورة .

سورة المرسلات

مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية منها وهى قوله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ » مدينة . وقال ابن مسعود : نزلت « وَالْمُرْسَلَاتِ عُرفًا » على النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ونحن معه نسير حتى أويننا إلى غار بمنى فنزلت ، فبينما نحن نتلقاها منه ، وإن فاه لرطب بها إذ وثبت حية فوثبنا عليها لنقتلها فذهبت ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « وَقِيمَ شَرَّهَا كَمَا وَقِيمَ شَرِّكُمْ » . وعن كريب مولى ابن عباس قال : قرأت سورة « وَالْمُرْسَلَاتِ عُرفًا » فسمعتنى أم الفضل امرأة العباس فبكت وقالت : والله يا بنى لقد أذكرتنى بقراءتك هذه السورة أنها لآخر ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها فى صلاة المغرب . والله أعلم . وهى خمسون آية .

(١) راجع ج ١ ص ١٩٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : **وَأَلْمَسَلْتِ عُرْفًا ۝١** **فَالْعَصْفَتِ عَصْفًا ۝٢**
وَالذَّشِرَاتِ نَشْرًا ۝٣ **فَالْفَرِيقَتِ فَرْقًا ۝٤** **فَالْمُلْقِيَتِ ذِكْرًا ۝٥**
عُدْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ **إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ۝٧** **فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨**
وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ۝٩ **وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِفَتْ ۝١٠** **وَإِذَا الرَّسُلُ**
أُقْتِتَ ۝١١ **لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢** **لِيَوْمِ الْفَضْلِ ۝١٣** **وَمَا أَدْرَاكَ**
مَا يَوْمِ الْفَضْلِ ۝١٤ **وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥**

قوله تعالى : **(وَأَلْمَسَلْتِ عُرْفًا)** جمهور المفسرين على أن المرسلات الرياح . وروى مسروق عن عبد الله قال : هي الملائكة أرسلت بالمعروف من أمر الله تعالى ونهيه والخبر والوحي . وهو قول أبي هريرة ومقاتل وأبي صالح والكلبي . وقيل : هم الأنبياء أرسلوا بلا إله إلا الله ؛ قاله ابن عباس . وقال أبو صالح : إنهم الرسل تُرسل بما يُعرفون به من المعجزات . وعن ابن عباس وابن مسعود : إنها الرياح ؛ كما قال تعالى : **« وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ »** وقال : **« وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ »** . ومعنى **« عُرْفًا »** يتبع بعضها بعضها كعُرف الفرس ؛ تقول العرب : الناس إلى فلان عُرفٌ واحد إذا توجهوا إليه فأكثروا . وهو نصب على الحال من **« والمرسلات »** أي والرياح التي أرسلت متتابعة . ويجوز أن تكون مصدرا أي تباعا . ويجوز أن يكون النصب على تقدير حرف الجر ، كأنه قال : والمرسلات بالعُرف والمراد الملائكة أو الملائكة والرسل . وقيل : يحتمل أن يكون المراد بالمرسلات السحاب لما فيها من نعمة ونقمة عارفة بما أرسلت فيه ومن أرسلت إليه . وقيل : إنها الزواجر والمواعظ . **« وَعُرْفًا »** على هذا التأويل متابعات كعُرف الفرس ؛ قاله ابن مسعود . وقيل : جاريات ؛ قاله الحسن ؛ يعني في القلوب . وقيل : معروفات في العقول .

(فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا) الرياح بغير اختلاف ؛ قاله المهدوي . وعن ابن مسعود : هي الرياح العواصف تأتي بالعصف وهو ورق الزرع وحطامه ؛ كما قال تعالى : « فَيُرْسَلَ عَلَيْكُمْ ^(١) قَاصِفًا » . وقيل : العاصفات الملائكة الموكلون بالرياح يعصفون بها . وقيل : الملائكة تعصف بروح الكافر ؛ يقال : عصف بالشئ أى أباده وأهلكه ، وناقاة عصفوف أى تعصف براكبها فتعضى كأنها ريح في السرعة ، وعصفت الحرب بالقوم أى ذهبت بهم . وقيل : يحتمل أنها الآيات المهلكة كالزلازل والحسوف . (وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا) الملائكة الموكلون بالسحب ينشرونها . وقال ابن مسعود ومجاهد : هي الرياح يرسلها الله تعالى نشرا بين يدي رحمته ؛ أى تنشر السحاب للغيث . وروى ذلك عن أبي صالح . وعنه أيضا : الأمطار ؛ لأنها تنشر النبات فالنشر بمعنى الإحياء ؛ يقال : نشر الله الميت وأنشره أى أحياه . وروى عنه السدي : أنها الملائكة تنشر كتب الله عز وجل . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : يريد ما ينشر من الكتب وأعمال بني آدم . الضحاك : إنها الصحف تنشر على الله بأعمال العباد . وقال الربيع : إنه البعث للقيامة تنشر فيه الأرواح . قال : « وَالنَّاشِرَاتِ » بالواو ؛ لأنه استئناف قسم آخر . (فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا) الملائكة تنزل بالفرق بين الحق والباطل ؛ قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وأبو صالح . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : ما تفرق الملائكة من الأقوات والأرزاق والآجال . وروى ابن أبي نجيع عن مجاهد قال : الفارقات الرياح تفرق بين السحاب وتبدده . وعن سعيد عن قتادة قال : « الفارقات فرقا » الفرقان فرق الله فيه بين الحق والباطل والحرام والحلال . وقاله الحسن وأبن كيسان . وقيل : يعنى الرسل فرقوا بين ما أمر الله به ونهى عنه أى بينوا ذلك . وقيل : السحابات المطيرة تشبها بالناقاة الفارق وهي الحامل التي تخرج وتبثد في الأرض حين تضع ، ونوق

(١) كذا في الأصول ؛ ولعل المناسب الاستشهاد بقوله تعالى : « جاءتها ريح عاصف » كما أشار إليه أبو حيان بقوله : وأن العصف من صفات الريح ... الخ .

فَوَارِقُ وَفُرُقٌ . [وربما ^(١)] شبهوا السحابة التي تنفرد من السحاب بهذه الناقة ؛ قال ذو الرمة :

أَوْ مُزْنَةٌ فَارِقٌ يَجْلُو غَوَارِبَهَا * تَبْجُجُ الْبَرْقِ وَالظُّلْمَاءُ عُلْجُومٌ ^(٢)

(فَالْمَلَقِيَّاتِ ذِكْرًا) الملائكة بإجماع ؛ أى تلقى كتب الله عز وجل إلى الأنبياء عليهم السلام ؛ قاله المهدي . وقيل : هو جبريل وسمى بأسم الجمع ؛ لأنه كان ينزل بها . وقيل : المراد الرسل يلقون إلى أمهم ما أنزل الله عليهم ؛ قاله قطرب . وقرأ ابن عباس « فالملقيات » بالتشديد مع فتح القاف ؛ وهو كقوله تعالى : « وَإِنَّكَ لَتَلَقَّى الْقُرْآنَ » . (عُذْرًا أَوْ نُذْرًا) أى تلقى الوحي إعدارا من الله أو إنذارا إلى خلقه من عذابه ؛ قاله الفراء . وروى عن أبي صالح قال : يعنى الرسل يعذرون وينذرون . وروى سعيد عن قتادة « عُذْرًا » قال : عذرا لله جل ثناؤه إلى خلقه ، ونذرا للمؤمنين ينتفعون به ويأخذون به . وروى الضحاك عن ابن عباس . « عُذْرًا » أى ما يلقى الله جل ثناؤه من معاذير أوليائه وهى التوبة « أَوْ نُذْرًا » ينذر أعداءه . وقرأ أبو عمرو وحمة والكسائى وحفص « أَوْ نُذْرًا » بإسكان الذال وجميع السبعة على إسكان ذال « عُذْرًا » سوى ما رواه الجعفي والأعشى عن أبي بكر عن عاصم أنه ضم الذال . وروى ذلك عن ابن عباس والحسن وغيرهما . وقرأ إبراهيم التيمي وقاتدة « عُذْرًا وَنُذْرًا » بالواو العاطفة ولم يجعل بينهما ألفا . وهما منصوبان على الفاعل له أى للإعذار أو للإنذار . وقيل : على المفعول به . وقيل : على البديل من « ذِكْرًا » أى فالملقيات عذرا أو نذرا . وقال أبو علي : يجوز أن يكون العذر والنذر بالثقل على جمع عاذر وناذر ؛ كقوله تعالى : « هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى » فيكون نصبا على الحال من الإلقاء ؛ أى يلقون الذكر فى حال العذر والإنذار . أو يكون مفعولا لـ « مذكرا » أى « فالملقيات » أى تُذَكِّرُ « عُذْرًا أَوْ نُذْرًا » . وقال المبرد : هما بالثقل جمع والواحد عذير ونذير . (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ) هذا جواب ما تقدم من القسم ؛ أى ما توعدون من أمر القيامة لواقع بكم ونازل عليكم .

(١) الزيادة من اللسان عن الجوهرى مادة « فرق » .

(٢) تبجج البرق : تفنحه وتكشفه . علجوم شديد السواد .

ثم بين وقت وقوعه فقال: ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ أى ذهب ضوءها ومُحِي نُورُهَا كطمس الكتاب؛ يقال: طَمَسَ الشَّيْءُ إِذَا دَرَسَ وَطُمِسَ فَهُوَ مَطْمُوسٌ، والريح تطمس الآتار فتكون الريح طامسة والأثر طامسا بمعنى مطموس. ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴾ أى فُتِحَتْ وَشُقَّتْ؛ ومنه قوله تعالى: « وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا » . وروى الضحاك عن ابن عباس قال: فُرِجَتْ لِلطِّيِّ . ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ أى ذُهِبَ بِهَا كُلُّهَا بِسُرْعَةٍ؛ يقال: نَسَفْتُ الشَّيْءَ وَأَنْسَفْتُهُ إِذَا أَخَذْتَهُ كُلَّهُ بِسُرْعَةٍ . وكان ابن عباس والكاتب يقول: سُوِّيتَ بِالْأَرْضِ، والعرب تقول: فَرَسَ نَسُوفٌ إِذَا كَانَ يُؤَخِّرُ الْحِزَامَ بِمِرْفَقِيهِ؛ قال بشر:

* نَسُوفٌ لِلْحِزَامِ بِمِرْفَقِيهَا *

وَنَسَفَتِ النَّاقَةُ الْكَلَاءَ [إِذَا قَلَعَتْهُ مِنْ أَصْلِهِ] . وقال المبرد: نُسِفَتْ قُلِعَتْ مِنْ مَوْضِعِهَا؛ يقول الرجل للرجل يقتلع رجله من الأرض: أُنْسَفَتْ رِجْلَاهُ . وقيل: الذَّسْفُ تَفْرِيقُ الْأَجْزَاءِ حَتَّى تَذَرُوهَا الرِّيحَ . ومنه نَسَفَ الطَّعَامُ؛ لِأَنَّهُ يُجْرَكُ حَتَّى يَذْهَبَ الرِّيحُ بَعْضُ مَا فِيهِ مِنَ التَّنْبِنِ . ﴿ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِتَتْ ﴾ أى جمعت لوقتها ليوم القيامة، والوقت الأجل الذى يكون عنده الشئ المؤخر إليه؛ فالمعنى: جعل لها وقت وأجل للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم؛ كما قال تعالى: « يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ » . وقيل: هذا فى الدنيا أى جمعت الرسل لميقاتها الذى ضرب لها فى إنزال العذاب بمن كذبهم بأن الكفار مُمَهَّلُونَ . وإنما تزول الشكوك يوم القيامة . والأقول أحسن؛ لأن التوقيت معناه شئ يقع يوم القيامة، كالأطمس ونَسَفَ الْجِبَالَ وَتَشَقَّقَ السَّمَاءَ وَلَا يَلِيْقُ بِهِ التَّأْقِيتُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ . قال أبو علي: أى جعل يوم الدين والفصل لها وقتا . وقيل: أُقِتَتْ وَعِدَتْ وَأُجِّلَتْ . وقيل: « أُقِتَتْ » أى أرسلت لأوقات معلومة على ما علمه الله وأراد . والهمزة فى « أُقِتَتْ » بدل من الواو؛ قاله الفراء والزجاج . قال الفراء: وكل واو ضُمَّتْ وَكَانَتْ ضَمَّتْهَا لِأَزْمَةِ جَازَ أَنْ يَبْدَلَ مِنْهَا هَمْزَةً؛ تقول: صَلَّى الْقَوْمُ إِحْدَانًا تَرِيدُ وَحْدَانًا، ويقولون هذه وَجُوهٌ حَسَانٌ و [أجوه]^(٢) . وهذا

(١) الزيادة من كتب اللغة؛ وفى الأصول: إذا رعت . (٢) زيادة يقتضها المقام .

لأن ضمة الواو ثقيلة . ولم يجوز البديل في قوله : « وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ » لأن الضمة غير لازمة . وقرأ أبو عمرو وحيد والحسن ونصر عن عاصم ومجاهد « وَقَتَّتْ » بالواو وتشديد القاف على الأصل . وقال أبو عمرو : وإنما يقرأ « أُقَتَّتْ » من قال في وُجُوهِ أَجُوهِ . وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج « وَقَتَّتْ » بالواو وتخفيف القاف . وهو فُعِلَتْ من الوقت ومنه « كِتَابًا مَوْقُوتًا » . وعن الحسن أيضا : « وَوَقَتَّتْ » بواو ين وهو فُوعِلَتْ من الوقت أيضا مثل عُوهِدَتْ . ولو قلبت الواو في هاتين القراءتين ألفا لجاز . وقرأ يحيى وأيوب وخالد بن إلياس وسلام « أُقَتَّتْ » بالهمزة والتخفيف ؛ لأنها مكتوبة في المصحف بالألف . (لِأَيِّ يَوْمٍ أَجَلْتُمْ) أى أخرت وهذا تعظيم لذلك اليوم فهو أستفهام على التعظيم . أى (لِيَوْمِ الْفَضْلِ) أجلت . وروى سعيد عن قتادة قال : يفصل فيه بين الناس بأعمالهم إلى الجنة أو إلى النار . وفي الحديث : « إِذَا حُشِرَ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَامُوا أَرْبَعِينَ عَامًا عَلَى رءُوسِهِمُ الشَّمْسُ شَاخِصَةً أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ يَنْتَظِرُونَ الْفَضْلَ » . (وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَضْلِ) أتبع التعظيم تعظيما ؛ أى وما أعلمك ما يوم الفصل . (وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) أى عذاب وخزي لمن كذب بالله وبرسوله وكتبه ويوم الفصل فهو وعيد . وكرره في هذه السورة عند كل آية لمن كذب ؛ لأنه قسمه بينهم على قدر تكذيبهم ، فإن لكل مكذب بشيء عذاب سوى تكذيبه بشيء آخر، ورب شيء كذب به هو أعظم جرما من تكذيبه بغيره ؛ لأنه أقبح في تكذيبه ، وأعظم في الرد على الله ، وإنما يقسم له من الويل على قدر ذلك ، وعلى قدر وفاقه وهو قوله : « جَزَاءً وَفَاقًا » . وروى عن النعمان بن بشير قال : وَيَلُّ وَاِدٍ فِي جَهَنَّمَ فِيهِ أَلْوَانُ الْعَذَابِ . وقاله ابن عباس وغيره . قال ابن عباس : إِذَا خَبَّتْ جَهَنَّمُ أَخَذَ مِنْ جَمْرِهِ فَالَقَى عَلَيْهَا فَيَأْكُلُ بَعْضُهَا بَعْضًا . وروى أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « عُرِضَتْ عَلَى جَهَنَّمَ فَلَمْ أَرْ فِيهَا وَاِدِيًا أَعْظَمَ مِنَ الْوَيْلِ » وروى أنه مجمع ما يسيل من قيح أهل النار وصدیدهم ، وإنما يسيل الشيء فيما سفلى من الأرض وأنفطر ، وقد علم العباد في الدنيا أن شر المواضع في الدنيا ما استنقع فيها مياه الأدناس والأقذار والفسالات من الجيف وماء الحمامات ، فذكر أن ذلك

الوادي مستنقع صديد أهل الكفر والشرك ؛ ليعلم ذوو العقول أنه لا شيء أفذر منه قذارة ، ولا أتن منه نتنا ، ولا أشد منه مرارة ، ولا أشد سوادا منه ؛ ثم وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بما تضمن من العذاب ، وأنه أعظم وادٍ في جهنم ، فذكره الله تعالى في وعيده في هذه السورة .

قوله تعالى : **أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾**

قوله تعالى : **(أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ)** أخبر عن إهلاك الكفار من الأمم الماضية من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم . **(ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ)** أى نلحق الآخرين بالاولين . **(كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ)** أى مثل ما فعلناه بمن تقدم نفعل بمشركي قريش إما بالسيف وإما بالهلاك . وقرأ العامة **« ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ »** بالرفع على الاستئناف وقرأ الأعرج **« نَتَّبِعُهُمُ »** بالجزم عطفا على **« نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ »** كما تقول : ألم تزرني ثم أكرمك . والمراد أنه أهلك قوما بعد قوم على اختلاف أوقات المرسلين . ثم استأنف بقوله : **« كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ »** يريد من يهلك فيما بعد . ويجوز أن يكون الإسكان تخفيفا من **« نَتَّبِعُهُمُ »** لتوالى الحركات . وروى عنه الإسكان للتخفيف . وفي قراءة ابن مسعود **« ثُمَّ سَتَّبِعُهُمُ »** والكاف من **« كَذَلِكَ »** في موضع نصب أى مثل ذلك الهلاك نفعله بكل مشرك . ثم قيل : معناه التحويل لهلاكهم في الدنيا اعتبارا . وقيل : هو إخبار بعذابهم في الآخرة .

قوله تعالى : **أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢١﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢٢﴾ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢٣﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾**

قوله تعالى : **(أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ)** أى ضعيف حقير وهو النطفة وقد تقدم . وهذه الآية أصل لمن قال إن خلق الجنين إنما هو من ماء الرجل وحده . وقد مضى القول فيه .

(١) راجع ج ١٢ ص ٧ فابعدا .

(بَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ) أى فى مكان حريز وهو الرحم . (إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ) قال مجاهد : إلى أن نصوره . وقيل : إلى وقت الولادة . (فَقَدَرْنَا) وقرأ نافع والكسائى « فَعَدَرْنَا » بالتشديد . وخفف الباقون وهما لغتان بمعنى . قاله الكسائى والفراء والقُتبي . قال القُتبي : قَدَرْنَا بمعنى قَدَرْنَا مشددة : كما تقول : قَدَرْتُ كذا وقَدَرْتَهُ ؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم فى الهلال : « إِذَا غَمَّ عَلَيْكُمْ فَأَقْدِرُوا لَهُ » أى قَدَرُوا له المسير والمنازل . وقال محمد بن الجهم عن الفراء : « فَعَدَرْنَا » قال : وذكر تشديدها عن على رضى الله عنه وتخفيفها ؛ قال : ولا يبعد أن يكون المعنى فى التشديد والتخفيف واحداً ؛ لأن العرب تقول : قَدَر عليه الموت وقَدَّر : قال الله تعالى : « نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ » قرئ بالتخفيف والتشديد ، وقَدَر عليه رزقه وقَدَّر قال : واحتج الذين خففوا فقالوا ؛ لو كانت كذلك لكانت فنعمة المقدرين . قال الفراء : وتجمع العرب بين اللغتين ؛ قال الله تعالى : « فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَهْمِلُهُمْ رُؤُودًا » قال الأعشى : وَأُنْكِرْتَنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكَرْتُ * من الحوادثِ إِلَّا الشَّيْبَ وَالصَّلَاةَ

وروى عن عكرمة « فَعَدَرْنَا » مخففة من القدرة وهو اختيار أبى عبيد وأبى حاتم والكسائى لقوله : (فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ) ومن شدد فهو من التقدير أى فقَدَرْنَا الشقى والسعيد فنعمة المقدرين . رواه أبى مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : المعنى قدرنا قصيرا أو طويلا . ونحوه عن أبى عباس : قدرنا ملكا . المهدي : وهذا التفسير أشبه بقراءة التخفيف .

قلت : هو صحيح فإن عكرمة هو الذى قرأ « فَعَدَرْنَا » مخففا قال : معناه فلما فنعمة المالكون ، فأفادت الكلمتان معنيين متغايرين ؛ أى قَدَرْنَا وقت الولادة وأحوال النطفة فى التنقيب من حالة إلى حالة حتى صارت بشرا سويا ، أو الشقى والسعيد ، أو الطويل والقصير ، كله على قراءة التشديد . وقيل : هما بمعنى كما ذكرنا .

قوله تعالى : أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾
وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيَ شِمَخَاتٍ وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيَلُّ
يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾

فيه مستلثان :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴾ أي ضامة تضم الأحياء على ظهورها والأموات في بطنها . وهذا يدل على وجوب مواراة الميت ودفنه ، ودفن شعره وسائر ما يزيه عنه . وهو قوله عليه السلام : « قُصُّوا أَظْفَارَكُمْ وَأَدْفِنُوا قُلَامَاتِكُمْ » وقد مضى في « البقرة »^(١) بيانه . يقال : كَفَّتْ الشَّيْءَ أَكْفَيْتَهُ إِذَا جَمَعْتَهُ وَضَمَمْتَهُ ، وَالكَفَّتِ الضَّمَّ وَالْجَمْعُ ؛ وَأَنْشَدَ سيبويه .

كِرَامٌ حِينَ تَتَكَفَّتُ الْأَفَاعِي * إِلَى أَبْحَارِهِنَّ مِنَ الصَّقِيحِ

وقال أبو عبيد : « كِفَاتًا » أوعية ويقال لِلنَّحْيِ كَفَّتْ وَكَفَيْتَ لِأَنَّهُ يَحْوِي اللَّبْنَ وَيَضُمُّهُ قَالَ :

فَأَنْتَ الْيَوْمَ فَوْقَ الْأَرْضِ حَيًّا * وَأَنْتَ غَدًا تَضُمَّكَ فِي كِفَاتِ

وخرج الشَّعْبِيُّ فِي جَنَازَةِ فَنظَرَ إِلَى الْجَبَّانِ فَقَالَ : هَذِهِ كِفَاتِ الْأَمْوَاتِ ثُمَّ نَظَرَ إِلَى الْبُيُوتِ فَقَالَ : هَذِهِ كِفَاتِ الْأَحْيَاءِ .

و[الثانية] - روى عن ربيعة في النَّبَاشِ قَالَ تُقَطَّعُ يَدُهُ فَقِيلَ لَهُ : لِمَ قُلْتَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : إِنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : « أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا » فَلَا أَرْضَ حَرَزَ . وَقَدْ مَضَى هَذَا فِي سُورَةِ « الْمَائِدَةِ » وَكَانُوا يَسْمُونُ بِقَبْرِ الْغُرَقَدِ كَفْتَةً ، لِأَنَّهُ مَقْبَرَةٌ تَضُمُّ الْمَوْتَى ، فَلَا أَرْضَ تَضُمُّ الْأَحْيَاءَ إِلَى مَنَازِلِهِمْ وَالْأَمْوَاتِ فِي قُبُورِهِمْ . وَأَيْضًا اسْتَقْرَارُ النَّاسِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، ثُمَّ اضْطِجَاعُهُمْ عَلَيْهَا ، أَنْضَامٌ مِنْهُمْ إِلَيْهَا . وَقِيلَ : هِيَ كِفَاتِ الْأَحْيَاءِ يَعْنِي دَفْنَ مَا يُخْرَجُ مِنَ الْإِنْسَانِ مِنَ الْفَضَلَاتِ فِي الْأَرْضِ ؛ إِذَا لَاضَمَّ فِي كَوْنِ النَّاسِ عَلَيْهَا ، وَالضَّمُّ يُشِيرُ إِلَى الْاِحْتِفَافِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ . وَقَالَ الْأَخْفَشُ وَأَبُو عَبِيدَةَ وَمَجَاهِدٌ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ : الْأَحْيَاءُ وَالْأَمْوَاتُ يَرْجِعُ إِلَى الْأَرْضِ أَيْ الْأَرْضُ مَنْقَسِمَةٌ إِلَى حَيٍّ وَهُوَ الَّذِي يَنْبَتُ ، وَإِلَى مَيِّتٍ

(١) راجع ج ٢ ص ١٠٢ فا بعدها . (٢) لم يذكر في الأصول لفظ المسئلة الثانية والمتبادر أن هنا موضعها كما يستفاد من أحكام القرآن لابن العربي . (٣) راجع ج ٦ ص ١٦٨ فا بعد .

وهو الذي لا ينبت . وقال الفراء : أنتصب « أَحْيَاءٌ وَأَمْوَاتًا » بوقوع الكيفات عليه ؛ أى
 ألم نجعل الأرض كيفات أحياء وأموات . فإذا نوتت نصبت ؛ كقوله تعالى : « أَوْ إِطْعَامٌ
 فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ . يَتِيًّا » . وقيل : نصب على الحال من الأرض أى منها كذا ومنها
 كذا . وقال الأخفش : « كِفَاتًا » جمع كافئة والأرض يراد بها الجمع فنعتت بالجمع . وقال
 الخليل : التكفيت قلب الشيء ظهرًا لبطن أو بطنًا لظهر . ويقال : أنكفت القوم إلى
 منازلهم أى أنقلبوا . فمعنى الكيفات أنهم يتصرفون على ظهرها وينقلبون إليها ويدفنون
 فيها . (وَجَعَلْنَا فِيهَا) أى فى الأرض (رَوَاسِي شَاخِحَاتٍ) يعنى الجبال ، والرواسي
 الثوابت ، والشاخحات الطوال ؛ ومنه يقال : شمخ بأنفه إذا رفعه كبرا . قال : (وَأَسْقِينَاكُمْ
 مَاءً فُرَاتًا) أى وجعلنا لكم سقيا والفرات الماء العذب يشرب ويسقى منه الزرع . أى خلقنا
 الجبال وأنزلنا الماء الفرات . وهذه الأمور أعجب من البعث . وفى بعض الحديث قال
 أبو هريرة : فى الأرض من الجنة الفرات والدجلة ونهر الأردن . وفى صحيح مسلم : سيجان
 وجيحان والنيل والفرات كل من أنهار الجنة .

قوله تعالى : أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى
 ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهِبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا
 تَرْمِي بِشَرِّرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ
 لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : (أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) أى يقال للكفار سيروا « إلى ما كنتم به
 تكذبون » من العذاب يعنى النار فقد شاهدتموها عيانا . (أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ) أى دخان
 (ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ) يعنى الدخان الذى يرتفع ثم يتشعب إلى ثلاث شعب . وكذلك شأن
 الدخان العظيم إذا ارتفع تشعب . ثم وصف الظل فقال : (لَا ظَلِيلٍ) أى ليس كالظل
 الذى يبق حر الشمس (وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهِبِ) أى لا يدفع من لهب جهنم شيئا . واللهب

ما يعلو على النار إذا اضطربت من أحمر وأصفر وأخضر . وقيل : إن الشعب الثلاثة هي الضريع والزقوم والغسلين ؛ قاله الضحاك . وقيل : اللهب ثم الشرر ثم الدخان ؛ لأنها ثلاثة أحوال هي غاية أوصاف النار إذا اضطربت وأشتدت . وقيل : عنق يخرج من النار فيتشعب ثلاث شعب . فاما النور فيقف على رؤوس المؤمنين ، وأما الدخان فيقف على رؤوس المنافقين ، وأما اللهب الصافي فيقف على رؤوس الكافرين . وقيل : هو السرادق وهو لسان من نار يحيط بهم ثم يتشعب منه ثلاث شعب فتظلمهم حتى يفرغ من حسابهم إلى النار . وقيل : هو الظل من يحموم ؛ كما قال تعالى : « فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ . لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ » على ما تقدم^(١) . وفي الحديث : « إن الشمس تدنو من رؤوس الخلائق وليس عليهم يومئذ لباس ولا لهم أكفان فتلحقهم الشمس وتأخذ بأنفاسهم ومد ذلك اليوم ثم ينجي الله برحمته من يشاء إلى ظل من ظله فهناك يقولون « فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ » » ويقال للمكذبين « أَنْظِلُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكذِّبُونَ » من عذاب الله وعقابه « أَنْظِلُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ » فيكون أولياء الله جل ثناؤه في ظل عرشه أو حيث شاء من الظل إلى أن يفرغ من الحساب ثم يؤمر بكل فريق إلى مستقره من الجنة والنار . ثم وصف النار فقال : « إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّرٍ كَالْقَصْرِ » الشرر واحدة شررة . والشَّرَارُ واحدة شرارة وهو ما تطير من النار في كل جهة ، وأصله من شَرَرْتُ الثوب إذا بسطته للشمس ليجف . والقصر البناء العالى . وقراءة العامة « كَالْقَصْرِ » بإسكان الصاد أى الحصون والمدائن فى العظم وهو واحد القصور . قاله ابن عباس وابن مسعود . وهو فى معنى الجمع على طريق الجنس . وقيل : القصر جمع قصرية ساكنة الصاد مثل جمره وجمرة وتمرة وتمرة . والقصره الواحدة من جزل الحطب الغليظ . وفى البخارى عن ابن عباس أيضا : « تَرْمِي بِشَرِّرٍ كَالْقَصْرِ » قال كما نرفع الحشب بقصر^(٢) ثلاثة أذرع أو أقل فنرفعه للشئاء فنسميه القصر . وقال سعيد بن جبير والضحاك : هي

(١) راجع ج ١٧ ص ٢١٣ (٢) كذا فى الأصول ولعل اللفظ تلفحهم .

(٣) نصب ثلاثة ويجوز إضافة قصر إليها أى بقدر ثلاثة أذرع .

أصول الشجر والنخل العظام إذا وقع وقُطِع . وقيل : أعناقه . وقرأ ابن عباس ومجاهد
وحميد والسلمي « كَالْقَصْرِ » بفتح الصاد أراد أعناق النخل . والقَصْرَة العنق جمعها قَصْر
وقصرات . وقال قتادة : أعناق الإبل . وقرأ سعيد بن جبير بكسر القاف وفتح الصاد ،
وهي أيضا جمع قَصْرَة مثل بَدْرَة وِبَدْر وقَصْعَة وقِصْع وحَلْقَة وحِلْق لحلق الحديد . وقال
أبو حاتم : ولعله لغة كما قالوا حاجة وحِوَج . وقيل : القَصْر الجبل فشبّه الشرر بالقصر
في مقاديره ، ثم شبهه في لونه بالجمالات الصُّفْر وهي الإبل السود ، والعرب تسمى السود من الإبل
صُفْرًا ، قال الشاعر :
(١)

تِلْكَ خَيْلِي مِنْهُ وَتِلْكَ رِكَابِي * هُنَّ صُفْرٌ أَوْلَادُهَا كَالزَّبِيبِ

أى هن سود . وإنما سميت السود من الإبل صُفْرًا لأنه يشوب سوادها شيء من
صُفْرَة ، كما قيل لبيض الظباء : الأدم ، لأن بياضها تعلوه كُدْرَة : والشرر إذا تطاير وسقط
وفيه بقية من لون النار أشبه الإبل السود لما يشوبها من صُفْرَة . وفي شعرِ عُمَرَان بن حَطَّان
الخارجي :

دَعْتَهُمْ بِأَعْلَى صَوْتِهَا وَرَمْتَهُمْ * بِمِثْلِ الْجَمَالِ الصُّفْرِ نَزَاعَةُ الشَّوَى

وضعف الترمذي هذا القول فقال : وهذا القول محال في اللغة أن يكون شيء يشوبه
شيء قليل فنسب كله إلى ذلك الشائب ، فالعجب لمن قد قال هذا ، وقد قال الله تعالى :
« جَمَالَاتٌ صُفْرٌ » فلا نعلم شيئًا من هذا في اللغة ، ووجهه عندنا أن النار خلقت من النور
فهى نار مضيئة ، فلما خلق الله جهنم وهي موضع النار حشا ذلك الموضع بتلك النار وبعث
إليها سلطانها وغضبه ، فأسودت من سلطانه وازدادت حدة ، وصارت أشد سوادا من
النار ومن كل شيء سوادا ، فإذا كان يوم القيامة وجيء بجهنم في الموقف رمت بشررها على
أهل الموقف غضبا لغضب الله ، والشرر هو أسود لأنه من نار سوداء ، فإذا رمت النار
بشررها فإنها ترمى الأعداء به فهن سود من سواد النار ، لا يصل ذلك إلى الموحدين ؛ لأنهم

(٢) في نسخة : اليزيدي .

(١) هو الأعشى .

في سرادق الرحمة قد أحاط بهم في الموقف، وهو الغمام الذي يأتي فيه الرب تبارك وتعالى ولكن يعاينون ذلك الرمي، فإذا عاينوه نزع الله ذلك السلطان والغضب عنه في رأى العين منهم حتى يروها صفراء؛ ليعلم الموحدون أنهم في رحمة الله لا في سلطانه وغضبه. وكان ابن عباس يقول: الجمالات الصُّفْرُ حبال السفن يجمع بعضها إلى بعض حتى تكون كأوساط الرجال. ذكره البخارى. وكان يقرؤها «جَمَالَاتٌ» بضم الجيم، وكذلك قرأ مجاهد وحמיד «جَمَالَات» بضم الجيم وهي الحبال الغلاظ وهي قُلُوس السفينة أى حبالها. وواحد القُلُوس قلس. وعن ابن عباس أيضا على أنها قطع النحاس. والمعروف في الحبل الغليظ جَمَلٌ بتشديد الميم كما تقدم في «الأعراف»^(١). «وجَمَالَات» بضم الجيم جمع جَمَالَةٍ بكسر الجيم موحدًا كأنه جمع جَمَلٍ نحو حَجَرٍ وحجارة وذَكَرٍ وذِكَاة. وقرأ يعقوب وابن أبي إسحق وعيسى والمجدرى «جَمَالَةٌ» بضم الجيم موحدًا وهي الشيء العظيم المجموع بعضه إلى بعض. وقرأ حفص وحمزة والكسائى «جَمَالَةٌ» وبقية السبعة «جَمَالَات» قال الفراء: يجوز أن تكون الجمالات جمع جَمَالٍ كما يقال رجل ورجال ورجالات. وقيل: شبهها بالجمالات لسرعة سيرها. وقيل: لمتابعة بعضها بعضها. والقَصْرُ واحد القصور. وقصر الظلام اختلاطه. ويقال: أتيتَه قَصْرًا أى عَشِيًّا فهو مشترك؛ قال:^(٢)

كَأَنَّهُمْ قَصْرًا مَصَابِيحُ رَاهِبٍ * بِمَوْزَنٍ رَوَى بِالسَّلِيْطِ ذُبَالَهَا

مسئلة - في هذه الآية دليل على جواز آذخار الحطب والفحم وإن لم يكن من القوت، فإنه من مصالح المرء ومغائى مفاقره. وذلك مما يقتضى النظر أن يكتسبه في غير وقت حاجته؛ ليكون أرخص وحالة وجوده أمكن، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتدخر القوت في وقت عموم وجوده من كسبه وماله، وكل شيء محمول عليه. وقد بين ابن عباس هذا بقوله: كما نعمد إلى الخشبة فنقطعها ثلاثة أذرع وفوق ذلك ودونه وتدخره للشقاء وكما نسميه القصر. وهذا أصح ما قيل في ذلك والله أعلم.

(١) راجع ج ٧ ص ٢٠٧

(٢) قائله كثير عزة. وموزن كقعد بلد بالجزيرة.

قوله تعالى : هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾

وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : (هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ) أى لا يتكلمون (وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) أى

إن يوم القيامة له مواطن ومواقيت ، فهذا من المواقيت التى لا يتكلمون فيها ولا يؤذن لهم فى الاعتذار والتنصل . وعن عكرمة عن ابن عباس قال : سأل ابن الأزرق عن قوله تعالى : « هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ » و « لَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا » وقد قال تعالى : « وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ » فقال له : إن الله عز وجل يقول : « وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَنَّ سَنَةً مِمَّا تَعُدُّونَ » فإن لكل مقدار من هذه الأيام لونا من هذه الألوان . وقيل : لا ينطقون بحجة نافعة ومن نطق بما لا ينفع ولا يفيد فكأنه ما نطق . قال الحسن : لا ينطقون بحجة وإن كانوا ينطقون . وقيل : إن هذا وقت جوابهم « أَخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ » وقد تقدم . وقال أبو عثمان : أسكتهم رؤية الهيبة وحياء الذنوب . وقال الجنيد : أى عذر لمن أعرض عن منعمه ومحمده وكفر أياديه ونعمه . و « يوم » بالرفع قراءة العامة على الابتداء والخبر ؛ أى تقول الملائكة « هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ » . ويجوز أن يكون قوله « أَنْطَلِقُوا » من قول الملائكة ، ثم يقول الله لأوليائه : هذا يوم لا ينطق الكفار . ومعنى اليوم الساعة والوقت . وروى يحيى بن سليمان عن أبي بكر عن عاصم « هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ » بالنصب ورويت عن ابن هرمز وغيره ، بخاز أن يكون مبنيًا لإضافته إلى الفعل وموضعه رفع . وهذا مذهب الكوفيين . وجاز أن يكون فى موضع نصب على أن تكون الإشارة إلى غير اليوم . وهذا مذهب البصريين ؛ لأنه إنما بنى عندهم إذا أضيف إلى مبنى والفعل هاهنا معرب . وقال الفراء فى قوله تعالى « وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » الفاء نسق أى عطف على « يُؤْذَنُ » وأجيز ذلك ؛ لأن أواخر الكلام بالنون . ولو قال : فاعتذروا لم يوافق الآيات . وقد قال :

(١) راجع ج ١٢ ص ١٥٣

« لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا » بالنصب وكله صواب ؛ ومثله : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ » بالنصب والرفع .

قوله تعالى : هَذَا يَوْمُ الْفَضْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونَ ﴿٣٩﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : (هَذَا يَوْمُ الْفَضْلِ) أى يقال لهم هذا اليوم الذى يفصل فيه بين الخلائق ، فيتبين المحق من المبطل . (جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ) قال ابن عباس جمع الذين كذبوا محمدا والذين كذبوا النبيين من قبله . رواه عنه الضحاك . (فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ) أى حيلة فى الخلاص من الهلاك (فَكِيدُونِي) أى فاحتالوا لأنفسكم وقاؤونى ولن تجدوا ذلك . وقيل : أى « فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ » أى قدرتم على حرب « فَكِيدُونِي » أى حاربونى . كذا روى الضحاك عن ابن عباس . قال : يريد كنتم فى الدنيا تحاربون محمدا صلى الله عليه وسلم وتحاربونى فاليوم حاربونى . وقيل : أى إنكم كنتم فى الدنيا تعملون بالمعاصى وقد عجزتم الآن عنها وعن الدفع عن أنفسكم . وقيل : إنه من قول النبي صلى الله عليه وسلم فىكون كقول هود « فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ » .

قوله تعالى : إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوْكَهٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُّوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ) أخبر بما يصير إليه المتقون غدا ، والمراد بالظلال ظلال الأشجار وظلال القصور مكان الظل فى الشعب الثلاث . وفى سورة يس « هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِنُونَ » . (وَفَوْكَهٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ) أى يتمنون . وقراءة العامة « ظلال » . وقرأ الأعرج والزهرى وطلحة « ظليل » جمع ظلة يعنى

في الجنة . ﴿ كَلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ أى يقال لهم غدا هذا بدل ما يقال للمشركين « فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا » . و«كُلُوا وَاشْرَبُوا» في موضع الحال من ضمير «المتقين» في الظرف الذى هو « فِي ظِلَالٍ » أى هم مستقرون « فِي ظِلَالٍ » مقولا لهم ذلك . ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى نثيب الذين أحسنوا في تصديقهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وأعمالهم في الدنيا .

قوله تعالى : كَلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ

لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ كَلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا ﴾ هذا مردود إلى ما تقدم قبل المتقين ، وهو وعيد وتهديد وهو حال من « المكذبين » أى الويل ثابت لهم في حال ما يقال لهم : « كَلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا » . ﴿ إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ﴾ أى كافرون . وقيل : مكتسبون فعلا يضركم في الآخرة من الشرك والمعاصي .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آرْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ

لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آرْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴾ أى إذا قيل لهؤلاء المشركين « آركعوا » أى صلوا « لا يركعون » أى لا يصلون ، قاله مجاهد . وقال مقاتل : نزلت في ثقيف آمنوا من الصلاة فنزل ذلك فيهم . قال مقاتل : قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم « أسلموا » وأمرهم بالصلاة فقالوا : لا ننحنى فإنها مسبة علينا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود » . يذكر أن مالكا رحمه الله دخل المسجد بعد صلاة العصر وهو ممن لا يرى الركوع بعد العصر فجلس ولم يركع ، فقال له صبي : يا شيخ قم فاركع . فقام فركع ولم يحاجه بما يراه مذهبا ، فقيل له في ذلك فقال : خشيت أن أكون من الذين « إِذَا قِيلَ لَهُمْ آرْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ » . وقال ابن عباس : إنما يقال لهم هذا في الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون . فتادة : هذا في الدنيا . ابن العربي : هذه الآية

حجة على وجوب الركوع وإنزاله ركناً في الصلاة وقد انعقد الإجماع عليه ، وظن قوم أن هذا إنما يكون في القيامة وليست بدار تكليف فيتوجه فيها أمر يكون عليه ويل وعقاب ، وإنما يدعون إلى السجود كشفاً لحال الناس في الدنيا ، فمن كان يسجد له ^(١) يمكن من السجود ، ومن كان يسجد رياء لغيره صار ظهره طبقاً واحداً . وقيل : أى إذا قيل لهم أخضعوا للحق لا يخضعون ، فهو عام في الصلاة وغيرها وإنما ذكر الصلاة ، لأنها أصل الشرائع بعد التوحيد . وقيل : الأمر بالصلاة أمر بالإيمان ؛ لأنها لا تصح من غير إيمان .

قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى إن لم يصدقوا بالقرآن الذى هو المعجز والدلالة على صدق الرسول عليه السلام فبأى شىء يصدقون . وكرر « وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْكَذِبِينَ » لمعنى تكرير التخويف والوعيد . وقيل : ليس بتكرار ، لأنه أراد بكل قول منه غير الذى أراد بالآخر ، كأنه ذكر شيئاً فقال : ويل لمن يكذب بهذا ، ثم ذكر شيئاً آخر فقال : ويل لمن يكذب بهذا ، ثم ذكر شيئاً آخر فقال : ويل لمن يكذب بهذا . ثم كذلك إلى آخرها . ختمت السورة والله الحمد .

سورة « عم » مكية وتسمى سورة « النبأ » وهى
أربعون أو إحدى وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ « عم » لفظ استفهام ، ولذلك سقطت منها ألف « ما » ، لتمييز الخبر عن الاستفهام . وكذلك فيم ومم إذا استفهمت . والمعنى عن أى شىء
(١) فى نسخة : تمكن من السجود .

يسأل بعضهم بعضاً . وقال الزجاج : أصل « عم » عن ما فادغمت النون في الميم ؛ لأنها تشاركها في الغنة . والضمير في « يَتَسَاءَلُونَ » لقريش . وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : كانت قريش تجلس لما نزل القرآن فتتحدث فيما بينها فمنهم المصدق ومنهم المكذب به فنزلت « عمٌ يَتَسَاءَلُونَ » . وقيل : « عم » بمعنى فيم يتشدد المشركون ويختصمون .

قوله تعالى : ﴿ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴾ أى يتساءلون « عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ » فمن ليس تتعلق بـ « يتساءلون » الذى فى التلاوة ؛ لأنه كان يلزم دخول حرف الاستفهام فيكون « عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ » كقولك : كم مالك أثلاثون أم أربعون ؟ فوجب لما ذكرناه من امتناع تعلقه بـ « يتساءلون » الذى فى التلاوة ، وإنما يتعلق يتساءلون آخر مضمرة . وحسن ذلك لتقدم يتساءلون ؛ قاله المهدوى . وذكر بعض أهل العلم أن الاستفهام فى قوله : « عن » مكرر إلا أنه مضمرة كأنه قال عم يتساءلون عن النبى العظيم . فعلى هذا يكون متصلاً بالآية الأولى . والنبأ العظيم أى الخبر الكبير . ﴿ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ أى يخالف فيه بعضهم بعضاً فيصدق واحد ويكذب آخر ؛ فروى أبو صالح عن ابن عباس قال : هو القرآن ؛ دليله قوله : « قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ . أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ » فالقرآن نبأ وخبر وقصص وهو نبأ عظيم الشأن . وروى سعيد عن قتادة قال : هو البعث بعد الموت صار الناس فيه رجلين مصدق ومكذب . وقيل : أمر النبى صلى الله عليه وسلم . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : وذلك أن اليهود سألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن أشياء كثيرة ، فأخبره الله جل ثناؤه باختلافهم ثم هددهم فقال : ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ أى سيعلمون عاقبة القرآن ، أو سيعلمون البعث أحق هو أم باطل . و « كَلَّا » رد عليهم فى إنكارهم البعث أو تكذيبهم القرآن فيوقف عليها . ويجوز أن يكون بمعنى حقاً أو « أَلَّا » فيبدأ بها . والأظهر أن سؤالهم إنما كان عن البعث ؛ قال بعض علمائنا : والذى يدل عليه قوله عز وجل « إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا » يدل على أنهم كانوا يتساءلون عن البعث . ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ أى حقاً ليعلمون صدق ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن وما ذكره لهم من البعث بعد الموت . وقال الضحاك : « كَلَّا

سَيَعْلَمُونَ» يعنى الكافرين عاقبة تكذيبهم «ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ» يعنى المؤمنين عاقبة تصديقهم .
وقيل : بالعكس أيضا . وقال الحسن : هو وعيد بعد وعيد . وقراءة العامة فيهما بالياء
على الخبر ؛ لقوله تعالى : « يَتَسَاءَلُونَ » وقوله : « هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ » . وقرأ الحسن
وأبو العالية ومالك بن دينار بالتاء فيهما .

قوله تعالى : أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٧﴾ وَأَلْبَحَالَ أَوْتَادًا ﴿٨﴾
وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ
لِبَاسًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١٢﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٣﴾
وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ﴿١٤﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَمَجًا ﴿١٥﴾
لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٦﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا) دلم على قدرته على البعث ؛ أى قدرتنا
على إيجاد هذه الأمور أعظم من قدرتنا على الإعادة . والمهاد الوطاء والفراش . وقد قال
تعالى : « الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا » وقرئ « مَهْدًا » ومعناه أنها لهم كالمهد للصبي وهو
ما يمهده له فينوم عليه . (وَأَلْبَحَالَ أَوْتَادًا) أى لتسكن ولا تتكفأ ولا تميل بأهلها . (وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا)
أى أصنافا ذكرا وأنثى . وقيل : ألوانا . وقيل : يدخل فى هذا كل زوج من قبيح وحسن
وطويل وقصير ؛ لتختلف الأحوال فيقع الاعتبار فيشكر الفاضل ويصبر المفضول . (وَجَعَلْنَا
نَوْمَكُمْ) « جعلنا » معناه صيرنا ؛ ولذلك تعدت إلى مفعولين . (سُبَاتًا) المفعول الثانى أى
راحة لأبدانكم ، ومنه يوم السبت أى يوم الراحة ؛ أى قيل لبنى إسرائيل : أستريحوا فى هذا
اليوم فلا تعملوا فيه شيئا . وأنكر ابن الأنبارى هذا وقال : لا يقال للراحة سبات . وقيل :
أصله التمدد ؛ يقال : سبت المرأة شعرها إذا حلتها وأرسلته ، فالسبات كالممدود ورجل
مسبوت الخلق أى ممدود . وإذا أراد الرجل أن يستريح تمدد فسميت الراحة سبتا .

ونيل : أصله القطع ؛ يقال : سبت شعره سبتا حلقه ؛ وكأنه إذا نام أنقطع عن الناس وعن الأثقال فالسبات يشبه الموت إلا أنه لم تفارقه الروح . ويقال : سير سبت أى سهل لين ؛ قال اعر^(١) :

وَمَطْوِيَّةُ الْأَقْرَابِ أَقْمَانُهَا * فَسَبْتُ وَأَقْمَانُهَا فَذَمِيلُ

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ إِبَاسًا) أى تلبسكم ظلمته وتغشاكم ؛ قاله الطبرى . وقال ابن جبير والسدى : أى سكننا لكم . (وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا) فيه إضمار أى وقت معاش أى متصرفا لطلب المعاش وهو كل ما يعاش به من المطعم والمشرب وغير ذلك فـ « مَعَاشًا » على هذا أسم زمان ليكون الثانى هو الأزل . ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى العيش على تقدير حذف المضاف . (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا) أى سبع سموات محكمات ؛ أى محكمة الخلق وثيقة البنيان . (وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا) أى وقادا وهى الشمس . وجعل هنا بمعنى خلق ؛ لأنها تعدت لمفعول واحد والوهاج الذى له وهج ؛ يقال : وهج يهيج وهجا وهجًا ووهجانا . ويقال للجوهر إذا تلا لأ توهج . وقال ابن عباس : وهاجا منيرا متلا لئا . (وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَمَّاجًا) قال مجاهد وقتادة : المعصرات الرياح . وقاله ابن عباس . كأنها تعصر السحاب . وعن ابن عباس أيضا أنها السحاب . وقال سفيان والربيع وأبو العالية والضحاك : أى السحاب التى تنعصر بالماء ولما تمطر بعد ؛ كالمراة المعصر التى قد دنا حيضها ولم تحض ؛ قال أبو النجم :

[تَمَشَّى الْهُوَيْنَا مَاءً لَّا نَحَارُهَا * قَدْ أَعْصَرَتْ أَوْقَدْنَا إِعْصَارُهَا]^(٢)

[وقال آخر] :

فَكَانَ مَجْنِي دُونَ مَنْ كُنْتُ أَتَقِي * ثَلَاثُ شُخُوصٍ كَأَعْبَانٍ وَمُعْصَرُ

(١) هو حميد بن نور . والسبت السير السريع والذميل السير اللين .

(٢) هذه الزيادة من أبي حيان دل عليها إجماع نسخ الأصل على ذكر أبي النجم وأما البيت الذى بعده فلمعرب بن

أبي ربيعة .

وقال آخر: ^(١)

وَذِي أُشِيرٍ كَالْأَخْشَوَانِ يَزِينُهُ * ذِهَابُ الصَّبَا وَالْمُعْصِرَاتُ الرِّوَائِحُ

فالرياح تسمى معصرات؛ يقال: أعصرت الريح تعصر إعصارا إذا أثارت العجاج وهي الأعصار، والسحب أيضا تسمى المعصرات لأنها تمطر. وقال قتادة أيضا: المعصرات السماء. النحاس: هذه الأقوال صحاح؛ يقال للرياح التي تأتي بالمطر معصرات والرياح تلتفح السحاب فيكون المطر والمطر ينزل من الريح على هذا. ويجوز أن تكون الأقوال واحدة ويكون المعنى وأنزلنا من ذوات الرياح المعصرات «ماءً مُجَاجًا» وأصح الأقوال أن المعصرات السحاب كذا المعروف أن الغيث منها، ولو كان بالمعصرات لكان الريح أولى. وفي الصحاح: والمعصرات السحاب تعصر بالمطر وأعصر القوم أي أمطروا؛ ومنه قرأ بعضهم «وَفِيهِ يُعْصِرُونَ» والمعصر الجارية أول ما أدركت وحاضت؛ يقال: قد أعصرت كأنها دخلت عصر شبابها أو بلغته؛ قال الراجز: ^(٢)

جَارِيَةٌ بِسَفَّوَانٍ دَارُهَا * تَمْشِي الْمُهَوِّنَا سَاقِطًا نَحَارُهَا

* قَدْ أَعْصَرَتْ أَوْ قَدَّدْنَا إِعْصَارُهَا *

والجمع معاصر، ويقال: هي التي قاربت الحيض؛ لأن الإعصار في الجارية كالمراهقة في الغلام. سمعته من أبي الغوث الأعرابي. قال غيره: والمعصر السحابة التي حان لها أن تمطر؛ يقال أجنّ الزرع فهو مجنّ أي صار إلى أن يجنّ وكذلك السحاب إذا صار إلى أن يمطر فقد أعصر. وقال المبرد: يقال سحاب معصر أي ممسك للواء ويعتصر منه شيء بعد شيء، ومنه العَصْر بالتحريك للملجأ الذي يلجأ إليه، والعَصْرَة بالضم أيضا الملجأ. وقد مضى هذا المعنى في سورة «يوسف» ^(٣) والحمد لله. وقال أبو زيد: ^(٤)

(١) هو البعث كما في اللسان وروايته للبيت:

وَذِي أُشِيرٍ كَالْأَخْشَوَانِ تَشُوفُهُ * ذِهَابُ الصَّبَا وَالْمُعْصِرَاتُ الدَّوَالِحُ

والدوالح السحاب التي أنقلها الماء. الذهاب بكسر الهمزة: الأمطار الضعيفة. (٢) هو منصور بن مرثد الأمدى.

(٣) راجع ج ٩ ص ٢٠٥ (٤) قاله في رثاء ابن أخته وكان مات عطشا في طريق مكة.

صَادِيًا يَسْتَنِيتُ غَيْرَ مُغَاثٍ * وَلَقَدْ كَانَ عُصْرَةَ الْمَنْجُودِ
 ومنه الْمُعْصِرُ لِلْحَارِيَةِ الَّتِي قَدِ قَرَبَتْ مِنَ الْبُلُوغِ يُقَالُ لَهَا مُعْصِرٌ لِأَنَّهَا تَحْبَسُ فِي الْبَيْتِ فَيَكُونُ
 الْبَيْتُ لَهَا عَصْرًا . وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعِكرَمَةَ « وَأَنْزَلْنَا بِالْمُعْصِرَاتِ » وَالَّذِي فِي الْمَصَاحِفِ
 « مِنْ الْمُعْصِرَاتِ » قَالَ أَبِي بِنِ كَعْبٍ وَالْحَسَنُ وَأَبْنُ جَبْرِ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمٍ وَمِقَاتِلُ بْنُ حِيَانَ
 « مِنْ الْمُعْصِرَاتِ » أَي مِنَ السَّمَوَاتِ . « مَاءٌ تُجَاجَا » صَبَابًا مُتَابِعًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ
 وَغَيْرِهِمَا . يُقَالُ : تَجَجَّتْ دَمُهُ فَإِنَّا أَنْجَهُ تَجًّا وَقَدْ تَجَّ الدَّمُ يَتَجُّ تَجُّجًا وَكَذَلِكَ الْمَاءُ فَهُوَ لِأَزْمٍ
 وَمَتَعَدٍّ . وَالتَّجَّاجُ فِي الْآيَةِ الْمُنْصَبُ . وَقَالَ الزَّجَّاجُ : أَي الصَّبَابُ وَهُوَ مُتَعَدٌّ كَأَنَّهُ يَتَجُّ نَفْسَهُ
 أَي يَصُبُّ . وَقَالَ عَيْدُ بْنُ الْأَبْرَصِ :^(١)

فَتَجَّ أَعْلَاهُ ثُمَّ أَرْتَجَّ أَسْفَلَهُ * وَضَاقَ ذَرْعًا بِحَمْلِ الْمَاءِ مُنْصَاحٍ

وَفِي حَدِيثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ سَأَلَ عَنِ الْجِجِ الْمَبْرُورِ فَقَالَ : « الْعَجُّ وَالتَّجُّ » فَالْعَجُّ رَفْعُ
 الصَّوْتِ بِالتَّلْبِيَةِ وَالتَّجُّ إِرَاقَةُ الدَّمَاءِ وَذَبْحُ الْهَدَايَا ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : تَجَّجًا كَثِيرًا . وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ .
 قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِنُخْرِجَ بِهِ ﴾ أَي بِذَلِكَ الْمَاءِ (حَبًّا) كَالْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ (وَنَبَاتًا)
 مِنَ الْأَبِّ وَهُوَ مَا تَأْكُلُهُ الدَّوَابُّ مِنَ الْحَشِيشِ . (وَجَنَاتٍ) أَي بَسَاتِينَ (أَلْفَافًا) أَي مُلْتَفَةً
 بَعْضُهَا بِبَعْضٍ لِتَشَعْبِ أَغْصَانِهَا وَلَا وَاحِدَ لَهُ كَالْأَوْزَاعِ وَالْأَخْيَافِ . وَقِيلَ : وَاحِدُ الْأَلْفَافِ لِفِ
 بِالْكَسْرِ وَلِفٌّ بِالضَّمِّ . ذَكَرَهُ الْكَسَائِيُّ ؛ قَالَ :

جَنَّةٌ لِفٌّ وَعَيْشٌ مُفْدِقٌ * وَنَدَامَى كُكُلُهُمْ بِيضٌ زُهُرٌ

وَعَنهُ أَيْضًا وَأَبِي عُبَيْدَةَ : لَفِيفٌ كَشْرِيفٌ وَأَشْرَافٌ . وَقِيلَ : هُوَ جَمْعُ الْجَمْعِ حَكَاهُ الْكَسَائِيُّ .
 يُقَالُ : جَنَّةٌ لَفَاءٌ وَتَبَتْ لِفٌّ وَالْجَمْعُ لِفٌّ بِضَمِّ اللَّامِ مِثْلُ حُمْرٍ يَجْمَعُ اللَّفُّ أَلْفَافًا . الزَّمْخَشَرِيُّ :
 وَلَوْ قِيلَ جَمْعُ مُلْتَفَةٍ بِتَقْدِيرِ حَذْفِ الزَّوَائِدِ لَكَانَ وَجِيبًا . وَيُقَالُ : شَجَرَةٌ لَفَاءٌ وَشَجَرٌ لِفٌّ وَأَمْرَأَةٌ

(١) الْبَيْتُ فِي وَصْفِ الْمَطَرِ وَمُنْصَاحٌ : مُنْشَقٌّ بِالْمَاءِ .

(٢) قَوْلُهُ : وَالْجَمْعُ لِفٌّ بِضَمِّ اللَّامِ رَاجِعٌ إِلَى جَنَّةٍ لَفَاءً بِدَلِيلِ قَوْلِهِ : مِثْلُ حُمْرٍ لِأَنَّهُ جَمْعُ لِفٍّ وَأَمَّا لِفٌّ بِالْكَسْرِ

وَالْفَتْحُ بِجَمْعِهِ أَلْفَافٌ .

لفاء أى غليظة الساق مجتمعة اللحم . وقيل : التقدير ونخرج به جنات ألفافا فحذف لدلالة الكلام عليه . ثم هذا الألفاف والآضام معناه أن الأشجار فى البساتين تكون متقاربة^(١) ، فالأغصان من كل شجرة متقاربة لقوتها .

قوله تعالى : **إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا** ﴿١٧﴾ **يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا** ﴿١٨﴾ **وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا** ﴿١٩﴾ **وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا** ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : **(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا)** أى وقتا ومجما وميعادا للأولين والآخرين ؛ لما وعد الله من الجزاء والثواب . وسمى يوم الفصل لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه . قوله تعالى : **(يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ)** أى للبعث **(فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا)** أى إلى موضع العرض **(أَفْوَاجًا)** أى أمما كل أمة مع إمامهم . وقيل : زمرا وجماعات الواحد فوج . ونصب يوما بدلا من اليوم الأول . وروى من حديث معاذ بن جبل قلت : يا رسول الله ! رأيت قول الله تعالى « **يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا** » فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « **يامعاذ لقد سألت عن أمر عظيم** » ثم أرسل عينيه با كما ثم قال : « **يحشر عشرة أصناف من أمتى** أشتانا قد ميزهم الله تعالى من جماعات المسلمين وبذل صورهم فمنهم على صورة القردة وبعضهم على صورة الخنازير وبعضهم منكسون أرجلهم أعلامهم ووجوههم يسحبون عليها وبعضهم عمى يترددون وبعضهم صم بكم لا يعقلوا وبعضهم يمضفون ألسنتهم فهى مدلاة على صدورهم يسيل القيح من أفواههم لعابا يتقذرهم أهل الجمع وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم وبعضهم مصلبون على جذوع من النار وبعضهم أشد نتنا من الحيف وبعضهم مابسون جلابيب سابعة من القطران لاصقة بجلودهم فأما الذين على صورة القردة فالقنات من الناس - يعنى النمام - وأما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت والحرام والمكس وأما المنكسون

(٢) فى نسخة من الأصل : متقاربة الأغصان ... الخ .

رءوسهم ووجوههم فأكلة الربا والعمى من يجور في الحكم والضم البكم الذين يعجبون بأعمالهم والذين يمضغون ألسنتهم فالعلماء والقصاص الذين يخالف قولهم فعلهم والمقطعة أيديهم وأرجلهم فالذين يؤذون الحيران والمصلوبون على جذوع النار فالسعاة بالناس إلى السلطان (١) والذين هم أشد تناساً من الخيف فالذين يتمتعون بالشهوات واللذات ويمنعون حق الله من أموالهم والذين يلبسون الجلابيب فأهل الكبر والفخر والخيلاء .

قوله تعالى : ﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ أي لتزول الملائكة ؛ كما قال تعالى : « وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا » . وقيل : تقطعت فكانت قطعاً كالأبواب . فانتصاب الأبواب على هذا التأويل بحذف الكاف . وقيل : التقدير فكانت ذات أبواب ؛ لأنها تصير كلها أبواباً . وقيل : أبوابها طرقها . وقيل : تنحل وتتناثر حتى تصير فيها أبواباً . وقيل : إن لكل عبد بابين في السماء باباً لعمله وباباً لرزقه فإذا قامت القيامة أُنْفِثَتْ الأبواب . وفي حديث الإسراء : « ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بُعِثَ إليه قال قد بُعِثَ إليه ففُتِحَ لنا » . ﴿ وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ أي لا شيء كما أن السراب كذلك يظنه الرائي ماء وليس بماء . وقيل : « سِيرَتِ » نسفت من أصولها . وقيل : أزيلت عن مواضعها .

قوله تعالى : إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَعَابًا ﴿٢٢﴾ لَلَّذِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وَفِاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

(١) وفي الدر المنثور: حق الله والفقراء . الخ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ مِفْعَالٌ مِنَ الرَّصْدِ وَالرَّصْدُ كُلُّ شَيْءٍ كَانَ أَمَامَكَ . قَالَ الْحَسَنُ : إِنْ عَلَى النَّارِ رَصْدًا لَا يَدْخُلُ أَحَدُ الْجَنَّةِ حَتَّى يَجْتَازَ عَلَيْهِ ، فَمَنْ جَاءَ بِجَوَازٍ جَازٍ وَمَنْ لَمْ يَجِئْ بِجَوَازٍ حُبْسٍ . وَعَنْ سَفِيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : عَلَيْهَا ثَلَاثُ قَنَاطِرٍ . وَقِيلَ : « مِرْصَادًا » ذَاتُ أَرْصَادٍ عَلَى النَّسَبِ أَيْ تَرْصِدُ مِنْ يَمْزُجُهَا . وَقَالَ مِقَاتِلُ : مَحْبَسًا . وَقِيلَ : طَرِيقًا وَمَمْرًا فَلَا سَبِيلَ إِلَى الْجَنَّةِ حَتَّى يَقْطَعَ جَهَنَّمَ . وَفِي الصَّحَاحِ : وَالْمِرْصَادُ الطَّرِيقُ . وَذَكَرَ الْقَشِيرِيُّ : أَنَّ الْمِرْصَادَ الْمَكَانَ الَّذِي يَرْصُدُ فِيهِ الْوَاحِدُ الْعَدُوَّ ، نَحْوَ الْمِضْمَارِ الْمَوْضِعِ الَّذِي تُضَمَّرُ فِيهِ الْخَيْلُ . أَيْ هِيَ مَعْدَةٌ لَهُمْ ، فَالْمِرْصَادُ بِمَعْنَى الْمَحَلِّ ، فَالْمَلَائِكَةُ يَرْصُدُونَ الْكُفْرَانَ حَتَّى يَنْزِلُوا بِجَهَنَّمَ . وَذَكَرَ الْمَاوَرْدِيُّ عَنْ أَبِي سَنَانَ أَنَّهَا بِمَعْنَى رَاصِدَةٍ تَجَازِيهِمْ بِأَفْعَالِهِمْ . وَفِي الصَّحَاحِ : الرَّاصِدُ الشَّيْءُ الرَّاقِبُ لَهُ ، تَقُولُ : رَصَدَهُ يَرْصُدُهُ رَصْدًا وَرَصَدًا ، وَالرَّصْدُ التَّرْقُبُ وَالْمَرْصُدُ مَوْضِعُ الرَّصْدِ . الْأَصْمَعِيُّ : رَصَدْتَهُ أَرْصُدُهُ تَرْقِبْتَهُ وَأَرْصُدْتَهُ أَعَدَدْتَهُ لَهُ . وَالْكَسَائِيُّ مِثْلَهُ .

قلت : بِفَهْمِ مَعْدَةٍ مَرْصُودَةٍ مَتَّفَعٌ مِنَ الرَّصْدِ وَهُوَ التَّرْقُبُ ، أَيْ هِيَ مُتَطَلِّعَةٌ لِمَنْ يَأْتِي . وَالْمِرْصَادُ مِفْعَالٌ مِنْ أُنْبِيَةِ الْمُبَالَغَةِ كَالْمِعْطَارِ وَالْمِغْيَارِ فَكَأَنَّهُ يَكْثُرُ مِنْ جَهَنَّمَ أَنْتَظَارِ الْكُفْرَانِ . ﴿ لِلطَّاغِينَ مَأْبَأً ﴾ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ : « مِرْصَادًا » وَالْمَأْبَأُ الْمَرْجِعُ أَيْ مَرَجَعًا يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا ، يُقَالُ : آبَ يُؤُوبُ أَوْبَةً إِذَا رَجَعَ . وَقَالَ قَتَادَةُ : مَأْوَى وَمَنْزَلًا . وَالْمُرَادُ بِالطَّاغِينَ مَنْ طَغَى فِي دِينِهِ بِالْكَفْرِ أَوْ فِي دُنْيَاهُ بِالظُّلْمِ .

قوله تعالى : ﴿ لَا بَيْتِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ أَيْ مَا كَثُرْنَ فِي النَّارِ مَا دَامَتِ الْأَحْقَابُ وَهِيَ لَا تَنْقَطِعُ ، فَكُلَّمَا مَضَى حُقْبٌ جَاءَ حُقْبٌ . وَالْحُقْبُ بضمُّ الدَّهْرِ وَالْأَحْقَابُ الدَّهْرُ . وَالْحُقْبَةُ بِالْكَسْرِ السَّنَةُ وَالْجَمْعُ حُقُبٌ ، قَالَ مَتَمُّ بْنُ نُوَيْرَةَ التَّمِيمِيُّ :

وَكُنَّا كَنَدْمَانِيَّ جَدِيمَةَ حِقْبَةٍ * مِنْ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَّصِدَعَا
فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكَا * لِطُولِ اجْتِمَاعِ لَمْ نَبْتَ لَيْلَةَ مَعَا

والْحُقْبُ بِالضَّمِّ وَالسُّكُونِ ثَمَانُونَ سَنَةً . وَقِيلَ : أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ وَأَقَلُّ عَلَى مَا يَأْتِي وَاجْتِمَاعِ أَحْقَابِ .
وَالْمَعْنَى فِي الْآيَةِ ؛ لِابْتِهَانِ فِيهَا أَحْقَابِ الْآخِرَةِ الَّتِي لَا نِهَائِيَةَ لَهَا ؛ فَحُذِفَ الْآخِرَةُ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ
عَلَيْهِ ؛ إِذْ فِي الْكَلَامِ ذِكْرُ الْآخِرَةِ وَهُوَ كَمَا يُقَالُ أَيَّامِ الْآخِرَةِ ؛ أَيَّ أَيَّامٍ بَعْدَ أَيَّامٍ إِلَى غَيْرِ نِهَائِيَةٍ ،
وَإِنَّمَا كَانَ يَدُلُّ عَلَى التَّوْقِيتِ لَوْ قَالَ خَمْسَةَ أَحْقَابٍ أَوْ عَشْرَةَ أَحْقَابٍ وَنَحْوَهُ . وَذِكْرُ الْأَحْقَابِ لِأَنَّ
الْحُقْبَ كَانَ أَعْبَدَ شَيْءٍ عِنْدَهُمْ ، فَتَكَلَّمَ بِمَا تَذَهَبُ إِلَيْهِ أَوْ هَامَهُمْ وَيَعْرِفُونَهَا ، وَهِيَ كِتَابَةٌ عَنِ
التَّابِيدِ أَيَّ يَمَكُثُونَ فِيهَا أَبَدًا . وَقِيلَ : ذِكْرُ الْأَحْقَابِ دُونَ الْأَيَّامِ ؛ لِأَنَّ الْأَحْقَابَ أَهْوَلُ
فِي الْقُلُوبِ وَأَدْلَى عَلَى الْخُلُودِ . وَالْمَعْنَى مُتَقَارِبٌ ؛ وَهَذَا الْخُلُودُ فِي حَقِّ الْمُشْرِكِينَ . وَيُمْكِنُ حَمْلُ
الْآيَةِ عَلَى الْعَصَاةِ الَّذِينَ يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ بَعْدَ أَحْقَابِ . وَقِيلَ : الْأَحْقَابُ وَقْتُ لَشْرِبِهِمُ الْحَمِيمِ
وَالنَّسَاقِ ، فَإِذَا أَنْقَضَتْ فَيَكُونُ لَهُمْ نَوْعٌ آخَرَ مِنَ الْعَقَابِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : « لَّا يَبِيْثِيْنَ فِيهَا أَحْقَابًا .
لَّا يَذُوْقُوْنَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا . إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا » وَ« لَّا يَبِيْثِيْنَ » أَسْمٌ فَاعِلٌ مِنْ لَبِثٌ وَيَقْوِيهِ
أَنَّ الْمَصْدَرَ مِنْهُ اللَّبِثُ بِالْإِسْكَانِ كَالشَّرْبِ . وَقَرَأَ حَمْزَةً وَالْكَسَائِي « لَبِيْثِيْنَ » بِغَيْرِ أَلْفٍ وَهُوَ
أَخْتِيَارُ أَبِي حَاتِمٍ وَأَبِي عُبَيْدٍ وَهُمَا لَغْتَانٌ ؛ يُقَالُ : رَجُلٌ لَابِثٌ وَلَبِثٌ مِثْلُ طَمِعٌ وَطَامِعٌ وَفَرَهُ
وَفَارَهُ . وَيُقَالُ : هُوَ لَبِثٌ بِمَكَانِ كَذَا أَيَّ قَدْ صَارَ اللَّبِثُ شَأْنَهُ ، فَشُبِّهَ بِمَا هُوَ خَلْقَةٌ فِي الْإِنْسَانِ
نَحْوَ حَذِرٌ وَفَرِقٌ ؛ لِأَنَّ بَابَ فَعِلٍ إِنَّمَا هُوَ لَمَّا يَكُونُ خَلْقَةٌ فِي الشَّيْءِ فِي الْأَغْلَبِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ
أَسْمُ الْفَاعِلِ مِنْ لَابَثَ . وَالْحُقْبُ ثَمَانُونَ سَنَةً فِي قَوْلِ ابْنِ عَمْرٍو وَابْنِ مَيْمُونٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ ،
وَالسَّنَةُ ثَلَاثُونَ يَوْمًا وَسِتُونَ يَوْمًا وَالْيَوْمُ أَلْفُ سَنَةٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ . وَرَوَى
ابْنُ عَمْرٍو هَذَا مَرْفُوعًا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : وَالسَّنَةُ ثَلَاثُونَ يَوْمًا
وَسِتُونَ يَوْمًا كُلُّ يَوْمٍ مِثْلُ أَيَّامِ الدُّنْيَا . وَعَنْ ابْنِ عَمْرٍو أَيْضًا : الْحُقْبُ أَرْبَعُونَ سَنَةً .
السُّدِّي : سَبْعُونَ سَنَةً . وَقِيلَ : إِنَّهُ أَلْفُ شَهْرٍ . رَوَاهُ أَبُو أَمَامَةَ مَرْفُوعًا . بِشَيْرِ بْنِ كَعْبٍ :
ثَلَاثُونَ سَنَةً . الْحَسَنُ : الْأَحْقَابُ لَا يَدْرِي أَحَدٌ كَمْ هِيَ وَلَكِنْ ذَكَرُوا أَنَّهَا مِائَةٌ حُقْبٌ ، وَالْحُقْبُ
الْوَاحِدُ مِنْهَا سَبْعُونَ أَلْفَ سَنَةٍ ، الْيَوْمُ مِنْهَا كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعْدُونَ . وَعَنْ أَبِي أَمَامَةَ أَيْضًا
عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنْ الْحُقْبُ الْوَاحِدُ ثَلَاثُونَ أَلْفَ سَنَةٍ » ذَكَرَهُ الْمَهْدَوِيُّ .
وَالْأَوَّلُ الْمَأْوَرَدِيُّ . وَقَالَ قُطْرُبٌ : هُوَ الدَّهْرُ الطَّوِيلُ غَيْرُ الْمَحْدُودِ . وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ

رضى الله عنه، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "والله لا يخرج من النار من دخلها حتى يكون فيها أحقابا الحُقب بضع وثمانون سنة والسنة ثلثمائة وستون يوما كل يوم ألف سنة مما تعدون فلا يتكلم أحدكم على أنه يخرج من النار". ذكره الثعلبي . القرطبي : الأحقاب ثلاثة وأربعون حُقا كل حُقب سبعون خريفا كل خريف سبعمائة سنة كل سنة ثلثمائة وستون يوما كل يوم ألف سنة .

قلت : هذه أقوال متعارضة والتحديد في الآية للخلود يحتاج إلى توقيف يقطع العذر ، وليس ذلك بثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم . وإنما المعنى والله أعلم ما ذكرناه أولا ؛ أي لا يثن فيها أزمانا ودهورا كلما مضى زمن يعقبه زمن ، ودهر يعقبه دهر ، هكذا أبد الآبدين من غير انقطاع . وقال ابن كيسان : معنى « لا يثن فيها أحقاباً » لا غاية لها ولا انتهاء فكأنه قال أبدا . وقال ابن زيد ومقاتل : إنها منسوخة بقوله تعالى : « فذوقوا فلن تزيدكم إلا عذاباً » يعني إن العدد قد انقطع والخلود قد حصل .

قلت : وهذا بعيد ؛ لأنه خبر وقد قال تعالى : « ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط »^(١) على ما تقدم . هذا في حق الكفار فاما العصاة الموحدون فصحيح ويكون النسخ بمعنى التخصيص . والله أعلم . وقيل : المعنى « لا يثن فيها أحقاباً » أي في الأرض ؛ إذ قد تقدم ذكرها ويكون الضمير في « لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً » لهم . وقيل : واحد الأحقاب حُقب وحِقبه ؛ قال :

فإن تنا عنها حِقبَةً لا تلاقها * فانت بما أحدثته بالمجرب

وقال الكمي^(٢) :

* مر لها بعد حِقبية حِقب *

(١) راجع ج ٧ ص ٢٠٦

(٢) صدر البيت : * ولا حمل غدت ولا دمن *

قوله تعالى : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ﴾ (بَرْدًا وَلَا شَرَابًا) البرد النوم في قول

أبي عبيدة وغيره ؛ قال الشاعر ^(١) :

وَلَوْ شِئْتُ حَرَّمْتُ النَّسَاءَ سِوَاكُمْ * وَإِنْ شِئْتُ لَمْ أَطْعَمْ نُقَاحًا وَلَا بَرْدًا

وقاله مجاهد والسدي والكسائي والفضل بن خالد وأبو معاذ النحوي ؛ وأنشدوا قول الكندي :

بَرَدْتُ مَرَّاشْفُهَا عَلَيَّ فَصَدَّنِي * عَنْهَا وَعَنْ تَقْيِيلِهَا الْبَرْدُ

يعنى النوم . والعرب تقول : منع البرد البرد يعنى أذهب البرد النوم .

قلت : وقد جاء الحديث أنه عليه الصلاة والسلام سئل هل في الجنة نوم . فقال :

« لا ؛ النوم أخو الموت والجنة لا موت فيها » فكذلك النار ؛ وقد قال تعالى : « لَا يُقْضَى

عَلَيْهِمْ فِيْمُوتُوا » وقال ابن عباس : البرد برد الشراب . وعنه أيضا : البرد النوم والشراب

الماء . وقال الزجاج : أى لا يذوقون فيها برد ریح ولا ظل ولا نوم فجعل البرد برد كل شيء

له راحة ، وهذا برد ينفعهم فأما الزمهرير فهو برد يتأذون به فلا ينفعهم فلهم منه من العذاب

ما الله أعلم به . وقال الحسن وعطاء وآبن زيد : بردا أى رَوْحًا وراحة ؛ قال الشاعر .

فَلَا الظِّلُّ مِنْ بَرْدِ الضُّحَى تَسْتَطِيعُهُ * وَلَا النَّيُّ أَوْقَاتِ الْعَشِيِّ تَدُوقُ ^(٢)

« لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا » جملة في موضع الحال من الطاغين ، أو نعت للأحقاب ؛

فالأحقاب ظرف زمان والعامل فيه « لَا يَشِين » أو « لَبِثِينَ » على تعدية فعل . (إِلَّا حَمِيمًا

وَعَسَاقًا) استثناء منقطع في قول من جعل البرد النوم ، ومن جعله من البرودة كان بدلا منه .

والحميم الماء الحار ؛ قاله أبو عبيدة . وقال ابن زيد : الحميم دموع أعينهم تجمع في حياض ثم

يسقونه . قال النحاس : أصل الحميم الماء الحار ومنه اشتق الحمام ومنه الحمى ومنه « وَظِلٌّ مِنْ

(١) هو العرجى عبدالله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان . ونسب إلى العرج وهو موضع قبل الطائف كان ينزل

به . والنقاح كغراب : الماء الطيب .

(٢) قائله حميد بن نور بصف مريحة وكفى بها عن امرأة .

(٣) كذا في الأصل وفي كنب اللغة مادة « فياً » ولا الفء من برد العشى ... الخ .

يُجْمَعُ « إنما يراد به النهاية في الحر . والغساق صديد أهل النار ويحجمهم . وقيل : الزمهير .
 وقرأ حمزة والكسائي بتشديد السين وقد مضى في « ص » القول فيه . (جَزَاءً وَفَاءً) أى
 موافقا لأعمالهم . عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما ؛ فالوفاق بمعنى الموافقة كالقتال بمعنى
 المقاتلة . و « جزاء » نصب على المصدر أى جازيناهم جزاء وافق أعمالهم ؛ قاله الفراء
 والأخفش . وقال الفراء أيضا : هو جمع الوفاق والوفق واللفق واحد . وقال مقاتل : وافق
 العذاب الذنب فلا ذنب أعظم من الشرك ، ولا عذاب أعظم من النار . وقال الحسن وعكرمة :
 كانت أعمالهم سيئة فأتاهم الله بما يسوءهم . (لِيُنَبِّئَهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ) أى لا يخافون (حِسَابًا)
 أى محاسبة على أعمالهم . وقيل : معناه لا يرجون ثواب حساب . الزجاج : أى لما هم كانوا
 لا يؤمنون بالبعث فيرجون حسابهم . (وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا) أى بما جاءت به الأنبياء .
 وقيل : بما أنزلنا من الكتب . وقرأة العامة « كذابا » بتشديد الذال وكسر الكاف على كذب
 أى كذبوا تكذيبا كبيرا . قال الفراء : هى لغة يمانية فصيحة ؛ يقولون : كذبت [به] كذابا وخرقت
 القميص خرقا ؛ وكل فعل فى وزن فَعَلَّ فمصدره فِعَالٌ مشدد فى لغتهم ؛ وأنشد بعض
 الكلابيين :

لَقَدْ طَالَ مَا ثَبَّتَنِي عَنْ صِحَابَتِي * وَعَنْ حَوْجٍ قِضَاوَهَا مِنْ شِفَائِيَا

وقرأ على رضى الله عنه « كذابا » بالتخفيف وهو مصدر أيضا . وقال أبو على : التخفيف
 والتشديد جميعا مصدر المكاذبة ؛ كقول الأعشى :

فَصَدَّقْتُهَا وَكَذَّبْتُهَا * وَالْمَرْءُ يَنْفَعُهُ كِذَابُهُ^(٣)

أبو الفتح : جاء جميعا مصدر كذب وكذب جميعا . الزمخشري : « كذابا » بالتخفيف
 مصدر كذب ؛ بدليل قوله :

فَصَدَّقْتُهَا وَكَذَّبْتُهَا * وَالْمَرْءُ يَنْفَعُهُ كِذَابُهُ

(١) راجع ج ١٥ ص ٢٢١ فابدها .

(٢) الزيادة من الفراء . (٣) قال الشهاب : وضير صدقتها وكذبتها للنفس والمراد أنه يصدق نفسه

تارة بأن يقول إن أمانها محققة وتكذيبها بخلافه أو على العكس .

وهو مثل قوله : « أَنْتُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا » يعنى وكذبوا بآياتنا فكذبوا كذابا . أو تنصبه بـ « كَذَّبُوا » ، لأنه يتضمن معنى كذبوا ؛ لأن كل مكذب بالحق كاذب ؛ لأنهم إذا كانوا عند المسلمين كاذبين وكان المسلمون عندهم كاذبين فينبهم مكاذبة . وقرأ ابن عمر « كُذِّبَا » بضم الكاف والتشديد جمع كاذب ؛ قاله أبو حاتم . ونصبه على الحال الزمخشري . وقد يكون الكُذَّاب بمعنى الواحد البليغ في الكذب ، يقال : رجل كُذَّاب كقولك حُسان وُبُحَال فيجعله صفة لمصدر « كَذَّبُوا » أى تكذبا كُذَّابا مفرطاً كذبه . وفى الصحاح : وقوله تعالى : « وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا » وهو أحد مصادر المُشَدَّد ؛ لأن مصدره قد يحىء على تفعيل مثل التكليم وعلى فِعال مثل كِذَابٍ وعلى تفعيلة مثل تَوْصِيَةٌ وعلى مُفَعَّلٍ ؛ مثل « وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ » . (وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا) « كُلُّ » نصب بإضمار فعل يدل عليه « أَحْصَيْنَاهُ » أى وأحصينا كل شيء أحصيناه . وقرأ أبو السَّمَال « وَكُلُّ شَيْءٍ » بالرفع على الابتداء « كِتَابًا » نصب على المصدر ؛ لأن معنى أحصينا كتبنا أى كتبناه كتابا . ثم قيل : أراد به العلم فإن ما كتب كان أبعد من النسيان . وقيل : أى كتبناه فى اللوح المحفوظ لتعرفه الملائكة . وقيل : أراد ما كتب على العباد من أعمالهم . فهذه كتابة صدرت عن الملائكة الموكلين بالعباد بأمر الله تعالى إياهم بالكتابة ؛ دليله قوله تعالى : « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ . كَرَامًا كَاتِبِينَ » . (فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا) قال أبو برزة : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن أشد آية فى القرآن فقال « قوله تعالى : « فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا » » أى « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا » و « كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا » .

قوله تعالى : إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ ذكر جزاء من أتقى مخالفة أمر الله « مَفَازًا » موضع فوز ونجاة وخلاص مما فيه أهل النار . ولذلك قيل للفلاة إذا قل ماؤها مفازة تفاؤلا بالخلاص منها . ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ هذا تفسير الفوز . وقيل : « إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا » إن للمتقين حدائق ؛ جمع حديقة وهي البستان المحوط عليه ؛ يقال أحدق به أى أحاط . والأعنان جمع عنب أى كروم أعنان فحذف . ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ كواعب جمع كاعب وهي الناهد ؛ يقال : كعبت الجارية تكعب كعوباً وكعبت تكعب تكعيباً ونهدت تنهد نهوداً . وقال الضحاك : الكواعب العذارى ؛ ومنه قوله قيس بن عاصم :

وَتَمَّ مِنْ حَصَانٍ قَدْ حَوَيْنَا كَرِيمَةً * وَمِنْ كَاعِبٍ لَمْ تَدْرِ مَا الْبُؤْسُ مَعْصِرِ

والأتراب الأقران فى السن . وقد مضى فى سورة «الواقعة» الواحد ترب . ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ قال الحسن وقتادة وابن زيد وابن عباس : مترعة مملوءة ؛ يقال : أدهقت الكأس أى ملأتها وكأس دهاق أى ممتلئة ؛ قال :

أَلَا أَسْقِنِي صِرْفًا سَقَانِي السَّاقِي * مِنْ مَائِهَا بِكَأْسِهِ الدَّهَاقِ

وقال خدّاش بن زهير :

أَنَا نَا عَامِرٌ يَبْغِي قِرَانًا * فَاتْرَعْنَا لَهُ كَأْسًا دِهَاقًا

وقال سعيد بن جبیر وعكرمة ومجاهد وابن عباس أيضا : متتابعة يتبع بعضها بعضا ؛ ومنه أدهقت الحجارة أدهاقا وهو شدة تلازبها ودخول بعضها فى بعض ؛ فالمتابع كالمتمداخل . وعن عكرمة أيضا وزيد بن أسلم : صافية ؛ قال الشاعر :

لَأَنْتِ إِلَى الْفُؤَادِ أَحَبُّ قُرْبًا * مِنْ الصَّادِي إِلَى كَأْسِ دِهَاقِ

وهو جمع دهق وهو خشبتان [يُغْمَزُ] بهما [الساق] . والمراد بالكأس الخمر فالتقدير ونجرا ذات دهاق أى عصرت وصفيت ؛ قاله القشيري . وفى الصحاح : وأدهقتُ الماء أى أفرغته

(٣) التصحيح من كتب اللغة

(٢) كذا فى الأصل .

(١) راجع ج ١٧ ص ٢١١

وفى الأصول : خشبتان يعصر بهما .

إفراغا شديدا . قال أبو عمرو والدّهق : بالتحريك ضرب من العذاب . وهو بالفارسية أشكنجه . المبرد : والمدهوق المعدب بجميع العذاب الذي لا فرجة فيه . ابن الأعرابي : دَهَقَتِ الشَّيْءَ كَسَرْتَهُ وَقَطَعْتَهُ ؛ وَكَذَلِكَ دَهَقْتَهُ ؛ وَأَنشَدَ لِمُجْرِبِ بْنِ خَالِدٍ :

نُدْهِقُ بَضْعَ اللَّحْمِ لِلْبَاعِ وَالنَّدَى * وَبَعْضُهُمْ تَغْلِي بِدَمِّ مَنَاقِعِهِ^(١)

وَدَهَمَّتُهُ بزيادة الميم مثله . وقال الأصمعي : الدّهمة لين الطعام وطيبه ورقته وكذلك كل شيء لين ؛ ومنه حديث عمر : لو شئت أن يدّهق لي لفعلت ولكن الله عاب قوما فقال : « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا » .

قوله تعالى : (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا) أى فى الجنة (لَغَوًا وَلَا كِذَابًا) اللغو الباطل وهو ما يلغى من الكلام ويطرح ؛ ومنه الحديث : « إِذَا قَلَّتْ لِسَانُكَ أَنْصِتْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ فَقَدْ لَغَوْتَ » وذلك أن أهل الجنة إذا شربوا لم تتغير عقولهم ولم يتكلموا بلغو ؛ بخلاف أهل الدنيا . « وَلَا كِذَابًا » تقدم ، أى لا يكذب بعضهم بعضا ولا يسمعون كذبا . وقرأ الكسائي « كِذَابًا » بالتخفيف من كذبت كذابا أى لا يتكاذبون فى الجنة . وقيل : هما مصدران للتكذيب وإنما خففها هنا لأنها ليست بمقيد بفعل يصير مصدرا له ، وشدد قوله : « وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا » لأن كذَّبوا يقيد المصدر بالكذاب . (جَزَاءٌ مِنْ رَبِّكَ) نصب على المصدر . لأن المعنى جزاهم بما تقدم ذكره جزاء وكذلك (عَطَاءً) لأن معنى أعطاهم وجزاهم واحد . أى أعطاهم عطاء . (حِسَابًا) أى كثيرا ؛ قاله قتادة ؛ يقال : أَحْسَبْتُ فُلَانًا أَيْ كَثُرَتْ لَهُ الْعَطَاءُ حَتَّى قَالَ حَسْبِي . قال :

وَنُقِفِي وَوَلِيدَ الْحَيِّ إِنْ كَانَ جَائِعًا * وَنُحْسِبُهُ إِنْ كَانَ لَيْسَ بِجَائِعٍ

(١) يروى هكذا فى اللسان مادة « دهق » . وفى الأصول « مراجه » . والمناقع : القدور الصغار

واحد ما منفع ومنفعة . (٢) قاله امرأة من بنى قشير . ونقفيه أى نؤثره بالفقبة وهى ما يؤثر به

الضيف والصبى .

وقال القتيبي : وزى أصل هذا أن يعطيه حتى يقول حسبي . وقال الزجاج : « حساباً »
 أى ما يكفيهم . وقاله الأخفش . يقال : أحسبني كذا أى كفاني . وقال الكلبي : حاسبهم
 فأعطاهم بالحسنة عشرة . مجاهد : حساباً لما عملوا فالحساب بمعنى العد . أى بقدر ماوجب
 له فى وعد الرب فإنه وعد للحسنة عشرة ، ووعد لقوم بسبعائة ضعف ، وقد وعد لقوم جزاء
 لا نهاية له ولا مقدار ؛ كما قال تعالى : « إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .
 وقرأ أبو هاشم « عَطَاءً حَسَاباً » بفتح الحاء وتشديد السين على وزن فَعَالٍ أى كَفَّافاً ؛ قال
 الأصمعي : تقول العرب حسبت الرجل بالتشديد إذا أكرمته ؛ وأنشد قول الشاعر :

* إِذَا أَنَا ضَيْفُهُ يُحْسِبُهُ *

وقرأ ابن عباس « حَسَنًا » بالنون .

قوله تعالى : رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ
 لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَّبِعُكُمْ
 إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ
 اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَعَابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ
 مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : (رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ) قرأ ابن مسعود ونافع
 وأبو عمرو وابن كثير وزيد عن يعقوب والمفضل عن عاصم « رَبُّ » بالرفع على الاستئناف
 « الرَّحْمَنُ » خبره . أو بمعنى هو رب السموات ويكون « الرَّحْمَنُ » مبتدأً ثانياً . وقرأ ابن
 عامر ويعقوب وابن محيصن كلاهما بالخفض نعتاً لقوله : « جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ » أى جزاء من
 ربك رب السموات الرحمن . وقرأ ابن عباس وعاصم وحمة والكسائي « رَبِّ السَّمَوَاتِ »

خفضا على النعت « الرَّحْمَنُ ^(١) » رفعا على الابتداء أى هو الرحمن . وأختره أبو عبيد وقال :
 هذا أعدُّها ؛ خفض « رب » لقربه من قوله « مِنْ رَبِّكَ » فيكون نعتا له ورفع « الرحمن »
 لبعده منه على الاستئناف وخبره (لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا) أى لا يملكون أن يسألوا إلا فيما
 أذن لهم فيه . وقال الكسائي : « لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا » بالشفاعة إلا بإذنه . وقيل :
 الخطاب الكلام ؛ أى لا يملكون أن يخاطبوا الرب سبحانه إلا بإذنه ؛ دليله : « لَا تَكَلِّمُوا نَفْسًا ^{وَوَدَّ}
 إِلَّا بِإِذْنِهِ » . وقيل : أراد الكفار « لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا » فأما المؤمنون فيشفعون .

قلت : بعد أن يؤذن لهم ؛ لقوله تعالى : « مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ » وقوله تعالى :
 « يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِضِيَ لَهُ قَوْلًا » .

قوله تعالى : (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا) « يَوْمَ » نصب على الظرف ؛ أى يوم
 لا يملكون منه خطابا يوم يقوم الروح . واختلف في الروح على أقوال ثمانية : الأول — أنه ملك من
 الملائكة . قال ابن عباس : ما خلق الله مخلوقا بعد العرش أعظم منه ، فإذا كان يوم القيامة قام هو
 وحده صفاً وقامت الملائكة كلهم صفاً فيكون عظم خلقه مثل صفوفهم . ونحو منه عن ابن
 مسعود ؛ قال : الروح ملك أعظم من السموات السبع ، ومن الأرضين السبع ، ومن الجبال . وهو
 حِيَالُ السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ يُسَبِّحُ ^(٢) اللهُ كل يوم اثنتى عشرة ألف تسبيحة ؛ يخلق الله من كل تسبيحة ملكا ،
 فيجىء يوم القيامة وحده صفاً وسائر الملائكة صفاً . الثانى — أنه جبريل عليه السلام . قاله
 الشعبي والضحاك وسعيد بن جبير . وعن ابن عباس : إن عن يمين العرش نهرا من نور مثل
 السموات السبع والأرضين السبع والبحار السبع ، يدخل جبريل كل يوم فيه سحرا فيغتسل
 فيزداد نورا على نوره وجمالا على جماله وعظما على عظمه ، ثم ينتفض فيخلق الله من كل قطرة

(١) هذه القراءة ذكرها القرطبي وابن عطية ولم يذكرها قراءة عاصم بالجرفيهما وهى رواية حفص ، وقد ذكرها
 أبو حيان والأوسى ، فتكون القراءات عن عاصم على هذا ثلاثا ؛ رفع فيهما وجرف فيهما وجر « رب » ورفع « الرحمن » .

(٢) فى نسخة : السماء السابعة .

تقع من ريشه سبعين ألف ملك ، يدخل منهم كل يوم سبعون ألفا البيت المعمور والكعبة سبعون ألفا لا يعودون إليهما إلى يوم القيامة . وقال وهب : إن جبريل عليه السلام واقف بين يدي الله تعالى تُرصد فرائضه ، يخلق الله تعالى من كل رعدة مائة ألف ملك ، فالملائكة صفوف بين يدي الله تعالى منكسة رؤوسهم فإذا أذن الله لهم في الكلام قالوا : لا إله إلا أنت ، وهو قوله تعالى : «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ» في الكلام « وَقَالَ صَوَابًا » يعني قول : « لا إله إلا أنت » . والثالث - روى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الروح في هذه الآية جند من جنود الله تعالى ليسوا ملائكة لهم رؤوس وأيد وأرجل يأكلون الطعام » ثم قرأ «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا» فإن هؤلاء جند وهؤلاء جند وهذا قول أبي صالح ومجاهد . وعلى هذا هم خلق على صورة بني آدم كالناس وليسوا بناس . الرابع - أنهم أشرف الملائكة ؛ قاله مقاتل بن حيان . الخامس - أنهم حفظة على الملائكة ؛ قاله ابن أبي نجيح . السادس - أنهم بنو آدم ؛ قاله الحسن وقتادة . فالمعنى ذوو الروح . وقال العوفي والقرظي : هذا مما كان يكتبه ابن عباس ؛ قال : الروح خلق من خلق الله على صور بني آدم وما نزل ملك من السماء إلا ومعه واحد من الروح . السابع - أرواح بني آدم تقوم صفًا فتقوم الملائكة صفًا وذلك بين النفختين قبل أن ترد إلى الأجساد ؛ قاله عطية . الثامن - أنه القرآن ؛ قاله زيد بن أسلم وقرأ « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا » . و « صَفًّا » مصدر أى يقومون صفوفا . والمصدر ينبئ عن الواحد والجمع كالعدل والصوم . ويقال ليوم العيد : يوم الصف . وقال في موضع آخر : « وجاء ربك والملك صفا صفا » هذا يدل على الصفوف وهذا حين العرض والحساب . قال معناه القتيبي وغيره . وقيل : يقوم الروح صفًا والملائكة صفًا فهم صفان . وقيل : يقوم الكل صفًا واحدا . (لَا يَتَكَلَّمُونَ) أى لا يشفعون (إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ) في الشفاعة (وَقَالَ صَوَابًا) يعني حقًا ؛ قاله الضحاك ومجاهد . وقال أبو صالح : لا إله إلا الله . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : يشفعون لمن قال لا إله إلا الله .

وأصل الصواب السداد من القول والفعل وهو من أصاب يصيب إصابة ؛ كالجواب من أجاب يجيب إجابة . وقيل : « لَا يَتَكَلَّمُونَ » يعني الملائكة والروح الذين قاموا صفًا لا يتكلمون هيبة وإجلالا « إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ » في الشفاعة وهم قد قالوا صوابا ، وأنهم يوحدون الله تعالى ويسبحونه . وقال الحسن : إن الروح تقول يوم القيامة لا يدخل أحد الجنة إلا بالرحمة ولا النار إلا بالعمل . وهو معنى قوله : « وَقَالَ صَوَابًا » .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكِ الْيَوْمِ الْحَقِّ ﴾ أى الكائن الواقع ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَاءً ﴾ أى مرجعا بالعمل الصالح ؛ كأنه إذا عمل خيرا رده إلى الله عز وجل ، وإذا عمل شرا عده منه . وينظر إلى هذا المعنى قوله عليه السلام : ” والخير كله بيدك والشر ليس إليك ” . وقال قتادة : « ما با » سبيلا .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ يخاطب كفار قريش ومشركى العرب ؛ لأنهم قالوا : لا نبعث . والعذاب عذاب الآخرة وكل ما هو آتٍ فهو قريب ، وقد قال تعالى : « كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا » قال معناه الكلبي وغيره . وقال قتادة : عقوبة الدنيا ؛ لأنها أقرب العذابين . قال مقاتل : هى قتل قريش ببدر . والأظهر أنه عذاب الآخرة وهو الموت والقيامة ؛ لأن من مات فقد قامت قيامته فإن كان من أهل الجنة رأى مقعده من الجنة ، وإن كان من أهل النار رأى الخزي والهوان ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ بين وقت ذلك العذاب ؛ أى أنذرناكم عذابا قريبا فى ذلك اليوم وهو يوم ينظر المرء ما قدمت يده أى يراه . وقيل : ينظر إلى ما قدمت فحذف إلى . والمرء ها هنا المؤمن فى قول الحسن ؛ أى يجد لنفسه عملا فأما الكافر فلا يجد لنفسه عملا فيتحنى أن يكون ترابا . ولما قال : ﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ ﴾ علم أنه أراد بالمرء المؤمن . وقيل : المرء ها هنا أبى بن خلف وعقبة بن أبى معيط « وَيَقُولُ الْكَافِرُ » أبو جهل . وقيل : هو عام فى كل أحد وإنسان يرى فى ذلك اليوم جزاء ما كسب . وقال مقاتل : نزلت قوله « يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ » فى أبى سلمة بن عبد الأسد المخزومى ﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ

تُرَابًا) في أخيه الأسود بن عبد الأسد . وقال الثعلبي : سمعت أبا القاسم بن حبيب يقول : الكافر ها هنا إبليس وذلك أنه عاب آدم بأنه خلق من تراب وأفتخر بأنه خلق من نار ، فإذا عاين يوم القيامة ما فيه آدم وبنوه من الثواب والراحة والرحمة ، ورأى ما هو فيه من الشدة والعذاب تمنى أنه يكون بمكان آدم ف « يَقُولُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا » قال : ورأيتُه في بعض التفاسير للقشيري أبي نصر . وقيل : أي يقول إبليس ياليتني خلقت من التراب ولم أقل أنا خير من آدم . وعن ابن عمر : إذا كان يوم القيامة مُدَّتْ الأرضُ مدَّ الأديم ، وحشر الدواب والبهائم والوحوش ، ثم يوضع القصاص بين البهائم حتى يقتص للشاء الجماء من الشاة القرناء بنطحتها ، فإذا فرغ من القصاص بينها قيل لها : كوني ترابا ، فعند ذلك يقول الكافر : « يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا » . ونحوه عن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم . وقد ذكرناه في كتاب التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة مجودا والحمد لله . ذكر أبو جعفر النحاس : حدثنا أحمد بن محمد بن نافع ، قال حدثنا سلمة بن شبيب قال حدثنا عبد الرزاق قال حدثنا معمر ، قال أخبرني جعفر بن برقان الجوزري عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة قال : إن الله تعالى يحشر الخلق كلهم من دابة وطائر وإنسان ثم يقال للبهائم والطيور كوني ترابا فعند ذلك « يَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا » . وقال قوم : « يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا » أي لم أبعث كما قال : « يَا لَيْتَنِي لَمْ أَوْتِ كِتَابِيَه » . وقال أبو الزناد : إذا قُضِيَ بين الناس ، وأمر بأهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار ، قيل لسائر الأمم وللمؤمنين الجنّ عودوا ترابا فيعودون ترابا ، فعند ذلك يقول الكافر حين يراهم « يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا » . وقال ليث بن أبي سليم : مؤمنوا الجنّ يعودون ترابا . وقال عمر بن عبد العزيز والزهري والكلبي ومجاهد : مؤمنوا الجنة حول الجنة في رَبِضٍ وِرْحَابٍ وليسوا فيها . وهذا أصح وقد مضى في سورة « الرحمن » بيان (١) هذا وأنها مكلفون يثابون ويعاقبون فهم كبنى آدم ، والله أعلم بالصواب .

(١) راجع ج ١٧ ص ١٦٩

سورة النازعات

مكية بإجماع . وهي خمس أوست وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾
 وَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّبِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾
 يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتَّبِعُنَّ الرَّادِفَةَ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمِيذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾
 أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَيْنَا لَمْرُدُّوْنَ فِي الْخَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَيْذَا
 كُنَّا عِظْمًا نَّخْرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ
 زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : (وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا) أقسم سبحانه بهذه الأشياء التي ذكرها على أن القيامة حق . و «النَّازِعَاتِ» الملائكة التي تنزع أرواح الكفار؛ قاله علي رضي الله عنه، وكذا قال ابن مسعود وابن عباس ومسروق ومجاهد: هي الملائكة تنزع نفوس بني آدم. قال ابن مسعود: يريد أنفس الكفار ينزعها ملك الموت من أجسادهم، من تحت كل شعرة، ومن تحت الأظافر وأصول القدمين نزعًا كالسُّفود ينزع من الصُّوف الرُّطب، ثم يُغْرِقُهَا أَي يَرْجِعُهَا فِي أَجْسَادِهِمْ، ثُمَّ يَنْزِعُهَا؛ فهذا عمله بالكفار. وقاله ابن عباس . وقال سعيد بن جبیر : نُزِعَتْ أَرْوَاحُهُمْ ثُمَّ غُرِّقَتْ ثُمَّ حُرِّقَتْ ثُمَّ قُدِفَ بِهَا فِي النَّارِ . وَقِيلَ : يَرَى الْكَافِرُ نَفْسَهُ فِي وَقْتِ النَّزْعِ كَأَنَّهَا تَفْرُقُ . وَقَالَ السُّدِّيُّ : وَ «النَّازِعَاتِ» هِيَ النَّفُوسُ حِينَ تَفْرُقُ فِي الصُّدُورِ . مَجَاهِدٌ : هِيَ الْمَوْتُ يَنْزِعُ النَّفُوسَ . الْحَسَنُ وَقْتَادَةُ : هِيَ النَّجْمُ تَنْزِعُ مِنَ أَفْقِ إِلَى أَفْقٍ ؛ أَي تَذْهَبُ مِنْ قَوْلِهِمْ : نَزَعَ إِلَيْهِ أَي ذَهَبَ ، أَوْ مِنْ قَوْلِهِمْ : نَزَعَتِ الْخَيْلُ أَي جَرَتْ . «غَرْقًا»

أى إنها تفرق وتغيب وتطلع من أفق إلى أفق آخر . وقاله أبو عبيدة وآبن كيسان والأخفش .
وقيل : النازعات القسيّ تنزع بالسهم ؛ قاله عطاء وعكرمة . و « غَرْقًا » بمعنى إغراقا ؛ وإغراق
النازع في القوس أن يبلغ غاية المدّ حتى ينتهي إلى النَّصْل . يقال : أغرق في القوس أى
أستوفى مدّها ، وذلك بأن تنتهي إلى العقب الذى عند النَّصْل الملقوف عليه . والاستغراق
الاستيعاب . ويقال لقشرة البيضة الداخلة : « غِرْقِيء » . وقيل : هم الغزاة الرماة .

قلت : هو الذى قبله سواء ؛ لأنه إذا أقسم بالقسيّ فالمراد النازعون بها تعظيما لها ؛ وهو
مثل قوله تعالى : « وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا » والله أعلم . وأراد بالإغراق المبالغة في النزاع وهو
سائع في جميع وجوه تأويلها . وقيل : هى الوحش تنزع من الكلا^(١) وتنفر . حكاه يحيى بن
سلام . ومعنى « غَرْقًا » أى إبعادا في النزاع .

قوله تعالى : (وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا) قال ابن عباس : يعنى الملائكة تَنْشِطُ نَفْسِ
المؤمن فتقبضها كما يُنْشِطُ الْعِقَالُ من يد البعير إذا حُلَّ عنه . وحكى هذا القول الفراء ثم قال :
والذى سمعت من العرب أن يقولوا أَنْشِطَتْ وكَأَنَّما أَنْشِطَ من عِقَالٍ . وربطها نَشَطَها
والرابط الناشط ، وإذا ربطت الحبل في يد البعير فقد نَشَطَتْه فانت ناشط ، وإذا حللته فقد
أَنْشَطَتْه وأنت مُنْشِطٌ . وعن ابن عباس أيضا : هى أنفس المؤمنين عند الموت تَنْشِطُ
للمخرج ؛ وذلك أنه مامن مؤمن [يَحْضُرُهُ الموت]^(٢) إلا وتُعرض عليه الجنة قبل أن يموت
فيرى فيها ما أعد الله له من أزواجه وأهله من الحور العين فهم يدعونه إليها فنفسه إليهم نَشِطَةٌ
أن تخرج فتأتيهم . وعنه أيضا قال : يعنى أنفس الكفار والمنافقين تَنْشِطُ كما يُنْشِطُ الْعَقَبُ ،
الذى يعقب به السهم ، والعقب بالتحريك العصب الذى تُعمل منه الأوتار ، الواحدة عَقَبَةٌ ؛
تقول منه : عَقَبَ السَّهْمَ وَالْقَدْحَ والقوس عَقْبًا إذا لوى شيئا منه عليه . والنَّشِطُ الجذب بسرعة
ومنه الأَنْشُوطَةُ عقدة يسهل انحلالها إذا جُدِبَتْ مثل عقدة التُّكَّة . وقال أبو زيد : نشطت

(١) فى نسخ الأصل : تنزع من الكلا . وفى البحر : تنزع إلى ... الخ .

(٢) الزيادة من تفسير الثعلبي .

الحبل أَنشُطه نَشَطًا عقده بأَنشُوطه ، وَأَنشَطته أى حللته ، وَأَنشَطت الحبل أى مددته حتى ينحل . وقال الفراء : أَنشَطَ العقالُ أى حُلَّ وَنَشِطَ أى ربط الحبل فى يديه . وقال الليث : أَنشَطته بأَنشُوطه وَأَنشُوطتين أى أوثقته ، وَأَنشَطتُ العقالَ أى مددت أَنشُوطته فَأَنحلت . قال : ويقال نَشَطَ بمعنى أَنشَطَ لغتان بمعنى ؛ وعليه يصح قول ابن عباس المذكور أولاً . وعنه أيضاً : الناشطات الملائكة لنشاطها تذهب وتجيء بأمر الله حيثما كان . وعنه أيضاً وعن عليّ رضى الله عنهما : هى الملائكة تَنَشِطُ أرواح الكفار ما بين الجلد والأظفار حتى تخرجها من أجوافهم نَشَطًا بالكرب والنعم كما تنشط الصوف من سُفود الحديد وهى من النَّشِط بمعنى الجذب ؛ يقال : نَشَطتُ الدلو أَنشطها بالكسر وَأَنشطها بالضم أى نزعها . قال الأصمعى : بئر أنشاط أى قريبة القعر تخرج الدلو منها بجذبة واحدة . وبئر نَشُوط ؛ قال : وهى التى لا يخرج منها الدلو حتى تُنَشِطَ كثيراً . وقال مجاهد : هو الموت ينشط نفس الإنسان . السدى : هى النفوس حين تَنَشِط من القدمين . وقيل : النازعات أيدى الغزاة أو أنفسهم تنزع القسي بباغراق السهام وهى التى تنشط الأوهاق . عكرمة وعطاء : هى الأوهاق تنشط السهام . وعن عطاء أيضاً وقتادة والحسن والأخفش : هى النجوم تَنَشِط من أفق إلى أفق أى تذهب . وكذا فى الصحاح . « والنَّاشِطَاتِ نَشِطًا » يعنى النجوم من بُرج إلى بُرج كالنور الناشط من بلد إلى بلد . والهموم تَنَشِط بصاحبها ؛ قال هُمَيان بن حُفَافَة :

أَمَسَتْ هُمُومِي تَنَشِطُ الْمَنَاشِطًا * الشَّامَ بِي طَوْرًا وَطَوْرًا وَأَسِطًا

أبو عبيدة وعطاء أيضاً : الناشطات هى الوحش حين تَنَشِط من بلد إلى بلد ، كما أن الهموم تنشط الإنسان من بلد إلى بلد ؛ وأنشد قول هُمَيان :

* أَمَسَتْ هُمُومِي ... * البيت

وقيل : « والنَّازِعَاتِ » للكافرين « والنَّاشِطَاتِ » للمؤمنين ، فالملائكة يجذبون رُوح المؤمن برفق والزرع جذبٌ بشدة والنشط جذب برفق . وقيل : هما جميعاً للكفار والآيات بعدهما للمؤمنين عند فراق الدنيا .

(١) جمع وهق بمحركتين وقد يسكن الحبل تشد به الإبل والحبل لثلاثند ، ويقال فى طرفه أنشوطه .

قوله تعالى : (وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا) قال علي رضي الله عنه : هي الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين . الكلبي : هي الملائكة تقبض أرواح المؤمنين ، كالذي يسبح في الماء فأحيانا يتغمس وأحيانا يرتفع ، يسلونها سلا رفيقا بسهولة ثم يدعونها تستريح . وقال مجاهد وأبو صالح : هي الملائكة ينزلون من السماء مسرعين لأمر الله ؛ كما يقال للفرس الجواد سابح إذا أسرع في جريه . وعن مجاهد أيضا : الملائكة تسبح في نزولها وصعودها . وعنه أيضا : السابحات الموت يسبح في نفوس بني آدم . وقيل : هي الخيل الغزاة ؛ قال عنقرة :

وَالخَيْلُ تَعْلَمُ حِينَ تَسُ * سَبْحٌ فِي حَيَاضِ المَوْتِ سَبْحًا

وقال امرؤ القيس :

مَسَحَ إِذَا مَا السَّابِحَاتُ عَلَى الوَنَى * أَثْرَتْ غُبَارًا بالكَيْدِ المُرَكَّلِ^(١)

قتادة والحسن : هي النجوم تسبح في أفلاكها وكذا الشمس والقمر ؛ قال الله تعالى : « كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبُحُونَ » . عطاء : هي السفن تسبح في الماء . ابن عباس : السابحات أرواح المؤمنين تسبح شوقا إلى لقاء الله ورحمته حين تخرج .

قوله تعالى : (فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا) قال علي رضي الله عنه : هي الملائكة تسبق الشياطين بالوحى إلى الأنبياء عليهم السلام . وقاله مسروق ومجاهد . وعن مجاهد أيضا وأبي روق : هي الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح . وقيل : تسبق بني آدم إلى العمل الصالح فتكتبه . وعن مجاهد أيضا : الموت يسبق الإنسان . مقاتل : هي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة . ابن مسعود : هي أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة الذين يقبضونها وقد عاينت السرور شوقا إلى لقاء الله تعالى ورحمته . ونحوه عن الربيع قال : هي النفوس تسبق بالخروج عند الموت . وقال قتادة والحسن ومعمّر : هي النجوم يسبق بعضها بعضها في السير . عطاء : هي الخيل التي تسبق إلى الجهاد . وقيل : يحتمل أن تكون

(١) مسح : يصب الجرى . الونى : الفتور . الكديد : الموضع الغليظ . المركل : الذي يركل بالأرجل . ومعنى البيت : إن الخيل السريعة إذا فترت فأثارت الغبار بأرجلها من التعب جرى هذا الفرص جريا سهلا كما يسبح السحاب المطر .

السابغات ما تسبق من الأرواح قبل الأجساد إلى جنة أو نار ؛ قاله الماوردي . وقال الجرجاني : ذكر « فالسَّابِغَاتِ » بالفاء لأنها مشتقة من التي قبلها ؛ أي واللائي يسبحن فيسبحن ، تقول : قام فذهب ؛ فهذا يوجب أن يكون القيام سببا للذهاب ، ولو قلت : قام وذهب لم يكن القيام سببا للذهاب .

قوله تعالى : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ قال القشيري : أجمعوا على أن المراد الملائكة . وقال الماوردي فيه قولان : أحدهما الملائكة ؛ قاله الجمهور . والقول الثاني هي الكواكب السبعة . حكاها خالد بن معدان عن معاذ بن جبل . وفي تدبيرها الأمر وجهان : أحدهما تدبير طلوعها وأفولها . الثاني تدبير ما قضاه الله تعالى فيها من تقلب الأحوال . وحكى هذا القول أيضا القشيري في تفسيره ، وأن الله تعالى علق كثيرا من تدبير أمر العالم بحركات النجوم ، فأضيف التدبير إليها وإن كان من الله ، كما يسمى الشيء بأسم ما يجاوره . وعلى أن المراد بالمدبرات الملائكة فتدبيرها نزولها بالحلال والحرام وتفصيله ؛ قاله ابن عباس وقتادة وغيرهما . وهو إلى الله جل ثناؤه ولكن لما نزلت الملائكة به سميت بذلك ؛ كما قال عز وجل : « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ » وكما قال تعالى : « فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ » يعني جبريل نزله على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، والله عز وجل هو الذي أنزله . وروى عطاء عن ابن عباس : « فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا » الملائكة وكلت بتدبير أحوال الأرض في الرياح والأمطار وغير ذلك . قال عبد الرحمن بن سابط : تدبير أمر الدنيا إلى أربعة ؛ جبريل وميكائيل وملك الموت وأسمه عزرائيل وإسرافيل ، فأما جبريل فهوكل بالرياح والجنود ، وأما ميكائيل فهوكل بالقطر والنبات ، وأما ملك الموت فهوكل بقبض الأنفس في البر والبحر ، وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم ، وليس من الملائكة أقرب من إسرافيل وبينه وبين العرش مسيرة خمسمائة عام . وقيل : أي وُكِّلُوا بأمور عرفهم الله بها . ومن أول السورة إلى هنا قسم أقسم الله به ، والله أن يقسم بما شاء من خلقه وليس لنا ذلك إلا به عز وجل . وجواب القسم مضمركا أنه قال : والنازعات وكذا وكذا لتبعن وتحاسبن أضمرا لمعرفة السامعين

بالمعنى ؛ قاله الفراء . ويدل عليه قوله تعالى : « أَيْدَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً » أَلست ترى أنه كالجواب لقولهم : « أَيْدَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً » نبعث فأكتفى بقوله : « أَيْدَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً » . وقال قوم : وقع القسم على قوله : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى » وهذا اختيار الترمذى ابن على . أى فيما قصصت من ذكر يوم القيامة وذكر موسى وفرعون « لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى » ولكن وقع القسم على ما فى السورة مذكورا ظاهرا بارزا أخرى وأقن من أن يؤتى بشيء ليس بمذكور فيها . قال ابن الأنبارى : وهذا قبيح ؛ لأن الكلام قد طال فيما بينهما . وقيل : جواب القسم « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى » لأن المعنى قد أتاك . وقيل : الجواب (يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ) على تقدير ليوم ترجف فحذف اللام . وقيل : فيه تقديم وتأخير تقديره يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة والنازعات غرقا . وقال السجستاني : يجوز أن يكون هذا من التقديم والتأخير كأنه قال : فإذا هم بالساهرة والنازعات . ابن الأنبارى : وهذا خطأ ؛ لأن الفاء لا يفتح بها الكلام والأول الوجه . وقيل : إنما وقع القسم على أن قلوب أهل النار تجف وأبصارهم تخشع فانتصاب « يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ » على هذا المعنى ولكن لم يقع عليه . قال الزجاج : أى قلوب واجفة يوم ترجف . وقيل : أنتصب بإضمار آذ كر . و « ترجف » أى تضطرب والراجفة أى المضطربة كذا قال عبد الرحمن زيد ؛ قال : هى الأرض ، والرادفة الساعة . مجاهد : الراجفة الزلزلة (تَتَّبِعُهَا الرَادِفَةُ) الصيحة . وعنه أيضا وابن عباس والحسن وقتادة : هما الصيحتان . أى النفختان أما الأولى فتميت كل شيء بإذن الله تعالى ، وأما الثانية فتحي كل شيء بإذن الله تعالى . وجاء فى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بينهما أربعون سنة » وقال مجاهد أيضا : الرادفة حين تنشق السماء وتعمل الأرض والجبال فتدك دكة واحدة وذلك بعد الزلزلة . وقيل : الراجفة تحرك الأرض ، والرادفة زلزلة أخرى تفنى الأرضين . فالله أعلم . وقد مضى فى آخر « النمل^(١) » ما فيه كفاية فى النفخ فى الصور . وأصل الرجفة الحركة ، قال الله تعالى : « يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ » وليست الرجفة ها هنا من

(١) راجع ج ١٣ ص ٢٣٩ فابعدا .

الحركة فقط بل من قولهم : رَجَفَ الرَّعْدُ يَرْجُفُ رَجْفًا وَرَجِيفًا أَيْ أَظْهَرَ الصَّوْتُ وَالْحَرَكَةُ وَمِنْهُ سُمِّيَتِ الْأَرَاجِيفُ لِاضْطِرَابِ الْأَصْوَاتِ بِهَا وَإِفَاضَةِ النَّاسِ فِيهَا ؛ قَالَ ^(١) :

أَبَا الْأَرَاجِيفِ يَا بَنَ اللَّؤْمِ تُوعِدُنِي * فِي الْأَرَاجِيفِ خَلَّتْ اللَّؤْمُ وَالْخَوْرَا

وعن أبي بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا ذهب ربيع الليل قام ثم قال :
 " يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا اللَّهَ جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ " . (قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ
 وَاجِفَةٌ) أَيْ خَائِفَةٌ وَجَلَةٌ ؛ قَالَ أَبُو عَبَّاسٍ وَعَلَيْهِ عَامَّةُ الْمُرْسَلِينَ . وَقَالَ السُّدِّيُّ : زَائِلَةٌ عَنِ
 أَمَا كُنْهَا ؛ نَظِيرُهُ « إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ » . وَقَالَ الْمُؤَرِّجُ : قَلْقَةٌ مُسْتَوْفِزَةٌ ، مَرْتَكِضَةٌ غَيْرُ
 سَاكِنَةٌ . وَقَالَ الْمُبَرِّدُ : مُضْطَرِبَةٌ . وَالْمَعْنَى مُتَقَارِبٌ وَالْمُرَادُ قُلُوبُ الْكُفَّارِ ؛ يُقَالُ وَجِفَ الْقَلْبُ
 يَجِفُ وَجِيفًا إِذَا خَفِقَ ؛ كَمَا يُقَالُ : وَجِبَ يَجِبُ وَجِيبًا ؛ وَمِنْهُ وَجِيفَ الْفَرَسُ وَالنَّاقَةُ
 فِي الْعَدْوِ ؛ وَالْإِيْجَافُ حَمْلُ الدَّابَّةِ عَلَى السَّيْرِ السَّرِيعِ ؛ قَالَ :

بُدَّانَ بَعْدَ جِرَّةٍ صَرِيفًا * وَبَعْدَ طُولِ النَّفْسِ الْوَجِيفًا

و « قُلُوبٌ » رَفَعٌ بِالْأَبْتِدَاءِ وَ « وَاجِفَةٌ » صِفَتُهَا . وَ (أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ) خَبَرُهَا ؛ مِثْلُ قَوْلِهِ :
 « وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ » وَمَعْنَى « خَاشِعَةٌ » مُنْكَسِرَةٌ ذَلِيلَةٌ مِنْ هَوْلٍ مَا تَرَى ؛ نَظِيرُهُ :
 « خَاشِعَةٌ أَبْصَارُهُمْ تَرَاهُمْ ذِلَّةً » وَالْمَعْنَى أَبْصَارُ أَصْحَابِهَا فَخَذَفَ الْمَضَافُ . (يَقُولُونَ
 أَنِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَاغِرَةِ) أَيْ يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْمَكْذُوبُونَ الْمُنْكَرُونَ لِلْبَعْثِ إِذَا قِيلَ لَهُمْ إِنَّكُمْ
 تَبْعَثُونَ قَالُوا مُنْكَرِينَ مُتَعَجِّبِينَ : أُنزِدَ بَعْدَ مَوْتِنَا إِلَى أَوَّلِ الْأَمْرِ فَنَعُودُ أَحْيَاءَ كَمَا كُنَّا قَبْلَ الْمَوْتِ ؟
 وَهُوَ كَقَوْلِهِمْ : « أَنِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا » يُقَالُ : رَجَعَ فُلَانٌ فِي حَافِرَتِهِ وَعَلَى حَافِرَتِهِ
 أَيْ رَجَعَ مِنْ حَيْثُ جَاءَ ؛ قَالَ قَتَادَةُ . وَأَنشَدَ أَبُو الْأَعْرَابِيِّ :

(١) قائله منازل بن ربيعة المنقرى في هجور روبة والعجاج . والرواية المشهورة للبيت كما في كتب النحو كشرح

النصريح وغيره هي :

أبا لأراجيز يابن اللؤم توعدني * وفي الأراجيز خلت اللؤم والخور
 والأراجيز جمع أرجوزة وهي القصائد الجارية على بحر الرجز . وفي الأراجيز خبر مقدم واللؤم مبتدأ مؤخر وتوسط خلت
 بين المبتدأ والخبر أبطل عملها ، وهو موضع الشاهد في البيت عند النحاة . وقيل لا يمنع النصب على أن يقدر مبتدأ
 أياً وأما خلت . (٢) مرتكضة : مضطربة .

أَحَافِرَةٌ عَلَى صَلَعٍ وَشَيْبٍ * مَعَاذَ اللَّهِ مِنْ سَفَهٍ وَعَارٍ

يقول : أارجع إلى ما كنت عليه في شبابي من الغزل والصبا بعد أن شبت وصيلت !
ويقال : رجع على حافرته . أى الطريق الذى جاء منه . وقولهم فى المثل : النَّقْدُ عِنْدَ
الْحَافِرَةِ . قال يعقوب : أى عند أول كلمة . ويقال : ألتقى القوم فاقتتلوا عند الحافرة .
أى عند أول ما ألتقوا . وقيل : الحافرة العاجلة ؛ أى أننا لمردودون إلى الدنيا فنصير أحياء
كما كنا؟ قال الشاعر :

آلَيْتُ لَا أَنْسَأُكُمْ فَأَعْلَمُوا * حَتَّى يُرَدَّ النَّاسُ فِي الْحَافِرَةِ

وقيل : الحافرة الأرض التى تحفر فيها قبورهم فهى بمعنى المحفورة ؛ كقوله تعالى : « مَاءٍ
دَافِقٍ » و « عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ » والمعنى أننا لمردودون فى قبورنا أحياء . قاله مجاهد والخليل
والفراء . وقيل : سميت الأرض الحافرة ؛ لأنها مستقر الحوافر كما سميت القدم أرضاً ؛
لأنها على الأرض . والمعنى أننا لراجعون بعد الموت إلى الأرض فنمشى على أقدامنا . وقال
أبن زيد : الحافرة النار وقرأ « تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ » . وقال مقاتل وزيد بن أسلم : هى
أسم من أسماء النار . وقال ابن عباس : الحافرة فى كلام العرب الدنيا . وقرأ أبو حيوة :
« الْحَافِرَةِ » بغير ألف مقصور من الحافرة . وقيل : الحفرة الأرض المنتنة بأجساد موتاها ؛
من قولهم : حفرت أسنانه إذا ركبها الوسخ من ظاهرها وباطنها . يقال : فى أسنانه حفرة
وقد حفرت تحفر حفراً ، مثال كسر يكسر كسراً إذا فسدت أصولها . وبنو أسد يقولون :
فى أسنانه حفرة بالتحريك . وقد حفرت مثال تعب تعباً وهى أردأ اللغتين ؛ قاله فى الصحاح .
(أَيْدَا كُنَّا عِظَامًا نَحْرَةً) أى بالية متفتتة . يقال : نخر العظم بالكسر أى بلى وتفتت ؛ يقال :
عظام نخرة وكذا قرأ الجمهور من أهل المدينة ومكة والشام والبصرة وأختاره أبو عبيد ؛ لأن
الآثار التى تُذكر فيها العظام نظرنا فيها فرأينا نخرة لا نخرة . وقرأ أبو عمرو وأبى عبد الله
وآبن عباس وآبن مسعود وآبن الزبير وحمزة والكسائى وآبو بكر « نَاحِرَةٌ » بألف وأختاره
الفراء والطبرى وآبو معاذ النحوى ؛ لوفاق رءوس الآى . وفى الصحاح : والنأحر من العظام

التي تدخل الريح فيه ثم تخرج منه ولها نَحِيرٌ . ويقال : ما بها ناخرأى ما بها أحد . حكاه يعقوب عن الباهلي . وقال أبو عمرو بن العلاء : الناخرة التي لم تنخر بعد أي لم تبل ولا بد أن تنخر . وقيل : الناخرة المجوفة . وقيل : هما لغتان بمعنى ؛ كذلك تقول العرب : نخر الشيء فهو نخر وناحر ؛ كقولهم : طمع فهو طمع وطامع وحذر وحاذر وبخل وباخل وفيره وفاره ؛ قال الشاعر :

يَظَلُّ بِهَا الشَّيْخُ الَّذِي كَانَ بَادِنًا * يَدِبُّ عَلَى عُوجٍ لَهُ نَخْرَاتِ

عُوجٌ يعني قوائم . وفي بعض التفسير : ناخرة بالألف بالية ونخرة تنخر فيها الريح أي تمر فيها على عكس الأول ؛ قال ^(١) :

* مِنْ بَعْدِ مَا صِرْتَ عِظَامًا نَاخِرَةً *

وقال بعضهم : الناخرة التي أكلت أطرافها وبقيت أوساطها . والناخرة التي فسدت كلها . وقال مجاهد : نخرة أي مرفوثة ؛ كما قال تعالى : « عِظَامًا وَرُفَاتًا » ونخرة الريح بالضم شدة هبوبها . والناخرة أيضا والنخرة مثال الهمة مقدم أنف الفرس والحمار والخنزير ؛ يقال : هشم نخرته أي أنفه . (قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ) أي رجعة خائبة كاذبة باطلة أي ليست كائنة ؛ قاله الحسن وغيره . الربيع بن أنس : « خَاسِرَةٌ » على من كذب بها . وقيل : أي هي كرة خسران . والمعنى أهلها خاسرون ؛ كما يقال : تجارة رابحة أي يربح صاحبها . ولا شيء أخسر من كرة تقتضي المصير إلى النار . وقال قتادة ومحمد بن كعب : أي لئن رجعنا أحياء بعد الموت لنحشرن بالنار ، وإنما قالوا هذا لأنهم أوعدوا بالنار . والكر الرجوع ؛ يقال : كره وكر بنفسه يتعدى ولا يتعدى . والكرة المرة والجمع الكرات . (فَلَا تَمَّأْ هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ) ذكر جل ثناؤه سهولة البعث عليه فقال : « فَلَا تَمَّأْ هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ » . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : نفخة واحدة (فَلَا إِذَا هُمْ) أي الخلائق أجمعون (بِالسَّاهِرَةِ) أي على وجه الأرض بعد ما كانوا في بطنها . قال الفراء : سميت بهذا الاسم ؛ لأن فيها نوم

(١) فائله الهدان يوم القادسية .

الحيوان وسهرهم . والعرب تسمى الفلاة ووجه الأرض سَاهِرَةً بمعنى ذات سهر ؛ لأنه يسهر فيها خوفاً منها فوصفها بصفة ما فيها ؛ وأستدل ابن عباس والمفسرون بقول أمية ابن أبي الصلت :

وفيها لحمٌ سَاهِرَةٌ وبَحْرٍ * وما فاهُوا بِهِ لَهُمْ مَقِيمٌ

وقال آخر يوم ذى قارٍ لفرسه :

أقدمُ محاجٍ إنَّها الأَساورَةُ * ولا يهولَنَّكَ رَجُلٌ نادرُهُ

فإنَّما قَصْرُكَ تُرْبُ السَاهِرَةِ * ثُمَّ تَعُودُ بَعْدَهَا فِي الحَافِرَةِ

* مِنْ بَعْدِ ما صِرْتَ عِظَماً نَاحِرَهُ *

وفي الصحاح : ويقال : الساهور ظلُّ الساهرة وهي وجه الأرض . ومنه قوله تعالى : « فإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ » قال أبو كبير الهذلي :

يرتَدَن سَاهِرَةً كَأَنَّ جَمِيمَهَا * وَعَمِيمَهَا أَسْدافٌ لَيْلٍ مُظْلَمٌ^(٢)

ويقال : الساهور كالغلاف للقمر يدخل فيه إذا كسف ، وأنشدوا قول أمية بن أبي الصلت :^(٣)

* قَمَرٌ وَسَاهورٌ يَسْلُ وَيُعَمَدُ *

وأنشدوا لآخر في وصف امرأة :

كَأَنَّها عِرْقٌ سَامٍ عِنْدَ ضارِبِهِ * أَوْ شِقَّةٌ نَجَّجَتْ مِنْ جَوْفِ ساهورِ^(٥)

يريد شقة القمر . وقيل : الساهرة هي الأرض البيضاء . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : أرض من فضة لم يعص الله جل ثناؤه عليها قط خلقها حينئذ . وقيل : أرض جددها

(١) هذه الأبيات للهمداني يوم القادسية وقد تقدم ذكرها . محاج : اسم فرس الشاعر . وفي اللسان مادة

«نخر» : أقدم أخانهم . ولا تهولنك رهوس . وفي السمين : بادره . (٢) الجميم بالجميم ، النبات الذي قد نبت

وأرتفع قليلاً ولم يتم كل التمام ، والعميم المكتمل التام من النبات ، والأسداف جمع سدف بالتحريك وهو ظلمة الليل .

(٣) هذا كما تزعم العرب في الجاهلية . (٤) وصدر البيت : * لا نقص فيه غير أن خبيثه *

(٥) كذا في نسخ الأصل التي بأيدينا والذي في اللسان مادة «سهر» أو فلقه .

الله يوم القيامة . وقيل : الساهرة أسم الأرض السابعة يأتي بها الله تعالى فيحاسب عليها الخلائق ، وذلك حين تبدل الأرض غير الأرض . وقال الثوري : الساهرة أرض الشام . وهب بن منبه : جبل بيت المقدس . عثمان بن أبي العاتكة : إنه أسم مكان من الأرض بعينه بالشام وهو الصقع الذي بين جبل أريحاء وجبل حسان^(١) يمدده الله كيف يشاء . قتادة : هي جهنم أي فإذا هؤلاء الكفار في جهنم . وإنما قيل لها ساهرة ؛ لأنهم لا ينامون عليها حينئذ . وقيل : الساهرة بمعنى الصحراء على شفير جهنم ؛ أي يوقفون بأرض القيامة فيدوم السهر حينئذ . ويقال : الساهرة الأرض البيضاء المستوية سميت بذلك ، لأن السراب يجري فيها من قولهم عين ساهرة جارية الماء وفي ضدها نائمة ؛ قال الأشعث بن قيس :
وساهرة يضحى السراب مجللاً * لإقطارها قد جثتها متلثماً
أولاً لأن سالكها لا ينام خوف الهلكة .

قوله تعالى : هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ
الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ
لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ
الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ
فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ
وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى . إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ أي
قد جاءك وبلغك « حَدِيثُ مُوسَى » وهذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم . أي إن فرعون

(١) ذكره الطبري أيضاً .

كان أقوى من كفار عصرك ثم أخذناه وكذلك هؤلاء . وقيل : « هل » بمعنى « ما » أى ما أتاك ولكن أخبرت به فإن فيه عبرة لمن يخشى . وقد مضى من خبر موسى وفرعون في غير موضع ما فيه كفاية . وفي « طوى » ثلاث قراءات : قرأ ابن محيصن وابن عامر والكوفيون « طوى » منونا وأختره أبو عبيد نخفة الأسم . الباقيون بغير تنوين ؛ لأنه معدول مثل عمر وقم ؛ قال الفراء : طوى واد بين المدينة ومصر . قال : وهو معدول عن طاو كما عدل عمر عن عامر . وقرأ الحسن وعكرمة « طوى » بكسر الطاء وروى عن أبي عمرو وعلی معنى المقدس مرة بعد مرة ؛ قاله الزجاج ؛ وأنشد^(٢) :

أَعَادِلَ إِنِّ اللُّومَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ * عَلَى طَوَى مِنْ غَيْكِ الْمُتَرَدِّدِ

أى هو لوم مكرر على . وقيل : ضم الطاء وكسرها لغتان وقد مضى في « طه » القول^(٣) فيه . « أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ » أى ناداه ربه فحذف لأن النداء قول ؛ فكأنه ؛ قال له ربه « أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ » . « إِنَّهُ طَغَى » أى جاوز القدر في العصيان . وروى عن الحسن قال : كان فرعون علجاً من همدان . وعن مجاهد قال : كان من أهل إصطخر . وعن الحسن أيضاً قال : من أهل أصبهان يقال له ذو ظفر طوله أربعة أشبار . « فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى » أى تسلم فتطهر من الذنوب . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : هل لك أن تشهد أن لا إله إلا الله . « وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ » أى وأرشدك إلى طاعة ربك « فَتَخْشَى » أى تخافه وتتقيه . وقرأ نافع وابن كثير « تَزَكَّى » بتشديد الزاى على إدغام التاء فى الزاى لأن أصلها تتركى الباقيون : « تَزَكَّى » بتخفيف الزاى على معنى طرح التاء . وقال أبو عمرو : « تَزَكَّى » بالتشديد [تتصدق بـ] بالصدقة و « تَزَكَّى » تكون زكياً مؤمناً . وإنما دعا فرعون ليكون زكياً مؤمناً . قال : فلهذا اخترنا التخفيف . وقال ضحربن جويرية :

(١) راجع ج ٧ ص ٢٥٦ فابعدا و ج ١١ ص ٢٠٠ فابعدا و ج ١٣ ص ٢٥٠ فابعدا .

(٢) قائله على بن زيد . (٣) راجع ج ١١ ص ١٧٥ .

(٤) الزيادة من الطبرى وهى لازمة .

لما بعث الله موسى إلى فرعون قال له : « أَذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ » إلى قوله « وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى » ولن يفعل ؛ فقال : يارب وكيف أذهب إليه وقد علمت أنه لا يفعل ؟ فأوحى الله إليه أن أمض إلى ما أمرتك به فإن في السماء آثني عشر ألف ملك يطلبون علم القدر فلم يبلغوه ولا يدركوه . (فَأَرَاهُ آيَةَ الْكُبْرَى) أى العلامة العظمى وهى المعجزة . وقيل : العصا . وقيل : اليد البيضاء تشرق كالشمس . وروى الضحاك عن ابن عباس : الآية الكبرى قال العصا . الحسن : يده وعصاه . وقيل : فلق البحر . وقيل : الآية إشارة إلى جميع آياته ومعجزاته . (فَكَذَّبَ) أى كذب نبي الله موسى (وَعَصَى) أى عصى ربه عز وجل . (ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى) أى ولى مدبرا معرضا عن الإيمان « يَسْعَى » أى يعمل بالفساد فى الأرض . وقيل : يعمل فى نكاية موسى . وقيل : « أَذْبَرَ يَسْعَى » هاربا من الحية . (فَحَشَرَ) أى جمع أصحابه ليمنعوه منها . وقيل : جمع جنوده للقتال والمحاربة والسحرة للمعارضة . وقيل : حشر الناس للحضور . (فَتَنَادَى) أى قال لهم بصوت عال (أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى) أى لا رب لكم فوقى . وروى : إن إبليس تصور لفرعون فى صورة الإنس بمصر فى الحمام فأنكره فرعون ، فقال له إبليس : ويحك ! أما تعرفنى ؟ قال : لا . قال : وكيف وأنت خلقتنى ؟ أأست القائل أنا ربكم الأعلى . ذكره الثعلبى فى كتاب العرائس . وقال عطاء : كان صنع لهم أصناما صغارا وأمرهم بعبادتها فقال أنا رب أصنامكم . وقيل : أراد القادة والسادة هو ربهم وأولئك هم أرباب السفلة . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير؛ فنادى فحشر ؛ لأن النداء يكون قبل الحشر . (فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى) أى نكال قوله : « مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي » وقوله بعد : « أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى » قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة . وكان بين الكلمتين أربعون سنة ؛ قاله ابن عباس . والمعنى أمهله فى الأولى ثم أخذه فى الآخرة فمذبه بكلمتيه . وقيل : نكال الأولى هو أن أغرقه ، ونكال الآخرة العذاب فى الآخرة . قاله قتادة وغيره . وقال مجاهد : هو عذاب أول عمره وآخره . وقيل : الآخرة قوله « أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى » والأولى تكذيبه لموسى . عن قتادة أيضا .

و « نَكَالَ » منصوب على المصدر المؤكد في قول الزجاج ؛ لأن معنى أخذه الله نكل الله به فأخرج [نَكَالٌ]^(١) مكان مصدر من معناه لا من لفظه . وقيل : نصب بنزع حرف الصفة ، أى فأخذ الله بنكال الآخرة فلما نزع الخافض نصب . وقال الفراء : أى أخذ الله أخذا نكالا أى للنكال . والنكال أسم لما جعل نكالا للغير أى عقوبة له حتى يعتبر به . يقال : نكل فلان بفلان إذا أثنخه عقوبة . والكلمة من الأمتناع ومنه النكول عن اليمين والنكُلُ القيد . وقد مضى في سورة « المزمل » والحمد لله . (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً)^(٢) أى اعتبارا وعظة . (لِمَنْ يَخْشَى)^(٣) أى يخاف الله عز وجل .

قوله تعالى : **ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا** ﴿٢٧﴾ **رَفَعَ سَمَكَهَا** **فَسَوَّيْنَاهَا** ﴿٢٨﴾ **وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا** ﴿٢٩﴾ **وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا** ﴿٣٠﴾ **أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا** ﴿٣١﴾ **وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا** ﴿٣٢﴾ **مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَمِكُمْ** ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : (**ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا**) يريد أهل مكة أى أخلقكم بعد الموت أشد في تقديركم (**أَمِ السَّمَاءُ**) فمن قدر على السماء قدر على الإعادة ؛ كقوله تعالى : « **نَخْلُقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ** » وقوله تعالى : « **أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ** » فمعنى الكلام التقرُّيع والتوبيخ . ثم وصف السماء فقال : (**بَنَاهَا**) أى رفعها فوقكم كالبناء . (**رَفَعَ سَمَكَهَا**) أى أعلى سقفها في الهواء ؛ يقال : سمكت الشيء أى رفعته في الهواء وسمكت الشيء سموكا أرتفع . وقال الفراء : كل شيء حمل شيئا من البناء وغيره فهو سَمِكٌ . وبناء مَسْمُوكٌ وَسَنَامٌ سَامِكٌ تَامِكٌ أى عالٍ والمسموكات السموات . ويقال : آسَمْتُكُ في الدِّيمِ أى أصعد في الدرجة .

(١) زيادة تقتضها العبارة . (٢) راجع ص ٤٥ من هذا الجزء . (٣) الذى فى اللغة المسمكات

ككلمات وورد كذلك فى الخبر وصحح التاج أن المسموكات لغة لالحن وبها ورد الخبر عن طريق آخر .

قوله تعالى : ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ أى خلقها خلقا مستويا لا تفاوت فيه ولا شقوق ولا فطور .
 ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ﴾ أى جعله مظلمة ؛ غطش الليل وأغطشه الله ؛ كقولك : ظلم^(١) [الليل]
 وأظلمه الله . ويقال أيضا : أغطش الليل بنفسه وأغطشه الله ؛ كما يقال : أظلم الليل وأظلمه
 الله . والغَطَش والغَبَش الظلمة ورجل أغطش أى أعمى أو شبيه به وقد غَطَش والمرأة
 غطشاء ؛ ويقال : ليلة غطشاء وليل أغطش ، وفلاة غطشى لا يهتدى لها ؛ قال الأعشى :
 وَيَهْمَاءُ بِاللَّيْلِ غَطَشِي الْفَلَا * ةِ يُؤْنِسُنِي صَوْتُ فَيَّادِهَا^(٢)

وقال الأعشى أيضا :

عَقَرْتُ لَهُمْ مَوْهِنًا نَاقَتِي * وَغَامَرَهُمْ مَدْلِهِمْ غَطَشُ

يعنى بغامرهم ليلهم لأنه غمرهم بسواده . وأضاف الليل إلى السماء لأن الليل يكون بغروب
 الشمس والشمس مضاف إلى السماء ؛ ويقال : نجوم الليل لأن ظهورها بالليل . ﴿ وَأَخْرَجَ
 ضُحَاهَا ﴾ أى أبرز نهارها وضوءها وشمسها . وأضاف الضحا إلى السماء كما أضاف إليها
 الليل ؛ لأن فيها سبب الظلام والضياء وهو غروب الشمس وطلوعها . ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ
 ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ أى بسطها . وهذا يشير إلى كون الأرض بعد السماء . وقد مضى القول فيه
 فى أول « البقرة » عند قوله تعالى : « هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى^(٣)
 إِلَى السَّمَاءِ » مستوفى . والعرب تقول : دحوت الشيء أدحوه دحوا إذا بسطته . ويقال
 لعش النعامة أدحى ؛ لأنه مبسوط على وجه الأرض . وقال أمية بن أبى الصلت :

وَبَثَّ الْخَلْقَ فِيهَا إِذْ دَحَاهَا * فَهُمْ قُطَانُهَا حَتَّى التَّنَادَى^(٤)

وأنشد المبرد :

دَحَاهَا فَلَمَّا رَأَاهَا أَسْتَوَتْ * عَلَى الْمَاءِ أَرْسَى عَلَيْهَا الْجِبَالَا

(١) هذه الزيادة من اللسان عن الفراء قال : ظلم الليل بالكسر وأظلم بمعنى .

(٢) الفياد بفتح الفاء وضمتها ذكر البوم . (٣) راجع ج ١ ص ٢٥٥ فابعدا .

(٤) مضى هذا البيت فى ج ١٥ ص ٣١٠ بلفظ : سكانها . والمعنى واحد .

وقيل : دحاها سواها ؛ ومنه قول زيد بن عمرو :

وَأَسَمْتُ وَجْهِي لَمَنْ أَسَمْتُ * لَهُ الْأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقَالًا
دَحَاها فَلَمَّا أَسَوْتُ شَدَّهَا * بَأَيْدٍ وَأَرْسَى عَلَيْهَا الْجِبَالَ

وعن ابن عباس : خلق الله الكعبة ووضعها على الماء على أربعة أركان قبل أن يخلق الدنيا بالف عام ثم دحيت الأرض من تحت البيت . وذكر بعض أهل العلم أن «بعد» في موضع «م» كأنه قال : والأرض مع ذلك دحاها ؛ كما قال تعالى : «عُتِلَّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ» . ومنه قولهم : أنت أحق وأنت بعد هذا سىء الخلق ؛ قال الشاعر :

فَقُلْتُ لَهَا عَنِّي إِلَيْكَ فَإِنِّي * حَرَامٌ وَإِنِّي بَعْدَ ذَلِكَ لَبِيبٌ

أى مع ذلك لبيب . وقيل : بعد بمعنى قبل ؛ كقوله تعالى : «وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ» أى من قبل الفرقان ؛ قال أبو خراش الهدلي :

حَمَدْتُ إِلَهِي بَعْدَ عُرْوَةِ إِذْ نَجَا * خِرَاشٌ وَبَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

وزعموا أن خراشا نجا قبل عروة . وقيل : «دحاها» حرثها وشقها . قاله ابن زيد . وقيل : دحاها مهدها للأقوات . والمعنى متقارب . وقراءة العامة «وَالْأَرْضُ» بالنصب أى دحا الأرض . وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون «وَالْأَرْضُ» بالرفع على الابتداء ؛ لرجوع الهاء . ويقال : دحا يدحو دحوا ودحى يدحى دحيا ؛ كقولهم : طغى يطغى ويطغى ويطغى يطغى ومحى يحو ويحى وحى العود يلحى ويلحو فمن قال : يدحو قال دحوت ومن قال يدحى قال دحيت . (أَخْرَجَ مِنْهَا) أى أخرج من الأرض (مَاءَهَا) أى العيون المتفجرة بالماء . (وَمَرَعَاهَا) أى النبات الذى يرعى . وقال القتيبي : دل بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتا ومتاعا للأنام من العشب والشجر والحب والتمر والعصف والحطب واللباس والنار والملح ؛ لأن النار من العيدان والملح من الماء . (وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا) قراءة العامة «وَالْجِبَالَ» بالنصب أى وأرسى الجبال «أَرْسَاهَا» يعنى أثبتها فيها أوتادا لها . وقرأ

الحسن وعمرو بن ميمون وعمرو بن عبيد ونصر بن حاصم « وإلجبال » بالرفع على الابتداء .
ويقال : هلا أدخل حرف العطف على « أخرج » فيقال : إنه حال بإضمار قد ؛ كقوله تعالى :
« حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ » . (مَتَاعًا لَكُمْ) أى منفعة لكم . (وَإِلَّا نَعَامِكُمْ) من الإبل والبقر والغنم .
و « مَتَاعًا » نصب على المصدر من غير اللفظ ؛ لأن معنى « أخرجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرَعَاهَا » أمتع
بذلك . وقيل : نصب بإسقاط حرف الصفة تقديره لتمتعوا به متاعا .

قوله تعالى : فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ
الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : (فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى) أى الداهية العظمى ، وهى النفخة الثانية
التي يكون معها البعث ؛ قاله ابن عباس فى رواية الضحاك عنه وهو قول الحسن . وعن
ابن عباس أيضا والضحاك أنها القيامة ؛ سميت بذلك لأنها تطم على كل شىء فتعم ماسواها
لعظم هولها ؛ أى تغلبه . وفى أمثالهم : جَرَى الْوَادِى فَطَمَّ عَلَى الْقَرَى ^(١) .

المبرد : الطامة عند العرب الداهية التى لا تستطاع ، وإنما أخذت فيما أحسب من قولهم :
طَمَّ الْفَرَسُ طَمِيًا إِذَا اسْتَفْرَغَ جَهْدَهُ فِي الْجَرَى ، وَطَمَّ الْمَاءُ إِذَا مَلَأَ النَّهْرُ كُلَّهُ . غيره : هى
مأخوذة من طَمَّ السَّيْلَ الرَّكِيَّةَ ^(٢) أى دفنها والطمم الدفن والعلو . وقال القاسم بن الوليد الهمداني :
الطامة الكبرى حين يساق أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار . وهو معنى قول مجاهد .
وقال سفيان : هى الساعة التى يسلم فيها أهل النار إلى الزبانية . أى الداهية التى طمَّت
وعظمت ؛ قال :

إِنْ بَعْضَ الْحَبِّ يُعْمَى وَيُصَمُّ * وَكَذَاكَ الْبُغْضُ أَذْهَى وَأَطَمُّ

(١) القرى مجرى الماء فى الروضة والجمع أقرية وأقراء وقربان ؛ ويضرب المثل عند تجاوز الشىء حده .

(٢) الركبة : البئر ؛ أى جرى سبل الوادى .

(يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى) أى ما عمل من خير أو شر . (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ) أى ظهرت . (لِمَنْ يَرَى) قال ابن عباس : يكشف عنها تتلظى فيها كل ذى بصر . وقيل : المراد الكافر لأنه الذى يرى النار بما فيها من أصناف العذاب . وقيل : يراها المؤمن ليعرف قدر النعمة ويصلى الكافر بالنار . وجواب « فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ » محذوف أى إذا جاءت الطامة دخل أهل النار النار وأهل الجنة الجنة . وقرأ مالك بن دينار : « وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ » عكرمة وغيره « لِمَنْ تَرَى » بالتاء أى لمن تراه الجحيم أو لمن تراه أنت يا محمد . والخطاب له عليه السلام والمراد به الناس .

قوله تعالى : فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٢٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٢٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣١﴾

قوله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ طَغَى . وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) أى تجاوز الحد فى العصيان . قيل : نزلت فى النضر وأبنة الحرث ، وهى عامة فى كل كافر آثر الحياة الدنيا على الآخرة . وروى عن يحيى بن أبى كثير قال : من آتخذ من طعام واحد ثلاثه ألوان فقد طغى . وروى جويرى عن الضحاك قال قال حذيفة : أخوف ما أخاف على هذه الأمة أن يؤثروا ما يرون على ما يعلمون^(١) . ويروى أنه وجد فى الكتب : إن الله جل ثناؤه قال « لا يؤثر عبد لى دنياه على آخرته إلا بثت عليه همومه وصنيعته ثم لا أبالى فى أيها هلك » . (فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى) أى مأواه . والألف واللام بدل من الهاء . (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ) أى حذر مقامه بين يدى ربه . وقال الربيع : مقامه يوم الحساب . وكان قتادة يقول : إن لله عز وجل مقاما قد خافه المؤمنون . وقال مجاهد : هو خوفه فى الدنيا من الله عز وجل عند واقعة الذنب

(١) فى بعض النسخ : ما يعملون . (٢) فى نسخة : وضعه .

فيقلع؛ نظيره : « وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جِئْتَانِ » . (وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى) أى زجرها عن المعاصى والمحارم . وقال سهل : ترك الهوى مفتاح الجنة ؛ لقوله عز وجل : « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى » قال عبد الله بن مسعود : أتم فى زمان يقود الحق الهوى وسيأتى زمان يقود الهوى الحق ، فنعوذ بالله من ذلك الزمان . (فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) أى المنزل . والآيتان نزلتا فى مصعب بن عمير وأخيه عامر بن عمير؛ فروى الضحاک عن ابن عباس قال : أما من طغى فهو أخ لمصعب بن عمير أسرىوم بدر ، فأخذته الأنصار فقالوا : من أنت ؟ قال : أنا أخو مصعب بن عمير ، فلم يشدوه فى الوثاق وأكرموه وبيتوه عندهم ، فلما أصبحوا حدثوا مصعب بن عمير حديثه ؛ فقال : ما هولى بأخ ، شدوا أسيركم فإن أمه أكثر أهل البطحاء حلياً ومالاً . فأوثقوه حتى بعثت أمه فى فدائه . « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ » فمصعب بن عمير ؛ وقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه يوم أحد حين تفرق الناس عنه حتى نفذت المشاقص فى جوفه . وهى السهام ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم متشجطاً فى دمه قال : « عند الله أحسبك » وقال لأصحابه : « لقد رأيته وعليه بردان ما تعرف قيمتهما وإن شراك نعليه من ذهب » . وقيل : إن مصعب بن عمير قتل أخاه عامراً يوم بدر . وعن ابن عباس أيضاً قال : نزلت هذه الآية فى رجلين أبى جهل بن هشام المخزومى ومصعب بن عمير العبدرى . وقال السدى : نزلت هذه الآية « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ » فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ؛ وذلك أن أباً بكر كان له غلام يأتية بطعام ، وكان يسأله من أين أتيت بهذا ، فأتاه يوماً بطعام فلم يسأله وأكله ؛ فقال له غلامه : لِمَ لا تسألنى اليوم ؟ فقال : نسيت فمن أين لك هذا الطعام . فقال : تكهنت لقوم فى الجاهلية فأعطونيهِ . فتقايأه من ساعته وقال : يا رب ما بقى فى العروق فأنت حبسته فنزلت : « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ » . وقال الكلبي : نزلت فى من هم بمعصيته وقدر عايبها فى خلوة ثم تركها من خوف الله . ونحوه عن ابن عباس . يعنى من خاف عند المعصية مقامه بين يدى الله فاتمى عنها والله أعلم .

قوله تعالى : يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا ﴿٤٣﴾ إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًىهَا ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ قال ابن عباس : سأل مشركو مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم متى تكون الساعة أستهزاء ، فأنزل الله عز وجل الآية . وقال عروة بن الزبير في قوله تعالى : ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾ لم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يسأل عن الساعة حتى نزلت هذه الآية ﴿إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ . ومعنى «مُرْسَاهَا» أى قيامها . قال الفراء : رسوها قيامها^(١) كرسو السفينة . وقال أبو عبيدة : أى منتهاها ، ومرسا السفينة حيث تنتهى . وهو قول ابن عباس . الربيع بن أنس : متى زمانها . والمعنى متقارب . وقد مضى فى «الأعراف»^(٢) بيان ذلك . وعن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لا تقوم الساعة إلا بغضبة يغضبها ربك» . «فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا» أى فى أى شىء أنت يا محمد من ذكر القيامة والسؤال عنها ؟ وليس لك السؤال عنها . وهذا معنى ما رواه الزهرى عن عروة بن الزبير قال : لم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يسأل عن الساعة حتى نزلت «فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا» . إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا «أى منتهى علمها ؛ فكأنه عليه السلام لما أكثروا عليه سأل الله أن يعرفه ذلك فقبل له : لا تسأل فلست فى شىء من ذلك . ويجوز أن يكون إنكارا على المشركين فى مسألتهم له ؛ أى فىم أنت من ذلك حتى يسألك بيانه ولست ممن يعلمه . روى معناه عن ابن عباس . والذكرى بمعنى الذكر . «إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا» أى منتهى علمها فلا يوجد عند غيره علم الساعة ؛ وهو كقوله تعالى : «قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي» وقوله تعالى : «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ» . ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا﴾

(١) قال الفراء : كقولك قام العدل وقام الحق أى ظهر ونبت .

(٢) راجع ج ٧ ص ٣٣٥ فابعدا .

أى مخوف ؛ وخص الإنذار بمن يخشى لأنهم المتتفعون به وإن كان منذرا لكل مكلف ؛ وهو كقوله تعالى : « إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ » . وقراءة العامة « مُنذِرٌ » بالإضافة غير ممنون ؛ طلب التخفيف وإلا فأصله التنوين ؛ لأنه للمستقبل وإنما لا ينون فى الماضى . قال الفراء : يجوز التنوين وتركه ؛ كقوله تعالى : « بِالْبَلِغِ أَمْرَهُ » و « بِالْبَلِغِ أَمْرِهِ » و « مُؤْمِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ » و « مُؤْمِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ » والتنوين هو الأصل وبه قرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج وابن محيصن وحميد وعياش عن أبى عمرو « مُنذِرٌ » منونا وتكون فى موضع نصب والمعنى إنما ينتفع بإنذارك من يخشى الساعة . وقال أبو على : يجوز أن تكون بالإضافة للماضى نحو ضارب زيد أمس ؛ لأنه قد فعل الإنذار ، والآية رد على من قال : أحوال الآخرة غير محسوسة وإنما هى راحة الروح أو تألمها من غير حس . (كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا) يعنى الكفار يرون الساعة (لَمْ يَلْبَثُوا) أى فى دنياهم (إِلَّا عَشِيَّةً) أى قدر عشية (أَوْ ضُحَاهَا) أى أو قدر الضحا الذى يلى تلك العشية ، والمراد تقليل مدة الدنيا كما قال تعالى : « لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ » . وروى الضحاك عن ابن عباس : كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا يوما واحدا . وقيل : « لَمْ يَلْبَثُوا » فى قبورهم « إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا » وذلك أنهم استقصروا مدة لبثهم فى القبور لما عاينوا من الهول . وقال الفراء : يقول القائل وهل للعشية ضحا ؟ وإنما الضحا لصدر النهار ولكن أضيف الضحا إلى العشية وهو اليوم الذى يكون فيه على عادة العرب ؛ يقولون : آتتك الغداة أو عشيتها ، وآتتك العشية أو غداتها ، فتكون العشية فى معنى آخر النهار ، والغداة فى معنى أول النهار ؛ قال : وأنشدنى بعض بنى عقيل :

نَحْنُ صَبَحْنَا عَامِرًا فِي دَارِهَا * جُرْدًا تَعَادَى طَرْفَ نَهَارِهَا

* عَشِيَّةَ الْهَلَالِ أَوْ سِرَارِهَا *

أراد عشية الهلال أو عشية سرار العشية ، فهو أشد من آتتك الغداة أو عشيتها .

سورة عبس

مكية في قول الجميع، وهي إحدى وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴿٤﴾

فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (عَبَسَ) أى كاح بوجهه ؛ يقال : عبس و بسر . وقد تقدم .
 (وَتَوَلَّى) أى أعرض بوجهه (أَنْ جَاءَهُ) « أَنْ » فى موضع نصب لأنه مفعول له ، المعنى لأن جاءه الأعمى الذى لا يبصر بعينه . فروى أهل التفسير أجمع أن قوما من أشرف قريش كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم وقد طمع فى إسلامهم ، فأقبل عبد الله بن أم مكتوم ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقطع عبد الله عليه كلامه فأعرض عنه ، ففيه نزلت هذه الآية . قال مالك : إن هشام بن عروة حدثه عن عروة أنه قال نزلت « عَبَسَ وَتَوَلَّى » فى ابن أم مكتوم ، جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يقول : يا محمد ^(١) أستدني وعند النبي صلى الله عليه وسلم رجل من عظماء المشركين ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول : « يا فلان هل ترى بما أقول بأسا » فيقول : لا والدمى ^(٢) ما أرى بما تقول بأسا ؛ فأنزل الله « عَبَسَ وَتَوَلَّى » . وفى الترمذى مسندا قال : حدثنا سعيد ابن يحيى بن سعيد الأموى ، حدثنى أبى ، قال هذا ما عرضنا على هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ، قالت : نزلت « عَبَسَ وَتَوَلَّى » فى ابن أم مكتوم الأعمى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) الرواية هنا وفى ابن العربى يا محمد ، والمشهور فى التفسير يا رسول الله علمنى مما علمك الله . وفى رواية : يا رسول

أرشدنى ، كما سياتى للصف . (٢) الدمى جمع دمية وهى الصورة ، ويريد بها الأصنام .

وسلم بفعل يقول : يا رسول الله أرشدني ، وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من
عظماء المشركين ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض عنه ويقبل على الآخر ، ويقول :
” أترى بما أقول بأسا “ فيقول : لا ؛ ففي هذا نزلة ؛ قال هذا حديث غريب .

الثانية — الآية عتاب من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم في إعراضه وتوليه عن عبد الله
أبن أم مكتوم . ويقال : عمرو بن أم مكتوم ، وأسم أم مكتوم عاتكة بنت عامر بن مخزوم ،
وعمره هذا هو ابن قيس بن زائدة بن الأصم ، وهو ابن خال خديجة رضي الله عنها . وكان
قد تشاغل عنه رجل من عظماء المشركين يقال كان الوليد بن المغيرة ؛ ابن العربي : قاله
المالكية من علمائنا ، وهو يكنى أبا عبد شمس . وقال قتادة : هو أمية بن خلف وعنه
أبي بن خلف . وقال مجاهد : كانوا ثلاثة عتبة وشيبة أبنا ربيعة وأبي بن خلف . وقال عطاء :
عتبة بن ربيعة . سفيان الثوري : كان النبي صلى الله عليه وسلم مع عمه العباس . الزمخشري :
كان عنده صناديد قريش عتبة وشيبة أبنا ربيعة وأبو جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب
وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم . قال
ابن العربي : أما قول علمائنا إنه الوليد بن المغيرة فقد قال آخرون إنه أمية بن خلف والعباس
وهذا كله باطل وجهل من المفسرين الذين لم يتحققوا الدين ، وذلك أن أمية بن خلف والوليد
كانا بمكة وأبن أم مكتوم كان بالمدينة ما حضر معهما ولا حضرا معه ، وكان موتها كافرين
أحدهما قبل الهجرة والآخر ببدر ، ولم يقصد قط أمية المدينة ولا حضر عنده مفردا ولا مع
أحد .

الثالثة — أقبل ابن أم مكتوم والنبي صلى الله عليه وسلم مشتغل بمن حضره من وجوه
قريش يدعوهم إلى الله تعالى ، وقد قوى طمعه في إسلامهم وكان في إسلامهم إسلام من
وراءهم من قومهم ، فجاء ابن أم مكتوم وهو أعمى فقال : يا رسول الله علمني مما علمك الله ؛
وجعل يناديه ويكثر النداء ولا يدري أنه مشغول بغيره حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله
صلى الله عليه وسلم لقطع كلامه ، وقال في نفسه : يقول هؤلاء إنما أتباعه العميان والسفلة

والعبيد ؛ فعبس وأعرض عنه فنزلت الآية . قال الثوري : فكان النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا رأى ابن أم مكتوم يبسط له رداءه ويقول : ” مرحبا بمن عاتبنى فيه ربي ” ويقول : ” هل من حاجة ؟ ” . وأستخلفه على المدينة مرتين في غزوتين غزاهما . قال أنس : فرأيته يوم القادسية راجبا وعليه درع ومعه راية سوداء .

الرابعة – قال علماؤنا : ما فعله ابن أم مكتوم كان من سوء الأدب لو كان عالما بأن النبي صلى الله عليه وسلم مشغول بغيره وأنه يرجو إسلامهم ، ولكن الله تبارك وتعالى عاتبه حتى لا تنكسر قلوب أهل الصفة ؛ أو ليعلم أن المؤمن الفقير خير من الغني ، وكان النظر إلى المؤمن أولى وإن كان فقيرا أصح وأولى من الأمر الآخر ، وهو الإقبال على الأغنياء طمعا في إيمانهم ، وإن كان ذلك أيضا نوعا من المصلحة ، وعلى هذا يخرج قوله تعالى : « مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى » الآية على ما تقدم . وقيل : إنما قصد النبي صلى الله عليه وسلم تأليف الرجل ثقة بما كان في قلب ابن أم مكتوم من الإيمان ؛ كما قال : ” إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلىّ منه مخافة أن يكبه الله في النار على وجهه “ .

الخامسة – قال ابن زيد : إنما عبس النبي صلى الله عليه وسلم لابن أم مكتوم وأعرض عنه ؛ لأنه أشار إلى الذي كان يقوده أن يكفه ، فدفعه ابن أم مكتوم وأبى إلا أن يكلم النبي صلى الله عليه وسلم حتى يُعلمه ، فكان في هذا نوع جفاء منه . ومع هذا أنزل الله في حقه على نبيه صلى الله عليه وسلم : « عَبَسَ وَتَوَلَّى » بلفظ الإخبار عن الغائب تعظيما له ولم يقل : عبست وتوليت . ثم أقبل عليه بمواجهة الخطاب تأنيسا له فقال : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ أَىٰ يَعْلَمُكُ ﴾ ﴿ لَعَلَّهُ ﴾ يعني ابن أم مكتوم ﴿ يَزْكِي ﴾ بما أمتدعى منك تعليمه إياه من القرآن والدين بأن يزداد طهارة في دينه ، وزوال ظلمة الجهل عنه . وقيل : الضمير في « لَعَلَّهُ » للكافر يعني إنك إذا طمعت في أن يتركى بالإسلام أو يذكرك فتقربه الذكري إلى قبول الحق

(١) راجع ج ٨ ص ٤٥ فابدها .

(٢) في نسخة : تعلقا .

وما يدريك أن ما طمعت فيه كائن . وقرأ الحسن « ^(١) آآنُ جَاءَهُ الْأَعْمَى » بالمد على الاستفهام فـ«آأنُ» متعلقة بفعل محذوف دل عليه «عَبَسَ وَتَوَلَّى» التقدير آأنُ جاءه أعرض عنه وتولى؟ فيوقف على هذه القراءة على «وتَوَلَّى» ولا يوقف عليه على قراءة الخبر وهي قراءة العامة .

السادسة — نظير هذه الآية في العتاب قوله تعالى في سورة الأنعام : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ » وكذلك قوله في سورة الكهف : « وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وما كان مثله ، والله أعلم . (أَوْ يَذَّكَّرُ) يتعظ بما تقول (فَتَنْفَعُهُ) الذِّكْرَى) أى العظة . وقراءة العامة «فَتَنْفَعُهُ» بضم العين عطفا على «يَزَكِّي» . وقرأ عاصم وابن أبي إسحاق وعيسى «فَتَنْفَعُهُ» نصبا . وهي قراءة السلمي وزر بن حبيش على جواب لعل لأنه غير موجب ، كقوله تعالى : « لَعَلَّ أَبْلَغُ الْأَسْبَابِ » ثم قال : « فَأَطَّلِعَ » .

قوله تعالى : **أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ﴿٦﴾ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴿٧﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي ﴿٨﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى ﴿٩﴾ وَهُوَ يَخْشَى ﴿١٠﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴿١١﴾**

قوله تعالى : (**أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى**) أى كان ذا ثروة وغنى (**فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى**) أى تعرض له وتصغى لكلامه . والتصدى الإصغاء ؛ قال الراعى :

تَصَدَّى لَوْضَاحٍ كَأَنَّ جِنْدِيهِ * سِرَاجِ الدُّجَى يَخْنِي إِلَيْهِ الْأَسَاوِرَ ^(٢)

وأصله تتصدد من الصدود وهو ما استقبلك وصار قبالتك ؛ يقال : دارى صدود داره أى قبالتها ، نصب على الظرف . وقيل : من الصدى وهو العطش . أى تتعرض له كما يتعرض العطشان للساء والمصاداة المعارضة . وقراءة العامة «تَصَدَّى» بالتخفيف على طرح التاء الثانية تخفيفا .

(١) قال الزمخشري : وقرئ « آآن » بهمزتين وألف بينهما .

(٢) الإسوار (بكسر الهمزة وضمها) قائد الفرس ، وقيل : هو الجيد الرمي بالسهام ، وقيل : هو الجيد النبات على

ظهر الفرس ، والجمع أساور وأساور .

وقرأ نافع وآبن معيصن بالتشديد على الإدغام . ﴿ وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَزِيدُ ﴾ أى لا يهتدى هذا الكافر ولا يؤمن إنما أنت رسول ما عليك إلا البلاغ .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴾ يطلب العلم لله ﴿ وَهُوَ يَخْشَى ﴾ أى يخاف الله ﴿ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ أى تعرض عنه بوجهك وتشتغل بغيره . وأصله تلهى ؛ يقال : لهيت عن الشيء أى تشاغلت عنه . والتلهى التغافل ولهيت عنه وتلهيت بمعنى .

قوله تعالى : كَلَّا إِنَّهَا تَذِكْرَةٌ ﴿ ١١ ﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿ ١٢ ﴾ فِي صُحُفٍ مُكْرَمَةٍ ﴿ ١٣ ﴾ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴿ ١٤ ﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿ ١٥ ﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿ ١٦ ﴾

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذِكْرَةٌ ﴾ « كَلَّا » كلمة رددع وزجر ؛ أى ما الأمر كما تفعل مع الفريقين ؛ أى لا تفعل بعدها مثلها من إقبالك على الغنى وإعراضك عن المؤمن الفقير . والذى جرى من النبي صلى الله عليه وسلم كان ترك الأولى كما تقدم ، ولو حمل على صغيرة لم يبعد ؛ قاله القشيري . والوقف على « كَلَّا » على هذا الوجه جائز . ويجوز أن تقف على « تَلَهَّى » ثم تبتدىء « كَلَّا » على معنى حقا . ﴿ إِنَّهَا ﴾ أى السورة أو آيات القرآن ﴿ تَذِكْرَةٌ ﴾ أى موعظة وتبصرة للخلق ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴾ أى آتعت بالقرآن . قال الجرجاني : « إِنَّهَا » أى القرآن والقرآن مذكر إلا أنه لما جعل القرآن تذكرة أخرجه على لفظ التذكرة ولو ذكروه لجاز ؛ كما قال تعالى فى موضع آخر : « كَلَّا إِنَّهُ تَذِكْرَةٌ » . ويدل على أنه أراد القرآن قوله : « فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ » أى كان حافظا له غير ناس ؛ وذكر الضمير لأن التذكرة فى معنى الذكر والوعظ . وروى الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى : « فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ » قال من شاء الله تبارك وتعالى أهله . ثم أخبر عن جلالاته فقال : ﴿ فِي صُحُفٍ ﴾ جمع صحيفة ﴿ مُكْرَمَةٍ ﴾ أى عند الله ؛ قاله السدى . الطبرى : « مُكْرَمَةٍ » فى الدين لما فيها من العلم والحكم . وقيل : « مُكْرَمَةٍ » لأنها نزل بها كرام الحفظة ، أو لأنها نازلة من اللوح المحفوظ . وقيل : « مُكْرَمَةٍ »

لأنها نزلت من كريم ، لأن كرامة الكتاب من كرامة صاحبه . وقيل : المراد كتب الأنبياء ؛
 دليله : « إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى » . (مَرْفُوعَةٍ) ربيعة
 القدر عند الله . وقيل : مرفوعة عنده تبارك وتعالى . وقيل : مرفوعة في السماء السابعة ،
 قاله يحيى بن سلام . الطبرى : مرفوعة الذكروا والقدر . وقيل : مرفوعة عن الشبه
 والتناقض . (مُطَهَّرَةٌ) قال الحسن : من كل دنس . وقيل : مصانة عن أن ينالها الكفار .
 وهو معنى قول السُّدى . وعن الحسن أيضا : مطهرة من أن تنزل على المشركين .
 وقيل : أى القرآن أثبت للملائكة في صحف يقرءونها فهى مكرمة مرفوعة مطهرة .
 (بِأَيْدِي سَفَرَةٍ) أى الملائكة الذين جعلهم الله سفراء بينه وبين رسله فهم بررة لم يتدنسوا
 بعصية . وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : هى مطهرة تجعل التطهير لمن حملها
 « بِأَيْدِي سَفَرَةٍ » قال : كَتَبَةٍ . وقاله مجاهد أيضا . وهم الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال
 العباد في الأسفار التى هى الكتب واحدهم سافر ؛ كقولك : كاتب وكتبة . ويقال :
 سفرت أى كتبت والكتاب هو السفر وجمعه أسفار . قال الزجاج : وإنما قيل للكتاب
 سِفْرٌ بكسر السين وللكتاب سافر ؛ لأن معناه أنه يبين الشئ ويوضحه . يقال : أسفر الصبح
 إذا أضاء ، وسفرت المرأة إذا كشفت النقاب عن وجهها . قال : ومنه سفرت بين القوم
 أسفِرَ سفارة أصلحت بينهم . وقاله الفراء وأنشد :

فَمَا أَدَعُ السَّفَارَةَ بَيْنَ قَوْمِي * وَلَا أَمْشِي بَغِيْشٌ إِنْ مَشَيْتُ

والسفير الرسول والمصلح بين القوم والجمع سفراء مثل فقيه وفقهاء . ويقال للوراقين سفراء
 بلغة العبرانية . وقال قتادة : السَّفَرَةُ هنا هم القراء لأنهم يقرءون الأسفار . وعنه أيضا كقول
 ابن عباس . وقال وهب بن منبه : « بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامِ بَرَّةٍ » هم أصحاب النبي صلى الله
 عليه وسلم . قال ابن العربى : لقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سفرة كراما
 بررة ، ولكن ليسوا بمرادين بهذه الآية ، ولا قاربوا المرادين بها ، بل هى لفظة مخصوصة
 بالملائكة عند الإطلاق ، ولا يشاركهم فيها سواهم ، ولا يدخل معهم فى تناولها غيرهم . وروى

في الصحيح عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " [مثل] ^(١) الذى يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السفرة الكرام البررة ومثل الذى يقرؤه وهو يتعاهده وهو عليه شديد فله أجران " متفق عليه واللفظ للبخارى . (كَرَامٍ) أى كرام على ربهم ، قاله الكلبي . الحسن : كرام عن المعاصي فهم يرفعون أنفسهم عنها . وروى الضحاك عن ابن عباس في « كَرَامٍ » قال : يتكلمون أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا بزوجه أو تبرز لغائطه . وقيل : أى يؤثرون منافع غيرهم على منافع أنفسهم . (بَرَّةٍ) جمع بار مثل كافر وكفرة ، وساحر وسحرة ، وفاجر وبجرة ، يقال : برُّ وبار إذا كان أهلاً للصدق ، ومنه برَّ فلان في يمينه أى صدق ، وفلان يبرُّ خالقه ويتبرُّه أى يطيعه ، فمعنى « بَرَّةٍ » مطيعون لله صادقون لله في أعمالهم . وقد مضى في سورة « الواقعة » قوله تعالى : « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ . لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » أنهم الكرام البررة في هذه السورة .

قوله تعالى : قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ۚ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۚ ﴿١٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ۚ ﴿١٩﴾ ثُمَّ أَلْسَبِيلَ يَسْرَهُ ۚ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ۚ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ۚ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ۚ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : (قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ) « قُتِلَ » أى لعن . وقيل : عذب . والإنسان الكافر . روى الأعمش عن مجاهد قال : ما كان في القرآن « قُتِلَ الْإِنْسَانُ » وإنما عنى به الكافر . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : نزلت في عتبة بن أبي لهب وكان قد آمن ، فلما نزلت « وَالنَّجْمِ » أرتد وقال آمنت بالقرآن كله إلا النجم ، فأنزل الله جل ثناؤه فيه « قُتِلَ الْإِنْسَانُ » أى لعن عتبة حيث كفر بالقرآن ، ودعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) الزيادة من صحيح البخارى .

(٢) راجع ج ١٧ ص ٥٢٢

فقال : " اللهم سَلِّطْ عليه كلبك أسد الغاضرة " ^(١) فخرج من فوره بتجارة إلى الشام ، فلما
 أنتهى إلى الغاضرة تذكر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم ، فجعل لمن معه ألف دينار إن هو
 أصبح حياً ، فجعلوه في وسط الرفقة ، وجعلوا المتاع حوله ، فبينما هم على ذلك أقبل الأسد ،
 فلما دنا من الرجال وثب فإذا هو فوقه فمزقه ، وقد كان أبوه ندبه وبكى وقال : ما قال مجد
 شيئاً قط إلا كان . وروى أبو صالح عن ابن عباس « مَا أَكْفَرَهُ » أى شئ أكفره .
 وقيل : « ما » تعجب ، وعادة العرب إذا تعجبوا من شئ قالوا : قاتله الله ما أحسنه ،
 وأخزاه الله ما أظلمه ، والمعنى أعجبوا من كفر الإنسان لجميع ما ذكرنا بعد هذا . وقيل :
 ما أكفره بالله ونعمه مع معرفته بكثرة إحسانه إليه على التعجب أيضاً ، قال ابن جريح :
 أى ما أشد كفره . وقيل : « ما » استفهام أى أى شئ دعاه إلى الكفر ، فهو استفهام
 توبيخ . و « ما » تحتل التعجب ، وتحتل معنى أى فتكون استفهاماً . (مِنْ أَى شَىءٍ
 خَلَقَهُ) أى من أى شئ خلق الله هذا الكافر فيتكبر ، أى أعجبوا لخلقته . (مِنْ نُطْفَةٍ)
 أى من ماء يسير مهين جماد (خَلَقَهُ) فلم يغلظ في نفسه ؟ ! . قال الحسن : كيف يتكبر
 من خرج من سبيل البول مرتين . (فَقَدَرَهُ) فى بطن أمه . كذا روى الضحاك عن ابن عباس :
 أى قدر يديه ورجليه وعينه وسائر آراجه ، وحسنا ودمياً ، وقصيراً وطويلاً ، وشقياً وسعيداً .
 وقيل : « فَقَدَرَهُ » أى فسواه كما قال : « أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ
 سَوَّاكَ رَجُلًا » . وقال : « الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ » . وقيل : « فَقَدَرَهُ » أطواراً أى من
 حال إلى حال ؛ نطفة ثم علقة إلى أن تم خلقه . (ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ) قال ابن عباس فى رواية
 عطاء وقتادة والسدى ومقاتل : يسره للخروج من بطن أمه . مجاهد : يسره لطريق الخير
 والشر ؛ أى بين له ذلك . دليله : « إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ » و « هَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » . وقاله
 الحسن وعطاء وابن عباس أيضاً فى رواية أبى صالح عنه . وعن مجاهد أيضاً قال : سبيل

(١) كذا لفظ الحديث فى الأصول ورواية أبى حيان له : " اللهم أبعث عليه كلبك يأكله " ، ثم قال :

فلما أنتهى إلى الغاضرة ... الخ .

الشقاء والسعادة . ابن زيد : سبيل الإسلام . وقال أبو بكر بن طاهر : يسر على كل أحد ما خلقه له ، وقدره عليه ؛ دليله قوله عليه السلام : « أعملوا فكل ميسر لما خلق له » .
 ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ (١) أى جعل له قبرا يوارى فيه إكراما ، ولم يجعله مما يلقي على وجه الأرض تأكله الطير والعواقي ؛ قاله الفراء . وقال أبو عبيدة : « أقبره » جعل له قبرا ، وأمر أن يقبر . قال أبو عبيدة : ولما قتل عمر بن هبيرة صالح بن عبد الرحمن قالت بنو تميم ودخلوا عليه : أقبرنا صالحا ؛ فقال : دونكموه . وقال : « أقبره » ولم يقل قبره ؛ لأن القابر هو الدافن بيده ، قال الأعشى :

لَوْ أَسْنَدْتُ مَيْتًا إِلَى نَحْرِهَا * عَاشَ وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَى قَابِرِ

يقال : قبرت الميت إذا دفنته ، وأقبره الله أى صيره بحيث يقبر وجعل له قبرا ؛ تقول العرب : بترت ذنب البعير وأبتره الله ، وعضبت قرن الثور وأعضبه الله ، وطردت فلانا والله أطرده أى صيره طريدا . ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ أى أحياه بعد موته . وقراءة العامة « أَنْشَرَهُ » بالألف . وروى أبو حيوة عن نافع وشعيب بن أبي حمزة « شَاءَ نَشَرَهُ » بغير ألف لغتان فصيحتان بمعنى ؛ يقال : أنشر الله الميت ونشره ؛ قال الأعشى :

حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ مِمَّا رَأَوْا * يَا عَجَبًا لِلْمَيْتِ النَّاشِرِ

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرَهُ ﴾ قال مجاهد وقتادة : « لَمَّا يَقِضْ » لا يقضى أحد ما أمر به . وكان ابن عباس يقول : « لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرَهُ » لم يف بالميثاق الذى أخذ عليه فى صلب آدم . ثم قيل : « كَلَّا » ردع وزجر أى ليس الأمر كما يقول الكافر ؛ فإن الكافر إذا أخبر بالنشور قال : « وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحَسَنَى » ربما يقول قد قضيت ما أمرت به ، فقال : كَلَّا لم يقض شيئا بل هو كافر بى ورسولى . وقال الحسن : أى حقا لم يقض أى لم يعمل بما أمر به . و « مَا » فى قوله : « لَمَّا » عماد للكلام ؛ كقوله تعالى : « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ » وقوله : « عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ »

(١) العواقي : طلاب الرزق من الإنس والدواب والطيور ؛ والمراد هنا الوحوش والبهائم .

وقال الإمام ابن فورك : أى كلاً لما يقض الله لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان ، بل أمره بما لم يقض له . ابن الأنبارى : الوقف على « كلاً » قبيح ، والوقف على « أمره » و « أئسره » جيد ؛ ف « كلاً » على هذا بمعنى حقاً .

قوله تعالى : فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفِكْهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَمِكُمْ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ) لما ذكر جل ثناؤه ابتداء خلق الإنسان ذكر ما يسر من رزقه ؛ أى فلينظر كيف خلق الله طعامه . وهذا النظر نظر القلب بالفكر ؛ أى ليتدبر كيف خلق الله طعامه الذى هو قوام حياته ، وكيف هيا له أسباب المعاش ليستعد بها للعاد . وروى عن الحسن ومجاهد قالا : « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ » أى إلى مدخله ومخرجه . وروى ابن أبى خيثمة عن الضحاك بن سفيان الكلابى قال قال لى النبي صلى الله عليه وسلم : « يا ضحاك ما طعامك » قلت : يا رسول الله ! اللحم واللبن ؛ قال : « ثم يصير إلى ماذا » قلت إلى ما قد علمته ؛ قال : « فإن الله ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلاً للدنيا » . وقال أبى بن كعب قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن مطعم ابن آدم جعل مثلاً للدنيا وإن قزحه ومآحه ^(١) فأنظر إلى ما يصير » . وقال أبو الوليد : سألت ابن عمر عن الرجل يدخل الحلاء فينظر ما يخرج منه ؛ قال : يأتيه الملك فيقول أنظر ما بخلت به إلى ما صار .

(١) قزحه : أى تبلة من القزح وهو التابل الذى يطرح فى القدر كالكون والكزبرة ونحو ذلك . والمعنى : إن المطعم وإن تكلف الإنسان التوق فى صنعه وتطيبه فإنه عائد إلى حال بكره ويستقدر فكذلك الدنيا المحروص على عمارتها ونظم أسبابها راجعة إلى خراب وإدبار . « النهاية » .

قوله تعالى : ﴿ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ قراءة العامة « إنا » بالكسر على الاستئناف . وقرأ الكوفيون ورويس عن يعقوب « أنا » بفتح الهمزة و « أنا » في موضع خفض على الترجمة عن الطعام فهو بدل منه ؛ كأنه قال : « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ » إلى « أَنَا صَبَبْنَا » فلا يحسن الوقف على « طَعَامِهِ » من هذه القراءة . وكذلك إن رفعت « أنا » بإضمار هو أنا صببنا ؛ لأنها في حال رفعها مترجمة عن الطعام . وقيل : المعنى لأننا صببنا الماء فأخرجنا به الطعام أي كذلك كان . وقرأ الحسين بن عليّ ^(١) « أنى » ممال بمعنى كيف . فمن أخذ بهذه القراءة قال : الوقف على « طعامه » تام . ويقال : معنى « أنى » أين إلا أن فيها نكايه عن الوجوه ؛ وتأويلها : من أي وجه صببنا الماء ؛ قال الكميث :

أنى ومن أين أبك الطرب ^(٢) * من حيث لا صبوة ولا ريب

« صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا » يعنى الغيث والأمطار . ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴾ أي بالنبات ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴾ أي قمحا وشعيرا وملتأ ^(٣) وسائر ما يحصد ويدخر ﴿ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾ وهو القت والعلف ؛ عن الحسن ؛ سمي بذلك لأنه يقضب أي يقطع بعد ظهوره مرة بعد مرة . قال القتيبي وثعلب : وأهل مكة يسمون القت القضب . وقال ابن عباس : هو الرطب لأنه يقضب من النخل ؛ ولأنه ذكر العنب قبله . وعنه أيضا : أنه الفصفصة وهو القت الرطب . وقال الخليل : القضب الفصفصة الرطبة . وقيل : بالسین فإذا يبست فهو قت . قال : والقضب أسم يقع على ما يقضب من أغصان الشجرة ليتخذ منها سهام أو قسي . ويقال : قضا يعنى جميع ما يقضب مثل القت والكرات وسائر البقول التي تقطع فينبت أصلها . وفي الصحاح : والقضبة والقضب الرطبة وهي الإسفست بالفارسية والموضع الذي ينبت فيه مقضبة . ﴿ وَزَيْتُونًا ﴾ وهي شجرة الزيتون ﴿ وَنَخْلًا ﴾ يعنى النخيل ﴿ وَحَدَائِقَ ﴾ أي

(١) في نسخة : قرأ بعض القراء .

(٢) أبك : أباك . الريب : صروف الدهر .

(٣) السلت (بالضم) : ضرب من الشعير .

بساتين واحدها حديقة . قال الكلبي : وكل شيء أحيط عليه من نخيل أو شجر فهو حديقة ، وما لم يحيط عليه فليس بحديقة . (غُلباً) عظاما شجرها ؛ يقال : شجرة غُلباء ، ويقال للأسد الأغلب ؛ لأنه مصمت العنق لا يلتفت إلا جمعا ؛ قال العجاج :

مَا زِلْتُ يَوْمَ الْبَيْنِ الْوَيْ صُلِّي * وَالرَّأْسُ حَتَّى صِرْتُ مِثْلَ الْأَغْلَبِ

ورجل أغلب بين الغائب إذا كان غليظ الرقبة . والأصل في الوصف بالغلب الرقاب

فأستعير ؛ قال عمرو بن معدى كَرِب :

يَمْشِي بِهَا غُلْبُ الرَّقَابِ كَأَنَّهُمْ * بَزَلُ كِسِينٍ مِنَ الْكُحَيْلِ جَلَالاً^(١)

وحديقة غلباء ملتفة وحدائق غلب . وأغلوب العشب بلغ وألتف البعض البعض . قال ابن عباس : الغلب جمع أغلب وغلباء وهي الغلاظ . وعنه أيضا الطوال . قتادة وابن زيد : النخل الكرام . وعن ابن زيد أيضا وعكرمة : عظام الأوساط والحدوع . مجاهد : ملتفة . (وَفَاكِهَةٌ) أى ما تأكله الناس من ثمار الأشجار كالتين والخوخ وغيرها . (وَأَبًا) هو ما تأكله البهائم من العشب ؛ قال ابن عباس والحسن : الأب كل ما أنبت الأرض مما لا يأكله الناس ، وما يأكله الآدميون هو الحصيد ؛ ومنه قول الشاعر في مدح النبي صلى الله عليه وسلم :

لَهُ دَعْوَةٌ مَمِيونَةٌ رِيحُهَا الصَّبَا * بِهَا يُنْبِتُ اللَّهُ الْحَصِيدَةَ وَالْأَبَا

وقيل : إنما سمي أباً ؛ لأنه يُؤب أي يُؤتم ويُنتجع . والأب والام أخوان ؛ قال :

جِذْمُنَا قَيْسٌ وَتَجْدُ دَارُنَا * وَلَنَا الْأَبُّ بِهِ وَالْمَكْرَعُ^(٢)

وقال الضبحاك : الأب كل شيء ينبت على وجه الأرض . وكذا قال أبو رزين : هو النبات ؛ يدل عليه قول ابن عباس قال : الأب ما تنبت الأرض مما يأكل الناس والأنعام .

(١) الكحيل : نوع من القطران تطل به الإبل للجر ولا يستعمل إلا مصفرا . وجل الدابة : الذي تلبسه لصان

به والجمع جلال وأجلال .

(٢) الجذم (بكسر الجيم) : الأصل . والمكراع : مفعول من الكرع أراد به الماء الصالح للشرب .

وعن ابن عباس أيضا وابن أبي طلحة : الأَبُ الثَّمارُ الرُّطْبَةُ . وقال الضحاك : هو التين خاصة . وهو محكى عن ابن عباس أيضا ؛ قال الشاعر :

فما لهم مرتعٍ للَسَّوَا^(١) * مِ وَالْأَبُ عِنْدَهُمْ يُقَدَّرُ

الكلبي : هو كل نبات سوى الفاكهة . وقيل : الفاكهة رطب الثمار والأب يابسها . وقال إبراهيم التيمي : سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن تفسير الفاكهة والأب فقال : أى - سماء تُظَلِّي وأى - أرض تُقَلِّي إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم . وقال أنس : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ هذه الآية ثم قال : كل هذا قد عرفناه فما الأب ؟ ثم رفع عصا كانت بيده وقال : هذا لعمركم الله التكلف وما عليك يا ابن أُمِّ عمر ألا تدري ما الأب . ثم قال : أتبعوا ما بين لكم من هذا الكتاب وما لا فدعوه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " خُلِقْتُمْ مِنْ سَبْعٍ وَرَزِقْتُمْ مِنْ سَبْعٍ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ عَلَى سَبْعٍ " وإنما أراد بقوله : " خُلِقْتُمْ مِنْ سَبْعٍ " يعنى " مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ " الآية ، والرزق من سبع وهو قوله تعالى : « فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعَنْبًا » إلى قوله : « وَفَاكِهَةً » ثم قال : « وَأَبًّا » وهو يدل على أنه ليس برزق لابن آدم وأنه مما تختص به البهائم . والله أعلم . (متاعاً لكم) نصب على المصدر المؤكد ؛ لأن إنبات هذه الأشياء إمتاع لجميع الحيوانات . وهذا ضرب مثل ضربه الله تعالى لبعث الموتى من قبورهم ؛ كنبات الزرع بعد دثوره كما تقدم بيانه في غير موضع . ويتضمن آمتنانا عليهم بما أنعم به وقد مضى في غير موضع أيضا .

قوله تعالى : فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ

أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَدِيقَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وَجُوهٌ يَوْمِئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ

مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمِئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾

أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ ﴿٤٢﴾

(١) السوام والسائمة : المال الراعى من الإبل والغنم وغيرها .

قوله تعالى : (فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ) لما ذكر أمر المعاش ذكر أمر المعاد ليتروا له بالأعمال الصالحة وبالإنفاق مما آتت به عليهم . والصَّاحَّةُ الصبيحة التي تكون عنها القيامة وهي النفخة الثانية ، تُصْبِخُ الأَسْمَاعَ أَي تُصَبِّمُهَا فلا تسمع إلا ما يدعى به للإحياء . وذكر ناس من المفسرين قالوا : تُصْبِخُهَا الأَسْمَاعُ من قولك أصبأ إلى كذا أي أستمع إليه ؛ ومنه الحديث : "ما من دابة إلا وهي مُصْبِخَةٌ يوم الجمعة شفقا من الساعة إلا الجن والإنس" وقال الشاعر :

يُصْبِخُ لِلنَّبَاةِ أَسْمَاعُهُ * إِصَاخَةَ النَّاشِدِ لِلْمُنْشِدِ

قال بعض العلماء : وهذا يؤخذ على جهة التسليم للقدماء فأما اللغة فمقتضاها القول الأول ؛ قال الخليل : الصَّاحَّةُ صبيحة تُصْبِخُ الأَذَانَ صَخًّا أَي تُصَبِّمُهَا بشدة وقعها . وأصل الكلمة في اللغة الصك الشديد . وقيل : هي مأخوذة من صخه بالجر إذا صكك ؛ قال الرازي :

يَا جَارَتِي هَلْ لَكَ أَنْ تُجَالِدِي * جِلَادَةً كَالصَّكِّ بِالْحَلَامِدِ

ومن هذا الباب قول العرب : صختهم الصاخه وباتتهم الباتة وهي الداهية . الطبرى : وأحسبه من صخ فلان فلانا إذا أصمه . قال ابن العربي : الصاخة التي تورث الصمم ، وإنها لمُسْمِعة وهذا من بديع الفصاحة ، حتى لقد قال بعض حديثي الأسنان حديثي الأزمان :

* أَصَمَّ بِكَ النَّاعِي وَإِنْ كَانَ أَسْمَعًا *

وقال آخر :

أَصَمَّنِي سِرُّهُمْ أَيَّامَ فُرْقَتِهِمْ * فَهَلْ سَمِعْتُمْ بَيْرُ يُوْرِثُ الصَّمَا

ولعمرك الله إن صبيحة القيامة لمُسْمِعة تُصَمُّ عن الدنيا وتُسمِعُ أمور الآخرة .

قوله تعالى : (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ) أي يهرب أي تجيء الصاخة في هذا اليوم الذي يهرب فيه من أخيه ؛ أي من موالاة أخيه ومكالمته ؛ لأنه لا يتفرغ لذلك لاشتغاله بنفسه ، كما قال بعده : (لِكُلِّ أَمْرِيٍّ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) أي يشغله عن غيره . وقيل : إنما يفر حذرا من مطالبتهم إياه لما بينهم من التبعات . وقيل : لتلا يروا ما هو

فيه من الشدة . وقيل : لعلمه أنهم لا ينفعونه ولا يغنون عنه شيئاً ، كما قال : « يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً » . وقال عبد الله بن طاهر الأبهري : يفر منهم لما تبين له من عجزهم وقلة حيلهم إلى من يملك كشف تلك الكروب والهموم عنه ، ولو ظهر له ذلك في الدنيا لما اعتمد شيئاً سوى ربه تعالى . (وَصَاحِبَتِهِ) أي زوجته . (وَبَنِيهِ) أي أولاده .

وذكر الضحاك عن ابن عباس قال : يفر قابيل من أخيه هابيل ، ويفتر النبي صلى الله عليه وسلم من أمه ، وإبراهيم عليه السلام من أبيه ، ونوح عليه السلام من ابنه ، ولوط من أمراته ، وآدم من سواة بنيه . وقال الحسن : أول من يفر يوم القيامة من أبيه إبراهيم ، وأول من يفر من ابنه نوح ، وأول من يفر من أمراته لوط . قال : فيرون أن هذه الآية نزلت فيهم وهذا فرار التبرؤ . (لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " يُحْشِرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرُلًا " قلت : يا رسول الله ! الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : " يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض " . أخرجه الترمذي عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يُحْشِرُونَ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرُلًا " فقالت امرأة : أينظر بعضنا - أو بعضنا يرى - عورة بعض ؟ قال : " يا فلانة " " لكل أمرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ " قال : حديث حسن صحيح . وقراءة العامة بالغين المعجمة ؛ أي حال يشغله عن الأقرباء . وقرأ ابن محيصن وحميد « يَغْنِيهِ » بفتح الياء وعين غير معجمة ؛ أي يعنيه أمره . وقال القتيبي : يعنيه يصرفه ويصدّه عن قرابته ؛ ومنه يقال : أعن عني وجهك أي آصرفه وأعن عن السفيه ؛ قال خفاف :

سَيَعْنِيكَ حَرْبُ بَنِي مَالِكٍ * عَنْ الْفُجْحِ وَالْجُهْلِ فِي الْمَحْفَلِ

قوله تعالى : (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ) أي مشرقة مضيئة قد علمت المهام من الفوز والنعيم ، وهي وجوه المؤمنين . (ضَاحِكَةٌ) أي مسرورة فرحة . (مُسْتَبْشِرَةٌ) أي بما

أناها الله من الكرامة . وقال عطاء الخراساني : « مُسْفِرَةٌ » من طول ما أغبرت في سبيل الله جل ثناؤه . ذكره أبو نعيم . الضحاك : من آثار الوضوء . ابن عباس : من قيام الليل ؛ لما روى في الحديث : « من كثرت صلواته بالليل حسن وجهه بالنهار » يقال : أسفر الصبح إذا أضاء . (وَوَجْوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ) أي غبار ودخان (تَرَهَّقَهَا) أي تغشاها (قَتْرَةٌ) أي كسوف وسواد . كذا قال ابن عباس . وعنه أيضا : ذَلَّةٌ وَشِدَّةٌ . والقتر في كلام العرب الغبار جمع القتر عن أبي عبيد ؛ وأنشد الفرزدق :

مَتَّوَجٌ بِرِدَاءِ الْمُلْكِ يَتَّبِعُهُ * مَوْجٌ تَرَى فَوْقَهُ الرِّيَابِ وَالْقَتْرَا

وفي الخبر : إن البهائم إذا صارت ترابا يوم القيامة حول ذلك التراب في وجوه الكفار . وقال زيد بن أسلم : القتر ما ارتفعت إلى السماء ، والغبرة ما انحطت إلى الأرض ، والغبار والغبرة واحد . (أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ) جمع كافر (الْفٰجِرُونَ) جمع فاجر وهو الكاذب المفتري على الله تعالى . وقيل : الفاسق ؛ [يقال] : فجر فجورا أي فسق وفجر أي كذب ، وأصله الميل والفاجر المائل . وقد مضى بيانه والكلام فيه والحمد لله وحده .

سورة التكوير

مكية في قول الجميع وهي تسع وعشرون آية

وفي الترمذي : عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سره أن ينظر إلى يوم القيامة [كأنه رأى عين]^(١) فليقرأ إذا الشمس كورت وإذا السماء انفطرت وإذا السماء

آنسقت » قال : هذا حديث حسن [غريب] .

(١) الزيادة من صحيح الترمذي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٢﴾
 وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ
 حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾
 وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ
 نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾
 وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْضِرَتْ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ قال ابن عباس : تكويرها إدخالها في العرش .
 الحسن : ذهاب ضوئها . وقاله قتادة ومجاهد ، وروى عن ابن عباس أيضا . سعيد بن
 جبير : غَوَّرَتْ . أبو عبيدة : كُوِّرَتْ مثل تكوير العمامة تُلْفُ فُتْمَحَى . وقال الربيع بن خيثم :
 « كُوِّرَتْ » رُمِيَ بها ، ومنه كَوَّرْتُهُ فَتَكْوَرُ أَي سَقَطَ .

قلت : وأصل التكوير الجمع مأخوذ من كار العمامة على رأسه يَكْوَرُهَا أَي لَآئَهَا وَجَمَعَهَا
 فَهِيَ تُكْوَرُ وَيُمْحَى ضَوْءُهَا ثُمَّ يُرْمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ . والله أعلم . وعن أبي صالح : كُوِّرَتْ نَكَسَتْ .
 ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ أي تهافتت وتناثرت . وقال أبو عبيدة : أنصبت كما ينصب
 الْعُقَابُ إِذَا انْكَسَرَتْ . قال العجاج يصف صقرا :
 أَبْصَرَ خِرْبَانَ فَضَاءٍ فَاانْكَدَرَ * تَقْضَى الْبَازِي إِذَا الْبَازِي كَسَرَ

(١) هكذا البيت في نسخ الأصل التي بأيدينا والذي في ديوان العجاج رواية الأصبعي نسخة الشنقيطي : قال بمدح
 عمرو بن عبيد الله بن معمر : قد جبر الدين الاله بغير . إلى أن قال :

داني جناحيه من الطور فر * تقضى البازي إذا البازي كسر

أبصر خربان فضاء فانكدر * شاكي الكلاب إذا أهوى أظفر

الطور الجبل وعنى هنا الشام ، يقول : أنقض ابن معمر انقضاة من الشام أنقضاض البازي ضم جناحيه . وخربان
 جمع خرب وهو ذكر الحباري ، والكلاب الخالب ، وأظفر أصله أظفر فأبدلت التاء طاء . فأدغمت في الغاء .

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يبقى في السماء يومئذ نجم إلا سقط في الأرض حتى يفزع أهل الأرض السابعة مما لقيت وأصاب العليا " يعني الأرض . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : تساقطت ؛ وذلك أنها قناديل معلقة بين السماء والأرض بسلاسل من نور ، وتلك السلاسل بأيدي ملائكة من نور ، فإذا جاءت النفخة الأولى مات من في الأرض ومن في السموات فتناثرت تلك الكواكب وتساقطت السلاسل من أيدي الملائكة ؛ لأنه مات من كان يمسكها . ويحتمل أن يكون أنكدارها طمس آثارها . وسميت النجوم نجوما لظهورها في السماء بضوئها . وعن ابن عباس أيضا : أنكدرت تغيرت فلم يبق لها ضوء لزوالها عن أماكنها . والمعنى متقارب . ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ يعني قلعت من الأرض وسيرت في الهواء ؛ وهو مثل قوله تعالى : « وَيَوْمَ نَسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً » . وقيل : سيرها تحوّلها عن منزلة الحجارة فتكون كشيئا مهيبا أى رملا سائلا ، وتكون كالعهن ، وتكون هباء منثورا ، وتكون سرايا مثل السراب الذى ليس بشيء . وعادت الأرض قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمنا . وقد تقدم في غير موضع والحمد لله . ﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ أى النوق الحوامل التى فى بطونها أولادها ؛ الواحدة عشراء أو التى أتى عليها فى الحمل عشرة أشهر ، ثم لا يزال ذلك أسمها حتى تضع وبعد ما تضع أيضا . ومن عادة العرب أن يسموا الشيء باسمه المتقدم وإن كان قد جاوز ذلك ؛ يقول الرجل لفرسه وقد قرح : هاتوا مهرى وقربوا مهرى يسميه بمتقدم اسمه ؛ قال عنتره :

لَا تَدْكُرِي مُهْرِي وَمَا أَطْعَمْتُهُ * فَيَكُونُ جَائِدِكِ مِثْلَ جِلْدِ الْأَجْرَبِ

وقال أيضا :

* وَحَمَلْتُ مُهْرِي وَسَطَّهَا فَمَضَاهَا ^(١) *

وإنما خص العشار بالذكور ؛ لأنها أعز ما تكون على العرب وليس يطلها أهلها إلا حال القيامة . وهذا على وجه المثل ؛ لأن فى القيامة لا تكون ناقة عشراء ، ولكن أراد به المثل ؛ أن هول

(١) صدره : * وضربت قرنى كبشها فنجدا *

يوم القيامة بحال لو كان للرجل ناقة عشراء لعطلها وأشتغل بنفسه . وقيل : إنهم إذا قاموا من قبورهم ، وشاهد بعضهم بعضا ، ورأوا الوحوش والدواب محشورة وفيها عشارهم التي كانت أنفس أموالهم لم يعبثوا بها ولم يهتمهم أمرها . وخوطبت العرب بأمر العشار ؛ لأن ما لها وعيشها أكثره من الإبل . وروى الضحاك عن ابن عباس : عَطَّلَتْ عَطَلَهَا أَهْلِهَا لِأَشْتَغَالِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ . وقال الأعشى :

هُوَ الْوَاهِبُ الْمَائَةِ الْمُصْطَفَا * ةَ إِمَّا مَخَاضًا وَإِمَّا عِشَارَا

وقال آخر :

تَرَى الْمَرْءَ مَهْجُورًا إِذَا قَلَّ مَالُهُ * وَبَيْتُ الْغَنِيِّ يُهْدَى لَهُ وَيُزَارُ
وَمَا يَنْفَعُ الزُّوَارَ مَالٌ مَزُورِيهِمْ * إِذَا سَرَّحَتْ سُؤْلُهُ^(١) لَهُ وَعِشَارُ

يقال : ناقة عشراء وناقتان عشراوان ونوق عشار وعشراوات يبدلون من همزة التانيث واوا . وقد عثرت الناقة تعشيرا أى صارت عشراء . وقيل : العشار السحاب يعطل مما يكون فيه وهو الماء فلا يمطر ؛ والعرب تشبه السحاب بالحامل . وقيل : الديار تعطل فلا تسكن . وقيل : الأرض التي يعثر زرعها تعطل فلا تزرع . والأقول أشهر وعليه من الناس الأكثر . (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ) أى جمعت والحشر الجمع . عن الحسن وقتادة وغيرهما . وقال ابن عباس : حشرها موتها . رواه عنه عكرمة . وحشر كل شيء الموت غير الجن والإنس فإنهما يوافقان يوم القيامة . وعن ابن عباس أيضا قال : يحشر كل شيء حتى الذباب . قال ابن عباس : تحشر الوحوش غدا ؛ أى تجمع حتى يقتص لبعضها من بعض فيقتص للجماء من القرناء ثم يقال لها كوني ترابا فتموت . وهذا أصح مما رواه عنه عكرمة ، وقد بيناه في كتاب « التذكرة » مستوفى ، ومضى في سورة « الأنعام^(٢) » بعضه . أى إن الوحوش إذا كانت هذه حالها فكيف بنى آدم . وقيل : عنى بهذا أنها مع نفرتها اليوم من الناس وتنددها

(١) في نسخة : بزل . (٢) راجع ج ٦ ص ٤٢١

في الصحارى ، تنضم غدا إلى الناس من أهوال ذلك اليوم . قال معناه أبي بن كعب .
 ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ أى ملئت من الماء ؛ والعرب تقول : سَجَّرْتُ الحوضَ أسَجَّرَهُ
 سَجَّرًا إذا ملأته وهو مسجور ، والمسجور والساجر في اللغة الملائن . وروى الربيع بن خيثم :
 سَجَّرَتْ فاضت وملئت . وقاله الكلبى ومقاتل والحسن والضحاك . قال ابن أبي زنين :
 سَجَّرَتْ حقيقته ملئت فيفيض بعضها إلى بعض فتصير شيئاً واحداً . وهو معنى قول الحسن .
 وقيل : أرسل عذبتها على مالحتها ومالحها على عذبتها حتى آمتلأت . عن الضحاك ومجاهد :
 أى فجرت فصارت بحرا واحداً . القشيري : وذلك بأن يرفع الله الحجاز الذى ذكره في قوله
 تعالى : « بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ » فإذا رفع ذلك البرزخ تفجرت مياه البحار فعمت
 الأرض كلها ، وصارت البحار بحرا واحداً . وقيل : صارت بحرا واحداً من الحميم لأهل
 النار . وعن الحسن أيضا وقتادة وابن حيان : تيبس فلا يبقى من ماءها قطرة . القشيري :
 وهو من سَجَّرَتِ التَّنُورَ أسَجَّرَهُ سَجَّرًا إذا أحميته ، وإذا سُلِّطَ عليه الإيقاد نشف ما فيه من
 الرطوبة ، وتُسَيِّرُ الجبال حينئذ ، وتصير البحار والأرض كلها بساطا واحداً ؛ بأن يملأ مكان
 البحار بتراب الجبال . وقال النحاس : وقد تكون الأقوال متفقة ؛ يكون تيبس من الماء
 بعد أن يفيض بعضها إلى بعض فتقلب نارا .

قلت : ثم تسير الجبال حينئذ كما ذكر القشيري والله أعلم . وقال ابن زيد وشمر وعطية
 وسفيان ووهب وأبي وعلى بن أبي طالب وابن عباس في رواية الضحاك عنه : أوقدت
 فصارت نارا . قال ابن عباس : يكور الله الشمس والقمر والنجوم في البحر ، ثم يبعث
 الله عليها ريحا دُبُورا فتنفخه حتى يصير نارا . وكذا في بعض الحديث : ” يأمر الله جل ثناؤه
 الشمس والقمر والنجوم فينتثرن في البحر ثم يبعث الله جل ثناؤه الدُّبُورَ فيسجرها نارا فتلك
 نار الله الكبرى التى يُعَذَّبُ بها الكفار “ . قال القشيري : قيل في تفسير قول ابن عباس
 « سُجِّرَتْ » أوقدت يحتمل أن تكون جهنم في قعور من البحار ، فهى الآن غير مسجورة
 لقوام الدنيا ، فإذا آنقضت الدنيا سَجَّرَتْ فصارت كلها نارا يدخلها الله أهلها . ويحتمل أن
 تكون تحت البحر نارا ، ثم يوقد الله البحر كله فيصير نارا . وفى الخبر : البحر نار فى نار .

وقال معاوية بن سعيد : بحر الروم وسط الأرض أسفله آبار مطبقة بنحاس يسجر ناراً يوم القيامة . وقيل : تكون الشمس في البحر، فيكون البحر ناراً بحر الشمس . ثم جميع ما في هذه الآيات يجوز أن يكون في الدنيا قبل القيامة ويكون من أشراتها، ويجوز أن يكون يوم القيامة، وما بعد هذه الآيات فيكون في يوم القيامة .

قلت : روى عن عبد الله بن عمرو : لا يتوضأ بماء البحر لأنه طبق جهنم . وقال أبي بن كعب : ست آيات من قبل يوم القيامة ؛ بينما الناس في أسواقهم ذهب ضوء الشمس وبدأت النجوم فتحيروا ودهشوا ، فبينما هم كذلك ينظرون إذ تناثرت النجوم وتساقطت ، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحزكت وأضطربت وأحترقت فصارت هباء منثوراً ، ففزعت الإنس إلى الجن والجن إلى الإنس ، وأختلطت الدواب والوحوش والهوام والطيور، وماج بعضها في بعض ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ ثم قالت الجن للإنس : نحن نأتيكم بالخبر، فأنطلقوا إلى البحار فإذا هي نار تأجج ، فبينما هم كذلك تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى ، وإلى السماء السابعة العليا فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح فأماتهم . وقيل : معنى « سُجِّرَتْ » هو حمرة . أي حتى تصير كالدم ؛ مأخوذ من قولهم : عين سجراء أي حمراء . وقرأ ابن كثير « سُجِّرَتْ » وأبو عمرو أيضاً إخباراً عن حالها مرة واحدة . وقرأ الباقر بالتشديد إخباراً عن حالها في تكرير ذلك منها مرة بعد أخرى .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ قال النعمان بن بشير : قال النبي صلى الله عليه وسلم « وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ » قال : « يُقْرَنُ كُلُّ رَجُلٍ مَعَ كُلِّ قَوْمٍ كَانُوا يَعْمَلُونَ كَعْمَلِهِ » . وقال عمر بن الخطاب : يقرن الفاجر مع الفاجر، ويقرن الصالح مع الصالح . وقال ابن عباس : ذلك حين يكون الناس أزواجا ثلاثة ، السابقون زوج — يعني صنفاً — وأصحاب اليمين زوج، وأصحاب الشمال زوج . وعنه أيضاً قال : زوجت نفوس المؤمنين بالحوار العين، وقرن الكافر بالشياطين وكذلك المنافقون . وعنه أيضاً : قرن كل شكل بشكله من أهل الجنة وأهل النار،

فيضم المبرز في الطاعة إلى مثله ، والمتوسط إلى مثله ، وأهل المعصية إلى مثله ؛ فالترويج أن يقرن الشيء بمثله ؛ والمعنى : وإذا النفوس قرنت إلى أشكالها في الجنة والنار . وقيل : يضم كل رجل إلى من كان يلزمه من ملك وسلطان ، كما قال تعالى : « أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ » . وقال عبد الرحمن بن زيد : جعلوا أزواجا على أشباه أعمالهم ليس بترويج ، أصحاب اليمين زوج ، وأصحاب الشمال زوج ، والسابقون زوج ؛ وقد قال جل ثناؤه : « أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ » أي أشكلهم . وقال عكرمة : « وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ » قرنت الأرواح بالأجساد ؛ أي ردت إليها . وقال الحسن : ألحق كل أمرئ بشيعته ؛ اليهود باليهود ، والنصارى بالنصارى ، والمجوس بالمجوس ، وكل من كان يعبد شيئا من دون الله يلحق بعضهم ببعض ، والمنافقون بالمنافقين والمؤمنون بالمؤمنين . وقيل : يقرن الغاوى بمن أغواه من شيطان أو إنسان على جهة البغض والعداوة ، ويقرن المطيع بمن دعاه إلى الطاعة من الأنبياء والمؤمنين . وقيل : قرنت النفوس بأعمالها فصارت لأختصاصها به كالترويج .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ . بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ الموءودة المقتولة ؛ وهي الحارية تدفن وهي حية ، سميت بذلك لما يطرح عليها من التراب فيؤودها أي يثقلها حتى تموت ؛ ومنه قوله تعالى : « وَلَا يُؤُودُهُ حِفْظُهُمَا » أي لا يثقله ؛ وقال متم بن نويرة :

موءودة مقبورة في مفازة * بآمتها موءودة لم تمهد^(١)

وكانوا يدفنون بناتهم أحياء لخصلتين ؛ إحداهما كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله فالحقوا البنات به . الثانية إما مخافة الحاجة والإملاق ، وإما خوفا من السبي والأسترقاق . وقد مضى

(١) كذا روى البيت ونسب إلى متم بن نويرة في الأصول ، ونسبه اللسان وشرح القاموس مادة (عوز) إلى

حسان رضى الله عنه وروى فيهما :

وموءودة مقبورة في معاوز * بآمتها مرموسة لم توسد

والآمة : ما يعلق بسرة المولود إذا سقط من بطن أمه . والمعاوز : خرق ياف بها الصبي .

في سورة «النحل» هذا المعنى عند قوله تعالى : « أَمْ يَدُسُّ فِي التُّرَابِ » مستوفى . وقد كان ذوو الشرف منهم يمتنعون من هذا ، ويمنعون منه حتى آفتخر به أفرزدق ، فقال :

وَمِنَّا الَّذِي مَنَعَ الْوَأَيْدِيَّ * فَأَحْيَا الْوَيْدَ فَلَمْ يُوَادَّ

يعنى جده صَعَصَعَةً كان يشترين من آبائهن ، بخفاء الإسلام وقد أحيا سبعين موءودة . وقال ابن عباس : كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت حفرت حفرة وتخصت على رأسها ، فإن ولدت جارية رمت بها في الحفرة وردت التراب عليها ، وإن ولدت غلاما حبسته ، ومنه قول الراجز :

سَمَّيْتُهَا إِذْ وُلِدَتْ تَمُوتُ * وَالْقَبْرُ صَهْرٌ ضَامِنٌ زَمِيَّتُ

الزَّمِيَّتُ الْوَقُورُ ، وَالزَّمِيَّتُ مِثَالُ الْفِسِيْقِ أَوْ قَرَمِنَ الزَّمِيَّتِ ، وَفَلَانٌ أَزَمَتِ النَّاسَ أَيْ أَوْقَرَهُمْ ، وَمَا أَشَدَّ تَزَمَّتُهُ ، عَنِ الْفِرَاءِ . وَقَالَ قَتَادَةُ : كَانَتِ الْجَاهِلِيَّةُ يَقْتُلُ أَحَدَهُمْ أَبْنَتَهُ وَيَغْذُو كَلْبَهُ ، فَعَاتَبَهُمُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ وَتَوَعَّدَهُمْ بِقَوْلِهِ : « وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ » قَالَ عُمَرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى « وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ » قَالَ : جَاءَ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! إِنِّي وَأَدْتُ ثَمَانَ بَنَاتٍ كُنَّ لِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، قَالَ : « فَأَعْتَقْ عَنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ رَقَبَةً » قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي صَاحِبُ إِبِلٍ ، قَالَ : « فَأَهْدِ عَنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ بَدَنَةً إِنْ شِئْتَ » . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « سُئِلَتْ » سَوَالُ الْمَوْءُودَةِ سَوَالُ تَوْبِيخٍ لِقَاتِلِهَا ، كَمَا يُقَالُ لِلطِّفْلِ إِذَا ضُرِبَ لَمْ ضُرِبَتْ وَمَا ذَنْبُكَ ؟ قَالَ الْحَسَنُ : أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُوْبَخَ قَاتِلِهَا ؛ لِأَنَّهَا قُتِلَتْ بِغَيْرِ ذَنْبٍ . وَقَالَ ابْنُ أَسْلَمٍ : بَأَى ذَنْبٍ ضُرِبَتْ وَكَانُوا يَضْرِبُونَهَا . وَذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى « سُئِلَتْ » قَالَ : طَابَتْ ؛ كَأَنَّهُ يَرِيدُ كَمَا يُطَلَّبُ بَدَمُ الْقَتِيلِ . قَالَ : وَهُوَ كَقَوْلِهِ : « وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا » أَيْ مَطْلُوبًا . فَكَأَنَّهَا طُلِبَتْ مِنْهُمْ ، فَقِيلَ أَيْنَ أَوْلَادِكُمْ ؟ ! وَقَرَأَ الضَّحَّاكُ وَأَبُو الضَّحَّاكِ عَنِ جَابِرِ بْنِ زَيْدٍ وَأَبِي صَالِحٍ « وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سَأَلَتْ » فَتَتَلَقَّ الْجَارِيَةَ بِأَيْهَا فَتَقُولُ : بَأَى ذَنْبٍ

(١) رجع ج ١٠ ص ١١٧

(٢) ويرى : وجدى الذى منع الرائدات ... الخ .

قتلتي؟ ! فلا يكون له عذر، قاله ابن عباس وكان يقرأ « وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سَأَلَتْ » وكذلك هو في مصحف أبي . وروى عكرمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن المرأة التي تقتل ولدها تأتي يوم القيامة متعلقا ولدها بشديها ملطخا بدمائه فيقول يا رب هذه أمي وهذه قتلتي » والقول الأول عليه الجمهور ، وهو مثل قوله تعالى لعيسى : « أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ » على جهة التوبيخ والتبكيك لهم ، فكذلك سؤال الموءودة توبيخ لوائدها ، وهو أبلغ من سؤاها عن قتلها ، لأن هذا مما لا يصح إلا بذنب ، فبأي ذنب كان ذلك ، فإذا ظهر أنه لا ذنب لها كان أعظم في البلية وظهور المحجة على قاتلها . والله أعلم . وقرئ « قُلْتَ » بالتشديد وفيه دليل بين على أن أطفال المشركين لا يُعذَّبون ، وعلى أن التعذيب لا يُستحق إلا بذنب .

قوله تعالى : (وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ) أى فتحت بعد أن كانت مطوية ، والمراد صحف الأعمال التي كتبت الملائكة فيها ما فعل أهلها من خير وشر ، تطوى بالموت وتنشر في القيامة ، فيقف كل إنسان على صحيفته فيعلم ما فيها فيقول : « مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا » . وروى مرثد بن وداعة قال : إذا كان يوم القيامة تطايرت الصحف من تحت العرش ، فتقع صحيفة المؤمن في يده « فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ » إلى قوله : « الْيَوْمَ الْخَالِيَةِ » وتقع صحيفة الكافر في يده « فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ » إلى قوله : « وَلَا كَرِيمٍ » . وروى عن أم سلمة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاءً عُرَاءً » فقلت : يا رسول الله ! فكيف بالنساء؟ قال : « شُغِلَ النَّاسُ يَا أُمَّ سَلَمَةَ » قلت : وما شغلهم؟ قال : « نُشِرَ الصُّحُفُ فِيهَا مِثَاقِيلُ الذَّرِّ وَمِثَاقِيلُ الْحَرْدَلِ » . وقد مضى في سورة « سَبْحَانَ » قول أبي السوار العدوى : هما نشرتان وطية ، أما ما حيتت يابن آدم فصحيفتك المنشورة فأمل فيها ما شئت ، فإذا ميت طويت ، حتى إذا بعثت نشرت « أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا » . وقال مقاتل : إذا مات المرء طويت صحيفته عمله فإذا كان يوم القيامة نشرت . وعن عمر رضى الله عنه أنه كان إذا قرأها قال : إليك يساق

(۱) راجع ج ۱۰ ص ۲۳۰

الأمر يا بن آدم . وقرأ نافع وأبن عامر وعاصم وأبو عمرو « نُشِرَتْ » مخففة على نشرها مرة واحدة لقيام الحجة . الباقون بالتشديد على تكرار النشر للبالغة في تقريع العاصي وتبشير المطيع .
وقيل : لتكرار ذلك من الإنسان والملائكة الشهداء عليه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾ الكشط قلع عن شدة التزاق ؛ فالسماء تُكشَط كما يُكشَط الجلد عن الكبش وغيره ، والقشط لغة فيه . وفي قراءة عبد الله « وَإِذَا السَّمَاءُ قُشِطَتْ » وكشطت البعير كشطاً نزع جلده ، ولا يقال سلخته ؛ لأن العرب لا تقول في البعير إلا كشطته أو جلده وأنكشط أى ذهب ؛ فالسماء تنزع من مكانها كما ينزع الغطاء عن الشيء .
وقيل تطوى كما قال تعالى : « يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكِتَابِ » فكان المعنى قلعت فطويت . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾ أى أوقدت فأضرمت للكفار وزيد في إحماها .
يقال : سعرت النار وأسعرتها . وقراءة العامة بالتخفيف من السعير . وقرأ نافع وأبن ذكوان ورويس بالتشديد ؛ لأنها أوقدت مرة بعد مرة . قال قتادة : سعرها غضبُ الله وخطايا بني آدم . وفي الترمذى عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "أوقد على النار ألف سنة حتى أحمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى أبيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى أسودت فهي سوداء مظلمة" وروى موقوفاً .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنزِلَتْ ﴾ أى أدنيت وقربت من المتقين . قال الحسن :
لأنهم يقربون منها ؛ لا أنها تزول عن موضعها . وكان عبد الرحمن بن زيد يقول : زينت^(١)
والزلفى في كلام العرب القربة ؛ قال الله تعالى : « وَأُنزِلَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ » وتزلف
فلان تقرب .

قوله تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ يعنى ما عملت من خير وشر . وهذا جواب
« إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ » وما بعدها . قال عمر رضى الله عنه : لهذا أجرى الحديث . وروى

(١) فى نسخة : أدنيت .

عن ابن عباس وعمر رضى الله عنهما أنهما قرأها فلما بلغا « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ » قالا لهذا أجريت القصة ؛ فالمعنى على هذا إذا الشمس كورت وكانت هذه الأشياء علمت نفس ما أحضرت من عملها . وفي الصحيحين عن عدى بن حاتم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله ما بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدمه [وينظر أشام منه فلا يرى إلا ما قدم^(۱)] بين يديه فتستقبله النار فمن استطاع منكم أن يتقى النار ولو بشق تمرة فليفعل » وقال الحسن : « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ » قسم وقع على قوله : « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ » كما يقال : إذا نفر زيد نفر عمرو . والقول الأول أصح . وقال أن زيد عن ابن عباس في قوله تعالى : « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ » إلى قوله : « وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ » اثنتا عشرة خصلة ؛ ستة في الدنيا وستة في الآخرة ؛ وقد بينا الستة الأولى بقول أبي بن كعب .

قوله تعالى : فَلَا أُقْسِمُ بِالْحُنُوسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : (فَلَا أُقْسِمُ) أى أقسم و « لا » زائدة كما تقدم . (بِالْحُنُوسِ الْجَوَارِي الْكُنَّسِ) هى الكواكب الخمسة الدرارى : زحل والمشتري وعطارد والمريخ والزهرة ، فيما ذكر أهل التفسير . والله أعلم . وهو مروى عن علي كرم الله وجهه . وفي تخصيصها بالذكر من بين سائر النجوم وجهان : أحدهما — لأنها تستقبل الشمس ؛ قاله بكر بن عبد الله المزني . الثانى — لأنها تقطع المجرة ؛ قاله ابن عباس . وقال الحسن وقتادة : هى النجوم التى تحنس

(۱) الزيادة من صحيح مسلم .

بالنهار وإذا غربت ، وقاله علي رضي الله عنه قال : هي النجوم تَحْنِسُ بالنهار وتظهر بالليل ؛ وتكْنِسُ في وقت غروبها ؛ أي تتأخر عن البصر لحفاؤها فلا تُرى . وفي الصحاح : و « الخُنْسُ » الكواكب كلها . لأنها تَحْنِسُ في المغيب ، أو لأنها تخفي نهارا . ويقال : هي الكواكب السيارة منها دون الثابتة . وقال الفراء في قوله تعالى : « فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ . الْجَوَارِي الْكُنُوسِ » إنها النجوم الخمسة ؛ زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد ؛ لأنها تَحْنِسُ في مجراها ، وتكْنِسُ أي تستر كما تكْنِسُ الظباء في المغار وهو الكناس . ويقال : سميت خُنْسًا لتأخرها لأنها الكواكب المتحيرة التي ترجع وتستقيم ؛ يقال : خَنَسَ عنه يَخْنُسُ بالضم خنوسا تأخر ، وأخنسه غيره إذا خَلَفَهُ ومضى عنه . والخُنْسُ تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة ، والرجل أخنس والمرأة خنساء والبقر كلها خُنْسٌ . وقد روى عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى : « فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ » هي بقر الوحش . روى هشيم عن زكريا عن أبي إسحاق عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل ، قال قال لي عبد الله بن مسعود : إنكم قوم عرب فما الخُنْسُ ؟ قلت : هي بقر الوحش ؛ قال : وأنا أرى ذلك . وقاله إبراهيم وجابر بن عبد الله . وروى عن ابن عباس : إنما أقسم الله ببقر الوحش . وروى عنه عكرمة قال : « الخُنْسُ » البقر و « الكُنْسُ » هي الظباء ، فهي خُنْسٌ إذا رآين الإنسان خَنَسَنَ وَأَنْقَبَضْنَ وتأخرن ودخان كاسهت . القشيري : وقيل على هذا « الخُنْسُ » من الخُنْسِ في الأنف وهو تأخير الأرنبة وقصر القصبة ، وأنوف البقر والظباء خُنْسٌ . والأصح الحمل على النجوم لذكر الليل والصبح بعد هذا ، فذكر النجوم أليق بذلك .

قلت : لله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته من حيوان وجماد ، وإن لم يُعَلِّمْ وجه الحكمة في ذلك . وقد جاء عن ابن مسعود وجابر بن عبد الله وهما صحابييان والنخعي أنها بقر الوحش . وعن ابن عباس وسعيد بن جبير أنها الظباء . وعن الحجاج بن منذر قال : سألت جابر بن زيد عن الجوارى الكُنْسُ ، فقال : الظباء والبقر ، فلا يبعد أن يكون المراد

النجوم . وقد قيل : إنها الملائكة ؛ حكاه الماوردي . والكنس الغيب ؛ مأخوذة من الكاس وهو كاس الوحش الذي يختفى فيه . قال أوس بن حجر :

ألم تر أن الله أنزل مُرْنَةً * وعَفْرُ الظَّبَاءِ فِي الْكَنَاسِ تَمَعُّ (۱)

وقال طرفة :

كَأَنَّ كَنَاسِي ضَالَّةٍ يَكْتَفَانَهَا * وَأَطْرَقِي تَحْتَ صُلْبٍ مُؤَيِّدٍ (۲)

وقيل : الكنوس أن تاوى إلى مكانها ، وهي المواضع التي تاوى إليها الوحوش والظباء . قال الأعشى :

فَلَمَّا أَتَيْنَا الْحَىَّ أَتَلَعْنَا * كَمَا أَتَلَعْتَ تَحْتَ الْمَكَائِسِ رَبَّابُ

يقال : تلع النهار آرتفع وأتلت الظبية من كناسها أى سمت بجيدها . وقال امرؤ القيس :

تَعَشَّى قَلِيلًا ثُمَّ انْحَى ظُلُوفَهُ * يُبِيرُ التُّرَابَ عَنِ مَبِيتٍ وَمَكْنِسِ (۳)

والكنس جمع كانس وكانسة ، وكذا الخنس جمع خانس وخانسة . والجوارى جمع جارية من جرى يجرى . (وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ) قال الفراء : أجمع المفسرون على أن معنى عسس أدبر ؛ حكاه الجوهري . وقال بعض أصحابنا : إنه دنا من أوله وأظلم وكذلك السحاب إذا دنا من الأرض . المهدوي : « وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ » أدبر بظلامه ؛ عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وروى عنهما أيضا وعن الحسن وغيره : أقبل بظلامه . زيد بن أسلم : « عَسَسَ » ذهب . الفراء : العرب تقول عسس وسعسع إذا لم يبق منه إلا اليسير . الخليل وغيره : عسس الليل إذا أقبل أو أدبر . المبرد : هو من الأضداد والمعنيان يرجعان إلى شىء واحد وهو ابتداء الظلام في أوله وإدباره في آخره ؛ وقال علقمة بن قُرط :

حَتَّى إِذَا الصُّبْحُ لَهَا تَنَفَّسًا * وَأَنْجَابَ عَنْهَا لَيْلُهَا وَعَسَسًا

(۱) تمعع : تحرك رهوسها من القمعة ؛ وهي ذباب أزرق يدخل في أنوف الدواب أو يقع عليها فيلسعها .
(۲) قال : « كناسى » لأن الحيوان يستكن بالفدأة في ظلها وبالعتشى في فيها . والضال : السدر البرى الواحدة ضالة . والأطر : العطف . والمؤيد : المقوى . يقول الشاعر : كأن كناسى ضالة يكتفان هذه الناقة لسعة ما بين مرفقها وزورها .
(۳) تعشى : دخل في العشاء وهو أول الليل . ظلوفه : حوافره .

وقال رؤبة :

يا هِنْدُ ما أَسْرَع ما تَسْعَسَعَا * من بَعْدِ ما كان قَتَى سَرَعْرَعَا^(١)

وهذه حجة الفراء . وقال امرؤ القيس :

عَسَسَ حتى لو نَشَأُ أَدْنَا * كان لنا مِن نارِهِ مَقْبَسُ

فهذا يدل على الدنو . وقال الحسن ومجاهد : عسس أظلم ؛ قال الشاعر :

حتى إذا ما لَيْلُهُنَّ عَسَسَا * رَكِبَنَ مِن حَدِّ الظَّلامِ حِنْدَسَا

الماوردي : وأصل العس الأمتلاء ؛ ومنه قيل للقبح الكبير عس لأمتلائه بما فيه فأطلق على إقبال الليل لأبتداء امتلائه ؛ وأطلق على إداره لانتهاؤ امتلائه على ظلامه ؛ لأستكمال امتلائه به . وأما قول امرئ القيس :

* أَلما على الربيع القديم بعَسَسَا^(٢)

فوضع بالبادية . وعَسَسَ أيضا أسم رجل ؛ قال الراجز :

* وعَسَسَ نِعَمَ الفتي تَبَيَّاهُ *

أى تعتمده . ويقال للذئب العَسَسَ والعَسَّاس والعَسَّاس ؛ لأنه يَعَسُّ بالليل ويطلب . ويقال للقنافذ العَسَّاس لكثرة ترددها بالليل . قال أبو عمرو : والتعسس الشم ، وأنشد :

* كمنخر الذئب إذا تَعَسَّسَا *

والتعسس أيضا طلب الصيد [بالليل]^(٤)

(١) تسعسا : أدبر وفتى ، والمرعرع : الشاب الناعم .

(٢) كذا في الأصول كلها ولم نجده في ديوانه . وفي اللسان : كان له من ضوئه مقبس . ثم قال : أنشده

أبو البلاد النحوي وقال : وكانوا يرون أن هذا البيت مصنوع . وأدنا أصله : إذ دنا فأدغم .

(٣) تمامه : * كاني أنادي أو أكلم أنرمسا *

(٤) الزيادة من الصحاح .

قوله تعالى : ﴿ وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ أى أمتد حتى يصير نهارا واضحا ؛ يقال للنهار إذا زاد تنفس . وكذلك الموج إذا نضح الماء . ومعنى التنفس خروج النسيم من الجوف . وقيل : « إِذَا تَنَفَّسَ » أى آنشق وأنفلق ؛ ومنه تَنَفَّسَتِ القوسُ أى تَصَدَّعَتْ . ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ هذا جواب القسم . والرسول الكريم جبريل ؛ قاله الحسن وقتادة والضحاك . والمعنى « إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ » عن الله « كَرِيمٍ » على الله . وأضاف الكلام إلى جبريل عليه السلام ثم عداه عنه بقوله « تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ » ليعلم أهل التحقيق فى التصديق أن الكلام لله عز وجل . وقيل : هو محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ ذِي قُوَّةٍ ﴾ من جعله جبريل فقوته ظاهرة ؛ فروى الضحاك عن ابن عباس قال : من قوته قلعه مدائن قوم لوط بقوادم جناحه . ﴿ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ ﴾ أى عند الله جل ثناؤه ﴿ مَكِينٍ ﴾ أى ذى منزلة ومكانة ؛ فروى عن أبى صالح قال : يدخل سبعين سرادقا بغير إذن . ﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ ﴾ أى فى السموات ؛ قال ابن عباس : من طاعة الملائكة جبريل أنه لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم قال جبريل عليه السلام لرضوان خازن الجنان : أفتح له ففتح فدخل ورأى ما فيها ، وقال لمالك خازن النار : أفتح له جهنم حتى ينظر إليها فأطاعه وفتح له . ﴿ أَمِينٍ ﴾ أى مؤتمن على الوحي الذى يجيىء به . ومن قال : إن المراد محمد صلى الله عليه وسلم فالمعنى « ذِي قُوَّةٍ » على تبليغ الرسالة « مُطَاعٍ » أى يطيعه من أطاع الله جل وعز . ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ليس مجنون حتى يتهم فى قوله . وهو من جواب القسم . وقيل : أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يرى جبريل فى الصورة التى يكون بها عند ربه جل وعز فقال : ماذا إلى ؛ فأذن له الرب جل ثناؤه فاتاه وقد سد الأفق ، فلما نظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم خرت مغشيا عليه ، فقال المشركون : إنه مجنون ، فنزلت : « إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ » « وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ » وإنما رأى جبريل على صورته فهابه ، وورد عليه ما لم تحتمل بنيتة فخر مغشيا عليه .

(۱) فى نسخ الأصل : تنفست القوس والنفوس أى تصدعت . واللفظ لا ذكر فيها الكلمة النفوس ولعلها زيادة من النسخ .

قوله تعالى : وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ
بِضْنِينِ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾
إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾
وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ) أى رأى جبريل فى صورته له ستمائة جناح
« بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ » أى بمطلع الشمس من قبل المشرق ؛ لأن هذا الأفق إذا كان منه تطلع
الشمس فهو مبين . أى من جهته ترى الأشياء . وقيل : الأفق المبين أقطار السماء
ونواحيها ؛ قال الشاعر :

أَخَذْنَا بِأَفَاقِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمْ * لَنَا قَمَرَاهَا وَالنُّجُومُ الطَّوَالِعُ

الموردى : فعلى هذا فيه ثلاثة أقاويل ؛ أحدها أنه رآه فى أفق السماء الشرقى ؛ قاله
سفيان . الثانى فى أفق السماء الغربى ، حكاه ابن شجرة . الثالث أنه رآه نحو أجياد وهو
مشرق مكة ؛ قاله مجاهد . وحكى الثعلبى عن ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم
لجبريل : « إني أحب أن أراك فى صورتك التى تكون فيها فى السماء » قال : لن تقدر على
ذلك . قال : « بلى » قال : فإين تشاء أن أتخيل لك ؟ قال : « بالأبطح » قال : لا يسعنى .
قال : « فبمنى » قال : لا يسعنى . قال : « فبعرفات » قال : ذلك بالحرى أن يسعنى .
فواعده نخرج النبى صلى الله عليه وسلم للوقت ، فإذا هو قد أقبل بنحش خشية وكلكلة من جبال
عرفات ، قد ملا ما بين المشرق والمغرب ، ورأسه فى السماء ورجلاه فى الأرض ، فلما رآه
النبى صلى الله عليه وسلم حتر مغشيا عليه ، فتحول جبريل فى صورته وضمه إلى صدره .
وقال : يا محمد لا تخف ؛ فكيف لو رأيت إسرافيل ورأسه من تحت العرش ورجلاه فى تخوم
الأرض السابعة ، وأن العرش على كاهله ، وأنه ليتضاءل أحيانا من خشية الله حتى يصير
مثل الوصع — يعنى العصفور — حتى ما يحمل عرش ربك إلا عظمته . وقيل : إن محمدا

عليه السلام رأى ربه عز وجل بالأفق المبين . وهو معنى قول ابن مسعود . وقد مضى القول في هذا في « والنجم » مستوفى فتأمله هناك . وفي « المبين » قولان : أحدهما أنه صفة الأفق ؛ قاله الربيع . الثانى أنه صفة لمن رآه ؛ قاله مجاهد . (وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ)
بالظاء قراءة ابن كثير وأبي عمرو والكسائى أى بمتهم والظنة التهمة ؛ قال الشاعر :

أَمَّا وَكِتَابِ اللَّهِ لَا عَن شَنَاءَةٍ * هُجِرْتُ وَلَكِنَّ الظَّنِّينَ ظَنِينُ

وأختره أبو عبيد ؛ لأنهم لم يُخَلَّوْهُ وَلَكِنْ كَذَّبُوهُ ؛ ولأن الأكثر من كلام العرب : ما هو بكذا ، ولا يقولون : ما هو على كذا ، إنما يقولون : ما أنت على هذا بمتهم . وقرأ الباقون « بِظَنِينٍ » بالضاد أى يخيل من ضمنت بالشئ أضنّ ضنناً [فهو] ضنين . فروى ابن أبى نجیح عن مجاهد قال : لا يضمن عليكم بما يعلم ، بل يعلم الخلق كلام الله وأحكامه .
وقال الشاعر :

أَجُودُ بِمَكْنُونِ الْحَدِيثِ وَمَآئِنِي * بِسِرِّكَ عَمَّنْ سَأَلَنِي لَضَنِينُ

والغيب القرآن وخبر السماء . ثم هذا صفة محمد عليه السلام . وقيل : صفة جبريل عليه السلام . وقيل : بظنين بضعيف . حكاة الفراء والمبرد ؛ يقال : رجل ظنين أى ضعيف . وبئر ظنون إذا كانت قليلة الماء ؛ قال الأعشى :

مَا جُعِلَ الْجُدُّ الظُّنُونُ الَّذِي * جُنَّبَ صَوْبَ اللَّجْبِ الْمَاطِرِ

مِثْلَ الْفُرَاتِيِّ إِذَا مَا طَمَّ * يَقْدِفُ بِالْبُوصَى وَالْمَاهِرِ

والظنون الدين الذى لا يدري أيقضيه أخذه أم لا ؛ ومنه حديث على عليه السلام فى الرجل يكون له الدين الظنون قال : يزكبه لما مضى إذا قبضه إن كان صادقا . والظنون الرجل

(١) راجع ج ١٧ ص ٩٤ وقول ابن مسعود هناك هو أن محمدا صلى الله عليه وسلم رأى جبريل والذى

قال بأنه رأى ربه هو ابن عباس رضى الله عنهما .

(٢) الجد : البئر تكون فى موضع كثير الكلا . الفراتى : المنسوب إلى الفرات . والبوصى : ضرب من سفن

البحر ، والملاح أيضا . والماهر : السابح .

السيء الخلق ؛ فهو لفظ مشترك . (وَمَا هُوَ) يعنى القرآن (يَقُولَ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ)
 أى مرجوم ملعون كما قالت قريش . قال عطاء : يريد بالشیطان الأبيض الذى كان
 يأتى النبى صلى الله عليه وسلم فى صورة جبريل يريد أن يفتنه . (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ) قال
 قتادة : فإلى أين تعدلون عن هذا القول وعن طاعته . كذا روى معمر عن قتادة ؛ أى أين
 تذهبون عن كتابى وطاعتى . وقال الزجاج : فأى طريقة تسلكون أيبين من هذه الطريقة
 التى بينت لكم . ويقال ؛ أين تذهب وإلى أين تذهب . وحكى الفراء عن العرب : ذهبت
 الشام وخرجت العراق وأنطلقت السوق أى إليها . قال : سمعناه فى هذه الأحرف الثلاثة ؛
 وأنشدنى بعض بنى عقيل :

تَصِيحُ بِنَا حَنِيفَةٌ إِذْ رَأَتْنا * وَأَى الْأَرْضِ تَذْهَبُ بِالصَّيْحِ

يريد إلى أى أرض تذهب فحذف إلى . وقال الجنيدي : معنى الآية مقرون بآية أخرى وهى
 قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ » المعنى : أى طريق تسلكون أيبين من الطريق
 الذى بينه الله لكم . وهذا معنى قول الزجاج . (إِنْ هُوَ) يعنى القرآن (إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)
 أى موعظة وزجر و « إِنْ » بمعنى « ما » . وقيل : ما عهد إلا ذكر . (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ)
 أى يتبع الحق ويقم عليه . وقال أبو هريرة وسليمان بن موسى : لما نزلت « لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ
 يَسْتَقِيمَ » قال أبو جهل : الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم — وهذا هو القدر
 وهو رأس القدرية — فنزلت : (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) فبين بهذا أنه
 لا يعمل العبد خيرا إلا بتوفيق الله ولا شرا إلا بنخلانه . وقال الحسن : والله ما شاءت العرب
 الإسلام حتى شاءه الله لها . وقال وهب بن منبه : قرأت فى سبعة وثمانين كتابا مما أنزل الله على
 الأنبياء من جعل إلى نفسه شيئا من المشيئة فقد كفر . وفى التنزيل : « وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ
 الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » وقال
 تعالى : « وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » وقال تعالى : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ
 وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » والآى فى هذا كثير وكذلك الأخبار وأن الله سبحانه هدى
 بالإسلام وأضل بالكفر كما تقدم فى غير موضع . ختمت السورة والحمد لله .

(١) فى تفسير الطبرى : بضمة وثمانين .

سورة الأنفطار

مكية عند الجميع وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ
 أَنْتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾
 عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ﴾ أى تَشَقَّقَتْ بأمر الله ؛ لنزول الملائكة ؛ كقوله :
 « وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا » . وقيل : تفطرت لهيبة الله تعالى .
 والفطر الشق ؛ يقال : فطرتُه فأنفطر ، ومنه فطر ناب البعير طلع فهو بعير فاطر ، وتفطر
 الشيء تَشَقَّقَ ، وسيف فطار أى فيه شقوق ؛ قال عنتره :

وَسَيْفِي كَالْعَقِيقَةِ وَهُوَ كَيْبِي * سِلَاحِي لَا أَفَلَّ وَلَا فُطَارًا^(١)

وقد تقدم في غير موضع . ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ أَنْتَثَرَتْ ﴾ أى تساقطت ؛ نثرت الشيء أنثره
 نثرًا فانتثر والاسم النثار . والنثار بالضم ما تناثر من الشيء ، ودرُّ منثر شدد للكثرة . ﴿ وَإِذَا
 الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ أى فجر بعضها في بعض فصارت بحرا واحدا على ما تقدم . وقال الحسن :
 فجرت ذهب ماؤها ويبتس ؛ وذلك أنها أولا را كدة مجتمعة ، فإذا فجرت تفرقت فذهب
 ماؤها . وهذه الأشياء بين يدي الساعة على ما تقدم في « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ » . ﴿ وَإِذَا
 الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ أى قلبت وأخرج ما فيها من أهلها أحياء ؛ يقال : بعثرت المتاع قلبته ظهرا
 لبطن ، وبعثرت الحوض وبعثرتُه إذا هدمته وجعلت أسفله أعلاه . وقال قوم منهم الفراء :
 « بُعْثِرَتْ » أخرجت ما في بطنها من الذهب والفضة . وذلك من أشرط الساعة أن تخرج الأرض

(١) العقيقة : شعاع البرق الذى يبدو كالسيف . والكعب : الضجيع . (٢) راجع ج ١٦ ص ٤

ذهبها وفضتها . ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ مثل : « يُنْبَأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ » وتقدم . وهذا جواب « إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ » لأنه قسم في قول الحسن وقع على قوله تعالى : « عَلِمَتْ نَفْسٌ » يقول : إذا بدت هذه الأمور من أشراط الساعة ختمت الأعمال فعلمت كل نفس ما كسبت ، فإنها لا ينفعها عمل بعد ذلك . وقيل : أى إذا كانت هذه الأشياء قامت القيامة فحوسبت كل نفس بما عملت ، وأوتيت كتابها بيمينها أو بشمالها فتذكرت عند قراءته جميع أعمالها . وقيل : هو خبر وليس بقسم وهو الصحيح إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكْذِبُونَ بِالَّذِينَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ﴾ خاطب بهذا منكرى البعث . وقال ابن عباس : الإنسان هنا الوليد بن المغيرة . وقال عكرمة : أبى بن خلف . وقيل : نزلت في أبى الأشد بن كلدة الجُمحى . عن ابن عباس أيضا : « مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ » أى ما الذى غرك حتى كفرت « بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ » أى المتجاوز عنك . قال قتادة : غره شيطانه المسلط عليه . الحسن : غره شيطانه الخبيث . وقيل : حقه وجهله . رواه الحسن عن عمر رضى الله عنه . وروى غالب الحنفى قال : لما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ » قال : « غره الجهل » وقال صالح بن مسمار : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ « يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ » فقال : « غره جهله » . وقال عمر رضى الله عنه : كما قال الله تعالى « إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا » . وقيل : غره عفو الله إذ لم يعاقبه في أول مرة . قال إبراهيم بن الأشعث : قيل للفضيل بن عياض لو أقامك الله تعالى

يوم القيامة بين يديه فقال لك « مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ » ماذا كنت تقول ؟ قال : كنت أقول غرني ستورك المرخاة ؛ لأن الكريم هو الستار . نظمه ابن السَّيَّاح فقال :

يَا كَاتِمَ الذَّنْبِ أَمَا تَسْتَحْيِ * وَاللَّهُ فِي الْخَلْوَةِ ثَانِيكََا

غَرَّكَ مِنْ رَبِّكَ إِمْهَالُهُ * وَسَتْرُهُ طَوْلُ مَسَاوِيكََا

وقال ذو النون المصري : كم من مغرور تحت الستر وهو لا يشعر .

وأشده أبو بكر بن طاهر الأبهري :

يَا مَنْ غَلَا فِي الْعُجْبِ وَالْتَبِهَ * وَغَرَّهُ طُولُ تَمَادِيهِ

أَمَلَى لَكَ اللَّهُ فَبَارِزَتُهُ * وَلَمْ تَخَفْ غِبَّ مَعَاصِيهِ

وروى عن علي رضي الله عنه أنه صاح بغلام له مرات فلم يلبه ، فنظر فإذا هو بالباب فقال : مالك لم تجبني ؟ فقال . لثقتي بحلمك وأمني من عقوبتك . فاستحسن جوابه فأعتقه . وناس يقولون : ما غرك ما خدعك وسؤل لك حتى أضعت ما وجب عليك . وقال ابن مسعود : ما منكم من أحد إلا وسيخلو الله به يوم القيامة فيقول له : يا ابن آدم ماذا غرك بي ؟ يا ابن آدم ماذا عملت فيما علمت ؟ يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين ؟ (الَّذِي خَلَقَكَ) أي قدر خلقك من نطفة (فَسْوَكَ) في بطن أمك وجعل لك يدين ورجلين وعينين وسائر أعضائك (فَعَدَّلَكَ) أي جعلك معتدلا سوى الخلق ؛ كما يقال : هذا شيء معتدل . وهذه قراءة العامة وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم ؛ قال الفراء وأبو عبيد : يدل عليه قوله تعالى : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » . وقرأ الكوفيون عاصم وحمزة والكسائي : « فَعَدَّلَكَ » مخففا أي أمالك وصرَّفك إلى أي صورة شاء إما حسنا وإما قبيحا ، وإما طويلا وإما قصيرا . وقال [موسى بن علي] ابن أبي رباح اللخمي عن أبيه عن جدّه [قال قال لي النبي صلى الله عليه وسلم : « إن النطفة

(١) الزيادة من تفسير الثعلبي والطبري والدر المنثور . والحديث كما رواه الثعلبي بعد السند : قال قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم لجدّه « ما ولد لك » قال يا رسول الله وما عسى أن يولد لي ، إما غلام أو جارية . قال « فن يشبه »

قال : فن يشبه . أمه أو أباه ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم . « لا تقل هكذا إن النطفة ... الحديث » .

إذا استقرت في الرحم أحضرها الله كل نسب بينها وبين آدم " أما قرأت هذه الآية ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَجَّكَ ﴾ : " فيما بينك وبين آدم " [وقال عكرمة وأبو صالح : « في أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَجَّكَ »] إن شاء في صورة إنسان ، وإن شاء في صورة حمار ، وإن شاء في صورة قرد ، وإن شاء في صورة خنزير . وقال مكحول : إن شاء ذكرا وإن شاء أنثى . وقال مجاهد : « فِي أَيِّ صُورَةٍ » أي في أي شبه من أب أو أم أو عم أو خال أو غيرهم . و « في » متعلقة بـ « رَجَّكَ » ولا تتعلق بـ « عَدَلَّكَ » على قراءة من خفف ؛ لأنك تقول عدلت إلى كذا ولا تقول عدلت في كذا ؛ ولذلك منع الفراء التخفيف ؛ لأنه قدر « في » متعلقة بـ « عدلك » و « ما » يجوز أن تكون صلة مؤكدة ؛ أي في أي صورة شاء رجبك . ويجوز أن تكون شرطية أي إن شاء رجبك في غير صورة الإنسان من صورة قرد أو حمار أو خنزير ف « ما » بمعنى الشرط والجزاء ؛ أي في صورة ما شاء أن يربك رجبك .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴾ يجوز أن تكون « كَلَّا » بمعنى حقا و « أَلَّا » فيبتدأ بها . ويجوز أن تكون بمعنى « لا » على أن يكون المعنى ليس الأمر كما تقولون من أنكم في عبادتكم غير الله محقون . يدل على ذلك قوله تعالى : « مَا غَرَّكَ رَبُّكَ الْكَرِيمِ » وكذلك يقول الفراء : يصير المعنى ليس كما غررت به . وقيل : أي ليس الأمر كما تقولون من أنه لا بعث . وقيل : هو بمعنى الردع والزجر . أي لا تغتروا بحلم الله وكرمه فتركوا التفكير في آياته . ابن الأنباري : الوقف الجيد على « الَّذِينَ » وعلى « رَجَّكَ » والوقف على « كَلَّا » قبيح . ﴿ بَلْ تُكذِّبُونَ ﴾ ياهل مكة ﴿ بِالَّذِينَ ﴾ أي بالحساب و « بل » لنفي شيء تقدم وتحقيق غيره . وإنكارهم للبعث كان معلوما وإن لم يجر له ذكر في هذه السورة .

قوله تعالى : وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿ ١٠ ﴾ كِرَامًا كَتِيبِينَ ﴿ ١١ ﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿ ١٢ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ أي رقباء من الملائكة ﴿ كِرَامًا ﴾ أي على ؛ كقوله تعالى : « كِرَامٍ بَرَرَةٍ » وهنا ثلاث مسائل :

الأولى - روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين الخراءة أو الجماع فإذا أغتسل أحدكم فليستتر بجرم [حائط^(١)] أو بغيره أو ليستره أخوه " . وروى عن علي رضي الله عنه قال : " لا يزال الملك موليا عن العبد ما دام بادي العورة " وروى " إن العبد إذا دخل الحمام بغير مترر لعنه ملكاه " .

الثانية - وأختلف الناس في الكفار هل عليهم حفظة أم لا ؟ فقال بعضهم : لا ؛ لأن أمرهم ظاهر وعملهم واحد ؛ قال الله تعالى : « يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيَامِهِمْ » . وقيل : بل عليهم حفظة ؛ لقوله تعالى : « كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالَّذِينَ . وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كَرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ » . وقال : « وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ شِمَالَهُ » وقال : « وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ » فأخبر أن الكفار يكون لهم كتاب ويكون عليهم حفظة . فإن قيل : الذي على يمينه أى شئ يكتب ولا حسنة له ؟ قيل له : الذي يكتب عن شماله يكون بإذن صاحبه ويكون شاهدا على ذلك وإن لم يكتب . والله أعلم .

الثالثة - سئل سفيان : كيف تعلم الملائكة أن العبد قد هم بحسنة أو سيئة ؟ قال : إذا هم العبد بحسنة وجدوا منه ريح المسك ، وإذا هم بسيئة وجدوا منه ريح النتن . وقد مضى في « ق » عند قوله : « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » زيادة بيان لمعنى هذه الآية . وقد كره العلماء الكلام عند الغائط والجماع لمفارقة الملك العبد عند ذلك . وقد مضى في آخر « آل عمران^(٣) » القول في هذا . وعن الحسن : يعلمون لا يخفى عليهم شئ من أعمالكم . وقيل : يعلمون ما ظهر منكم دون ما حدثتم به أنفسكم . والله أعلم .

(١) الزيادة من الدرالمشور وفيه سبب ورود الحديث أنه عليه السلام رأى رجلا يفتسل بفلاة من

الأرض ... الخ .

(٢) راجع ج ١٧ ص ١١

(٣) راجع ج ٤ ص ٣١٠ فابعدا .

قوله تعالى : إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصَلُونَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) تقسيم مثل قوله : « فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ » وقال : « يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا » الآيتين . (يَصَلُونَهَا) أى بصيبيهم لهنها وحرها (يَوْمَ الدِّينِ) أى يوم الجزاء والحساب وكرر ذكره تعظيماً لشأنه ؛ نحو قوله تعالى : « الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ » وقال ابن عباس فيما روى عنه : كل شيء من القرآن من قوله : « وَمَا أَدْرَاكَ » فقد أدراه ، وكل شيء من قوله : « وَمَا يُدْرِيكَ » فقد طوى عنه . (يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ) قرأ ابن كثير وأبو عمرو « يَوْمٌ » بالرفع على البدل من « يَوْمُ الدِّينِ » أو رداً على اليوم الأول فيكون صفة ونعتاً لـ « يَوْمُ الدِّينِ » . ويجوز أن يرفع بإضمار هو . الباقون بالنصب على أنه في موضع رفع إلا أنه نصب ؛ لأنه مضاف غير متمكن ؛ كما تقول : أعجبنى يوم يقوم زيد . وأنشد المبرد :

مِنْ أَيِّ يَوْمٍ مِنَ الْمَوْتِ أَفْتَرُ * أَيُّوْمَ لَمْ يُقَدَّرْ أَمْ يَوْمَ قُدِرْ

فاليومان الثانيان مخفوضان بالإضافة عن الترجمة عن اليومين الأولين إلا أنهما نصبا في اللفظ ؛ لأنهما أضيفا إلى غير محض . وهذا اختيار الفراء والزجاج . وقال قوم : اليوم الثانى منصوب على المحل كأنه قال : في يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً . وقيل : بمعنى إن هذه الأشياء تكون يوم ، أو على معنى يبدان يوم ؛ لأن الدِّين يدل عليه ، أو بإضمار أذكر . (وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) لا ينازعه فيه أحد ؛ كما قال : « لِيَنَّ الْمَلِكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ » تمت السورة والحمد لله .

سورة المطففين

مكية في قول ابن مسعود والضحاك ومقاتل . ومدنية في قول

الحسن وعكرمة ، وهي ست وثلاثون آية

قال مقاتل : وهي أول سورة نزلت بالمدينة . وقال ابن عباس وقتادة : مدنية إلا ثمان

آيات من قوله : « إِنَّ الَّذِينَ أَجْرُوا » إلى آخرها مكي . وقال الكلبي وجابر بن زيد :

نزلت بين مكة والمدينة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَيَلُّ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ

يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى - روى النسائي عن ابن عباس قال : لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة

كانوا من أخبث الناس كَيْلًا فأنزل الله تعالى « وَيَلُّ لِلْمُطَفِّفِينَ » فأحسنوا الكيل بعد ذلك .

قال الفراء : فهم من أوفى الناس كَيْلًا إلى يومهم هذا . وعن ابن عباس أيضا قال : هي أول

سورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة نزل المدينة وكان هذا فيهم ؛ كانوا إذا

أشترتوا استوفوا بكيل راجح ، فإذا باعوا بخسوا المكيال والميزان ، فلما نزلت هذه السورة آتتوا ،

فهم أوفى الناس كَيْلًا إلى يومهم هذا . وقال قوم : نزلت في رجل يعرف بأبي جهينة وأسمه

عمرو ؛ كان له صاعان يأخذ بأحدهما ويعطى بالآخر ؛ قاله أبو هريرة رضى الله عنه .

الثانية - قوله تعالى : « وَيَلُّ » أى شدة عذاب في الآخرة . وقال ابن عباس :

إنه وادٍ في جهنم يسيل فيه صديد أهل النار ، فهو قوله تعالى : « وَيَلُّ لِلْمُطَفِّفِينَ » أى الذين

ينقصون مكاييلهم وموازينهم . وروى عن ابن عمر قال : المطفف الرجل يستاجر المكيال

وهو يعلم أنه يحيف في كيله فوزره عليه . وقال آخرون : التطفيف في الكيل والوزن والوضوء والصلاة والحديث . وفي الموطأ قال مالك : ويقال لكل شيء وفاءً وتطفيف . وروى عن سالم ابن أبي الجعد قال : الصلاة بمكيال فمن أوفى له ومن طَفَّفَ فقد علمتم ما قال الله عز وجل في ذلك : « وَبَلِّغُوا لِلْمُطَفِّينَ » .

الثالثة - قال أهل اللغة : المطفف مأخوذ من التطفيف وهو القليل ، والمطفف هو المقل حق صاحبه بنقصانه عن الحق في كيل أو وزن . وقال الزجاج : إنما قيل للفاعل من هذا مُطَفَّفٌ ؛ لأنه لا يكاد يسرق من المكيال والميزان إلا الشيء الطفيف الخفيف ، وإنما أخذ من طَفَّ الشيء وهو جانبه . وطَفَّافُ المَكْوَكِ وطَفَّافُهُ بالكسر والفتح ما ملاء أصباره وكذلك طَفَّ المَكْوَكِ وطَفَّفَهُ ؛ وفي الحديث : « كُلُّكُمْ بَنُو آدَمَ طَفَّ الصَّاعِ لَمْ تَمَلُّوهُ » وهو أن يقرب أن يمتلى فلا يفعل ؛ والمعنى بعضكم من بعض قريب فليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى . والطَّفَّافُ والطَّفَّافَةُ بالضم ما فوق المكيال . وإناء طَفَّافٌ إذا بلغ المِلءُ طَفَّافَهُ ؛ تقول منه : أطففت . والتطفيف نقص المكيال وهو ألا تملأه إلى أصباره أي جوانبه ؛ يقال : أدهقت الكأس إلى أصبارها أي إلى رأسها . وقول ابن عمر حين ذكر النبي صلى الله عليه وسلم سبق الخيل : كنت فارساً يومئذ فسبقت الناس حتى طَفَّفَ بي الفرسُ مسجد بنى زريق حتى كاد يساوى المسجد . يعني وثب بي .

الرابعة - المطفف هو الذي يخسر في الكيل والوزن ولا يوفى حسب ما بيناه ؛ وروى ابن القاسم عن مالك أنه قرأ « وَبَلِّغُوا لِلْمُطَفِّينَ » فقال : لا تُطَفِّفُ ولا تَحْلِبُ^(١) ولكن أرسل وُصِّبَ عليه صَبًّا حتى إذا استوفى أرسل يدك ولا تُمَسِّكُ . وقال عبد الملك بن الماجشون :^(٢) نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مسح الطَّفَّافِ ، وقال : إن البركة في رأسه . قال : وبلغني أن كيل فرعون كان مسحاً بالحديدة .

(١) كذا في الأصول وفي ابن العربي (ولا تحلب) . (٢) في بعض الأصول وابن العربي « أستوى » .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ قال الفراء : أى من الناس ؛ يقال : آكلت منك أى أستوفيت منك ، ويقال : آكلت ما عليك أى أخذت ما عليك .
وقال الزجاج : أى إذا آكألوا من الناس أستوفوا عليهم الكيل ؛ والمعنى : الذين إذا أستوفوا أخذوا الزيادة وإذا أوفوا أو وزنوا لغيرهم تقصوا ، فلا يرضون للناس ما يرضون لأنفسهم .
الطبرى : « على » بمعنى عند .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾
فيه مسألتان :

الأولى - قوله تعالى : « وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ » أى كالوا لهم أو وزنوا لهم فحذفت اللام فتعدى الفعل فنصب ؛ ومثله نصحتك ونصحت لك وأمرتك به وأمرتكه ؛ قاله الأخفش والفراء . قال الفراء : وسمعت أعرابية تقول إذا صدرَ الناسُ أتينا التاجر فيكلنا المذَّ والمُدَّين إلى الموسم المقبل . وهو من كلام أهل الحجاز ومن جاورهم من قيس . قال الزجاج : لا يجوز الوقف على « كَالُوا » و « وَزَنُوا » حتى تصل به « هم » قال : ومن الناس من يجعلها توكيدا ، ويميز الوقف على « كَالُوا » و « وَزَنُوا » والأول الاختيار ؛ لأنها حرف واحد . وهو قول الكسائى . قال أبو عبيد : وكان عيسى بن عمر يجعلها حرفين ويقف على « كَالُوا » و « وَزَنُوا » ويتدئ « هُم يُخْسِرُونَ » قال : وأحسب قراءة حمزة كذلك أيضا . قال أبو عبيد : والاختيار أن يكونا كلمة واحدة من جهتين إحداهما الخط ؛ وذلك أنهم كتبوهما بغير ألف ولو كانتا مقطوعتين لكانتا « كَالُوا » و « وَزَنُوا » بالألف ، والأخرى أنه يقال : كلتك ووزنتك بمعنى كلت لك ووزنت لك وهو كلام عربى ؛ كما يقال : صدتك وصدت لك وكسبتك وكسبت لك ، وكذلك شكرتك ونصحتك ونحو ذلك . قوله : « يُخْسِرُونَ » أى ينقصون ؛ والعرب تقول : أخسرت الميزان وخسرته ، و « هم » فى موضع نصب على قراءة العامة راجع إلى الناس ؛ تقديره « وَإِذَا كَالُوا » الناس « أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ » وفيه وجهان : أحدهما أن يراد كالوا لهم أو وزنوا لهم فحذف الجار وأوصل الفعل كما قال :
ولقد جنيتك أكمؤا وعسا قلا * ولقد نهيتك عن بنات الأوبر

أراد جنيت لك ، والوجه الآخر أن يكون على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، والمضاف هو المكيل والموزون . وعن ابن عباس رضى الله عنه : إنكم معاشر الأعاجم وليتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم المكيل والميزان . وخص الأعاجم لأنهم كانوا يجمعون الكيل والوزن جميعا وكانا مفرقين في الحرمين ؛ كان أهل مكة يزنون وأهل المدينة يكيلون . وعلى القراءة الثانية « هم » في موضع رفع بالابتداء ؛ أى وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم فهم يخسرون . ولا يصح ؛ لأنه تكون الأولى ملغاة ليس لها خبر ، وإنما كانت تستقيم لو كان بعدها وإذا كالوا هم ينقصون أو وزنوا هم يخسرون .

الثانية - قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم : "نَحَسُّ بِنَحْسٍ مَا تَنَضُّ قَوْمَ الْعَهْدِ إِلَّا سَأَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَذَابَهُمْ وَلَا حَكْمًا بغير ما أنزل الله إِلَّا فشا فيهم الفقر وما ظهرت الفاحشة فيهم إِلَّا ظهر فيهم الطاعون وما طففوا الكيل إِلَّا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ولا منعوا الزكاة إِلَّا حبس الله عنهم المطر" أخرجه أبو بكر البزار بمعناه ومالك بن أنس أيضا من حديث ابن عمر . وقد ذكرناه في كتاب التذكرة . وقال مالك بن دينار : دخلت على جارلى قد نزل به الموت ، فجعل يقول : جبلين من نار ! جبلين من نار ! فقلت : ما تقول ؟ أم حجر ؟ قال : يا أبا يحيى كان لى مكيالان أكل بأحدهما وأكثال بالآخر ؛ فقممت فجعلت أضرب أحدهما بالآخر حتى كسرتهما ، فقال : يا أبا يحيى كلما ضربت أحدهما بالآخر آزداد عظاما ، فمات من وجعه . وقال عكرمة : أشهد على كل كَيْالٍ أو وِزَانٍ أنه في النار . قيل له : فإن آبنك كَيْالٍ أو وِزَانٍ . فقال : أشهد أنه في النار . قال الأصمعى : وسمعت أعرابية تقول لا تلتمس المروءة ممن مروءته في رءوس المكاييل ولا السنة الموازين . وروى ذلك عن على رضى الله عنه . وقال عبد خير : مر على رضى الله عنه على رجل وهو يزن الزعفران وقد أرجح فأكفا الميزان ، ثم قال : أقم الوزن بالقسط ؛ ثم أرجح بعد ذلك ما شئت . كأنه أمره بالتسوية أولا ليعتادها ، ويفصل الواجب من النفل . وقال نافع : كان ابن عمر يمر بالبائع فيقول آتق الله وأوف الكيل

(١) حجر في نومه ومرضه بهجر مجرا : هذى .

والوزن بالقسط ، فإن المطففين يوم القيامة يوقفون حتى إن العرق ليلجمهم إلى أنصاف آذانهم . وقد روى أن أبا هريرة قدم المدينة وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى خيبر وأستخلف على المدينة سباع بن عُرْفُطَةَ ، فقال أبو هريرة : فوجدناه في صلاة الصبح فقراً في الركعة الأولى « كَهَيْعَصَ » وقرأ في الركعة الثانية « وَيَلُّ لِلْمُطَفِّفِينَ » قال أبو هريرة : فأقول في صلاتي ويل لأبي فلان كان له مكيالان إذا آكل آكل بالوافي وإذا كال كال بالناقص .

قوله تعالى : **أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾**
يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : **(أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ)** إنكار وتعجب عظيم من حالهم في الاجترار على التطفيف كأنهم لا يخطررون التطفيف بباهم ولا يخمنون تخميناً **(أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ)** فمستولون عما يفعلون . والظن هنا بمعنى اليقين ؛ أي ألا يوقن أولئك ولو أيقنوا ما نقصوا في الكيل والوزن . وقيل : الظن بمعنى التردد ؛ أي إن كانوا لا يستيقنون بالبعث فهلا ظنوه حتى يتدبروا ويبحثوا عنه ويأخذوا بالأحوط **(لِيَوْمٍ عَظِيمٍ)** شأنه وهو يوم القيامة .

قوله تعالى : **(يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)** فيه أربع مسائل :

الأولى - العامل في « يوم » فعل مضمر دل عليه « مَبْعُوثُونَ » والمعنى يبعثون « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » . ويجوز أن يكون بدلا من يوم في « لِيَوْمٍ عَظِيمٍ » وهو مبنى . وقيل : هو في موضع خفض ؛ لأنه أضيف إلى غير متمكن . وقيل : هو منصوب على الظرف أي في يوم ، ويقال : أقم إلى يوم يخرج فلان فننصب يوم ، فإن أضافوا إلى الأسم فحينئذ يخفضون ويقولون : أقم إلى يوم خروج فلان . وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ، التقدير أنهم مبعوثون يوم يقوم الناس لرب العالمين ليوم عظيم .

الثانية - وعن عبد الملك بن مروان أن أعرابيا قال له : قد سمعت ما قال الله تعالى في المطففين ؛ أراد بذلك أن المطففين قد توجه عليهم هذا الوعيد العظيم الذي سمعت به ، فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن . وفي هذا الإنكار والتعجيب وكلمة الظن ، ووصف اليوم بالعظيم ، وقيام الناس فيه لله خاضعين ، ووصف ذاته برب العالمين بيان بليغ لعظم الذنب ، وتفاقم الإثم في التطفيف ، وفيما كان في مثل حاله من الحيف وترك القيام بالقسط ، والعمل على التسوية والعدل في كل أخذ وإعطاء ، بل في كل قول وعمل .

الثالثة - قرأ ابن عمر « وَبَلِّغِ لِلْمُطَفِّفِينَ » حتى بلغ « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »

فبكى حتى سقط وأمتنع من قراءة ما بعده ثم قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول " يوم يقوم الناس لرب العالمين في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فمنهم من يبلغ العرق كعبه ومنهم من يبلغ ركبته ومنهم من يبلغ حنقه ومنهم من يبلغ صدره ومنهم من يبلغ أذنيه حتى إن أحدهم ليغيب في رشحه كما يغيب الضفدع ^(١) " . وروى ناس عن ابن عباس قال : يقومون مقدار ثلثمائة سنة . قال : ويهون على المؤمنين قدر صلاتهم الفريضة . وروى عن عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يقومون ألف عام في الظل " . وروى مالك عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى إن أحدهم ليقوم في رشحه إلى أنصاف أذنيه " . وعنه أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم : " يقوم مائة سنة " . وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم لبشير الغفاري : " كيف أنت صانع في يوم يقوم الناس فيه مقدار ثلثمائة سنة لرب العالمين لا يأتيهم فيه خبر ولا يؤمر فيه بأمر " قال بشير : المستعان الله .

قلت : قد ذكرناه مرفوعا من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة المكتوبة يصلحها في الدنيا " في «سأل ^(٢) » . وعن ابن عباس : يهون على المؤمنين قدر صلاتهم الفريضة . وقيل : إن ذلك

(١) أى في الماء . (٢) راجع ج ١٨ ص ٢٨٢ .

المقام على المؤمن كزوال الشمس ؛ والدليل على هذا من الكتاب قوله الحق : « أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » ثم وصفهم فقال : « الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ » جعلنا الله منهم بفضلهم وكرمه وجوده ومنه آمين . وقيل : المراد بالناس جبريل عليه السلام يقوم لرب العالمين ؛ قاله ابن جبير . وفيه بعد ؛ لما ذكرنا من الأخبار في ذلك وهي صحيحة ثابتة ، وحسبك بما في صحيح مسلم والبخاري والترمذي من حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » قال : « يقوم أحدهم في رشحه إلى نصف أذنيه » ثم قيل : هذا القيام يوم يقومون من قبورهم . وقيل : في الآخرة بحقوق عباده في الدنيا . وقال يزيد الرشك : يقومون بين يديه للقضاء .

الرابعة - القيام لله رب العالمين سبحانه حقير بالإضافة إلى عظمته وحقه ، فاما قيام الناس بعضهم لبعض فأختلف فيه الناس ؛ فمنهم من أجازوه ومنهم من منعه . وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قام إلى جعفر بن أبي طالب وأعتقه ، وقام طلحة لكعب بن مالك يوم تب عليه . وقول النبي صلى الله عليه وسلم للأَنْصَارِ حين طلع عليه سعد بن معاذ : « قوموا إلى سيدكم » وقال أيضا : « من سره أن يتمثل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار » وذلك يرجع إلى حال الرجل ونيته ، فإن أنتظر ذلك وأعتقه لنفسه فهو ممنوع ، وإن كان على طريق البشاشة والوصلة فإنه جائز ، وخاصة عند الأسباب كالقدوم من السفر ونحوه . وقد مضى في آخر سورة « يوسف »^(١) شيء من هذا .

قوله تعالى : كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سَجِينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ ﴿١٣﴾

(١) راجع ج ٩ ص ٢٦٥ فابدها .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ قال قوم من أهل العلم بالعربية : « كَلَّا » ردع وتنبيه ؛ أى ليس الأمر على ما هم عليه من تطفيف الكيل والميزان ، أو تكذيب بالآخرة فايرتدعوا عن ذلك . فهى كلمة ردع وزجر ثم آستانف فقال : « إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ » . وقال الحسن : « كَلَّا » بمعنى حَقًّا . وروى ناس عن ابن عباس « كَلَّا » قال : أَلَّا تُصَدِّقُونَ ؛ فعلى هذا الوقف « رَبِّ الْعَالَمِينَ » . وفى تفسير مقاتل : إن أعمال الفجار . وروى ناس عن ابن عباس قال : إن أرواح الفجار وأعمالهم « لَفِي سِجِّينٍ » . وروى ابن أبي نجیح عن مجاهد قال : سِجِّينُ صخرة تحت الأرض السابعة تقلب فيجعل كتاب الفجار تحتها . ونحوه عن ابن عباس وقتادة وسعيد بن جبیر ومقاتل وكعب ؛ قال كعب : تحتها أرواح الكفار تحت خد إبليس . وعن كعب أيضا قال : سِجِّينُ صخرة سوداء تحت الأرض السابعة مكتوب فيها أسم كل شيطان تلقى أنفـس الكفار عندها . وقال سعيد بن جبیر : سِجِّينُ تحت خد إبليس . يحيى بن سلام : حجر أسود تحت الأرض يكتب فيه أرواح الكفار . وقال عطاء الخراسانى : هى الأرض السابعة السفلى وفيها إبليس وذريته . وعن ابن عباس قال : إن الكافر يحضره الموت وتحضره رسل الله فلا يستطيعون لبغض الله له وبغضهم إياه أن يؤخروه ولا يعجلوه حتى تجىء ساعته ، فإذا جاءت ساعته قبضوا نفسه ورفعوه إلى ملائكة العذاب ، فأروه ما شاء الله أن يروه من الشر ، ثم هبطوا به إلى الأرض السابعة ، وهى سِجِّين وهى آخر سلطان إبليس فائتوا فيها كتابه . وعن كعب الأحمبار فى هذه الآية قال : إن روح الفاجر إذا قبضت يصعد بها إلى السماء فتأبى السماء أن تقبلها ، ثم يهبط بها إلى الأرض فتأبى الأرض أن تقبلها ، فتدخل فى سبع أرضين حتى ينتهى بها إلى سِجِّين وهو خد إبليس ، فيخرج لها من سِجِّين من تحت خد إبليس رقٌّ فيرقم فيوضع تحت خد إبليس . وقال الحسن : سِجِّينُ فى الأرض السابعة . وقيل : هو ضرب مثل وإشارة إلى أن الله تعالى يرد أعمالهم التى ظنوا أنها تنفعهم . قال مجاهد : المعنى عملهم تحت الأرض السابعة لا يصعد منها شيء . وقال :

سَجِّينَ صخرة في الأرض السابعة . وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "سَجِّينَ جُبٌّ فِي جَهَنَّمَ وَهُوَ مَفْتُوحٌ" وقال في الفلق : "إِنَّهُ جُبٌّ مُغَطَّى" . وقال أنس : هي دركة في الأرض السفلى . وقال أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم : سَجِّينَ أَسْفَلَ الْأَرْضِ السَّابِعَةَ " . وقال عكرمة : "سَجِّينَ خَسَارٌ وَضَلَالٌ ؛ كَقَوْلِهِمْ لَمَنْ سَقَطَ قَدْرُهُ : قَدْ زَلِقَ بِالْحَضِيضِ" . وقال أبو عبيدة والأخفش والزجاج : «لَفِي سَجِّينٍ» لفى حبس وضيق شديد فَعِيلٌ مِنَ السَّجْنِ ؛ كَمَا يَقُولُ : فِيسِقٌ وَشَرِيبٌ ؛ قَالَ ابْنُ مَقْبَلٍ :

وَرُفْقَةٌ يَضْرِبُونَ الْبَيْضَ ضَاحِيَةً * ضَرْبًا تَوَاصَتْ بِهِ الْأَبْطَالُ سَجِّينًا ^(١)

والمعنى كتابهم في حبس ؛ جعل ذلك دليلا على خساسة منزلتهم ، أو لأنه يحل من الإعراض عنه والإبعاد له محلاً الزجر والهوان . وقيل : أصله سجيل فأبدلت اللام نونا . وقد تقدم ذلك . وقال زيد بن أسلم : سجين في الأرض السافلة وسجيل في السماء الدنيا . القشيري : سجين موضع في السافلين يدفن فيه كتاب هؤلاء فلا يظهر بل يكون في ذلك الموضع كالمسجون . وهذا دليل على خبث أعمالهم وتحقير الله إياها ؛ ولهذا قال في كتاب الأبرار : «يَشْهَدُهُ الْمُقْرَبُونَ» . (وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِّينٌ) أى ليس ذلك مما كنت تعلمه يا محمد أنت ولا قومك . ثم فسره له فقال : (كِتَابٌ مَرْقُومٌ) أى مكتوب كالرقم في الثوب لا ينسى ولا ينحى . وقال قتادة : مرقوم أى مكتوب رقيم لهم بشر لا يزداد فيهم أحد ولا ينقص منهم أحد . وقال الضحاك : مرقوم محتوم بلغة حمير ؛ وأصل الرقم الكتابة ؛ قال :

سَارِقُمٌ فِي الْمَاءِ الْقَرَّاحِ إِلَيْكُمْ * عَلَى بُعْدِكُمْ إِنْ كَانَ لِلْمَاءِ رَاقِمٌ

وليس في قوله : « وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِّينٌ » ما يدل على أن لفظ سجين ليس عربيا كما لا يدل في قوله : « الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ » بل هو تعظيم لأمر سجين . وقد مضى في مقدمة الكتاب ^(٢) والحمد لله — أنه ليس في القرآن غير عربى . (وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)

(١) الذى فى الناج نقلا عن الجوهرى : * ورجلة يضربون الهام عن عرض *

(٢) راجع ج ١ ص ٦٨ .

أى شدة وعذاب يوم القيامة للكاذبين . ثم بين تعالى أمرهم فقال : ﴿ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ
الدِّينِ ﴾ أى بيوم الحساب والجزاء والفصل بين العباد . ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾
أى فاجر جائر عن الحق ، معتد على الخلق فى معاملته إياهم وعلى نفسه ، وهو أثيم فى ترك أمر
الله . وقيل : هذا فى الوليد بن المغيرة وأبى جهل ونظرائهما ؛ لقوله تعالى : ﴿ إِذَا تُلِيَتْ
عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ وقراءة العامة « تلى » بتاءين وقراءة أبى حيوه وأبى سماك
وأشهب العقلى والسلمى « إِذَا تُتْلَى » بالياء . وأساطير الأولين أحاديثهم وأباطيلهم التى كتبوها
وزخرفوها . واحدها أسطورة وإسطارة وقد تقدم .

قوله تعالى : كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾
كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا
الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ « كَلَّا » ردع وزجر ؛
أى ليس هو أساطير الأولين . وقال الحسن : معناها حقا « رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ » . وقيل :
فى الترمذى عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن العبد إذا أخطأ
خطيئة نُكَّتَتْ فى قلبه نكتة سوداء فإذا هو نزع وأستغفر الله وتاب صُفِلَ قلبه فإن عاد زيد
فيها حتى تملو على قلبه وهو الران الذى ذكر الله فى كتابه « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ » قال : هذا حديث حسن صحيح . وكذا قال المفسرون : هو الذنب على الذنب حتى
يسود القلب . قال مجاهد : هو الرجل يذنب الذنب فيحيط الذنب بقلبه ، ثم يذنب الذنب فيحيط
الذنب بقلبه حتى تغشى الذنوب قلبه . قال مجاهد : هى مثل الآية التى فى سورة البقرة « بَلَى
مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً » الآية . ونحوه عن الفراء ؛ قال : يقول كثرت المعاصى منهم والذنوب
فأحاطت بقلوبهم فذلك الرين عليها . وروى عن مجاهد أيضا قال : القلب مثل الكف
ورفع كفه ، فإذا أذنب العبد الذنب أنقبض وضم إصبعه ؛ فإذا أذنب الذنب أنقبض وضم

أخرى حتى ضم أصابعه كلها ، حتى يطبع على قلبه . قال : وكانوا يرون أن ذلك هو الرين ، ثم قرأ « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » . ومثله عن حذيفة رضى الله عنه سواء . وقال بكر بن عبد الله : إن العبد إذ أذنب صار في قلبه كوخزة الإبرة ، ثم صار إذا أذنب ثانيا صار كذلك ، ثم إذا كثرت الذنوب صار القلب كالمُنخل أو كالغُرْبَال لا يعي خيرا ولا يثبت فيه صلاح . وقد بينا في «البقرة»^(١) القول في هذا المعنى بالأخبار الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا معنى لإعادتها . وقد روى عبد الغنى بن سعيد عن موسى بن عبد الرحمن عن ابن جريح عن عطاء عن ابن عباس ، وعن موسى عن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس شيئا الله أعلم بصحته ؛ قال : هو الران الذى يكون على الفخذين والساق والقدم وهو الذى يلبس فى الحرب . قال : وقال آخرون الران الخاطر الذى يخطر بقلب الرجل وهذا مما لا يضمن عهدته صحته . فالله أعلم . فأما عامة أهل التفسير فعلى ما قد مضى ذكره قبل هذا . وكذلك أهل اللغة عليه ؛ يقال : ران على قلبه ذنبه يرين رينا ورئونا أى غلب . قال أبو عبيدة فى قوله : « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى غلب ؛ وقال أبو عبيد : كل ما غلبك فقد ران بك ورانك وران عليك ؛ وقال الشاعر :

وَمِمَّنْ رَانَ مِنْ ذَنْبٍ عَلَى قَلْبٍ فَاجِرٍ * فَتَابَ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِى رَانَ وَأَنْجَلَى

ورانت الخمر على عقله أى غلبته ، وران عليه النعاس إذا غطاه ؛ ومنه قول عمر فى الأسيقع — أَسِيفِعُ جُهَيْنَةَ — : فأصبح قد رين به . أى غلبته الديون وكان يدان ؛ ومنه قول أبى زبيد يصف رجلا شرب حتى غلبه الشراب سُكْرًا فقال :

ثُمَّ لَمَّا رَأَاهُ رَانَتْ بِهِ النُّجْمُ * رُ وَالْأُتْرَيْنَهُ بِاتَّقَاءِ

فقوله : رانت به النجم ، أى غلبت على عقله وقلبه . وقال الأُموي : قد أران القوم فهم مُرِينُونَ إذا هلكت مواشيهم وهزلت . وهذا من الأمر الذى أتاهم مما يغلبهم فلا يستطيعون احتمالاه . قال أبو زيد يقال : قد رين بالرجل رينا إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه ولا قبل له

(١) راجع ج ١ ص ١٨٨ فابعدها .

به . وقال أبو معاذ النحوي : الرين أن يَسْوَدَّ القلبُ من الذنوب ، والطبع أن يطبع على القلب ، وهذا أشد من الرين^(١) ، والإفقال أشد من الطبع . الزجاج : الرين هو كالصدأ يغشى القلب كالغيم الرقيق ومثله الغين ، يقال : غين على قلبه غطى . والغين شجر ملتف الواحدة غيناء أى خضراء كثيرة الورق ملتفة الأغصان . وقد تقدم قول الفراء أنه إحاطة الذنب بالقلوب . وذكر الثعلبي عن ابن عباس : « رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ » أى غطى عليها . وهذا هو الصحيح عنه إن شاء الله . وقرأ حمزة والكسائي والأعمش وأبو بكر والمفضل « ران » بالإمالة ؛ لأن فاء الفعل الراء وعينه الألف منقلبة من ياء فحسنت الإمالة لذلك . ومن فتح فعلى الأصل ؛ لأن باب فاء الفعل فى فَعَلَ الفتح مثل كال وباع ونحوه . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ووقف حفص « بل » ثم ابتدئ « ران » وقفاً بين اللام لا للسكت .

قوله تعالى : (كَلَّا إِنَّهُمْ) أى حقاً « إنهم » يعنى الكفار (عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ) أى يوم القيامة (لَمْ يَحْجُبُونَ) . وقيل : « كَلَّا » ردع وزجر أى ليس كما يقولون بل « إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمْ يَحْجُبُونَ » . قال الزجاج : فى هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يرى فى القيامة ، ولولا ذلك ما كان فى هذه الآية فائدة ولا خست منزلة الكفار بأنهم يُحْجَبُونَ . وقال جل ثناؤه : « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ » فأعلم الله جل ثناؤه أن المؤمنين ينظرون إليه ، وأعلم أن الكفار محجوبون عنه . وقال مالك بن أنس فى هذه الآية : لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه . وقال الشافعى : لما حجب قوما بالسخط دل على أن قوما يرونه بالرضا . ثم قال : أما والله لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى ربه فى المعاد لما عبده فى الدنيا . وقال الحسين بن الفضل : لما حجبهم فى الدنيا عن نور توحيده حجبهم فى الآخرة عن رؤيته . وقال مجاهد فى قوله تعالى « لَمْ يَحْجُبُونَ » : أى عن كرامته ورحمته ممنوعون . وقال قتادة : هو أن الله لا ينظر إليهم برحمته ولا يذكىهم ولهم عذاب أليم . وعلى الأقل الجمهور وأنهم محجوبون عن رؤيته فلا يرونه . (ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ) أى

(١) فى اللسان : هو الختم ؛ أى الطبع على القلب هو الختم كما فى « اللسان » مادة « رين » .

ملازموها ومحترقون فيها غير خارجين منها ، « كَلَّمَ نَضَجَتْ جُلُودَهُمْ بَدَلْنَاَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا »
و « كَلَّمَ خَبَتْ زِدْنَاَهُمْ سَعِيرًا » . ويقال : الجحيم الباب الرابع من النار . (ثُمَّ يُقَالُ) لهم
أى تقول لهم خزنة جهنم (هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكذِّبُونَ) رسل الله في الدنيا .

قوله تعالى : كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ

مَا عَالِيُونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ) « كَلَّا » بمعنى حقاً والوقف على
« تُكذِّبُونَ » . وقيل : أى ليس الأمر كما يقولون ولا كما ظنوا بل كتابهم في سجين وكتاب
المؤمنين في عِلِّيِّينَ . وقال مقاتل : كَلَّا أى لا يؤمنون بالعذاب الذى يصلونهُ . ثم استأنف
فقال : « إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ » مرفوع في عِلِّيِّينَ على قدر مرتبتهم . قال ابن عباس : أى
في الجنة . وعنه أيضا قال : أعمالهم في كتاب الله في السماء . وقال الضحاك ومجاهد وقتادة :
يعنى السماء السابعة فيها أرواح المؤمنين . وروى ابن الأجلح عن الضحاك قال : هى سِدْرَةُ
المنتهى ينتهى إليها كل شىء من أمر الله لا يعدهوها ، فيقولون : رَبِّ ! عَبْدِكَ فلان ؛ وهو
أعلم به منهم ، فيأتيه كتاب من الله عز وجل مختوم بأمانه من العذاب . فذلك قوله تعالى :
« كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ » . وعن كعب الأحبار قال : إن روح المؤمن إذا قبضت صعد
بها إلى السماء ، وفتحت لها أبواب السماء ، وتلقتها الملائكة بالبشرى ، ثم يخرجون معها حتى
ينتهوا إلى العرش ، فيخرج لهم من تحت العرش رَقٌّ فَيُرَقَّمُ وَيُنْتَمَّ فِيهِ النِّجَاةُ مِنَ الْحِسَابِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ وَيَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ . وقال قتادة أيضا : « فِي عِلِّيِّينَ » هى فوق السماء السابعة عند
قائمة العرش اليمنى . وقال البراء بن عازب قال النبي صلى الله عليه وسلم : « عِلِّيُّونَ فِي السَّمَاءِ
السَّابِعَةِ تَحْتَ الْعَرْشِ » . وعن ابن عباس أيضا : هو لوح من زبرجدة خضراء معلق بالعرش
أعمالهم مكتوبة فيه . وقال الفراء : عِلِّيُّونَ آرتفاع بعد آرتفاع . وقيل : عِلِّيُّونَ أعلَى
الأمكنة . وقيل : معناه علو في علو مضاعف كأنه لا غاية له ؛ ولذلك جمع بالواو والنون .

وهو معنى قول الطبري . قال الفراء : هو أسم موضوع على صفة الجمع ولا واحد له من لفظه ؛ كقولك : عشرون وثلاثون والعرب إذا جمعت جمعا ولم يكن له بناء من واحده ولا تثنية قالوا في المذكر والمؤنث بالنون . وهو معنى قول الطبري . وقال الزجاج : إعراب هذا الأسم كإعراب الجمع كما تقول هذه قنَّسرون ورأيت قنَّسرين . وقال يونس النحوي : واحدها عَلِيٌّ وَعَلِيَّةٌ . وقال أبو الفتح : عَلَيْن جمع عَلِيٍّ وهو فِعْلٌ من العُلُوِّ . وكان سبيله أن يقول عَلِيَّةٌ كما قالوا للغرفة عَلِيَّةٌ ؛ لأنها من العلوِّ ، فلما حذفت التاء من عَلِيَّةٍ عوضوا منها الجمع بالواو والنون كما قالوا في أرضين . وقيل : إن عَلَيْن صفة للملائكة فإنهم الملائ الأعلَى ؛ كما يقال : فلان في بني فلان ؛ أي هو في جملتهم وعندهم . والذي في الخبر من حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” إن أهل عَلَيْن لينظرون إلى الجنة من كذا فإذا أشرف رجل من أهل عَلَيْن أشرفت الجنة لضياء وجهه فيقولون ما هذا النور فيقال أشرف رجل من أهل عَلَيْن الأبرار أهل الطاعة والصدق “ . وفي خبر آخر : ” إن أهل الجنة ليرون أهل عَلَيْن كما يرى الكوكب الدرّي في أفق السماء “ يدل على أن عَلَيْن أسم الموضع المرتفع . وروى ناس عن ابن عباس في قوله « عَلَيْن » قال : أخبر أن أعمالهم وأرواحهم في السماء الرابعة . ثم قال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيْنُونَ ﴾ أي ما الذي أعلمك يا محمد أي شيء عليون على جهة التفخيم والتعظيم له في المنزلة الرفيعة . ثم فسره له فقال : ﴿ كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ . وقيل : إن « كِتَابٌ مَرْقُومٌ » ليس تفسيرا لِعَلَيْن بل تم الكلام عند قوله « عَلَيْن » ثم ابتدأ وقال : « كِتَابٌ مَرْقُومٌ » أي كتاب الأبرار كتاب مرقوم ؛ ولهذا عكس الرقم في كتاب الفجار ؛ قاله القشيري . وروى : أن الملائكة تصعد بعمل العبد ، فإذا آتتوا به إلى ما شاء الله من سلطانه أوحى إليهم : إنكم الحفظة على عبدى وأنا الرقيب على ما في قلبه ، وأنه أخلص لى عمله فاجعلوه في عَلَيْن فقد غفرت له ، وأنها لتصعد بعمل العبد فيكونه فإذا آتتوا به إلى ما شاء الله أوحى إليهم : أنتم الحفظة على عبدى وأنا الرقيب على ما في قلبه وأنه لم يخلص لى عمله ، فاجعلوه في سَجِين .

قوله تعالى : ﴿ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ أى يشهد عمل الأبرار مقربو كل سماء من الملائكة .
وقال وهب وابن إسحاق : المقربون هنا إسرافيل عليه السلام ، فإذا عمل المؤمن عمل البر
صعدت الملائكة بالصحيفة وله نور يتلأأ في السموات كنور الشمس في الأرض حتى
ينتهى بها إلى إسرافيل فيختم عليها ويكتب فهو قوله : « يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ » أى يشهد كتابتهم .

قوله تعالى : إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾
تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿٢٥﴾
خَتَمُهُ مِنْسِكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِرَاجُهُ مِنَ
تَسْلِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ ﴾ أى أهل الصدق والطاعة . ﴿ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ أى نعمة والنعمة
بالفتح التنعيم ؛ يقال : نعمة الله وناعمه فتنعم وأمرأة منعمة ومناعمة بمعنى . أى إن الأبرار
في الجنات يتنعمون . ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ وهى الأسرة في المجال ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ أى إلى ما أعد
الله لهم من الكرامات ؛ قاله عكرمة وابن عباس ومجاهد . وقال مقاتل : ينظرون إلى أهل
النار . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : " ينظرون إلى أعدائهم في النار " ذكره المهدوى .
وقيل : على أرائك أفضاله ينظرون إلى وجهه وجلاله .

قوله تعالى : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ أى بهجته وغضارته ونوره ؛ يقال :
أنضر النبات إذا أزهر وتور . وقراءة العامة « تَعْرِفُ » بفتح التاء وكسر الراء « نَضْرَةَ »
نصباً ؛ أى تعرف يا محمد . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع ويعقوب وشيبة وابن أبي إسحاق :
« تَعْرِفُ » بضم التاء وفتح الراء على الفعل المجهول « نَضْرَةُ » رفعا . ﴿ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ ﴾
أى من شراب لا غش فيه . قاله الأخفش والزجاج . وقيل : الرحيق الخمر الصافية .
وفي الصحاح : الرحيق صفوة الخمر . والمعنى واحد . الخليل : أقصى الخمر وأجودها . وقال
مقاتل وزيه : هى الخمر العتيقة البيضاء الصافية من الغش النيرة ؛ قال حسان :

(١) كذا في الأصول كلها ولعل الصواب : أقصى الخمر .

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عَلَيْهِمْ * بَرَدَى يُصَفِّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسِلِ^(١)

وقال آخر:^(٢)

أَمْ لَا سَبِيلَ إِلَى الشَّبَابِ وَذِكْرَهُ * أَشْمَى إِلَى مِنَ الرَّحِيقِ السَّلْسِلِ

(مَخْتَوْمٌ خَتَامُهُ مِسْكٌ) قال مجاهد: يختم به آخر جرعة. وقيل: المعنى إذا شربوا هذا الرحيق ففنى ما في الكأس آنختم ذلك بخاتم المسك. وكان ابن مسعود يقول: يجدون عاقبتها طعم المسك. ونحوه عن سعيد بن جبير وإبراهيم النخعي قالا: ختامه آخر طعمه. وهو حسن؛ لأن سبيل الأشرطة أن يكون الكدر في آخرها، فوصف شراب أهل الجنة بأن رائحة آخره رائحة المسك. وعن مسروق عن عبد الله قال: المختوم المزوج. وقيل: مختوم أى ختمت ومنعت عن أن يمسه ما شئ إلى أن يفك ختامها الأبرار. وقرأ على وعلقمة وشقيق والضحاك وطاوس والكسائي «خاتمه» بفتح الخاء والتاء وألف بينهما. قال علقمة: أما رأيت المرأة تقول للعطار أجعل خاتمه مسكا تريد آخره. والخاتم والختام متقاربان في المعنى إلا أن الخاتم الأسم والخاتم المصدر؛ قاله الفراء. وفي الصحاح: والخاتم الطين الذي يختم به. وكذا قال مجاهد وابن زيد: ختم إناؤه بالمسك بدلا من الطين. حكاه المهدوي. وقال الفرزدق:

* وَبِتُّ أَفْضُ أَغْلَاقِ الْخِتَامِ^(٣) *

وقال الأعشى:

* وَأَبْرَزَهَا وَعَلَيْهَا خَتْمٌ^(٤) *

أى عليها طينة مختومة؛ مثل نَفِضٍ بمعنى مَنْفُوضٍ وَقَبِضٍ بمعنى مَقْبُوضٍ. وذكر ابن المبارك وابن وهب واللفظ لابن وهب عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى «خَتَامُهُ مِسْكٌ» خَلْطُهُ لَيْسَ بِخَتَامٍ يَخْتَمُ، ألا ترى إلى قول المرأة من نسائكُم: إن خَلْطَهُ مِنَ الطَّيِّبِ كَذَا وَكَذَا

(١) تقدم شرح البيت بهامش ص ١٤١ من هذا الجزء. (٢) هو أبو كبير الهذلي.

(٣) صدر البيت: * فبتن جنابى مصرعات *

(٤) صدره: * وصباه طاف يهوديها *

إنما خلطه مسك؛ قال : شراب أبيض مثل الفضة يخمون به آخر أشربتهم ، لو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل فيه يده ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها . وروى أبي بن كعب قال : قيل يارسول الله ما الرحيق المختوم ؟ قال : « غُدران الخمر » . وقيل : مختوم في الآنية وهو غير الذي يجري في الأنهار . فالله أعلم . (وفي ذلك) أى وفي الذى وصفناه من أمر الجنة (فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) أى فليرغب الراغبون ؛ يقال : نَفَسْتُ عليه الشيء أَنَفَسَهُ نَفَاسَةً أى ضمنت به ولم أحب أن يصير إليه . وقيل : الفاء بمعنى إلى أى وإلى ذلك فليتبادر المتبادرون فى العمل ؛ نظيره : « لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ » . (وَمِزَاجُهُ) أى ومزاج ذلك الرحيق (مِنْ تَسْنِيمٍ) وهو شراب ينصب عليهم من علو وهو أشرف شراب فى الجنة . وأصل التسنيم فى اللغة الأرتفاع ، فهى عين ماء تجرى من علو إلى أسفل ؛ ومنه سنام البعير لعلوه من بدنه ، وكذلك تسنيم القبور . وروى عن عبد الله قال : تسنيم عين فى الجنة يشرب بها المقربون صرفا ، ويمزج منها كأس أصحاب اليمين فتطيب . وقال ابن عباس فى قوله عز وجل : « وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ » قال : هذا مما قال الله تعالى « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » . وقيل : التسنيم عين تجرى فى الهواء بقدره الله تعالى فتنصب فى أوانى أهل الجنة على قدر ملئها ، فإذا امتلأت أمسك الماء فلا تقع منه قطرة على الأرض ولا يحتاجون إلى الأستقاء ؛ قاله قتادة . ابن زيد : بلغنا أنها عين تجرى من تحت العرش . وكذا فى مراسيل الحسن : وقد ذكرناه فى سورة « الإنسان » . (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ) أى يشرب منها أهل جنة عدن وهم أفاضل أهل الجنة صرفا ، وهى لغيرهم مزاج . و « عَيْنًا » نصب على المدح . وقال الزجاج : نصب على الحال من تسنيم ، وتسنيم معرفة ليس يعرف له اشتقاق ، وإن جعلته مصدرا مشتقا من السنام فـ « عَيْنًا » نصب ؛ لأنه مفعول به ؛ كقوله تعالى : « أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ . يَتِيمًا » وهذا قول الفراء إنه منصوب بتسنيم . وعند الأخفش بـ « يُسْقَوْنَ » أى يسقون عينا أو من عين . وعند المبرد بإضمار أعنى على المدح .

(١) راجع ص ١٢٥ من هذا الجزء فابدها .

قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ** ﴿٣٩﴾
وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ﴿٤٠﴾ **وَإِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنْقَلَبُوا**
فَكَهِينٌ ﴿٤١﴾ **وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ** ﴿٤٢﴾ **وَمَا أُرْسِلُوا**
عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٤٣﴾ **فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ** ﴿٤٤﴾
عَلَىٰ الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٤٥﴾ **هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : **(إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا)** وصف أرواح الكفار في الدنيا مع المؤمنين باستهزائهم بهم والمراد رؤساء قريش من أهل الشرك . روى ناس عن ابن عباس قال : هو الوليد بن المغيرة وعقبة بن أبي معيط والعاص بن وائل والأسود بن عبد يغوث والعاص ابن هشام وأبو جهل والنضر بن الحرث وأولئك **(كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا)** من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم مثل عمار وخباب وصهيب وبلال **(يَضْحَكُونَ)** على وجه السخرية **(وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ)** عند إتيانهم رسول الله صلى الله عليه وسلم **(يَتَغَامِرُونَ)** يغمز بعضهم بعضا ويشيرون بأعينهم . وقيل : أى يعيروهم بالإسلام ويعيبونهم به ؛ يقال : غمزت الشيء بىدى ؛ قال :

وَكُنْتُ إِذَا غَمَزْتُ قَنَاةَ قَوْمٍ * كَسَرْتُ كُؤُوبَهَا أَوْ تَسْتَقِيمًا

وقالت عائشة : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سجد غمزنى فقبضت رجلى . الحديث ؛ وقد مضى فى « النساء » . وغمزته بعينى . وقيل : الغمز بمعنى العيب يقال غمزته أى عابه ، وما فى فلان غمزة أى عيب . وقال مقاتل : نزلت فى على بن أبى طالب جاء فى نفر من المسلمين إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلمزهم المنافقون وضحكوا عليهم وتغامزوا . **(وَإِذَا أَنْقَلَبُوا)** أى أنصرفوا إلى أهلهم وأصحابهم وذويهم **(أَنْقَلَبُوا فَكَهِينٌ)** أى معجبين منهم . وقيل : معجبون بما هم عليه من الكفر متفكهون بذكر المؤمنين . وقرأ ابن القعقاع وحفص والأعرج والسلمى : **« فَكَهِينٌ »** بغير ألف . الباقيون بألف . قال الفراء : هما لغتان مثل

(١) راجع ج ٥ ص ٢٢٦ فابعدا .

طَمِعُ وَطَامِعٌ وَحَذِرٌ وَحَازِرٌ وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ «الدخان» (١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ . وَقِيلَ : الْفَكْهَ الْأَشْرَ
 الْبَطْرُ وَالْفَاكَةُ النَّاعِمُ الْمُنْتَعَمُ . ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ ﴾ أَي إِذَا رَأَى هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ فِي آتِبَاعِهِمْ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ وَمَا أُرْسِلُوا
 عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ لِأَعْمَالِهِمْ مُوَكَّلِينَ بِأَحْوَالِهِمْ رِقْبَاءَ عَلَيْهِمْ ﴿ فَالْيَوْمَ ﴾ يَعْنِي هَذَا الْيَوْمَ الَّذِي هُوَ
 يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ كَمَا ضَحِكَ
 الْكُفَّارُ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا . نَظِيرُهُ فِي آخِرِ سُورَةِ « الْمُؤْمِنِينَ » (٢) وَقَدْ تَقَدَّمَ . وَذَكَرَ ابْنُ الْمُبَارَكِ :
 أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى « فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ »
 قَالَ : ذَكَرْنَا أَنَّ كَعْبًا كَانَ يَقُولُ إِنَّ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ كُوَيْ ، فَإِذَا أَرَادَ الْمُؤْمِنُ أَنْ يَنْظُرَ
 إِلَى عَدُوِّكَ كَانَ لَهُ فِي الدُّنْيَا أَطْلَعُ مِنْ بَعْضِ الْكُوَيْ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَةِ أُخْرَى : « فَأَطَّلَعَ
 فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ » قَالَ : ذَكَرْنَا أَنَّهُ أَطَّلَعَ فَرَأَى جَمَاعَةَ الْقَوْمِ تَغْلِي . وَذَكَرَ ابْنُ الْمُبَارَكِ
 أَيْضًا : أَخْبَرَنَا الْكَلْبِيُّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى « اللَّهُ يُسْتَهْزِئُ بِهِمْ » قَالَ : يُقَالُ لِأَهْلِ
 النَّارِ وَهُمْ فِي النَّارِ أَخْرَجُوا فَتَفْتَحَ لَهُمْ أَبْوَابُ النَّارِ ، فَإِذَا رَأَوْهَا قَدْ فَتَحَتْ أَقْبَلُوا إِلَيْهَا يَرِيدُونَ
 الْخُرُوجَ وَالْمُؤْمِنُونَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ عَلَى الْأَرَائِكِ ، فَإِذَا آتَتْهُمُ إِلَى أَبْوَابِهَا غَلَقَتْ دُونَهُمْ ، فَذَلِكَ
 قَوْلُهُ : « اللَّهُ يُسْتَهْزِئُ بِهِمْ » وَيَضْحَكُ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ حِينَ غَلَقَتْ دُونَهُمْ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى :
 « فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ » . ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ . هَلْ تُوبَ الْكُفَّارُ
 مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ وَقَدْ مَضَى هَذَا فِي أَوَّلِ سُورَةِ « الْبَقَرَةِ » . وَمَعْنَى « هَلْ تُوبَ » أَي هَلْ
 جُوزِيَ بِسُخْرِيَّتِهِمْ فِي الدُّنْيَا بِالْمُؤْمِنِينَ إِذَا فَعَلَ بِهِمْ ذَلِكَ . وَقِيلَ : إِنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِـ « يَنْظُرُونَ »
 أَي يَنْظُرُونَ هَلْ جُوزِيَ الْكُفَّارُ فَيَكُونُ مَعْنَى هَلْ [التَّقْرِيرِ] وَمَوْضِعُهَا نَصْبًا بِـ « يَنْظُرُونَ » .
 وَقِيلَ : آسْتَنْفَافٌ لَا مَوْضِعَ لَهُ مِنَ الْإِعْرَابِ . وَقِيلَ : هُوَ إِضْمَارٌ عَلَى الْقَوْلِ ، وَالْمَعْنَى ؛ يَقُولُ
 بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ لِبَعْضٍ « هَلْ تُوبَ الْكُفَّارُ » أَي أَثِيبُ وَجُوزِيَ . وَهُوَ مِنْ ثَابَ يَثُوبُ
 أَي رَجَعَ ؛ فَالثَّوَابُ مَا يَرْجَعُ عَلَى الْعَبْدِ فِي مَقَابِلَةِ عَمَلِهِ وَيَسْتَعْمَلُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ . خَتَمْتُ
 السُّورَةَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(١) راجع ج ١٦ ص ١٣٩ (٢) راجع ج ١٢ ص ١٥٥ (٣) راجع ج ١ ص ٢٠٨

سورة الانشقاق

مكية في قول الجميع وهي خمس وعشرون آية

قوله تعالى : إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾
وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَكَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا
وَحُقَّتْ ﴿٥﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : (إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ) أى انصدعت وتفطرت بالغمام والغمام مثل
السحاب الأبيض . وكذا روى أبو صالح عن ابن عباس . وروى عن عليّ عليه السلام
قال : تشقّ من المجرة . وقال : المجرة باب السماء . وهذا من أشرط الساعة وعلاماتها .
(وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ) أى سمعت وحق لها أن تسمع . روى معناه عن ابن عباس
ومجاهد وغيرهما ؛ ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : ” ما أذن الله لشيء كإذنه لنبى يتغنى
بالقرآن ” أى ما أستمع الله لشيء ؛ قال الشاعر :

صُمُّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرَتْ بِهِ * وَإِنْ ذُكِرْتُ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا

أى سمعوا . وقال قنّب بن أمّ صاحب :

إِنْ يَأْذِنُوا رِيْبَةً طَارُوا بِهَا فَرَحًا * وَمَا هُمْ أَذِنُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا

وقيل : المعنى وحقق الله عليها الاستماع لأمره بالانشقاق . وقال الضحاك : حُقَّتْ أطاعت
وَحُقُّ لها أن تطيع ربها لأنه خلقها ؛ يقال : فلان محقوق بكذا . وطاعة السماء بمعنى أنها
لا تمتنع مما أراد الله بها . ولا يبعد خلق الحياة فيها حتى تطيع وتجيّب . وقال قتادة : حُقُّ لها
أن تفعل ذلك ؛ ومنه قول كثير :

فَإِنْ تَكُنِ الْعُتْبَى فَاهْلًا وَمَرْحَبًا * وَحُقَّتْ لَهَا الْعُتْبَى لَدَيْنَا وَقَلَّتْ

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ أى بسطت ودكت جبالها . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « تُمَدُّ مَدَّ الْأَدِيمِ » لأن الأديم إذا مَدَّ زال كل أنثناء فيه وامتد وأستوى . وقال ابن عباس وابن مسعود : ويزاد في سعتها كذا وكذا ؛ لوقوف الخلائق عليها للحساب حتى لا يكون لأحد من البشر إلا موضع قدمه لكثرة الخلائق فيها . وقد مضى في سورة « إبراهيم » أن الأرض تبدل بأرض أخرى وهى الساهرة فى قول ابن عباس على ما تقدم عنه . ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ أى أخرجت أمواتها وتخلت عنهم . وقال ابن جبير : أَلْقَتْ ما فى بطنها من الموتى وتخلت ممن على ظهرها من الأحياء . وقيل : أَلْقَتْ ما فى بطنها من كنوزها ومعادنها وتخلت منها . أى خلا جوفها فليس فى بطنها شىء وذلك يؤذن بعظم الأمر كما تلقى الحامل ما فى بطنها عند الشدة . وقيل : تخلت مما على ظهرها من جبالها وبحارها . وقيل : أَلْقَتْ ما أستودعت وتخلت مما أستحفظت ؛ لأن الله تعالى أستودعها عباده أحياء وأمواتا ، وأستحفظها بلاده مزارعة وأقواتا . ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ أى فى إلقاء موتاتها ﴿ وَحَقَّتْ ﴾ أى وحق لها أن تسمع أمره . وأختلف فى جواب « إذا » فقال الفراء : « أَدِنْتُ » والواو زائدة ، وكذلك « وَأَلْقَتْ » . ابن الأنبارى : قال بعض المفسرين جواب « إذا السماء أنشقت » « أَدِنْتُ » وزعم أن الواو مقحمة وهذا غلط ؛ لأن العرب لاتقحم الواو إلا مع « حتى » — إذا » كقوله تعالى : « حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا » ومع « لَمَّا » كقوله تعالى : « فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ » معناه « نَادَيْنَاهُ » والواو لاتقحم مع غير هذين . وقيل : الجواب فاء مضمرة كأنه قال : « إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ » فأيها الإنسان إنك كادح . وقيل : جوابها ما دل عليه « فَمَلَأْ بِهِ » أى إذا السماء أنشقت لاقى الإنسان كدحه . وقيل : فيه تقديم وتأخير ، أى « يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمَلَأْ بِهِ » « إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ » قاله المبرد . وعنه أيضا : الجواب « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ » وهو قول الكسائى ؛ أى إذا السماء أنشقت فمن أوتى كتابه بيمينه فحكه كذا . قال أبو جعفر النحاس : وهذا أصح

(١) راجع ج ٩ ص ٣٨٣ .

ما قيل فيه وأحسنه . وقيل : هو بمعنى أذكر « إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ » . وقيل : الجواب محذوف لعلم المخاطبين به ؛ أى إذا كانت هذه الأشياء علم المكذوبون بالبعث ضلالتهم وخسرانهم . وقيل : تقدم منهم سؤال عن وقت القيامة ، فقيل لهم : إذا ظهرت أشراتها كانت القيامة فرأيتم عاقبة تكذيبكم بها . والقرآن كآلية الواحدة في دلالة البعض على البعض . وعن الحسن : إن قوله « إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ » قسم . والجمهور على خلاف قوله من أنه خبر وليس بقسم .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا) المراد بالإنسان الجنس أى يابن آدم . وكذا روى سعيد عن قتادة : يابن آدم إن كدحك لضعيف فمن أستطاع أن يكون كدحه في طاعة الله فليعمل ولا قوة إلا بالله . وقيل : هو معين ؛ قال مقاتل : يعنى الأسود بن عبد الأسد . ويقال : يعنى أبى بن خلف . ويقال : يعنى جميع الكفار ؛ يعنى يابها الكافر إنك كادح . والكدح في كلام العرب العمل والكسب ؛ قال ابن مقبل :
وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا تَارَاتِنٌ فَمِنْهُمَا * أَمُوتُ وَأُخْرَىٰ أَبْتغِي العَيْشَ أَكْدَحُ
وقال آخر :

وَمَضَتْ بِسَاشَةِ كُلِّ عَيْشٍ صَالِحٍ * وَبَقِيَتْ أَكْدَحُ لِلْحَيَاةِ وَأَنْصَبُ

أى أعمل . وروى الضحاك عن ابن عباس : « إِنَّكَ كَادِحٌ » أى راجع « إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا » أى رجوعاً لا محالة « فَمُلَاقِيهِ » أى ملاقي ربك . وقيل : ملاقي عملك . القتيبي : « إِنَّكَ كَادِحٌ » أى عامل ناصب في معيشتك إلى لقاء ربك . والملافة بمعنى اللقاء أى تلقى ربك بعملك . وقيل : أى تلاقى كتاب عملك ؛ لأن العمل قد أنقضى ولهذا قال : « فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ » .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ يَمِينِهِ ﴾ وهو المؤمن ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ لا مناقشة فيه . كذا روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من حوسب يوم القيامة عُدب " قالت : فقلت يا رسول الله أليس قد قال الله « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ يَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا » فقال : " ليس ذلك الحساب إنما ذلك العرض من نوقش الحساب يوم القيامة عُدب " أخرجه البخارى ومسلم والترمذى . وقال حديث حسن صحيح . ﴿ وَيُنْقَلَبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ أزواجه فى الجنة من الحور العين « مسروراً » أى مغتبطاً قرير العين . ويقال : إنها نزلت فى أبى سلمة ابن عبد الأسد وهو أول من هاجر من مكة إلى المدينة . وقيل : إلى أهله الذين كانوا له فى الدنيا ليخبرهم بخلاصه وسلامته . والأول قول قتادة . أى إلى أهله الذين قد أعدهم الله له فى الجنة .

قوله تعالى : وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿ ١٠ ﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿ ١١ ﴾ وَيَصَلَّىٰ سَعِيرًا ﴿ ١٢ ﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿ ١٣ ﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴿ ١٤ ﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿ ١٥ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ نزلت فى الأسود بن عبد الأسد أخى أبى سلمة ؛ قاله ابن عباس . ثم هى عامة فى كل مؤمن وكافر . قال ابن عباس : يمد يده اليمنى لياخذ كتابه فيجذبه مَلَكٌ فيخلع يمينه ، فيأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره . وقال قتادة ومقاتل : يفسك ألواح صدره وعظامه ثم تدخل يده وتخرج من ظهره فيأخذ كتابه كذلك . ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴾ أى بالهلاك فيقول : يا ويلاه يا ثبوراه . ﴿ وَيَصَلَّىٰ سَعِيرًا ﴾ أى ويدخل النار حتى يصلى بجزها . وقرأ الحرميان وابن عامر والكسائى « وَيُصَلَّىٰ » بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام ؛ كقوله تعالى : « ثُمَّ اجْتَمِعَ صَلَواتُهُ » وقوله : « وَتَصَلِيَةٌ جَحِيمٌ » . الباقون « وَيَصَلَّىٰ » بفتح الياء مخففاً فعل لازم غير متعد ؛ لقوله : « إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ » وقوله : « يُصَلَّىٰ النَّارَ الْكُبْرَى » وقوله : « ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ » . وقراءة ثالثة رواها أبان

عن عاصم وخارجة عن نافع وإسماعيل المكي عن ابن كثير « وَيُصَلِّي » بضم الياء وإسكان الصاد وفتح اللام مخففاً ؛ كما قرئ « وَسَيُصَلُّونَ » بضم الياء ، وكذلك في « الغاشية » قد قرئ أيضاً : « تُصَلِّي نَارًا » وهما لغتان صلي وأصلي ؛ كقوله : « نَزَلَ . وَأَنْزَلَ » . ﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ ﴾ أي في الدنيا ﴿ مَسْرُورًا ﴾ قال ابن زيد : وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء والشفقة في الدنيا فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة ، وقرأ قول الله تعالى : « إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ » قال : ووصف أهل النار بالسرور في الدنيا والضحك فيها والتفككه فقال : « إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا » . ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴾ أي لن يرجع حياً مبعوثاً فيحاسب ثم يثاب أو يعاقب . يقال : حار يحور إذا رجع ؛ قال لبيد :

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالشَّهَابِ وَضُوئِهِ * يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعٌ

وقال عكرمة وداود بن أبي هند : يحور كلمة بالحبشية ومعناها يرجع . ويجوز أن تتفق الكلمتان فإنهما كلمة اشتقاق ؛ ومنه الخبز الحواري ؛ لأنه يرجع إلى البياض . وقال ابن عباس : ما كنت أدري ما يحور حتى سمعت أعرابية تدعو بنية لها حوري حوري أي أرجعي إلي ، فالحوور في كلام العرب الرجوع ؛ ومنه قوله عليه السلام : « اللهم إني أعوذ بك من الحور بعد الكور » يعني من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة . وكذلك الحور بالضم . وفي المثل « حور في محارة » أي نقصان في نقصان يضرب للرجل إذا كان أمره يدبر ؛ قال الشاعر :

وَأَسْتَعَجَلُوا عَن خَفِيفِ الْمَضْغِ فَازْدَرَدُوا * وَالذَّمُّ يَبْقَى وَزَادُ الْقَوْمِ فِي حُورِ

والحور أيضا الأسم من قولك : طحنت الطاحنة فما أحات شيئا ؛ أي ما ردت شيئا من الدقيق . والحور أيضا الهلكة ؛ قال الراجز :

* فِي بَيْتٍ لَا حُورِ سَرَى وَلَا شَعْرُ *

(١) فائله سبع بن الخطيم ؛ يريد الأكل يذهب والدم يبقى .

(٢) هو العجاج .

قال أبو عبيدة : أى بَرْحُورٍ ، و « لا » زائدة . وروى " بَعْدَ الْكُونِ " (١) ومعناه من
انتشار الأمر بعد تمامه . وسُئِلَ مَعْمَرٌ عَنِ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكُونِ فَقَالَ : هُوَ الْكُنْتِي . فقال
له عبد الرزاق : وما الْكُنْتِي ؟ فقال : الرجل يكون صالحاً ثم يتحول رجل سوء . قال
أبو عمرو : يقال للرجل إذا شاخ كُنْتِي كأنه نسب إلى قوله : كُنْتُ فِي شَبَابِي كَذَا . قال :
فَأَصْبَحْتُ كُنْتِيًّا وَأَصْبَحْتُ عَاجِنًا * وَشَرُّ خِصَالِ الْمَرْءِ كُنْتُ وَعَاجِنٌ

عجن الرجل إذا نهض معتمدا على الأرض من الكبر . وقال ابن الأعرابي : الْكُنْتِي هُوَ الَّذِي
يَقُولُ كُنْتُ شَابًا وَكُنْتُ شَجَاعًا ، وَالْكَانِي هُوَ الَّذِي يَقُولُ : كَانَ لِي مَالٌ وَكُنْتُ أَهْبًا ، وَكَانَ
لِي خَيْلٌ وَكُنْتُ أَرْكَبُ .

قوله تعالى : ﴿ بَلَى ﴾ أى ليس الأمر كما ظن بل يحور إلينا ويرجع . ﴿ إِنْ رَبُّهُ كَانَ بِهِ
بَصِيرًا ﴾ قبل أن يخلقه عالماً بأن مرجعه إليه . وقيل : بلى ليحورن ويرجعن . ثم استأنف
فقال : « إِنْ رَبُّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا » من يوم خلقه إلى أن بعثه . وقيل : عالماً بما سبق له
من الشقاء والسعادة .

قوله تعالى : فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ
إِذَا آتَسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرَكِبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾
وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ ﴾ أى فاقسم و « لا » صلة . ﴿ بِالشَّفَقِ ﴾ أى بالجمرة التى
تكون عند مغيب الشمس حتى تأنى صلاة العشاء الآخرة . قال أشهب وعبد الله بن الحكم
ويحيى بن يحيى وغيرهم كثير عددهم عن مالك : الشَّفَقُ الْجَمْرَةُ الَّتِي فِي الْمَغْرِبِ ، فَإِذَا ذَهَبَتْ
الْجَمْرَةُ فَقَدْ خَرَجَتْ مِنْ وَقْتِ الْمَغْرِبِ وَوَجِبَتْ صَلَاةُ الْعِشَاءِ . وروى ابن وهب قال : أخبرني
غير واحد عن علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل وعبادة بن الصَّامِتِ وشَدَادِ بْنِ أَوْسٍ

(١) الكون هنا : مصدر كان التامة يقال : كان يكون كونا أى وجد واستقر . (النهاية) .

وأبي هريرة أن الشَّفَقَ الحُمْرَةَ ، وبه قال مالك بن أنس . وذكر غيرُ ابن وهب من الصحابة
عُمرُ وابنُ عُمرُ وابنُ مسعودُ وابنُ عباسٍ وأنسًا وأبا قتادة وجابر بن عبد الله وابن الزبير ، ومن
التابعين سعيد بن جبير وابن المسيَّب وطاوس وعبد الله بن دينار والزهرى ، وقال به من
الفقهاء الأوزاعي ومالك والشافعي وأبو يوسف وأبو ثور وأبو عبيد وأحمد وإسحق . وقيل :
هو البياض ؛ روى ذلك عن ابن عباس وأبي هريرة أيضا وعمر بن عبد العزيز والأوزاعي
وأبي حنيفة في إحدى الروايتين عنه . وروى أسد بن عمرو أنه رجع عنه . وروى عن ابن
عمر أيضا أنه البياض والأختيار الأول ؛ لأن أكثر الصحابة والتابعين والفقهاء عليه ؛ ولأن
شواهد كلام العرب والاشتقاق والسنة تشهد له . قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول
لثوب عليه مصبوغ كأنه الشَّفَقَ وكان أحمر فهذا شاهد للحمرة ؛ وقال الشاعر :

* وَأَحْمَرُ اللَّوْنِ كَحُمْرِ الشَّفَقِ *

وقال آخر :

قُمْ يَا غَلَامُ أَعْنِي غَيْرَ مُرْتَبِكِ * عَلَى الزَّمَانِ بِكَأْسِ حَشْوِهَا شَفَقُ

ويقال للغمرة الشَّفَقُ . وفي الصباح : الشَّفَقُ بقية ضوء الشمس وحمرتها في أول الليل إلى
قريب من العتمة . قال الخليل : الشَّفَقُ الحُمْرَةُ من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة
إذا ذهب قيل غاب الشَّفَقُ . ثم قيل : أصل الكلمة من رِقَّة الشيء ؛ يقال : شَيْءٌ شَفِيقٌ
أى لا تماسك له لرقته . وأشفق عليه أى رَقَّ قلبه عليه ، والشَّفَقَةُ الأسم من الإشفاق وهو
رِقَّة القلب وكذلك الشَّفَقُ ؛ قال الشاعر :

تَهَوَى حَيَاتِي وَأَهْوَى مَوْتَهَا شَفَقًا * وَالْمَوْتُ أَكْرَمُ نَزَالٍ عَلَى الْحُرَمِ

فالشَّفَقُ بقية ضوء الشمس وحمرتها فكان تلك الرقعة من ضوء الشمس . وزعم الحكماء أن
البياض لا يغيب أصلا . وقال الخليل : صعدت منارة الإسكندرية فرمقت البياض فرأيته
يتردد من أفق إلى أفق ولم أره يغيب . وقال ابن أبي أويس : رأيت يتمادى إلى طلوع الفجر .

(١) هو إسحق بن خلف . وقيل هو لابن المعلی . اللسان .

قال علماؤنا : فلما لم يتحدد وقته سقط أعتباره . وفي سنن أبي داود عن النعمان بن بشير قال :
 أنا أعلمكم بوقت صلاة العشاء الآخرة ؛ كان النبي صلى الله عليه وسلم يصاها لسقوط القمر
 لثلاثة . وهذا تحديد ثم الحكم معلق بأول الأسم . لا يقال : فينتقض عليكم بالفجر الأول
 فإننا نقول الفجر الأول لا يتعلق به حكم من صلاة ولا إمساك ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم
 بين الفجر بقوله وفعله فقال : " وليس الفجر أن تقول هكذا — فرفع يده إلى فوق —
 ولكن الفجر أن تقول هكذا وبسطها " وقد مضى بيانه في آية الصيام من سورة « البقرة »^(١)
 فلا معنى للإعادة . وقال مجاهد : الشفق النهار كله ألا تراه قال « وَاللَّيْلُ وَمَا وَسَقَ » . وقال
 عكرمة : ما بقي من النهار . والشفق أيضا الرديء من الأشياء ؛ يقال : عطاء مُشَفَّقٌ أى مُقَلَّلٌ ؛
 قال المكيّ :

مَلِكٌ أَغْرَثَ مِنَ الْمَلُوكِ تَحَلَّبَتْ * لِلسَّائِلِينَ يَدَاهُ غَيْرَ مُشَفَّقِي

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلُ وَمَا وَسَقَ ﴾ أى جمع وضم ولف وأصله من سورة السلطان
 وغضبه ؛ فلولا أنه خرج إلى العباد من باب الرحمة ما تمالك العباد لمجيئه ، ولكن خرج من
 باب الرحمة فمزح بها فسكن الخلق إليه ثم أذعروا وألتفوا وأنقبضوا ورجع كل إلى مأواه
 فسكن فيه من هوله وحشا ، وهو قوله تعالى : « وَمِنْ رَحْمَتِي جَعَلْتُ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا
 فِيهِ » أى بالليل « وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ » أى بالنهار على ما تقدم . فالليل يجمع ويضم ما كان
 منتشرا بالنهار فى تصرفه . هذا معنى قول ابن عباس ومجاهد ومقاتل وغيرهم ؛ قال ضابئ
 ابن الحرث البرجمي :

فَلَأْنِي وَإِيَّاكُمْ وَشَوْقًا إِلَيْكُمْ * كَقَابِضِ مَاءٍ لَمْ تَسْقَهُ أَنَامِلُهُ

يقول : ليس فى يدي من ذلك شىء كما أنه ليس فى يد القابض على الماء شىء ؛ فإذا جَلَّ
 الليلُ الجبالَ والأشجارَ والبحارَ والأرضَ فأجتمعت له فقد وَسَقَهَا . والوسق ضمك الشىء

(١) راجع ج ٢ ص ٣١٨ فا بعدها .

بعضه إلى بعض ، تقول : وَسَقْتَهُ أَسَقَهُ وَسَقَا . ومنه قيل : للطعام الكثير المجتمع وَسَقٌ وهو ستون صاعا . وطعام موسوق أى مجموع ، وإبلٌ مستوسقة أى مجتمعة ؛ قال الراجز ^(١) :

إِن لَنَا قَلَائِصًا حَقَائِقًا * مُسْتَوْسِقَاتٍ لَوْ تَجِدَنَّ سَائِقًا

وقال عكرمة : « وَمَا وَسَقَ » أى وما ساق من شىء إلى حيث يأوى ؛ فالوسقُ بمعنى الطرد ؛ ومنه قيل للطريدة من الإبل والغنم والحمر وسيقة ؛ قال الشاعر ^(٢) :

* كَمَا قَافَ آثَارَ الْوَسِيقَةِ قَائِفٌ *

وعن ابن عباس : « وَمَا وَسَقَ » أى وما جَنَّ وستر . وعنه أيضا : وما حمل وكل شىء حملته فقد وَسَقْتَهُ ؛ والعرب تقول : لا أفعله ما وَسَقْت عيني الماء ؛ أى حملته . ووسقت الناقة تَسِقُ وَسَقًا أى حملت وأغلقت رَحْمَهَا على الماء ، فهى ناقة واسق ونوق وساق مثل نائم ونيام وصاحب وصحاب ؛ قال بشر بن أبي خازم :

الظَّيْبِ يَحْدُوهُنَّ حَتَّى * تَبَيَّنَتِ الْجِيَالُ مِنَ الْوِسَاقِ

ومواسيق أيضا . وأوسقت البعير حملته حملة وأوسقت النخلة كثر حملها . وقال يمان والضحاك ومقاتل بن سليمان : حَمَلٌ مِنَ الظُّلْمَةِ . قال مقاتل : أو حمل من الكواكب . القشيري ومعنى حَمَلٌ ضَمٌّ وجمع والليل يجلل بظلمته كل شىء فإذا جَلَّلَهَا فقد وَسَقَهَا . ويكون هذا الْقَسَمُ قَسَمًا بِجَمِيعِ المخلوقات ؛ لِأَشْتِمَالَ اللَّيْلِ عَلَيْهَا ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ » . وقال ابن جبیر : « وَمَا وَسَقَ » أى وما عمل فيه يعنى التهجيد والامستغفار بالأنسحار ؛ قال الشاعر :

وَيَوْمًا تَرَانَا صَالِحِينَ وَتَارَةً * تَقُومُ بِنَا كَالْوَسَاقِ الْمُتَابِبِ

أى كالعامل .

(١) هو العجاج كما فى اللسان مادة « وسق » .

(٢) قائله الأسود بن يعفر، صدره : * كذبت عليك لا تزال تقوفنى *

قوله تعالى : ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ أى تم واجتمع وأستوى . قال الحسن : آتسق أى أمثلاً واجتمع . ابن عباس : آستوى . قتادة : آستدار . الفراء : آتساقه أمثلاؤه وآستواؤه ليالى البدر وهو آفتعال من الوسق الذى هو الجمع ؛ يقال : وسقته فأتسق ، كما يقال : وصلته فأتصل ، ويقال : أمر فلان مُتَّسِقٌ أى مجتمع على الصلاح منتظم . ويقال : آتسق الشيء إذا تتابع . ﴿ لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ قرأ أبو عمرو وآبن مسعود وآبن عباس وآبو العالية ومسروق وآبو وائل ومجاهد والنخعى والشعبى وآبن كثير وحمزة والكسائى « لَتَرْكَبَنَّ » بفتح الباء خطابا للنبي صلى الله عليه وسلم أى لتركبن يا محمد حالا بعد حال ؛ قاله آبن عباس . الشعبى : لتركبن يا محمد سماء بعد سماء ، ودرجة بعد درجة ، ورتبة بعد رتبة فى القربة من الله تعالى . آبن مسعود : لتركبن السماء حالا بعد حال ؛ يعنى حالاتها التى وصفها الله تعالى بها من الآسحاق والطفى وكونها مرة كالمُهَلِّ ومرة كالدهان . وعن إبراهيم عن عبد الله : « طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ » قال : السماء تقلب حالا بعد حال . قال : تكون وردة كالدهان وتكون كالمُهَلِّ . وقيل : أى لتركبن أيها الإنسان حالا بعد حال من كونك نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم حيا وميتا وغنيا وفقيرا . فالخطاب للإنسان المذكور فى قوله : « يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ » وهو آسم بلجنس ومعناه الناس . وقرأ الباقون « لَتَرْكَبَنَّ » بضم الباء خطابا للناس وآختره أبو عبيد وآبو حاتم ؛ قال : لأن المعنى بالناس أشبه منه بالنبي صلى الله عليه وسلم ؛ لما ذكر قبل هذه الآية فمن يؤتى كتابه بيمينه ومن يؤتى كتابه بشماله . أى لتركبن حالا بعد حال من شدة آند القيامة ، أو لتركبن سنة من كان قبلكم فى التكذيب وآختلاق على الأنبياء .

قلت : وكله مراد وقد جاءت بذلك آحاديث^(١) ؛ فروى أبو نعيم الحافظ عن جعفر بن محمد بن على عن جابر رضى الله عنه ، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن آبن آدم افهى غفلة عما خلقه الله عز وجل إن الله لا إله غيره إذا أراد خلقه قال للملك آكتب رزقه وآثره وآجله وآكتبه شقيا أو سعيدا ثم يرتفع ذلك الملك ويبعث الله ملكا

(١) راجع ج ١٧ ص ١٤ .

آخر فيحفظه حتى يدرك ثم يبعث الله ملكين يكتبان حسناته وسيئاته فإذا جاءه الموت أرتفع ذاك الملكان ثم جاءه ملك الموت عليه السلام فيقبض روحه فإذا أدخل حفرته رَدَّ الروح في جسده ثم يرتفع ملك الموت ثم جاءه ملكا القبر فامتحناه ثم يرتفعان فإذا قامت الساعة آنحط عليه ملك الحسنات وملك السيئات فأنشطا كتابا معقودا في عنقه ثم حضرا معه واحد سائق والآخر شهيد“ ثم قال الله عز وجل « لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَكُمُ الْيَوْمَ حَدِيدًا » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَتَرَكِبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ » قال : ” حالا بعد حال “ ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : ” إن قدامكم أمرا عظيما فاستعينوا بالله العظيم “ فقد أشتمل هذا الحديث على أحوال تعترى الإنسان من حين يخلق إلى حين يبعث ، وكله شدة بعد شدة ، حياة ثم موت ، ثم بعث ثم جزاء ، وفي كل حال من هذه شدائد . وقال صلى الله عليه وسلم : ” لَتَرَكِبَنَّ سِنِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شَبْرًا بِشَبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ “ قالوا : يا رسول الله ! اليهود والنصارى ؟ قال : ” فمن “ ؟ خرجه البخارى . وأما أقوال المفسرين ؛ فقال عكرمة :

حالا بعد حال ؛ فطيما بعد رضيع وشيخا بعد شباب ؛ قال الشاعر :

كَذَلِكَ الْمَرْءُ إِنْ يُنْسَأَ لَهُ أَجَلٌ * يَرَكِبُ عَلَى طَبَقٍ مِنْ بَعْدِهِ طَبَقٌ

وعن مكحول : كل عشرين عاما تجدون أمرا لم تكونوا عليه . وقال الحسن : أمرا بعد أمر ؛ رخاء بعد شدة ، وشدة بعد رخاء ، وغنى بعد فقر ، وفقرا بعد غنى ، وصحة بعد سقم ، وسقما بعد صحة . سعيد بن جبیر : منزلة بعد منزلة ؛ قوم كانوا في الدنيا متضعين فأرتفعوا في الآخرة ، وقوم كانوا في الدنيا مرتفعين فاتضعوا في الآخرة . وقيل : منزلة عن منزلة وطبقا عن طبق^(٢) ؛ وذلك أن من كان على صلاح دعاه إلى صلاح فوقه ، ومن كان على فساد دعاه إلى فساد فوقه ؛ لأن كل شيء يجر إلى شكله . ابن زيد : ولتصيرن من طبق الدنيا إلى طبق الآخرة . وقال ابن عباس : الشدائد والأهوال الموت ثم البعث ثم العرض ؛

(١) رواية البخارى ” لتبعن “ بدل ” لتركين “ . (٢) في نسخة : طبقة .

والعرب تقول لمن وقع في أمر شديد : وقع في بنات طبق وإحدى بنات طبق ؛ ومنه قيل للداهية الشديدة : أم طبق وإحدى بنات طبق . وأصلها من الحيات ؛ إذ يقال للحية أم طبق لتحويتها . والطبق في اللغة الحال كما وصفنا ؛ قال الأقرع بن حابس التميمي :

إِنِّي أَمْرٌ قَدْ حَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ * وَسَاقَنِي طَبَقٌ مِنْهُ إِلَى طَبَقِ

وهذا أدل دليل على حدوث العالم وإثبات الصانع ؛ قالت الحكماء : من كان اليوم على حالة وغدا على حالة أخرى فليعلم أن تدبيره إلى سواه . وقيل لأب بكر الوراق : ما الدليل على أن لهذا العالم صانعا ؟ فقال : تحويل الحالات ، وعجز القوة ، وضعف الأركان ، وقهر المنية ، ونسخ العزيمة . ويقال : أتانا طبق من الناس وطبق من الجراد أي جماعة . وقول العباس في مدح النبي صلى الله عليه وسلم :

تُنْقَلُ مِنْ صَالِبٍ إِلَى رَحِيمٍ * إِذَا مَضَى عَالَمٌ بَدَأَ طَبَقٌ

أي قرن من الناس . يكون طباق الأرض أي ملاءها . والطبق أيضا عظم رقيق يفصل بين الفقارين . ويقال : مضى طبق من الليل وطبق من النهار أي معظم منه . والطبق واحد الأطباق فهو مشترك . وقرئ « لَتَرَكِبَنَّ » بكسر الباء على خطاب النفس و « لَيْرَكِبَنَّ » بالياء على ليركبن الإنسان . و « عن طبق » في محل نصب على أنه صفة لـ « طبقا » أي طبقا مجاوزا لطبق . أو حال من الضمير في « لَتَرَكِبَنَّ » أي لتركبن طبقا مجاوزين لطبق أو مجاوزا أو مجازة على حسب القراءة .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني أي شيء يمنعهم من الإيمان بعد ما وضحت لهم الآيات وقامت الدلالات . وهذا آسفهم إنكار . وقيل : تعجيب أي أعجبوا منهم في ترك الإيمان مع هذه الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ أي لا يصلون . وفي الصحيح : إن أبا هريرة قرأ « إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ » فسجد فيها فلما أنصرف أخبرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد فيها . وقد قال مالك : إنها ليست من عزائم السجود ؛ لأن المعنى

لا يذعنون ولا يطيعون في العمل بواجباته . ابن العربي : والصحيح أنها منه وهي رواية المدنيين عنه وقد اعتضد فيها القرآن والسنة . قال ابن العربي : لما أمت بالناس تركت قراءتها ؛ لأنني إن سجدت أنكرته وإن تركتها كان تقصيرا مني فاجتنبتها إلا إذا صليت وحدي . وهذا تحقيق وعيد الصادق بأن يكون المعروف منكرا والمنكر معروفا ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم لعائشة : ”أولا حديثان قومك بالكفر لهدمت البيت ولرددته على قواعد إبراهيم“ . ولقد كان شيخنا أبو بكر الفهري يرفع يديه عند الركوع وعند الرفع منه ، وهو مذهب مالك والشافعي ويفعله الشيعة ، فحضر عندي يوما في محرس ابن الشواء بالثغر - موضع تدريسي - عند صلاة الظهر ودخل المسجد من المحرس المذكور فتقدم إلى الصف وأنا في مؤخره قاعدا على طاقات البحر أتسم الريح من شدة الحر ، ومعى في صف واحد أبو ثمنة رئيس البحر وقائده مع نفر من أصحابه ينتظر الصلاة ويتطاع على مراكب تحت الميناء ، فلما رفع الشيخ يديه في الركوع وفي رفع الرأس منه قال أبو ثمنة وأصحابه : ألا ترون إلى هذا المشرق كيف دخل مسجدنا؟ فقوموا إليه فاقتلو وآرموا به إلى البحر فلا يراكم أحد . فطارقابي من بين جوانحي وقلت : سبحان الله هذا الطرطوسي فقيه الوقت . فقالوا لي : ولم يرفع يديه ؟ فقلت : كذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل ، وهذا مذهب مالك في رواية أهل المدينة عنه . وجعلت أسكتهم وأسكتهم حتى فرغ من صلاته وقمت معه إلى المسكن من المحرس ، ورأى تغير وجهي فأنكره وسألني فأعلمته ، فضحك وقال : ومن أين لي أن أقتل على سنة؟ فقلت له : ولا يحل لك هذا فإنك بين قوم إن قمت بها قاموا عليك وربما ذهب دمك . فقال : دع هذا الكلام وخذ في غيره .

قوله تعالى : **بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾** وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكذِّبُونَ ﴾ مجدا صلى الله عليه وسلم وما جاء به .
 وقال مقاتل : نزلت في بني عمرو بن عمير وكانوا أربعة فأسلم آثنان منهم . وقيل : هي
 في جميع الكفار . ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ أى بما يضمرونه في أنفسهم من التكذيب . كذا
 روى الضحاك عن ابن عباس . وقال مجاهد : يكتُمون من أفعالهم . ابن زيد : يجمعون
 من الأعمال الصالحة والسيئة ، مأخوذ من الوعاء الذى يجمع ما فيه ؛ يقال : أوعيت الزاد
 والمتاع إذا جعلته في الوعاء ؛ قال الشاعر :

الخيرُ أبقي وإن طال الزمانُ به * والشرُّ أخبثُ ما أوعيتُ من زادٍ

ووعاه أى حفظه ؛ تقول : وعيتُ الحديثَ أعيه ووعياً وأذنٌ واعيية . وقد تقدم . ﴿ فَبَشِّرْهُمُ
 بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى موجع في جهنم على تكذيبهم . أى أجعل ذلك بمنزلة البشارة . ﴿ إِلَّا الَّذِينَ
 آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ استثناء منقطع ، كأنه قال : لكن الذين صدقوا بشهادة أن لا إله
 إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وعملوا الصالحات أى أدوا الفرائض المفروضة عليهم ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ
 أَيْ ثَوَابٌ ﴾ ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أى غير منقوص ولا مقطوع ؛ يقال : مننت الحبل إذا قطعته .
 وقد تقدم . وسأل نافع بن الأزرق ابن عباس عن قوله « لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » فقال :
 غير مقطوع . فقال : هل تعرف ذلك العرب ؟ قال : نعم قد عرفه أخو يشكر حيث يقول :
 فترى خائفهن من سرعة الرجاء * مع منيناً كأنه أهباء

قال المبرد : المنين الغبار ؛ لأنها تقطعه وراها . وكل ضعيف منين وممنون . وقيل :
 « غَيْرُ مَمْنُونٍ » لا يُمن عليهم به . وذكر ناس من أهل العلم أن قوله « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ » ليس استثناء وإنما هو بمعنى الواو ، كأنه قال : والذين آمنوا . وقد مضى
 فى « البقرة » القول فيه والحمد لله .

(۱) راجع ج ۱۸ ص ۲۶۳ (۲) راجع ج ۱۵ ص ۳۴۱ .
 (۳) تقدم هذا البيت بلفظ : فترى حنفاً من الرجوع والوقد * مع منيناً ... الخ .
 (۴) راجع ج ۲ ص ۱۶۹ .

سورة البروج

مكية باتفاق . وهي ثمان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾

قَسَمُ أَقْسَمَ اللَّهُ بِهِ جَلَّ وَعَزَّ . وفي «البروج» أقوال أربعة : أحدها - ذات النجوم ؛ قاله الحسن وقتادة ومجاهد والضحاك . الثاني - القصور ؛ قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد أيضا . قال عكرمة : هي قصور في السماء . مجاهد : البروج فيها الحرس . الثالث - ذات الخلق الحسن ؛ قاله المنهال بن عمرو . الرابع - ذات المنازل ؛ قاله أبو عبيدة ويحيى ابن سلام . وهي اثنا عشر بُرْجًا ، وهي منازل الكواكب والشمس والقمر . يسير القمر في كل برج منها يومين وثلاث يوم ؛ فذلك ثمانية وعشرون يوما ، ثم يَسْتَسِرُّ ليلتين ؛ وتسير الشمس في كل بُرْجٍ منها شهرا . وهي : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدي ، والدلو ، والحوت . والبروج في كلام العرب : القصور ؛ قال الله تعالى : « وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ » . وقد تقدم .

قوله تعالى : وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾

قوله تعالى : (وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ) أي الموعد به . وهو قَسَمٌ آخر ، وهو يوم القيامة ؛ من غير اختلاف بين أهل التأويل . قال ابن عباس : وعد أهل السماء وأهل الأرض أن يجتمعوا فيه . (وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ) اختلف فيهما ؛ فقال عليّ وابن عباس وابن عمر وأبو هريرة رضي الله عنهم : الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة . وهو قول الحسن .

(١) سرر الشهر (بفتح السين) : آخر ليلة منه ؛ وهو مشتق من قولهم : استسر القمر ؛ أي خفي ليلة السرار ؛ وربما كان

(٢) راجع ج ٥ ص ٨٢ .

ورواه أبوهريرة مرفوعا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اليوم الموعود يوم القيامة واليوم المشهود يوم عرفة والشاهد يوم الجمعة ... " خرجه أبو عيسى الترمذى فى جامعه وقال : هــذا حديث [حسن^(١)] غريب لا نعرفه إلا من حديث موسى بن عبيدة ، وموسى ابن عبيدة يضعف فى الحديث ، ضعفه يحيى بن سعيد وغيره . وقد روى شعبة وسفيان الثورى وغير واحد من الأئمة عنه . قال القشيرى فى يوم الجمعة يشهد على كل عامل بما عمل فيه .

قلت : وكذلك سائر الأيام والاليام ؛ فكل يوم شاهد وكذا كل ليلة ؛ ودليله ما رواه أبو نعيم الحافظ عن معاوية بن قرة عن معقل بن يسار عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "ليس من يوم يأتى على العبد إلا ينادى فيه يا بن آدم أنا خلق جديد وأنا فيما تعمل عليك شهيد فاعمل فى خيرا أشهدك به غداً فإنى أو قد مضيت لم ترنى أبداً ويقول الليل مثل ذلك " . حديث غريب من حديث معاوية ، تفرد به عنه زيد العمى^(٢) ، ولا أعلمه مرفوعا عن النبى صلى الله عليه وسلم إلا بهذا الإسناد . وحكى القشيرى عن ابن عمر وأبن الزبير أن الشاهد يوم الأضحى . وقال سعيد بن المسيب : الشاهد التروية ، والمشهود يوم عرفة . وروى إسرائيل عن أبى إسحق عن الحرث عن على بن على رضى الله عنه : الشاهد يوم عرفة ، والمشهود يوم النحر . وقاله النخعى . وعن على أيضا : المشهود يوم عرفة . وقال ابن عباس والحسين ابن على رضى الله عنهما : المشهود يوم القيامة ؛ لقوله تعالى : « ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ » .

(١) الزيادة من صحيح الترمذى .

(٢) فى كتاب الأنساب للسمعانى : « العمى » بفتح العين المهملة وتشديد الميم ، هذه النسبة إلى العم وهو بطن من تميم . وفى تهذيب التهذيب : « قال على بن مصعب : سمى زيد العمى لأنه كان كلما سئل عن شىء قال حتى أسأل عمى » .

(٣) آية ١٠٣ سورة هود .

قلت : وعلى هذا اختلفت أقوال العلماء في الشاهد فقيل : الله تعالى ؛ عن ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير؛ بيانه : « وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ^(١) » ، « قُلْ أَىُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ ^(٢) بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ » . وقيل : محمد صلى الله عليه وسلم ؛ عن ابن عباس أيضا والحسين ابن علي ؛ قرأ ابن عباس « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ^(٣) » ، وقرأ الحسين « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ^(٤) » .

قلت : وأقرأ أنا « وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ^(٥) » . وقيل : الأنبياء يشهدون على أممهم ؛ لقوله تعالى : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ » . وقيل : آدم . وقيل : عيسى بن مريم ؛ لقوله : « وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ ^(٦) » . والمشهود أمته . وعن ابن عباس أيضا ومحمد بن كعب : الشاهد الإنسان ؛ دليله : « كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ^(٧) » . مقاتل : أعضاؤه ؛ بيانه : « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(٨) » . الحسين بن الفضل : الشاهد هذه الأمة ، والمشهود سائر الأمم ؛ بيانه : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ^(٩) » . وقيل : الشاهد الحفظة ، والمشهود بنو آدم . وقيل : الليالى والأيام . وقد بيناه .

قلت : وقد يشهد المال على صاحبه ، والأرض بما عمل عليها ؛ ففي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنْ هَذَا الْمَالُ خَضِرٌ حَلَوٌ وَنِعْمَ صَاحِبُ الْمَسْلَمِ هُوَ لِمَنْ أُعْطِيَ مِنْهُ الْمَسْكِينِ وَالْيَتِيمِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ — أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — وَإِنَّهُ مَنْ يَأْخُذْهُ بغير حقه كان كالذى يأكل ولا يشبع ويكون عليه شهيدا يوم القيامة » . وفي الترمذى عن أبي هريرة قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية « يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا » قال : « أتدرون ما أخبارها ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإن أخبارها أن تشهد على

- | | | |
|---------------------------|---------------------------|----------------------------|
| (١) آية ٧٩ سورة النساء . | (٢) آية ١٩ سورة الأنعام . | (٣) آية ٤١ سورة النساء . |
| (٤) آية ٤٥ سورة الأحزاب . | (٥) آية ١٤٣ سورة البقرة . | (٦) آية ١١٧ سورة المائدة . |
| (٧) آية ١٤ سورة الإسراء . | (٨) آية ٢٤ سورة النور . | (٩) آية ١٤٣ سورة البقرة . |

كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها تقول عمل يوم كذا وكذا - قال - فهذه أخبارها".
 قال حديث حسن غريب صحيح. وقيل: الشاهد الخلق، شهدوا لله عز وجل بالوحدانية.
 والمشهود له بالتوحيد هو الله تعالى. وقيل: المشهود يوم الجمعة، كما روى أبو الدرداء قال
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أكثرُوا على من الصلاة يوم الجمعة فإنه يوم مشهود
 تشهد الملائكة..." وذكر الحديث. خرجه ابن ماجه وغيره.

قلت: فعلى هذا يوم عرفة مشهود، لأن الملائكة تشهد وتُنزل فيه بالرحمة. وكذا يوم
 النحر إن شاء الله. وقال أبو بكر العطار: الشاهد الحجر الأسود؛ يشهد لمن لمسه بصدق
 وإخلاص ويقين. والمشهود الحاج. وقيل: الشاهد الأنبياء، والمشهود محمد صلى الله عليه
 وسلم؛ بيانه: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ - إِلَى قَوْلِهِ
 تعالى - وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» (۱).

قوله تعالى: قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿۱۰﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ﴿۱۱﴾
 إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿۱۲﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿۱۳﴾

قوله تعالى: (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ) أى لعن. قال ابن عباس: كل شىء
 فى القرآن «قُتِلَ» فهو لعن. وهذا جواب القسم - فى قول الفراء - واللام فيه
 مضمرة؛ كقوله: «وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا» - ثم قال - قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا» أى لقد أفلح.
 وقيل: فيه تقديم وتأخير؛ أى قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ؛ قاله أبو حاتم
 السَّجِسْتَانِي. ابن الأنباري: وهذا غلط؛ لأنه لا يجوز لقائل أن يقول: والله قام زيد؛
 على معنى قام زيد والله. وقال قوم: جواب القسم «إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ» وهذا قبيح؛
 لأن الكلام قد طال بينهما. وقيل: «إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا» وقيل: جواب القسم محذوف؛
 أى وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ لَتُبْعَثُنَّ. وهذا اختيار ابن الأنباري. والأخدود: الشق العظيم

(۱) آية ۸۱ سورة آل عمران.

المستطيل في الأرض كالحندق ، وجمعه أخاديد . ومنه الخد لمجاري الدموع ، والمخدة ؛ لأن الخد يوضع عليها . ويقال : تخدد وجه الرجل إذا صارت فيه أخاديد من جراح . قال طرفة :

ووجه كأت الشمس حلت رداءها * عليه نقي اللون لم يتخدد

(النار ذات الوقود) « النار » بدل من « الأخدود » بدل الأشمال . و « الوقود » بفتح الواو قراءة العامة ، وهو الحطب . وقرأ قتادة وأبو رجاء ونصر بن عاصم (بضم الواو) على المصدر ؛ أي ذات الانقاد والالتهاب . وقيل : ذات الوقود بأبدان الناس . وقرأ أشهب العقيلي وأبو السمال العدوي وابن السميع « النار ذات » بالرفع فيهما ؛ أي أحرقتهم النار ذات الوقود . (إذهم عليها فعود) أي الذين خددوا الأخاديد وقعدوا عليها يلقون فيها المؤمنين ، وكانوا بنجران في الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم . وقد اختلفت الرواية في حديثهم . والمعنى متقارب . ففي صحيح مسلم عن صهيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر ، فلما كبر قال للملك : إني قد كبرت فأبعث إلى غلاما أعلمه السحر ، فبعث إليه غلاما يعلمه ؛ فكان في طريقه إذا سلك راهب ، فقعده إليه وسمع كلامه فأعجبه ؛ فكان إذا أتى الساحر مرة بالراهب وقعد إليه ؛ فإذا أتى الساحر ضربه ؛ فشكا ذلك إلى الراهب فقال : إذا خشيت الساحر فقل : حبسني أهلي . وإذا خشيت أهلك فقل : حبسني الساحر . فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال : اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟ فاخذ حجرا فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس ؛ فرماها فقتلها ومضى الناس . فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب : أي بني ؛ أنت اليوم أفضل مني ، قد بلغ من أمرك ما أرى ، وإنك ستبتلى ؛ فإن ابتليت فلا تدل علي . وكان الغلام يبرئ الأتكة والأرص ويداوى الناس من سائر الأدواء . فسمع جليس للملك كان قد عمى فأتاه بهدايا كثيرة فقال : ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتني . فقال : إني لا أشفي أحدا ، إنما

يُشْفِي اللهُ ؛ فإن أنت آمنت بالله دعوتُ الله فشفاك ؛ فأمن بالله فشفاه الله . فأتى الملكَ بجلوسٍ إليه كما كان يجلس ؛ فقال له الملكُ : من ردَّ عليك بصرَكَ ؟ قال رَبِّي . قال : ولك ربٌّ غيري ؟ ! قال : رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ . فأخذه فلم يزل يعذِّبه حتى دَلَّ على الغلام ؛ فجاء بالغلام فقال له الملكُ : أَيُّ بُنَى ! أقصد بلغ من سحرِكَ ما تُبرئ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ ، وتَفْعَلُ وتَفْعَلُ ؟ ! فقال : إني لا أَشْفِي أَحَدًا ، إنما يَشْفِي اللهُ . فأخذه فلم يزل يعذِّبه حتى دل على الراهب ؛ فجاء بالراهب فقيل له : أرجع عن دينك . فأبى فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مَفْرِقِ رَأْسِهِ فشَقَّه حتى وقع شِقَاه . ثم جىء بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فقيل له : أرجع عن دينك ؛ فأبى فوضع المنشار في مَفْرِقِ رَأْسِهِ فشَقَّه به حتى وقع شِقَاه . ثم جىء بالغلام فقيل له : أرجع عن دينك ؛ فأبى فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه فقال : أذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فأصعدوا به الجبل ، فإذا بلغت ذرَّوتَه فإن رجع عن دينه وإلا فأطرحوه ؛ فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال : اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ ؛ فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبْلُ فسقطوا . وجاء يمشى إلى الملكِ فقال له الملكُ : ما فعل أصحابك ؟ قال : كَفَانِيَهُمُ اللهُ . فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه فقال : أذهبوا به فأحملوه في قُرُقُورٍ فتوسَّطوا به البحر ، فإن رجع عن دينه وإلا فأقذفوه ؛ فذهبوا به فقال : اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ ؛ فَأَنكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فغرقوا . وجاء يمشى إلى الملكِ فقال له الملكُ : ما فعل أصحابك ؟ قال : كَفَانِيَهُمُ اللهُ . فقال للملكِ : إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به . قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس في صعيدٍ واحدٍ وتَصْلُبُنِي على جِدْعٍ ، ثم خُذْ سَهْمًا من كِنَانِي ثم ضَعِ السَّهْمَ في كَيْدِ الْقَوْسِ ثم قل : بِأَسْمِ اللهِ رَبِّ الْغَلَامِ ، ثم أرمني ؛ فإنك إذا فعلت ذلك قتلني . فجمع الناس في صعيدٍ واحدٍ وصلَّبه على جِدْعٍ ، ثم أخذ سَهْمًا من كِنَانِيهِ ثم وضع السهم في كَيْدِ الْقَوْسِ ثم قال : بِأَسْمِ اللهِ رَبِّ الْغَلَامِ ؛ ثم رماه فوق السهم في صُدْغِهِ فوضع يده في صُدْغِهِ في موضع السهم فمات ؛ فقال الناس : آمنا بربِّ الغلام ! آمنا بربِّ الغلام ! آمنا بربِّ

(١) القرقور (بضم القافين) : السفينة الصغيرة .

جلود لا خشب فيها ، أو من خشب لا جلود فيها .

(٢) الكفاة (بالكسر) : جمعة السهام تتخذ من

الغلام ! فَأَتَى الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ : أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحَدَّرُ ؟ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَدْرُكَ ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ ، فَأَمَرَ بِالْأَخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السَّكَّ ، نَحَدَّتْ وَأَضْرَمَ النَّيْرَانَ وَقَالَ : مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنِ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا — أَوْ قِيلَ لَهُ أَقْتَحِمُ — فَفَعَلُوا ، حَتَّى جَاءَتْ أَمْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ : ” يَا أُمَّهُ أَصْبِرِي فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ “ . نَحَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ بِمَعْنَاهُ . وَفِيهِ : ” وَكَانَ عَلَى طَرِيقِ الْغُلَامِ رَاهِبٌ فِي صَوْمَعَةٍ “ قَالَ مَعْمَرٌ : أَحْسَبُ أَنَّ أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ كَانُوا يَوْمئِذٍ مُسْلِمِينَ . وَفِيهِ : ” أَنَّ الدَّابَّةَ الَّتِي حَبَسَتْ النَّاسَ كَانَتْ أَسْدًا وَأَنَّ الْغُلَامَ دُفِنَ — قَالَ — فَيُذَكَّرُ أَنَّهُ أُخْرِجَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَأَصْبَعَهُ عَلَى صُدْغِهِ كَمَا وَضَعَهَا حِينَ قُتِلَ “ . وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ . وَرَوَاهُ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَ مَلِكٌ بَنَجْرَانَ وَفِي رَعِيَّتِهِ رَجُلٌ لَهُ قَتِيُّ فَبَعَثَهُ إِلَى سَاحِرٍ يَعْلَمُ السَّحَرَ ، وَكَانَ طَرِيقَ الْفَتَى عَلَى رَاهِبٍ يَقْرَأُ الْإِنْجِيلَ ، فَكَانَ يَعْجِبُهُ مَا يَسْمَعُهُ مِنَ الرَّاهِبِ ، فَدَخَلَ فِي دِينِ الرَّاهِبِ ، فَأَقْبَلَ يَوْمًا فَإِذَا حَيَّةٌ عَظِيمَةٌ قَطَعَتْ عَلَى النَّاسِ طَرِيقَهُمْ ، فَأَخَذَ حِجْرًا فَقَالَ بِأَسْمِ اللَّهِ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، فَقَتَلَهَا . وَذَكَرَ نَحْوَهُ مَا تَقَدَّمَ . وَأَنَّ الْمَلِكَ لَمَّا رَمَاهُ بِالسِّهْمِ وَقَتَلَهُ قَالَ أَهْلُ مَمْلَكَةِ الْمَلِكِ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ^(١) عَبْدَ اللَّهِ بْنِ ثَامِرٍ ، وَكَانَ اسْمُ الْغُلَامِ ، فَفَضِبَ الْمَلِكُ وَأَمَرَ نَحَدَّتْ أَخْدَايِدَ ، وَجُمِعَ فِيهَا حَطْبٌ وَنَارٌ وَعَرَضَ أَهْلَ مَمْلَكَتِهِ عَلَيْهَا ، فَمَنْ رَجَعَ عَنِ التَّوْحِيدِ تَرَكَهُ ، وَمَنْ ثَبَتَ عَلَى دِينِهِ قَذَفَهُ فِي النَّارِ . وَجِئْتُ بِأَمْرَأَةٍ مَرْضِعَةٍ فَقِيلَ لَهَا أَرْجِعِي عَنِ دِينِكَ وَإِلَّا قَذَفْنَاكَ وَوَلَدَكَ — قَالَ — فَأَشْفَقْتُ وَهَمْتُ بِالرُّجُوعِ ، فَقَالَ لَهَا الصَّبِيُّ الْمَرْضِعِ : يَا أُمَّي ، أَثَبَّتِي عَلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ فَإِنَّمَا هِيَ غُمْبِضَةٌ ، فَالْقَوْهَا وَأَثَبْنَا . وَرَوَى أَبُو صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّارَ أَرْتَفَعَتْ مِنَ الْأَخْدُودِ فَصَارَتْ فَوْقَ الْمَلِكِ وَأَصْحَابِهِ أَرْبَعِينَ ذِرَاعًا فَأَحْرَقْتَهُمْ . وَقَالَ الضَّحَّاكُ : هُمْ قَوْمٌ مِنَ النَّصَارَى كَانُوا بِالْيَمَنِ قَبْلَ مَبْعَثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَرْبَعِينَ سَنَةً ، أَخَذَهُمْ يَوْسُفُ بْنُ شَرَّاحِيلَ بْنِ تَبْعِ الْجَمِيرِيِّ ، وَكَانُوا نَيْفًا وَثَمَانِينَ رَجُلًا ، وَحَفَرَهُمْ أَخْدُودًا وَأَحْرَقَهُمْ فِيهِ . حَكَاهُ الْمَسْأُورِيُّ ، وَحَكَى الثَّعْلَبِيُّ عَنْهُ أَنَّ أَصْحَابَ الْأَخْدُودِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، أَخَذُوا رَجُلًا

(١) فِي الْأَصُولِ : « ... إِلَّا اللَّهُ عَبْدَ اللَّهِ ... » وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

ونساء نخذوا لهم الأخاديد، ثم أوقدوا فيها النار، ثم أقيم المؤمنون عليها وقيل لهم: تكفرون أو تُقذفون في النار؟ ويزعمون أنه دانيال وأصحابه؛ وقاله عَطِيَّة العَوْفِيّ. وروى نحو هذا عن ابن عباس. وقال عليّ رضي الله عنه: إن مَلِكًا سَكِرَ فوقع على أخته، فأراد أن يجعل ذلك شَرَعًا في رِعِيَّتِهِ فلم يقبلوا؛ فأشارت عليه أن يخطب بأن الله - عز وجل - أحلّ نكاح الأخوات فلم يُسمع منه. فأشارت عليه أن يَحُدَّ لهم الأخدود ويُلقى فيه كلٌّ من عصاه. ففعل. قال: وبقاياهم ينكحون الأخوات وهم المجوس، وكانوا أهل كتاب. وروى عن عليّ أيضًا أن أصحاب الأخدود كان سببهم أن نبيًّا بعثه الله تعالى إلى الحبشة، فأتبعه ناس نخذلهم قومهم أخذودا، فمن أتبع النبيّ رمى فيها، فجيء بامرأة لها بُنَىّ رضيع فجزعت، فقال لها: يا أمّاه، أمضى ولا تجزعي. وقال أيوب عن عكرمة قال: «قُتِلَ أصحابُ الأخدودِ» قال: كانوا من قومك من السَّجِسْتَانِ. وقال الكلبيّ: هم نصارى نَجْرَانِ، أخذوا بها قوما مؤمنين نخذلوا لهم سبعة أخاديد، طول كل أخذود أربعون ذراعا، وعرضه اثنا عشر ذراعا. ثم طرح فيه النفط^(۱) والخطب، ثم عرضوهم عليها؛ فمن أبي قذفوه فيها. وقيل: قوم من النصارى كانوا بالقسطنطينية زمان قسطنطين. وقال مقاتل: أصحاب الأخدود ثلاثة؛ واحد بنجران، والآخر بالشام، والآخر بفارس. أما الذي بالشام فأنطيانوس الرومي، وأما الذي بفارس فبيختنصر، والذي بأرض العرب يوسف بن ذى نُوَاس. فلم يُنزل الله في الذي بفارس والشام قرآنا، وأنزل قرآنا في الذي كان بنجران. وذلك أن رجلين مسلمين كان أحدهما بتهمة والآخر بنجران، آجرا أحدهما نفسه، فجعل يعمل ويقرا الإنجيل؛ فرأت ابنة المستاجر النور في قراءة الإنجيل، فأخبرت أباهما فأسلم. وبلغوا سبعة وثمانين بين رجل وامرأة، بعد ما رُفِعَ عيسى، نخذلهم يوسف بن ذى نُوَاس بن تَبَعِ الجَمِيرِيّ أخذودا وأوقد فيه النار؛ وعرضهم على الكفر، فمن أبي أن يكفر قذفه في النار، وقال: من رجع عن دين عيسى لم يقذف. وإن امرأة معها ولدها صغير لم يتكلم، فرجعت، فقال لها أبناها: يا أمّاه، إني أرى أمامك

(۱) النفط (بالكسر وقد يفتح): دهن معدني مربع الاحتراق، توقد به النار ويتداوى به.

نارا لا تطفأ، فقدفا جميعا أنفسهما في النار، فجعلها الله وآبها في الجنة . فُقذِف في يوم واحد سبعة وسبعون إنسانا . وقال ابن إسحق عن وهب بن منبّه : كان رجل من بقايا أهل دين عيسى بن مريم عليه السلام ، يقال له قيميون^(١) ، وكان رجلا صالحا مجتهدا زاهدا في الدنيا مجاب الدعوة ، وكان سائحا في القرى لا يُعرف بقرية إلا مضى عنها ، وكان بناءً يعمل الطين . قال محمد بن كعب القرظي : وكان أهل نجران أهل شرك يعبدون الأصنام ، وكان في قرية من قراها قريبا من نجران ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر ، فلما نزل بها قيميون بنى بها خيمة بين نجران وبين تلك القرية التي بها الساحر ، فجعل أهل نجران يبعثون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر؛ فبعث إليه الثامر عبد الله بن الثامر ، فكان مع غلمان أهل نجران ، وكان عبد الله إذا مرّ بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من أمر صلاته وعبادته ، فجعل يجلس إليه ويسمع منه حتى أسلم ، فوحد الله وعبده وجعل يسأله عن أسم الله الأعظم ، وكان الراهب يعلمه فكتمه إياه وقال : يا ابن أخي ، إنك لن تحمله ، أخشى ضعفك عنه ؛ وكان أبوه الثامر لا يظن إلا أن ابنه يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان . فلما رأى عبد الله أن الراهب قد بنجل عليه بتعليم أسم الله الأعظم ، عمد إلى قدح^(٢) بجمعها ، ثم لم يُبق لله تعالى أسما يعلمه إلا كتبه في قدح ، لكل أسم قدح ؛ حتى إذا أحصاها أوقد لها نارا ، ثم جعل يقذفها فيها قدحاً قدحاً ، حتى إذا مرّ بالأسم الأعظم قذف فيها بقدحه ، فوثب القدح حتى خرج منها لم يضره شيء ؛ فأخذه ثم قام إلى صاحبه ، فأخبره أنه قد علم أسم الله الأعظم الذي كتّمه إياه ، فقال : وما هو ؟ قال : كذا وكذا . قال : وكيف علمته ؟ فأخبره بما صنع . فقال له : يا ابن أخي ، قد أصبته ، فأمسك على نفسك وما أظن أن تفعل . فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلق أحداً به ضرر إلا قال : يا عبد الله ، أتوحد الله وتدخل في ديني فأدعو الله لك فيعافيك مما أنت فيه من البلاء ؟ فيقول : نعم ؛ فيوحد الله ويُسلم فيدعو الله له فيشفى ، حتى لم يبق أحد بنجران به ضرر إلا أتاه فأتبعه على دينه ودعا له فعوفي ؛ حتى رفع شأنه إلى ملكهم فدعاه فقال له :

(١) في تاريخ الطبري : « قيميون » بالفاء .

(٢) القدح (بالكسر) : المسم قبل أن ينصل ويراش ، جمعه قداح .

أفسدت عليّ. أهل قرىتي وخالفت ديني ودين آبائي ، فلا مثلاً بك . قال : لا تقدر على ذلك ؛
 بفعل يرسل به إلى الجبل الطويل فيطرح عن رأسه فيقع على الأرض ليس به بأس . وجعل
 يبعث به إلى مياه نجران ، بحار لا يلقى فيها شيء إلا هلك ، فيلقى فيها فيخرج ليس به بأس ؛
 فلما غلبه قال له عبد الله بن الثامر : والله لا تقدر على قتلي حتى توحّد الله وتؤمن بما آمنت به ؛
 فإنك إن فعلت ذلك سأطت عليّ وقتلتني . فوحّد الله ذلك الملك وشهد شهادته ، ثم ضربه
 بعصا فشجّه شجرة صغيرة ليست بكبيرة فقتله ، وهلك الملك مكانه ، واجتمع أهل نجران على
 دين عبد الله بن الثامر ، وكان علي ما جاء به عيسى بن مريم من الإنجيل وحكمه . ثم أصابهم
 ما أصاب أهل دينهم من الأحداث ؛ فمن ذلك كان أصل النصرانية بنجران . فسار إليهم
 ذو نواس اليهودي بجنوده من حمير ، فدعاهم إلى اليهودية وخيرهم بين ذلك أو القتل ، فأختاروا
 القتل فخذلهم الأخدود ؛ فحرق بالنار وقتل بالسيف ومثل بهم حتى قتل منهم عشرين ألفاً .
 وقال وهب بن منبه : آثني عشر ألفاً . وقال الكلبي : كان أصحاب الأخدود سبعين ألفاً .
 قال وهب : ثم لما غلب أرباط على اليمن خرج ذو نواس هارباً فاقتحم البحر بفرسه فغرق .
 قال ابن إسحق : وذو نواس هذا اسمه زرعة بن تبن أسعد الحميري ، وكان أيضاً يسمى
 يوسف ، وكان له غدائر من شعير تنوس ، أي تضطرب ، فسمى ذا نواس ؛ وكان فعل
 هذا بأهل نجران فأفلت منهم رجل اسمه دؤس ذو ثعلبان ، فساق الحبشة لينتصر بهم ، فلكوا
 اليمن وهلك ذو نواس في البحر ؛ ألقى نفسه فيه ؛ وفيه يقول عمرو بن معدى كرب :

أتوعدني كأنك ذو رعين * بأنعم عيشة أو ذو نواس
 وكائن كان قبلك من نعيم * وملك ثابت في الناس راس
 قديم عهده من عهد عاد * عظيم قاهر الجبروت قاس
 أزال الدهر ملكهم فاضحى * ينقل من أناس في أناس

(١) في بعض النسخ : « تسعين ألفاً » .

(٢) هو كغراب أو كرمان ، ويكسر . وهو أول من كسا البيت الحرام .

وذورعين ملك من ملوك حمير . ورعين حصن له . وهو من ولد الحرث بن عمرو بن حمير
ابن سبأ .

مسئلة - قال علماؤنا : أعلم الله عز وجل المؤمنين من هذه الأمة في هذه الآية ،
ما كان يلقاه من وحد قلبهم من الشدائد؛ يؤنسهم بذلك . وذكر لهم النبي صلى الله عليه وسلم
قصة الغلام ليصبروا على ما يلقون من الأذى والآلام ، والمشقات التي كانوا عليها ؛ ليتأسوا
بمثل هذا الغلام في صبره وتصلبه في الحق وتمسكه به ، وبذله نفسه في حق إظهار دعوته ،
ودخول الناس في الدين مع صغرسنه وعظم صبره . وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق
حتى نُشر بالمنشار . وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله تعالى ورسخ الإيمان في قلوبهم ،
صبروا على الطرح في النار ولم يرجعوا في دينهم . ابن العربي : وهذا منسوخ عندنا ؛ حسب
ما تقدم بيانه في سورة « النحل »^(١) .

قلت : ليس بمنسوخ عندنا ، وأن الصبر على ذلك لمن قويت نفسه وصلب دينه أولى ؛ قال
الله تعالى مخبرا عن لقمان : « يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى
مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ »^(٢) . وروى أبو سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم
قال : « إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » . أخرجه الترمذي وقال : حديث
حسن غريب . وروى ابن سنجر محمد بن سنجر عن أميمة مولاة النبي صلى الله عليه وسلم
قالت : كنت أوضئ النبي صلى الله عليه وسلم فأتاه رجل فقال : أوضئني . فقال : « لا تشرك
بالله شيئا وإن قطعت أو حُرقت بالنار... » الحديث . قال علماؤنا : ولقد امتحن كثير من
أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بالقتل والصلب والتعذيب الشديد فصبروا ولم يلتفتوا إلى
شيء من ذلك . ويكفيك قصة عاصم وخبيب وأصحابهما وما لقوا من الحروب والمحن والقتل
والأسر والحرق ؛ وغير ذلك . وقد مضى في « النحل » أن هذا إجماع ممن قوى في ذلك ؛
فتأمله هناك^(٣) .

(١) راجع ج ١٠ ص ١٨٠ وما بعدها ، وص ٢٠٢ (٢) آية ١٧ سورة لقمان .

(٣) راجع ج ١٠ ص ١٨٠

قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ دعا على هؤلاء الكفار بالإبعاد من رحمة الله تعالى . وقيل : معناه الإخبار عن قتل أولئك المؤمنين ؛ أى إنهم قُتلوا بالنار فصبروا . وقيل : هو إخبار عن أولئك الظالمين ؛ فإنه روى أن الله قبض أرواح الذين ألقوا في الأخدود قبل أن يصلوا إلى النار ، وخرجت نار من الأخدود فأحرقت الذين هم عليها فعود . وقيل : إن المؤمنين نجوا وأحرقت النار الذين قعدوا ؛ ذكره النحاس . ومعنى «عليها» أى عندها ؛ وعلى بمعنى عند . وقيل : «عليها» على ما يدنو منها من حافات الأخدود ؛ كما قال :

* وبات على النار الندى والمحلوق^(١) *

والعامل في «إذ» «قتل» ؛ أى لعنوا في ذلك الوقت . ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ أى حضور . يعنى الكفار كانوا يعرضون الكفر على المؤمنين فمن أبى ألقوه في النار ؛ وفى ذلك وصفهم بالقسوة ثم بالجد^(٢) فى ذلك . وقيل : «على» بمعنى مع ؛ أى وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين شهود .

قوله تعالى : وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ
الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدٌ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ ﴾ وقرأ أبو حنيفة « نَقَمُوا » بالكسر . والفصيح هو الفتح . وقد مضى فى « براءة » القول فيه . أى ما نَقَمَ الملكُ وأصحابه من الذين حرَقهم . ﴿ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا ﴾ أى إلا أن يصدقوا . ﴿ بِاللَّهِ الْعَزِيزِ ﴾ أى الغالب المنيع . ﴿ الْحَمِيدِ ﴾

(١) البيت لأعشى قيس ، صدره :

* تشب لمقرورين يصطليانها *

(٢) فى بعض النسخ : « أى بالجد » بدل « ثم بالجد » .

(٣) راجع ج ٨ ص ٢٠٧

أى المحمود فى كل حال . (الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) لا شريك له فىهما ولا نديد .
(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) أى عالم بأعمال خلقه لا تخفى عليه خافية .

قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ) (١) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١)

قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) أى حرقوهم بالنار . والعرب تقول : قتن فلان الدرهم والدينار؛ إذا أدخله الكور لينظر جودته . ودينار مفتون . ويسمى الصائغ الفتان ، وكذلك الشيطان ؛ وورق فتين ؛ أى فضة محترقة . ويقال للحزة فتين ؛ أى كأنها أحرقت حجارتها بالنار ، وذلك لسوادها . (ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا) أى من قبيح صنيعهم مع ما أظهره الله لهذا الملك الجبار الظالم وقومه من الآيات البينات على يدى الغلام . (فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ) لكفرهم . (وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ) فى الدنيا لإحراقهم المؤمنين بالنار . وقد تقدم عن ابن عباس . وقيل : « وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ » أى ولهم فى الآخرة عذاب زائد على عذاب كفرهم بما أحرقوا المؤمنين . وقيل : لهم عذاب جهنم وعذاب الحريق . والحريق : أسم من أسماء جهنم ؛ كالسعير . والنار دركات وأنواع ولها أسماء . وكانهم يعذبون بالزمهرير فى جهنم ، ثم يعذبون بعذاب الحريق . فالأول عذاب يبردها ، والثانى . عذاب بحرها . (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) أى هؤلاء الذين كانوا آمنوا بالله ؛ أى صدقوا به وبرسوله . (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ) أى بساتين . (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) من ماء غير آسن ، ومن لبن لم يتغير طعمه ، ومن نحر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى . (ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ) أى العظيم ، الذى لا فوز يشبهه .

(١) الحرة (بفتح الحاء المهملة) : أرض ذات حجارة سود نخرة . (٢) فى نسخة من الأصل : « وكانوا » .

قوله تعالى : **إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ** ﴿١٢﴾ **إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ** ﴿١٣﴾
وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ **ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ** ﴿١٥﴾ **فَعَالٌ لِّمَا**
يُرِيدُ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : **(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)** أى أخذه الجبارة والظلمة ؛ كقوله جل ثناؤه : **« وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ »** . وقد تقدم . قال المبرد : **« إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ »** جواب القسم ؛ المعنى : والسماء ذات البروج إن بطش ربك . وما بينهما معترض مؤكد للقسم . وكذلك قال الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول : إن القسم واقع على ذكر صفة بالشدة . **(إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ)** يعنى الخلق — عند أكثر العلماء — يخلقهم ابتداء ثم يعيدهم عند البعث . وروى عكرمة قال : عجب الكفار من إحياء الله جل ثناؤه الأموات . وقال ابن عباس : يبدى لهم عذاب الحريق فى الدنيا ثم يعيده عليهم فى الآخرة . وهذا اختيار الطبرى . **(وَهُوَ الْغَفُورُ)** أى السّتور لذنوب عباده المؤمنين لا يفضحهم بها **(الْوَدُودُ)** أى المحب لأوليائه . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : كما يؤد أحدكم أخاه بالبشرى والمحبة . وعنه أيضا « الودود » أى المتودد إلى أوليائه بالمغفرة . وقال مجاهد : الودد لأوليائه ؛ فعول بمعنى فاعل . وقال ابن زيد : الرحيم . وحكى المبرد عن إسماعيل بن إسحق القاضى أن الودود هو الذى لا ولد له ؛ وأنشد قول الشاعر :

وأركب فى الرّوع عُرِيانَةً * ذلولَ الجناح لقاحاً ودوداً

أى لا ولد لها تمن إليه . ويكون معنى الآية : إنه يغفر لعباده وليس له ولد . يغفر لهم من أجله ؛ ليكون بالمغفرة متفضلاً من غير جزاء . وقيل : الودود بمعنى المودود ؛ كركوب وحلّوب ؛ أى يؤده عباده الصالحون ويحبونه . **(ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ)** قرأ الكوفيون إلا عاصماً « المجيد » بالخفض نعتاً للعرش . وقيل : لـ « ربك » ؛ أى إن بطش ربك ، المجيد لشديد .

(١) آية ١٠٢ سورة هود راجع ج ٩ ص ٩٥

ولم يمتنع الفصل لأنه جار مجرى الصفة في التشديد . الباقون بالرفع نعتاً لـ «ذو» وهو الله تعالى . وأختره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأن المجد هو النهاية في الكرم والفضل ، والله سبحانه المنعوت بذلك ، وإن كان قد وصف عرشه بالكريم في آخر «المؤمنون»^(١) . تقول العرب : في كل شجر نار ، وأستمجد المرخ والعفار^(٢) ؛ أى تناهيا فيه حتى يقتبس منهما . ومعنى ذو العرش : أى ذو الملك والسلطان ؛ كما يقال : فلان على سرير ملكه ؛ وإن لم يكن على سرير . ويقال : نُئِلَ عَرشُهُ ؛ أى ذهب سلطانه . وقد مضى بيان هذا في «الأعراف»^(٣) وخاصة في «كتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» . (فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) أى لا يمتنع عليه شيء يريد . الزمخشري : «فَعَّالٌ» خبر ابتداء محذوف . وإنما قيل : «فَعَّالٌ» لأن ما يريد ويفعل في غاية الكثرة . وقال الفراء : هو رفع على التكرير والاستئناف ؛ لأنه نكرة محضة . وقال الطبري : رفع «فَعَّالٌ» وهى نكرة محضة على وجه الإتيان لإعراب «الغفور الودود» . وعن أبي السفر^(٤) قال : دخل ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على أبي بكر رضى الله عنه يعودونه فقالوا : ألا نأتيك بطيب ؟ قال : قد رأيت ! قالوا : فما قال لك ؟ قال قال : إنى فعال لما أريد .

قوله تعالى : هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ) أى قد أتاك يا محمد خبر الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائهم ؛ يؤتسه بذلك ويسليه . ثم بينهم فقال . (فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ) وهما في موضع جر على البدل من «الجنود» . المعنى : أنك قد عرفت ما فعل الله بهم حين كذبوا أنبياءه ورسله . (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا) أى من هؤلاء الذين لا يؤمنون بك . (فِي تَكْذِيبٍ)

(١) راجع ج ١٢ ص ١٥٧ . (٢) المرخ والعفار : شجرتان من أكثر الشجر نارا ، يتخذ منهما الزناد .

والعرب تضرب بهما المثل في الشرف العالى . و «أستمجد» : أستكثر . (٣) راجع ج ٧ ص ٢٢٠

(٤) هو سعيد بن محمد الهمداني .

لك ؛ كدأب من قبلهم . وإنما خص فرعون وثمود ؛ لأن ثمود في بلاد العرب ، وقصتهم عندهم مشهورة وإن كانوا من المتقدمين . وأمر فرعون كان مشهورا عند أهل الكتاب وغيرهم ، وكان من المتأخرين في الهلاك ؛ فدلّ بهما على أمثالهما في الهلاك . والله أعلم .

قوله تعالى : **وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾** بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ
مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : **(وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ)** أى يقدر على أن ينزل بهم ما أنزل بفرعون . والمحاط به كالمحصور . وقيل : أى والله عالم بهم فهو يجازيهم . **(بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ)** أى متناهٍ في الشرف والكرم والبركة ، وهو بيان ما بالناس الحاجة إليه من أحكام الدين والدنيا لا كما زعم المشركون . وقيل « مجيد » أى غير مخلوق . **(فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ)** أى مكتوب في لوح . وهو محفوظ عند الله تعالى من وصول الشياطين إليه . وقيل : هو أم الكتاب ؛ ومنه أنتسخ القرآن والكتب . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : اللوح من ياقوتة حمراء ، أعلاه معقود بالعرش وأسفله في حجر مَلَكٍ يقال له ماطريون ، كتابه نور وقلمه نور ، ينظر الله عز وجل فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة ، ليس منها نظرة إلا وهو يفعل ما يشاء ؛ يرفع وضيعا ويضع رفيعا ، ويغنى فقيرا ويفقر غنيا ، يُحْيِي ويميت ، ويفعل ما يشاء ؛ لا إله إلا هو . وقال أنس بن مالك ومجاهد : إن اللوح المحفوظ الذى ذكره الله تعالى في جبهة إسرافيل . وقال مقاتل : اللوح المحفوظ عن يمين العرش . وقيل : اللوح المحفوظ الذى فيه أصناف الخلق والخلق والخلق ، وبيان أمورهم ، وذكر آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم ، والأقضية النافذة فيهم ، ومأل عواقب أمورهم ؛ وهو أم الكتاب . وقال ابن عباس : أول شئ كتبه الله تعالى في اللوح المحفوظ « إني أنا الله لا إله إلا أنا ، محمد رسولى ، من استسلم لقضائى وصبر على بلائى وشكر نعمائى كتبته صديقا وبعثته مع الصديقين ، ومن لم يستسلم لقضائى

(١) فى روح المعانى : « ساطربون » .

ولم يصير على بلائى ولم يشكر نعمائى فليخذ إهأاً سواى » . وكتب الحجاج إلى محمد بن الحنفية رضى الله عنه يتوعده ؛ فكتب إليه ابن الحنفية : « بلغنى أن الله تعالى فى كل يوم ثلثمائة وستين نظرة فى اللوح المحفوظ ؛ يُعزّز ويُدبّل ، وابتلى ويفرح ، ويفعل ما يريد ؛ فلعل نظرة منها تشغلك بنفسك فتشتغل بها ولا تتفرغ » . وقال بعض المفسرين : اللوح شىء يلوح للملائكة فيقرءونه . وقرأ ابن السميع وأبو حيوة « قرأ مجيد » على الإضافة ؛ أى قرآن رب مجيد . وقرأ نافع « فى لوح محفوظ » بالرفع نعنا للقرآن ؛ أى بل هو قرآن مجيد محفوظ فى لوح . الباقون (بالجر) نعنا للوح . والقراء متفقون على فتح اللام من « لوح » إلا ما روى عن يحيى بن يعمر ؛ فإنه قرأ فى « لوح » بضم اللام ؛ أى إنه يلوح ، وهو ذو نور وعلو وشرف . قال الزمخشري : واللوح الهواء ؛ يعنى اللوح فوق السماء السابعة الذى فيه اللوح . وفى الصحاح : لاح الشىء يلوح لواحاً أى لمح . ولاحه السفر : غيره . ولاح لواحاً ولواحاً عطش ، وألتاح مثله . واللوح : الكتيف وكل عظم عريض . واللوح : الذى يكتب فيه . واللوح (بالضم) : الهواء بين السماء والأرض . والحمد لله .

+

تم بعون الله تعالى الجزء التاسع عشر من تفسير القرطبي ،

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء العشرون ، وأوله :

” سورة (الطارق) “

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء العشرة وثلثون

يطلب من
المكتبة الإسلامية
طهران

فهرس الجزء العشرين

سورة « الطارق »

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « والسماء والطارق ... » الآيات . الكلام على النجم الطارق
والاختلاف في اسمه . النهى عن أن يطرق المسافر أهله ليلاً . معنى الطرق
١ في اللغة
تفسير قوله تعالى : « إن كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ » . الكلام في معنى الحافظ ،
٣ وهل هو الله سبحانه ، أو عقل الإنسان ، أو الملائكة
تفسير قوله تعالى : « فليَنظُرِ الْإِنْسَانَ مِمَّ خُلِقَ ... » الآيات . أمر الإنسان
بالنظر في أول أمره ؛ ليعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه ، فيعمل ليوم
الإعادة والجزاء . الكلام على الماء الدافق ، وكيف يخرج من بين الصلب
والترائب . قول العلماء في الصلب والترائب
٤ تفسير قوله تعالى : « يَوْمَ تُبَلَى السَّرَائِرُ » . الكلام على اختبار السرائر . بيان أن
الله تعالى أتمن خلقه على أربع
٨ تفسير قوله تعالى : « وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ... » الآيات . معنى « الرجوع » وهل
هو المطر أو النبات . معنى « الصدع » . المراد بالقول الفصل
١٠ تفسير قوله تعالى : « قَهَّهْلُ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُؤْيَدًا » . بيان أن هذه الآية نُسِخَتْ
بآية السيف . معنى « رُؤْيَدًا » في كلام العرب
١٢

سورة « الأعلى »

- تفسير قوله تعالى : « سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » . بيان أنه يستحب للقارئ إذا قرأ
هذه الآية أن يقول عقبها : سبحان ربي الأعلى ؛ امتثالاً لأمره تعالى . لما
نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجعلوها في سجودكم » .
١٣ ثواب من قال سبحان ربي الأعلى في صلاته أو في غير صلاته

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « الذي خَلَقَ فَسَوَّى ... » الآيات . الكلام على تسوية الخلق . أقوال العلماء في معنى « قدر فهدى » . معنى قوله : « غُثَاءً أَحْوَى » وبيان أن هذا مثل ضربه الله تعالى للكفار لذهاب الدنيا بعد نضارتها ... ١٥
- تفسير قوله تعالى : « سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى ... » الآيات . بيان أن هذه الآيات بشرى من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ... ١٨
- تفسير قوله تعالى : « فذَكَرْ إِنْ نَفَعْتَ الذِّكْرَى ... » الآيات . القول في أن التذكير واجب وإن لم ينفع . بيان أن الشقى في علم الله هو الذي يتجنب الذكرى ويبعد عنها ، وأن أهل الشقاء متفاوتون في شقائهم ... ٢٠
- تفسير قوله تعالى : « قد أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ... » الآيات . رأى العلماء في قوله « تزكى » وهل هو في زكاة الأموال ، أو في زكاة الأعمال ، وفيمن نزلت . معنى قوله : « وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى » ... ٢١
- تفسير قوله تعالى : « بل تَوَثَّرُونَ الحياة الدنيا ... » الآيات . بيان الذين آثروا الحياة الدنيا على الآخرة ؛ لأن الدنيا حُضِرَتْ وَعُجِّلَتْ طيباتها ولذاتها ، وأن الآخرة غُيِّبَتْ ، فأخذوا العاجل وتركوا الآجل ... ٢٣
- تفسير قوله تعالى : « إن هذا لفي الصحف الأولى ... » . القول في أن صحف إبراهيم عليه السلام كانت أمثالا كلها ، وأن صحف موسى عليه السلام كانت عبراً كلها ... ٢٤

سورة « الغاشية »

- تفسير قوله تعالى : « هل أتاك حديث الغاشية » . الاختلاف في « الغاشية » هل هي القيامة ، أو النار ، أو النفخة الثانية للبعث ... ٢٥
- تفسير قوله تعالى : « وجوه يومئذ خاشعة ... » الآيات . القول في أن وجوه المشركين ذليلة في الآخرة ، وأنهم أنصبوا أنفسهم في الدنيا على معصية الله عز وجل وعلى الكفر ... ٢٦

- تفسير قوله تعالى : « تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً » . اختلف في المراد بالحامية هاهنا على
 أربعة أوجه ٢٨
- تفسير قوله تعالى : « لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ » . لما ذكر تعالى شراب
 أهل النار ذكر طعامهم ، وأنه الضريح ، وقد تباينت أقوال العلماء فيه ... ٢٩
- تفسير قوله تعالى : « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ... » الآيات . بيان أن المراد وجوه
 المؤمنين ، نعمت بما عاينت من عاقبة أمرها وعملها الصالح . وأن المؤمنين
 في جنة مرتفعة عالية القدر ، لا يسمعون فيها كلمة لغو . واختلف في اللغو هنا
 على ستة أوجه . وأن في الجنة أنواع الأشربة اللذيذة تجرى على وجه الأرض
 من غير أخدود ٣٢
- تفسير قوله تعالى : « أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ... » الآيات . بيان
 أن الله تعالى لما ذكر أمر أهل الدارين تعجب الكفار من ذلك فكذبوا
 وأنكروا ، فذكرهم الله صنعته ، وأنه قادر على كل شيء ، ثم ذكر الإبل أولاً
 لكثرتها عندهم ٣٤
- تفسير قوله تعالى : « فَذَكَرْنَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ ... » الآيات . اختلف هل الآية
 منسوخة بآية السيف ، أم لا نسخ فيها ٣٧

سورة « الفجر »

- تفسير قوله تعالى : « وَالْفَجْرِ . وَلَيَالٍ عَشْرٍ » . أقوال العلماء في معنى الفجر
 هنا والليالي العشر ٣٨
- تفسير قوله تعالى : « وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ » . اختلف في الشفع والوتر هنا على عدة أقوال .
 ٣٩
- تفسير قوله تعالى : « وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِيرٌ . هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حَجْرِ » . القول
 في أن الله تعالى لما أقسم بالليالي العشر على الخصوص أقسم بالليل على العموم .
 اختلف في معنى « يسرى » . بيان العلة في إسقاط الياء من « يسرى » . القول
 في معنى « لذي حجر » ٤٢

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بعادٍ . إرم ذاتِ العمادِ » . أوجه القراءة في قوله « بعادٍ . إرم » . القول في نسب عاد وقومه . اختلف في قوله « ذاتِ العمادِ » هل هو الطول ، أو كانوا عمادا لقومهم ، أو ذات الابنية المرفوعة على العمد ٤٤
- تفسير قوله تعالى : « التي لم يُخْلَقْ مثلها في البلاد » . اختلف في الضمير في « مثلها » هل راجع إلى القبيلة ، أو راجع إلى المدينة . بيان أنه كان لعاد آبنان ، فملكا وقهرا ، ثم مات أحدهما وخلص الأمر للآخر ، فملك الدنيا وسمع بذكر الجنة فقال : أبني مثلها ، فبنى إرم في بعض صحارى عدن وهي مدينة عظيمة ، قصورها من الذهب والفضة ، ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته ، وقبل أن يصل إليها بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا ٤٦
- تفسير قوله تعالى : « وثمرود الذين جابوا الصخر بالواد » . بيان أن ثمود هم قوم صالح ، وهم أول من نحت الجبال والصخور والرخام ، وبنوا المدائن كلها من الحجارة ، وكانوا لقوتهم ينحتون الصخور وينقبون الجبال ويجعلونها بيوتا لأنفسهم ٤٧
- تفسير قوله تعالى : « وفرعون ذى الأوتاد » . بيان ما كان يفعله فرعون تجبرا وعتوا بالناس ٤٨
- تفسير قوله تعالى : « الذين طغوا في البلاد ... » الآيات . المراد بهم عاد وثمرود وفرعون ، وأنهم لما عتوا وتجاوزوا القدر في الظلم والعدوان صب الله تعالى عليهم العذاب . بيان أن كلمة «سوط» تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب . ٤٩
- تفسير قوله تعالى : « إن ربك لبالمرصاد » القول في أن الله عز وجل يرصد عمل كل إنسان ، ويسمع أقوالهم ونجواتهم ، ويعلم أعمالهم وأسرارهم فيجازى كلا بعمله . ٥٠
- تفسير قوله تعالى : « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه ... » الآيات . المراد بالإنسان هنا الكافر ، واختلف فيه . من صفات الكافر الذى لا يؤمن بالبعث أن الكرامة عنده والهوان بكثرة الحظ في الدنيا وقلته . أما المؤمن فالكرامة عنده أن

- يكرمه الله تعالى بطاعته وتوفيقه المؤدى إلى حظ الآخرة، وإن وسع عليه في الدنيا
 ٥١ حمده وشكره
- تفسير قوله تعالى : « كلاب لا تكرمون اليتيم ... » الآيات . بيان أن هذا إخبار
 من الله تعالى عما كانوا يصنعونه من منع اليتيم الميراث، وأكل ماله إسرافاً
 وبداراً أن يكبروا . أصل اللّم في كلام العرب . ما كان يفعله أهل الشرك
 بمال من مات منهم، وأنهم يحبون المال حلالاً كان أم حراماً . معنى «الجتم»
 ٥٢ في كلام العرب
- تفسير قوله تعالى : « كلاً إذا دكّت الأرض دكّاً دكّاً » بيان أن هذا ردٌّ لانكبابهم
 ٥٤ على الدنيا وجمعهم لها . المعنى المراد من دك الأرض ، ومعنى الدك لغة ...
- تفسير قوله تعالى : « وجاء ربك والملك صفاً صفاً ... » الآيات . أقوال العلماء
 في معنى « وجاء ربك » هل جاء أمره وقضاؤه، أو جاءهم بالآيات العظيمة .
 والله جل ثناؤه لا يوصف بالتحول من مكان إلى مكان . الكلام على قوله
 « وحيى يومئذ يجهنم » وكيف يجاء بها . بيان أن الكافر يعتبر عند معاينة جهنم ،
 ولا ينفعه الاعتاز والتوبة وقد فرط فيهما في الدنيا . أقوال العلماء في معنى
 ٥٥ « فيومئذ لا يعذب عذابه أحد »
- تفسير قوله تعالى : « يأتها النفس المطمئنة ... » الآيات . الكلام على النفس
 المطمئنة . بيان أن هذا حال من اطمأنت نفسه إلى الله تعالى ، فسلم لأمره
 وآتكل عليه . الاختلاف فيمن نزلت فيه هذه الآيات ، هل هو عثمان بن عفان ،
 ٥٧ أو خبيب بن عدى ، رضى الله عنهما

سورة « البلد »

- تفسير قوله تعالى : « لا أقسم بهذا البلد » . الكلام على « لا » في هذه الآية .
 والمراد بالبلد هنا مكة من غير اختلاف . بيان أن الله تعالى حرم مكة يوم خلق
 السموات والأرض ، فهي حرام إلى أن تقوم الساعة
 ٥٩

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « وأنت حل بهذا البلد . ووالد وما ولد » بيان أن هذه أقسام
 من الله تعالى ، والله أن يقسم بما يشاء من مخلوقاته لتعظيمها ٦٠
- تفسير قوله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان في كبد » بيان المراد بالإنسان هنا .
 معاني « كبد » لغة ٦٢
- تفسير قوله تعالى : « أيجسب أن لن يقدر عليه أحد ... » الآيات . الكلام
 في سبب نزول هذه الآيات . بيان نعم الله تعالى التي أنعمها على بني آدم .
 القول في العقبة وركوبها ، ومعنى اقتحامها ٦٤
- تفسير قوله تعالى : « فك رقبة » وهل هو خلاصها من الأسر ، أو عتقها من
 الرق ، أو هو خلاص نفسه باجتنب المعاصي وفعل الطاعات . بيان أن العتق
 والصدقة من أفضل الأعمال ٦٨
- تفسير قوله تعالى : « أو إطعام في يوم ذي مسغبة ... » الآيات . القول في أن
 إطعام الطعام فضيلة . وأن الصدقة على القرابة أفضل منها على غير القرابة .
 أقوال العلماء في المتربة ٦٩
- تفسير قوله تعالى : « ثم كان من الذين آمنوا ... » الآيات . بيان أن شرط قبول
 الطاعة أن تكون مصحوبة بالإيمان ٧١

سورة « الشمس »

- تفسير قوله تعالى : « والشمس وضحاها ... » الآيات . بيان أن هذه أقسام أقسم
 الله تعالى بها لما فيها من عجائب الصفة الدالة عليه . قول أهل اللغة في معاني
 كلمات هذه الآيات ٧٢
- تفسير قوله تعالى : « قد أفلح من زكاهها ... » الآيات . الكلام على تركية
 النفس وتدسيسها ٧٦
- تفسير قوله تعالى : « كذبت ثمود بطغواها ... » الآيات . بيان أن الله تعالى
 أطبق على قوم العذاب بذنبهم الذي هو الكفر والتكذيب وعقر الناقة . قول
 أهل اللغة في الدمدمة ٧٨

سورة « الليل »

- تفسير قوله تعالى : « والليل إذا يغشى ... » الآيات . توجيهات العلماء في قوله :
 ٨٠ « وما خلق الذكر والأنثى » . بيان المراد بالذكر والأنثى هنا
 تفسير قوله تعالى : « فأما من أعطى واتقى ... » الآيات . القول في سبب نزول
 هذه الآيات . فضل المنفق في سبيل الله . الكلام فيمن أعطى وصدق
 بالحسنى ، وما هي الحسنى . بيان أن كل إنسان ميسر لعمله الذي خلق له .
 القول فيمن ضنّ بما عنده ولم يبذل خيرا ، وتيسيره للعسرى . بيان أن الجود
 ٨٢ من مكارم الأخلاق ، والبخل من أردلها
 تفسير قوله تعالى : « فأنذرتكم نارا تلظى ... » الآيات . الكلام على الأشقي الذي
 ٨٦ كذب وتولى
 تفسير قوله تعالى : « وسيجنبها الأتقى ... » الآيات . الاختلاف في سبب نزول
 هذه السورة ، هل نزلت في أبي بكر رضي الله عنه لما اشترى بلالا وأعتقه .
 ٨٨ أو نزلت في أبي الدرداح في النخلة التي اشتراها بستان له

سورة « الضحى »

- تفسير قوله تعالى : « والضحى . والليل إذا سبحى ... » الآيات . أقوال العلماء
 ٩١ في سبب نزول هذه الآيات
 تفسير قوله تعالى : « ألم يجدهك يتيما فأوى ... » الآيات . القول في تعداد نعم الله
 تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم . بيان معنى قوله « ووجدك ضالا » والمراد
 ٩٦ من الضلال هنا
 تفسير قوله تعالى : « فأما اليتيم فلا تقهر ... » الآيات . الحث على اللطف
 باليتيم ، وعلى برّه والإحسان إليه . النهى عن إغلاظ القول للسائل وزجره .
 القول في أن التحدث بنعم الله تعالى والاعتراف بها شكر . القول فيما إذا بلغ
 ١٠٠ القارئ إلى آخر « والضحى » كبر بعد كل سورة تكبيرة إلى أن ينحتم القرآن .

سورة « ألم نشرح »

- تفسير قوله تعالى : « ألم نشرح لك صدرك » الكلام على انشراح الصدر .
 ١٠٤ ماورد فى شق صدر الرسول عليه السلام
- تفسير قوله تعالى : « ووضعنا عنك وزرك ... » معنى الوزر الذى وضعه الله تعالى
 ١٠٥ عن رسوله الكريم . بيان رفع ذكره صلى الله عليه وسلم
- تفسير قوله تعالى : « فإن مع العسر يسرا ... » بيان أن العرب إذا ذكروا اسما
 ١٠٧ معترفا ثم كرروه فهو هو، وإذا نكروه ثم كرروه فهو غيره
- تفسير قوله تعالى : « فإذا فرغت فانصب ... » بيان المعنى المراد من هذه الآيات .
 ١٠٨

سورة « والتين »

- تفسير قوله تعالى : « والتين والزيتون » بيان الاختلاف فى معنى التين والزيتون .
 الكلام على فضائل التين والزيتون ، وما فيهما من منافع . أقوال العلماء
 فى وجوه الزكاة فيهما
 ١١٠
- تفسير قوله تعالى : « وطور سينين . وهذا البلد الأمين » الكلام على « طور
 سينين » . بيان أن المراد بالبلد الأمين مكة
 ١١٢
- تفسير قوله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ... » المعنى المراد
 بالإنسان هنا . بيان أن الله تعالى ليس له خلق أحسن من الإنسان ، وبيان
 صفاته التى خلقه الله عليها . تأويل قول الرسول عليه السلام " إن الله خلق آدم
 على صورته " . قول الفلاسفة إن الانسان هو العالم الأصغر . الكلام على رد
 الإنسان إلى أسفل سافلين
 ١١٣
- تفسير قوله تعالى : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... »
 ١١٥
- تفسير قوله تعالى : « فما يكذبك بعد بالدين ... » الاختلاف فى المخاطب هل هو
 الكافر، أو يبخأ له . أو هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . بيان أن ألف
 الاستفهام إذا دخلت على النفى وفى الكلام معنى التوقيف صار إيجابا
 ١١٦

سورة « العلق »

- تفسير قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » . بيان أن هذه السورة أول ما نزل من القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو قائم على حراء . القول في أن أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة ... ١١٧
- تفسير قوله تعالى : « الذي علم بالقلم » . فضل تعلم الكتابة ، وبيان أن القلم نعمة من الله تعالى عظيمة . الاختلاف فيمن علم بالقلم . أقوال العلماء في أن أصل الأقسام ثلاثة . القول في أن العرب كانت أقل الخلق معرفة بالكتاب . وجه النهي في تعليم النساء الكتابة ... ١٢٠
- تفسير قوله تعالى : « علم الإنسان ما لم يعلم » . اختلف في الإنسان هنا هل هو آدم عليه السلام ، أو نبينا صلى الله عليه وسلم ... ١٢٢
- تفسير قوله تعالى : « كلا إن الإنسان ليطغى ... » الآيات . الكلام على من نزلت فيه هذه الآيات ... ١٢٢
- تفسير قوله تعالى : « أرايت الذي ينهى عبدا إذا صلى ... » الآيات . بيان أن هذا نزل توبيخا لأبي جهل ، لنهيه النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة ، وتكذيبه بكتاب الله ، وإعراضه عن الإيمان ... ١٢٤
- تفسير قوله تعالى : « كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية ... » بيان أن هذا وإن كان في أبي جهل فهو عظة للناس ، وتهديد لمن يمتنع أو يمنع غيره عن الطاعة . أقوال أهل اللغة في معنى هذه الآيات ... ١٢٥
- تفسير قوله تعالى : « فليدع ناديه . سندع الزبانية » . الكلام على الزبانية ، ومعنى النادى ... ١٢٦
- تفسير قوله تعالى : « كلا لا تطعه وأسجد وأقترب » . القول فيما يقرب العبد من ربه تعالى ... ١٢٨

سورة « القدر »

تفسير قوله تعالى : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » الآيات الكلام على كيفية نزول

صفحة

القرآن . أقوال العلماء فيما يقدر ليلة القدر . ما في ليلة القدر من الفضائل .

اختلاف العلماء في تعيينها . العلامات الدالة عليها ١٢٩

سورة « لم يكن »

بيان ما جاء من الأحاديث في فضلها . القول في قراءة العالم على المتعلم ١٣٨

تفسير قوله تعالى : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ... » الآيات . الكلام

على أن أهل الكتاب هم اليهود الذين كانوا يثرب ، وهم قريظة والنضير

وبنو قينقاع ، وأن المشركين هم الذين كانوا بمكة والمدينة وما حولها ، وهم

مشركو قريش . القول في معنى « منفيكين » وفي البيئة التي أتتهم ١٤٠

تفسير قوله تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين ... » . في الآية دليل على

وجوب النية في العبادات . معنى « حنفاء » ١٤٤

سورة « الزلزلة »

الكلام على فضائل هذه السورة ١٤٦

تفسير قوله تعالى : « إذا زلزلت الأرض زلزالها ... » الآيات . الكلام على زلزلة

الأرض وإخراج أثقالها . أقوال العلماء في حديث الأرض بأخبارها ١٤٧

تفسير قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ... » بيان أن هذا مثل ضربه

الله تعالى بأنه لا يغفل من عمل ابن آدم صغيرة ولا كبيرة . كان رسول الله

صلى الله عليه وسلم يسمى هذه الآية : الآية الجامعة الفائزة ١٥٠

سورة « والعاديات »

تفسير قوله تعالى : « والعاديات ضبعا ... » اختلاف في « العاديات » ، هل هي

الخيل تعدو في سبيل الله ، أو هي الإبل في الحج ، ودليل كل . الكلام على معنى

الضبج . واختلف أيضا في « الموريات » ، هل هي الخيل أو الإبل . قول أهل

اللغة في معنى النقع ١٥٣

تفسير قوله تعالى : « إن الإنسان لربه لكنود » . بيان أن الكافر طبع على

كفران النعمة . معنى الكنود في اللغة ١٦٠

سورة « القارعة »

تفسير قوله تعالى : « القارعة . ما القارعة ... » الكلام على القارعة ، وأنها تفرع

الخلائق بأهوالها وأفزاعها... .. ١٦٤

تفسير قوله تعالى : « فأما من ثقلت موازينه ... » القول في الميزان الذي يوزن به

أعمال بني آدم . لم سميت جهنم هاوية ١٦٦

سورة « التكاثر »

تفسير قوله تعالى : « ألهاكم التكاثر... » أقوال العلماء في سبب نزولها . الكلام

على زيارة القبور وأن زيارتها من أعظم الدواء للقلب القاسي . القول في أنه ينبغي

لمن قسا قلبه وأراد علاجه أن يكثر من ذكر الموت ، ويواظب على مشاهدة

المحتضرين ، وزيارة قبور أموات المسلمين . القول في الآداب التي يتأدب بها

من عزم على زيارة القبور . بيان أن هذه السورة تضمنت القول في عذاب

القبر، وأن الإيمان به واجب ١٦٨

تفسير قوله تعالى : « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » . الكلام على قصة مالك

ابن التيمان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ، رضوان الله عليهم .

بيان اختلاف أهل التأويل في النعيم المستول عنه على عشرة أقوال ١٧٤

سورة « والعصر »

تفسير قوله تعالى : « والعصر . إن الإنسان لفي خسر... » أقوال العلماء في العصر

المقسم به . أقوالهم فيمن حلف ألا يكلم رجلا عصرًا ١٧٨

سورة « الهمزة »

تفسير قوله تعالى : « ويل لكل همزة لمزة ... » القول في الهمزة اللزمة . بيان أصل

الهمز واللز . الاختلاف فيمن نزلت فيه هذه السورة . الكلام على الحطمة ١٨١

سورة « الفيل »

تفسير قوله تعالى : « ألم تركيب فعل ربك بأصحاب الفيل » بيان أن هذا الخطاب

للنبي صلى الله عليه وسلم ولكنه عام . الكلام على قصة أصحاب الفيل .

صفحة

- اختلاف العلماء في تاريخ مولده صلى الله عليه وسلم بالنسبة لعام الفيل . بيان
 أن قصة الفيل كانت من إرهاباته صلى الله عليه وسلم ١٨٧
 تفسير قوله تعالى : « وأرسل عليهم طيرا أبابيل ... » أقوال العلماء في صفة الطير
 التي أرسلها الله تعالى على أصحاب الفيل . كلام أهل اللغة في معنى « أبابيل
 وسجيل » . كيفية هلاكهم بالحجارة ١٩٦

سورة « قريش »

- تفسير قوله تعالى : « لإيلاف قريش ... » اختلاف العلماء في اتصال هذه السورة
 بالتي قبلها في المعنى ، الكلام على إيلافهم . نسب قريش . اختلف في تسميتهم
 قريشا على أربعة أقوال . الكلام على رحلة الشتاء والصيف . توجيه قول مالك :
 الشتاء نصف السنة ، والصيف نصفها ٢٠٠

سورة « الماعون »

- تفسير قوله تعالى : « أرأيت الذي يكذب بالدين ... » اختلاف الأقوال فيمن
 نزلت فيه هذه السورة . كانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصبيان . الكلام
 على السهو في الصلاة . بيان حقيقة الرياء . القول في إظهار العمل إن كان
 فريضة ، وإخفائه إن كان تطوعا ، بيان المراد من منع الماعون ، وأن فيه
 إثني عشر قولاً ٢١٠

سورة « الكوثر »

- تفسير قوله تعالى : « إنا أعطيناك الكوثر » قول أهل اللغة في معنى الكوثر .
 اختلاف أهل التأويل في الكوثر الذي أعطيه النبي صلى الله عليه وسلم ٢١٦
 تفسير قوله تعالى : « فصل لربك وانحر ... » أقوال العلماء في معنى الصلاة
 والنحر . القول فيمن نحر قبل الصلاة . اختلاف العلماء فيمن وضع يمينه على
 شماله في الصلاة . واختلافهم في الموضع الذي عليه توضع اليد . اختلافهم أيضا
 في رفع اليدين في التكبير عند الافتتاح والركوع والرفع من الركوع والسجود ٢١٨

صفحة

تفسير قوله تعالى : « إن شانئك هو الأبر » الكلام على سبب نزول هذه الآية .
أقوال أهل اللغة في معنى الأبر ٢٢٢

سورة « الكافرون »

بيان ما جاء في فضلها، وأنها تعدل ثلث القرآن ٢٢٤
تفسير قوله تعالى : « قل يا أيها الكافرون... » القول في سبب نزول هذه السورة .
بيان أن القرآن نزل على أساليب العرب ، ومن مذاهيم التكرار إرادة التأكيد
والإفهام ، كما أن مذاهيم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز . الاختلاف
في نسخ هذه السورة ٢٢٥

سورة « النصر »

تفسير قوله تعالى : « إذا جاء نصر الله والفتح ... » بيان المراد بهذا النصر، ومعناه
لغة . قول بعض العلماء إن المراد بالناس في هذه السورة هم أهل اليمن . بيان أن
الله تعالى أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم حضور أجله بنزول هذه السورة .
القول في استغفاره صلى الله عليه وسلم ، وهل كان تعبداً ، أو تنبيهاً لأمته خشية
أن يتركوا الاستغفار ٢٢٩

سورة « تبت »

تفسير قوله تعالى : « تبت يدا أبي لهب وتب ... » القول في سبب نزول هذه
السورة . بيان ما كان يفعله أبو لهب وأمراته بالرسول صلوات الله عليه ...
أقوال العلماء في تكنية أبي لهب . بيان أن ولد الرجل من كسبه . القول في أن
امرأة أبي لهب كانت تمشي بالنميمة بين الناس . التحذير من النميمة ، وأنه
لا يدخل الجنة تمام . أفعال امرأة أبي لهب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .
كلام أهل اللغة في معنى المسند ٢٣٤

سورة « الإخلاص »

تفسير قوله تعالى : « قل هو الله أحد ... » الكلام على معنى « أحد » ومعنى
« الصمد » . بيان أن هذه السورة نزلت جواباً لأهل الشرك لما قالوا الرسول

صفحة

الله صلى الله عليه وسلم : صف لنا ربك . القول في الأحاديث الواردة في هذه
السورة ٢٤٤

سورة « الفلق »

تفسير قوله تعالى : « قل أعوذ برب الفلق ... » الكلام في فضلها . قول أهل
اللغة في « الفلق والغاسق » . اختلاف العلماء في النفث عند الرقية . الكلام
في معنى الحسد ، وأنه مذموم . القول في أن الحاسد بارز ربه من خمسة
أوجه ٢٥٢

سورة « الناس »

تفسير قوله تعالى : « قل أعوذ برب الناس... » بيان ما جاء في الوسواس الخناس . ٢٦٠

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

سورة الطارق

مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ سَبْعُ عَشْرَةَ آيَةً

قوله تعالى : وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾
النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾

قوله تعالى : (وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ) قَسَمَانِ : « السَّمَاءُ » قَسَمٌ ، و « الطَّارِقُ » قَسَمٌ .
والطارق : النجم . وقد بينه الله تعالى بقوله : (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ . النَّجْمُ الثَّاقِبُ)
واختلف فيه ؛ فقيل : هو زُحَل ، الكوكب الذي في السماء السابعة ؛ ذكره محمد بن الحسن
في تفسيره ، وذكره أخبارا ، الله أعلم بصحتها . وقال ابن زيد : إنه الثَّيَّابُ . وعنه أيضا أنه
زُحَل ؛ وقاله الفراء . ابن عباس : هو الجَدِيُّ . وعنه أيضا وعن علي بن أبي طالب -
رضي الله عنهما - والفراء : « النَّجْمُ الثَّاقِبُ » نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ لَا يَسْكُنُهَا غَيْرُهُ مِنَ النُّجُومِ ؛
فإِذَا أَخَذَتِ النُّجُومُ أَمَكَّتْهَا مِنَ السَّمَاءِ هَبَطَ فَكَانَ مَعَهَا ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى مَكَانِهِ مِنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ،
وهو زُحَل ؛ فهو طارق حين ينزل وطارق حين يصعد . وحكى الفراء : ثَقَبَ الطَّارِقُ إِذَا
ارْتَفَعَ وَعَلَا . وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعدا
مع أبي طالب ، فأنحط نجم فامتألت الأرض نورا ، ففرغ أبو طالب وقال : أي شيء هذا !
فقال : « هذا نجم رُمي به وهو آية من آيات الله » فعجب أبو طالب ونزل « وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ » .
وروى عن ابن عباس أيضا « وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ » [قال : السماء ^(١)] وما يطرق فيها . وعن

(١) زيادة عن الطبري .

ابن عباس وعطاء : « الثاقب » الذي تُرْمَى به الشياطين . قنادة : هو عام في سائر النجوم ؛ لأن طلوعها بليلاً ، وكل من أتك ليلاً فهو طارق . قال :

وَمِنْكَ حُبْلٍ قَدْ طَرَفْتُ وَمُرِضِعًا * فَالْهَيْتُهَا عَنِ ذِي تَمَائِمٍ مُغِيلٍ^(١)

وقال :

ألم تريايني كلما جئتُ طارقاً * وجدت بها طيباً وإن لم تطيب

فالطارق : النجم ؛ اسم جنس ، سُمِّيَ بذلك لأنه يطرق ليلاً ؛ ومنه الحديث : ” نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يطرق المسافر أهله ليلاً كي تَسْحِدَ الْمَغِيْبَةَ وَتَمْتَشِطَ الشَّعْثَةَ^(٢) ” . والعرب تسمى كل قاصد في الليل طارقاً . يقال : طرق فلان إذا جاء بليل . وقد طرق يطرق طروقاً فهو طارق . ولأبن اروي :^(٣)

ياراقد الليل مسروراً بأوله * إن الحوادث قد يطرفن أسحارا

لا تفرحن بليل طاب أوله * فرب آخر ليل أبجج النارا

وفي الصحاح : والطارق النجم الذي يقال له كوكب الصبح . ومنه قول هند :

نحن بنات طارق * نمشي على التمارق

أى إن أبانا في الشرف كالنجم المضيء . الماوردى : وأصل الطرق الدق ؛ ومنه سميت المطرقة . فسُمِّيَ قاصد الليل طارقاً لاحتياجه في الوصول إلى الدق . وقال قوم : إنه قد يكون نهارة . والعرب تقول : أتيتك اليوم طرقتين ؛ أى مرتين . ومنه قوله صلى الله عليه

(١) البيت لأمرى القيس . والتمايم : النعاويز التي تعلق في عنق الصبي . وذو التمايم : هو الصبي . والمغيل : الذي تزق أمه وهي ترضعه . ويروي : « محول » بدل « مغيل » وهو الذي أتى عليه الحول .

(٢) الابتعاد : حلق العانة بالحديد . والمغيبة : التي غاب عنها زوجها . والشعثة : التي تلبس شعرها .

(٣) لم نعثر على هذين البيتين في ديوان ابن الرومي . وقد أورد الجاحظ البيت الأول في كتابه (الحيوان ج ٦ ص ٥٠٨ طبع مطبعة الحلبي) غير منسوب . ولم يعرف أن الجاحظ يستشهد بشعر ابن الرومي . وقد توفي الجاحظ وكانت سن ابن الرومي ٣٤ على أن هذا الشعر ليس من روح ابن الرومي . وقد أورد أيضاً الفزالي في (الأحياء ج ٣ ص ١٨٠ طبع الحلبي) البيت الأول ضمن ستة أبيات من وزنه وقافيته .

وسلم : « أعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن » . وقال جرير في الطروق :

طَرَقَتْكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ وَوَلَيْسَ ذَا * حِينَ الزِّيَارَةِ فَارْجِعِي بِسَلَامٍ

ثم بين فقال : (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ . النَّجْمُ النَّاقِبُ) والناقب : المضيء . ومنه « شهابٌ ناقيبٌ » . يقال : نَقَبَ يَنْقُبُ نَقُوبًا وَنَقَابَةً إِذَا أَضَاءَ . وثقوبه ضوءه . والعرب تقول : أَنْقَبَ نَارَكَ ، أَي أَضَاهَا . قال :

أذاع به في الناس حتى كأنه * بعلياء نأراً أوقدت بثقوب

الثقوب ما تُسْعَلُ به النار من دِقَاقِ العِيدَانِ . وقال مجاهد : الناقب المتوجج . القشيري : والمعظم على أن الطارق والناقب اسم جنس أريد به العموم ، كما ذكرنا عن مجاهد . (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ) تفخيماً لشأن هذا المُقَسَّمِ به . وقال سُفيان : كل ما في القرآن « وما أدراك » فقد أخبره به . وكل شيء قال فيه « وما يدريك » لم يخبره به .

قوله تعالى : **إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ** ﴿١٠﴾

قال قتادة : حَفَظَهُ يُحْفَظُونَ عَلَيْكَ رِزْقَكَ وَعَمَلَكَ وَأَجَلَكَ . وعنه أيضاً قال : قرينه يحفظ عليه عمله من خير أو شر . وهذا هو جواب القسم . وقيل : الجواب « إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لِقَادِرٌ » في قول الترمذي محمد بن علي . و « إِنْ » مخففة من الثقيلة ، و « ما » مؤكدة ؛ أي إن كل نفس عليها حافظ . وقيل : المعنى إن كل نفس إلا عليها حافظ يحفظها من الآفات حتى يُسَلِّمَهَا إِلَى الْقَدْرِ . قال الفراء : الحافظ من الله يحفظها حتى يسلمها إلى المقادير ؛ وقاله الكلبي . وقال أبو أمامة : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « وَكُلُّ بِالْمُؤْمِنِ مِائَةٌ وَسِتُونَ مَلَكًا يَذُبُّونَ عَنْهُ مَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ . مِنْ ذَلِكَ الْبَصَرُ ، سَبْعَةٌ أَمْلَاكٌ يَذُبُّونَ عَنْهُ كَمَا يُدَبُّ عَنْ قِصْعَةِ الْعَسَلِ الدُّبَابُ . وَأَوْ كُلُّ الْعَبْدِ إِلَى نَفْسِهِ طَرْفَةٌ عَيْنٍ لَا تَخْتِطِفُهُ الشَّيَاطِينُ » . وقراءة ابن عامر وعاصم وحزمة « لَمَّا » بتشديد الميم ؛ أي ما كل نفس إلا عليها حافظ ، وهي لغة

(١) آية ١٠ سورة الصافات .

هُذِيلُ يَقُولُ قَائِلُهُمْ : نَشَدْتِكُمْ لَمَّا قَمْتِ . الْبَاقُونَ بِالْتَّخْفِيفِ عَلَى أَنَّهَا زَائِدَةٌ مُؤَكَّدَةٌ كَمَا ذَكَرْنَا . وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : « لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ »^(١) . عَلَى مَا تَقَدَّمَ . وَقِيلَ : الْحَافِظُ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ ؛ فَلَوْلَا حَفِظَهُ لَهَا لَمْ تَبْقَ . وَقِيلَ : الْحَافِظُ عَلَيْهِ عَقْلُهُ ؛ يَرْشُدُهُ إِلَى مَصَالِحِهِ وَيَكْفُهُ عَنْ مُضَارَّتِهِ .

قُلْتُ : الْعَقْلُ وَغَيْرُهُ وَسَائِطٌ ، وَالْحَافِظُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ ؛ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : « فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا »^(٢) ، وَقَالَ : « قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ »^(٣) . وَمَا كَانَ مِثْلَهُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ ﴾ أَي ابْنِ آدَمَ ﴿ مِمَّ خُلِقَ ﴾ وَجِهَ الْإِتِّصَالِ بِمَا قَبْلَهُ تَوْصِيَةً الْإِنْسَانَ بِالنَّظَرِ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ وَسُنَّتِهِ الْأُولَى ، حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مِنْ أَنْشَاءِ قَادِرٍ عَلَى إِعَادَتِهِ وَجَزَائِهِ ؛ فَيَعْمَلُ لِيَوْمِ الْإِعَادَةِ وَالْجَزَاءِ ، وَلَا يُبْلِي عَلَى حَافِظِهِ إِلَّا مَا يَسْرُهُ فِي عَاقِبَةِ أَمْرِهِ . وَ « مِمَّ خُلِقَ » اسْتِفْهَامٌ ؛ أَي مِنْ أَي شَيْءٍ خُلِقَ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ خُلِقَ ﴾ وَهُوَ جَوَابُ الاسْتِفْهَامِ ﴿ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ أَي مِنَ الْمَيِّ . وَالتَّدْفِيقُ : صَبُّ الْمَاءِ ؛ دَفَقْتُ الْمَاءَ أَدْفِئُهُ دَفْقًا صَبَبْتُهُ ، فَهُوَ مَاءٌ دَافِقٌ ؛ أَي مَدْفُوقٌ ؛ كَمَا قَالُوا : سِرُّ كَاتِمٍ ؛ أَي مَكْتُومٌ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ قَوْلِكَ : دَفِيقُ الْمَاءِ عَلَى مَا لَمْ يَسْمُ فَاعِلُهُ . وَلَا يَقَالُ : دَفِيقُ الْمَاءِ . وَيَقَالُ : دَفَقَ اللَّهُ رُوحَهُ ؛ إِذَا دُعِيَ عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ . قَالَ الْفَرَّاءُ وَالْأَخْفَشُ : « مَاءٌ دَافِقٌ » أَي مُصْبُوبٌ فِي التَّرِيمِ . الزَّجَاجُ : مِنْ مَاءِ ذِي انْدِفَاقٍ . يَقَالُ : دَارِعٌ وَفَارَسٌ وَنَابِلٌ ؛ أَي ذُو فَرَسٍ وَدِرْعٍ وَنَبَلٍ . وَهَذَا مَذْهَبُ سَيَبَوِيهِ . فَالْدَافِقُ هُوَ الْمَدْفُوقُ بِشِدَّةِ قُوَّتِهِ . وَأَرَادَ مَائِينَ : مَاءَ الرَّجْلِ وَمَاءَ الْمَرْأَةِ ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مَخْلُوقٌ مِنْهُمَا ، لَكِنْ جَعَلَهُمَا مَاءً وَاحِدًا لِامْتِزَاجِهِمَا . وَعَنْ عِكْرَمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : « دَافِقٌ » لَزَجٌ . ﴿ يَخْرُجُ ﴾

(٣) آية ٤٢ سورة الأنبياء .

(٢) آية ٦٤ سورة يوسف .

(١) راجع ج ٩ ص ٢٩١

أى هذا الماء (مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ) أى الظهر . وفيه لغات أربع : صُلب ، وُصْلِبَ – وُقِرَى بهما – وُصَلَبَ (بفتح اللام) ، وصالَبَ (على وزن قَالَبَ) ؛ ومنه قول العباس ^(١) :
 * تُنْقَلُ من صالَب إلى رَحِم *
 * تُنْقَلُ من صالَب إلى رَحِم *
 * تُنْقَلُ من صالَب إلى رَحِم *

(والتَّرائِبُ) أى الصدر، الواحدة تَرِيبة ؛ وهى موضع القِلادة من الصدر . قال :

مُهْفَهْفَةٌ بيضاء غير مُفاضية * ترائبها مصقولة كالسجنجل ^(٢)

والصلب من الرجل . والترائب من المرأة . قال ابن عباس : الترائب موضع القِلادة . وعنه : ما بين ثديها ؛ وقاله عكرمة . وروى عنه يعنى ترائب المرأة اليدين والرجلين والعينين ؛ وبه قال الضحاك . وقال سعيد بن جبير : هو الحيد . مجاهد : هو ما بين المنكبين والصدر . وعنه : الصدر . وعنه : التراقي . وعن ابن جبير عن ابن عباس : الترائب أربع أضلاع من هذا الجانب . وحكى الزجاج : أن الترائب أربع أضلاع من يَمنة الصدر، وأربع أضلاع من يَمرة الصدر . وقال معمر بن أبى حبيبة المدنى : الترائب عصارة القلب ؛ ومنها يكون الولد . والمشهور من كلام العرب أنها عظام الصدر والنحر . قال دُرَيْدُ بن الصَّحْمَةِ ^(٣) :

فإن تُدِيرُوا ناخذكم في ظُهورِكُمْ * وإن تُقْبِلُوا ناخذكم في الترائب

وقال آخر :

وبَدَتْ كأن ترائباً من نَحْرِها * جَمْرُ الغَضَى فى مساعد تتوقد

وقال آخر :

والزعفرانُ على ترائبها * شَرِقُّ به اللَّبَاتُ والنَّحْرُ ^(٤)

(١) هو ابن عبد المطلب ، يمدح النبي صلى الله عليه وسلم ، وتمام البيت :

* إذا مضى عالم بدا طبق *

(٢) البيت من معلقة امرئ القيس . والمهفهفة : الخفيفة اللحم التى ليست برهلة ولا ضخمة البطن . والمفاضة : المسترخية البان . والسجنجل : المرأة . وقيل : سبكة الفضة ، أو الزعفران ، أو ماء الذهب .

(٣) فى بعض نسخ الأصل : « أنها عظام النهد والصدر » .

(٤) البيت للخبيل . وشرق الجسد بالطيب امتلاءً فضاق . واللبات (جمع لبة) : موضع القِلادة .

وعن عكرمة : الترائب الصدر ؛ ثم انشد :

* نظامٌ دُرٌّ على ترائبها *
وقال ذو الرمة :

* ضَرَجَنَ البرودَ عن ترائب حرة^(١) *

أى شققن . ويروى « ضَرَحَنَ » بالحاء ؛ أى ألقين . وفى الصحاح : والتريبة واحدة الترائب ، وهى عظام الصدر ؛ ما بين الترقوة والشدوة .
قال الشاعر :

* أشرف نديها على التريب^(٢) *

وقال المثقب العبيدى :

وَمِنْ ذَهَبٍ يَسَنُّ عَلَى تَرِيْبٍ^(٣) * كَلَّوْنَ العاجِ لَيْسَ بَدَى غُضُونٍ^(٤)

[عن غير الجوهري : الشدوة للرجل بمنزلة الثدي للمرأة . وقال الأصمعي : مغرز الثدي . وقال ابن السكيت : هى اللحم الذى حول الثدي ؛ إذا ضممت أولها همزت ، وإذا فتحت لم تهمز] .
وفى التفسير : يُخَلَقُ من ماء الرجل الذى يخرج من صلبه العظم والعصب . ومن ماء المرأة الذى يخرج من ترائبها اللحم والدم ؛ وقوله الأعمش . وقد تقدم مرفوعا فى أول سورة (آل عمران) .
والحمد لله — وفى (المجرات) « إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى » وقد تقدم . وقيل : إن ماء الرجل ينزل من الدماغ ثم يجتمع فى الأنثيين . وهذا لا يعارض قوله : « من بين الصلب » ؛ لأنه
(١) تمام البيت :

* وعن أعين قتلنا كل مقل *
(٢) القائل هو الأغلب العجلى . وتمام البيت :

* لم يعدوا التفلِك فى التوب *
وتفلك ندى الجارية : استدار . والتوب : النهود وهو ارتفاعه .

(٣) كذا فى بعض النسخ والطبرى . وفى بعضها : « يسر » بالراء . وفى روح المعاني : « بين » . وفى اللسان وشعراء النصرانية : « يلوح » . (٤) فى اللسان مادة (ترب) : « ... ليس له غضون » . والبيت من قصيدة مكسورة القافية مطلعها :

أفاطم قبل بينك متعنى ومنعك ما سألتك أن تبينى

(٥) ما بين المربعين سافط . من بعض نسخ الأصل . (٦) راجع ج ٤ ص ٧ (٧) راجع ج ١٦ ص ٣٤٣

إن نزل من الدماغ وإنما يمر بين الصلب والترائب . وقال قتادة : المعنى ويخرج من صلب الرجل وترائب المرأة . وحكى الفراء : أن مثل هذا يأتي عن العرب ؛ وعليه فيكون معنى من بين الصلب من الصلب . وقال الحسن : المعنى يخرج من صلب الرجل وترائب الرجل ، ومن صلب المرأة وترائب المرأة . ثم إنا نعلم أن النطفة من جميع أجزاء البدن ؛ ولذلك يُشبه الرجل والديه كثيرا . وهذه الحكمة في غسل جميع الجسد من خروج المنى . وأيضا المكث من الجماع يجرد وجعا في ظهره وصلبه ؛ وليس ذلك إلا لخلق صلبه عما كان محتبسا من الماء . وروى إسماعيل عن أهل مكة « يخرج من بين الصلب » بضم اللام . ورويت عن عيسى الثقفي . حكاها المهدوي وقال : من جعل المنى يخرج من بين صلب الرجل وترائبه فالضمير في « يخرج » للماء . ومن جعله من بين صلب الرجل وترائب المرأة فالضمير للإنسان . وقرئ « الصلب » بفتح الصاد واللام . وفيه أربع لغات : ^(١) صُلبٌ وصُلْبٌ وصلبٌ وصلبٌ . قال العجاج :

* في صلب مثل العنان المؤدم *

وفي مدح النبي صلى الله عليه وسلم :

* تُنْقَلُ مِنْ صَالِبٍ إِلَى رَحِمٍ *

الآبيات مشهورة معروفة . (إِنَّهُ) أى إن الله جل ثناؤه (عَلَى رَجْعِهِ) أى على رد الماء في الإحليل (لِقَادِرٍ) كذا قال مجاهد والضحاك . وعنهما أيضا أن المعنى : إنه على رد الماء في الصلب ؛ وقاله عكرمة . وعن الضحاك أيضا أن المعنى : إنه على رد الإنسان ماء كما كان لقادر . وعنه أيضا أن المعنى : إنه على رد الإنسان من الكبر إلى الشباب ومن الشباب إلى الكبر لقادر . وكذا في المهدوي . وفي الماوردي والثعلبي : إلى الصبا ومن الصبا إلى النطفة . وقال ابن زيد : إنه على حبس ذلك الماء حتى لا يخرج لقادر . وقال ابن عباس وقتادة والحسن وعكرمة أيضا : إنه على رد الإنسان بعد الموت لقادر . وهو اختيار الطبري . الثعلبي : وهو الأقوى ؛ لقوله تعالى : « يَوْمَ تُبَلَى السَّرَائِرُ » . قال الماوردي : ويحتمل أنه على أن يعيده إلى الدنيا بعد بعثه في الآخرة ؛ لأن الكفار يسألون الله تعالى فيها الرجعة .

(١) تقدم هذا في ص ٥ .

قوله تعالى : يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿١٠﴾

فيه مسألتان :

الأولى - العامل في « يوم » - في قول من جعل المعنى إنه على بعث الإنسان - قوله « لقادر » ولا يعمل فيه « رجعه » لما فيه من التفرقة بين الصلة والموصول بنجر « إن » . وعلى الأقوال الأخر التي في « إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ » يكون العامل في « يوم » فعلٌ مضمَرٌ ولا يعمل فيه « لقادر » ؛ لأن المراد في الدنيا . و (تُبْلَى) أى تُمتحن وتُختَبَرُ ؛ قال أبو الغول الطهوي^(١) :

وَلَا تُبْلَى بِسَالَتِهِمْ وَإِنْ هُمْ * صَلُّوا بِالْحَرْبِ حِينًا بَعْدَ حِينٍ

ويروى « تُبْلَى بِسَالَتِهِمْ » . فمن رواه « تُبْلَى » - بضم التاء - جعله من الاختبار ؛ وتكون البسالة على هذه الرواية الكرامة ؛ كأنه قال : لا يُعرف لهم فيها كراهة . و « تبلى » تُعرف . قال الراجز :

قَد كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ تَزْدَرِينِي * فَالْيَوْمِ أَبْلُوكَ وَتَبْلِينِي

أى أعرفك وتعرفنى . ومن رواه « تَبْلَى » - بفتح التاء - فالمعنى أنهم لا يضعفون عن الحرب وإن تكررت عليهم زمانا بعد زمان . وذلك أن الأمور الشداد إذا تكررت على الإنسان هذته وأضعفته . وقيل : « تُبْلَى السَّرَائِرُ » أى تخرج مخبئاتها وتظهر، وهو كل ما كان استسره الإنسان من خير أو شر ، وأضمرة من إيمان أو كفر ؛ كما قال الأحوص :

سَبَقَتْ لَهَا فِي مُضْمَرِ الْقَلْبِ وَالْحَشَا * سَرِيرَةٌ وَذِي يَوْمِ تُبْلَى السَّرَائِرِ^(٢)

(١) هو شاعر إسلامي ، منسوب إلى « طهية » وهي أم قبيلة من العرب .

(٢) كذا ورد في بعض نسخ الأصل ونزارة الأدب ج ١ ص ٣٢٢ وفي بعض نسخ الأصل والشعر والشعراء

وتحباب الأغاني ج ٤ ص ٢٤٢ طبع دار الكتب المصرية : « سنبل لكم ... » .

الثانية - روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " اتمن الله تعالى خلقه على أربع : على الصلاة والصوم والزكاة والغسل وهي السرائر التي يختبرها الله عز وجل يوم القيامة " ذكره المهدوي . وقال ابن عمر قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ثلاث من حافظ عليها فهو ولي الله حقا ، ومن اختانن فهو عدو الله حقا : الصلاة والصوم والغسل من الجنابة " ذكره الثعلبي . وذكر الماوردي عن زيد بن أسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الأمانة ثلاث : الصلاة والصوم والجنابة . استأن الله عز وجل ابن آدم على الصلاة فإن شاء قال صليت ولم يصل . استأن الله عز وجل ابن آدم على الصوم فإن شاء قال صمت ولم يصم . استأن الله عز وجل ابن آدم على الجنابة فإن شاء قال اغتسلت ولم يغتسل اقرءوا إن شئتم « يوم تَبَى السرائر » " وذكره الثعلبي عن عطاء . وقال مالك في رواية أشهب عنه وسأله عن قوله تعالى « يوم تَبَى السرائر » : أبلغك أن الوضوء من السرائر ؟ قال : وقد بلغني ذلك فيما يقول الناس ، فأما حديث أحدث به فلا . والصلاة من السرائر ، والصيام من السرائر ، إن شاء قد صليت ولم يصل . ومن السرائر ما في القلوب ؛ يجزي الله به العباد . قال ابن العربي : « قال ابن مسعود يغفر للشهيد إلا الأمانة ، والوضوء من الأمانة ، والصلاة والزكاة من الأمانة ، والوديعة من الأمانة ، وأشد ذلك الوديعة ؛ تمثل له على هبتها يوم أخذها فيرمى بها في قعر جهنم ، فيقال له : أخرجها ، فيتبعها فيجعلها في عنقه ، فإذا رجا أن يخرج بها زلت منه فيتبعها ؛ فهو كذلك دهر الدهارين . وقال أبي بن كعب : من الأمانة أن اتهمت المرأة على فرجها . قال أشهب : قال لي سفيان في الحيضة والحمل إن قالت لم أحض وأنا حامل صدقت ، ما لم تأت بما يُعرف فيه أنها كاذبة . وفي الحديث : " غسل الجنابة من الأمانة " . وقال ابن عمر : يُبدي الله يوم القيامة كل سر خفي ، فيكون زينا في الوجوه وخبئا في الوجوه . والله عالم بكل شيء ، ولكن يظهر علامات الملائكة والمؤمنين .

(١) في ابن العربي : « أخذه » .

قوله تعالى : **فَمَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ** ﴿١٠﴾

قوله تعالى : **(فَمَالَهُ)** أى للإنسان **(مِنْ قُوَّةٍ)** أى مَنَعَةٌ تمنعه . **(وَلَا نَاصِرٍ)** ينصره مما نزل به . وعن عكرمة « **فَمَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ** » قال : هؤلاء الملوك ، ما لهم يوم القيامة من قُوَّةٍ ولا ناصر . وقال سفيان : القُوَّةُ العِشِيرَةُ . والناصر الحليف . وقيل : « **فَمَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ** » فى بدنه . « **وَلَا نَاصِرٍ** » من غيره يمتنع به من الله . وهو معنى قول قتادة .

قوله تعالى : **وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ** ﴿١١﴾ **وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ** ﴿١٢﴾
إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿١٣﴾ **وَمَا هُوَ بِأَنْهَزِلَ** ﴿١٤﴾ **إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا** ﴿١٥﴾
وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾

قوله تعالى : **(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)** أى ذات المطر . **تَرْجِعُ كُلَّ سَنَةٍ بِمَطَرٍ بَعْدَ مَطَرٍ** . كذا قال عامة المفسرين . وقال أهل اللغة : الرجوع المطر . وأنشدوا للتخيل يصف سيفاً شبهه بالماء :

أبيض كالرَّجْعِ رَسُوبٍ إِذَا * مَا نَاخَ فِي مُخْتَفِلٍ يَخْتَلِي

(١) [نَاخَتْ قَدَمُهُ فِي الْوَحْلِ تَشُوخٌ وَتَبِيخٌ : خَاضَتْ وَغَابَتْ فِيهِ ؛ قَالَ الْجَوْهَرِيُّ] .

قال الخليل : الرَّجْعُ الْمَطَرُ نَفْسُهُ ، وَالرَّجْعُ أَيْضًا نَبَاتُ الرَّبِيعِ . وَقِيلَ : « **ذَاتِ الرَّجْعِ** »
 أى ذات الفجع . وَقَدْ يُسَمَّى الْمَطَرُ أَيْضًا أَوْبًا كَمَا يُسَمَّى رَجْعًا قَالَ :
رَبَاءُ سَمَاءٍ لَا يَأْوِي لِقُلَّتِهَا * إِلَّا السَّحَابُ وَالْأَوْبُ وَالسَّبِيلُ ﴿٢﴾

(١) ما بين المربعين ذكر فى هامش بعض نسخ الأصل . والمختفل : أعظم موضع فى الجسد . ويختل : يقطع .
 (٢) البيت للتخيل الهدلى . قال السكرى فى شرح هذا البيت : « **رَبَاءُ** يربأ فوقها ؛ يقول لا يدنو لقلتها ؛
 أى رأسها . أى لا يعلو هذه الهضبة من طولها إلا السحاب والأوب . والأوب : رجوع النحل . والسبيل :
 القطر حين يسيل » .

وقال عبد الرحمن بن زيد : الشمس والقمر والنجوم يرجعن في السماء ؛ تطلع من ناحية وتغيب في أخرى . وقيل : ذات الملائكة ؛ لرجوعهم إليها بأعمال العباد . وهذا قسم .
 (وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصُّدَعِ) قسم آخر ؛ أى تتصدع عن النبات والشجر والثمار والأنهار ؛ نظيره « ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا » الآية . وَالصُّدَعُ بمعنى الشق ؛ لأنه يصدع الأرض فتصدع به . وكأه قال : والأرض ذات النبات ؛ لأن النبات صادع للأرض . وقال مجاهد : والأرض ذات الطرق التي تصدعها المشاة . وقيل : ذات الحرث لأنه يصدعها . وقيل : ذات الأموات ؛ لانصداعها عنهم للنشور . (إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ) على هذا وقع القسم .
 أى إن القرآن يفصل بين الحق والباطل . وقد تقدم في مقدمة الكتاب^(٢) ما رواه الحارث عن علي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كُتِبَ فِيهِ خَيْرٌ مَّا قَبْلَكُمْ وَحِكْمٌ مَّا بَعْدَكُمْ هُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ » . وقيل : المراد بالقول الفصل ما تقدم من الوعيد في هذه السورة من قوله تعالى : « إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ . يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ » . (وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ) أى ليس القرآن بالباطل واللعب . والهزل ضد الجد ، وقد هزل يهزل . قال الكُمَيْت :
 * يُجَدُّ بِنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ وَنَهْزِلُ^(٣) *

(إِنْهُمْ) أى إن أعداء الله (يَكِيدُونَ كَيْدًا) أى يمكرون بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكراً . (وَأَكِيدُ كَيْدًا) أى أجازيهم جزاء كيدهم . وقيل : هو ما أوقع الله بهم يوم بدر من القتل والأسر . وقيل : كيد الله استدراجهم من حيث لا يملحون . وقد مضى هذا المعنى في أول « البقرة » عند قوله تعالى : « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » . مستوفى^(٤) .

(١) آية ٢٦ سورة عبس . (٢) راجع ج ١ ص ٥ طبعة ثانية أو ثالثة . (٣) صدر البيت :

* أَرَانَا عَلَى حُبِّ الْحَيَاةِ وَطَوْلِهَا *

(٤) راجع ج ١ ص ٢٠٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : **فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوَيْدًا** ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (**فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ**) أى أترحم ، ولا تسأل الله تعجيل إهلاكهم ، وأرض بما يدبره فى أمورهم . ثم نسخت بآية السيف « **فَأَقْضُوا الشَّرِكَينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ** » .^(١)
(أَمْهَلُهُمْ) تأكيد . ومهل وأمهل بمعنى ؛ مثل نزل وأنزل . وأمهله أنظره ومهله تمهिला ، والاسم المهلة . والأستمهال الاستنظار . وتمهل فى أمره أى أتاد . وأتمهل أتمهلا أى اعتدل وانتصب . والأتمهلال أيضا سكون وفتور . ويقال : مهلا يا فلان ؛ أى رفقاً وسكوناً .
(رُوَيْدًا) أى قريباً ؛ عن ابن عباس . قتادة : قليلاً . والتقدير : أمهلم إمهالا قليلاً .
والرؤيد فى كلام العرب تصغير رُود . وكذا قاله أبو عبيد . وأنشد :

* كَأَنَّهَا تَمَلُّ بِمَشَى عَلَى رُودٍ ^(٢) *

أى على مهل . وتفسير «رُوَيْدًا» : مهلاً ، وتفسير رُوَيْدِكَ أمهل ؛ لأن الكاف إنما تدخله إذا كان بمعنى أفعل دون غيره ، وإنما حركت الدال لالتقاء الساكنين ، فنصب نصب المصادر ، وهو مصغر مأمور به ؛ لأنه تصغير الترخيم من إرواد ؛ وهو مصدر أُرُوِدَ يُرُوِدُ . وله أربعة أوجه : اسم للفعل ، وصفة ، وحال ، ومصدر ؛ فالأسم نحو قولك : رويداً عمراً ؛ أى أريد عمراً بمعنى أمهله . والصفة نحو قولك : ساروا سيراً رويداً . والحال نحو قولك : سار القوم رويداً ؛ لما اتصل بالمعرفة صار حالاً لها . والمصدر نحو قولك : رويداً عمراً ؛ بالإضافة ؛ كقوله تعالى : « **فَضْرَبَ الرَّقَابِ** »^(٤) قال جميعه الجوهري . والذي فى الآية من هذه الوجوه أن يكون نعتاً للمصدر ؛ أى إمهالا رويداً . ويجوز أن يكون للحال ؛ أى أمهلم غير مستعجل لهم العذاب . ختمت السورة .

(١) فى بعض النسخ « يريد » . (٢) آية ٥ سورة التوبة .

(٣) هذا عجز بيت للجموح الظفرى . صدره :

* تكاد لا تسلم البطحاء وطائها *

(٤) آية ٤ سورة محمد .

سورة الأعلیٰ

مَكِّيَّةٌ فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ . وَقَالَ الضَّحَّاكُ : مَدَنِيَّةٌ . وَهِيَ تِسْعٌ عَشْرَةَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾

يستحب للقارئ إذا قرأ «سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» أن يقول عَقِبَهُ : سبحان رَبِّي الْأَعْلَى ؛ قاله النبي صلى الله عليه وسلم ، وقاله جماعة من الصحابة والتابعين ؛ على ما يأتي . وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال : إن لله تعالى ملكاً يقال له حزقيئيل ، له ثمانية عشر ألف جناح ، ما بين الجناح إلى الجناح مسيرة خمسمائة عام ، فخطره له خاطر : هل تقدر أن تبصر العرش جميعه ؟ فزاده الله أجنحة مثلها ، فكان له ستة وثلاثون ألف جناح ، ما بين الجناح إلى الجناح خمسمائة عام . ثم أوحى الله إليه : أيها الملك ، أن يطير ، فطار مقدار عشرين ألف سنة ؛ فلم يبلغ رأس قائمة من قوائم العرش . ثم ضاعف الله له في الأجنحة والقوة وأمره أن يطير ، فطار مقدار ثلاثين ألف سنة أخرى ، فلم يصل أيضاً ؛ فأوحى الله إليه : أيها الملك ، لو طرت إلى نفخ الصور مع أجنحتك وقوتك لم تبلغ ساق عرشي . فقال الملك : سبحان رَبِّي الْأَعْلَى ؛ فأنزل الله تعالى «سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «اجعلوها في سجودكم» . ذكره الثعلبي في (كتاب العرائس) له . وقال ابن عباس والسدي : معنى «سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» أي عَظَّمْ رَبَّكَ الْأَعْلَى . وَالْأَسْمُ صِلَةٌ ، فُصِّدَ بِهَا تَعْظِيمُ الْمُسْمَى ؛ كما قال لبيد :

• إلى الحول ثم اسم السلام عليكما^(١) •

(١) تمامه : • ومن يك حولا كاملا فقد اعذر •

وقيل : نَزَّ رَبُّكَ عَنِ السُّوءِ وَعَمَّا يَقُولُ فِيهِ الْمَلْحَدُونَ . وَذَكَرَ الطَّبْرِيُّ أَنَّ الْمَعْنَى نَزَّ
 اسْمُ رَبِّكَ عَنْ أَنْ تَسْمَى بِهِ أَحَدًا سِوَاهُ . وَقِيلَ : نَزَّ تَسْمِيَةَ رَبِّكَ وَذَكَرَكَ إِيَّاهُ أَنْ تَذَكَرَهُ
 إِلَّا وَأَنْتَ خَاشِعٌ مَعْظَمٌ ، وَلِذَلِكَ مُحْتَرَمٌ . وَجَعَلُوا الْأَسْمَ بِمَعْنَى التَّسْمِيَةِ ، وَالْأَوْلَى أَنْ يَكُونَ
 الْأَسْمُ هُوَ الْمَسْمَى . رَوَى نَافِعٌ عَنْ ابْنِ عَمْرِو قَالَ : لَا تَقُلْ عَلَى اسْمِ اللَّهِ ؛ فَإِنَّ اسْمَ اللَّهِ هُوَ الْأَعْلَى .
 وَرَوَى أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : صَلَّى بِأَمْرِ رَبِّكَ الْأَعْلَى . قَالَ : وَهُوَ أَنْ تَقُولَ سُبْحَانَ
 رَبِّي الْأَعْلَى . وَرَوَى عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عَمْرِو وَابْنِ الزُّبَيْرِ وَأَبِي مُوسَى
 وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ : أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا افْتَتَحُوا قِرَاءَةَ هَذِهِ السُّورَةِ قَالُوا :
 سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى ؛ امْتِنَالًا لِأَمْرِهِ فِي ابْتِدَائِهَا . فَيَخْتَارُ الْاِقْتِدَاءَ بِهِمْ فِي قِرَاءَتِهِمْ ؛ لِأَنَّ
 سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى مِنَ الْقُرْآنِ ؛ كَمَا قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الزَّيْبِغِ . وَقِيلَ : إِنَّهَا فِي قِرَاءَةِ أَبِي :
 «سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى» . وَكَانَ ابْنُ عَمْرِو يَقْرُؤُهَا كَذَلِكَ . وَفِي الْحَدِيثِ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَرَأَهَا قَالَ : «سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى» . قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَنْبَارِيُّ : حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ
 شَهْرِبَارٍ قَالَ حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ الْأَسْوَدِ قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي حَمَادٍ قَالَ حَدَّثَنَا عَيْسَى
 ابْنُ عَمْرِو عَنْ أَبِيهِ قَالَ : قَرَأَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الصَّلَاةِ «سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى»
 ثُمَّ قَالَ : سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى ؛ فَلَمَّا انْقَضَتِ الصَّلَاةُ قِيلَ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَتَزِيدُ هَذَا
 فِي الْقُرْآنِ ؟ قَالَ مَا هُوَ ؟ قَالُوا : سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى . قَالَ : لَا ، إِنَّمَا أَمْرُنَا بِشَيْءٍ فَقَلْتُهُ .
 وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ «سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أَجْعَلُوهَا فِي سَجُودِكُمْ» . وَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَسْمَ هُوَ الْمَسْمَى ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا :
 سُبْحَانَ اسْمِ رَبِّي الْأَعْلَى . وَقِيلَ : إِنْ أَوَّلَ مَنْ قَالَ سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى مِيكَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ .
 وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحَبْرِيْلَ : «يَا جَبْرِيْلُ أَخْبِرْنِي بِشَوَابٍ مِنْ قَالَ سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى
 فِي صَلَاتِهِ أَوْ فِي غَيْرِ صَلَاتِهِ» . فَقَالَ : «يَا مُحَمَّدُ مَا مِنْ مُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ يَقُولُهَا فِي سَجُودِهِ
 أَوْ فِي غَيْرِ سَجُودِهِ إِلَّا كَانَتْ لَهُ فِي مِيزَانِهِ أَنْتَقَلَ مِنَ الْعَرْشِ وَالْكَرْسِيِّ وَجِبَالِ لَدِيَا وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى
 صَدَقَ عَبْدِي أَنَا فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ وَلَيْسَ فَوْقَ شَيْءٍ . اشْهَدُوا يَا مَلَائِكَتِي أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ

وأدخلته الجنة . فإذا مات زاره ميكائيل كل يوم فإذا كان يوم القيامة حمله على جناحه فأوقفه بين يدي الله تعالى فيقول يا رب شفني فيه فيقول قد شفعتك فيه فاذهب به إلى الجنة . وقال الحسن : « سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » أي صلِّ لربك الأعلى . وقيل : أي صلِّ بأسماء الله لا كما يصلي المشركون بالمكاء والتصدية . وقيل : ارفع صوتك بذكر ربك . قال جرير :
فَبِحِ الْإِلَهِ وَجْوهَ تَغْلِبُ كَلِمًا * سَبَّحَ الْحَمْدِجَ وَكَبَّرُوا تَكْبِيرًا

قوله تعالى : الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾
وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ بِجَعَلَهُ غَنَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى ﴾ (٢) قد تقدم معنى التسوية في « الأنفطار » وغيرها .
أي سوى ما خلق فلم يكن في خلقه تشبيج . وقال الزجاج : أي عدل قامته . وعن ابن عباس :
حسن ما خلق . وقال الضحاك : خلق آدم فسوى خلقه . وقيل : خلق في أصلاب الآباء ،
وسوى في أرحام الأمهات . وقيل : خلق الأجساد فسوى الأفهام . وقيل : أي خلق
الإنسان وهباه للتكليف . ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ قرأ على رضي الله عنه والسلمي والكسائي
« قدر » مخففة الدال ، وشدد الباقون . وهما بمعنى واحد . أي قدر ووفق لكل شكل شكله .
﴿ فهدى ﴾ أي أرشد . قال مجاهد : قدر الشقاوة والسعادة ، وهدى للرشد والضلالة . وعنه
قال : هدى الإنسان للسعادة والشقاوة ، وهدى الأنعام لمراعيتها . وقيل : قدر أفواتهم
وأرزاقهم ، وهداهم لمعاشهم إن كانوا إنسا ولمراعيتهم إن كانوا وحشا . وروى عن ابن عباس
والسدي ومقاتل والكلبي في قوله « فهدى » قالوا : عرف خلقه كيف يأتي الذكر الأنثى ؛
كما قال في (طه) : « أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » (٤) أي الذكر للأنثى . وقال عطاء :
جعل لكل دابة ما يصلحها وهداها له . وقيل : خلق المنافع في الأشياء ، وهدى الإنسان لوجه

(١) المكاء : الصفير . والتصدية : التصفيق . قال ابن عباس : « كانت فريش تطوف بالبيت عراة يصفقون

ويصفرون ؛ فكان ذلك عبادة في ظنهم » . (٢) راجع ج ١٩ ص ٢٢٤ (٣) التبيج : التخليط .

(٤) آية ٥٠ .

استخراجها منها . وقيل : « قَدَّرَ فَهَدَى » قدر لكل حيوان ما يصلحه فهداه إليه ، وعرفه وجه الانتفاع به . يحكى أن الأفعى إذا أتت عليها ألف سنة عميت ، وقد ألهمها الله أن مسح العين بورق الرازيانج الغض يرد إليها بصرها ؛ فربما كانت في برية بينا وبين الريف مسيرة أيام فتطوى تلك المسافة على طولها وعلى عماها حتى تهجم في بعض البساتين على شجرة الرازيانج لا تخطئها ، فتحك بها عينيها وترجع باصرة بإذن الله تعالى . وهدايات الإنسان إلى ما لا يحمد من مصالحه وما لا يُحصر من حوائجه ، في أغذيته وأدويته ، وفي أبواب دنياه ودينه ، وإلهامات البهائم والطيور وهوام الأرض ، باب واسع وشوط بطين لا يُحيط به وصف واصف ؛ فسبحان ربى الأعلى . وقال السدى : قدر مدة الجنين في الرحم تسعة أشهر وأقل وأكثر ، ثم هداه للخروج من الرحم . وقال الفراء : أى قدر فهدى وأضل ؛ فاكتفى بذكر أحدهما ؛ كقوله تعالى : « سَرَّابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ^(٢) » . ويحتمل أن يكون بمعنى دعا إلى الإيمان ؛ كقوله تعالى : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ^(٣) » أى لتدعو ، وقد دعا الكل إلى الإيمان . وقيل : « فهدى » أى دلّم بأفعاله على توحيدده ، وكونه عالما قادرا . ولا خلاف أن من شدد الدال من « قدر » أنه من التقدير ؛ كقوله تعالى : « وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا^(٤) » . ومن خفف فيحتمل أن يكون من التقدير فيكونان بمعنى . ويحتمل أن يكون من القدرة والملك ؛ أى ملك الأشياء ، وهدى من شاء .

قلت : وسمعت بعض أشياخى يقول : الذى خلق فسوى وقدر فهدى . هو تفسير العلوة الذى يليق بجلال الله سبحانه على جميع مخلوقاته .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴾ أى النبات والكلأ الأخضر . قال الشاعر^(٥) :
وقد ينبت المرعى على دمن الترى • وتبقى حزازات النفوس كما هيا

(١) أى بعيد . (٢) آية ٨١ سورة النحل .

(٣) آية ٥٢ سورة الشورى . (٤) آية ٢ سورة الفرقان .

(٥) هوزفر بن الحارث . والدمن : السرقين — الزبل — المنبلد بالبحر . والترى : التراب والأرض .

(بَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى) الغُثَاءُ : ما يقذف به السيل على جوانب الوادي من الحشيش والنبات والقماش^(١) . وكذلك الغُثَاءُ (بالتشديد) . والجمع الأغثاء . قتادة : الغثاء الشيء اليابس . ويقال للبقل والحشيش إذا تحطم وييس : غُثَاءٌ وَهَشِيمٌ . وكذلك للذي يكون حول الماء من القماش غثاء ؛ كما قال :

كَأَنَّ طَمِيَّةَ الْمُجِيمِرِ غُدْوَةٌ * من السيل والأغثاء فلئكة مغزل^(٢)

وحكى أهل اللغة : غثا الوادي وأنجفا . وكذلك الماء إذا علاه من الزبد والقماش ما لا ينتفع به . والأحوى : الأسود ؛ أي إن النبات يضرب إلى الحوة من شدة الحضرة كالأسود . والحوة : السواد ؛ قال الأعشى^(٤) :

لَيْبَاءُ فِي شَفْتَيْهَا حُوَّةٌ لَعَسُ * وفي اللثات وفي أنيابها شنب

وفي الصحاح : والحوة سُمرَةُ الشفة . يقال : رجل أحوى وأمرأة حواء ، وقد حويت . وبعير أحوى إذا خالط خضرتة سواد وصفرة . وتصغير أحوى أحويو ؛ في لغة من قال أسويد . ثم قيل : يجوز أن يكون « أحوى » حالا من « المرعى » ، ويكون المعنى : كأنه من خضرتة يضرب إلى السواد ؛ والتقدير : أخرج المرعى أحوى بفعله غثاء . يقال : قد حوى النبات ؛ حكاه الكسائي . وقال :

(١) القماش (بالضم) : ما كان على وجه الأرض من فئات الأشياء . وقماش كل شيء . فثاته .

(٢) في بعض النسخ ومعلقة أمرى القيس :

* كَأَنَّ ذُرًّا رَأْسَ الْمُجِيمِرِ غُدْوَةٌ *

وقد أشار التبريزي شارح المعلقة إلى الرواية الأولى . قال : « والمجيمر » أرض لبني فزارة . وطمية : جبل في بلادهم . يقول : قد أمثلا المجيمر ، فكان الجبل في الماء فلئكة مغزل لما جمع السيل حوله من الغثاء .

(٣) في المعلقة : « الغثاء » قال التبريزي : ورواه الفراء « من السيل والأغثاء » جمع الغثاء ، وهو قليل في الممدود . قال أبو جعفر : من رواء الأغثاء فقد أخطأ ؛ لأن غثاء لا يجمع على أغثاء ، وإنما يجمع على أغنية ؛ لأن أفعلة جمع الممدود وأفعالا جمع المقصور ، نحو رجا وأرجاء .

(٤) كذا في جميع نسخ الأصل ، وهو خطأ . والبيت لذي الرمة كما في ديوانه واللسان . واللياء من الشفاء : اللطيفة القليلة الدم . واللعمس (بفتحين) : لون الشفة إذا كانت تضرب إلى السواد قليلا ؛ وذلك يستملح . والشنب : برودة وعذوبة في الفم ورقة في الأسنان .

وغيث من الوسمى حوتلأه * تبطته بشيظم صلتان^(١)

ويجوز أن يكون « أحوى » صفة لـ « غشاء » . والمعنى : أنه صار كذلك بعد خضرته .
وقال أبو عبيدة : فجعله أسود من احتراقه وقدمه ؛ والرطب إذا يبس أسود . وقال
عبد الرحمن بن زيد : أخرج المرعى أخضر ، ثم لما يبس أسود من احتراقه فصار غشاء
تذهب به الرياح والسيول . وهو مثل ضربه الله تعالى للكفار لذهاب الدنيا بعد نضارتها .

قوله تعالى : سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ

الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴿٧﴾ وَنُذِرُكَ لِلْبِئْسَى ﴿٨﴾

قوله تعالى : (سَنُقْرِئُكَ) أى القرآن يا محمد فنعلمك (فَلَا تَنْسَى) أى فتحفظ ؛

رواه ابن وهب عن مالك . وهذه بشرى من الله تعالى ؛ بشره بأن أعطاه آية بينة ، وهى أن
يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحي ، وهو أسمى لا يكتب ولا يقرأ ، فيحفظه ولا ينساه .
وعن ابن أبي نجيب عن مجاهد قال : كان يتذكر مخافة أن ينسى فقيل : كَفَيْتَكَ . قال مجاهد
والكلبي : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه جبريل بالوحي ، لم يفرغ جبريل من
آخر الآية حتى يتكلم النبي صلى الله عليه وسلم بأولها ، مخافة أن ينساها ؛ فنزلت « سَنُقْرِئُكَ
فَلَا تَنْسَى » بعد ذلك شيئاً فقد كَفَيْتَكَ . ووجه الاستثناء على هذا ، ما قاله الفراء : إلا ما شاء
الله وهو لم يشأ أن تنسى شيئاً ؛ كقوله تعالى : « خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ
إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ^(٢) » ولا يشاء . ويقال فى الكلام : لأعطينكها كلما سألت إلا ما شئت ، وإلا
أن أشاء أن أمنعك والنية على ألا يمنعه شيئاً . فعلى هذا مجازى الأيمان ؛ يستثنى فيها ونية الخالف
التمام . وفى رواية أبى صالح عن ابن عباس : فلم ينس بعد نزول هذه الآية حتى مات ، « إلا ما شاء
الله » . وعن سعيد عن قتادة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينسى شيئاً ؛ « إلا

(١) الوسمى : مطر أول الربيع ؛ لأنه يسم الأرض بالنبات . نسب الى الوسم . والتلاع : جمع التلعة ؛ وهى أرض
مرتفعة غليظة يتردد فيها السبل ثم يدفع منها الى تلة أسفل منها . وهى مكومة من المنابت . وقيل : التلعة مجرى الماء
من أعلى الوادى الى بطون الأرض . وتبطته : دخلته . والشيظم : الطويل الجسم الفقى من الناس والحيل . والصلتان :
النشط الحديد الفؤاد من الحيل . (٢) آية ١٠٨ سورة هود .

ما شاء الله . « . وعلى هذه الأقوال قيل : إلا ما شاء الله أن ينسى ، ولكنه لم ينس شيئا منه بعد نزول هذه الآية . وقيل : إلا ما شاء الله أن ينسى ثم يذكر بعد ذلك ؛ فإذا قد نسي ، ولكنه يتذكر ولا ينسى نسيانا كليا . وقد روى أنه أسقط آية في قراءته في الصلاة ، فحسب أبي أنها نسخت ، فسأله فقال : « إني نسيتها » . وقيل : هو من النسيان ؛ أي إلا ما شاء الله أن ينسى . ثم قيل : هذا بمعنى النسخ ؛ أي إلا ما شاء الله أن ينسخه ، والاستثناء نوع من النسخ . وقيل : النسيان بمعنى الترك ؛ أي يعصمك من أن تترك العمل به ؛ إلا ما شاء الله أن تتركه لنسخه إياه . فهذا في نسخ العمل ، والأقول في نسخ القراءة . قال الفرغاني : كان يعشى مجلس الجنيد أهل البسط من العلوم ، وكان يغشاه ابن كيسان النحوي ، وكان رجلا جليلا ؛ فقال يوما : ما تقول يا أبا القاسم في قول الله تعالى : « سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى » ؟ فأجابه مسرعا - كأنه تقدم له السؤال قبل ذلك بأوقات - : لا تنسى العمل به . فقال ابن كيسان : لا يفضض الله فاك ! مثلك من يصدر عن رأيه . وقوله : « فلا » للنهي لا للنهي . وقيل : للنهي ؛ وإنما أثبت الياء لأن رءوس الآي على ذلك . والمعنى : لا تغفل عن قراءته وتكراره فتنساه ؛ إلا ما شاء الله أن ينسيك برفع تلاوته للمصاحفة . والأقول هو المختار ؛ لأن الاستثناء من النهي لا يكاد يكون إلا مؤقتا معلوما . وأبضا فإن الياء مثبتة في جميع المصاحف وعليها القراءة . وقيل : معناه إلا ما شاء الله أن يؤخر إنزاله . وقيل : المعنى بجعله غناء أحوى إلا ما شاء الله أن يناله بنو آدم والبهائم ؛ فإنه لا يصير كذلك .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ ﴾ أي الإعلان من القول والعمل . ﴿ وَمَا يَخْفَى ﴾ من السر . وعن ابن عباس : ما في قلبك ونفسك . وقال محمد بن حاتم : يعلم إعلان الصدقة وإخفاءها . وقيل : الجهر ما حفظته من القرآن في صدرك . « وما يخفى » هو ما نسخ من صدرك . ﴿ وَيَسْرُكَ ﴾ معطوف على « سنقرئك » وقوله : « إنه يعلم الجهر وما يخفى » اعتراض . ومعنى ﴿ لِلْيَسْرَى ﴾ أي للطريقة اليسرى ؛ وهي عمل الخير . قال ابن عباس : يسرك لأن تعمل خيرا . ابن مسعود : « لليسرى » أي للجنة . وقيل : نوفك للشريعة اليسرى ؛ وهي الحنيفة السمحة السهلة ؛ قال معناه الضحك . وقيل : أي نهون عليك الوحي حتى تحفظه وتعمل به .

قوله تعالى : فَذَكَرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَذَكَرْ ﴾ أى فِعْظُ قومك يا محمد بالقرآن . ﴿ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ أى الموعظة . وروى يونس عن الحسن قال : تذكرة للمؤمن وحجة على الكافر . وكان ابن عباس يقول : تنفع أوليائي ولا تنفع أعدائي . وقال الجرجاني : التذكير واجب وإن لم ينفع . والمعنى : فذكر إن نفعت الذكرى أو لم تنفع ، فحذف كما قال : « سَرَّابِلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ » . وقيل : إنه مخصوص بأقوام بأعيانهم . وقيل : إن « إن » بمعنى ما ، أى فذكر ما نفعت الذكرى ، فتكون « إن » بمعنى ما ، لا بمعنى الشرط ؛ لأن الذكرى نافعة بكل حال ؛ قاله ابن شجرة . وذكر بعض أهل العربية : أن « إن » بمعنى إذ ؛ أى إذ نفعت ؛ كقوله تعالى : « وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »^(٢) أى إذ كنتم ؛ فلم ينجر بعلوهم إلا بعد إيمانهم . وقيل : بمعنى قد .

قوله تعالى : سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ﴿١١﴾

أى مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ وَيَخَافُهُ . فروى أبو صالح عن ابن عباس قال : نزلت في ابن أم مكتوم . الماوردي : وقد يذكّر من يرجوه ، إلا أن تذكرة الخاشي أبلغ من تذكرة الراجي ؛ فلذلك علقها بالخشية دون الرجاء ، وإن تعلقت بالخشية والرجاء . وقيل : أى عم أنت التذكير والوعظ ، وإن كان الوعظ إنما ينفع من يخشى ، ولكن يحصل لك ثواب الدعاء ؛ حكاة القشيري .

قوله تعالى : وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١٢﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴿١٣﴾

ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ﴾ أى ويتجنب الذكرى ويبعد عنها . ﴿ الْأَشْقَى ﴾ أى الشقى في علم الله . وقيل : نزلت في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة . ﴿ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴾

(٢) آية ١٣٩ سورة آل عمران .

(١) آية ٨١ سورة النحل .

أى العظمى، وهى السفلى من أطباق النار؛ قاله الفراء . وعن الحسن : الكبرى نار جهنم، والصغرى نار الدنيا ؛ وقاله يحيى بن سلام . (ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى) أى لا يموت فيستريح من العذاب ولا يحيا حياة تنفعه ؛ كما قال الشاعر :

ألا ما لنفس لا تموت فينقضى * عنها ولا تحيا حياة لها طعم

وقد مضى فى « النساء »^(١) وغيرها حديثُ أبى سعيد الخدرى ، وأن الموحدين من المؤمنين إذا دخلوا جهنم — وهى النار الصغرى على قول الفراء — احترقوا فيها وماتوا؛ إلى أن يُشفع فيهم . خرجه مسلم . وقيل : أهل الشقاء متفاوتون فى شقائهم ، وهذا الوعيد للأشقى ، وإن كان ثم شقى لا يبلغ هذه المرتبة .

قوله تعالى : **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى** ﴿١٤﴾ **وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى** ﴿١٥﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : **﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾** أى قد صادف البقاء فى الجنة ؛ أى من تطهر من الشرك بالإيمان ؛ قاله ابن عباس وعطاء وعكرمة . وقال الحسن والربيع : من كان عمله زاكيا ناميا . وقال معمر عن قتادة : « تَزَكَّى » قال بعمل صالح . وعنه وعن عطاء وأبى العالية : نزلت فى صدقة الفطر . وعن ابن سيرين « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى » قال : خرج فصلّى بعد ما أذى . وقال عكرمة : كان الرجل يقول أقدم زكاتى بين يدي صلواتى . فقال سفيان : قال الله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى » . وروى عن أبى سعيد الخدرى وابن عمر أن ذلك فى صدقة الفطر وصلاة العيد . وكذلك قال أبو العالية ، وقال : إن أهل المدينة لا يرون صدقة أفضل منها ومن سقاية الماء . وروى كثير بن عبد الله عن أبىه عن جدّه عن النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى » قال : « أخرج زكاة الفطر » ، « وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى » قال : « صلاة العيد » . وقال ابن عباس والضحاك : « وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ » فى طريق المصلى . « فصلّى » صلاة العيد . وقيل : المراد

(١) راجع ج ٥ ص ١٩٦

بالآية زكاة الأموال كلها ؛ قاله أبو الأحوص وعطاء . وروى ابن جريح قال قلت لعطاء : « قد أفلح من تزكى » للفطر ؟ قال : هي للصدقات كلها . وقيل : هي زكاة الأعمال لا زكاة الأموال ؛ أي تطهر في أعماله من الرياء والتقصير ؛ لأن الأكثر أن يقال في المال : زكى ، لا تزكى . وروى جابر بن عبد الله قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى » أي من شهد أن لا إله إلا الله وخَلَعَ الأنداد وشهد أنى رسول الله . وعن ابن عباس « تزكى » قال : لا إله إلا الله . وروى عنه عطاء قال : نزلت في عثمان بن عفان رضى الله عنه ! قال : كان بالمدينة منافق كانت له نخلة بالمدينة مائلة في دار رجل من الأنصار ، إذا هبت الرياح أسقطت البُسْر والرُّطْب إلى دار الأنصارى ، فإكل هو وعياله ، فخاصمه المنافق ؛ فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل إلى المنافق وهو لا يعلم نفاقه فقال : « إن أخاك الأنصارى ذكر أن بسرك ورطبك يقع إلى منزله فإكل هو وعياله فهل لك أن أعطيك نخلة في الجنة بدلها ؟ » فقال : أبيع عاجلا بأجل ! لا أفعل . فذكروا أن عثمان ابن عفان أعطاه حائطا من نخل بدل نخلته ؛ ففيه نزلت « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى » . ونزلت في المنافق « وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى » . وذكر الضحاك أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضى الله عنه .

الثانية - قد ذكرنا القول في زكاة الفطر في سورة «البقرة» مستوفى . وقد تقدم أن هذه السورة مكية ؛ في قول الجمهور ، ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة فطر . القشيري : ولا يبعد أن يكون أثنى على من يمثل أمره في صدقة الفطر و صلاة العيد فيما يأمر به في المستقبل .
الثالثة - قوله تعالى : ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ أي ذكر ربه . وروى عطاء عن ابن عباس قال : يريد ذكر معاده وموقفه بين يدي الله جل ثناؤه ، فعبدته وصلّى له . وقيل : ذكر اسم ربه بالكبير في أول الصلاة لأنها لا تنعقد إلا بذكره ؛ وهو قوله : الله أكبر . وبه يحتاج على وجوب تكبيرة الافتتاح وعلى أنها ليست من الصلاة ؛ لأن الصلاة معطوفة عليها . وفيه حجة لمن قال : إن الافتتاح جائز بكل اسم من أسماء الله عز وجل . وهذه مسألة خلافية

(١) راجع ج ١ ص ٣٤٣ طبعة ثانية أو ثالثة .

بين الفقهاء . وقد مضى القول في هذا في أول سورة «البقرة»^(١) . وقيل : هي تكبيرات العيد . قال الضحاك : « وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ » في طريق المصلى «فصلى» ؛ أى صلاة العيد . وقيل : « وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ » وهو أن يذكره بقلبه عند صلاته فيخاف عقابه ويرجو ثوابه ؛ ليكون استيفاءً لها وخشوعاً فيها بحسب خوفه ورجائه . وقيل : هو أن يفتح أول كل سورة بسم الله الرحمن الرحيم . «فصلى» أى فصلى وذكر . ولا فرق بين أن تقول : أكرمتنى فزرتنى ، وبين أن تقول : زرتنى فآكرمتنى . قال ابن عباس : هذا في الصلاة المفروضة ، وهى الصلوات الخمس . وقيل : الدعاء ؛ أى دعاء الله بمجائز الدنيا والآخرة . وقيل : صلاة العيد ؛ قاله أبو سعيد الخدرى وابن عمر وغيرهما . وقد تقدم . وقيل : هو أن يتطوع بصلاة بعد زكاته ؛ قاله أبو الأحوص ، وهو مقتضى قول عطاء . وروى عن عبد الله قال : من أقام الصلاة ولم يؤت الزكاة فلا صلاة له .

قوله تعالى : **بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** ﴿١٦﴾

قراءة العامة « بَلْ تُؤْثِرُونَ » بالتاء ؛ تصديقه قراءة أبي « بَلْ أْتَمُّ تُؤْثِرُونَ » . وقرأ أبو عمرو ونصر بن عاصم « بَلْ يُؤْثِرُونَ » بالياء على الغيبة ؛ تقديره : بل يؤثرون الأشقون الحياة الدنيا . وعلى الأول فيكون تأويلها بل تؤثرون أيها المسلمون الاستكثار من الدنيا للاستكثار من الثواب . وعن ابن مسعود أنه قرأ هذه الآية فقال : أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة ؟ لأن الدنيا حُضرت ومُجِّلت لنا طيباتها وطعامها وشرابها ولذاتها وبهجتها ، والآخرة غُيبت عنا فأخذنا العاجل وتركنا الآجل . وروى ثابت عن أنس قال : كما مع أبى موسى في مسير والناس يتكلمون ويذكرون الدنيا . قال أبو موسى : يا أنس ، إن هؤلاء يكاد أحدهم يفرى الأديم بلسانه فرياً فتعال فلنذكر ربنا

(١) راجع ج ١ ص ١٧٥ طبعة ثانية أو ثالثة .

ساعة . ثم قال : يا أنس ، ما نبر الناس ! ما بطأ بهم ! ؟ قلت : الدنيا والشيطان والشهوات .
قال : لا ، ولكن تجلت الدنيا وغيبت الآخرة ، أما والله لو عاينوها ما عدلوا ولا ميلوا .^(٢)

قوله تعالى : **وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى** ﴿١٧﴾

أى والدار الآخرة ؛ أى الجنة . (خَيْرٌ) أى أفضل . (وَأَبْقَى) أى أدوم من الدنيا .
وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يضع أحدكم أصبعه فى اليمّ فلينظر
بم يرجع " صحيح . وقد تقدم .^(٣) وقال مالك بن دينار : لو كانت الدنيا من ذهب يفتنى ،
والآخرة من حَرْف يبقى ، لكان الواجب أن يُؤثر حَرْفُ يبقى على ذهب يفتنى . قال : فكيف
والآخرة من ذهب يبقى والدنيا من حَرْف يفتنى .

قوله تعالى : **إِنَّ هَذَا لَنِي الصُّحُفِ الْأُولَى** ﴿١٨﴾ **صُّحُفِ إِبْرَاهِيمَ**

وَمُوسَى ﴿١٩﴾

قوله تعالى : (**إِنَّ هَذَا لَنِي الصُّحُفِ الْأُولَى**) قال قتادة وابن زيد : يريد قوله
« **وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى** » . وقالوا : تتابعت كتب الله جل ثناؤه — كما تسمعون — أن الآخرة
خير وأبقى من الدنيا . وقال الحسن : « **إِنَّ هَذَا لَنِي الصُّحُفِ الْأُولَى** » قال : كُتِبَ اللهُ
جل ثناؤه كلها . الكلبي : « **إِنَّ هَذَا لَنِي الصُّحُفِ الْأُولَى** » من قوله : « **قد أفلح** » إلى
آخر السورة ؛ لحديث أبي ذر على ما يأتى . وروى عكرمة عن ابن عباس : « **إِنَّ هَذَا لَنِي**
الصُّحُفِ الْأُولَى » قال : هذه السورة . وقال الضحاك : إن هذا القرآن لنى الصحف
الأولى ؛ أى الكتب الأولى . (**صُّحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى**) يعنى الكتب المنزلة عليهما . ولم
يرد أن هذه الألفاظ بعينها فى تلك الصحف ، وإنما هو على المعنى ؛ أى إن معنى هذا الكلام
وارد فى تلك الصحف . وروى الأجرى من حديث أبي ذر قال : قلت يا رسول الله ، فما

(١) النبر : الحبس ؛ أى ما الذى صدمهم ومنعهم عن طاعة الله .

(٢) قوله « **ما عدلوا** » : ما ساووا بها شيئاً . وقوله « **ولا ميلوا** » : أى ما شكروا ولا ترددوا .

(٣) راجع ج ٤ ص ٣٢٠

كانت صحف إبراهيم؟ قال: " كانت أمثالا كلها : أيها الملك المتسلط المبتلى المغرور إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم فإني لا أردّها ولو كانت من فم كافر . وكان فيها أمثال : وعلى العاقل أن يكون له [ثلاث ^(١)] ساعات : ساعة ينجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه يفكر فيها في صنع الله عز وجل إليه ، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب . وعلى العاقل ألا يكون ظاعنا إلا في ثلاث : تزود لمعاد ، ومرة لمعاش ، ولذة في غير محرم . وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه ، مقبلا على شأنه ، حافظا للسانه . ومن عدّ كلامه من عمله قلّ كلامه إلا فيما يعينه " . قال : قلت يا رسول الله ، فما كانت صحف موسى؟ قال . " كانت عبراً كلها : عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح . وعجبت لمن أيقن بالقدر كيف ينصب . وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها . وعجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم هو لا يعمل " . قال : قلت يا رسول الله ، فهل في أيدينا شيء مما كان في يدي إبراهيم وموسى مما أنزل الله عليك؟ قال : " نعم اقرأ يا أبا ذر « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى . بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرَ مَا بَقِيَ . إِنَّ هَذَا لَنِي الصُّحُفِ الْأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى » . وذكر الحديث .

سورة الغاشية

وهي مكّية في قول الجميع ، وهي ست وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾

« هل » بمعنى قد ، كقوله : « هل أتى على الإنسان » ، قاله قطرب . أي قد جاءك يا محمد حديث الغاشية ، أي القيامة التي تغشى الخلائق بأهوالها وأفزاعها ، قاله أكثر المفسرين . وقال سعيد بن جبير ومحمد بن كعب : « الغاشية » النار تغشى وجوه الكفار ، ورواه أبو صالح

(١) زيادة من الدر المنثور . (٢) في الدر المنثور : « يحاسب فيها نفسه ويفكر فيها صنع ... »

(٣) آية ١ سورة الإنسان .

عن ابن عباس ؛ ودليله قوله تعالى : « وَتَغْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ »^(١) . وقيل : تغشى الخلق .
 وقيل : المراد النفخة الثانية للبعث ؛ لأنها تغشى الخلائق . وقيل : « الغاشية » أهل النار
 يَغْشَوْنَهَا وَيَقْتَحِمُونَ فِيهَا . وقيل : معنى « هل أتاك » أى هذا لم يكن من علمك ولا من علم
 قومك . قال ابن عباس : لم يكن أتاه قبل ذلك على هذا التفصيل المذكور هنا . وقيل :
 إنها خرجت مخرج الاستفهام لرسوله ؛ ومعناه إن لم يكن أتاك حديث الغاشية فقد أتاك ؛ وهو
 معنى قول الكلبي .

قوله تعالى : « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ »

قال ابن عباس : لم يكن أتاه حديثهم فأخبره عنهم فقال : « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ » أى يوم
 القيامة . « خَاشِعَةٌ » قال سفيان : أى ذليلة بالعذاب . وكل متضائل ساكن خاشع . يقال :
 خشع فى صلاته إذا تذل ونكس رأسه . وخشع الصوت : خفي ؛ قال الله تعالى :
 « وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ^(٢) » . والمراد بالوجوه أصحاب الوجوه . وقال قتادة وابن زيد :
 « خاشعة » أى فى النار . والمراد وجوه الكفار كلهم ؛ قاله يحيى بن سلام . وقيل : أراد
 وجوه اليهود والنصارى ؛ قاله ابن عباس . ثم قال : « عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ » فهذا فى الدنيا ؛ لأن
 الآخرة ليست دار عمل . فالمعنى : وجوه عاملة ناصبة فى الدنيا « خاشعة » فى الآخرة .
 قال أهل اللغة : يقال للرجل إذا دأب فى سيره : قد عمل يعمل عملاً . ويقال للسحاب
 إذا دام برقه : قد عمل يعمل عملاً . وذا سحاب عمل . قال الهذلي :
 حتى شأها كليلٌ موهناً عملاً * باتت طرابا وبات الليل لم ينم

(١) آية ٥٠ سورة إبراهيم . (٢) آية ١٠٨ سورة طه .

(٣) هو مساعدة بن جؤرية . وقوله « شأها » : أى ساقها . والكليل : البرق الضعيف . والموهن : القطعة
 من الليل . وباتت طرابا : أى باتت البقر العطاش طرابا إلى السير إلى الموضع الذى فيه البرق . وبات البرق الليل أجمع
 لا يفتر ؛ فعبر عن البرق بأنه لم ينم لانصاله من أول الليل إلى آخره (راجع هذا البيت والكلام عليه فى خزنة الأدب
 الشاهد الرابع بعد الستائة) .

(نَاصِبَةٌ) أى تَعَبَةٌ . يقال : نَصَبَ (بالكسر) يَنْصِبُ نَصَبًا إِذَا تَعَبَ ، وَنَصَبًا أَيضًا ، وَأَنْصَبَهُ غَيْرَهُ . فروى الضحاك عن ابن عباس قال : هم الذين أنصبوا أنفسهم في الدنيا على معصية الله عز وجل وعلى الكفر ، مثل عبدة الأوثان ، وكفار أهل الكتاب مثل الرهبان وغيرهم ، لا يقبل الله جل ثناؤه منهم إلا ما كان خالصا له . وقال سعيد عن قتادة : « عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ » قال : تكبرت في الدنيا عن طاعة الله عز وجل فأعملها الله وأنصبها في النار بجر السلاسل الثقال وحمل الأغلال ، والوقوف حفاة عرأة في العرصات في يوم كان مقداره خمسين الف سنة . قال الحسن وسعيد بن جبیر : لم تَعْمَلِ لَهِ فِي الدُّنْيَا وَلَمْ تَنْصَبْ لَهُ فَأَعْمَلَهَا وَأَنْصَبَهَا فِي جَهَنَّمَ . وقال الكلبي : يُجْتَزُونَ عَلَى وَجُوهِهِمْ فِي النَّارِ . وَعَنْهُ وَعَنْ غَيْرِهِ : يُكَلَّفُونَ ارْتِقَاءَ جَبَلٍ مِنْ حَدِيدٍ فِي جَهَنَّمَ ، فَيَنْصَبُونَ فِيهَا أَشَدَّ مَا يَكُونُ مِنَ النَّصَبِ ، بِمَعَالِجَةِ السَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ وَالْحَوْضِ فِي النَّارِ ، كَمَا تَخْوِضُ الْإِبِلُ فِي الْوَحْلِ ، وَارْتِقَائُهَا فِي صَعُودِهَا مِنَ النَّارِ ، وَهَبُوطُهَا فِي حُدُورِهَا مِنْهَا ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ عَذَابِهَا . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ . وَقَرَأَ ابْنُ مُحَيِّصٍ وَعَيْسَى وَحُمَيْدٌ ، وَرَوَاهَا عُبَيْدٌ عَنْ شَبْلِ بْنِ أَبِي كَثِيرٍ « نَاصِبَةٌ » بِالنَّصَبِ عَلَى الْحَالِ . وَقِيلَ : عَلَى الذَّمِّ . الْبَاقُونَ (بِالرَّفْعِ) عَلَى الصِّفَةِ أَوْ عَلَى إِضْمَارِ مَبْتَدَأٍ فَيُوقَفُ عَلَى « خَاشِعَةٌ » . وَمَنْ جَعَلَ الْمَعْنَى فِي الْآخِرَةِ جَازًا أَنْ يَكُونَ خَبْرًا بَعْدَ خَبْرٍ عَنْ « وَجُوهُ » فَلَا يُوقَفُ عَلَى « خَاشِعَةٌ » . وَقِيلَ : « عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ » أَي عَامِلَةٌ فِي الدُّنْيَا نَاصِبَةٌ فِي الْآخِرَةِ . وَعَلَى هَذَا يَحْتَمَلُ : وَجُوهُ يَوْمئِذٍ عَامِلَةٌ فِي الدُّنْيَا نَاصِبَةٌ فِي الْآخِرَةِ خَاشِعَةٌ . قَالَ عِكْرَمَةُ وَالسُّدِّيُّ : عَمِلَتْ فِي الدُّنْيَا بِالْمَعَاصِي . وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمٍ : هُمُ الرُّهْبَانُ أَصْحَابُ الصَّوَامِعِ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي رِوَايَةِ الضَّحَّاكِ عَنْهُ . وَرَوَى عَنِ الْحَسَنِ قَالَ : لَمَّا قَدِمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — الشَّامَ أَتَاهُ رَاهِبٌ شَيْخٌ كَبِيرٌ مُتَقَهِّلٌ ، عَلَيْهِ سَوَادٌ ، فَلَمَّا رَأَاهُ عَمَرَ بَكَى . فَقِيلَ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا يُبْكِيكَ ؟ قَالَ : هَذَا الْمَسْكِينُ طَلَبَ أَمْرًا فَلَمْ يَصِبْهُ ، وَرَجَا رَجَاءً فَأَخْطَاهُ ، — وَقَرَأَ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ — « وَجُوهُ يَوْمئِذٍ خَاشِعَةٌ . عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ » . قَالَ الْكِسَائِيُّ :

التفهل : رثاءة الهيئة ، ورجل مُتَفَهِّلٌ يابس الجلد سيء الحال مثل المُتَفَهِّل . وقال أبو عمرو :
التفهل : شكوى الحاجة . وأنشد :

* لَعُوا^(١) إِذَا لَاقِيَتْهُ تَقَهَّلًا *

والتفهل : كُفْران الإحسان . وقد قَهَلَ يَقْهَلُ قَهْلًا إِذَا أَثْنَى ثَنَاءً قَبِيحًا . وأقهل الرجل
تكلّف ما يعيبه ودنّس نفسه . وأنقهل ضَعْفٌ وسَقَطٌ ؛ قاله الجوهري . وعن عليّ رضي
الله عنه أنهم أهل حروراء ؛ يعنى الخوارج الذين ذكروهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :
” تَحْفِرُونَ صَلَاتَكُمْ^(٢) مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ وَأَعْمَالَكُمْ مَعَ أَعْمَالِهِمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ
كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ” الحديث .

قوله تعالى : تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤٤﴾

أى يصيبها صلاؤها وحرّها . (حَامِيَةً) شديدة الحرّ ؛ أى قد أوقدت وأحيت
المدة الطويلة . ومنه حمى النهار (بالكسر) وحمى التّنور حمياً فيهما ؛ أى اشتد حرّه . وحكى
الكسائى : اشتد حمى الشمس وحموها بمعنى . وقرأ أبو عمرو وأبو بكر ويعقوب « تَصَلَّى »
بضم التاء . الباقون بفتحها . وقرئ « تَصَلَّى » بالتشديد . وقد تقدم القول فيها فى « إِذَا السَّمَاءُ
أَنْشَقَّتْ »^(٣) . الماوردى : فإن قيل فإمعنى وصفها بالحمى ، وهى لا تكون إلا حامية ، وهو أقل
أحوالها ، فما وجه المبالغة بهذه الصفة الناقصة ؟ قيل : قد اختلف فى المراد بالحامية ها هنا
على أربعة أوجه ؛ أحدها — أن المراد بذلك أنها دائمة الحمى ، وليست كآثار الدنيا التى ينقطع
حميها بانطفائها . الثانى — أن المراد بالحامية أنها حمى من ارتكاب المحظورات وانتهاك
المحارم ؛ كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : ” إِنْ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَى وَأَنْ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمَهُ . ” ومن

(١) اللعوا : السبيء الخلق . والشرة الحريص . (٢) أى تعدون صلواتكم حقيرة بالنظر إلى صلواتهم .

(٣) راجع ج ١٩ ص ٢٧٠

يَرْتَع حَوْلَ الْحَمَى يُوْشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ « . الثالث - أنها تحمى نفسها عن أن تطاق ملامستها أو ترام ملامستها؛ كما يحمى الأسد عرينه؛ ومثله قول النابغة :

تَعْدُو الذَّنَابَ عَلَى مَنْ لَا كَلَابَ لَهُ * وَتَتَّقِي صَوْلَةَ الْمَسْتَأْسِدِ الْحَامِي

الرابع - أنها حامية حمى غيظ وغضب؛ مبالغة في شدة الانتقام . ولم يرد حمى حرم وذات؛ كما يقال: قد حمى فلان إذا أغناظ وغضب عند إرادة الانتقام . وقد بين الله تعالى بقوله هذا المعنى فقال: « تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ ^(١) » .

قوله تعالى: تَسْقَى مِنْ عَيْنٍ آَنِيةٍ ﴿٥٥﴾

الآنى الذى قد انتهى حره؛ من الإيناء بمعنى التأخير . ومنه « آَنِيتَ وَآذَيْتَ » ^(٢) .
وآناه يؤنيه إيناء؛ أى آحره وحبسه وأبطاه . ومنه « يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمِ آَنِ ^(٣) » .
وفى التفاسير « مِنْ عَيْنٍ آَنِيةٍ » أى تنهى حرها؛ فلو وقعت نقطة منها على جبال الدنيا لذابت .
وقال الحسن: « آَنِيةٍ » أى حرها أدارك؛ أوقدت عليها جهنم منذ خلقت فدفعوا إليها وردًا عطاشًا . وعن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: بلغت أنها وحان شربها .

قوله تعالى: لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَهُمْ ﴾ أى لأهل النار . ﴿ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ ﴾ لما ذكر شراهم ذكر طعامهم . قال عكرمة ومجاهد: الضريح نبت ذو شوك لاصق بالأرض، تسميه قريش الشبرق إذا كان رطباً، فإذا يبس فهو الضريح، لا تقربه دابة ولا بهيمة ولا ترعاه؛ وهو سم قاتل، وهو أخبث الطعام وأشنعه؛ على هذا عاقبة المفسرين . إلا أن الضحاك روى عن ابن عباس قال: هو شئ يرمى به البحر يُسَمَّى الضريح من أقوات الأنعام

(١) آية ٨ سورة الملك . (٢) أى فى الحديث فى صلاة الجمعة؛ إذ قيل لرجل جاء يوم الجمعة بخطى

رقاب الناس . ومعنى « آَنِيتَ » أحرمت الحمى . وأبطأت . و « آذيت » أى آذيت الناس بخطبك .

(٣) آية ٤٤ سورة الرحمن .

لا الناس، فإذا وقعت فيه الإبل لم تشبع، وهلكت هزلاً. والصحيح ما قاله الجمهور أنه نبت. قال أبو ذؤيب^(١):

رَعَى الشَّبْرُقَ الرَّيَّانَ حَتَّى إِذَا ذَوَى * وَعَادَ ضَرِيْعًا بَانَ مِنْهُ النَّحَائِصُ^(٢)

وقال الهذلي^(٣) وذكر إبلاً وسوء مرعاها:

وَحُبْسِنَ فِي هَزْمِ الضَّرِيْعِ فَكَلَّهَا * حَدْبَاءُ دَامِيَّةُ الْيَدَيْنِ حَرُودُ^(٤)

وقال الخليل: الضريع نبات أخضر مُتْنُ الرِّيحِ يرمى به البحر. وقال الوالي عن ابن عباس: هو شجر من نار، ولو كانت في الدنيا لأحرقت الأرض وما عليها. وقال سعيد بن جبير: هو الحجارة؛ وقاله عكرمة. والأظهر أنه شجر ذو شوك حسب ما هو في الدنيا. وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الضريع شيء يكون في النار يشبه الشوك أشد مرارة من الصبر وأتن من الجيفة وأحر من النار سماه الله ضريعا". وقال خالد بن زياد: سمعت المتوكل بن حمدان يسأل عن هذه الآية «ليس لهم طعام إلا من ضريع» قال: بلغني أن الضريع شجرة من نار جهنم، حملها القيح والدم، أشد مرارة من الصبر؛ فذلك طعامهم. وقال الحسن: هو بعض ما أخفاه الله من العذاب. وقال ابن كيسان: هو طعام يضرعون عنده ويذنون، ويتضرعون منه إلى الله تعالى طلباً للخلاص منه؛ فسُمي بذلك لأن آكله يضرع في أن يعفى منه لكرهته وخشونته. قال أبو جعفر النحاس: قد يكون مشتقاً من الضارع وهو الذليل؛ أي ذو ضراعة، أي من شربه ذليل تلحقه ضراعة. وعن الحسن أيضاً: هو الزقوم. وقيل: هو وادٍ في جهنم. فانه أعلم. وقد قال الله تعالى في موضع

(١) لم نعث على هذا البيت في ديوان أبي ذؤيب.

(٢) في بعض نسخ الأصل: «بان عنه النحائص». والنحائص: جمع النحوص (بفتح النون) وهي الأتان

الوحشية الحائل. وقيل: هي التي في بطنها ولد. وقيل: التي لابن لها.

(٣) هو قيس بن عيزارة؛ كما في اللسان. (٤) هزم الضريع: ما تكسر منه. والحدياء: الناقة

التي بدت حراففها وعظم ظهرها. والحرود: التي لا تكاد تدر.

آخر: « فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ . وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ^(١) » . وقال هنا : « إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ » وهو غير الغسليين . ووجه الجمع أن النار دركات ؛ فمنهم من طعامه الزقوم ، ومنهم من طعامه الغسليين ، ومنهم من طعامه الضريح ، ومنهم من شرابه الحميم ، ومنهم من شرابه الصديد . قال الكلبي : الضريح في درجة ليس فيها غيره ، والزقوم في درجة أخرى . ويجوز أن تحمل الآيتان على حالتين كما قال : « يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ^(٢) آِنِ » . القُتَيْبِيُّ : ويجوز أن يكون الضريح وشجرة الزقوم نبتين من النار ، أو من جوهر لا تأكله النار . وكذلك سلاسل النار وأغلاها وعقاربها وحياتها ، ولو كانت على ما نعلم ما بقيت على النار . قال : وإنما دلنا الله على الغائب عنده بالحاضر عندنا ؛ فالأسماء متفقة الدلالة ، والمعاني مختلفة . وكذلك ما في الجنة من شجرها وفُرُشِهَا . القُشَيْرِيُّ : وأمثلة من قول القُتَيْبِيِّ أن نقول : إن الذي يُبْقَى الكافرين في النار ليدوم عليهم العذاب ، يُبْقَى النبات وشجرة الزقوم في النار لِيُعَذَّبَ بها الكفار . وزعم بعضهم أن الضريح بعينه لا ينبت في النار ولا أنهم يأكلونه . فالضريح من أقوات الأنعام لا من أقوات الناس . وإذا وقعت الإبل فيه لم تشبع وهلكت هُزُلًا . فأراد أن هؤلاء يقتاتون بما لا يشبعهم ، وضرب الضريح له مثلاً أنهم يعذبون بالجوع كما يعذب من قوته الضريح . قال الترمذي الحكيم : وهذا نظر سقيم من أهله وتأويل دنيء ؛ كأنه يدل على أنهم تحيروا في قدرة الله تعالى ، وأن الذي أنبت في هذا التراب هذا الضريح قادر على أن ينبت في حريق النار ؛ كما جعل لنا في الدنيا من الشجر الأخضر نارا ، فلا النار تحرق الشجر ، ولا رطوبة الماء في الشجر تطفى النار ؛ فقال تعالى : « الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ^(٣) » . وكما قيل حين نزلت « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ^(٤) » : قالوا يارسول الله ، كيف يمشون على وجوههم ؟ فقال : « الَّذِي

(١) آية ٣٥ و ٣٦ سورة الحاقة .

(٢) آية ٤٤ سورة الرحمن .

(٣) آية ٨٠ سورة يس .

(٤) آية ٩٧ سورة الإسراء .

أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم « . فلا يتحير في مثل هذا إلا ضعيف القلب . أو ليس قد أخبرنا أنه « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها » ، وقال : « سرابيلهم من قِطْرَانٍ » (۲) ، وقال : « إِنْ لَدَيْنَا أَنْكَالٌ » (۳) أي قيوداً . « وَجَحِيحًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ » قيل : ذا شوك . وإنما يتلون عليهم العذاب بهذه الأشياء .

قوله تعالى : لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾

يعنى الضريع لا يسمن آكله . وكيف يسمن من يأكل الشوك ! قال المفسرون : لما نزلت هذه الآية قال المشركون : إن إبلنا لتسمن بالضريع ، فنزلت « لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ » . وكذبوا ، فإن الإبل إنما ترعاه رطبا فإذا يبس لم تأكله . وقيل : اشتبه عليهم أمره فظنوه كغيره من النبات النافع ؛ لأن المضارعة المشابهة . فوجدوه لا يسمن ولا يغني من جوع . (۴)

قوله تعالى : وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾

فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ) أي ذات نعمة . وهي وجوه المؤمنين ؛ نعمت بما هاينت من عاقبة أمرها وعملها الصالح . (لِسَعْيِهَا) أي لعملها الذي عملته في الدنيا . (رَاضِيَةٌ) في الآخرة حين أعطيت الجنة بعملها . ومجازه : ثواب سعيها راضية . وفيها واو مضمرة . المعنى : ووجوه يومئذ ؛ ليفصل بينها وبين الوجوه المتقدمة . والوجوه عبارة عن الأنفس . (فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ) أي مرتفعة ؛ لأنها فوق السموات حسب ما تقدم . وقيل : عالية القدر ؛ لأن فيها ما تشتهيبه الأنفس وتلذ الأعين . وهم فيها خالدون .

(۲) آية ۵۰ سورة إبراهيم .

(۱) آية ۵۶ سورة النساء .

(۴) في بعض النسخ : « لا يشبه » .

(۳) آية ۱۲ سورة المزمل .

قوله تعالى : لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿١١﴾

أى كلاما ساقطا غير مرضى . وقال : « لاغية » واللغو واللغا واللاغية بمعنى واحد . قال :
* عن اللغا ورَفِثِ التَّكَلِّمِ ^(١) *

وقال الفراء والأخفش : أى لا تسمع فيها كلمة لغو . وفى المراد بها ستة أوجه : أحدها - يعنى كذبا وبهتاناً وكفرا بالله عز وجل ؛ قاله ابن عباس . الثانى - لا باطل ولا إثم ؛ قاله قتادة . الثالث - أنه الشتم ؛ قاله مجاهد . الرابع - المعصية ؛ قاله الحسن . الخامس - لا يسمع فيها حالف يحلف بكذب ؛ قاله الفراء . وقال الكلبي : لا يسمع فى الجنة حالف يمين برة ولا فاجرة . السادس - لا يسمع فى كلامهم كلمة بلغو ؛ لأن أهل الجنة لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله على ما رزقهم من النعم الدائم ؛ قاله الفراء أيضا . وهو أحسنها لأنه يعنى ما ذكر . وقرأ أبو عمرو وابن كثير « لا يُسْمَعُ » بياء غير مسمى الفاعل . وكذلك نافع إلا أنه بالتاء المضمومة ؛ لأن اللاغية اسم مؤنث فأنث الفعل لتأنيثه . ومن قرأ بالياء فلا أنه حال بين الاسم والفعل الجار والمجرور . وقرأ الباقون بالتاء مفتوحة . (لاغية) نصبا على إسناد ذلك للوجود ؛ أى لا تسمع الوجوه فيها لاغية .

قوله تعالى : فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَنْكُوبٌ

مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَتَمَارِقٌ مَضْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَائِبٌ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : (فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ) أى بماء مندفق ، وأنواع الأشربة اللذيذة على وجه الأرض من غير أخدود . وقد تقدم فى سورة « الإنسان » أن فيها عيوناً . فـ « عَيْنٌ » بمعنى عيون . والله أعلم . (فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ) أى عالية . وروى أنه كان ارتفاعها قدر ما بين

(١) قبله : * وَرَبِّ أَسْرَابٍ حَاجِجٍ كُظْمٍ * فأنله رؤبة . وسبه ابن برى للعجاج .

(٢) راجع ج ١٩ ص ١٢٤ ، ١٤٠

السماء والأرض، ليرى ولي الله ملكه حوله . (وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ) أى أباريق وأوان .
والإبريق : هو ماله عُروة وخرطوم . والكُوب : إناء ليس له عُروة ولا خرطوم . وقد
تقدم هذا فى سورة « الزخرف »^(١) وغيرها . (وَنَمَارِقُ) أى وسائد ، الواحدة نُمْرُقَةٌ .
(مَصْفُوفَةٌ) أى واحدة إلى جنب الأخرى . قال الشاعر :

وإنا لنجربى الكاس بين شروبنا * وبين أبى قابوس فوق النمارق

وقال آخر :

كُهول وشبان حسان وجوههم * على سُرر مصفوفة ونمارق

وفى الصحاح : التُّرُقُ والتُّرُقَةُ : وسادة صغيرة . وكذلك التُّرُقَةُ (بالكسر) لغة حكاها
يعقوب . وربما سَمُوا الطَّنْفِيسَةَ التى فوق الرِّحْلِ نُمْرُقَةً ، عن أبى عبيد . (وَزَرَائِيٌّ مَبْثُوثَةٌ)
قال أبو عبيدة : الزرأبي : البُسُطُ . وقال ابن عباس : الزرأبي الطنافس التى لها نَحْمَلٌ
رقيق ، واحدها زَرْبِيَّةٌ ، وقاله الكلبى والفراء . والمبثوثة : المبسوطة ؛ قاله قتادة . وقيل :
بعضها فوق بعض ؛ قاله عكرمة . وقيل كثيرة ؛ قاله الفراء . وقيل : متفرقة فى المجالس ؛
قاله القتيبي .

قلت : هذا أصوب ، فهى كثيرة متفرقة . ومنه « وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ »^(٢) .
وقال أبو بكر الأنبارى : وحدثنا أحمد بن الحسين قال حدثنا حسين بن عرفة قال حدثنا
عمار بن محمد قال : صليت خلف منصور بن المعتمر فقرا « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ » وقرأ
فيها « وَزَرَائِيٌّ مَبْثُوثَةٌ » متكئين فيها ناعمين .

قوله تعالى : أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾

قال المفسرون : لما ذكر الله عز وجل أمر أهل الدارين تعجب الكفار من ذلك ،
فكذبوا وأنكروا ؛ فذكرهم الله صنعته وقدرته ؛ وأنه قادر على كل شيء ، كما خلق الحيوانات
والسماء والأرض . ثم ذكر الإبل أولا لأنها كثيرة فى العرب ولم يروا الفيلة ، فنبههم جل

(١) راجع ج ١٦ ص ١١٣ (٢) آية ١٦٤ سورة البقرة .

ثناؤه على عظيم من خلقه ؛ قد ذلّله للصغير يقوده و يُذِخه و يُنْهضه و يحمل عليه الثقيل من الحمل وهو بارك ، فَيَنْهَضُ بِثَقِيلِ حَمَلِهِ ، وليس ذلك في شيء من الحيوان غيره . فأراهم عظيمًا من خلقه مسخرًا لصغير من خلقه ؛ يدلّهم بذلك على توحيدِهِ وعظيم قدرته . وعن بعض الحكماء : أنه حدث عن البعير و بديع خلقه ، وقد نشأ في بلاد لا إبل فيها ؛ ففكر ثم قال : يوشك أن تكون طوال الأعناق . وحين أراد بها أن تكون سفائن البر ، صابرها على احتمال العطش ؛ حتى أن إظماها ليرتفع إلى العشر فصاعدًا وجعلها ترعى كل شيء نابت في البراري والمفاوز ، مما لا يرعاه سائر البهائم . وقيل : لما ذكر السرر المرفوعة قالوا : كيف نصعدُها؟ فأَنْزَلَ اللهُ هذه الآية و بين أن الإبل تَبْرُكُ حتى يُحْمَلُ عليها ثم تقوم ؛ فكذلك تلك السرر تتطامن ثم ترتفع . قال معناه قتادة ومقاتل وغيرهما . وقيل : الإبل هنا القِطْعُ العظيمة من السحاب ؛ قاله المبرد . قال الثعلبي : وقيل في الإبل هنا السحاب ولم أجد لذلك أصلاً في كتب الأئمة . قلت : قد ذكر الأصمعي أبو سعيد عبد الملك بن قُريب قال أبو عمرو : من قرأها « أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ » بالتخفيف عنى به البعير لأنه من ذوات الأربع ، يَبْرُكُ فتحمل عليه الجمولة . وغيره من ذوات الأربع لا يُحْمَلُ عليه إلا وهو قائم . ومن قرأها بالثقل فقال « الإبل^(١) » عنى بها السحاب التي تحمل الماء للطر . وقال الماوردي : وفي الإبل وجهان : أحدهما - وهو أظهرهما وأشهرهما أنها الإبل من النعم . الثاني - أنها السحاب . فإن كان المراد بها السحاب فليما فيها من الآيات الدالة على قدرته ، والمنافع العامة لجميع خلقه . وإن كان المراد بها الإبل من النعم فلأن الإبل أجمعُ للمنافع من سائر الحيوان ؛ لأن ضروره أربعة : حلوبة ، وركوبة ، وأكولة ، وحمولة . والإبل تجمع هذه الحلال الأربع ؛ فكانت النعمة بها أعم ، وظهور القدرة فيها أتم . وقال الحسن : إنما خصها الله بالذكر لأنها تأكل النوى والقَتَّ ، وتُخْرِجُ اللبن . وسئل الحسن أيضا عنها وقالوا : الفيل أعظم في الأعجوبة؟ فقال : العرب بعيدة العهد بالفيل ، ثم هو خنزير لا يؤكل لحمه ، ولا يركب ظهره ؛ ولا يُحْتَلَبُ

(١) في البحر : «قرأ الجمهور بكسر الباء وتخفيف اللام . والأصمعي عن أبي عمرو بإسكان الباء . وعلى وابن عباس بشد اللام ، ورويت عن أبي عمرو وأبي جعفر والكسائي ، وقالوا إنها السحاب .»

دَرَه . وكان سُريح يقول : اخرجوا بنا إلى الكفاة حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت .
والإبل لا واحد لها من لفظها ، وهي مؤنثة ؛ لأن أسماء الجموع التي لا واحد لها من لفظها
إذا كانت لغير الآدميين فالتأنيث لها لازم ، وإذا صغرتها دخلتها الهاء فقلت : أَيْبَلَةٌ وَغَنِيمَةٌ ،
ونحو ذلك . وربما قالوا للإبل : إِبْلٌ بسكون الباء للتخفيف ، والجمع آبال .

قوله تعالى : **وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ
نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾**

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ أي رفعت عن الأرض بلا عمد . وقيل :
رُفِعَتْ فلا يناها شيء . ﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ أي كيف نصبت على الأرض بحيث
لا تزول ؛ وذلك أن الأرض لما دُحيت مادتها فارتسأها بالجبال . كما قال : « وَجَعَلْنَا
فِي الْأَرْضِ رَوَامِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ » . ﴿ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ أي بُسِطَتْ ومُدَّت .
وقال أنس : صليت خلف علي رضي الله عنه فقرأ « كَيْفَ خَلَقْتُ » و « رَفَعْتُ » و « نُصِبْتُ »
و « سَطَحْتُ » بضم التاء ؛ أضاف الضمير إلى الله تعالى . وبه كان يقرأ محمد بن السميع
وأبو العالية ؛ والمفعول محذوف ، والمعنى خلقتها . وكذلك سائرهما . وقرأ الحسن وأبو حنيفة
وأبو رجاء « سَطَحْتُ » بتشديد الطاء وإسكان التاء . وكذلك قرأ الجماعة إلا أنهم خففوا
الطاء . وقدم الإبل في الذكر ، ولو قدم غيرها لجاز . قال القشيري : وليس هذا مما يطلب
فيه نوع حكمة . وقد قيل : هو أقرب إلى الناس في حق العرب أكثرها عندهم ،
وهم من أعرف الناس بها . وأيضا : مرافق الإبل أكثر من مرافق الحيوانات الأخرى ؛
فهى ما كولة ولبنها مشروب ، وتصلح للحمل والركوب ، وقطع المسافات البعيدة عليها ،
والصبر على العطش وقلة العلف وكثرة الحمل ، وهى من معظم أموال العرب . وكانوا يسرون
على الإبل منفردين مستوحشين عن الناس ، ومن هذا حاله تفكر فيما يحضره ، فقد ينظر

(١) آية ٣١ سورة الأنبياء .

في مركوبه ثم يمد بصره إلى السماء ثم إلى الأرض . فأمرُوا بالنظر في هذه الأشياء ؛ فإنها أدلُّ دليل على الصانع المختار القادر .

قوله تعالى : فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾
إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا
إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : (فَذَكِّرْ) أى فعظهم يا محمد وخوفهم . (إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ) أى واعظ .
(لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ) أى بمسلط عليهم فنقتلهم . ثم نسختها آية السيف . وقرأ هارون
الأعور « مُسَيِّرٌ » (بفتح الطاء) ، و « والمسيطرون » . وهى لغة تميم . وفى الصحاح :
« والمُسَيِّرُ والمُصَيِّرُ : المسلط على الشئ ليُشْرِفَ عليه ويتعهَّد أحواله ويكتب عمله ؛ وأصله
من السَطْر لأن من معنى السطر ألا يتجاوز ؛ فالكتاب مُسَطَّرٌ والذى يفعله مُسَطَّرٌ ومُسَيِّرٌ ؛
يقال : سَيَّطَرْتُ علينا ، وقال تعالى : « لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ » . وسَطَّرَهُ أى صرعه » .
(إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ) استثناء منقطع ؛ أى لكن من تولى عن الوعظ والتذكير . (فَيُعَذِّبُهُ
اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ) وهى جهنم الدائم عذابها . وإنما قال « الأكبر » لأنهم عذبوا فى الدنيا
بالجوع والقحط والأسر والقتل . ودليل هذا التأويل قراءة ابن مسعود : « إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ
فإنه يعذبه الله » . وقيل : هو استثناء متصل . والمعنى : لست بمسلط إلا على من تولى وكفر ،
فأنت مسلط عليه بالجهاد ، والله يعذبه بعد ذلك العذاب الأكبر ؛ فلا نسخ فى الآية على هذا
التقدير . وروى أن علياً أتى برجل آرتد ، فأستتابه ثلاثة أيام فلم يعاود الإسلام ، فضرب
عنقه وقرأ « إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ » . وقرأ ابن عباس وقتادة « أَلَا » على الاستفتاح والتنبيه ؛
كقول امرئ القيس :

* أَلَا رَبُّ يَوْمٍ لَكَ مِنْهُنَّ صَالِحٌ *^(٣)

(١) آية ٣٧ سورة الطور . (٢) كذا فى نسخ الأصل وتفسير ابن عادل نقلا عن القرطبي . والذى

فى الصحاح : « وأصله من السطر ؛ لأن الكتاب مسطر ... » .

(٣) تمامه : * ولا سمياً يوم بدارة جلجل *

و « مَنْ » على هذا للشرط . والجواب « فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ » والمبتدأ بعد الفاء مضمرة ،
والنقدير : فهو يعذبه الله ؛ لأنه لو أريد الجواب بالفعل الذى بعد الفاء لكان : إِلَّا مَنْ تَوَلَّى
وَكَفَرَ يَعَذِّبُهُ اللَّهُ . (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ) أى رجوعهم بعد الموت . يقال : آب يؤوب ؛
أى رجع . قال عبيد :

وكل ذى غيبة يؤوب * وغائب الموت لا يؤوب

وقرأ أبو جعفر « إِيَابَهُمْ » بالتشديد . قال أبو حاتم : لا يجوز التشديد ، ولو جاز لحاز
مثله فى الصيام والقيام . وقيل : هما لغتان بمعنى . الزمخشري : وقرأ أبو جعفر المدنى
« إِيَابَهُمْ » بالتشديد ؛ ووجهه أن يكون فيعلاً مصدر آيب فيعل من الإياب . أو أن يكون
أصله إؤابا فعلاً من أوب ، ثم قيل : إيوابا كديوان فى ديوان . ثم فعل ما فعل بأصل
سيد ونحوه .

سورة الفجر

مكية ، وهى ثلاثون آية^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾

قوله تعالى : (وَالْفَجْرِ) أفسم بالفجر . (وَلَيَالٍ عَشْرٍ . وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ . وَاللَّيْلِ
إِذَا يَسِرُّ) أقسام خمسة . واختلف فى « الفجر » فقال قوم : الفجر هنا انفجار الظلمة عن
النهار من كل يوم ؛ قاله على وابن الزبير وابن عباس رضى الله عنهم . وعن ابن عباس أيضا
أنه النهار كله ، وعبر عنه بالفجر لأنه أوله . وقال ابن محيىصن عن عطية عن ابن عباس :
يعنى فجر يوم المحترم . ومثله قال قتادة . قال : هو فجر أول يوم من المحترم ، منه تنفجر السنة .

(١) فى بعض نسخ الأصل : « سبع وعشرون » وفى بعضها : « تسع وعشرون » .

(٢) فى بعض النسخ : « ابن مسعود » .

وعنه أيضا : صلاة الصبح . وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : « والفجر » يريد صبيحة يوم النحر ؛ لأن الله تعالى جل ثناؤه جعل لكل يوم ليلة قبله إلا يوم النحر لم يجعل له ليلة قبله ولا ليلة بعده ؛ لأن يوم عرفة له ليلتان : ليلة قبله وليلة بعده ، فمن أدرك الموقف ليلة بعد عرفة ، فقد أدرك الحج إلى طلوع الفجر فجر يوم النحر . وهذا قول مجاهد . وقال عكرمة : « والفجر » قال : أنشأ الفجر من يوم جمع . وعن محمد بن كعب القرظي : « والفجر » آخر أيام العشر إذا دفعت من جمع . وقال الضحاك : فجر ذى الحجة ؛ لأن الله تعالى قرن الأيام به فقال : « وليالٍ عشر » أى ليل عشر من ذى الحجة . وكذا قال مجاهد والسدي والكلبى في قوله : « وليالٍ عشر » هو عشر ذى الحجة ؛ وقاله ابن عباس . وقل مسروق : هى العشر التى ذكرها الله فى قصة موسى عليه السلام « وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ » (٢) وهى أفضل أيام السنة . وروى أبو الزبير عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « والفجر . وليالٍ عشر » — قال — عشر الأضحى فهى ليل عشر على هذا القول ؛ لأن ليلة يوم النحر داخله فيه ؛ إذ قد خصها الله بأن جعلها موقفا لمن لم يدرك الوقوف يوم عرفة . وإنما نكرت ولم تعرف لفضيلتها على غيرها ، فلو عرفت لم تستقل بمعنى الفضيلة الذى فى التنكير ، فنكرت من بين ما أقسم به للفضيلة التى ليست لغيرها . والله أعلم . وعن ابن عباس أيضا : هى العشر الأواخر من رمضان ؛ وقاله الضحاك . وقال ابن عباس أيضا ويمان والطبرى : هى العشر الأول من المحرم التى عاشرها يوم عاشوراء . وعن ابن عباس : « وليالٍ عشر » (بالإضافة) يريد : وليالى أيام عشر .

قوله تعالى : وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣)

الشَّفْعُ الاثنان ، والوتر الفرد . واختلف فى ذلك ؛ فروى صرفوعا عن عمران بن الحصين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الشفع والوتر الصلاة منها شفع ومنها وتر » .

(١) هو يوم عرفة . (٢) آية ١٤٢ سورة الأعراف . (٣) فى الجمل عن القرطبي : لأنها أفضل أيام السنة . (٤) فى تفسير الألوسى : « قرأ ابن عباس بالإضافة فضبطه بعضهم (وليل عشر) بلام دون ياء ، وبعضهم (وليل) بالياء وهو القياس » .

وقال جابر بن عبد الله قال النبي صلى الله عليه وسلم: " « والفجر وليالٍ عشرٍ » - قال - هو الصبح وعشر النحر والوتر يوم عرفة والشفع يوم النحر " . وهو قول ابن عباس وعكرمة . واختاره النحاس وقال : حديث أبي الزبير عن جابر هو الذي صحح عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أصح إسنادا من حديث عمران بن حصين . فيوم عرفة وتر لأنه تاسعها ، ويوم النحر شفع لأنه عاشرها . وعن أبي أيوب قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : « والشفع والوتر » فقال : « الشفع يوم عرفة ويوم النحر والوتر ليلة يوم النحر » . وقال مجاهد وابن عباس أيضا : الشفع خلقه ؛ قال الله تعالى : « وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ^(١) » والوتر هو الله عز وجل . فقيل لمجاهد : أترويه عن أحد ؟ قال : نعم ، عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم . ونحوه قال محمد بن سيرين ومسروق وأبو صالح وقتادة قالوا : الشفع الخلق ؛ قال الله تعالى : « وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ^(٢) » الكفر والإيمان ، والشقاوة والسعادة ، والهدى والضلال ، والنور والظلمة ، والليل والنهار ، والحز والبرد ، والشمس والقمر ، والصيف والشتاء ، والسماء والأرض ، والجن والإنس . والوتر هو الله عز وجل ؛ قال جل ثناؤه : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ ^(٣) » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن لله تسعة وتسعين أسما والله وتر يحب الوتر » . وعن ابن عباس أيضا : الشفع صلاة الصبح ، والوتر صلاة المغرب . وقال الربيع بن أنس وأبو العالية : هي صلاة المغرب ، الشفع فيها ركعتان ، والوتر الثالثة . وقال ابن الزبير : الشفع يومًا مني : الحادي عشر ، والثاني عشر . والثالث عشر الوتر ؛ قال الله تعالى : « فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ^(٣) » . وقال الضحاك : الشفع عشر ذى الحجة ، والوتر أيام مني الثلاثة . وهو قول عطاء . وقيل : إن الشفع والوتر آدم وحواء ؛ لأن آدم كان فردا فشفع بزوجه حواء فصار شفعا بعد وتر . رواه ابن أبي نجیح ، وحكاه القشيري عن ابن عباس . وفي رواية : الشفع آدم وحواء ، والوتر هو الله تعالى . وقيل : الشفع والوتر الخلق ؛ لأنهم شفع ووتر ،

(١) آية ٨ سورة النبا . (٢) آية ٤٩ سورة الداربات . (٣) آية ٢٠٣ سورة البقرة .

فكانه أقسم بالخلق . وقد يُقسم الله تعالى بأسمائه وصفاته لعلمه ، ويُقسم بأفعاله لقدرته ؛ كما قال تعالى : « وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ^(١) » . ويُقسم بمفعولاته لعجائب صنعه ؛ كما قال : « وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا » ، « وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا » ، « وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ » . وقيل : الشفع درجات الجنة وهي ثمان . والوتر دركات النار ؛ لأنها سبعة . وهذا قول الحسين بن الفضل ؛ كأنه أقسم بالجنة والنار . وقيل : الشفع الصفا والمروة ، والوتر الكعبة . وقال مقاتل بن حيان : الشفع الأيام والليالي ، والوتر اليوم الذي لا ليلة بعده وهو يوم القيامة . وقال سفيان بن عيينة : الوتر هو الله ، وهو الشفع أيضا ؛ لقوله تعالى : « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاسِعُهُمْ ^(٢) » . وقال أبو بكر الوراق : الشفع تضاد أوصاف المخلوقين : العز والذل ، والقدرة والعجز ، والقوة والضعف ، والعلم والجهل ، والحياة والموت ، والبصر والعمى ، والسمع والصمم ، والكلام والخرس . والوتر انفراد صفات الله تعالى : عز بلا ذل ، وقدرة بلا عجز ، وقوة بلا ضعف ، وعلم بلا جهل ، وحياة بلا موت ، وبصر بلا عمى ، وكلام بلا خرس ، وسمع بلا صمم ، وما وازاها . وقال الحسن : المراد بالشفع والوتر العدد كله ؛ لأن العدد لا يخلو عنهما ، وهو إقسام بالحساب . وقيل : الشفع مسجد مكة والمدينة ، وهما الحرمان . والوتر مسجد بيت المقدس . وقيل : الشفع القران بين الحج والعمرة ، أو التمتع بالعمرة إلى الحج . والوتر الأفراد فيه . وقيل : الشفع الحيوان ؛ لأنه ذكر وأنثى . والوتر الجماد . وقيل : الشفع ما يئتي والوتر ما لا يئتي . وقيل غير هذا . وقرأ ابن مسعود وأصحابه والكسائي وحمزة وخلف « والوتر » بكسر الواو . والباقون (بفتح الواو) وهما لغتان بمعنى واحد . وفي الصحاح : الوتر (بالكسر) : الفرد ، والوتر (بفتح الواو) : الذحل ^(٣) . هذه لغة أهل العالية . فأما لغة أهل الحجاز فبالضد منهم . فأما تميم فبالكسر فيهما .

(١) آية ٣ سورة الليل .

(٢) آية ٧ سورة المجادلة .

(٣) الذحل : الحقد والعداوة .

قوله تعالى : **وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِيرٌ ﴿٤٢﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴿٤٣﴾**

قوله تعالى : **(وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِيرٌ)** وهذا قسم خامس . وبعد ما أقسم بالليالي العشر على الخصوص أقسم بالليل على العموم . ومعنى « يسيرى » أى يسرى فيه ؛ كما يقال : ليلٌ نائمٌ ونهارٌ صائمٌ . قال :

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى * ونمت وما ليل المطى بنايم^(١)

ومنه قوله تعالى : **« بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ »** . وهذا قول أكثر أهل المعانى ، وهو قول القتيبي والأخفش . وقال أكثر المفسرين : معنى « يسرى » سار فذهب . وقال قتادة وأبو العالية : جاء وأقبل . وروى عن إبراهيم « **وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِيرٌ** » قال : إذا استوى . وقال عكرمة والكلبي ومجاهد ومحمد بن كعب في قوله « **والليل** » : هى ليلة المزدلفة خاصة ؛ لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله . وقيل : ليلة القدر ؛ لسراية الرحمة فيها واختصاصها بزيادة الثواب فيها . وقيل : إنه أراد عموم الليل كله .

قلت : وهو الأظهر كما تقدم . والله أعلم . وقرأ ابن كثير وابن محيظن ويعقوب « يسرى » بإثبات الياء فى الحالين على الأصل ؛ لأنها ليست بمجزومة فثبتت فيها الياء . وقرأ نافع وأبو عمرو بإثباتها فى الوصل ، وبحذفها فى الوقف ؛ وروى عن الكسائى . قال أبو عبيد : كان الكسائى يقول مرة بإثبات الياء فى الوصل وبحذفها فى الوقف اتباعاً للمصحف . ثم رجع إلى حذف الياء فى الحالين جميعاً ؛ لأنه رأس آية ، وهى قراءة أهل الشام والكوفة واختيار أبى عبيد اتباعاً للنقط ؛ لأنها وقعت فى المصحف بغير ياء . قال الخليل : تسقط الياء منها اتفاقاً لرءوس الآى . قال الفراء : قد تحذف العرب الياء وتكتفى بكسر ما قبلها . وأنشد بعضهم :

كَمَا كَفَّ مَا تُلِقُ دِرْهَمًا * جُودًا وَأُخْرَى تُعْطَى بِالسِّيفِ الدَّمَ

(٢) آية ٣٣ سورة صبا .

(١) هذا البيت من قصيدة لجرير يرد بها على الفرزدق .

يقال : فلان ما يُليق درهماً من جوده ؛ أى ما يمسه ولا يُلصق به . وقال المؤرّج : سألت الأَخفش عن العلة في إسقاط الياء من « يَسِر » فقال : لا أجيبك حتى تبيت على باب دارى سنة ، فبت على باب داره سنة ؛ فقال : الليل لا يسرى وإنما يُسرى فيه ؛ فهو مصروف وكل ما صرفته عن جهته بنخسته من إعرابه ؛ ألا ترى إلى قوله تعالى : « وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بَغِيًّا^(١) » ولم يقل بَغِيَّةً لأنه صرفها عن باغية . الزمخشري : وياء « يَسِرَى » تحذف في الدرج اكتفاء عنها بالكسرة ، وأما في الوقف فتحذف مع الكسرة . وهذه الأسماء كلها مجرورة بالقسم ، والجواب محذوف ، وهو لُبْعَدْبَنٌ ؛ يدل عليه قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ - إلى قوله تعالى - فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ » . وقال ابن الأنباري هو « إِنَّ رَبَّكَ يَا لِمَرْصَادٍ » . وقال مقاتل : « هل » هنا في موضع إن ؛ تقديره : إن في ذلك قسماً لدى حجر . ف « هل » على هذا في موضع جواب القسم . وقيل : هى على بابها من الاستفهام الذى معناه التقرير ؛ كقولك : ألم أنعم عليك ؛ إذا كنت قد أنعمت . وقيل : المراد بذلك التأكيد لما أقسم به وأقسم عليه . والمعنى : بل فى ذلك مقنع لدى حجر . والجواب على هذا « إِنَّ رَبَّكَ يَا لِمَرْصَادٍ » . أو مُضْمَرٌ محذوف . ومعنى (لدى حجر) أى لدى لُبِّ وَعَقْل . قال الشاعر :

وكيف يُرَجى أن تتوب وإنما * يُرَجى من الفتيان من كان ذا حجر

كذا قال عامة المفسرين ؛ إلا أن أبا مالك قال : « لِدَى حَجْرٍ » لدى ستر من الناس . وقال الحسن : لدى حلم . قال الفراء : الكل يرجع إلى معنى واحد ؛ لدى حجر ، ولدى عقل ، ولدى حلم ، ولدى ستر ؛ الكل بمعنى العقل . وأصل الحجر المنع . يقال لمن ملك نفسه ومنعها : إنه لذو حجر ؛ ومنه سُمِّيَ الحجرُ لامتناعه بصلابته : ومنه حجر الحاكم على فلان أى منعه وضبطه عن التصرف ؛ ولذلك سُمِّيَتِ الحُجْرَةُ حُجْرَةً لامتناع ما فيها بها . وقال الذّراء : العرب تقول : إنه لذو حجر إذا كان قاهر النفسه ضابطاً لها ؛ كأنه أخذ من حجرت على الرجل .

(١) آية ٢٨ سورة مريم .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ

الْعِمَادِ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ أى مالكك وخالقك . ﴿ بِعَادٍ . إِرَمَ ﴾ قراءة العامة « بعاد » مُنَوَّنًا . وقرأ الحسن وأبو العالية « بِعَادِ إِرَمَ » مضافا . فمن لم يُضِفْ جعل « إِرَمَ » أسمه ولم يصرفه ؛ لأنه جعل عاداً أسم أبيهم وإِرَمَ أسم القبيلة ، وجعله بدلاً منه أو عطف بيان . ومن قرأه بالإضافة ولم يصرفه جعله أسم أمهم أو أسم بلدتهم . وتقديره : بعاد أهل إرم . كقوله : « وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ » ولم تنصرف - قبيلة كانت أو أرضاً - للتعريف والتأنيث . وقراءة العامة « إِرَمَ » بكسر الهمزة . وعن الحسن أيضا « بعَادَ إِرَمَ » مفتوحتين . وقرئ « بعَادَ أُرَمَ » بسكون الراء على التخفيف ؛ كما قرئ « يورِقِكُمْ » وقرئ « بِعَادِ إِرَمِ » ذَاتِ الْعِمَادِ « بإضافة « إِرَمَ » - إلى - « ذَاتِ الْعِمَادِ » والإِرَمَ : العلم . أى بعاد أهل ذات العلم . وقرئ « بِعَادِ أُرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ » أى جعل الله ذات العباد رميا . وقرأ مجاهد والضحاك وقتادة « أُرَمَ » بفتح الهمزة . قال مجاهد : من قرأ بفتح الهمزة شبههم بالآرام التى هى الأعلام ، واحدها أُرَمَ . وفى الكلام تقديم وتأخير ؛ أى والفجر وكذا وكذا إن ربك لبالمرصاد أَلَمْ تَرَ . أى ألم ينته علمك إلى ما فعل رَبُّكَ بعاد . وهذه الرؤية رؤية القلب ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد عام . وكان أمر عاد وثمود عندهم مشهورا ؛ إذ كانوا فى بلاد العرب ، وحمجر ثمود موجود اليوم . وأمر فرعون كانوا يسمعون من جيرانهم من أهل الكتاب ، واستفاضت به الأخبار ، وبلاد فرعون متصلة بأرض العرب . وقد تقدم هذا المعنى فى سورة « البروج » وغيرها ﴿ بِعَادِ ﴾ أى بقوم عاد . فروى شهر بن حوشب عن أبى هريرة قال : أن كان الرجل من قوم عاد ليتخذ المِصْرَاعَ من حجارة ، ولو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يستطيعوا أن يُقْلَوْه ، وأن كان أحدهم ليدخل قدمه فى الأرض فتدخل فيها . و « إِرَمَ » قيل هو سام بن نوح ؛ قاله ابن إسحاق . وروى عطاء عن ابن عباس - وحكى عن ابن إسحاق

(١) راجع ج ١٩ ص ٢٩٥

أيضا - قال : عاد ابن إرم . فإرم على هذا أبو عاد ، وعاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح . وعلى القول الأول هو أسم جد عاد . قال ابن إسحاق : كان سام بن نوح له أولاد ، منهم إرم بن سام وأرنخشذ بن سام . فمن ولد إرم بن سام العمالق والفراعنة والجبابرة والملوك الطغاة والعصاة . وقال مجاهد : « إرم » أمة من الأمم . وعنه أيضا أن معنى إرم : القديمة . ورواه ابن أبي نجیح . وعن مجاهد أيضا أن معناها القوية . وقال قتادة : هي قبيلة من عاد . وقيل : هما عادان . فالأولى هي إرم ؛ قال الله عز وجل : « وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ » . فقيل لعقب عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ؛ عاد ؛ كما يقال لبني هاشم : هاشم . ثم قيل للأولين منهم : عاد الأولى ، وإرم تسمية لهم بأسم جدتهم . ولمن بعدهم عاد الأخيرة . قال ابن الرقيات :

مَجْدًا تَلِيدًا بَنَاهُ أَوْلَهُمْ * أَدْرَكَ عَادًا وَقَبْلَهُ إِرْمًا

وقال معمر : « إرم » إليه مجمع عاد وشمود . وكان يقال : عاد إرم وعاد شمود . وكانت القبائل تنسب إلى إرم . (ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ) قال ابن عباس في رواية عطاء : كان الرجل منهم طوله خمسمائة ذراع ، والقصير منهم طوله ثلاثمائة ذراع بذراع نفسه . وروى عن ابن عباس أيضا أن طول الرجل منهم كان سبعين ذراعا . ابن العربي : وهو باطل ؛ لأن في الصحيح : « إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعا في الهواء فلم يزل الخلق ينقص إلى الآن » . وزعم قتادة : أن طول الرجل منهم اثنا عشر ذراعا . قال أبو عبيدة : « ذَاتِ الْعِمَادِ » ذات الطول . يقال : رجل مُعَمَّدٌ إِذَا كَانَ طَوِيلًا . ونحوه عن ابن عباس ومجاهد . وعن قتادة أيضا : كانوا عمادا لقومهم ؛ يقال : فلان عميد القوم وعمودهم أي سيدهم . وعنه أيضا : قيل لهم ذلك لأنهم كانوا ينتقلون بأبياتهم للانتجاع ، وكانوا أهل خيام وأعمدة ، ينتجعون الغيوث ويطلبون الكلاب ، ثم يرجعون إلى منازلهم . وقيل : « ذَاتِ الْعِمَادِ » أي ذات الأبنية المرفوعة على العمد . وكانوا ينصبون الأعمدة فيبنون عليها القصور . قال ابن زيد :

(١) في بعض النسخ : « القرية » . (٢) آية ٥٠ سورة النجم .

« ذَاتِ الْعِمَادِ » يعنى لإحكام البنيان بالعمد . وفى الصحاح : والعمادُ الأبنية الرفيعة ، تذكر وتؤنث . قال عمرو بن كلثوم :

ونحن إذا عمادُ الحى نَحَرْت * على الأحفاضِ نمنع من يَلِينَا

والواحدة عِمَادَةٌ . وفلان طويل العِمَادِ : إذا كان منزله مُعَمَّماً لزياره . والأحفاض : جمع حَفْضٍ (بالتحريك) وهو متاع البيت إذا هُبِّيَ لِيُحْمَلَ ؛ أى نَحَرْتِ عَلَى الْمَتَاعِ . ويروى ؛ « عن الأحفاض » أى نَحَرْتِ عَنِ الْإِبِلِ الَّتِي تَحْمِلُ نَحْرِيَّ الْبَيْتِ . وقال الضحاك : « ذَاتِ الْعِمَادِ » ذات القوة والشدة ، مأخوذة من قوة الأعمدة ؛ دليله قوله تعالى : « وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنْهَا قُوَّةً » . وروى عَوْفٌ عَنِ خَالِدِ الرَّبْعِيِّ « إِرَمُ ذَاتِ الْعِمَادِ » قال : هى دمشق . وهو قول عكرمة وسعيد المقبري . ورواه ابن وهب وأشهب عن مالك . وقال محمد بن كعب القُرَظِيُّ : هى الاسكندرية .

قوله تعالى : الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿١٥﴾

الضمير فى « مِثْلُهَا » يرجع إلى القبيلة . أى لم يُخْلَقْ مِثْلُ الْقَبِيلَةِ فِي الْبِلَادِ قُوَّةً وَشِدَّةً ، وَعِظَمَ أَجْسَادٍ وَطَوَّلَ قَامَةٍ ؛ عَنِ الْحَسَنِ وَغَيْرِهِ . وفى حرف عبد الله « الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ » . وقيل : يرجع للمدينة . والأقول أظهر ، وعليه الأكثر حسب ما ذكرناه . ومن جعل « إِرَمَ » مدينة قدر حذفا ؛ المعنى : كيف فعل رَبُّكَ بِمَدِينَةِ عَادِ إِرَمَ ، أَوْ بِعَادِ صَاحِبَةِ إِرَمَ . وإرم على هذا مؤنثة معترفة . وأختار ابن العربى أنها دمشق لأنه ليس فى البلاد مثلها . ثم أخذ ينعتها بكثرة مياهها وخيراتها . ثم قال : وإن فى الإسكندرية لعجائب ، لو لم يكن إلا المنار فإنها مبنية الظاهر والباطن على العمد ، ولكن لها أمثال ، فأما دمشق فلا مثل لها . وقد روى معن عن مالك أن كتابا وجد بالإسكندرية فلم يُدْر ما هو ، فإذا فيه « أنا شذاد ابن عاد الذى رفع العماد ، بنيتها حين لا شيب ولا موت . قال مالك : أن كان لتمز بهم

(١) الخرق : متاع البيت وأثاثه . (٢) آية ١٥ سورة فصلت .

مائة سنة لا يرون فيها جنازة . وذكر عن ثور بن زيد^(١) أنه قال : أنا شداد بن عاد ، وأنا رفعت العماد ، وأنا الذي شدت بذراعي بطن الواد ، وأنا الذي كزت كزرا على سبعة أذرع ، لا يخرجها إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وروى أنه كان لعاد آبنان : شداد وشديد ، فلكا وقهرا ، ثم مات شديد ، وخلص الأمر لشداد فملك الدنيا ودانت له ملوكها ، فسمع بذكر الجنة فقال : أبني مثلها . فبنى إرم في بعض صحارى عدن في ثلثمائة سنة ، وكان عمره تسعمائة سنة . وهي مدينة عظيمة ، قصورها من الذهب والفضة ، وأساطينها^(٢) من الزبرجد والياقوت ، وفيها أصناف الأشجار والأنهار المطردة^(٣) . ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته ، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة ، بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا . وعن عبد الله بن قلابة أنه خرج في طلب إبل له ، فوقع عليها فحمل ما قدر عليه مما تم ، وبلغ خبره معاوية فاستحضره ، فقص عليه ، فبعث إلى كعب فسأله فقال : هي إرم ذات العماد ، سيدخلها رجل من المسلمين في زمانك ، أحمر أشقر قصير ، على حاجبه خال وعلى عقبه خال ، يخرج في طلب إبل له ، ثم التفت فأبصر ابن قلابة وقال : هذا والله ذلك الرجل . وقيل : أي لم يخلق مثل أبنية عاد المعروفة بالعمد . فالكناية للعماد . والعماد على هذا جمع عمد . وقيل : الإرم : الهلاك ، يقال : أرم بنو فلان أي هلكوا ، وقاله ابن عباس . وقرأ الضحاك : « أرم ذات العماد » ، أي أهلكتهم فجعلهم رميا .

قوله تعالى : **وَأَمْشَوْا الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ** ﴿٩﴾

ثمود هم قوم صالح . و« جابوا » : قطعوا . ومنه : فلان يجوب البلاد أي يقطعها . وإنما سمي جيب القميص لأنه جيب ، أي قطع . قال الشاعر وكان قد نزل على ابن الزبير بمكة ، فكتب له بستين وسقاً يأخذها بالكوفة . فقال :

(١) في الأصول : « يزيد » وهو تحريف . (٢) الأساطين : جمع الاسطوانة ، وهي العمود والدارية . (٣) أي التي تجرى .

راحت رَوَاحًا قُلُوصِي وَهِيَ حَامِدَةٌ * آل الزُّبَيْرِ وَلَمْ تَعْدِلْ بِهِمْ أَحَدًا
 راحت بستين وَسَقًا فِي حَقِيبَتِهَا * مَا حَمَلَتْ حَمَلَهَا الْأَدْنَى وَلَا السَّدَا
 مَا إِنْ رَأَيْتَ قُلُوصًا قَبْلَهَا حَمَلَتْ * سَتِينَ وَسَقًا وَلَا جَابَتْ بِهِ بِلْدَا

أى قطعت . قال المفسرون : أول من نحت الجبال والصخور والرخام ثمود . فبنوا من
 المدائن ألفا وسبعمئة مدينة كلها من الحجارة . ومن الدور والمنازل ألفى ألف وسبعمئة ألف
 كلها من الحجارة . وقد قال تعالى : «وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ» ^(١) . وكانوا لقوتهم
 يُخْرِجُونَ الصَّخُورَ وَيَنْقُبُونَ الْجِبَالَ ، وَيَجْعَلُونَهَا بُيُوتًا لِأَنْفُسِهِمْ . (بِالْوَادِي) أى بوادى
 القرى ؛ قاله محمد بن إسحاق . وروى أبو الأشهب عن أبي نضرة قال : أتى رسول الله صلى
 الله عليه وسلم فى غزاة تبوك على وادى ثمود ، وهو على فرس أشقر ، فقال : «أسرعوا
 السير فإنكم فى وادٍ ملعون» . وقيل : الوادى بين جبال ، وكانوا ينقبون فى تلك الجبال
 بيوتا ودورا وأحواضا . وكل مُنْفَرَجٌ بين جبال أو تلال يكون مسلكا للسيل ومنفذا فهو وادٍ .

قوله تعالى : وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾

أى الجنود والعساكر والجموع والجيوش التى تشد ملكه ؛ قاله ابن عباس . وقيل : كان
 يعذب الناس بالأوتاد ويشدهم بها إلى أن يموتوا ؛ تَجَبَّرَ مِنْهُ وَعَتَوْا . وهكذا فعل بامرأته
 آسية وماشطة ابنته ؛ حسب ما تقدم فى آخر سورة «التحریم» ^(٢) . وقال عبد الرحمن بن زيد :
 كانت له صخرة تُرْفَعُ بِالْبَكَرَاتِ ، ثم يؤخذ الإنسان فتؤتد له أوتاد الحديد ، ثم يرسل تلك الصخرة
 عليه فتشده . وقد مضى فى سورة «ص» ^(٣) من ذكر أوتاده ما فيه كفاية . والحمد لله .

قوله تعالى : الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا

الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾

(١) آية ٨٢ سورة الحجر . (٢) راجع ج ١٨ ص ٢٠٢ (٣) راجع ج ١٥ ص ١٥٤

قوله تعالى : (الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ) ^(١) يعنى عادا و ثمودا و فرعون « طَغَوْا » أى تمردوا و عتوا و تجاوزوا القدر فى الظلم و العدوان . (فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ) أى الجور و الأذى . و « الَّذِينَ طَغَوْا » أحسن الوجوه فيه أن يكون فى محل النصب على الذم . و يجوز أن يكون مرفوعا على : هم الذين طغوا ، أو مجرورا على وصف المذكورين : عاد ، و ثمود ، و فرعون . (فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ) أى أفرغ عليهم و ألقى ؛ يقال : صب على فلان خلعة أى ألقاها عليه . قال النابغة :

فصب عليه الله أحسن صنعه * وكان له بين البرية ناصرا ^(٢)

(سَوْطَ عَذَابٍ) أى نصيب عذاب . و يقال : شدته ؛ لأن السوط كان عندهم نهاية ما يعذب به . قال الشاعر :

لم تر أن الله أظهر دينه * وصب على الكفار سوط عذاب

وقال الفراء : هى كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب . وأصل ذلك أن السوط هو عذابهم الذى يعذبون به ، بخرى لكل عذاب ؛ إذ كان فيه عندهم غاية العذاب . وقيل . معناه عذاب يخالط اللحم و الدم ؛ من قولهم : ساطه يسوطه سوطا أى خلطه ، فهو سائط . فالسوط خلط الشئ ببعضه ببعض ؛ و منه سمي المسواط . و سوطه أى خلطه ، و أكثر ذلك يقال : سوط فلان أموره . قال :

فسطها ذميم الرأي غير موقق * فلست على تسويطها بمعان

قال أبو زيد : يقال أمواهم سويطة بينهم ؛ أى مختلطة . حكاه عنه يعقوب . وقال الزجاج : أى جعل سوطهم الذى ضربهم به العذاب . يقال : ساط دابته يسوطها ؛ أى ضربها

(١) اختلف فى « ثمود » فمنهم من صرفه و منهم من لم يصرفه ؛ فمن صرفه ذهب به إلى الحى لأنه اسم عربى مذكر سمى بذلك . و من لم يصرفه ذهب به إلى القبيلة و هى مؤنثة .

(٢) الرواية فى البيت كما فى ديوانه و شعراء النصرانية : * ورب عليه الله ... الخ * قال البطليوسى شارح الديوان : ربه أتمه . وأصله أن يقال : ربت معروفى عند فلان أربه رباً إذا أدمته عليه و تمته لديه . و « رب عليه » دعاء معطوف على ما قبله . و هو مدح فى النعمان . و على هذه الرواية لاشاهد فى البيت .

بسوطة . وعن عمرو بن عبّيد : كان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال : إن عند الله أسواطاً كثيرة ، فأخذهم بسوط منها . وقال قتادة : كل شيء عذب الله تعالى به فهو سوط عذاب .

قوله تعالى : **إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** ﴿١٤﴾

أى يرصد عمل كل إنسان حتى يجازيه به ، قاله الحسن وعكرمة . وقيل : أى على طريق العباد لا يفوته أحد . والمرصد والمرصاد : الطريق . وقد مضى في سورة « براءة » والحمد لله . فروى الضحاك عن ابن عباس قال : إن على جهنم سبع قناطر ، يُسأل الإنسان عند أول قنطرة عن الإيمان ، فإن جاء به تماماً جاز إلى القنطرة الثانية ، ثم يُسأل عن الصلاة فإن جاء بها جاز إلى الثالثة ، ثم يُسأل عن الزكاة فإن جاء بها جاز إلى الرابعة . ثم يُسأل عن صيام شهر رمضان فإن جاء به جاز إلى الخامسة . ثم يُسأل عن الحج والعمرة فإن جاء بهما جاز إلى السادسة . ثم يُسأل عن صلة الرحم فإن جاء بها جاز إلى السابعة . ثم يُسأل عن المظالم ، وينادى منادٍ ألا من كانت له مظلمة فليأت ؛ فيقتص للناس منه ويقتص له من الناس ؛ فذلك قوله عز وجل : « **إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** » . وقال الثوري : « **لِبِالْمِرْصَادِ** » يعنى جهنم ؛ عليها ثلاث قناطر : قنطرة فيها الرحم ، وقنطرة فيها الأمانة ، وقنطرة فيها الرب تبارك وتعالى .

قلت : أى حكمه وإرادته وأمره . والله أعلم . وعن ابن عباس أيضاً « **لِبِالْمِرْصَادِ** »

أى يسمع ويرى .

قلت : هذا قول حسن ؛ « يسمع » أقوالهم ونجواهم ، و « يرى » أى يعلم أعمالهم وأسرارهم فيجازى كلًّا بعمله . وعن بعض العرب أنه قيل له : أين ربك ؟ فقال : بالمرصاد . وعن عمرو بن عبّيد أنه قرأ هذه السورة عند المنصور حتى بلغ هذه الآية فقال : « **إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** » يا أبا جعفر ! قال الزنجشیری : عرّض له في هذا النداء بأنه بعض من تُوعَد بذلك من

(١) راجع ج ٨ ص ٧٣

الجبارة ؛ فله دزه . أى أسد فزاس كان بين يديه ^(١) ؟ يدق الظلمة بإنكاره ، ويقصع أهل ^(٢) الأهواء والبدع بأحتجاجه .

قوله تعالى : فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ) يعنى الكافر . قال ابن عباس : يريد عتبة بن ربيعة وأبا حذيفة بن المغيرة . وقيل : أمية بن خلف . وقيل : أبى بن خلف . (إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ) أى امتحنه وأختبره بالنعمة . و« ما » زائدة صلة . (فَأَكْرَمَهُ) بالمال . (وَنَعَّمَهُ) بما أوسع عليه . (فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ) فيفرح بذلك ولا يحمده . (وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ) أى امتحنه بالفقر واختبره . (فَقَدَرَ) أى ضيق (عَلَيْهِ رِزْقَهُ) على مقدار البلغة . (فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ) أى أولانى هواناً . وهذه صفة الكافر الذى لا يؤمن بالبعث ، وإنما الكرامة عنده والهوان بكثرة الحظ فى الدنيا وقتله . فأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته وتوفيقه المؤدى إلى حظ الآخرة ، وإن وسع عليه فى الدنيا حمده وشكره .

قلت : الآيتان صفة كل كافر . وكثير من المسلمين يظن أن ما أعطاه الله لكرامته وفضيلته عند الله ، وربما يقول بجهله : لو لم أستحق هذا لم يعطنيه الله . وكذا إن قتر عليه يظن أن ذلك لهوانه على الله . وقراءة العامة « فقدر » مخففة الدال . وقرأ ابن عامر مشدداً ، وهما لغتان . والاختيار التخفيف ؛ لقوله : « وَمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ^(٣) » . قال أبو عمرو : و« قدر » أى قتر . و« قدر » مشدداً هو أن يعطيه ما يكفيه ، ولو فعل به ذلك ما قال « ربى أهانن » . وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو « رَبِّي » بفتح الياء فى الموضعين . وأسكن الباقون . وأثبت البزى

(١) فى بعض الأصول والزنجشى : « نوبه » .

(٢) كذا فى الزنجشى . وفى الأصول : « يقطع » . وقصع الرجل فلانا حقره وصغره .

(٣) آية ٧ سورة الطلاق .

وَأَبْنُ مُخَيَّمِينَ وَيَعْقُوبُ الْيَاءُ مِنْ « أَكْرَمِينَ » ، و « أَهَانِينَ » فِي الْحَالِينِ ؛ لِأَنَّهَا أَسْمٌ فَلَا تَحْذَفُ .
وَأَثَبَتْهَا الْمَدِينِيُّونَ فِي الْوَصْلِ دُونَ الْوَقْفِ اتِّبَاعًا لِلْمَصْحَفِ . وَخَيْرٌ أَبُو عَمْرٍو فِي إِثْبَاتِهَا فِي الْوَصْلِ
أَوْ حَذْفِهَا ؛ لِأَنَّهَا رَأْسُ آيَةٍ ، وَحَذْفُهَا فِي الْوَقْفِ لِحُطِّ الْمَصْحَفِ . الْبَاقُونَ بِحَذْفِهَا لِأَنَّهَا وَقَعَتْ
فِي الْمَوْضِعِينَ بِغَيْرِ يَاءٍ ، وَالسُّنَّةُ أَلَّا يَخَالَفَ خَطَّ الْمَصْحَفِ ؛ لِأَنَّهُ إِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ .

قوله تعالى : **كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ
عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ
الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾**

قوله تعالى : **(كَلَّا)** رَدٌّ ؛ أَي لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَظُنُّ ، فَلَيْسَ الْغِنَى لِفَضْلِهِ وَلَا الْفَقْرُ
لِهَوَانِهِ ، وَإِنَّمَا الْفَقْرُ وَالْغِنَى مِنْ تَقْدِيرِي وَقَضَائِي . وَقَالَ الْفَرَاءُ : « كَلَّا » فِي هَذَا الْمَوْضِعِ بِمَعْنَى لَمْ
يَكُنْ يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَكُونَ هَكَذَا ، وَلَكِنْ يَمْحَدُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ عَلَى الْغِنَى وَالْفَقْرِ . وَفِي الْحَدِيثِ :
” يَقُولُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ كَلَّا إِنِّي لَا أَكْرِمُ مِنْ أَكْرَمْتُ بِكَثْرَةِ الدُّنْيَا وَلَا أَهِينُ مِنْ أَهَنْتُ بِقَلَّتِهَا
إِنَّمَا أَكْرِمُ مِنْ أَكْرَمْتُ بِطَاعَتِي وَأَهِينُ مِنْ أَهَنْتُ بِمَعْصِيَتِي “ .

قوله تعالى : **(بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ)** إِخْبَارٌ عَنِ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَهُ مِنْ مَنَعِ الْيَتِيمِ الْمِيرَاثَ ،
وَأَكْلِ مَالِهِ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا . وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو وَيَعْقُوبُ « يُكْرِمُونَ » وَ « يُحَاضُّونَ »
وَ « يَأْكُلُونَ » وَ « يُحِبُّونَ » بِالْيَاءِ ؛ لِأَنَّهُ تَقَدَّمَ ذِكْرُ الْإِنْسَانِ وَالْمِرَادُ بِهِ الْجِنْسُ ، فَعَبَّرَ عَنْهُ بِلَفْظِ
الْجَمْعِ . الْبَاقُونَ بِالتَّاءِ فِي الْأَرْبَعَةِ عَلَى الْخَطِّ وَالْمُوَاجَهَةِ ؛ كَأَنَّهُ قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيبًا وَتَوْبِيخًا .
وَتَرَكَ إِكْرَامَ الْيَتِيمِ يَدْفَعُهُ عَنْ حَقِّهِ وَأَكْلَ مَالِهِ كَمَا ذَكَرْنَا . قَالَ مِقَاتِلُ : نَزَلَتْ فِي قُدَامَةَ بْنِ
مَظْعُونٍ وَكَانَ يَتِيمًا فِي حِجْرِ أُمِّيَّةَ بْنِ خَلْفٍ . **(وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ)** أَي لَا يَأْمُرُونَ
أَهْلِيهِمْ بِإِطْعَامِ مَسْكِينٍ يَحِيثُهُمْ . وَقَرَأَ الْكُوفِيُّونَ « وَلَا تَحَاضُّونَ » بِفَتْحِ التَّاءِ وَالْحَاءِ وَالْأَلْفِ .
أَي يَحْضُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا . وَأَصْلُهُ تَحَاضُّونَ فَحَذَفَ إِحْدَى التَّاءَيْنِ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهَا . وَهُوَ
أَخْتِيَارُ أَبِي عَيْبِدٍ . وَرَوَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ وَالشَّيْزُرِيِّ عَنِ الْكَسَائِيِّ وَالسُّلَمِيِّ « تَحَاضُّونَ » بِضَمِّ

التاء، وهو تفاعلون من الحَض وهو الحَث . (وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ) أى ميراث اليتامى . وأصله الوراث من وَرِثت، فأبدلوا الواو تاء، كما قالوا فى نُجَاهٍ وَنُجْمَةٍ وَتُكَاةٍ وَتُؤَدَّةٍ ونحو ذلك . وقد تقدم . (أَكَلًا لَمًّا) أى شديداً؛ قاله السدى . وقيل : « لَمًّا » جمعاً؛ من قولهم : لَمَمْتُ الطعامَ لَمًّا إذا أكلته جمعاً؛ قاله الحسن وأبو عبيدة . وأصل اللَّمَم فى كلام العرب : الجمع؛ يقال : لَمَمْتُ الشَّيْءَ أَلْمُهُ لَمًّا إذا جمعته؛ ومنه يقال : لَمَّ اللهُ شَعْنَهُ أى جمع ما تفرق من أموره . قال النابغة :

ولست بمسبِقٍ أخا لا تَلْمُهُ * على شَعَثِ أى الرجال المهذبُ

ومنه قولهم : إن دارك لمومة ؛ أى تَلَمَّ الناس وتربهم وتجمعهم . وقال المرناق الطائى يمدح علقمة بن سيف :

لأحَبِّنى حُبَّ الصَّبِيِّ وَلَمَّنِي^(٢) * لَمَّ الهَدْيِ إلى الكَرِيمِ المَاجِدِ

وقال الليث : اللَّمَّ الجمع الشديد ؛ ومنه حَجَرَ مَلْمُومٌ ، وَكَتَبَةَ مَلْمُومَةٌ . فالأكل يَلْمُ الثريد فيجمعه لُقْمًا ثم يأكله . وقال مجاهد : يسفه سَفَا . وقال الحسن : بأكل نصيبه ونصيب غيره . قال الحطيئة :

إذا كانَ لَمًّا يتبع الذَّمَّ رَبَّهُ * فلا قَدَسَ الرحمنُ تلك الطَّواحِنَا

يعنى أنهم يجمعون فى أكلهم بين نصيبهم ونصيب غيرهم . وقال ابن زيد : هو أنه إذا أكل ماله أَلَمَ بغيره فأكله، ولا يفكر فيما أكل من خبيث وطيب . قال : وكان أهل الشرك لا يورثون النساء ولا الصبيان ، بل يأكلون ميراثهم مع ميراثهم وتراثهم مع تراثهم . وقيل : يأكلون ما جمعه الميت من الظلم وهو عالم بذلك ، فَيَلْمُ فى الأكل بين حرامه وحلاله . ويجوز

(١) كذا فى نسخ الأصل ومعجم الشعراء للرزبانى . قال المرزبانى : « وأحسبه لقباً » . وفى لسان العرب : « وقال

فدكى بن أعبد يمدح ... » . وفى كتاب أشعار الحماسة : « وقال رجل من بهراء وأسمه فدكى يمدح ... » .

(٢) فى اللسان والحماسة ومعجم الشعراء : « ورمى * رم » بالراء بدل « ولنى * لم » باللام وعلى هذا

لأشاهد فيه . وقوله « ورمى » : أى أصلح حالى وشأنى . و « الهدى » : العروس تهدى لى زوجها، فإذا زفت إليه تكلف أهلها فى حسن تجهيزها لتلا يميرها أهل زوجها خلا وقع فى أمرها .

أن يذم الوارث الذي ظفر بالمال سهلاً مهلاً من غير أن يعرق فيه جبينه ، فيُسْرِف في إنفاقه
ويأكله أكلاً واسعاً ، جامعاً بين المشتريات من الأطعمة والأشربة والفواكه كما يفعل
الوزرات البطالون . (وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا) أى كثيراً حلاله وحرامه . والجَمُّ الكثير ،
يقال : جَمَّ الشيء يَجُمُّ جُمُومًا فهو جَمٌّ وجام . ومنه جَمَّ الماءُ في الحوض إذا اجتمع وكثُر .
وقال الشاعر :^(١)

إِن تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرَ جَمًّا * وَأَيُّ عَبِيدِكَ لَا أَلَمَّا

والجَمَّةُ : المكان الذي يجتمع فيه مائه . والجُمُومُ : البئر الكثيرة الماء . والجُمُومُ (بالضم)
المصدر ، يقال : جَمَّ الماءُ يَجُمُّ جُمُومًا إذا كثُر في البئر واجتمع بعد ما أَسْتَقِيَ ما فيها .

قوله تعالى : كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾

قوله تعالى : (كَلَّا) أى ما هكذا ينبغي أن يكون الأمر . فهو ردٌّ لأنكباهم على
الدنيا وجمعهم لها ؛ فإن من فعل ذلك يندم يوم تُدَكُّ الأرض ولا ينفع الندم . وذلك :
الكسر والدق ؛ وقد تقدّم . أى زلزلت الأرض وحركت تحريكًا بعد تحريك . وقال الزجاج :
أى زلزلت فدك بعضها بعضًا . وقال المبرد : أى أَلِصقت وذَهَبَ ارتفاعها . يقال : نَاقَة
دَكَءٌ ، أى لا سنام لها ، والجمع دَكٌّ . وقد مضى في سورة « الأعراف » و « الحاقة » القول
في هذا . ويقولون : دُكَّتِ الشَّيْءُ أى هُدِمَ . قال :

* هل غير غارٍ دَكِّ غارا فأنهدم *

(دَكًّا دَكًّا) أى مرة بعد مرة ؛ زلزلت فكسرت بعضها بعضًا ؛ فتكسر كل شيء على ظهرها .
وقيل : دُكَّتِ جبالها وأنشازها حتى آستوت . وقيل : دُكَّتِ أى آستوت في الأنفراش ؛
فذهب دورها وقصورها وجبالها وسائر أبنيتها . ومنه سُمِّيَ الدكان لأستوائه في الأنفراش .
والدك : حط المرتفع من الأرض بالهسَط ؛ وهو معنى قول ابن مسعود وابن عباس : تمد
الأرض مذ الأديم .

(٢) راجع ج ٧ ص ٢٧٨ و ج ١١ ص ٦٣ و ج ١٨ ص ٢٦٤

(١) هو أبو خراش الهذلي .

(٢) الفار : الجمع الكثير من الناس .

قوله تعالى : وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : (وَجَاءَ رَبُّكَ) أى أمره وقضاؤه ؛ قاله الحسن . وهو من باب حذف المضاف . وقيل : أى جاءهم الرب بالآيات العظيمة ؛ وهو كقوله تعالى : « إِنْ يَأْتِيهِمْ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ » (١) أى بظلال . وقيل : جعل مجيء الآيات مجيئاً له تفخيماً لشارف تلك الآيات . ومنه قوله تعالى فى الحديث : ” يا بن آدم مَرَضْتُ فلم تُعْذِنِي وَأَسْتَسْقِيْتُك فلم تَسْقِنِي وَأَسْتَطْعَمْتُك فلم تُطْعِمْنِي “ . وقيل : « وَجَاءَ رَبُّكَ » أى زالت الشبهة ذلك اليوم وصارت المعارف ضرورية ، كما تزول الشبهة والشك عند مجيء الشيء الذى كان يُشكُّ فيه . قال أهل الإشارة : ظهرت قدرته وأستولت (٢) ، والله جل ثناؤه لا يوصف بالتحول من مكان إلى مكان ، وأنى له التحول والانتقال ، ولا مكان له ولا أوان ، ولا يجرى عليه وقت ولا زمان ؛ لأن فى جريان الوقت على الشيء قوت الأوقات ، ومن فاته شيء فهو عاجز .

قوله تعالى : (وَالْمَلَكُ) أى الملائكة . (صَفًّا صَفًّا) أى صفوفاً . (وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ) قال ابن مسعود ومقاتل : تقاد جهنم بسبعين ألف زمام ، كل زمام بيد سبعين ألف ملك ، لها تغيظ وزفير ، حتى تُنصب عن يسار العرش . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَحْتَزُونَهَا “ . وقال أبو سعيد الخدري : لما نزلت « وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ » تغير لون رسول الله صلى الله عليه وسلم وعُرف فى وجهه ، حتى أشتد على أصحابه ثم قال : ” أقرانى جبريل « كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا - الآية - وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ “ قال على رضى الله عنه : قلت يا رسول الله ، كيف يُجاء بها ؟ قال : ” يُؤْتَى بِهَا تُقَادُ بِسَبْعِينَ أَلْفَ زِمَامٍ يَقُودُ بِكُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ فَتَشْرُدُ شَرْدَةً لَوْ تَرَكْتَ لِأَحْرَقْتَ أَهْلَ الْجَمْعِ “

(٢) فى بعض الأصول : « واستوت » .

(١) آية ٢١٠ سورة البقرة .

ثم تعرض لى جهنم فتقول مالى ولك يا محمد إن الله قد حرّم لحك على " فلا يبقى أحد إلا قال نفسى نفسى ؛ إلا محمد صلى الله عليه وسلم فإنه يقول : ربّ ، أمتى ربّ أمتى .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ ﴾ أى يتعظ ويتوب . وهو الكافر ، أو من همته معظم الدنيا . (۱) ﴿ وَأَنْتَ لَهُ الذِّكْرَى ﴾ أى ومن أين له الاتعاظ والتوبة وقد فرط فيها فى الدنيا . ويقال : أى ومن أين له منفعة الذكرى . فلا بدّ من تقدير حذف المضاف ، وإلا فىين « يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ » وبين « وَأَنْتَ لَهُ الذِّكْرَى » تنافٍ ؛ قاله الزمخشرى .

قوله تعالى : يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾

أى فى حياتى . فاللام بمعنى فى . وقيل : أى قدمت عملاً صالحاً لحياتى ؛ أى لحياتى لا موت فيها . وقيل : حياة أهل النار ليست هنيئة فكأنهم لا حياة لهم ؛ فالمعنى ياليتنى قدّمت من الخير لنجاتى من النار فأكون فىمن له حياة هنيئة .

قوله تعالى : فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴾ أى لا يعذب كعذاب الله أحد ، ولا يوثق كوثاقه أحد . والكفاية ترجع إلى الله تعالى . وهو قول ابن عباس والحسن . وقرأ الكسائى « لَا يُعَذِّبُ » « وَلَا يُوثِقُ » بفتح الذال والياء ؛ أى لا يعذب أحد فى الدنيا كعذاب الله الكافر يومئذ ، ولا يوثق كما يوثق الكافر . والمراد إبليس ؛ لأن الدليل قام على أنه أشدّ الناس عذاباً لأجل إجرامه ؛ فأطلق الكلام لأجل ما صحبه من التفسير . وقيل : إنه أمية ابن خلف ؛ حكاه الفراء . يعنى أنه لا يعذب كعذاب هذا الكافر المعين أحد ، ولا يوثق بالسلاسل والأغلال كوثاقه أحد ؛ لتناهيه فى كفره وعناده . وقيل : أى لا يعذب مكانه

(۱) هكذا وردت فى جميع نسخ الأصل . وفى تفسير ابن عادل : « ومن همته الدنيا » .

أحد ، فلا يؤخذ منه فداء . والعذاب بمعنى التعذيب ، والوفاق بمعنى الإيثاق . ومنه قول الشاعر :

• وبعد عطائك المائة الرتاعا^(١) •

وقيل : لا يعذب أحد ليس بكافر عذاب الكافر . وأختار أبو عبيد وأبو حاتم فتح الذال والفاء . وتكون الهاء ضمير الكافر ؛ لأن ذلك معروف أنه لا يعذب أحد كعذاب الله . وقد روى أبو قلابة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ بفتح الذال والفاء . وروى أن أبا عمرو رجع إلى قراءة النبي صلى الله عليه وسلم . وقال أبو علي : يجوز أن يكون الضمير للكافر على قراءة الجماعة ؛ أي لا يعذب أحدٌ أحدًا مثل تعذيب هذا الكافر ؛ فتكون الهاء للكافر . والمراد بـ « أحد » الملائكة الذين يتولون تعذيب أهل النار .

قوله تعالى : يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً ﴿٢٨﴾ فَأَدْخِلِي فِي عَبْدِي ﴿٢٩﴾ وَأَدْخِلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ لما ذكر حال من كانت همته الدنيا فاتهم الله في إغوائه وإفقاره ، ذكر حال من أطمأنت نفسه إلى الله تعالى ، فسلم لأمره فأتكل عليه . وقيل : هو من قول الملائكة لأولياء الله عز وجل . والنفس المطمئنة : الساكنة الموقنة ؛ أيقنت أن الله ربها فأخبت لذلك ؛ قاله مجاهد وغيره . وقال ابن عباس : أي المطمئنة بشواب الله . وعنه المؤمنة . وقال الحسن : المؤمنة الموقنة . وعن مجاهد أيضا : الراضية بقضاء الله التي علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها ، وأن ما أصابها لم يكن ليخطئها . وقال مقاتل : الآمنة من عذاب الله . وفي حرف أبي بن كعب « يايتها النفس الآمنة المطمئنة » . وقيل : التي عملت على يقين بما وعد الله في كتابه . وقال ابن كيسان : المطمئنة هنا المخلصة .

(١) هذا عجز بيت للقطامي من قصيدة مدح بها زفر بن الحارث وصدده :

* أكفراً بعد رد الموت عنى *

والرتاع : الإبل الراتعة .

وقال ابن عطاء : العارفة التي لا تصبر عنه طرفة عين . وقيل : المطمئنة بذكر الله تعالى ؛ بيانه
« الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ^(١) » . وقيل : المطمئنة بالإيمان المصدقة بالبعث
والثواب . وقال ابن زيد : المطمئنة لأنها بشرت بالجنة عند الموت وعند البعث ويوم
الجمع . وروى عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : يعنى نفس حمزة . والصحيح أنها طامة
في كل نفس مؤمن مخلص طائع . قال الحسن البصري : إن الله تعالى إذا أراد أن يقبض
روح عبده المؤمن أطمأنت النفس إلى الله تعالى ، وأطمأن الله إليها . وقال عمرو بن العاص :
إذا توفى المؤمن أرسل الله إليه ملكين وأرسل معهما تحفة من الجنة ، فيقولان لها : « أخرجي
أيتها النفس المطمئنة راضية مرضية ومرضياً عنك أخرجي إلى روح وريحان ورب راض غير
غضبان » فتخرج كأطيب ريح المسك وجد أحد من أنفه على ظهر الأرض . وذكر الحديث .
وقال سعيد بن زيد : قرأ رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم « يايتها النفس المطمئنة »
فقال أبو بكر : ما أحسن هذا يارسول الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الملك
سيقولها لك يا أبا بكر » . وقال سعيد بن جبير : مات ابن عباس بالطائف ، فجاء طائر لم ير
على خلقته طائر قط ، فدخل نعشه ، ثم لم ير خارجاً منه ، فلما دفن تليت هذه الآية على شفير
القبر — لا يدري من تلاها — : (يايتها النفس المطمئنة . أرجعي إلى ربك راضية مرضية) .
وروى الضحاك أنها نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه حين وقف بئر رومة . وقيل : نزلت
في خبيب بن عدي الذي صلبه أهل مكة ، وجعلوا وجهه إلى المدينة فحول الله وجهه نحو
القبلة . والله أعلم .

ومعنى (إلى ربك) أي إلى صاحبك وجسدك ؛ قاله ابن عباس وعكرمة وعطاء . وأختره
الطبري ؛ ودليله قراءة ابن عباس « فادخلي في عبدي » على التوحيد ؛ فيأمر الله تعالى
الأرواح غدا أن ترجع إلى الأجساد . وقرأ ابن مسعود « في جسد عبدي » . وقال الحسن :
أرجعي إلى ثواب ربك وكرامته . وقال أبو صالح : المعنى ارجعي إلى الله . وهذا عند الموت .

(٢) هي بئر المدينة .

(١) آية ٢٨ سورة الرعد .

(فَادْخُلِي فِي عِبَادِي) أى فى أجساد عبادى ؛ دليله قراءة ابن عباس وابن مسعود . قال ابن عباس : هذا يوم القيامة ؛ وقاله الضمك . والجمهور على أن الجنة هى دار الخلود التى هى مسكن الأبرار ، ودار الصالحين والأخيار . ومعنى « فى عِبَادِي » أى فى الصالحين من عبادى ؛ كما قال : « لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ » . وقال الأخفش ^(١) : « فى عِبَادِي » أى فى حزبي ؛ والمعنى واحد . أى أنتظمى فى سلكهم . (وَأَدْخُلِي جَنَّتِي) معهم .

سورة «البلد»

مكية باتفاق . وهى عشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾

يجوز أن تكون « لا » زائدة ؛ كما تقدم فى « لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ » ؛ قاله الأخفش . أى أقسم ؛ لأنه قال : « بِهَذَا الْبَلَدِ » وقد أقسم به فى قوله : « وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ » فكيف يجحد القسم به وقد أقسم به . قال الشاعر :

تَذَكَّرْتُ لَيْلَى فَاغْتَرَّتْنِي صَبَابَةٌ * وَكَادَ صَمِيمُ الْقَلْبِ لَا يَتَقَطَّعُ

أى يتقطع ودخل حرف « لا » صلة ؛ ومنه قوله تعالى : « مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ » ^(٢) بدليل قوله تعالى فى (ص) : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ » . وقرأ الحسن والأعمش وابن كثير « لَا أُقْسِمُ » من غير ألف بعد اللام إثباتا . وأجاز الأخفش أيضا أن تكون بمعنى ألا . وقيل : ليست بنفى القسم ، وإنما هو كقول العرب : لا والله لافعلت كذا ، ولا والله ما كان

(١) آية ٩ سورة العنكبوت . (٢) راجع ج ١٩ ص ٩٠

(٣) آية ١٢ سورة الأعراف راجع ج ٧ ص ١٧٠ (٤) آية ٧٥ .

كذبا، ولا والله لأفعلن كذا . وقيل : هي نفي صحيح ؛ والمعنى : لا أقسم بهذا البلد إذا لم تكن فيه بعد خروجك منه . حكاه مكي . ورواه ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : « لا » رد عليهم . وهذا اختيار ابن العربي ؛ لأنه قال : « وأما من قال إنها رد فهو قول ليس له رد ؛ لأنه يصح به المعنى ويتمكن اللفظ والمراد » . فهو رد لكلام من أنكر البعث ثم ابتدأ القسم . وقال القشيري : قوله « لا » رد لما توهم الإنسان المذكور في هذه السورة المغرور بالدنيا . أى ليس الأمر كما يحسبه من أنه لن يقدر عليه أحد ، ثم ابتدأ القسم . و « البلد » هى مكة أجمعوا عليه . أى أقسم بالبلد الحرام الذى أنت فيه لكرامتك على وحى لك . وقال الواسطي : أى نحلف لك بهذا البلد الذى شرفته بمكانك فيه حيا ، وبركتك ميتا ؛ يعنى المدينة . والأقول أصح ؛ لأن السورة نزلت بمكة باتفاق .

قوله تعالى : وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾

يعنى فى المستقبل ؛ مثل قوله تعالى : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » (١) . ومثله واسع (٢) فى كلام العرب . تقول لمن تعده الإكرام والحباء : أنت مُكْرَمٌ مَحْبُوبٌ . وهو فى كلام الله واسع ، لأن الأحوال المستقبلية عنده كالحاضرة المشاهدة ؛ وكفالك دليلا قاطعا على أنه للاستقبال ، وأن تفسيره بالحال محال : أن السورة باتفاق مكية قبل الفتح . فروى منصور عن مجاهد « وَأَنْتَ حِلٌّ » قال : ما صنعت فيه من شىء فأنت فى حِلٍّ . وكذا قال ابن عباس : أحل له يوم دخل مكة أن يقتل من شاء فقتل ابن خطل ومقيس بن صبابه وغيرهما . ولم يحل لأحد من الناس أن يقتل بها أحدا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى السدي قال : أنت فى حِلٍّ من قاتلك أن تقتله . وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : أحلت له ساعة من نهار ثم أطبقت وحُرِّمَتْ إلى يوم القيامة ؛ وذلك يوم فتح مكة . وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِنْ أَلَّفَ اللَّهُ حَرَمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فَهِيَ حَرَامٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ فَلَمْ

(١) آية ٣٠ سورة الزمر . (٢) فى بعض نسخ الأصل : « شائع » .

(٣) هو عبد الله ، كان متعلقا بأستار الكعبة ؛ فقتله أبو برزة الأسلمي بأمر الرسول صلوات الله عليه .

تَحِلُّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي وَلَمْ تَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ“ الحديث . وقد تقدّم في سورة «المائدة» . ابن زيد : لم يكن بها أحد حلالاً غير النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : وأنت مقيم فيه وهو محلك . وقيل : وأنت فيه محسن وأنا عنك فيه راضٍ . وذكر أهل اللغة أنه يقال : رجل حلّ وحلال ومحلّ ، ورجل حرام ومحرّم وحرم . وقال قتادة : أنت حلّ به لست بآثم . وقيل : هو ثناء على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أي إنك غير مرتكب في هذا البلد ما يحرم عليك ارتكابه ، معرفةً منك بحق هذا البيت ؛ لا كالمشركين الذين يرتكبون الكفر بالله فيه . أي أقسم بهذا البيت المعظم الذي قد عرفت حرمة ، فأنت مقيم فيه معظّم له غير مرتكب فيه ما يحرم عليك . وقال شرحبيل بن سعد : « وأنت حلّ بهذا البلد » أي خلال ؛ أي هم يُحترمون مكة أن يقتلوا بها صيداً أو يعضدوا بها شجرة ، ثم هم مع هذا يستحلّون إخراجك وقتلك .

قوله تعالى : **وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ** ﴿٤٣﴾

قال مجاهد وقتادة والضحاك والحسن وأبو صالح : « ووالدٍ » آدم عليه السلام . « وما ولدٌ » أي وما نسل من ولده . أقسم بهم لأنهم أعجب ما خلق الله تعالى على وجه الأرض ؛ لما فيهم من التبيان والنطق والتدبير ، وفيهم الأنبياء والدعاة إلى الله تعالى . وقيل : هو إقسام بآدم والصالحين من ذريته ، وأما غير الصالحين فكأنهم بهائم . وقيل : الوالد إبراهيم . وما ولد : ذريته ؛ قاله أبو عمران الجوني . ثم يحتمل أنه يريد جميع ذريته . ويحتمل أنه يريد المسلمين من ذريته . قال الفراء : وصلحت « ما » للناس ؛ كقوله : « مَا طَابَ لَكُمْ » ، وكقوله : « وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى » وهو الخالق للذكر والأنثى . وقيل : « ما » مع ما بعدها في موضع المصدر ؛ أي ووالد وولادته ؛ كقوله تعالى : « وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا » . وقال عكرمة وسعيد بن جبير : « ووالدٍ » يعني الذي يولد له . « وما ولد »

(١) عضد الشجرة وغيرها : قطعها بالمعضد . والمعضد : سيف يتمن في قطع الشجرة .

(٢) في بعض نسخ الأصل : « وأما الطالحون » .

يعنى العاقر الذى لا يولد له ؛ وقاله ابن عباس . و « ما » على هذا نفي . وهو بعيد ولا يصح
إلا بإضمار الموصول ؛ أى ووالد الذى ما ولد ، وذلك لا يجوز عند البصريين . وقيل :
هو عموم فى كل والد وكل مولود ؛ قاله عطية العوفي . وروى معناه عن ابن عباس أيضا .
وهو اختيار الطبرى . قال الماوردى : ويحتمل أن الوالد النبىُّ صلى الله عليه وسلم لتقدم
ذكره ، وما ولد أمته لقوله عليه السلام : « إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم » . فأقسم به وبأتمته
بعد أن أقسم ببلده ؛ مبالغة فى تشریفه عليه السلام .

قوله تعالى : لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤١﴾

إلى هنا أنتهى القسم ؛ وهذا جوابه . والله أن يُقسم بما يشاء من مخلوقاته لتعظيمها كما
تقدم . والإنسان هنا ابن آدم . (فى كَبَدٍ) أى فى شدة وعناء من مكابدة الدنيا . وأصل
الكَبَد الشدة . ومنه تَكَبَّد اللبنُ : غَلُظَ وَخَثُرَ وَأَشْتَدَّ . ومنه الكَبْدُ ؛ لأنه دَمٌ تَغَلَّظَ وَأَشْتَدَّ .
ويقال : كابدت هذا الأمر : قاسيت شدته . قال لبيد :

يَا عَيْنُ هَلَّا بَكَيْتِ أُرْبَدَ إِذْ * قُمْنَا وَقَامَ الْخِصْمُ فِي كَبَدٍ

قال ابن عباس والحسن : « فى كَبَدٍ » أى فى شدة ونصب . وعن ابن عباس أيضا :
فى شدة من حمله وولادته ورضاعه ونبت أسنانه ، وغير ذلك من أحواله . وروى عكرمة عنه
قال : منتصبا فى بطن أمه . والكَبَدُ الأستواء والأستقامة . فهذا أمتنان عليه فى الحلقة .
ولم يخلق الله جل ثناؤه دابة فى بطن أمها إلا مُنْكَبَّةً على وجهها إلا ابن آدم ؛ فإنه منتصب
أنتصبا ؛ وهو قول النخعي ومجاهد وغيرهما . ابن كيسان : منتصبا رأسه فى بطن أمه ؛
فإذا أذن الله أن يخرج من بطن أمه قلب رأسه إلى رجلي أمه . وقال الحسن : يكابد مصائب
الدنيا وشدائد الآخرة . وعنه أيضا : يكابد الشكر على السراء و يكابد الصبر على الضراء ؛
لأنه لا يخلو من أحدهما . ورواه ابن عمر . وقال يمان : لم يخلق الله خلقا يكابد ما يكابد
ابن آدم ؛ وهو مع ذلك أضعف الخلق . قال صفاؤنا : أول ما يكابد قطع سرته ، ثم إذا

قُطِ قِطَاً وَشُدَّ رِبَاطًا يَكَابِدُ الضيق والتعب ، ثم يكابد الارتضاع ولو فاته لضاع ، ثم يكابد نبت أسنانه وتمحزك لسانه ، ثم يكابد الفطام الذي هو أشد من اللطام ، ثم يكابد الحتان والأوجاع والأحزان ، ثم يكابد المعلم وصولته ، والمؤدب وسياسته ، والأستاذ وهيبته ، ثم يكابد شغل الترويح والتعجيل فيه ^(١) ، ثم يكابد شغل الأولاد والخدم والأجناد ، ثم يكابد شغل الدور وبناء القصور ، ثم الكبر والمهرم وضعف الركبة والقدم ، في مصائب يكثر تعدادها ، ونواب يطول إيرادها ، من صداع الرأس ، ووجع الأضراس ، ورمد العين ، وغم الدين ، ووجع السن ، وألم الأذن . ويكابد محناً في المال والنفس ؛ مثل الضرب والحبس ، ولا يمضى عليه يوم إلا يقاسى فيه شدة ، ولا يكابد إلا مشقة ، ثم الموت بعد ذلك كله ، ثم مساءلة الملك ، وضغطة القبر وظلمته ، ثم البعث والعرض على الله إلى أن يستقر به القرار ، إما في الجنة وإما في النار؛ قال الله تعالى : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ » فلو كان الأمر إليه لما آختر هذه الشدائد . ودل هذا على أن له غالقا دبره ، وقضى عليه بهذه الأحوال ؛ فليمثل أمره . وقال ابن زيد : الإنسان هنا آدم . وقوله : « في كَبَدٍ » أي في وسط السماء . وقال الكلبي : إن هذا نزل في رجل من بني جُمح ؛ كان يقال له أبو الأشدين ، وكان يأخذ الأديم العكاظي فيجعله تحت قدميه ، فيقول : من أزالني عنه فله كذا . فيجذبه عشرة حتى يتمزق ولا تزول قدماه ؛ وكان من أعداء النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه نزل « أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ » يعني لقوته . وروى عن ابن عباس . ومعنى « في كَبَدٍ » أي شديدا ، يعني شديد الخلق ؛ وكان من أشد رجال قريش . وكذلك رُكَّانَةُ بن هاشم بن عبد المطلب ، وكان مثلاً في البأس والشدّة . وقيل : « في كَبَدٍ » أي جرى القلب ، غليظ الكبد مع ضعف خلقته ومهانة مادته . ابن عطاء : في ظلمة وجهل . الترمذي : مضيقاً ما يعنيه ، مشتغلاً بما لا يعنيه .

(١) في نسخة من نسخ الأصل وحاشية الجمل : « ثم يكابد شغل الترويح والتعجيل فيه والترويح » .

(٢) كذا في نسخ الأصل . وفي الكشاف وروح المعاني والبيضاوي والنعلبي : « أبو الأشد » .

قوله تعالى : **أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ** ﴿٥﴾ **يَقُولُ أَهْلَكْتُ**
مَالًا لُبَدًا ﴿٦﴾ **أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ** ﴿٧﴾ **أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ** ﴿٨﴾
وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾

قوله تعالى : **(أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ)** أى أبيضن ابن آدم أن لن يعاقبه الله عز وجل . **(يَقُولُ أَهْلَكْتُ)** أى أنفقت . **(مَالًا لُبَدًا)** أى كثيرا مجتمعا . **(أَيَحْسَبُ)** أى أبيضن . **(أَنْ لَمْ يَرَهُ)** أى أن لم يعاينه **(أَحَدٌ)** بل علم الله عز وجل ذلك منه ، فكان كاذبا في قوله : أهلكت ؛ ولم يكن أنفقه . وروى أبو هريرة قال : يوقف العبد فيقال ماذا عملت في المال الذى رزقتك ؟ فيقول : أنفقته وزكيتته . فيقال : كأنك إنما فعلت ذلك ليقال سخى فقد قيل ذلك . ثم يؤمر به إلى النار . وعن سعيد عن قتادة : إنك مسئول عن مالك من أين جمعت ، وكيف أنفقت . وعن ابن عباس قال : كان أبو الأشدين يقول أنفقت فى صداوة عهد مالا كثيرا ، وهو فى ذلك كاذب . وقال مقاتل : نزلت فى الحارث بن عامر بن نوفل ، أذنب فأستفتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمره أن يكفر . فقال : لقد ذهب مالى فى الكفارات والنفقات منذ دخلت فى دين عهد . وهذا القول منه يحتمل أن يكون استطالة بما أنفق فىكون طغيانا منه ، أو أسفا عليه فىكون ندمًا منه . وقرأ أبو جعفر «مَالًا لُبَدًا» بتشديد الباء مفتوحة على جمع لا بد ؛ مثل راع ورع ، وساجد وسجد ، وشاهد وشهد ، ونحوه . وقرأ مجاهد وحמיד بضم الباء واللام مخففا جمع لبود . الباقون بضم اللام وكسرها وفتح الباء مخففا جمع لبدة ولبدة ، وهو ما تلبد ؛ يريد الكثرة . وقد مضى فى سورة «الجن» القول فيه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ «أَيَحْسَبُ» بضم السين فى الموضعين . وقال الحسن : يقول أتلفت مالا كثيرا فن يحاسبني به ؛ دعنى أحسبه . ألم يعلم أن الله قادر على محاسبته ، وأن الله عز وجل يرى صنيعه ثم عدد عليه نعمه فقال : **(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)** يبصر بهما **(وَلِسَانًا)** ينطق به . **(وَشَفَتَيْنِ)** يستر بهما

(١) راجع ج ١٩ ص ٢٢ فا بعدها .

ثغره. والمعنى: نحن فعلنا ذلك، ونحن نقدر على أن نبعثه ونُحْيِي عليه ما عمله. وقال أبو حازم قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى قال يا بن آدم إن نازعك لسانك فيما حرمت عليك فقد أعتك عليه بطبقين فأطبق وإن نازعك بصرك فيما حرمت عليك فقد أعتك عليه بطبقين فأطبق. وإن نازعك فرجك إلى ما حرمت عليك فقد أعتك عليه بطبقين فأطبق".
والشِّفَّة أصلها شَفَهَةٌ، حُذِفَتْ منها الهاء، وتصغيرها شَفِيهَةٌ، والجمع شَفَاهٌ. ويقال: شَفَهَاتٌ وشَفَوَاتٌ، والهاء أقيس، والواو أعم تشبيهاً بالسنوات. وقال الأزهري: يقال هذه شَفَةٌ في الوصل وشَفَهٌ، بالياء والهاء. وقال قتادة: نِعِمَ اللهُ ظاهراً يُقَرِّرُكُ بها حتى تشكر.

قوله تعالى: وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾

يعنى الطريقين: طريق الخير وطريق الشر. أى بيناهما له بما أرسلناه من الرسل. والنَّجْدُ: الطريق في ارتفاع. وهذا قول ابن عباس وابن مسعود وغيرهما. وروى قتادة قال: ذُكِرَ لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: "يا أيها الناس إنما هما النجدان نَجْدُ الخير ونجد الشر فلم يجعل نَجْدَ الشر أحب إليك من نجد الخير". وروى عن عكرمة قال: النجدان التديان. وهو قول سعيد بن المسيب والضحاك، وروى عن ابن عباس وعلي رضي الله عنهما؛ لأنهما كالطريقين حياة الولد ورزقه. فالنجد العُلُوُّ وجمعه نُجُودٌ؛ ومنه سُمِّيَتْ «نجد» لارتفاعها عن انخفاض تهامة. فالنجدان العاليان. قال امرؤ القيس:
فريقان منهم جازع بطن نخلة * وأحر منهم قاطع نجد ككبك

قوله تعالى: فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾

أى فهلاً أنفق ماله الذي يزعم أنه أنفقه في عداوة محمد، هلاً أنفقه لاقتحام العقبة فإمن. والاقْتِحَامُ: التزمى بالنفس في شيء من غير روية؛ يقال منه: حَمَّ في الأمر حُوماً؛ أى رمى

(١) كذا في الأصل وديوان امرئ القيس: وفي اللسان (مادة نجد):

* غداة غدوا فسالك بطن نخلة *

والجازع: القاطع. وبطن نخلة: موضع بين مكة والطائف. وككبك: الجبل الأحمر الذي يجعله بظهورك إذا وقعت بهرة.

بنفسه فيه من غير روية . وقَمَّ الفرسُ فارسَه تَقَحُّباً على وجهه إذا رماه . وتقحيم النفس في الشيء إدخالها فيه من غير روية . والقُحمة (بالضم) المهلكة والسنة الشديدة . يقال : أصابت الأعراب القُحمة ؛ إذا أصابهم قحط فدخلوا الرِّيف . والقحَم : صِحاب الطريق . وقال الفراء والزجاج : وذكر « لا » مرة واحدة ، والعرب لا تكاد تُفرد « لا » مع الفعل الماضي في مثل هذا الموضع حتى يعيدوها في كلام آخر ؛ كقوله تعالى : « فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى^(١) » « وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » . وإنما أفردوها لدلالة آخر الكلام على معناه ؛ فيجوز أن يكون قوله : « ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا » قائماً مقام التكرير ؛ كأنه قال : فلا أفتحم العقبة ولا آمن . وقيل : هو جار مجرى الدعاء ؛ كقوله : لا نجأ ولا سلِّم . (وما أدراك ما العقبة) قال سفيان بن عيينة : كل شيء قال فيه « وما أدراك » فإنه أخبر به ، وكل شيء قال فيه « وما يدريك » فإنه لم يخبر به . وقال : معنى « فَلَا أفتحم العقبة » أى فلم يفتحم العقبة ؛ كقول زهير :

وكان طوى كسحاً على مُستَكِنَةٍ • فلا هو أبداها ولم يتقدم^(٢)

أى فلم يُبدها ولم يتقدم . وكذا قال المبرد وأبو علي . « لا » بمعنى لم . وذكره البخارى عن مجاهد . أى فلم يفتحم العقبة في الدنيا فلا يحتاج إلى التكرير . ثم فسّر العقبة وركوبها فقال : « فَكُ رَفَبَةٍ » وكذا وكذا ؛ فبين وجوهاً من القرب المالية . وقال ابن زيد وجماعة من المفسرين : معنى الكلام الاستفهام الذى معناه الإنكار ؛ تقديره : أفلا أفتحم العقبة ، أو هلا أفتحم العقبة . يقول : هلا أنفق ماله في فك الرقاب وإطعام السغبان ليجاوز به العقبة ؛ فيكون خيراً له من إنفائه في عداوة محمد صلى الله عليه وسلم . ثم قيل : اقتحام العقبة هاهنا ضربٌ مثل ، أى هلا تحمّل عظام الأمور في إنفاق ماله في طاعة ربه والإيمان به . وهذا إنما يليق بقول من حمل « فَلَا أفتحم العقبة » على الدعاء ؛ أى فلا نجأ ولا سلِّم من لم يُنفق ماله في كذا وكذا . وقيل : شبه عظم الذنوب وثقلها وشدتها بعقبة ، فإذا أعتق رفةً وعمل صالحاً كان مثله كمثل من أفتحم العقبة ، وهى الذنوب التى تضره وتؤذيه وتثقله . قال

(١) آية ٣١ سورة القيامة . (٢) الكشح : الخاصرة . ومستكنة : على أمر أكنه في نفسه .

ابن عمر : هذه العقبة جبل في جهنم . وعن أبي رجاء قال : بلغنا أن العقبة مصعدا سبعة آلاف سنة ومهبطها سبعة آلاف سنة . وقال الحسن وقتادة : هي عقبة شديدة في النار دون الجسر ، فأفتحوها بطاعة الله . وقال مجاهد والضحاك والكأبي : هي الصراط يضرب على جهنم كحد السيف ، مسيرة ثلاثة آلاف سنة ، سهلاً وصعوداً وهبوطاً . واقتحامه على المؤمن كما بين صلاة العصر إلى العشاء . وقيل : اقتحامه عليه قدر ما يصلي صلاة المكتوبة . ورؤى عن أبي الدرداء أنه قال : إن وراءنا عقبة ، أنجى الناس منها أخفهم حملاً . وقيل : النار نفسها هي العقبة . فروى أبو رجاء عن الحسن قال : بلغنا أنه ما من مسلم يعتق رقبة إلا كانت فداءه من النار . وعن عبد الله بن عمر قال : من أعتق رقبة أعتق الله عز وجل بكل عضو منها عضواً منه . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضواً من أعضائه من النار حتى فرجه بفرجه “ . وفي الترمذي عن أبي أمامة وغيره من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” أيما امرئ مسلم أعتق امرأة مسلماً كان فكاً كه من النار يجزى كل عضو منه عضواً منه وأيما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مسلمة كانت فكاً كه من النار يجزى كل عضو منها عضواً منها “ . قال : هذا حديث حسن صحيح غريب . وقيل : العقبة خلاصه من هول العرض . وقال قتادة وكعب : هي نار دون الجسر . وقال الحسن : هي والله عقبة شديدة ؛ مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه الشيطان . وأنشد بعضهم :

إني بُليت بأربع يرمينني * بالنبل قد نصبوا علي شراكا
إبليس والدنيا ونفسي والهوى * من أين أرجو ينهن فكاً كا
يا رب ساعدني بعفوٍ إنني * أصبحت لا أرجو لمن سوا كا

قوله تعالى : وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾

فيه حذف ؛ أي وما أدراك ما اقتحام العقبة . وهذا تعظيم لالتزام أمر الدين ؛ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ليعلمه اقتحام العقبة . قال القشيري : وحمل العقبة على

عقبة جهنم بعيد؛ إذ أحد في الدنيا لم يفتح عقبة جهنم؛ إلا أن يُحمل على أن المراد فهلاً صير نفسه بحيث يمكنه آفتحام عقبة جهنم غداً. واختار البخاري قول مجاهد: إنه لم يفتح العقبة في الدنيا. قال ابن العربي: «ولمّا اختار ذلك لأجل أنه قال بعد ذلك في الآية الثانية: «وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقْبَةُ»، ثم قال في الآية الثالثة: «فَكُّ رَقَبَةٍ»، وفي الآية الرابعة «أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ»، ثم قال في الآية الخامسة: «يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ»، ثم قال في الآية السادسة: «أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ»؛ فهذه الأعمال إنمّا تكون في الدنيا. المعنى: فلم يأت في الدنيا بما يُسهّل عليه سلوك العقبة في الآخرة».

قوله تعالى: فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى - قوله تعالى: (فَكُّ رَقَبَةٍ) فَكُّهَا خَلَاصُهَا مِنَ الْأَسْرِ. وقيل: من الرّق (١) وفي الحديث: «وَفَكُّ الرَّقَبَةِ أَنْ تُعِينَ فِي ثَمَنِهَا» من حديث البراء. وقد تقدم في سورة «براءة». والفك: هو حلّ القيّد؛ والرّق قيدٌ. وسمى المرفوق رقبة؛ لأنه بالرق كالأسير المربوط في رقبته. وسمى عتقها فكاً فكفّ الأسير من الأسر. قال حسان:

كم من أسير فككناه بلا ثمن * وجزّ ناصية ذّا موالها

وروى عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ الْجُهَنِيُّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً كَانَتْ فِدَاءَهُ مِنَ النَّارِ». قال الماوردي: ويحتمل ثانياً أنه أراد فك رقبة وخلص نفسه بآجتنب المعاصي وفعل الطاعات؛ ولا يمتنع الخبر من هذا التأويل، وهو أشبه بالصواب. الثانية - قوله تعالى: (رَقَبَةٍ) قال أصبغ: الرقبة الكافرة ذات الثمن أفضل في العتق من الرقبة المؤمنة القليلة الثمن؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم وقد سئل أي الرقاب أفضل؟ قال: «أغلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها». ابن العربي: «والمراد في هذا الحديث من

(١) راجع ج ٨ ص ١٨٣.

المسلمين ؛ بدليل قوله عليه السلام : " من أعتق أمراً مسلماً " و " من أعتق رقبة مؤمنة " .
وما ذكره أصبغ وهلة^(١) ، وإنما نظر إلى تنقيص المال ، والنظر إلى تجريد المعتق للعبادة
وتفريغه للتوحيد أولى .

الثالثة - العتق والصدقة من أفضل الأعمال . وعن أبي حنيفة : أن العتق أفضل
من الصدقة . وعند صاحبيه الصدقة أفضل . والآية أدل على قول أبي حنيفة ؛ لتقديم العتق
على الصدقة . وعن الشعبي في رجل عنده فضل نفقة : أضعه في ذى قرابة أو يعتق رقبة ؟
قال : الرقبة أفضل ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " مَنْ فَكَّ رَقَبَةً فَكَ اللَّهُ بِكُلِّ عَضْوٍ
مِنْهَا عَضْوًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ " .

قوله تعالى : أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٥﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾
أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ أى مجاعة . والسَّغْبُ الجوع .
والساغب : الجائع . - وقرأ الحسن « أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذَا مَسْغَبَةٍ » بالألف في « ذا » -
وأنشد أبو عبيدة :

فلو كنت جاراً يا بن قيس بن عاصم * لما بت شبعاناً وجارك ساغبا

وإطعام الطعام فضيلة ، وهو مع السَّغْب الذى هو الجوع أفضل . وقال النخعي في قوله
تعالى : « أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ » قال : فى يوم عزيز فيه الطعام . وروى عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من موجبات الرحمة إطعام المسلم السغبان " . ﴿ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾
أى قرابة . يقال : فلان ذو قرابتى وذو مقربتى . يعلمك أن الصدقة على القرابة أفضل منها
على غير القرابة ، كما أن الصدقة على اليتيم الذى لا كافل له أفضل من الصدقة على اليتيم الذى
يجد من يكفله . وأهل اللغة يقولون : سُمِّيَ يَتِيمًا لِضَعْفِهِ . يقال : يَتَمَّ الرَّجُلُ يَتَمًّا إِذَا ضَعُفَ .

(١) كذا فى الأصول وابن العربى ، ولعلها المرة من الوهل وهو الغلط . وهل الى الشئ . (بالفتح) يهل (بالكسر)
وهلا (بالسكون) : إذا ذهب وهمه اليه . ويجوز أن يكون بمعنى سها وغلط . (٢) كذا فى الأصول .
يريد : فلو كنت جاراً قائماً بحق الجوار لما حدث هذا .

وذكروا أن اليتيم في الناس من قبل الأب ، وفي البهائم من قبل الأمهات . وقد مضى في سورة «البقرة» مستوفى ، وقال بعض أهل اللغة : اليتيم الذي يموت أبواه . وقال قيس ابن الملوح :

إلى الله أشكو فقد ليلى كما شكا * إلى الله فقد الوالدين يتيم

قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ أى لا شيء له ، حتى كأنه قد لصق بالتراب من الفقر ، ليس له ماوى إلا التراب . قال ابن عباس : هو المطروح على الطريق الذى لا بيت له . مجاهد : هو الذى لا يقيه من التراب لباس ولا غيره . وقال قتادة : إنه ذو العيال . عكرمة : المديون . أبو سنان : ذو الزمانة . ابن جبير : الذى ليس له أحد . وروى عكرمة عن ابن عباس : ذو المتربة البعيد التربة ؛ يعنى الغريب البعيد عن وطنه . وقال أبو حامد الحارزنجي : المتربة هنا من التريب ؛ وهى شدة الحال . يقال تريب إذا افتقر . قال الهذلي :

وتما إذا ما الضيف حل بأرضنا * سفكا دماء البذن في تربة الحال

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي « فكَ » بفتح الكاف على الفعل الماضى « رقية » نصباً لكونها مفعولاً « أو أطمع » بفتح الهمزة ونصب الميم من غير ألف على الفعل الماضى أيضاً ، لقوله : « ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا » فهذا أشكل بـ « فكَ وَأَطَعَمَ » . وقرأ الباقون « فكَ » رفعاً على أنه مصدر فككت . « رقية » خفض بالإضافة . « أو إطعم » بكسر الهمزة وألف ورفع الميم وتنوينها على المصدر أيضاً . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأنه تفسير لقوله تعالى : « وما أدراك ما العقبة » ثم أخبره فقال : « فكَ رقية . أو إطعم » . المعنى : آقتحام العقبة فك رقية أو إطعم . ومن قرأ بالنصب فهو محمول على المعنى ؛ أى ولا فكَ رقية ولا أطمع فى يوم ذا مسغبة ؛ فكيف يجاوز العقبة . وقرأ الحسن وأبو رجاء : « ذا مسغبة » بالنصب على أنه مفعول « إطعم » أى يطعمون ذا مسغبة و « يتما » بدل منه . الباقون « ذى مسغبة » فهو صفة لـ « يوم » . ويجوز أن يكون قراءة النصب صفة لموضع الجار والمجرور ؛ لأن قوله : « فى يوم » ظرف منصوب الموضع ، فيكون وصفاله على المعنى دون اللفظ .

(١) راجع ج ٢ ص ١٤ طبعة ثانية .

قوله تعالى : **ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ ۗ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۗ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعَايَتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۗ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ۗ (٢٠)**

قوله تعالى : **(ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا)** يعنى أنه لا يقتحم العقبة من فك رقبة أو أطمع في يوم ذامسغبة حتى يكون من الذين آمنوا، أى صدقوا، فإن شرط قبول انطاعات الإيمان بالله . فالإيمان بالله بعد الإنفاق لا ينفع، بل يجب أن تكون الطاعة مصحوبة بالإيمان، قال الله تعالى في المنافقين : **«وَمَا مَنَعُهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ»** . وقالت عائشة : يا رسول الله ، إن ابن جُدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويُطعم الطعام ، وَيُفك العاني ويعتق الرقاب ، ويحمل على إبله لله ، فهل ينفعه ذلك شيئاً ؟ قال : **«لا ، إنه لم يقل يوماً رب آغفر لي خطيئتي يوم الدين»** . وقيل : **«ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا»** أى فعل هذه الأشياء وهو مؤمن ، ثم بقى على إيمانه حتى الوفاة ؛ نظيره قوله تعالى : **«وَأِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى»** . وقيل : المعنى ثم كان من الذين يؤمنون بأن هذا نافع لهم عند الله تعالى . وقيل : أتى بهذه القرب لوجه الله ، ثم آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم . وقد قال حكيم بن حزام بعد ما أسلم : يا رسول الله ، إنا كنا نتحنث بأعمال في الجاهلية ، فهل لنا منها شيء ؟ فقال عليه السلام : **«أسلمت على ما أسلفت من الخير»** . وقيل : إن **«ثُمَّ»** بمعنى الواو ؛ أى وكان هذا المعتق الرقبة والمطعم في المسغبة من الذين آمنوا . **(وتَوَاصَوْا)** أى أوصى بعضهم بعضاً . **(بِالصَّبْرِ)** على طاعة الله وعن معاصيه ، وعلى ما أصابهم من البلياء والمصائب . **(وتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ)** أى بالرحمة على الخلق ؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك رحموا اليتيم والمسكين . **(أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ)** أى الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم ؛ قاله محمد بن كعب القرظي وغيره . وقال يحيى بن سلام : لأنهم ميامين على أنفسهم . ابن زيد : لأنهم أخذوا من شق آدم الأيمن . وقيل : لأن منزلتهم عن اليمين ؛ قاله ميمون بن مهران . **(والَّذِينَ كَفَرُوا**

(١) آية ٥٤ سورة النوبة . (٢) آية ٨٢ سورة طه . (٣) أى تنفرب بها الى الله .

بِآيَاتِنَا) أى القرآن . (هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ) أى يأخذون كتبهم بشمالهم ؛ قاله محمد بن كعب .
 يحيى بن سلام : لأنهم مشائيم على أنفسهم . ابن زيد : لأنهم أخذوا من شق آدم الأيسر .
 ميمون : لأن منزلتهم عن اليسار .

قلت : ويجمع هذه الأقوال أن يقال : إن أصحاب الميمنة أصحاب الجنة ، وأصحاب
 المشأمة أصحاب النار ؛ قال الله تعالى : « وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ . فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ »^(١) ،
 وقال : « وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ . فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ » . وما كان مثله . ومعنى
 (مُؤَصَّدَةٌ) أى مطبقة مغلقة . قال :

تَحْنُ إِلَى أَجْبَالِ مَكَّةَ نَاقَتِي * وَمِنْ دُونِهَا أَبْوَابٌ صَنَعَاءَ مُؤَصَّدَةٌ

وقيل : مبهم لا يدري ما داخلها . وأهل اللغة يقولون : أوصدت الباب وأصدته ؛
 أى أغلقته . فمن قال أوصدت فالأسم الوِصَاد . ومن قال أصدته فالأسم الإِصَاد . وقرأ أبو عمرو
 وحفص وحمزة ويعقوب والشيرى عن الكسائى « مؤصدة » بالهمز هنا وفى « الهمزة » .
 الباقون بلا همز . وهما لغتان . وعن أبى بكر بن عيَّاش قال : لنا إمام يهمز « مؤصدة »
 فأشهى أن أسد أذنى إذا سمعته .

سورة « الشمس »

مكية باتفاق ، وهى خمس عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾

قال مجاهد : (وَضُحَاهَا) أى ضوءها وإشراقها . وهو قسم ثانٍ . وأضاف الضحى
 إلى الشمس لأنه إنما يكون بارتفاع الشمس . وقال قتادة : بهاؤها . السدى : حرها . وروى
 الضحاك عن ابن عباس : « وضحاها » قال : جعل فيها الضوء وجعلها حارة . وقال الزيدى :
 هو أنبساطها . وقيل : ما ظهر بها من كل مخلوق ؛ فيكون القسم بها وبمخلوقات الأرض

(١) آية ٢٨ و ٤٢ سورة الواقعة .

كلها . حكاة المأوردى . والضحي مؤنثة . يقال : آرتفعت الضحى ، [وهي] فوق الضحوة^(١) . وقد تذكّر . فمن أنت ذهب إلى أنها جمع ضحوة . ومن ذكر ذهب إلى أنه اسم على فَعَل ؛ نحو صرد ونفر^(٢) . وهو ظرف غير متمكن مثل سحر . تقول : لقيته ضحى وضحى ؛ إذا أردت به ضحا يومك لم تنونه . وقال الفراء : الضحى هو النهار ؛ كقول قتادة . والمعروف عند العرب أن الضحى إذا طلعت الشمس وبعيد ذلك قليلا ، فإذا زاد فهو الضحاه بالمد . ومن قال : الضحى النهار كله فذلك لدوام نور الشمس . ومن قال : إنه نور الشمس أو حرها فنور الشمس لا يكون إلا مع حر الشمس . وقد استدل من قال : إن الضحى حر الشمس بقوله تعالى : «وَلَا تَضْحَى» أى لا يؤذيك الحر . وقال المبرد : أصل الضحى من الضح وهو نور الشمس ، والألف مقلوبة من الحاء الثانية . تقول : ضحوة وضحوات وضحوات وضحى ، فالواو من ضحوة مقلوبة عن الحاء الثانية ، والألف في ضحى مقلوبة عن الواو . وقال أبو الهيثم : الضح نقبض الظل وهو نور الشمس على وجه الأرض ، وأصله الضحى فاستثقلوا الياء مع سكون الحاء فقلبوها ألقا .

قوله تعالى : وَالْقَمَرَ إِذَا تَلَّهَا ﴿٢﴾

أى تبعها . وذلك إذا سقطت رية الهلال . يقال : تلوت فلانا إذا تبعته . قال قتادة : إنما ذلك ليلة الهلال ، إذا سقطت الشمس رية الهلال . وقال ابن زيد : إذا غربت الشمس في النصف الأول من الشهر تلاها القمر بالطلوع ، وفي آخر الشهر يتلوها بالغروب . الفراء : «تلاها» أخذ منها ؛ يذهب إلى أن القمر يأخذ من ضوء الشمس . وقال قوم : «والقمر إذا تلاها» حين استوى وأستدار فكان مثلها في الضياء والنور ؛ وقاله الزجاج .

(١) كذا في حاشية الجمل نقلا عن القرطبي . وفي نسخ الأصل وتفسير ابن عادل : «فوق الصخور» .

(٢) الصرد : طائر فوق العصفور . والنفر : فراخ المصافير .

قوله تعالى : وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ﴿٣﴾

أى كشفها . فقال قوم : جَلَّى الظُّلْمَةَ ؛ وإن لم يجر لها ذكر ؛ كما تقول : أضحت باردة ؛ تريد أضحت غداتنا باردة . وهذا قول الفراء والكلبي وغيرهما . وقال قوم : الضمير فى «جلاها» للشمس ؛ والمعنى : أنه يبين بضوئه جرمها . ومنه قول قيس بن الحظيم :

تجلت لنا كالشمس تحت غمامة * بدا حاجب منها وضئت بحاجب

وقيل : جَلَّى ما فى الأرض من حيوانها حتى ظهر لاستناره ليلاً وانتشاره نهاراً . وقيل : جَلَّى الدنيا . وقيل : جَلَّى الأرض ؛ وإن لم يجر لها ذكر ؛ ومثله قوله تعالى : « حَتَّى تَوَارَتْ بِالْمُحْجَابِ » (١) على ما تقدم آنفاً .

قوله تعالى : وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾

أى يغشى الشمس فيذهب بضوئها عند سقوطها ؛ قاله مجاهد وغيره . وقيل : يغشى الدنيا بالظلم فتظلم الآفاق . فالكناية ترجع إلى غير مذكور .

قوله تعالى : وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾

أى وبنائها . فما مصدرية ؛ كما قال : « بِمَا غَفَرَلِي رَبِّي » أى بغفران ربى ؛ قاله قتادة ، وأختره المبرد . وقيل : المعنى ومن بناها ؛ قاله الحسن ومجاهد ؛ وهو اختيار الطبري . أى ومن خلقها ورفعها وهو الله تعالى . وحكى عن أهل الحجاز : سبحان ما سبحت له ؛ أى سبحان من سبحت له .

قوله تعالى : وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّهَا ﴿٦﴾

أى وطحوها . وقيل : ومن طحاها ؛ على ما ذكرناه آنفاً . أى بسطها ؛ كذا قال عامة المفسرين ؛ مثل دحاها . قال الحسن ومجاهد وغيرهما : طحاها ودحاها واحد ؛ أى بسطها

(١) آية ٣٢ سورة ص . (٢) آية ٢٧ سورة يس .

من كل جانب . وَالطَّحُو : البسط ؛ طحا يطحو طحوا ، وَطَحَى يَطْحِي طحيا ، وَطَحَيْتَ أَضْطَجَعْتَ ؛ عن أبي عمرو . وعن ابن عباس : طحاها قسمها . وقيل : خلقها ؛ قول الشاعر :

وما تدرى جَذِيْمَةٌ مَنْ طَحَاها * ولا مَنْ ساكِنُ العَرِشِ الرفيعِ

الماوردي : ويحتمل أنه ما خرج منها من نبات وعيون وكنوز ؛ لأنه حياة لما خلق عليها . ويقال في بعض أيمان العرب : لا ، وَالقَمَرِ الطَّاحِي ؛ أي المشرف المشرق المرتفع . قال أبو عمرو : طحا الرجل إذا ذهب في الأرض . يقال : ما أدري أين طحا ! ويقال : طحا به قلبه إذا ذهب به في كل شيء . قال علقمة :

طحا بك قلبٌ في الحِسانِ طَرُوبُ * بُعِدَ الشَّبَابِ عَصْرَ حانِ مَشِيْبُ

قوله تعالى : وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ﴿٧٠﴾

قيل : المعنى وتسويتها . ف«ما» بمعنى المصدر . وقيل : المعنى ومن سواها ، وهو الله عز وجل . وفي النفس قولان : أحدهما آدم . الثاني - كل نفس منقوسة . وسوى بمعنى هيا . وقال مجاهد : سواها سوى خلقها وعدل . وهذه الأسماء كلها مجرورة على القسم . أقسم جل ثناؤه بخلقه لما فيه من عجائب الصنعة الدالة عليه .

قوله تعالى : فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨٠﴾

قوله تعالى : (فَأَلْهَمَهَا) أي عرفها ؛ كذا روى بن أبي نجيح عن مجاهد . أي عرفها طريق الفجور والتقوى ؛ وقاله ابن عباس . وعن مجاهد أيضا : عرفها الطاعة والمعصية . وعن محمد بن كعب قال : إذا أراد الله عز وجل بعبده خيرا ألهمه الخير فعمل به ، وإذا أراد به السوء ألهمه الشر فعمل به . وقال الفراء : «فَأَلْهَمَهَا» قال : عرفها طريق الخير وطريق الشر ؛ كما قال : «وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ»^(١) . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : أَلْهَمَ الْمُؤْمِنَ الْمُنْتَقِيَّ تَمَوَّاهُ ، وَأَلْهَمَ الْفَاجِرَ فُجُورَهُ . وعن سعيد عن قتادة قال : بين لها بفجورها وتقواها . والمعنى

(١) آية ١٠ سورة البلد .

متقارب . وروى عن أبي هريرة قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « فآلهمها بخورها وتقواها » قال : « اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها » . ورواه جوير عن الضحاك عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية « فآلهمها بخورها وتقواها » رفع صوته بها وقال : « اللهم آت نفسي تقواها أنت وليها ومولاها وأنت خير من زكاها » . وفي صحيح مسلم عن أبي الأسود الدؤلي قال قال لي عمران ابن حصين : رأيت ما يعمل الناس اليوم ويكذحون فيه ، أشيء قضي ومضى عليهم من قدر ما سبق ، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبئهم ، وثبتت الحجّة عليهم ؟ فقلت : بل شيء قضي عليهم ومضى عليهم . قال فقال : أفلا يكون ظلماً ؟ قال : ففزعت من ذلك فزعا شديدا وقلت : كل شيء خلق الله وملك يده ، فلا يسأل عما يفعل وهم يسئلون . فقال لي : يرحمك الله ! إنى لم أرد بما سألتك إلا لأخزرك عقلك ^(۱) إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : يا رسول الله ، رأيت ما يعمل الناس اليوم ويكذحون فيه ، أشيء قضي عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق ، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبئهم وثبتت الحجّة عليهم ؟ فقال : « لا بل شيء قضي عليهم ومضى فيهم وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل « ونفيس وما سواها . فآلهمها بخورها وتقواها » . والفجور والتقوى مصدران في موضع المفعول به .

قوله تعالى : **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾**

قوله تعالى : **(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)** هذا جواب القسم بمعنى لقد أفلح . قال الزجاج : اللام حذفت لأن الكلام طال فصار طوله عوضا منها . وقيل : الجواب محذوف ؛ أي والشمس وكذا وكذا لتبعثن . الزمخشري : تقديره ليدمد من الله عليهم ؛ أي على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما دمد على ثمود ؛ لأنهم كذبوا صالحا . وأما « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا » فكلام تابع لأوله ؛ لقوله : « فآلهمها بخورها وتقواها » على سبيل الاستطراد وليس من جواب القسم

(۱) أي لأنحن عقلك وفهمك ومعرفتك .

في شيء . وقيل : هو على التقديم والتأخير بغير حذف ؛ والمعنى : قد أفلح من زكّاه وقد خاب من دساها والشمس وضحاها . ﴿ أَفْلَحَ ﴾ فاز . ﴿ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ أى من زكّى الله نفسه بالطاعة . ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ أى خسرت نفس دساها الله عز وجل بالمعصية . وقال ابن عباس : خابت نفس أضلها الله وأغواها . وقيل : أفلح من زكّى نفسه بطاعة الله وصالح الأعمال ، وخاب من دس نفسه في المعاصي ؛ قاله قتادة وغيره . وأصل الزكاة النمو والزيادة . ومنه زكا الزرع إذا كثر ريعه . ومنه تزكية القاضى للشاهد ؛ لأنه يرفعه بالتعديل وذكر الجميل . وقد تقدم هذا المعنى في أول سورة «البقرة» مستوفى . فصطنع المعروف والمبادر إلى أعمال البر شهر نفسه ورفعها . وكانت أجواد العرب تنزل الرّيا وارتفاع الأرض ليشتهر مكانها للمعتفين ، وتوقد النار في الليل للطارقين . وكانت اللثام تنزل الأولاج والأطراف والأهضام ليخفى مكانها عن الطالبين . فأولئك علّوا أنفسهم وزكّوها ، وهؤلاء أخفّوا أنفسهم ودساها . وكذا الفاجر أبدا خفى المكان ، زمر المروءة ، غامض الشخص ، ناكس الرأس بركوب المعاصي . وقيل : دساها أغواها . قال : وأنت الذى دسيت عمرا فأصبحت * حلائله منه أراميل ضيعة^(٥)

قال أهل اللغة : والأصل دسها من التدسيس وهو إخفاء الشيء في الشيء ، فأبدلت سينه ياء ؛ كما يقال : قصيت أظفارى ؛ وأصله قصصت أظفارى . ومثله قولهم في تقصص : تقصّى . وقال ابن الأعرابي : «وقد خاب من دساها» أى دس نفسه في جملة الصالحين وليس منهم .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا^(١١) إِذْ أَنْبَعَثَ أَشْقَاهَا^(١٢)
فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا^(١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا
فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا^(١٤)

(١) راجع ج ١ ص ٣٤٣ طبعة ثمانية أو ثالثة . (٢) المعنى : كل طالب فضل أو رزق .
(٣) الأولاج : ما كان من كهف أو غار يلجأ إليه . والأهضام : أسافل الأودية . (٤) الزمر : القليل .
(٥) الذى فى اللسان (مادة دسا) :

وأنت الذى دسيت عمرا فأصبحت * نساؤهم فيهم أراميل ضيعة
وقال : دسيت أغويت وأفسدت . وعمرو : قبيلة .

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴾ أى بطغيانها، وهو خروجها عن الحد في العصيان؛ قاله مجاهد وقتادة وغيرها. وعن ابن عباس « يطغواها » أى بعذابها الذى وعدت به. قال: وكان أسم العذاب الذى جاءها الطغوى؛ لأنه طغى عليهم. وقال محمد بن كعب: « يطغواها » بأجمعها. وقيل: هو مصدر، وخرج على هذا المخرج لأنه أشكل برءوس الآى. وقيل: الأصل بطغياها، إلا أن « فعلى » إذا كانت من ذوات الياء أبدلت فى الأسم واوا ليفصل بين الأسم والوصف. وقراءة العامة بفتح الطاء. وقرأ الحسن والحخدري وحماد بن سلمة (بضم الطاء) على أنه مصدر؛ كالرُجعى والحُسنى وشبههما فى المصادر. وقيل: هما لغتان. ﴿ إِذِ أَنْبَعَتْ ﴾^(١) أى نهض. ﴿ أَشْقَاهَا ﴾ لعقر الناقة. وأسمه قدار بن سالف. وقد مضى فى « الأعراف »، بيان هذا، وهل كان واحدا أو جماعة. وفى البخارى عن عبد الله ابن زمة أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يخطب، وذكر الناقة والذى عقرها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إِذِ أَنْبَعَتْ أَشْقَاهَا أَنْبَعَتْ لَهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ عَارِمٌ مَنِيْعٌ فِي رَهْطِهِ مِثْلُ أَبِي زَمْعَةَ » وذكر الحديث. خرجه مسلم أيضا. وروى الضحاك عن عليّ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: « أتدرى من أشقى الأقران » قلت: الله ورسوله أعلم. قال: « عاقر الناقة — قال — أتدرى من أشقى الآخرين » قلت: الله ورسوله أعلم. قال: « فانتك ».

﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﴾^(٢) يعنى صالحا. ﴿ نَافَةَ اللَّهِ ﴾ « ناقة » منصوب على التحذير؛ كقولك: الأسد الأسد، والصبيّ الصبيّ، والحذار الحذار. أى احذروا ناقة الله؛ أى عقرها. وقيل: ذروا ناقة الله؛ كما قال: « هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »^(٣). ﴿ وَسُعْيَاهَا ﴾^(٤) أى ذروها وشربها. وقد مضى فى سورة « الشعراء » بيانه والحمد لله. وأيضا فى سورة « اقتربت الساعة »^(٥). فإنهم لما اقترحوا الناقة وأخرجها لهم من الصخرة، جعل لهم شرب يوم من برهم ولها شرب يوم مكان ذلك، فشق ذلك عليهم.

(١) راجع ج ٧ ص ٢٤١ (٢) العارم: الجبار المنفس الخبيث. (٣) آية ٧٣ سورة الأعراف.

(٤) راجع ج ١٣ ص ١٣١ (٥) راجع ج ١٧ ص ١٤١

(فَكَذَّبُوهُ) أى كذبوا صالحا عليه السلام فى قوله لهم : "إنكم تُعَذِّبُونَ إن عقرتموها" .
 (فَعَقَّرُوهَا) أى عقرها الأثقى . وأضيف إلى الكل لأنهم رضوا بفعله . وقال قتادة : ذكر
 لنا أنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذکرهم وأنتاهم . وقال الفراء : عقرها آثان .
 والعرب تقول : هذان أفضل الناس ، وهذان خير الناس ، وهذه المرأة أشقى القوم ؛ فلهذا
 لم يقل : أشقياها .

قوله تعالى : (فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ) أى أهلكهم وأطبق عليهم العذاب بذنوبهم الذى
 هو الكفر والتكذيب والعقر . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : دمدم عليهم قال : دمر عليهم
 ربهم بذنوبهم ؛ أى يجرمهم . وقال الفراء : دمدم أى أرجف . وحقيقة الدمدمه تضعيف
 العذاب وترديده . ويقال : دممت على الشئ أى أطبقت عليه ، ودمم عليه القبر أى أطبقه . وناقه
 مدمومة ألبسها الشحم . فإذا كثرت الإطباق قلت : دممت . والدمدمه إهلاك باستئصال ؛
 قاله المؤرج . وفى الصحاح : ودممت الشئ إذا ألزقته بالأرض وطحطحته . ودمدم الله عليهم
 أى أهلكهم . القشيري : وقيل دممت على الميت التراب أى سويت عليه . فقوله «فَدَمَدَمَ
 عَلَيْهِمْ» أى أهلكهم فجعلهم تحت التراب . (فَسَوَّاهَا) أى سوى عليهم الأرض . وعلى
 الأول «فسواها» أى فسوى الدمدمه والإهلاك عليهم . وذلك أن الصيحة أهلكتهم فأتت
 على صغيرهم وكبيرهم . وقال ابن الأنباري : دمدم أى غضب . والدمدمه : الكلام الذى يُزجج
 الرجل . وقال بعض اللغويين : الدمدمه الإدامة ؛ تقول العرب : ناقه مدمومة أى سمينة .
 وقيل : «فسواها» أى فسوى الأمة فى إنزال العذاب بهم ، صغيرهم وكبيرهم ، وضعفهم
 وشريفهم ، ذكركم وأنتاهم . وقرأ ابن الزبير «فدهم» وهما لغتان ؛ كما يقال : اهتقع
 لونه وأمتقع .

قوله تعالى : وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا

أى فعل الله ذلك بهم غير خائف أن تلحقه تبعه الدمدمه من أحد ؛ قاله ابن عباس
 والحسن وقتادة ومجاهد . والهاء فى «عقباها» ترجع إلى الفعلة ؛ كقوله : "من أنسل يوم

الجمعة فيها ونعمت" أي بالفعلة والحصلة . قال السدي والضحاك والكلبي : ترجع إلى العاقرة؛ أي لم يخف الذي عقرها عقي ما صنع . وقاله ابن عباس أيضا . وفي الكلام تقديم وتأخير، مجازة : إذ انبعث أشقاها ولا يخاف عباها . وقيل : لا يخاف رسول الله صالح عاقبة إهلاك قومه ، ولا يخشى ضررا يعود عليه من عذابهم ؛ لأنه قد أنذرهم ونجاه الله تعالى حين أهلكهم . وقرأ نافع وابن عامر « فلا » بالفاء وهو الأجود ؛ لأنه يرجع إلى المعنى الأول ؛ أي فلا يخاف الله عاقبة إهلاكهم . والباقون بالواو ، وهي أشبه بالمعنى الثاني ؛ أي ولا يخاف الكافر عاقبة ما صنع . وروى ابن وهب وابن القاسم عن مالك قال : أخرج إلينا مالك مصحفا لحدته ، وزعم أنه كتبه في أيام عثمان بن عفان حين كتب المصاحف ، وفيه : « ولا يخاف » بالواو . وكذا هي في مصاحف أهل مكة والعراقيين بالواو ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم اتباعا لمصحفهم .

سورة « والليل »

مكية . وقيل : مدنية . وهي إحدى وعشرون آية بإجماع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴿٢﴾
وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴿٤﴾

قوله تعالى : (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى) أي يغطي . ولم يذكر معه مفعولا للعلم به . وقيل : يغشى النهار . وقيل : الأرض . وقيل : الخلائق . وقيل : يغشى كل شيء بظلمته . وروى سعيد عن قتادة قال : أول ما خلق الله النور والظلمة ، ثم ميز بينهما ، بفعل الظلمة ليلاً أسوداً مظلماً ، والنور نهارةً مضيئاً مبصراً . (وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى) أي إذا انكشف ووضح وظهر ، وبان بظونته عن ظلمة الليل . (وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى) قال الحسن : معناه والذي خلق

الذكر والأنثى ؛ فيكون قد أقسم بنفسه عز وجل . وقيل : معناه وخلق الذكر والأنثى ؛
« ما » مصدرية على ما تقدم . وأهل مكة يقولون للرعدي : سبحان ما سبحت له ؛ فما على
هذا بمعنى من ، وهو قول أبي عبيدة وغيره . وقد تقدم . وقيل : المعنى وما خلق من
الذكر والأنثى ؛ فتكون « من » مضمرة ، ويكون القسم منه بأهل طاعته من أنبيائه وأوليائه ،
ويكون قسمه بهم تكريماً لهم وتشريفاً . وقال أبو عبيدة : « وما خلق » أي ومن خلق .
وكذا قوله : « والسماء وما بناها » ، و« نفيس وما سواها » « ما » في هذه المواضع بمعنى من .
وروي عن ابن مسعود أنه كان يقرأ « والنهار إذا تجلَّى . والذكر والأنثى » ويسقط « وما خلق » .
وفي صحيح مسلم عن علقمة قال : قدمنا الشام فأتانا أبو الدرداء فقال : فيكم أحد يقرأ على
قراءة عبد الله ؟ فقلت : نعم ، أنا . قال : فكيف سمعت عبد الله يقرأ هذه الآية « والليل
إذا يغشى » ؟ قال : سمعته يقرأ « والليل إذا يغشى . والذكر والأنثى » قال : وأنا والله
هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها ، ولكن هؤلاء يريدون أن أقرأ « وما خلق »
فلا أتابعهم . قال أبو بكر الأنباري : وحدثنا محمد بن يحيى المروزي قال حدثنا محمد قال
حدثنا أبو أحمد الزبيري قال حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد عن
عبد الله قال : أقراني رسول الله صلى الله عليه وسلم « إني أنا الرازي ذو القوة المتين » ؛ قال
أبو بكر : كل من هذين الحديثين مردود ؛ بخلاف الإجماع له ، وأن حمزة وعاصمًا يرويان
عن عبد الله بن مسعود ما عليه جماعة المسلمين ، والبناء على سنيين يوافقان الإجماع أولى
من الأخذ بواحد يخالفه الإجماع والأمة ، وما يئني على رواية واحد إذا حاذاه رواية جماعة
تخالفه ، أخذ برواية الجماعة وأبطل نقل الواحد ؛ لما يجوز عليه من النسيان والإغفال .
ولو صح الحديث عن أبي الدرداء وكان إسناده مقبولاً معروفاً ، ثم كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي

(١) وفي كتاب الأحكام لابن العربي ما نصه : « هذا مما لا يلتفت إليه بشر ، إنما المعول عليه ما في المصحف
فلا تجوز مخالفته لأحد ، ثم بعد ذلك يقع النظر فيما يوافق خطه مما لم يثبت ضبطه حسب ما بيناه في موضعه ؛ فإن القرآن
لا يثبت بنقل الواحد وإن كان عدلاً ، وإنما يثبت بالتواتر الذي يقع به العلم ، وينقطع معه العذر وتقوم به الحجية
على الخلق » .

وسائر الصحابة رضى الله عنهم يخالفونه ، لكان الحكم العمل بما رَوته الجماعة ورفض ما يحكيه الواحد المنفرد ، الذى يسرع إليه من النسيان ما لا يسرع إلى الجماعة وجميع أهل الملة .
 وفى المراد بالذكر والأنثى قولان : أحدهما - آدم وحواء ؛ قاله ابن عباس والحسن والكلبي .
 الثانى - يعنى جميع الذكور والإناث من بنى آدم والبهائم ؛ لأن الله تعالى خلق جميعهم من ذكر وأنثى من نوعهم . وقيل : كل ذكر وأنثى من الآدميين دون البهائم لاختصاصهم بولاية الله وطاعته . ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ هذا جواب القسم . والمعنى : إن عملكم مختلف .
 وقال عكرمة وسائر المفسرين : السعى العمل ؛ فسأج في فكك نفسه ، وسأج في عطبها ؛ يدل عليه قوله عليه السلام : « الناس غاديان فبتاع نفسه فمعتقها وبتاع نفسه فموبقها^(١) » . وشتّى : واحده شتيت ؛ مثل مريض ومرضى . وإنما قيل للمختلف شتّى لتباعد ما بين بعضه وبعضه .
 أى إن عملكم لتباعد بعضه من بعض ؛ لأن بعضه ضلالةٌ وبعضه هدى . أى فمنكم مؤمن وبرّ ، وكافر وفاجر ، ومطيعٌ وعاصٍ . وقيل : « لشتّى » أى للمختلف الجزاء ؛ فمنكم مثابٌ بالجنة ومعاقبٌ بالنار . وقيل : أى للمختلف الأخلاق ؛ فمنكم راحمٌ وقاسٍ ، وحليمٌ وطائشٌ ، وجوادٌ وبخيلٌ ؛ وشبه ذلك .

قوله تعالى : فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٦٦﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦٧﴾
 فَسَنِيَسِرُهُ لِّلْيُسْرَى ﴿٦٨﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٦٩﴾ وَكَذَّبَ
 بِالْحُسْنَى ﴿٧٠﴾ فَسَنِيَسِرُهُ لِّلْعُسْرَى ﴿٧١﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴾ قال ابن مسعود : يعنى أبا بكر رضى الله عنه ؛ وقاله عامة المفسرين . فروى عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : كان أبو بكر يعتيق على الإسلام عجائز ونساء ، قال فقال له أبوه أبو حنيفة : أى بنى ! لو أنك

(١) هذه رواية الحديث كما فى التعلبي . والذى فى نسخ الأصل : « الناس غاديان فبتاع نفسه فمعتقها أو موبقها » .

عتقت رجالاً جلدًا يمنعونك ويقومون معك؟ فقال: يا أبت إنما أريد ما أريد^(١). وعن ابن عباس في قوله تعالى: «فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ» أي بذل. «وَأَتَّقَى» أي محارم الله التي نهى عنها. ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ أي بالخلف من الله تعالى على عطائه. ﴿فَسَنِّيَسِرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ يُمْسِكُ يَوْمَ يُصْبِحُ الْعِبَادَ فِيهِ إِلَّا وَمَلَكَانِ يَنْزِلَانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا وَيَقُولُ الْآخَرُ اللَّهُمَّ أَعْطِ مُسْكًا تَلَفًا». وروى من حديث أبي الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ يَوْمَ غَرَبَتِ شَمْسُهُ إِلَّا بَيْعٌ يَجْنِبُهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ يَسْمَعُهُمَا خَلَقَ اللَّهُ كَلِمَةً إِلَّا الثَّقَلَيْنِ اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا وَأَعْطِ مُسْكًا تَلَفًا» فانزل الله تعالى في ذلك في القرآن «فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ» الآيات. وقال أهل التفسير: «فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ» المعسرين. وقال قتادة: أعطى حق الله تعالى الذي عليه. وقال الحسن: أعطى الصدق من قلبه. ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ أي بلا إله إلا الله؛ قاله الضحاك والسلمي وابن عباس أيضا. وقال مجاهد: بالجنة؛ دليله قوله تعالى: «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ» الآية. وقال قتادة: بموعود الله الذي وعده أن يشبهه. زيد بن أسلم: بالصلاة والزكاة والصوم. الحسن: بالخلف من عطائه؛ وهو اختيار الطبري. وتقدم عن ابن عباس، وكله متقارب المعنى؛ إذ كله يرجع إلى الثواب الذي هو الجنة.

الثانية - قوله تعالى: ﴿فَسَنِّيَسِرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ أي نرشده لأسباب الخير والصلاح حتى يسهل عليه فعلها. وقال زيد بن أسلم: «لليسر» للجنة. وفي الصحيحين والترمذي عن علي رضي الله عنه قال: كنا في جنازة بالبقيع، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فجلسنا معه، ومعه عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه إلى السماء فقال: «مَنْ نَفْسٍ مَنفُوسَةٍ إِلَّا [قَدْ] كُتِبَ مَدْخَلُهَا» فقال القوم: يا رسول الله، أفلا تتكىل على كتابنا؟ فمن كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، ومن كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء. قال: «بل

(١) كذا في كتاب أسباب النزول وروح المعاني. وفي نسخ الأصل: «ما يريد». وفي تفسير الثعلبي ورواية أخرى في أسباب النزول: «لو كنت تباع من يمنع ظهرك؛ قال: منع ظهري أريد».

(٢) آية ٢٦ سورة يونس.

أَعْمَلُوا فِكُلِّ مَيْسَرٍ أَمَا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَإِنَّهُ يُيَسِّرُ لِعَمَلِ السَّعَادَةِ وَأَمَا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَإِنَّهُ يُيَسِّرُ لِعَمَلِ الشَّقَاءِ — ثُمَّ قَرَأَ — «فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى . فَسَنِيسِرُهُ لِلْيُسْرَى . وَأَمَا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى . وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى . فَسَنِيسِرُهُ لِلْعُسْرَى» « لفظ الترمذی . وقال فيه : حديث حسن صحيح . وسأل غلامان شابان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : العمل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ؟ أم في شيء يستأنف ؟ فقال عليه السلام : «بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير» قالوا : ففيم العمل ؟ قال : «أعملوا فكل ميسر لعمله الذي خلق له» قالوا : فالآن نجد ونعمل .

الثالثة — قوله تعالى : (وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى) (١) أى ضن بما عنده فلم يبذل خيراً . وقد تقدم بيانه وثمرته في الدنيا في سورة «آل عمران» . وفي الآخرة ماله النار كما في هذه الآية . روى الضحاك عن ابن عباس (فسنيسره للعسرى) قال : سوف أحول بينه وبين الإيمان بالله وبرسوله . وعنه عن ابن عباس قال : نزلت في أمية بن خلف . وروى عكرمة عن ابن عباس : « وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى » يقول : بخل بماله واستغنى عن ربه . (وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى) أى بالخلف . وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد : « وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى » قال : بالجنة . وبإسناد عنه آخر قال « بالحسنى » أى بلا إله إلا الله . (فسنيسره) أى تسهل طريقه . (للعسرى) أى للشر . وعن ابن مسعود : للنار . وقيل : أى فسنعسر عليه أسباب الخير والصلاح حتى يصعب عليه فعلها . وقد تقدم أن الملك ينادى صباحاً ومساءً : «اللَّهُمَّ اعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا وَأَعْطِ مُمْسِكًا تَلْفًا» . رواه أبو الدرداء .

مسألة : قال العلماء : ثبت بهذه الآية وبقوله : « وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » ، وقوله : « الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً » (٢) إلى غير ذلك من الآيات — أن الجود من مكارم الأخلاق والبخل من أذلهما . وليس الجواد الذى يعطى في غير موضع العطاء ، ولا البخيل الذى يمنع في موضع المنع ، لكن الجواد الذى يعطى في موضع العطاء ، والبخيل

(٣) آية ٢٧٤ سورة البقرة .

(٢) آية ٣ سورة البقرة .

(١) راجع ج ٤ ص ٢٩١

الذي يمنع في موضع العطاء ، فكلُّ مَنْ آسْتَفَادَ بِمَا يُعْطَى أَجْرًا وَحَمْدًا فَهُوَ الْجَوَادُ . وَكُلُّ مَنْ آسْتَحَقَّ بِالْمَنْعِ ذَمًّا أَوْ عِقَابًا فَهُوَ الْبَخِيلُ . وَمَنْ لَمْ يَسْتَفِدْ بِالْعَطَاءِ أَجْرًا وَلَا حَمْدًا وَإِنَّمَا اسْتَوْجِبَ بِهِ ذَمًّا فَلَيْسَ بِجَوَادٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ مُسْرِفٌ مَذْمُومٌ ، وَهُوَ مِنَ الْمُبْدِّرِينَ الَّذِينَ جَعَلَهُمُ اللَّهُ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ، وَأَوْجِبَ الْحَجْرَ عَلَيْهِمْ . وَمَنْ لَمْ يَسْتَوْجِبْ بِالْمَنْعِ عِقَابًا وَلَا ذَمًّا ، وَاسْتَوْجِبَ بِهِ حَمْدًا فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الرَّشَدِ ، الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ الْقِيَامَ عَلَى أَمْوَالِ غَيْرِهِمْ بِحَسَنٍ تَدْبِيرِهِمْ وَسَدَادِ رَأْيِهِمْ .

الرابعة — قال الفراء : يقول القائل كيف قال « فسنيسره للعسرى » وهل في العسرى تيسير ؟ فيقال في الجواب : هذا في إجازته بمنزلة قوله عز وجل : « فبشرهم بعذاب اليم^(١) » والبشارة في الأصل على المفرح والسار ، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر ، جاءت البشارة فيهما . وكذلك التيسير في الأصل على المفرح ، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر جاء التيسير فيهما جميعا . قال الفراء : وقوله تعالى « فسنيسره » سنهيته . والعرب تقول : قد يسرت الغنم إذا ولدت أو تهيأت للولادة . قال :

هما سيدانا يزعمان وإنما * يسودانا أن يسرت غناهما^(٢)

قوله تعالى : وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : (وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى) أي مات . يقال : ردى الرجل يردى ردى إذا هلك . قال : * صرفت الهوى عنهن من خشية الردى *

وقال أبو صالح وزيد بن أسلم : « إذا تردى » أي سقط في جهنم ، ومنه المتردية . ويقال : ردى في البئر وتردى إذا سقط في بئر أو تهوّر من جبل . يقال : ما أدري أين ردى ! أي أين ذهب . و « ما » يحتمل أن تكون بحمدا ، أي ولا يغني عنه ماله شيئا . ويحتمل أن تكون استفهاما

(١) آية ٢١ سورة آل عمران . (٢) البيت لأبي أسيدة الدبيري . وقوله :

إن لنا شيعين لا ينفعنا * غنين لا يجدى علينا غناهما

معناه التويخ؛ أى أى شىء يفتى عنه إذا هلك ووقع فى جهنم! ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أى إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلالة . فالهدى بمعنى بيان الأحكام؛ قاله الزجاج .
أى على الله البيان، بيان حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته؛ قاله قتادة . وقال الفراء : من سلك الهدى فعلى الله سبيله؛ لقوله : «وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ»^(١) يقول : من أراد الله فهو على السبيل القاصد . وقيل : معناه إن علينا للهدى والإضلال؛ فترك الإضلال؛ كقوله : «بِيَدِكَ الْخَيْرُ»^(٢) و«بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ»^(٣) . وكما قال : «سَرَابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ»^(٤) وهى تقي البرد؛ عن الفراء أيضا . وقيل : أى إن علينا ثواب هداه الذى هديناه . ﴿وَإِنَّا لَنَآ لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾^(٥) «لَلْآخِرَةِ» الجنة . «وَالأُولَى» الدنيا . وكذا روى عطاء عن ابن عباس . أى الدنيا والآخرة لله تعالى . وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : ثواب الدنيا والآخرة، وهو كقوله تعالى : «مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(٥) فمن طلبهما من غير مالكما فقد أخطأ الطريق .

قوله تعالى : فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾

الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ﴾ أى حذرتكم وخوفتكم . ﴿نَارًا تَلَظَّى﴾ أى تلهب وتوقد . وأصله تلتظى . وهى قراءة عبيد بن عمير ويحيى بن يعمر وطلحة بن مَعْرَف . ﴿لَا يَصْلَاهَا﴾ أى لا يجد صلاحها وهو حرها . ﴿إِلَّا الْأَشْقَى﴾ أى الشقى . ﴿الَّذِي كَذَّبَ﴾ نبي الله محمداً صلى الله عليه وسلم . ﴿وَتَوَلَّى﴾ أى أعرض عن الإيمان . وروى مكحول عن أبي هريرة قال : كل يدخل الجنة إلا من أباه . قال : يا أبا هريرة ، ومن يابى أن يدخل الجنة ؟ قال : الذى كذب وتولى . وقال مالك : صلى بنا عمر بن عبد العزيز المغرب فقراً «والليل

(٣) آية ٨٣ سورة يس .

(٢) آية ٢٦ سورة آل عمران .

(١) آية ٩ سورة النحل .

(٥) آية ١٣٤ سورة النساء .

(٤) آية ٨١ سورة النحل .

إذا يغشى « فلما بلغ « فَأَنْذَرْتُمْ نَارًا تَلَّظَى » وقع عليه البكاء فلم يقدر يتعداها من البكاء ، فتركها وقرأ سورة أخرى . وقال الفراء : « إِلَّا الْأَشْقَى » إِلَّا مَنْ كَانَ شَقِيًّا فِي عِلْمِ اللَّهِ جَلِّ شَأْؤُهُ . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : « لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى » أمية بن خلف ونظراؤه الذين كذبوا مهدياً صلى الله عليه وسلم . وقال قتادة : كَذَّبَ بِكُتَابِ اللَّهِ وَتَوَلَّى عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ . وقال الفراء : لم يكن كذب برّد ظاهر ولكنه قصر عما أمر به من الطاعة ؛ فجعل تكذيباً ؛ كما تقول : لَقِيَ فُلَانٌ الْعَدُوَّ فَكَذَّبَ إِذَا نَكَلَ وَرَجَعَ عَنْ اتِّبَاعِهِ . قال وسمعت أبا ثروان يقول : إن بنى نُمَيْرٍ لَيْسَ لِحَدِّهِمْ مَكْذُوبَةٌ . يقول : إِذَا لَقُوا صَدَقُوا الْقِتَالَ وَلَمْ يَرْجِعُوا . وكذلك قوله جل ثناؤه : « لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ »^(۱) يقول : هي حق . وسمعت سلم بن الحسن يقول : سمعت أبا إسحاق الزجاج يقول : هذه الآية التي من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء ، فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر ؛ لقوله جل ثناؤه : « لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى . الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى » وليس الأمر كما ظنوا . هذه نار موصوفة بعينها ، لا يَصْلَى هذه النار إلا الذي كذب وتولى . ولأهل النار منازل ؛ فمنها أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ؛ والله سبحانه كل ما وعد عليه بجنس من العذاب فجائز أن يعذب به . وقال جل ثناؤه : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ »^(۲) فلو كان كل من لم يشرك لم يعذب ، لم يكن في قوله : « وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » فائدة ، وكان « وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ » كلاماً لا معنى له . الزمخشري : الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين ، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين فقيل : الأشقى ، وجعل مختصاً بالصلى ، كأن النار لم تخلق

(۱) كذا في الأصول وأساس البلاغة للزمخشري . والذي في تفسير الفراء ولسان العرب — مادة كذب — : « لخدم » بالحاء المهملة . وحد الرجل : بأسه ونفاذه في نجاته . (۲) آية ۲ سورة الواقعة .

(۳) هم المرجئة ، وهم فرقة من فرق الإسلام يعتقدون أنه لا يضر مع الإيمان معصية ، كما أنه لا ينفع مع الكفر طاعة . سموا مرجئة لاعتقادهم أن الله أرجأ تعذيبهم على المعاصي ؛ أي أخره عنهم . وقيل : المرجئة فرقة من المسلمين يقولون الإيمان قول بلا عمل ؛ كأنهم قدموا القول وأرجئوا العمل أي أخره ؛ لأنهم يرون أنهم لو لم يصلوا ولم يصوموا لنجاهم إيمانهم . (۴) آية ۸ سورة النساء .

إلآ له . وقيل : الأتقى ، وجعل مختصاً بالنجاة ، كأن الجنة لم تخلق إلآ له . وقيل : هما أبو جهل أو أمية بن خلف . وأبو بكر رضى الله عنه .

قوله تعالى : **وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى** ﴿١٧﴾ **الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى** ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ **وَسَيُجَنَّبُهَا** ﴾ أى يكون بعيداً منها . ﴿ **الْأَتْقَى** ﴾ أى المتقى الخائف .

قال ابن عباس : هو أبو بكر رضى الله عنه ، يُزَحِّحُ عن دخول النار . ثم وصف الأتقى فقال ﴿ **الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى** ﴾ أى يطلب أن يكون عند الله زاكياً ، ولا يطلب بذلك رياء ولا سُوءة ، بل يتصدق به مبتغياً به وجه الله تعالى . وقال بعض أهل المعانى : أراد بقوله « **الْأَتْقَى** » و « **الْأَشَقَى** » أى التقى والشقى ؛ كقول طرفة :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت * فتلك سبيلٌ لستُ فيها بأوحدٍ

أى واحد ووحيد؛ وتوضع أفعل موضع فعيل ، نحو قولهم : الله أكبر بمعنى كبير ، « **وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ** ^(١) » بمعنى هين .

قوله تعالى : **وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى** ﴿١٩﴾ **إِلَّا ابْتِغَاءَ**

وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ **وَلَسَوْفَ يَرْضَى** ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ **وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى** ﴾ أى ليس يتصدق ليجازى على نعمة ، إنما يبتغى وجه ربّه الأعلى ، أى المتعالى ﴿ **وَلَسَوْفَ يَرْضَى** ﴾ أى بالجزاء . فروى عطاء والضحاك عن ابن عباس قال : عذب المشركون بلالا ، وبلالٌ يقول أحد أحد؛ فتربه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « **أحد - يعنى الله تعالى - ينجيك** » ثم قال لأبى بكر : « **يا أبا بكر إن بلالا يُعذب فى الله** » فعرف أبو بكر الذى يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأنصرف إلى منزله ، فأخذ رطلا من ذهب ومضى به إلى أمية بن خلف ، فقال له : أتبيعنى بلالا ؟ قال : نعم ؛ فأشتراه فأعتقه . فقال المشركون : ما أعتقه أبو بكر إلا لئيد كانت له عنده ؛ فزلت « **وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ** » أى عند أبى بكر « **من نعمة** » ، أى من يد ومينة « **تُجْزَى** » بل

(١) آية ٢٧ سورة الروم .

«ابتغاء» بما فعل «وجه ربه الأعلى» . وقيل : اشترى أبو بكر من أمية وأبي بن خلف بلالاً بيرة وعشر أواق ؛ فاعتقه لله فنزلت : «إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى» . وقال سعيد بن المسيب : بلغني أن أمية بن خلف قال لأبي بكر حين قال له أبو بكر : أتبيعنيه ؟ فقال : نعم ، أبعه بنسطاس ، وكان نسطاس عبداً لأبي بكر ، صاحب عشرة آلاف دينار ، وغللمان وجوار ومواش ، وكان مُشركاً فحمله أبو بكر على الإسلام على أن يكون له ماله ، فأبى فباعه أبو بكر به . فقال المشركون : ما فعل أبو بكر بلال هذا إلا ليد كانت لبلال عنده ؛ فنزلت «وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى . إِلَّا ابْتِغَاءً» أى لكن ابتغاء ؛ فهو استثناء منقطع ؛ فلذلك نصبت . كقولك : ما في الدار أحد إلا حمراً . ويجوز الرفع . وقرأ يحيى بن وثاب «إلا ابتغاء وجه ربه» بالرفع ، على لغة من يقول : يجوز الرفع في المستثنى . وأنشد في اللغتين قول بشر بن أبي حازم :

أضحت خلاءً قفاراً لا أنيس بها * إلا الجآذر والظلمان تختلف^(١)

وقول القائل :

وبلدة ليس بها أنيس * إلا اليعافير وإلا العيس^(٢)

وفي التنزيل : «مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ» وقد تقدم . ﴿وَجِهَ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ أى مرضاته وما يقرب منه . و«الأعلى» من نعت الرب الذي أستحق صفات العلو . ويجوز أن يكون «ابتغاء وجه ربه» مفعولاً له على المعنى ؛ لأن معنى الكلام : لا يؤتى ماله إلا ابتغاء وجه ربه لا للمكافأة نعمته . ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ أى سوف يعطيه في الجنة ما يرضى ؛ وذلك أنه يعطيه أضعاف ما أنفق . وروى أبو حيان التميمي عن أبيه عن علي رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «رحم الله أبا بكر زوجي أبنته وحملني إلى دار الهجرة وأعتق بلالاً من ماله» . ولما اشتراه أبو بكر قال له بلال : هل اشتريتنى لعملك أو لعمل الله؟ قال : بل لعمل الله .

(١) الجآذر (جمع جؤذر) وهي ولد البقرة الوحشية . والظلمان (بالكسر والضم) (جمع الظلم) وهو الذكر من النعام . (٢) اليعافير (جمع يافور) : وهو ولد الظبية وولد البقرة الوحشية أيضاً . والعيس : لابل بيض مخالط بياضها شقرة ؛ جمع أعيس (٣) آية ٦٦ سورة النساء . راجع ج ٥ ص ٢٧٠

قال: فَذَرْنِي وَعَمَلِ اللَّهِ، فَأَعْتَقَهُ. وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا (يعنى بلالا رضى الله عنه). وقال عطاء— وروى عن ابن عباس—: إن السورة نزلت في أبي الدحداح؛ في النخلة التي اشتراها بجائظ له؛ فيما ذكر الثعلبي عن عطاء. وقال القشيري— عن ابن عباس: بأربعين نخلة؛ ولم يُسمَّ الرجل. قال عطاء: كان لرجل من الأنصار نخلة، يسقط من بلحها في دار جاري له، فيتناوله صبيانه، فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «تبيعها بنخلة في الجنة»؟ فأبى؛ فخرج فلقيه أبو الدحداح فقال: هل لك أن تبيعنيها بـ «حسني»؟ حائظ له. فقال: هي لك. فأتى أبو الدحداح إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله، اشتريها مني بنخلة في الجنة. قال: «نعم والذي نفسى بيده» فقال: هي لك يا رسول الله؛ فدعا النبي صلى الله عليه وسلم جارا أنصاري فقال: «خذها» فنزلت «وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى» إلى آخر السورة في بستان أبي الدحداح وصاحب النخلة. «فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى» يعنى أبا الدحداح. «وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى» أى بالثواب «فَسُنِّسِرَهُ لِيَسْرَى» يعنى الجنة. «وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى» يعنى الأنصاري. «وَرَكَّبَ بِالْحُسْنَى» أى بالثواب. «فَسُنِّسِرَهُ لِيَسْرَى» يعنى جهنم. «وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى» أى مات. إلى قوله: «لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى» يعنى بذلك الخنزرجي؛ وكان منافقا فمات على نفاقه. «وَسَيَجْزِيهَا الْآتِقَى» يعنى أبا الدحداح. «الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَرَكَّى» فى ثمن تلك النخلة. «وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى» يكافئه عليها؛ يعنى أبا الدحداح. «وَأَسَوْفَ يَرْضَى» إذا أدخله الله الجنة. والأكثر أن السورة نزلت في أبي بكر رضى الله عنه. وروى ذلك عن ابن مسعود وابن عباس وعبد الله بن الزبير وغيرهم. وقد ذكرنا خبرا آخر لأبي الدحداح فى سورة «البقرة» عند قوله: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا». والله تعالى أعلم.

سورة «الضحى»

مكية باتفاق . وهى إحدى عشرة آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَالضُّحَى ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ
وَمَا قَلَى ﴿٣﴾

قوله تعالى : (وَالضُّحَى . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى) قد تقدم القول فى «الضحى» ، والمراد به النهار؛ لقوله : « وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى » فقابله بالليل . وفى سورة (الأعراف) « أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ . وَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ » أى نهارا . وقال قتادة ومقاتل وجعفر الصادق : أقسم بالضحى الذى كَلَّمَ اللهُ فيه موسى وبليلة المعراج . وقيل : هى الساعة التى نَحَرَ فيها السَّحَرَةُ سُجْدًا . بيانه قوله تعالى : « وَأَنَّ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى » . وقال أهل المعانى فيه وفى أمثاله : فيه إضمار ، مجازه وربَّ الضحى . و« سَجَى » معناه سكن ؛ قاله قتادة ومجاهد وابن زيد وعكرمة . يقال : لَيْلَةٌ سَاجِيَةٌ أى ساكنة . ويقال للعين إذا سَكَنَ طرفها : سَاجِيَةٌ . يقال : سَجَى اللَّيْلُ يَسْجُو وَيَسْجُو إِذَا سَكَنَ . والبحر إذا سَجَى : سَكَنَ . قال الأعشى :

فَمَا ذَبْنَا أَنْ جَاشَ بَحْرُ ابْنِ عَمِّكَ * وَبَحْرُكَ سَاجٍ مَا يُوَارِي الدَّعَامِ مِمَّا

وقال الراجز :

يَا حَبِيذًا التَّمْرَاءُ وَاللَّيْلُ السَّاجُ * وَطُرُقٌ مِثْلُ مُلَاءِ النَّسَاجِ

(١) راجع ص ٧٢ وما بعدها من هذا الجزء . (٢) آية ٩٧ ، ٩٨ . (٣) آية ٩ ، سورة طه .

(٤) فى اللسان : « يسجوا يسجوا ويسجوا » . (٥) فى ديوان الأعشى : * أتوعدنى أن جاش ... *

والدعاص : جمع الدعوص ، وهو دويبة صغيرة تكون فى مستنقع الماء .

وقال جرير :

ولقد رميتك يوم رُحِنَ بأعينٍ * ينظرون من حلل السُّور سواجي

وقال الضحاك : «سجاء» غَطَّى كُلَّ شَيْءٍ . قال الأصمعي : سَجَّو اللَّيْلُ تَغَطَّيْتَهُ النَّهَارُ ؛ مِثْلَمَا يُسَجِّي

الرجل بالثوب . وقال الحسن : غشى بظلامه ؛ وقاله ابن عباس . وعنه : إذا ذهب .

وعنه أيضا : إذا أظلم . وقال سعيد بن جبیر : اقبل ؛ وروى عن قتادة أيضا . وروى

ابن أبي نجیح عن مجاهد : «سجاء» استوى . والقول الأول أشهر في اللغة : «سجاء» سكن ؛ أى

سكن الناس فيه . كما يقال : نهارٌ صائمٌ وليلٌ قائمٌ . وقيل : سكونه استقرار ظلامه واستواؤه .

ويقال : « والضُّحَى . واللَّيْلُ إِذَا سَجَّى » يعني عباده الذين يعبدونه في وقت الضُّحَى ،

وعباده الذين يعبدونه بالليل إذا أظلم . ويقال : « الضُّحَى » يعني نور الجنة إذا تنور .

« واللَّيْلُ إِذَا سَجَّى » يعني ظلمة الليل إذا أظلم . ويقال : « والضُّحَى » يعني النور الذي

في قلوب العارفين كهيئة النهار . « واللَّيْلُ إِذَا سَجَّى » يعني السواد الذي في قلوب الكافرين

كهيئة الليل ؛ فأقسم الله عز وجل بهذه الأشياء . (ما ودَّعَكَ رَبُّكَ) هذا جواب القسم .

وكان جبريل عليه السلام أبطأ على النبي صلى الله عليه وسلم فقال المشركون : قلاه الله وودَّعه ؛

فنزلت الآية . وقال ابن جريج : احتبس عنه الوحي اثني عشر يوماً . وقال ابن عباس : خمسة

عشر يوماً . وقيل : خمسة وعشرين يوماً . وقال مقاتل : أربعين يوماً . فقال المشركون :

إن محمدا ودَّعه ربه وقلاه ، ولو كان أمره من الله لتابع عليه كما كان يفعل بمن كان قبله من

الأنبياء . وفي البخاري عن جندب بن سفيان قال : اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم

فلم يتم ليلتين أو ثلاثاً ؛ بغاءت امرأة فقالت : يا محمد ، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ،

لم أره قريبك منذ ليلتين أو ثلاث ؛ فأنزل الله عز وجل « والضُّحَى . واللَّيْلُ إِذَا سَجَّى . ما ودَّعَكَ

رَبُّكَ وما قَلَى » . وفي الترمذي عن جندب البجلي قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم

في غار فدُميت إصبعه فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « هل أنت إلا إصبع دُميت ،

(١) هي العوراء بنت حرب أخت أبي سفيان ، وهي حمالة الحطب ، وهي زوج أبي لهب .

وفي سبيل الله ما لقيت . قال : وأبطأ عليه جبريل فقال المشركون : قد ودّع محمد؛
فأنزل الله تبارك وتعالى « ما ودّعك ربك وما قلى » . هذا حديث حسن صحيح . لم يذكر
الترمذى : « فلم يغم ليّلتين أو ثلاثا » أسقطه الترمذى . وذكره البخارى ، وهو أصح
ما قيل في ذلك . والله أعلم . وقد ذكره الثعلبى أيضا عن جندب بن سفيان البجلي قال :
رُمى النبي صلى الله عليه وسلم في إصبعه بحجر فدميت فقال : « هل أنت إلا إصبع دميت ،
وفي سبيل الله ما لقيت » فمكث ليلتين أو ثلاثا لا يقوم الليل . فقالت له أم جميل امرأة
أبي لهب : ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، لم أره قريبا من ذل ليلتين أو ثلاث ؛ فنزلت
« والضحى » . وروى عن أبي عمران الجوني قال : أبطأ جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم حتى
شق عليه ؛ فجاء وهو واضع جبهته على الكعبة يدعو ؛ فنكت بين كتفيه وأنزل عليه « ما ودّعك
ربك وما قلى » . وقالت خولة - وكانت تحم النبي صلى الله عليه وسلم - : إن جرّوا دخل
البيت فدخل تحت السرير فات ؛ فمكث نبي الله صلى الله عليه وسلم أياما لا ينزل عليه الوحي .
فقال : « يا خولة ما حدث في بيتي ؟ ما لجبريل لا يأتيني ! » قالت خولة فقلت : لو هيات
البيت وكنته ؛ فأهويت بالمكذبة تحت السرير فإذا جرّ ميت ، فأخذته فألقيته خلف
الجدار ؛ فجاء نبي الله ترعد لحياه - وكان إذا نزل عليه الوحي استقبلته الرعدة - فقال : « يا خولة
دثريني » فأنزل الله هذه السورة . ولما نزل جبريل سأله النبي صلى الله عليه وسلم عن التأخر
فقال : « أما علمت أنا لا ندخل بيتا فيه كلب ولا صورة » . وقيل : لما سأله اليهود عن الروح
وذى القرنين وأصحاب الكهف قال : « سأخبركم غدا » ولم يقل إن شاء الله . فاحتبس عنه
الوحي ، إلى أن نزل جبريل عليه بقوله « ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله »^(١)
فأخبره بما سئل عنه . وفي هذه القصة نزلت « ما ودّعك ربك وما قلى » . وقيل : إن المسلمين
قالوا : يا رسول الله ، مالك لا ينزل عليك الوحي ؟ فقال : « وكيف ينزل على وأنتم لا تنقون
رؤايجكم - وفي رواية براجمكم^(٢) - ولا تقصون أظفاركم ولا تأخذون من شواربكم » . فنزل

(١) آية ٢٣ سورة الكهف . (٢) الرواجب (واحد راجبة) : وهى ما بين عقد الأصابع .
والبراجم (واحد راجمة بالضم) : هى العقد التى فى ظهور الأصابع مجتمع فيها الوسخ .

جبريل بهذه السورة ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما جئت حتى اشتقتُ إليك » فقال جبريل : « وأنا كنتُ أشدُّ إليك شوقاً ولكني عبد مأمور » ثم أنزل عليه « وما ننزلُ إلا بأمرٍ رَبِّكَ »^(١) . « ودَعَكَ » بالتشديد قراءة العامة من التوديع ، وذلك كتوديع المفارق . وروى عن ابن عباس وابن الزبير أنهما قرآه « ودَعَكَ » بالتخفيف ومعناه ترك . قال :

وَمَّمَّ ودَعَعْنَا آلَ عمرو وعامر * فرَأَسَ أطرافَ المَثَقَفَةِ السَّمْرِ^(٢)

واستعماله قليل . يقال : هو يدَعُ كذا ؛ أى يتركه . قال المبرد محمد بن يزيد : لا يكادون يقولون ودَعَ ولا ودَرَّ لضعف الواو إذا قُدِّمت ، واستغنوا عنها بترك .

قوله تعالى : (وما قَلَى) أى ما أبغضك ربك منذ أحبك . وترك الكاف لأنه رأس آية . والقَلَى البُغْضُ ؛ فإن فتحت القاف مددت ؛ تقول : قلاه يقليه قَلَى وقلاء . كما تقول : قَرَيْتُ الضيفَ أقريه قَرَى وقراء . ويقلاه لغة طيء . وأنشد ثعلب :

* أَيامٌ أمَّ الغمر لا نقلاها *^(٣)

أى لا نبغضها . وتقلَى أى تبغض . وقال :

أسيئى بنا أو أحسنى لا ملومةٌ * لدينا ولا مقليةٌ إن تقلت^(٤)

وقال امرؤ القيس :

* ولست بمقلٍ الحلال ولا قال^(٥) *

وتأويل الآية : ما ودَعَكَ رَبُّكَ وما قلاك . فترك الكاف لأنه رأس آية ؛ كما قال عمر وجَلَّ :

« ولذا كَرِينَ اللهَ نَشِيراً ولذا كَرَاتِ »^(٦) أى والذاكرات الله .

(١) آية ٦٤ سورة مريم .

(٢) المثقفة والمنقف : الرمح .

(٣) كذا فى اللسان . وفى الأصول : « يارب » . وبعده كما فى اللسان :

* ولوتشاء فبَلَّتْ عيناها *

(٤) هو كثير عزة .

(٥) صدر البيت :

* صرفت الهوى عنهن من خشية الردى *

(٦) آية ٣٥ سورة الأحزاب .

قوله تعالى : وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴿١﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ

رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴿٢﴾

روى سلمة عن ابن إسحاق قال : « وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى » أى ما عندى فى مرجعك إلى يا محمد خير لك مما عجلت لك من الكرامة فى الدنيا . وقال ابن عباس : أرى النبى صلى الله عليه وسلم ما يفتح الله على أمته بعده فسّر بذلك ؛ فنزل جبريل بقوله : « وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى . وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى » . قال ابن إسحاق : الفّاح فى الدنيا والثواب فى الآخرة . وقيل : الحوض والشفاعة . وعن ابن عباس : ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك . رفعه الأوزاعى قال : حدثنى إسماعيل بن عبيد الله عن على بن عبد الله ابن عباس عن أبيه قال : أرى النبى صلى الله عليه وسلم ما هو مفتوح على أمته فسّر بذلك ؛ فانزل الله عز وجل « وَالضُّحَى - إلى قوله تعالى - وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى » فأعطاه الله جلّ ثناؤه ألف قصر فى الجنة ، ترابها المسك ؛ فى كل قصر ما ينبغى له من الأزواج والخدم . وعنه قال : رضى محمد ألا يدخل أحد من أهل بيته النار . وقاله السدى . وقيل : هى الشفاعة فى جميع المؤمنين . وعن على رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يُسْمَعُنِي اللَّهُ فِي أُمَّتِي حَتَّى يَقُولَ اللَّهُ سُبْحَانَ لِي رَضِيْتَ يَا مُحَمَّدُ فَأَقُولُ يَا رَبِّ رَضِيْتُ » . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا قول الله تعالى فى إبراهيم : « فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَافِرٌ رَحِيمٌ » وقول عيسى : « إِنْ تَعَدَّيْتُمْ فَلَأَكْفُرَنَّ مِنْكُمْ فَإِن تَابْتُمْ فَلَأَسْفُتَنَّ مِنْكُمْ فَإِن تَعَدَّيْتُمْ فَلَأَكْفُرَنَّ مِنْكُمْ فَإِن تَابْتُمْ فَلَأَسْفُتَنَّ مِنْكُمْ » . وقال : « اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي » وبكى . فقال الله تعالى لجبريل : « اذهب إلى محمد وربك أعلم فسّله ما يبكيك » فأتى جبريل النبى صلى الله عليه وسلم فسأله فأخبره . فقال الله تعالى لجبريل : « اذهب إلى محمد فقل له إن الله يقول لك إنا سنرضيك فى أمتك

(١) آية ٣٦ سورة إبراهيم .

(٢) آية ١١٨ سورة المائدة .

ولا نسوءك^(١) . وقال علي رضي الله عنه لأهل العراق : إنكم تقولون إن أرجى آية في كتاب الله تعالى « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ »^(٢) قالوا : إنا نقول ذلك . قال : ولكنا أهل البيت نقول : إن أرجى آية في كتاب الله قوله تعالى : « وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ » . وفي الحديث : لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إِذَا وَانْتَهَىٰ لَكَ مِنْ أُمَّتِي فِي النَّارِ » .

قوله تعالى : أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦٦﴾

عَدَدُ سُبْحَانِهِ مِثْنَةٌ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا) لَا أَبَ لَكَ ؛ قَدِمَاتِ أَبُوكَ . (فَآوَى) أَي جَعَلَ لَكَ مَأْوَى تَأْوَى إِلَيْهِ عِنْدَ عَمِّكَ أَبِي طَالِبٍ فَكَفَلَكَ . وَقِيلَ لَجَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ : لَمْ أُؤْتِمَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَبَوَيْهِ ؟ فَقَالَ : لِثَلَاثِ أَسْبَابٍ : لِأَنَّكَ لَمْ يَكُنْ لَهَا مِثْلٌ . فَجَازَ عَلَيْهِ حَقٌّ . وَعَنْ مَجَاهِدٍ : هُوَ مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ : دُرَّةٌ يَتِيمَةٌ ؛ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا مِثْلٌ . فَجَازَ الْآيَةَ : أَلَمْ يَجِدْكَ وَاحِدًا فِي شَرْفِكَ لَا نَظِيرَ لَكَ ، فَأَوَّاكَ اللَّهُ بِأَصْحَابٍ يَحْفَظُونَكَ وَيَحُوطُونَكَ .

قوله تعالى : وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٦٧﴾

أَي غَافِلًا عَمَّا يَرَادُ بِكَ مِنْ أَمْرِ النُّبُوَّةِ فَهَدَاكَ ؛ أَي أَرْشَدَكَ . وَالضَّلَالُ هُنَا بِمَعْنَى الْغَفْلَةِ ؛ كَقَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ : « لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى »^(٣) أَي لَا يَغْفَلُ . وَقَالَ فِي حَقِّ نَبِيِّهِ : « وَإِن كُنْتُ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ »^(٤) . وَقَالَ قَوْمٌ : « ضَالًّا » لَمْ تَكُنْ تَدْرِي الْقُرْآنَ وَالشَّرَائِعَ ، فَهَدَاكَ اللَّهُ إِلَى الْقُرْآنِ وَالشَّرَائِعِ الْإِسْلَامِ ؛ عَنِ الضَّحَّاكِ وَشَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ وَغَيْرِهِمَا . وَهُوَ مَعْنَى

(١) رواية الحديث كما ورد في صحيح مسلم كتاب الإيمان : « أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم « رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني » الآية ، وقول عيسى عليه السلام « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » فرفع يديه وقال : « اللهم أمّتي أمّتي » وبكى ؛ فقال الله عز وجل : « يا جبريل اذهب إلى محمد وربيك أعلم فسله ما يبكيك » فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم ؛ فقال الله : « يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمّتك ولا نسوءك » .

(٢) آية ٥٣ سورة الزمر . (٣) آية ٥٢ سورة طه . (٤) آية ٣ سورة يوسف .

قوله تعالى : « مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ » على ما بينا في سورة « الشورى »^(١) .
وقال قوم : « وَوَجَدَكَ ضَالًّا » أى فى قوم ضلال فهداهم الله بك . هذا قول الكلبي
والفراء . وعن السدى نحوه ؛ أى ووجد قومك فى ضلال فهداك إلى إرشادهم . وقيل :
« ووجدك ضالا » عن الهجرة فهداك إليها . وقيل : « ضالًّا » أى ناسيا شأن الاستثناء حين
سُئلت عن أصحاب الكهف وذى القرنين والروح فأذكرك ؛ كما قال تعالى : « أَنْ تَضِلَّ
إِحْدَاهُمَا »^(٢) . وقيل : ووجدك طالبًا للقبلة فهداك إليها ؛ بيانه : « قَدْ نَرَى تَقَابُ وَجْهِكَ
فِي السَّمَاءِ »^(٣) الآية . ويكون الضلال بمعنى الطلب ؛ لأن الضال طالب . وقيل : ووجدك
متحيرًا عن بيان ما نزل عليك فهداك إليه ؛ فيكون الضلال بمعنى التحير ؛ لأن الضال متحير .
وقيل : ووجدك ضائعًا فى قومك فهداك إليه ؛ ويكون الضلال بمعنى الضياع . وقيل :
ووجدك مُجِبًّا للهداية فهداك إليها ؛ ويكون الضلال بمعنى المحبة . ومنه قوله تعالى : « قَالُوا
تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ »^(٤) أى فى محبتك . قال الشاعر :

هذا الضلال أشاب منى المفرقا * والعارضين ولم أكن متحققا^(٥)

عجبا لعزة فى اختيار قطيعتى * بعد الضلال فبلها قد أخلقا

وقيل : « ضالا » فى شعاب مكة فهداك وردك إلى جدك عبد المطلب . قال ابن عباس :
ضلَّ النبي صلى الله عليه وسلم وهو صغير فى شعاب مكة ، فرآه أبو جهل منصرفا عن أغنامه ،
فردّه إلى جده عبد المطلب ؛ فمنّ الله عليه بذلك حين ردّه إلى جده على يدى عدوّه . وقال
سعيد بن جبیر : نخرج النبي صلى الله عليه وسلم مع عمه أبى طالب فى سفر ، فأخذ إبليس
بزمام الناقة فى ليلة ظلماء ، فعَدَل بها عن الطريق ، بفاء جبريل عليه السلام فنفخ إبليس
نفخةً وقع منها إلى أرض الهند ، وردّه إلى القافلة ؛ فمنّ الله عليه بذلك . وقال كعب : إن
حليمة لما قضت حق الرضاع جاءت برسول الله صلى الله عليه وسلم لترده على عبد المطلب ،

(١) آية ٥٢ راجع ج ١٦ ص ٥٥

(٢) آية ٢٨٢ سورة البقرة .

(٣) آية ١٤٤ سورة البقرة .

(٤) آية ٩٥ سورة يوسف .

(٥) المفرق (كقعد ومجلس) : وسط الرأس . والعارض : صفحة الخد .

فسمعت عند باب مكة : هنيئاً لك يابطحاء مكة ، اليوم يُردُّ إليك النور والدين والبهاء والجمال . قالت : فوضعتهُ لأُصْلِح ثيابي فسمعت هدة شديدة فالتفت فلم أره ، فقلت : معشر الناس ، أين الصبي ؟ فقالوا : لم نر شيئاً ، فصحت : وامجداه ! ! فإذا شيخ فان يتوكأ على عصاه فقال : اذهبي إلى الصنم الأعظم ؛ فإن شاء أن يرده عليك فعل . ثم طاف الشيخ بالصنم وقبل رأسه وقال : يارب ، لم تزل مِتُّك على قريش ، وهذه السَّعْدِيَّة تزعم أن أبنا قد ضلَّ ، فردّه إن شئت . فانكب هُبُّلُ على وجهه وتساقطت الأصنام وقالت : إليك عنا أيها الشيخ ، فهلاكنا على يدي محمد . فالقى الشيخ عصاه وأرتعد وقال : إن لأبنا رباً لا يضيعه ، فأطلبه على مهل . فأنحشرت قريش إلى عبد المطلب وطلبوه في جميع مكة ، فلم يجدوه . فطاف عبد المطلب بالكعبة سَبْعاً وتضرع إلى الله أن يرده ، وقال :

يَا رَبِّ رُدِّ وَلَدِي مُحَمَّدًا * أَرَدَدَهُ رَبِّي وَأَتَّخِذُ عِنْدِي يَدًا

يَا رَبِّ إِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَوْجِدَا * فَشَمَلُ قَوْمِي كُلَّهُمْ تَبَدُّدًا

فسمعوا منادياً ينادي من السماء : معاشر الناس لا تضرِّجوا ، فإن لمحمد رباً لا يخذله ولا يضيعه ، وإن مجدداً بوادي تهامة عند شجرة السمر . فسار عبد المطلب هو وورقة بن نوفل ، فإذا النبي صلى الله عليه وسلم قائم تحت شجرة ، يلعب بالأغصان وبالورق . وقيل : « ووجدك ضالاً » ليلة المعراج ، حين انصرف عنك جبريل وأنت لا تعرف الطريق ، فهداك إلى ساق العرش . وقال أبو بكر الوراق وغيره : « ووجدك ضالاً » تحب أبا طالب فهداك إلى محبة ربك . وقال بسام بن عبد الله : « ووجدك ضالاً » بنفسك لا أدري من أنت ، فعرفك بنفسك وحالك . وقال الجنيدى : ووجدك متحيراً في بيان الكتاب فعلمك البيان ، بيانه : « لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »^(١) الآية . « لَتُبَيِّنَنَّ لَهُمْ الَّذِي اختلفوا فيه »^(٢) . وقال بعض المتكلمين : إذا وجدت العرب شجرة منفردة في فلاة من الأرض لا شجر معها سموها ضالَّة ، فيهدى بها إلى الطريق ؛ فقال الله تعالى

(١) آية ٤٤ سورة النحل .

(٢) آية ٦٤ سورة النحل .

لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « وَوَجَدَكَ ضَالًّا » أى لا أحد على دينك ، وأنت وحيد ليس معك أحد ؛ فَهَدَيْتُ بِكَ الْخَلْقَ إِلَى .

قلت : هذه الأقوال كلها حسان ، ثم منها ما هو معنوى ومنها ما هو حسي . والقول الأخير أعجب إلى ؛ لأنه يجمع الأقوال المعنوية . وقال قوم : إنه كان على جملة ما كان القوم عليه لا يظهر لهم خلافا على ظاهر الحال ؛ فأما الشرك فلا يُظن به ؛ بل كان على مراسم القوم في الظاهر أربعين سنة . وقال الكلبي والسدي : هذا على ظاهره ؛ أى وجدك كافرا والقوم كفار فهذا (١) . وقد مضى هذا القول والرد عليه في سورة « الشورى » . وقيل : وجدك (٢) مغمورا بأهل الشرك فميزك عنهم . يقال : ضل الماء في اللبن ؛ ومنه « أئذنا ضللنا في الأرض » (٣) أى لحقنا بالتراب عند الدفن حتى كأننا لا نتميز من جملته . وفي قراءة الحسن « ووجدك ضالًّا فهدى » أى وجدك الضال فآهتدى بك ؛ وهذه قراءة على التفسير . وقيل : « ووجدك ضالًّا » لا يهتدى إليك قومك ولا يعرفون قدرك ؛ فهدى المسلمين إليك حتى آمنوا بك .

قوله تعالى : وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنِي ﴿٨٠﴾

أى فقيراً لا مال لك . (فَأَغْنِي) أى فأغناك بخديجة رضى الله عنها ؛ يقال : عال الرجل يعيل عيلة إذا افتقر . وقال أحيحة بن الجلاح :

فما يَدْرِى الْفَقِيرُ مَتَى غِنَاهُ * وما يَدْرِى الْغَنِيُّ مَتَى يَعِيْلُ

أى يفتقر . وقال مقاتل : فرضاك بما أعطاك من الرزق . وقال الكلبي : قنعتك بالرزق . وقال ابن عطاء : ووجدك فقير النفس فأغنى قلبك . وقال الأخفش : وجدك ذا عيال ؛ دليله « فَأَغْنِي » . ومنه قول جرير :

الله أنزل في الكتاب فريضة * لأبن السبيل وللفقير العائل

(١) مثل هذه الأقوال لا يصح نسبتها إلى سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه ولا لأحد من الأنبياء ؛ لأن العصمة ثابتة لهم قبل النبوة وبعدها من الكبار والصغار على الصحيح . (٢) راجع ج ١٦ ص ٥٥ فابدها . (٣) آية ١٠ سورة السجدة .

وقيل : وجدك فقيراً من الحجج والبراهين فأغناك بها . وقيل : أغناك بما فتح لك من الفتوح ،
وأفاه عليك من أموال الكفار . الْقُشَيْرِيُّ : وفي هذا نظر ؛ لأن السورة مَكِّيَّة ، وإنما
فرض الجهاد بالمدينة . وقراءة العامة « عَائِلًا » . وقرأ ابن السَّمِيقِ « عِيَلًا » بالتشديد ؛ مثل
طَبِّبَ وَهَيَّنَ .

قوله تعالى : فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩٠﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿٩١﴾
وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿٩٢﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ) أي لا تسلط عليه بالظلم ، ادفع إليه حقه ،
وَأَذْكَرُ يُمِّكَ ؛ قاله الأخفش . وقيل : هما لغتان بمعنى . وعن مجاهد « فلا تقهر » فلا تحقر .
وقرأ النَّخَعِيُّ والأشهب العقيلي « تَكْهَرُ » بالكاف ، وكذلك هو في مصحف ابن مسعود .
فعلى هذا يحتمل أن يكون نهيًا عن قهره بظلمه وأخذ ماله . وخص اليتيم لأنه لا ناصر له غير
الله تعالى ؛ فغلظ في أمره بتغليظ العقوبة على ظلمه . والعرب تعاقب بين الكاف والقاف .
النحاس : وهذا غلط ، إنما يقال كَهَرَهُ إذا اشتد عليه وغلظ . وفي صحيح مسلم من حديث
معاوية بن الحكم السلمي حين تكلم في الصلاة برد السلام قال : فبأبي هو وأمي ! ما رأيت
معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه - يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم - فوالله ما كهرني
ولا ضربني ولا شتمني ... الحديث . وقيل : الْقَهْرُ الغلبة . وَالكَهْرُ : الزجر .

الثانية - ودلت الآية على اللطف باليتيم وبره والإحسان إليه ؛ حتى قال قتادة :
كن لليتيم كالأب الرحيم . وروى عن أبي هريرة أن رجلاً شكاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم
قسوة قلبه ؛ فقال : « إن أردت أن يلين فامسح رأس اليتيم وأطعم المسكين » . وفي الصحيح
عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أنا وكافل اليتيم له أو لغيره كهانين » .

(١) في بعض نسخ الأصل : « لا تسطو » .

وأشار بالسبابة والوسطى . ومن حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
 ” إن اليتيم إذا بكى أهتر لبيكاه عرش الرحمن فيقول الله تعالى لملائكته يا ملائكتي من ذا الذى
 أبكى هذا اليتيم الذى غيبت أباه فى التراب فنقول الملائكة ربنا أنت أعلم فيقول الله تعالى لملائكته
 يا ملائكتي اشهدوا أن من أسكته وأرضاه أن أرضيه يوم القيامة “ . فكان ابن عمر إذا
 رأى يتيمًا مسح برأسه وأعطاه شيئًا . وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 ” من ضمَّ يتيمًا فكان فى نفقته وكفاه مؤنته كان له حجابا من النار يوم القيامة ومن مسح
 برأس يتيم كان له بكل شعرة حسنة “ . وقال أنس بن صيفي : الأذلاء أربعة : النمام
 والكذاب والمديون واليتيم .

الثالثة - قوله تعالى : (وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ) أى لا تزجره ؛ فهو نهى عن إغلاظ
 القول . ولكن رده ببذل يسير أو رد جميل ، وأذ كر فقرك ؛ قاله قتادة وغيره . وروى عن
 أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” لا يمنع أحدكم السائل وأن يعطيه إذا
 سأل ولو رأى فى يده قلوبين من ذهب “ . وقال إبراهيم بن أدهم : نعم القوم السائلون يحملون زادنا
 إلى الآخرة . وقال إبراهيم النخعي : السائل بريد الآخرة ، يجيء إلى باب أحدكم فيقول هل
 تبعثون إلى أهليكم بشيء . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” ردوا السائل ببذل
 يسير أو رد جميل فإنه يأتيكم من ليس من الإنس ولا من الجن ينظر كيف صنيعكم فيما خولكم
 الله “ . وقيل : المراد بالسائل هنا الذى يسأل عن الدين ؛ أى فلا تنهره بالغلظة والجفوة ،
 وأجبه برفق ولين ؛ قاله سفيان . قال ابن العربي : وأما السائل عن الدين فجوابه فرض على
 العالم على الكفاية ؛ كإعطاء سائل البرّ سواء . وقد كان أبو الدرداء ينظر إلى أصحاب الحديث
 ويدسط رداءه لهم ويقول : مرحبًا بأحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى حديث
 أبي هارون العبدى عن أبي سعيد الخدري قال : كنا إذا أتينا أبا سعيد يقول مرحبًا بوصية
 رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” إن الناس لكم تبع ”

(١) القلب (بضم وسكون) : السوار . (٢) القائل هو أبو هارون العبدى .

وإن رجلاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقّهون فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً“ وفي رواية
 ”يأتيكم رجال من قبل المشرق“ فذكره . و«اليتيم» و«السائل» منصوبان بالفعل الذي بعده؛
 وحق المنصوب أن يكون بعد الفاء ، والتقدير : مهما يكن من شيء فلا تقهر اليتيم ولا تنهر
 السائل . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ”سألت ربي مسألة وددت أني لم أسأله
 قلت يا رب اتخذت إبراهيم خليلاً وكلمت موسى تكليماً وسخرت مع داود الجبال يسبحن
 وأعطيت فلاناً كذا فقال عز وجل ألم أجدك يتيماً فأويتك ألم أجدك ضالاً فهديتك ألم أجدك
 عائلاً فأغنيتك ألم أشرح لك صدرك ألم أوتيتك ما لم أوت أحدك قبلك خواتيم سورة البقرة
 ألم أتخذك خليلاً كما اتخذت إبراهيم خليلاً قلت بلى يا رب“ .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ أي انشر ما أنعم الله عليك
 بالشكر والثناء . والتحدث بنعم الله والاعتراف بها شكر . وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد «وأما بنعمة
 ربك» قال بالقرآن . وعنه قال : بالنبوة؛ أي بلغ ما أرسلت به . والخطاب للنبي صلى الله
 عليه وسلم والحكم عام له ولغيره . وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال : إذا أصبت
 خيراً أو عملت خيراً فحدث به الثقة من إخوانك . وعن عمرو بن ميمون قال : إذا لقي الرجل
 من إخوانه من يثق به يقول له رزق الله من الصلاة البارحة كذا وكذا . وكان أبو فراس
 عبد الله بن غالب إذا أصبح يقول : لقد رزقني الله البارحة كذا ، قرأت كذا ، وصليت
 كذا ، وذكرت الله كذا ، وفعلت كذا . فقلنا له : يا أبا فراس ، إن مثلك لا يقول هذا !
 قال يقول الله تعالى : « وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » وتقولون أتم : لا تحدث بنعمة الله !
 ونحوه عن أيوب السخيتي وأبي رجاء الطاردي رضي الله عنهم . وقال بكر بن عبد الله
 المزني قال النبي صلى الله عليه وسلم : ” من أعطى خيراً فلم ير عليه سمي بغيبض الله معادياً
 لنعم الله“ . وروى الشعبي عن النعمان بن بشير قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : ” من لم
 يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله والتحدث بالنعم شكر وتركه كفر
 والجماعة رحمة والفرقة عذاب“ . وروى النسائي عن مالك بن نضلة الجشمي قال : كنت
 عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا ، فرآني رث الثياب فقال : ” ألك مال؟“ قلت

نعم يا رسول الله ، من كل المال . قال : ” إذا أتاك الله مالاً فليُرْ أثره عليك “ . وروى أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” إن الله جميل يحب الجمال ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده “ .

فصل - يكبر القارئ في رواية البزّي عن ابن كثير - وقد رواه مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم - إذا بلغ آخر « والضحى » كبر بين كل سورة تكبيرة إلى أن يختم القرآن ، ولا يصل آخر السورة بتكبيره ؛ بل يفصل بينهما بسكنة . وكان المعنى في ذلك أن الوحي تأخر عن النبي صلى الله عليه وسلم أياماً ، فقال ناس من المشركين : قد ودّعه صاحبه وقلاه ؛ فنزلت هذه السورة فقال : ” الله أكبر “ . قال مجاهد : قرأت على ابن عباس فأمرني به وأخبرني به عن أبي عن النبي صلى الله عليه وسلم . ولا يكبر في قراءة الباقي ؛ لأنها ذريعة إلى الزيادة في القرآن .

قلت : القرآن ثبت نقلاً متواتراً سُورَهُ وآيَاتُهُ وحروفه لا زيادة فيه ولا نقصان ؛ فالتكبير على هذا ليس بقرآن . فإذا كان بسم الله الرحمن الرحيم المكتوب في المصحف بخط المصحف ليس بقرآن فكيف بالتكبير الذي هو ليس بمكتوب . أما إنه ثبت سنة بنقل الآحاد فاستحبه ابن كثير لا أنه أوجبه خطأ من تركه . ذكر الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ في كتاب « المستدرک » له على البخاري ومسلم : حدثنا أبو يحيى محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ الإمام بمكة في المسجد الحرام قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن علي بن زيد الصائغ قال حدثنا أحمد بن محمد بن القاسم بن أبي بزة سمعت هكريمة بن سليمان يقول قرأت على إسماعيل ابن عبد الله بن قسطنطين ، فلما بلغت « والضحى » قال لي كبر عند خاتمة كل سورة حتى تختم ، فلما قرأت على عبد الله بن كثير فلما بلغت « والضحى » قال كبر حتى تختم . وأخبره عبد الله ابن كثير أنه قرأ على مجاهد ، وأخبره مجاهد أن ابن عباس أمره بذلك ، وأخبره ابن عباس أن أبي بن كعب أمره بذلك ، وأخبره أبي بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره بذلك . هذا حديث صحيح ولم يخرجاه .

سورة « ألم نشرح »
مكية في قول الجميع . وهي ثمانى آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾

شَرَحُ الصَّدر : فتحه ؛ أى ألم نفتح صدرك للإسلام . وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : ألم نُملِّينَ لك قلبك . وروى الضَّحَّاك عن ابن عباس قال : قالوا يا رسول الله ، أينشرح الصدر ؟ قال : « نعم وينفسح » قالوا : يا رسول الله ، وهل لذلك علامة ؟ قال : « نعم التَّجَافَى عن دار الغرور والإِنَابَةُ إلى دار الخلود والاعتدَاد للموت قبل نزول الموت » . وقد مضى هذا المعنى فى « الزمر »^(١) عند قوله تعالى : « أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ » . وروى عن الحسن قال : « ألم نشرح لك صدرك » قال : ملئ حكماً وعلماً . وفى الصحيح عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة - رجلٍ من قومه - أن النبىَّ صلى الله عليه وسلم قال : «فبينما أنا عند البيت بين النَّائم واليقظان إذ سمعتُ قائلاً يقول أحدُ الثلاثة فأتيتُ بطستٍ من ذهب فيها ماء زمزم فشرح صدرى إلى كذا وكذا» قال قتادة قلت : ما يعنى ؟ قال : إلى أسفل بطنى ، قال : «فأستخرج قلبى فغسل قلبى بماء زمزم ثم أعيد مكانه ثم حشيتُ إيماناً وحكمة» . وفى الحديث قصة . وروى عن النبىَّ صلى الله عليه وسلم قال : «جاءنى ملكان فى صورة طائرٍ معهما ماء وثلج فشرح أحدهما صدرى وفتح الآخر بمنقاره فيه فغسله» .

(١) راجع ج ١٥ ص ٢٤٧ (٢) وهذه رواية الترمذى فى كتاب التفسير . (٣) فى صحيح مسلم : «أحد الثلاثة بين الرجلين» روى أنه صلى الله عليه وسلم كان نائماً معه حينئذ عمه حمزة بن عبد المطلب وابن عمه جعفر ابن أبى طالب . راجع شرح هذا الحديث فى صحيح مسلم (باب الاسراء) . وفى شرح القسطلانى فى كتاب بدء الخلق (باب ذكر الملائكة) .

وفي حديث آخر قال : « جاءني ملك فشق عن قلبي فاستخرج منه عذرة ^(١) وقال قلبك وكيع وعينك بصيرتان وأذناك سميعتان أنت محمد رسول الله لسانك صادق ونفسك مطمئنة وخلقك قثم وأنت قيم ». قال أهل اللغة : قوله « وكيع » أى يحفظ ما يوضع فيه . يقال : سقاء وكيع ؛ أى قوى يحفظ ما يوضع فيه . وأستوكعت معدته أى قويت . وقوله « قثم » أى جامع . يقال : رجل قثوم للخير ؛ أى جامع له . ومعنى « ألم نشرح » قد شرحنا ؛ الدليل على ذلك قوله فى النَّسَقِ عليه : « وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ » فهذا سلف على التأويل لا على التنزيل ؛ لأنه لو كان على التنزيل لقال : ونضع عنك وزرك . فدل هذا على أن معنى « ألم نشرح » قد شرحنا . و « لم » بجمد وفى الاستفهام طرف من الجحد ، وإذا وقع جحد على جحد رجع إلى التحقيق ؛ كقوله تعالى : « أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ » ^(٢) ومعناه : الله أحكم الحاكمين . وكذا « أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ » ^(٣) . ومثله قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان :

أستم خير من ركب المطايا * وأندى العالمين بطون راج

المعنى : أتم كذا .

قوله تعالى : وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ﴿٤﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ﴾ أى حططنا عنك ذنبك . وقرأ أنس « وحلطنا وحططنا » . وقرأ ابن مسعود « وحلطنا عنك وقرك » . هذه الآية مثل قوله تعالى : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » ^(٤) . قيل : الجميع كان قبل النبوة . والوزر : الذنب ؛ أى وضعنا عنك ما كنت فيه من أمر الجاهلية ؛ لأنه كان صلى الله عليه وسلم فى كثير من مذاهب قومه ، وإن لم يكن عبد صنماً ولا وثناً . قال قتادة والحسن والضحاك : كانت للنبي صلى الله عليه وسلم ذنوب أثقلته ؛ فغفرها الله له . ﴿ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ أى أثقله حتى سُمِعَ

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل . وفى بعضها الآخر : « غدرة » بالعين المعجمة والداد المهملة . ولم نقف على هذا

اللفظ لغير القرطبي . (٢) آية ٨ سورة النين . (٣) آية ٣٦ سورة الزمر . (٤) آية ٢ سورة الفتح .

نقيضه؛ أي صوته . وأهل اللغة يقولون : أنقض الحمل ظهر الناقة إذا سمعت له صرياً من شدة الحمل . وكذلك سمعت نقيض الزحل ؛ أي صريه . قال جميل :

وحتى تداعت بالنقيض حباله * وهمت بواني زوره أن تحطما

« بواني زوره » أي أصول صدره . فالوزر : الحمل الثقيل . قال المحاسبي : يعني ثقل الوزر لولم يعف الله عنه . (الذي أنقض ظهرك) أي أثقله وأوهنه . قال : وإنما وصفت ذنوب الأنبياء بهذا الثقل مع كونها مغفورة ، لشدة اهتمامهم بها ، وندمهم منها ، وتحسرهم عليها . وقال السدي : « ووضعتنا عنك وزرك » أي وحططنا عنك ثقلك . وهي في قراءة عبد الله بن مسعود « وحططنا عنك وقرك » . وقيل : أي حططنا عنك ثقل آثام الجاهلية . قال الحسين ابن الفضل : يعني الخطأ والسوء . وقيل : ذنوب أمتك ، أضافها إليه لاشتغال قلبه بها . وقال عبد العزيز بن يحيى وأبو عبيدة : خففنا عنك أعباء النبوة والقيام بها حتى لا تتقل عليك . وقيل : كان في الأبتداء يثقل عليه الوحي حتى كاد يرمى نفسه من شاهق الجبل ، إلى أن جاءه جبريل وأراه نفسه ؛ وأزيل عنه ما كان يخاف من تغير العقل . وقيل : عصمناك عن احتمال الوزر ، وحفظناك قبل النبوة في الأربعين من الأدناس ؛ حتى نزل عليك الوحي وأنت مطهر من الأدناس .

قوله تعالى : وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿١٠٦﴾

قال مجاهد : يعني بالتأذين . وفيه يقول حسان بن ثابت :

أَعْرُ عَلَيْهِ لِلنَّبِوَةِ خَاتَمٌ * من الله مشهودٌ يلوح ويُشهِدُ
وَضَمَّ الإلهُ أَسْمَ النَّبِيِّ إِلَى أَسْمِهِ * إذا قال في الخمس المؤذنين أشهدُ

وروي عن الضحاك عن ابن عباس قال : يقول له لا ذكرك إلا ذكرت معي في الأذان والإقامة والتشهد ، ويوم الجمعة على المنابر ، ويوم الفطر ، ويوم الأضحى ، وأيام التشريق ،

(١) في شواذ ابن خالويه : « وحططنا عنك وزرك » عن أنس بن مالك . « وحللنا وحططنا » جميعاً

وعن ابن مسعود .

ويوم عرفة ، وعند الجمار ، وعلى الصفا والمروة ، وفي خطبة النكاح ، وفي مشارق الأرض ومغاربها . ولو أن رجلاً عبد الله جل ثناؤه وصدق بالجنة والنار وكل شيء ، ولم يشهد أن محمداً رسول الله لم ينتفع بشيء ، وكان كافراً . وقيل : أي أعلينا ذكرك فذكرناك في الكتب المنزلة على الأنبياء قبلك ، وأمرناهم بالبشارة بك ، ولادين إلا ودينك يظهر عليه . وقيل : رفعنا ذكرك عند الملائكة في السماء ، وفي الأرض عند المؤمنين ، ورفع في الآخرة ذكرك بما نعطيك من المقام المحمود وكرائم الدرجات .

قوله تعالى : فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦٦﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦٧﴾

أي إن مع الضيقة والشدة يسراً ، أي سعةً وغنى . ثم كرر فقال : ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ فقال قوم : هذا التكرير تأكيد للكلام ، كما يقال : أرم أرم ، انجل انجل ، قال الله تعالى : « كَلَّا سَوْفَ يَعْلَمُونَ ^(١) . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ يَعْلَمُونَ » . ونظيره في تكرار الجواب : بلى بلى ، لا لا . وذلك للإطناب والمبالغة ، قاله الفراء . ومنه قول الشاعر :

هَمَمْتُ بِنَفْسِي بَعْضَ الْهَمُومِ * فَأَوْلَى لِنَفْسِي أَوْلَى لَهَا ^(٢)

وقال قوم : إن من عادة العرب إذا ذكروا اسماً معترفاً ثم كترروه فهو هو . وإذا نكروه ثم كترروه فهو غيره . وهما أثنان ليكون أقوى للأمل وأبعث على الصبر ، قاله ثعلب . وقال ابن عباس : يقول الله تعالى خلقت عسراً واحداً ، وخلقت يسرين ، ولن يغلب عسريسرين . وجاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه السورة أنه قال : « لَنْ يَغْلِبَ عُسْرِيَسْرِينَ ^(٣) » . وقال ابن مسعود : والذي نفسي بيده لو كان العسر في حجر لطلبه اليسر حتى يدخل عليه ، ولن يغلب عسريسرين . وكتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعاً من الروم وما يتخوف منهم ، فكتب إليه عمر رضي الله عنهما : أما بعد ، فإنه مهما يتزل بعبد مؤمن من منزل شدة يجعل الله بعده فرجاً ، وإنه لن يغلب عسريسرين ، وإن الله تعالى يقول في كتابه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا

(١) آية ٣ سورة ألقم . (٢) البيت للخنساء . ويرى : * همت بنفسي كل هموم *

(٣) أي في روايته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ^(١) . وقال قوم منهم الجُرْجَانِيّ : هذا قول مدخول ؛ لأنه يجب على هذا التدرّيج إذا قال الرجل : إن مع الفارس سيفًا ، إن مع الفارس سيفًا ، أن يكون الفارس واحدًا والسيف اثنان . والصحيح أن يقال : إن الله بعث نبيّه مهدياً صلى الله عليه وسلم مُقَلِّلاً مُخَفِّفًا فَعَبْرَهُ الْمُشْرِكُونَ بِفَقْرِهِ حَتَّى قَالُوا لَهُ : نَجْمٌ لَكَ مَالًا ، فَاغْتَمَ وَظَنَّ أَنَّهُمْ كَذَبُوهُ لِفَقْرِهِ ؛ فَعَزَّاهُ اللَّهُ وَعَدَّدَ نِعْمَهُ عَلَيْهِ ، ووعدّه الغنى بقوله : « فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » أى لا يُحْزِنُكَ مَا عَيَّرُوكَ بِهِ مِنَ الْفَقْرِ ؛ فَإِنَّ مَعَ ذَلِكَ الْعُسْرِ يُسْرًا عَاجِلًا ؛ أى فى الدنيا . فأنجز له ما وعده . فلم يمت حتى فتح عليه الحجاز واليمن ، ووسّع ذات يده حتى كان يعطى الرجل المائتين من الإبل ، ويهب الهبات السنية ، ويُعيد لأهله قُوتَ سَنَةٍ . فهذا الفضل كله من أمر الدنيا ؛ وإن كان خاصًا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم فقد يدخل فيه بعضُ أمته إن شاء الله تعالى . ثم ابتداء فضلًا آخر من أمر الآخرة وفيه تأسية وتعزية له صلى الله عليه وسلم فقال مبتدئًا : « إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » فهو شىء آخر . والدليل على ابتداءه تعزيته من فاء أو واو أو غيرهما من حروف الذسق التي تدل على العطف . فهذا وعدٌ عام لجميع المؤمنين لا يخرج أحد منه ؛ أى إن مع العسر فى الدنيا للمؤمنين يُسرًا فى الآخرة لا محالة . وربما آجتمعت يُسر الدنيا ويُسْر الآخرة . والذي فى الخبر : « لَنْ يَغْلِبَ عُسْرُ يُسْرَيْنِ » يعنى العسر الواحد لن يغلبهما ، وإنما يغلب أحدهما إن غلب وهو يسر الدنيا ؛ فأما يُسر الآخرة فكائن لا محالة ولن يغلبه شىء . أو يقال : « إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ » وهو إخراج أهل مكة النبيّ صلى الله عليه وسلم من مكة « يُسْرًا » وهو دخوله يوم فتح مكة مع عشرة آلاف رجل مع عزّ وشرف .

قوله تعالى : فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : (فَإِذَا فَرَغْتَ) قال ابن عباس وقتادة : فإذا فرغت من صلاتك

(فَإِنْصَبْ) أى بالغ فى الدعاء وسلّم حاجتك . وقال ابن مسعود : إذا فرغت من الفرائض

(١) آخر سورة آل عمران .

فانصَبَ في قيام الليل . وقال الكلبي : إذا فرغت من تبليغ الرسالة « فانصَبَ » أي استغفر
لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات . وقال الحسن وقتادة أيضا : إذا فرغت من جهاد عدوك
فانصَبَ لعبادة ربك . وعن مجاهد : « فإذا فرغت » من دنياك « فانصَبَ » في صلاتك .
ونحوه عن الحسن . وقال الجنيدي : إذا فرغت من أمر الخلق فاجتهد في عبادة الحق . قال
ابن العربي : « ومن المبتدعة من قرأ هذه الآية « فانصَبَ » بكسر الصاد والهمز في أوله ،
وقالوا : معناه أنصب الإمام الذي تستخلفه . وهذا باطل في القراءة باطل في المعنى ؛ لأن
النبي صلى الله عليه وسلم لم يستخلف أحدا . وقرأها بعض الجهال « فانصَبَ » بتشديد الباء ،
معناه إذا فرغت من الجهاد فجئت في الرجوع إلى بلدك . وهذا باطل - أيضا - قراءة مخالفة
الإجماع لكن معناه صحيح ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « السفر قطعة من العذاب يمنع أحدم
نومه وطعامه وشرابه فإذا قضى أحدم نهمته فليعجل الرجوع إلى أهله » . وأشد الناس عذابا
وأسوأهم مباءً ومآبا من أخذ معنى صحيحا فركب عليه من قبل نفسه قراءة أو حديثا فيكون
كاذبا على الله كاذبا على رسوله ؛ ومن أظلم ممن آفترى على الله كذبا » . قال المهدوي :
وروى عن أبي جعفر المنصور أنه قرأ « ألم نشرح لك صدرك » بفتح الحاء ؛ وهو بعيد ، وقد
يُؤوَل على تقدير النون الخفيفة ، ثم أبدلت النون ألما في الوقف ، ثم حمل الوصل على الوقف
ثم حذفت الألف . وأنشد عليه :

اَضْرَبَ عَنْكَ الِهُمُومَ طَارِقَهَا * ضَرَبَكَ بِالسُّوْطِ قَوْنَسَ الْفَرَسِ^(١)

أراد : اضربن . وروى عن أبي السَّمال « فإذا فرغت » بكسر الراء ، وهي لغة فيه .
وقرئ « فرغب » أي فرغب الناس إلى ما عنده .

الثانية - قال ابن العربي : « روى عن شريح أنه مرَّ بقوم يلعبون يوم عيد فقال
ما بهذا أمر الشارع . وفيه نظر ، فإن الحبش كانوا يلعبون بالدرق والحراب في المسجد يوم

(١) قونس الفرس : ما بين أذنيه . وقبل مقدم رأسه . والبيت لطرفة ، ويقال إنه مصنوع عليه .

العيد والنبي صلى الله عليه وسلم ينظر . ودخل أبو بكر في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على عائشة رضي الله عنها وعندها جاريتان من جواري الأنصار تُغَنِّيَانِ ؛ فقال أبو بكر: أئبزمور الشيطان في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: «دَعُهُمَا يَا أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّهُ يَوْمَ عِيدٍ». وليس يلزم الذئوب على العمل بل هو مكروه للخلق» .

تفسير سورة « والتين »

مكية في قول الأكثر . وقال ابن عباس وقتادة : هي مدنية ، وهي ثمانى آيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ) قال ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وإبراهيم النخعي وعطاء بن أبي رباح وجابر بن زيد ومقاتل والكلبي : هو تينكم الذي تأكلون ، وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت ؛ قال الله تعالى : « وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سِينَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَنِيعٌ لِلآكِلِينَ » . وقال أبو ذر: أهدى للنبي صلى الله عليه وسلم سل من تين ؛ فقال : « كلوا » وأكل منه . ثم قال : « لو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه لأن فاكهة الجنة بلا عجم فكلوها فإنها تقطع البواسير وتنفع من النقرس » . وعن معاذ أنه أستاذك بقضيب زيتون وقال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « نِعِمَّ السَّوَاكُ الزَّيْتُونُ مِنَ الشَّجَرَةِ الْمُبَارَكَةِ يُطِيبُ الْفَمَ وَيُذْهِبُ بِالْحَقْفَرِ وَهِيَ سِوَاكِي وَسِوَاكُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي » . وروى عن ابن عباس أيضا : التين مسجد نوح عليه السلام الذي بُنِيَ عَلَى الْجُودِيِّ ، والزيتون مسجد

(١) آية ٣٠ سورة المؤمنون . (٢) العجم (بالتحريك) : النوى .

(٣) الحفر (بفتح الحاء وسكون الفاء وفتحها) : صفرة تعلو الأسنان .

بيت المقدس . وقال الضحاك : التين المسجد الحرام ، والزيتون المسجد الأقصى . ابن زيد :
 التين مسجد دمشق ، والزيتون مسجد بيت المقدس . قتادة : التين الجبل الذي عليه دمشق ،
 والزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس . وقال محمد بن كعب : التين مسجد أصحاب
 الكهف ، والزيتون مسجد إيلياء . وقال كعب الأحبار وقتادة أيضا وعكرمة وابن زيد : التين
 دمشق ، والزيتون بيت المقدس . وهذا اختيار الطبري . وقال الفراء : سمعت رجلا من
 أهل الشام يقول : التين جبال ما بين حلوان إلى همدان ، والزيتون جبال الشام . وقيل :
 هما جبلان بالشام ، يقال لهما طور زيتا وطور تينا (بالسريانية) سُمِّيَا بذلك لأنهما يُنبتانِهما .
 وكذا روى أبو مكي عن عكرمة قال : التين والزيتون جبلان بالشام . وقال [النابغة] :

* ... أَتَيْنَ التَّيْنَ عَنْ عَرْضِ^(١) *
 * ... أَتَيْنَ التَّيْنَ عَنْ عَرْضِ^(١) *

وهذا أسم موضع . ويجوز أن يكون ذلك على حذف مضاف ؛ أي ومنابت التين والزيتون .
 ولكن لا دليل على ذلك من ظاهر التنزيل ولا من قول من لا يجوز خلافه ؛ قاله النحاس .

الثانية – أصح هذه الأقوال الأول ؛ لأنه الحقيقة ولا يُعدّل عن الحقيقة إلى المجاز
 إلا بدليل . وإنما أقسم الله بالتين لأنه كان ستر آدم في الجنة ؛ لقوله تعالى : « يَخْضِفَانِ
 عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ^(٢) » وكان ورق التين . وقيل : أقسم به ليبين وجه المنّة العظمى فيه ؛
 فإنه جميل المنظر ، طيب الخبر ، نثر الرائحة ، سهل الجنى ، على قدر المضغمة . وقد أحسن
 القائل فيه :

انظر إلى التين في الغصون ضحى * ممزق الجلد مائل العنق
 كأنه ربّ نعمة سلبت * فعاد بعد الحديد في الخلق
 أصغر ما في النهود أكبره * لكن يُنادى عليه في الطرق

(١) البيت بتمامه كما في آاب الملاحن لابن دريد وشعراء النصرانية :

صهب الظلال أتين التين عن عرض * يزجين غيا قليلا ماؤه شبا

والصهب والصبية : الحمرة . والعرض : الاعتراض ، أو الجانب . يزجين : يسقن . والشيم : البارد . والبيت
 في وصف صحاب لا ماء فيها . وقد نسبة المؤلف لزهير . (٢) آية ٢٢ سورة الأعراف .

وقال آخر :

التين يعدل عندي كل فاكهة * إذا أنثى مائلا في غصنه الزاهي

مخمش الوجه قد سالت حلاوته * كأنه راكم من خشية الله

وأقسم بالزيتون لأنه مثل به إبراهيم في قوله تعالى : « يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ^(١) » .

وهو أكثر آدم أهل الشام والمغرب ؛ يصطبغون به ويستعملونه في طبيخهم ، ويستصبجون

به ، ويداوي به أدواء الجوف والقروح والجراحات ، وفيه منافع كثيرة . وقال عليه السلام :

« كلوا الزيت وأدهنوا به فإنه من شجرة مباركة » . وقد مضى في سورة « المؤمنون » القول فيه ^(٢) .

الثالثة - قال ابن العربي : ولأمتان البارئ سبحانه وتعظيم المنة في التين ، وأنه

مقتات مذخر [فلذلك] قلنا بوجوب الزكاة فيه . وإنما فتر كثير من العلماء من التصريح بوجوب

الزكاة فيه تقيّة جور الولاية ؛ فإنهم يتعاملون في الأموال الزكائية فيأخذونها مغرما حسب ما

أنذر به الصادق صلى الله عليه وسلم . ففكر العلماء أن يجعلوا لهم سبيلا إلى مال أحد

يتشظون فيه ، ولكن ينبغي للمرء أن يخرج عن نعمة ربه بأداء حقه . وقد قال الشافعي لهذه

العلة وغيرها : لا زكاة في الزيتون . والصحيح وجوب الزكاة فيهما ^(٥) .

قوله تعالى : وَطُورِ سَيْنِينَ ﴿٢٦٣﴾

روى ابن أبي نجیح عن مجاهد « وطور » قال : جبل . « سينين » قال : مبارك (بالسر يانية) .

وعن عكرمة عن ابن عباس قال : « طور » جبل ، و« سينين » حسن . وقال قتادة : سينين

هو المبارك الحسن . وعن عكرمة قال : الجبل الذي نادى الله جل ثناؤه منه موسى عليه السلام .

وقال مقاتل والكلبي : « سينين » كل جبل فيه شجر مُثمر فهو سينين وسيناء ؛ بلغة النبط .

وعن عمرو بن ميمون قال : صليت مع عمر بن الخطاب العشاء بمكة فقرأ « والتين والزيتون .

(١) آية ٣٥ سورة النور . راجع ج ١٢ ص ٢٦٣ . (٢) أي يأتدون به .

(٣) راجع ج ١٢ ص ١١٦ . (٤) زيادة عن ابن العربي .

(٥) في نسخ الأصل : « فيها » .

وطور سيناء . وهذا البلد الأمين» قال : وهكذا هي في قراءة عبد الله ؛ ورفع صوته تعظيماً للبيت . وقرأ في الركعة الثانية : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَّ رَبُّكَ » و « لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ » جمع بينهما ؛ ذكره ابن الأنباري . النحاس : وفي قراءة عبد الله « سيناء » (بكسر السين) ، وفي حديث عمرو بن ميمون عن عمر (بفتح السين) . وقال الأخفش : « طور » جبل . و « سينين » شجر ، واحده سينينية . وقال أبو علي : « سينين » فعليل ، فكررت اللام التي هي نون فيه كما كررت في زحليل للمكان الزليق ، وكرديدة للقطعة من التمر ، وخنذيد للطويل . ولم ينصرف « سينين » كما لم ينصرف سيناء ؛ لأنه جعل اسماً لبقعة أو أرض ، ولو جعل اسماً للمكان أو للمنزل أو اسم مذكر لانصرف ؛ لأنك سميت مذكراً بمدًّ كَر . وإنما أقسم بهذا الجبل لأنه بالشأم والأرض المقدسة ، وقد بارك الله فيهما ؛ كما قال : « إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ » .

قوله تعالى : وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣٠﴾

يعنى مكة . سماه آمينا لأنه آمن ؛ كما قال : « أَنَا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا » ^(١) فالأمين بمعنى الآمن ؛ قاله الفراء وغيره . قال الشاعر :

ألم تعلمي يا أسم و يحك أني * حلفت يمينا لا أخون أميني

يعنى آمنى . وبهذا احتج من قال : إنه أراد بالتين دمشق ، وبالزيتون بيت المقدس . فأقسم الله بجبل دمشق لأنه مأوى عيسى عليه السلام ، وبجبل بيت المقدس لأنه مقام الأنبياء عليهم السلام ، وبمكة لأنها أثر إبراهيم ودار محمد صلى الله عليهما وسلم .

قوله تعالى : لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٤١﴾
فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ هذا جواب القسم ، وأراد بالإنسان الكافر . قيل : هو الوليد بن المغيرة . وقيل : كَلْدَة بن أسيد . فعلى هذا نزلت في منكرى

(١) آية ٦٧ سورة العنكبوت .

البعث . وقيل : المراد بالإنسان آدمُ وذريته . (في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) وهو اعتداله واستواء شبابه ؛ كذا قال عامة المفسرين . وهو أحسن ما يكون ؛ لأنه خلق كلَّ شيء مُنْجَبًا على وجهه ، وخالقه هو مُسْتَوِيًّا ، وله لسان ذلق ، ويد وأصابع يقبض بها . وقال أبو بكر بن طاهر : مَزِينًا بالعقل ، مؤدبًا للأمر ، مهذبًا بالتمييز ، مديد القامة ؛ يتناول ما كوله بيده . ابن العربي : « ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان ، فإن الله خلقه حيًّا عالمًا ، قادرًا مريدًا متكلمًا ، سمعًا بصيرًا ، مدبرًا حكيمًا . وهذه صفات الرب سبحانه ، وعنَّا عبر بعض العلماء ووقع البيان بقوله : » إن الله خلق آدم على صورته « يعني على صفاته التي قدمنا ذكرها . وفي رواية » على صورة الرحمن « ومن أين تكون للرحمن صورة متشخصة ، فلم يبق إلا أن تكون معاني . » وقد أخبرنا المبارك بن عبد الجبار الأزدي قال : أخبرنا القاضي أبو القاسم علي بن أبي علي القاضي المحسن عن أبيه قال : كان عيسى بن موسى الهاشمي يُحِبُّ زوجته حبًّا شديدًا فقال لها يوما : أنت طالق ثلاثا إن لم تكوني أحسن من القمر ؛ فهضت واحتجبت عنه وقالت : طَلَّقْتَنِي ! . وبات ليلة عظيمة ، فلما أصبح غدا إلى دار المنصور فأخبره الخبر ، وأظهر للمنصور جزعا عظيما ؛ فاستحضر الفقهاء واستفتاهم . فقال جميع من حضر : قد طَلَّقْت ؛ إلا رجلا واحدا من أصحاب أبي حنيفة فإنه كان ساكنا . فقال له المنصور : مالك لا تتكلم ؟ فقال له الرجل : بسم الله الرحمن الرحيم « والتين والزيتون . وطور سينين . وهذا البلد الأمين . لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » يا أمير المؤمنين ، فالإنسان أحسن الأشياء ، ولا شيء أحسن منه . فقال المنصور لعيسى بن موسى : الأمر كما قال الرجل ، فأقبل على زوجته . وأرسل أبو جعفر المنصور إلى زوجة الرجل : أن أطيبي زوجك ولا تعصيه ، فاطلقتك . فهذا يدل على أن الإنسان أحسن خلق الله باطنا وظاهرا ، جمال هيئة ، وبديع تركيب : الرأس بما فيه ، والصدر بما جمعه ، والبطن بما حواه ، والفرج وما طواه ، واليدان وما بطشتاه ، والرجلان وما احتملتاه . ولذلك قالت الفلاسفة : إنه العالم الأصغر ؛ إذ كل ما في المخلوقات جمع فيه .

(١) في بعض نسخ الأصل وابن العربي : « أجمع فيه » .

الثانية - قوله تعالى : (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ) أى إلى أَرذل العمر، وهو الهرم بعد الشباب، والضعف بعد القوة، حتى يصير كالصبي في الحال الأول، قاله الضحاك والكوفي وغيرهما. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد « ثم رددناه أسفل سافلين » إلى النار، يعنى الكافر، وقاله أبو العالبة . وقيل : لما وصفه الله بتلك الصفات الجليلة التى ركب الإنسان عليها طنى وعلا ، حتى قال : « أنا ربكم الأعلى ^(١) » وحين علم الله هذا من عبده ، وقضاؤه صادر من عنده ، رده أسفل سافلين ؛ بأن جعله مملوا قَدْرًا ، مشحونًا نجاسة ، وأخرجها على ظاهره إخراجا منكرا، على وجه الاختيار تارة، وعلى وجه الغلبة أخرى، حتى إذا شاهد ذلك من أمره رجع إلى قدره . وقرا عبد الله « أسفل السافلين » . وقال : « أسفل سافلين » على الجمع ؛ لأن الإنسان فى معنى جمع، ولو قال : أسفل سافل جاز ؛ لأن لفظ الإنسان واحد . وقول : هذا أفضل قائم . ولا تقول أفضل قائمين ؛ لأنك تضمير لواحد فإن كان الواحد غير مضموره رجع اسمه بالتوحيد والجمع ؛ كقوله تعالى : « وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ^(٢) » وقوله تعالى : « وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ ^(٣) » . وقد قيل : إن معنى « رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ » أى رددناه إلى الضلال ؛ كما قال تعالى : « إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » أى إلا هؤلاء فلا يردون إلى ذلك . والاستثناء على قول من قال « أسفل سافلين » : النار، متصل . ومن قال : إنه الهرم فهو منقطع .

قوله تعالى : إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ

غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝

قوله تعالى : (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) فإنه تكتب لهم حسناتهم ، ويُحْتَسَبُ عنهم سيئاتهم ؛ قاله ابن عباس . قال : وهم الذين أدركهم الكبر لا يؤخذون بما عملوه فى كبرهم .

(١) آية ٢٤ سورة النازعات . (٢) آية ٣٣ سورة الزمر . (٣) آية ٤٨ سورة الشورى .

وروى الضحاك عنه قال : إذا كان العبد في شبابه كثير الصلاة كثير الصيام والصدقة ، ثم ضعف عما كان يعمل في شبابه ، أجرى الله عز وجل له ما كان يعمل في شبابه . وفي الحديث قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا سافر العبد أو مرض كتب الله له مثل ما كان يعمل مقبياً صحياً " . وقيل : « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » فإنه لا يحرف ولا يهرم^(١) ، ولا يذهب عقل من كان عالماً عاملاً به . وعن عاصم الأحول عن عكرمة قال : من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر . وروى عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " طوبى لمن طال عمره وحسن عمله " . وروى أن العبد المؤمن إذا مات أمر الله ملكه^(٢) أن يتعبدا على قبره إلى يوم القيامة ويكتب له ذلك .

قوله تعالى : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ قال الضحاك : أجر بغير عمل . وقيل غير مقطوع .

قوله تعالى : ﴿ مَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ ﴾

قيل : الخطاب للكافر ؛ توبيخاً وإلزاماً للحجة . أى إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك في أحسن تقويم ، وأنه يردك إلى أرذل العمر ، وينقلك من حال إلى حال ؛ فما يملك على أن تكذب بالبعث والجزاء وقد أخبرك محمد صلى الله عليه وسلم به . وقيل : الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ أى استيقن مع ما جاءك من الله عز وجل أنه أحكم الحاكمين . روى معناه عن قتادة . وقال قتادة أيضاً والفراء : المعنى فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا البيان بالدين . واختاره الطبرى . كأنه قال : فمن يقدر على ذلك ؛ أى على تكذيبك بالثواب والعقاب بعد ما ظهر من قدرتنا على خلق الإنسان والدين والجزاء . قال الشاعر :

دنى تيمياً كما كانت أوائلنا * دنت أوائلهم في سالف الزمن

(١) في حاشية الجمل نقلاً عن القرطبي : « فإنهم لا يخرفون ولا تذهب عقولهم » .

(٢) في بعض نسخ الأصل : « ملائكة » وفي بعضها : « ملائكة » .

قوله تعالى : أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

أى أتقن الحاكم صنعا في كل ما خلق . وقيل : « بأحكم الحاكمين » قضاءً بالحق ، وعدلاً بين الخلق . وفيه تقدير لمن اعترف من الكفار بصانع قديم . وألف الاستفهام إذا دخلت على النفي وفي الكلام معنى التوقيف صار إيجاباً ، كما قال :

* أستم خير من ركب المطايا *

وقيل : « فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالْدِينِ . أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ » منسوخة بآية السيف . وقيل : هى ثابتة ، لأنه لا تنافي بينهما . وكان ابن عباس وعلی بن أبى طالب رضی الله عنهما إذا قرأ « أليس الله بأحكم الحاكمين » قالوا : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين ؛ فيختار ذلك . والله أعلم . ورواه الترمذی عن أبى هريرة قال : من قرأ سورة « والتين والزيتون » فقرأ « أليس الله بأحكم الحاكمين » فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين . والله أعلم .

سورة « العلق »

وهى مكية بإجماع ، وهى أول ما نزل من القرآن ؛ فى قول أبى موسى وعائشة رضی الله عنهما . وهى تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾

هذه السورة أول ما نزل من القرآن ؛ فى قول معظم المفسرين . نزل بها جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو قائم على حراء ؛ فعلمه خمس آيات من هذه السورة . وقيل : إن أول ما نزل « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » قاله جابر بن عبد الله ؛ وقد تقدم . وقيل : فاتحة الكتاب أول ما نزل ؛ قاله أبو ميسرة الهمداني . وقال علي بن أبى طالب رضی الله عنه : أول ما نزل من القرآن

(١) هو الجريز . وتماه :

* وأندى العالمين بطون راح *

(٢) راجع ج ١٩ ص ٥٨

« قُلْ تَعَالَوْا أَنبَأُكُمْ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ ^(١) وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ . قَالَتْ عَائِشَةُ : أَوَّلُ مَا بَدَأَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرَّؤْيَا الصَّادِقَةَ بِجَاءِهِ الْمَلَكُ فَقَالَ : « أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ » . خَرَجَهُ الْبُخَارِيُّ . وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْهَا قَالَتْ : أَوَّلُ مَا بَدَأَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّادِقَةَ فِي النَّوْمِ ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَاقِ الصَّبْحِ ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ ، فَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ يَتَحَنَّنُ فِيهِ اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ ، [قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ] وَيَتَرَوَّدُ لَذَلِكَ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَرَوَّدُ لِمِثْلِهَا ، حَتَّى يَخْتَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ ، بِجَاءِهِ الْمَلَكُ فَقَالَ : « أَقْرَأْ » : فَقَالَ : « مَا أَنَا بِقَارِئٍ » — قَالَ — فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي « فَقَالَ « أَقْرَأْ » فَقُلْتُ : « مَا أَنَا بِقَارِئٍ » — قَالَ — فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي « فَقَالَ : « أَقْرَأْ » فَقُلْتُ : « مَا أَنَا بِقَارِئٍ » فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّلَاثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي « فَقَالَ : « أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » الْحَدِيثُ بِكَمَالِهِ . وَقَالَ أَبُو رَجَاءٍ الْعَطَارِدِيُّ : وَكَانَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ يَطُوفُ عَلَيْنَا فِي هَذَا الْمَسْجِدِ مَسْجِدِ الْبَصْرَةِ ، فَيُقْعِدُنَا حِلْقًا فَيُقْرِئُنَا الْقُرْآنَ ، فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ بَيْنَ ثَوْبَيْنِ لَهُ أَبْيَضَيْنِ ، وَعَنْهُ أَخَذْتُ هَذِهِ السُّورَةَ : « أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ » . وَكَانَتْ أَوَّلَ سُورَةٍ أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَرَوَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا أَوَّلَ سُورَةٍ أَنْزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ بَعْدَهَا « ن وَالْقَلَمِ » ثُمَّ بَعْدَهَا « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » ثُمَّ بَعْدَهَا « وَالضُّحَى » ذَكَرَهُ الْمَاوَرِدِيُّ . وَعَنْ الزُّهْرِيِّ : أَوَّلُ مَا نَزَلَتْ سُورَةُ « أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ » — إِلَى قَوْلِهِ — مَا لَمْ يَعْلَمْ » فَخَرَزَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَجَعَلَ يَعْزُفُ شَوَاهِقَ الْجِبَالِ ، فَأَتَاهُ جَبْرِئِيلُ فَقَالَ لَهُ : « إِنْكَ نَبِيُّ اللَّهِ » فَجَعَلَ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ وَقَالَ : « دَثَّرُونِي وَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا » فَتَزَلَّ بِهَا

(١) آية ١٥١ سورة الأنعام . (٢) كذا في الأصول ومسلم . وفي البخاري : « الصالحة » .

(٣) يتحنن : أي يتعبد . يقال : فلان يتحنن ؛ أي يفعل فعلا يخرج به من الإيم والخرج .

(٤) زيادة عن الصحيحين . (٥) الغط : العصر الشديد والكبس .

المدثر» . ومعنى « أقرأ باسم رَبِّكَ » أى أقرأ ما أنزل إليك من القرآن مفتتحاً باسم رَبِّكَ ، وهو أن تذكر التسمية فى ابتداء كل سورة . فمحل الباء من « باسم ربك » النَّصْب على الحال . وقيل : الباء بمعنى على ؛ أى أقرأ على أسم ربك . يقال : فعل كذا باسم الله ، وعلى أسم الله . وعلى هذا فالمقروء محذوف ؛ أى أقرأ القرآن وافتتحه باسم الله . وقال قوم : أسم ربك هو القرآن ؛ فهو يقول « أقرأ باسم رَبِّكَ » أى أسم ربك ، والباء زائدة ؛ كقوله تعالى : « تَنْبَتُ بِالدُّهْنِ » وكما قال :

* سُودُ الحَاجِرِ لَا يَقْرَأُ بِالسُّورِ^(١) *

أراد لا يقرآن السور . وقيل : معنى « أقرأ باسم ربك » أى أذكر اسمه . أمره أن يبتدئ القراءة باسم الله .

قوله تعالى : خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾

قوله تعالى : (خَلَقَ الْإِنْسَانَ) يعنى ابن آدم . (مِنْ عَلَقٍ) أى من دَمٍ ؛ جمع عَاقَةٌ ، والعاقَة الدم الحامد ؛ وإذا جرى فهو المسفوح . وقال : « من علق » فذَكَرَهُ بلفظ الجمع ؛ لأنه أراد بالإنسان الجمع ، وكلهم خُلِقُوا من عَلَقٍ بعد النطفة . والعَاقَةُ قِطْعَةٌ من دَمٍ رَطْبٌ ؛ سُمِّيَتْ بذلك لأنها تعلق لرطوبتها بما تتمر عليه ، فإذا جفت لم تكن عَاقَةٌ . قال الشاعر :

تركناه يخر على يديه * يمجج عليهما علق الوتين

وخص الإنسان بالذكر تشريفاً له . وقيل : أراد أن يبين قدر نعمته عليه بأن خلقه من عَاقَةٍ مهينة حتى صار بشراً سويّاً ، وعاقلاً مميّزاً .

قوله تعالى : أقرأ وربك الأكرم ﴿٣﴾

قوله تعالى : (أقرأ) تأكيد ، وتم الكلام ؛ ثم استأنف فقال : (وربك الأكرم) أى الكريم . وقال الكلبي : يعنى الحليم عن جهل العباد فلم يعجل بعقوبتهم . والأول أشبه

(١) هذا مجزئ للراعى ، صدره : * هن الحرائر لاربات أنجرة *

بالمعنى ؛ لأنه لما ذكر ما تقدم من نعمه دلّ بها على كرمه . وقيل : « اقرأ وربك » أى اقرأ يا محمد وربك يُعينك ويفهمك وإن كنت غير القارئ . و « الأكرم » بمعنى المتجاوز عن جهل العباد .

قوله تعالى : الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤٤﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ) يعنى الخطّ والكتابة ؛ أى علم الإنسان الخطّ بالقلم . وروى سعيد عن قتادة قال : القلم نعمة من الله تعالى عظيمة ، لولا ذلك لم يُقَمِّ دين ، ولم يَصْلُحَ عَيْش . فدلّ على كمال كرمه سبحانه بأنه علم عباده ما لم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، ونبّه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو . وما دونت العلوم ولا قيّدت الحِكم ، ولا ضُبطت أخبار الأقران ومقالاتهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة ؛ ولولا هي ما استقامت أمور الدين والدنيا . وسُمِّيَ قَلَمًا لأنه يُقَلَّم ؛ أى يُقَطَّع ، ومنه تقليم الظفر . وقال بعض الشعراء المُحدِّثين يصف القلم :
فكانه والحبر يُخضب رأسه * شيخٌ لوصل نحرٍ يديته يتصنع
ألا ألاحظه بعين جلالته * وبه إلى الله الصحائف ترفع

وعن عبد الله بن عمر قال : يا رسول الله ، أأكتب ما أسمع منك من الحديث ؟ قال :
« نعم فأكتب فإن الله علم بالقلم » . وروى مجاهد عن ابن عمر قال : خلق الله عز وجل أربعة أشياء بيده ثم قال لسائر الحيوان كن فكان : القلم والعرش وجنة عدن وآدم عليه السلام .
وفيمن علمه بالقلم ثلاثة أقاويل : أحدها - أنه آدم عليه السلام ؛ لأنه أول من كتب ؛
قاله كعب الأحمار . الثاني - أنه إدريس ؛ وهو أول من كتب ؛ قاله الضحاك . الثالث :
أنه أدخل كل من كتب بالقلم ؛ لأنه ما علم إلا بتعليم الله سبحانه . وجمع بذلك نعمته عليه
في خلقه ، وبين نعمته عليه في تعليمه ؛ استكمالاً للنعمة عليه .

الثانية - صحَّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة قال: لما خلق الله الخلق كتب في كتابه - فهو عنده فوق العرش - : «إن رحمتي تغلب غضبي». وثبت عنه عليه السلام أنه قال: "أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب فكتب ما يكون إلى يوم القيامة فهو عنده في الذكر فوق عرشه". وفي الصحيح من حديث ابن مسعود سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا مرَّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظّمها ثم يقول يا ربّ أذكر أم أنثى فيقضى ربك ما شاء ويكتب الملك ثم يقول يا ربّ أجله فيقول ربك ما شاء ويكتب الملك ثم يقول يا ربّ رزقه فيقضى ربك ما شاء ويكتب الملك ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص وقال تعالى «إِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ . كِرَامًا كَاتِبِينَ»^(١) .

قال علماءنا : فالأقلام في الأصل ثلاثة : القلم الأوّل - الذي خلقه الله بيده وأمره أن يكتب . والقلم الثاني - أقلام الملائكة جعلها الله بأيديهم يكتبون بها المقادير والكوائن والأعمال . والقلم الثالث - أقلام الناس جعلها الله بأيديهم يكتبون بها كلامهم ، ويصلون بها مآربهم . وفي الكتابة فضائل جمّة . والكتابة من جملة البيان ، والبيان مما آتخص به الآدمي .

الثالثة - قال علماءنا : كانت العرب أقلّ الخلق معرفة بالكتاب ، وأقلّ العرب معرفة به المصطفى صلى الله عليه وسلم ؛ صُرف عن علمه ليكون ذلك أثبت لمعجزته وأقوى في حجته . وقد مضى هذا مبيناً في سورة «العنكبوت» . وروى حماد بن سلمة عن الزبير ابن عبد السلام عن أيوب بن عبد الله الفهري عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَا تُسْكِنُوا نِسَاءَكُمْ الْغُرَفَ وَلَا تَعْلَمُوهُنَّ الْكِتَابَةَ" . قال علماءنا : وإنما حذّرهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك لأن في إسكانهن الغرف تطلّعاً إلى الرجال ؛ وليس في ذلك تحصين لهن ولا تستر . وذلك أنهن لا يملكن أنفسهنّ حتى يشرفن على الرجال ؛ فتحدث الفتنة والبلاء ؛ فحذّرهم أن يجعلوا لهنّ غُرَفًا ؛ ذريعةً إلى الفتنة . وهو كما قال رسول الله

(١) آية ١٠ سورة الانفطار . (٢) راجع ج ١٣ ص ٣٥١

صلى الله عليه وسلم : ” ليس للنساء خير لمن من ألا يراهن الرجال ولا يرين الرجال “ . وذلك أنها خلقت من الرجل ففهمتها في الرجل ، والرجل خلقت فيه الشهوة ، وجعلت سكاكاً له ، فغير مأمون كل واحد منهما في صاحبه . وكذلك تعلم الكتابة ربما كانت سبباً للفتنة . وذلك إذا علمت الكتابة كتبت إلى من تهوى . والكتابة حين من العيون بها يبصر الشاهد الغائب ، والخط هو آثار يده . وفي ذلك تعبير عن الضمير بما لا ينطق به اللسان ، فهو أبلغ من اللسان . فأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينقطع عنهم أسباب الفتنة ؛ تحصيلاً لمن وطهارة لقلوبهم .

قوله تعالى : **عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴿٦٦﴾

قيل : « الإنسان » هنا آدم عليه السلام . علمه أسماء كل شيء ؛ حسب ما جاء به القرآن في قوله تعالى : « وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا » ^(١) . فلم يبق شيء إلا وعلم سبحانه آدم اسمه بكل لغة ، وذكره آدم للملائكة كما علمه . وبذلك ظهر فضله ، وتبين قدره ، وثبتت نبوته ، وقامت حجة الله على الملائكة ومجته ، وأمثلة الملائكة الأمر لما رأت من شرف الحال ، ورأت من جلال القدرة ، وسمعت من عظيم الأمر . ثم توارثت ذلك ذريته خفياً بعد سلف ، وتناقلوه قوماً عن قوم . وقد مضى هذا في سورة « البقرة » مستوفى والحمد لله . وقيل : « الإنسان » هنا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ؛ دليله قوله تعالى : « وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ » ^(٢) . وعلى هذا فالمراد بـ « علمك » المستقبل ؛ فإن هذا من أوائل ما نزل . وقيل : هو عام لقوله تعالى : « وَاللَّهُ أَنْحَرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً » ^(٣) .

قوله تعالى : **كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا** ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : **كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا** ﴿٦٧﴾ إلى آخر السورة . قيل : إنه نزل

(١) آية ٣١ سورة البقرة . (٢) راجع ج ١ ص ٢٧٩ طبعة ثانية . (٣) آية ١١٣ سورة النساء .

(٤) في نسخة : المشكل . (٥) آية ٧٨ سورة النحل .

في أبي جهل . وقيل : نزلت السورة كلها في أبي جهل ؛ نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة ؛ فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يصلى في المسجد ويقرأ باسم الرب . وعلى هذا فليست السورة من أوائل ما نزل . ويجوز أن يكون خمس آيات من أولها أول ما نزلت ، ثم نزلت البقية في شأن أبي جهل ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بضم ذلك إلى أول السورة ؛ لأن تأليف السور جرى بأمر من الله . ألا ترى أن قوله تعالى : « وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ » ^(١) آخر ما نزل ، ثم هو مضموم إلى ما نزل قبله بزمان طويل . و « كَلَّا » بمعنى حقاً ؛ إذ ليس قبله شيء . والإنسان هنا أبو جهل . والطغيان مجاوزة الحد في العصيان . (أَنْ رَأَاهُ) أى لأن رأى نفسه أستغنى ؛ أى صار ذا مال وثروة . وقال ابن عباس في رواية أبي صالح عنه قال : لما نزلت هذه الآية وسمع بها المشركون أتاه أبو جهل فقال : يا محمد تزعم أنه من أستغنى طغى ؛ فاجعل لنا جبال مكة ذهباً لعلنا نأخذ منها فنطغى فندع ديننا وتبوع دينك . قال فاتاه جبريل عليه السلام فقال : « يا محمد خيرهم في ذلك فإن شاءوا فعلنا بهم ما أرادوه فإن لم يُسلموا فعلنا بهم كما فعلنا بأصحاب المائدة » . فعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن القوم لا يقبلون ذلك ؛ فكف عنهم إبقاء عليهم . وقيل : « أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى » بالعشيرة والأنصار والأعوان . وحذف اللام من قوله « أَنْ رَأَاهُ » كما يقال : إنكم لتطغفون إن رأيتم غناكم . وقال الفراء : لم يقل رأى نفسه كما قيل قتل نفسه ؛ لأن رأى من الأفعال التي تريد اسماً وخبراً نحو الظن والحسبان ، فلا يقتصر فيه على مفعول واحد . والعرب تطرح النفس من هذا الجنس تقول : رأيتني وحسبتي ، ومتى نراك خارجاً ، ومتى نظنك خارجاً . وقرأ مجاهد وحמיד وقُبل عن ابن كثير « أن رآه استغنى » بقصر الهمزة . الباقيون « رآه » بمدّها ، وهو الاختيار .

(١) آية ٢٨١ سورة البقرة .

(٢) في نسخة من الأصل : « يقبلون » .

قوله تعالى : إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْحَبُّ ﴿٨﴾

أى مرجع من هذا وصفه فنجازيه . والرجعى والمرجع والرجوع مصادر ؛ يقال : رجع إليه رجوعاً ومرجعاً ، ورجعى ؛ على وزن فُعلى .

قوله تعالى : أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴾ وهو أبو جهل ﴿ عَبْدًا ﴾ وهو محمد صلى الله عليه وسلم . فإن أبا جهل قال : إن رأيت محمداً يصلى لأطأت على عنقه ؛ قاله أبو هريرة . فأنزل الله هذه الآيات تعجباً منه . وقيل : فى الكلام حذف ؛ والمعنى : أمِنَ هذا الناهى عن الصلاة من العقوبة .

قوله تعالى : أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾

أى أرأيت يا أبا جهل إن كان محمداً على هذه الصفة ، أليس ناهيه عن التقوى والصلاة هالكا ؟ !

قوله تعالى : أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾

يعنى أبا جهل كذب بكتاب الله عز وجل ، وأعرض عن الإيمان . وقال الفراء : المعنى « أرأيت الذى ينهى . عبداً إذا صلى » وهو على الهدى وأمر بالتقوى ، والناهى مكذب متول عن الذكر ؛ أى فما أعجب هذا ! ثم يقول : وَيَلَهُ ! ألم يعلم أبو جهل بأن الله يرى ؛ أى يراه ويعلم فعله ؛ فهو تقرير وتوبيخ . وقيل : كل واحد من « أرأيت » بدل من الأول . و « أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى » الخير .

قوله تعالى : كَلَّا لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ

خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾

(١) أى تعجيباً منه ، وهو إيقاع المخاطب وحمله على التعجب (من حاشية الجمل) .

قوله تعالى : (كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ) أي أبو جهل عن أذاك يا محمد . (لَنْسَفَعًا) أي لناخذن (بِالنَّاصِيَةِ) فَلَنْدَلَّنَهُ . وقيل : لناخذن بناصيته يوم القيامة ، وتطوى مع قدميه ويطرح في النار ؛ كما قال تعالى : « فَيُؤَخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ^(١) » . فالآية وإن كانت في أبي جهل فهي عظة للناس ، وتهديد لمن يمتنع أو يمنع غيره عن الطاعة . وأهل اللغة يقولون : سَفَعْتُ بِالشَّيْءِ إِذَا قَبَضْتُ عَلَيْهِ وَجَذَبْتَهُ جَذْبًا شَدِيدًا . ويقال : سَفَعُ بِنَاصِيَةِ فَرَسِهِ . قال : قَوْمٌ إِذَا كَثُرَ الصِّيَاحُ رَأَيْتَهُمْ * من بين ملجَمٍ مُهْرِهِ أَوْ سَافِعٍ ^(٢)

وقيل : هو مأخوذ من سَفَعْتَهُ النار والشمس إذا غَيَّرَتْ وَجْهَهُ إِلَى حَالِ تَسْوِيدٍ ؛ كما قال : أَنَا فِي سَفَعًا فِي مَعْرَسِ مِرْجَلٍ * وَنَوَى بِكُذْمِ الْحَوْضِ أَنْتُمْ خَاشِعٌ ^(٣)

والناصية : شعر مقدم الرأس . وقد يعبر بها عن جملة الإنسان ؛ كما يقال : هذه ناصية مباركة ؛ إشارة إلى جميع الإنسان . وخص الناصية بالذكر على عادة العرب فيمن أرادوا إذلاله وإهانته أخذوا بناصيته . وقال المبرد : السَّفْعُ الْجَذْبُ بِشَدَّةٍ ؛ أي لَنْجَرَتْ بِنَاصِيَتِهِ إِلَى النَّارِ . وقيل : السَّفْعُ الضَرْبُ ؛ أي لَنْطَمَنْ وَجْهَهُ . وكله متقارب المعنى . أي يُجْمَعُ عَلَيْهِ الضَّرْبُ عِنْدَ الْإِخْذِ ؛ ثم يجر إلى جهنم . ثم قال على البدل : (نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ)

(١) آية ٤١ سورة الرحمن . (٢) البيت لحيد بن نور الهلالي الصحابي . ويروى : * ما بين ملجَمٍ ... * (٣) هكذا ورد البيت في جميع نسخ الأصل وتفسير ابن عادل وهو مطلق من قصيدتين . فالشطر الأول من معلقة زهير . والبيت كما في ديوانه ومعلقته :

أَنَا فِي سَفَعًا فِي مَعْرَسِ مِرْجَلٍ * وَنَوَى بِكُذْمِ الْحَوْضِ لَمْ يَنْتَلَمْ

والشطر الثاني من قصيدة للناطقة ، والبيت كما في ديوانه :

رَمَادٌ كَكَحْلِ الْعَيْنِ لِأَيِّ أَيْبِنِهِ * وَنَوَى بِكُذْمِ الْحَوْضِ أَنْتُمْ خَاشِعٌ

والأنتم : المنتم . والخاشع : اللاصق بالأرض . والأنافي : الحجارة التي تجعل عليها القدر ؛ الواحدة أنفية . والسفع : السود . والمعترس : الموضع الذي فيه المرجل . والمرجل : كل قدر يطبخ فيها من حجارة أو حديد أو خزف أو نحاس . والنوى : حاجز يرفع حول البيت من تراب لئلا يدخل البيت الماء من خارج . وكُذْمِ الْحَوْضِ : حرفة وأصله . ولم ينتلم : يعني الثوى قد ذهب أعلاه ولم ينتلم ما بقي منه .

أى ناصية أبى جهل كاذبة فى قولها، خاطئة فى فعلها . والخاطئ معاقب مأخوذ . والمخطئ غير مأخوذ . ^(۱) ووصف الناصية بالكاذبة الخاطئة كوصف الوجوه بالنظر فى قوله تعالى :: « إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ » . ^(۲) وقيل : أى صاحبها كاذب خاطئ ؛ كما يقال : نهار صائم ، وليل قائم ؛ أى هو صائم فى نهاره ، قائم فى ليله .

قوله تعالى : فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : (فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ) أى أهل مجلسه وعشيرته فليستنصر بهم . (سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ) أى الملائكة الغلاظ الشداد - عن ابن عباس وغيره - واحدهم زبني ؛ قاله الكسائى . وقال الأخفش : زابن . أبو عبيدة : زبينة . وقيل : زباني . وقيل : هو أسم للجمع ؛ كالأبائيل والعباديد . وقال قتادة : هم الشرط فى كلام العرب . وهو مأخوذ من الزبن وهو الدفع ؛ ومنه المزبنة فى البيع . وقيل : إنما سُموا الزبانية لأنهم يعملون بأرجلهم كما يعملون بأيديهم ؛ حكاه أبو الليث السمرقندى - رحمه الله - قال : وروى فى الخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه السورة وبلغ إلى قوله تعالى : « لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ » قال أبو جهل : أنا أدعو قومي حتى يمنعوا عنى ربك . فقال الله تعالى : « فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ » فلما سمع ذكر الزبانية رجع قزطاً ؛ فقبل له : خشيت منه ! قال : لا ! ولكن رأيت عنده فارساً فهتدنى بالزبانية ، فما أدرى ما الزبانية ، ومال إلى الفارس فخشيت منه أن يأكلنى . وفى الأخبار أن الزبانية رموسهم فى السماء وأرجلهم فى الأرض ، فهم يدفعون الكفار فى جهنم . وقيل : إنهم أعظم الملائكة خلقاً ، وأشدهم بطشاً . والعرب تطلق هذا الأسم على من أشتد بطشه . قال الشاعر :
مطاعم فى القصوى مطاعين فى الوغى * زبانية ظب عظام حُلومها ^(۴)

(۱) الخاطئ : من تعدد لما لا يبنى ؛ أى القاصد للذنب . والمخطئ : من أراد الصواب فصار إلى غيره .
(۲) آية ۲۳ سورة القيامة . (۳) هى بيع الرطب فى روم النخل بالتمر ؛ ونهى عنها لما يقع فيها من الدين والجهالة . (۴) ظب : جمع أظب ، وهو التليظ الرقة ، والعرب تصف السادة بلفظ الرقة وطولها . والحلوم : جمع الحلم وهو العقل .

وعن عكرمة عن ابن عباس : « سَدَّعُ الزَّبَانِيَّةُ » قال : قال أبو جهل لئن رأيتُ مَجدًا يَصَلِّي لأطآن على عنقه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ” لو فعل لأخذته الملائكة عيانا “ . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب . وروى عكرمة عن ابن عباس قال : مرَّ أبو جهل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي عند المقام فقال : ألم أنك عن هذا يا مجد ! فأغلظ له رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال أبو جهل : بأى شيء تهددني يا مجد ! والله إنى لأكثر أهل الوادى هذا نادياً ؛ فأنزل الله عز وجل : « فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَدَّعُ الزَّبَانِيَّةُ » . قال ابن عباس : والله لو دَعَا نَادِيَهُ لأخذته زبانية العذاب من ساعته . أخرجه الترمذي بمعناه ، وقال : حسن غريب صحيح . والنادى فى كلام العرب : المجلس الذى يَنْتَدِي فيه القوم ؛ أى يجتمعون ، والمراد أهل النادى ؛ كما قال جرير :

* لَمْ يَجْلِسْ صَهْبُ السَّبَالِ إِذْلَةَ^(١) *

وقال زهير :

* وَفِيهِمْ مَقَامَاتُ حِسَانٍ وَجُوهِهِمْ^(٢) *

وقال آخر :

* وَأَسْتَبْ بِعَدِكَ يَا كَلْبُ الْجَلْسِ^(٣) *

وقد ناديتُ الرجل أناديهِ إذا جالسته . قال زهير :

وَجَارُ الْبَيْتِ وَالرَّجُلُ الْمُنَادِي • أَمَامَ الْحَيِّ عَقْدُهُمَا سَوَاءُ

(١) تمامه : * سواسية أحرارها وعبيدها *

والبيت لذي الزئمة لا لجرير . و « صهب » : حمر . و « السبال » : الشعر الذى عن يمين الشفة العليا وشمالها .

(٢) تمام البيت : * وأندية يفتنجاها القول والفعل *

المقامات : المجالس ؛ وإنما سميت المقامات لأن الرجل كان يقوم فى المجلس فيحضر على الخمر ويصلح بين الناس . وأندية : جمع الندى وهو المجلس أيضاً ، وفيه الشاهد .

(٣) هذا مجزيت لمهلل برئ أخاه كلبيا . وصدرة :

* نبئت أن النار بعدك أوقدت *

قوله تعالى : **كَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ** ﴿١٩﴾

(كَلَّا) أى ليس الأمر على ما يظنه أبو جهل . (لَا تُطَعُّهُ) أى فيما دعاك إليه من ترك الصلاة . (وَاسْجُدْ) أى صلِّ لله . (وَاقْتَرِبْ) أى تقرب إلى الله جل ثناؤه بالطاعة والعبادة . وقيل : المعنى إذا سجدت فأقرب من الله بالدعاء . روى عطاء عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أقرب ما يكون العبدُ من ربه وأحبُّه إليه ما كانت جبهته في الأرض ساجدا لله" .

قال علماؤنا : وإنما [كان] ذلك لأنها نهاية العبودية والذلة ؛ والله غاية العزة ، وله العزة التي لا مقدار لها ؛ فكما بعدت من صفته قربت من جنسه ، ودنوت من جواره في داره . وفي الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "أما الركوع فعظموا فيه الرب . وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فإنه قن أن يستجاب لكم" . ولقد أحسن من قال :

وإذا تذلت الرقاب تواضعا * منا إليك فعرها في ذلها

وقال زيد بن أسلم : اسجد أنت يا محمد مصليا ، واقرب أنت يا أبا جهل من النار . قوله تعالى : (وَاسْجُدْ) هذا من السجود . يحتمل أن يكون بمعنى السجود في الصلاة ، ويحتمل أن يكون سجود التلاوة في هذه السورة . قال ابن العربي : «والظاهر أنه سجود الصلاة ؛ لقوله تعالى : «أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى . - إلى قوله - كَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ» لولا ما ثبت في الصحيح من رواية مسلم وغيره من الأئمة عن أبي هريرة أنه قال : سجدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في «إذا السماء أنشقت» وفي «اقرأ باسم ربك الذي خلق» سجدتين ، فكان هذا نصا على أن المراد بسجود التلاوة . وقد روى ابن وهب عن حماد ابن زيد عن عاصم بن بهدلة عن زتر بن حبيش عن علي بن أبي طالب رضی الله عنه قال : عزائم السجود أربع : «الم» و «حم» تنزيل من الرحمن الرحيم «و» «النجم» و «اقرأ»

(١) يقال : قن وقن بفتح الميم وكمرها والذي بالكسر ينني ويجمع كقمنين ؛ أى خليق وجدير .

بِاسْمِ رَبِّكَ» . وقال ابن العربي : « وهذا إن صح يلزم عليه السجود الثاني من سورة « الحج » وإن كان مقترناً بالركوع ؛ لأنه يكون معناه أركعوا في موضع الركوع ، وأسجدوا في موضع السجود» . وقد قال ابن نافع ومطرف : وكان مالك يسجد في خاصة نفسه بخاتمة هذه السورة من « اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ » ، وابن وهب يراها من العزائم .

قلت : وقد رَوَيْنَا من حديث مالك بن أنس عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن نافع عن ابن عمر قال : لما أنزل الله تعالى « اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ » قال رسول الله صلى عليه وسلم لمعاذ : « اكتبها يا معاذ » فأخذ معاذ اللوح والقلم والنون — وهي الدواة — فكتبها معاذ ؛ فلما بلغ « كَلَّا لَا تَطَعُهُ وَأَسْبُجُدْ وَأَقْتَرِبْ » سجد اللوح وسجد القلم وسجدت النون وهم يقولون : اللهم أرفع به ذكراً ، اللهم أحطط به وزيراً ، اللهم اغفر به ذنباً . قال معاذ : سجدت ، وأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسجد .

ختمت السورة . والحمد لله على ما فتح ومنح وأعطى . وله الحمد والمِنَّة .

سورة «القدر»

وهي مدنية في قول أكثر المفسرين ؛ ذكره الثعلبي . وحكى الماوردي عكسه . قلت : وهي مدنية في قول الضحاك وأحد قولي ابن عباس . وذكر الواقدي أنها أول سورة نزلت بالمدينة . وهي خمس آيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿إنا أنزلناه﴾ يعني القرآن وإن لم يجزله ذكر في هذه السورة ؛ لأن المعنى

معلوم ، والقرآن كله كالسورة الواحدة . وقد قال : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن »^(١)

وقال : « حم . وَالكِتَابِ الْمُبِينِ . إنا أنزلناه في ليلة مباركة »^(٢) يريد في ليلة القدر . وقال

(١) آية ١٨٥ سورة البقرة . (٢) أول سورة الدخان .

الشَّعْبِيّ : المعنى إنا ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر . وقيل : بل نزل به جبريل عليه السلام جُمْلَةً واحدة في ليلة القدر من اللّوح المحفوظ إلى سماء الدنيا إلى بيت العزّة ، وأملاه جبريل على السَّفَرَةِ^(١) ثم كان جبريل ينزله على النبيّ صلى الله عليه وسلم نُجُومًا نُجُومًا^(٢) . وكان بين أوله وآخره ثلاث وعشرون سنة ؛ قاله ابن عباس ، وقد تقدّم في سورة « البقرة »^(٣) . وحكى الماورديّ عن ابن عباس قال : نزل القرآن في شهر رمضان ، وفي ليلة القدر ، في ليلة مباركة جملة واحدة من عند الله ، من اللّوح المحفوظ إلى السَّفَرَةِ الكرام الكاتبين في السماء الدنيا ؛ فنجمته السَّفَرَةُ الكرام الكاتبون على جبريل عشرين سنة ، ونجمه جبريل على النبيّ صلى الله عليه وسلم عشرين سنة . قال ابن العربي : « وهذا باطل ؛ ليس بين جبريل وبين الله واسطة ، ولا بين جبريل ومحمد عليهما السلام واسطة » .

قوله تعالى : ﴿ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ قال مجاهد : في ليلة الحكم . ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ قال : ليلة الحكم . والمعنى ليلة التقدير ؛ سُمِّيت بذلك لأن الله تعالى يقدر فيها ما يشاء من أمره إلى مثلها من السنة القابلة ؛ من أمر الموت والأجل والرزق وغيره . ويسلمه إلى مدبرات الأمور ، وهم أربعة من الملائكة : إسرافيل ، ميكائيل ، وعزرائيل ، وجبريل ؛ عليهم السلام . وعن ابن عباس قال : يكتب من أم الكتاب ما يكون في السنة من رزق ومطر وحياة وموت حتى الحاج . قال عكرمة : يكتب حاج بيت الله تعالى في ليلة القدر بأسمائهم وأسماء آبائهم ، ما يغادر منهم أحد ولا يزداد فيهم . وقاله سعيد بن جبیر . وقد مضى في أول سورة « الدخان »^(٤) هذا المعنى . وعن ابن عباس أيضا : أن الله تعالى يقضى الأفضية في ليلة نصف شعبان ، ويسلمها إلى أربابها في ليلة القدر . وقيل : إنما سُمِّيت بذلك لعظمتها وقدرها وشرفها ؛ من قولهم : لفلان قدر ؛ أي شرف ومنزلة . قاله الزُّهْرِيُّ وغيره . وقيل : سُمِّيت بذلك لأن للطاعات فيها قدرا عظيما وثوابا جزيلا . وقال أبو بكر الوراق :

(١) السَّفَرَةُ : هم الملائكة ؛ جمع سافر . والسافر في الأصل الكاتب ؛ سمي به لأنه يبين الشيء ويوضحه .
(٢) بمعنى جزءا جزءا ، الآية والآيتين . (٣) راجع ج ٢ ص ٢٩٧ طبعة ثانية .
(٤) يريد أنه يظهر ما فضاء في الأزل من الأمور ، لأنه يقدر ابتداء . (٥) راجع ج ١٦ ص ١٢٥

سُمِّيَتْ بذلك لأن من لم يكن له قدر ولا خَطَرٌ يصير في هذه الليلة ذا قدر إذا أحيهاها . وقيل :
سُمِّيَتْ بذلك لأنه أنزل فيها كتابا ذا قدر ، على رسول ذي قدر ، على أمة ذات قدر . وقيل :
لأنه ينزل فيها ملائكة ذوو قدر وخطر . وقيل : لأن الله تعالى ينزل فيها الخير والبركة والمغفرة .
وقال سهل : سُمِّيَتْ بذلك لأن الله تعالى قدر فيها الرحمة على المؤمنين . وقال الخليل : لأن
الأرض تضيق فيها بالملائكة ؛ كقوله تعالى : « وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ »^(١) أي ضيق .

قوله تعالى : وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ

مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾

قال الفراء : كل ما في القرآن من قوله تعالى : « وَمَا أَدْرَاكَ » فقد أدراه . وما كان
من قوله : « وما يدريك » فلم يُدِرْه . وقاله سفيان ، وقد تقدم^(٢) . ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ
أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ بين فضلها وعظمتها . وفضيلةُ الزمان إنما تكون بكثرة ما يقع فيه من الفضائل .
وفي تلك الليلة يُقَسَمُ الخير الكثير الذي لا يوجد مثله في ألف شهر . والله أعلم . وقال كثير
من المفسرين : أي العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر . وقال
أبو العالية : ليلة القدر خير من ألف شهر لا تكون فيه ليلة القدر . وقيل : عني بألف
شهر جميع الدهر ؛ لأن العرب تَدْرُكُ الألف في غاية الأشياء ؛ كما قال تعالى : « يَوْمَ أَحَدُهُمْ
لَوْ يَعْمُرُ أَلْفَ سَنَةٍ »^(٣) يعني جميع الدهر . وقيل : إن العابد كان فيما مضى لا يُسَمَّى عابدا
حتى يعبد الله ألف شهر ، ثلاثا وثمانين سنة وأربعة أشهر ؛ فجعل الله تعالى لأمة محمد صلى الله
عليه وسلم عبادة ليلة خيرا من ألف شهر كانوا يعبدونها . وقال أبو بكر الوراق : كان مُلْكُ
سليمان خمسمائة شهر ، ومُلكُ ذي القرنين خمسمائة شهر فصار ملكهما ألف شهر ؛ فجعل الله تعالى
العمل في هذه الليلة لمن أدركها خيرا من ملكهما . وقال ابن مسعود : إن النبي صلى الله

(٢) راجع ج ١٨ ص ٢٥٧ وج ١٩ ص ٢٤٧ وص ٣ من هذا الجزء .

(١) آية ٧ سورة الطلاق .

(٣) آية ٩٦ سورة البقرة .

عليه وسلم ذكر رجلا من بني إسرائيل ليس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فعجب المسلمون من ذلك؛ فنزلت «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ» الآية «خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ» التي ليس فيها الرجل سلاحه في سبيل الله. ونحوه عن ابن عباس. وهب بن منبه: إن ذلك الرجل كان مسلما، وإن أمه جعلته نذرا لله، وكان من قرية قوم يعبدون الأصنام، وكان سكن قريبا منها؛ فجعل يغزوهم وحده ويقتل ويتسبي ويجاهد، وكان لا يلقاهم إلا بلحى^(١) بعير، وكان إذا قاتلهم وقتلوه وعطش انفجر له من الحجيين ماء عذب فيشرب منه، وكان قد أعطى قوة في البطش لا يوجعه حديد ولا غيره، وكان اسمه شمسون. وقال كعب الأحبار: كان رجلا ملكا في بني إسرائيل فعل خصلة واحدة فأوحى الله إلى نبي زمانهم قل لفلان يتمنى. فقال: يا رب أتمنى أن أجاهد بمالى وولدى ونفسي؛ فرزقه الله ألف ولد، فكان يجهز الولد بماله في عسكره ويخرجه مجاهدا في سبيل الله، فيقوم شهرا ويقتل ذلك الولد، ثم يجهز آخر في عسكر، فكان كل ولد يقتل في الشهر، والملك مع ذلك قائم الليل صائم النهار؛ فقتل الألف ولد في ألف شهر، ثم تقدم فقاتل فقتل. فقال الناس: لا أحد يدرك منزلة هذا الملك؛ فانزل الله تعالى: «لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ» من شهر ذلك الملك في القيام والصيام والجهاد بالمال والنفس والأولاد في سبيل الله. وقال علي وعروة: ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أربعة من بني إسرائيل فقال «عبدوا الله ثمانين سنة لم يعصوه طرفة عين»؛ فذكر أيوب وزكريا وحزقييل بن العجوز ويوشع بن نون؛ فعجب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك. فاتاه جبريل فقال: يا محمد عجبك أمتك من عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنة لم يعصوا الله طرفة عين، فقد أنزل الله عليك خيرا من ذلك؛ ثم قرأ «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ». فسرد بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال مالك في الموطأ من رواية ابن القاسم وغيره: سمعت

(١) اللحي (بفتح اللام وتشديد الهاء وسكون الحاء): عظم الحنك، وهو الذي عليه الأسنان. وعبارة الطبرى في تاريخه (طبع أوربا قسم أول ص ٧٩٤): «وكان إذا لقيهم لقيهم بلحى بعير، لا يلقاهم بعيره؛ فإذا قاتلوه وقتلهم، وتعب وعطش انفجر له من الحجر الذي في اللحي ماء عذب... الخ». بأفراد «لحي» في الموضعين.

(٢) كذا في الأصل، والمعروف في العربية أن البصريين قالوا: ما كان من العدد مضافا أدخل الألف واللام في آخره فقط، وأجاز الكوفيون إدخال الألف واللام على الأثر والثاني وعلى ذلك فيقال هنا: ألف الولد والألف الولد.

من أتق به يقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرى أعمار الأمم قبله فكانت تقاصر أعمار أئمتها ألا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر؛ فأعطاه الله تعالى ليلة القدر، وجعلها خيرا من ألف شهر. وفي الترمذي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرى بنى أمية على منبره فساء ذلك؛ فنزلت «إنا أعطيناك الكوثر» يعني نهرا في الجنة. ونزلت «إنا أنزلناه في ليلة القدر. وما أدراك ما ليلة القدر. ليلة القدر خير من ألف شهر» يملكها بعدك بنو أمية. قال القاسم بن الفضل الحداني: فعدناها فإذا هي ألف شهر لا تزيد يوما ولا تنقص يوما. قال: حديث غريب.

قوله تعالى: تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿١٩﴾
قوله تعالى: ﴿تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي تهبط من كل سماء، ومن سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى؛ ومسكن جبريل على وسطها. فينزلون إلى الأرض ويؤمنون على دعاء الناس إلى وقت طلوع الفجر؛ فذلك قوله تعالى: «تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ». ﴿وَالرُّوحُ﴾ أي جبريل عليه السلام. وحكى القشيري: أن الروح صنف من الملائكة، جعلوا حَفَظَةً على سائرهم، وأن الملائكة لا يرونهم كما لا نرى نحن الملائكة. وقال مقاتل: هم أشرف الملائكة وأقربهم من الله تعالى. وقيل: إنهم جنود من جنود الله عز وجل من غير الملائكة. رواه مجاهد عن ابن عباس مرفوعا؛ ذكره الماوردي. وحكى القشيري: قيل هم صنف من خلق الله يأكلون الطعام، ولهم أيدي وأرجل؛ وليسوا ملائكة. وقيل: «الروح» خلق عظيم يقوم صفوا، والملائكة كلهم صفوا. وقيل: «الروح» الرحمة ينزل بها جبريل عليه السلام مع الملائكة في هذه الليلة على أهلها؛ دليله: «يُنزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ»^(١) أي بالرحمة. ﴿فِيهَا﴾ أي في ليلة القدر. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي بأمره. ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي بكل أمرٍ قدره الله وقضاه في تلك السنة إلى قابل؛ قاله ابن عباس؛ كقوله تعالى: «يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ»^(٢) أي بأمر الله. وقراءة العامة «تَنْزِلُ» بفتح التاء؛ إلا أن البرزى

(٢) آية ١١ سورة الرعد.

(١) آية ٢ سورة النحل.

شدد التاء . وقرأ طلحة بن مُصَرَّف وَاِبْنُ السَّمِيْعِ بضم التاء على الفعل المجهول . وقرأ على
 وَاِبْنُ عَبَّاسٍ وَعِزَّةُ وَالْكَلْبِيُّ « مِنْ كُلِّ أَمْرٍ » . وروى عن ابن عباس أن معناه : من
 كل ملك ؛ وتأولها الكلبي على أن جبريل ينزل فيها مع الملائكة فيسلمون على كل امرئ مسلم .
 فـ « مِنْ » بمعنى على . وعن أنس قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا كان ليلة القدر نزل
 جبريل في كَبْكَبَةٍ ^(۱) من الملائكة يُصَلُّونَ وَيُسَلِّمُونَ على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله تعالى » .

قوله تعالى : سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿١٠٠﴾

قيل : إن تمام الكلام « مِنْ كُلِّ أَمْرٍ » ثم قال « سَلَامٌ » رُويَ ذلك عن نافع وغيره ؛ أي ليلة
 القدر سلامة وخير كلها لا شر فيها . (حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ) أي إلى طلوع الفجر . قال الضحاك :
 لا يقدر الله في تلك الليلة إلا السلامة ، وفي سائر الليالي يقضى بالبلايا والسلامة . وقيل :
 أي هي سلام ؛ أي ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان في مؤمن ومؤمنة . وكذا قال مجاهد :
 هي ليلة سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً ولا أذى . وروى مرفوعاً . وقال
 الشعبي : هو تسليم الملائكة على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر ؛
 يمرّون على كل مؤمن ويقولون : السلام عليك أيها المؤمن . وقيل : يعني سلام الملائكة
 بعضهم على بعض فيها . وقال قتادة : « سلام هي » خير هي . « حتى مَطْلَعِ الْفَجْرِ » أي
 إلى مطلع الفجر . وقرأ الكسائي وَاِبْنُ مُحَيْصِنٍ « مَطْلَعِ » بكسر اللام ، الباقون بالفتح . والفتح
 والكسر لغتان في المصدر . والفتح الأصل في فَعَلَ يَفْعُلُ ؛ نحو المقتل والمخرج . والكسر على
 أنه مما شُدَّ عن قياسه ؛ نحو المَشْرِيقُ والمَغْرِبُ والمَنْبِتُ والمَسْكِنُ والمَنْسِكُ والمَحْشِرُ والمَسْقِطُ
 والمَجْزِرُ . حِكِي في ذلك كله الفتحُ والكسر ؛ على أن يراد به المصدر لا الأسم .

وهنا ثلاث مسائل :

الأولى - في تعيين ليلة القدر ؛ وقد اختلف العلماء في ذلك . والذي عليه المعظم أنها
 ليلة سبع وعشرين ؛ لحديث زَرِّ بْنِ حَبِيشٍ قال قلت لأبي بن كعب : إن أخاك عبد الله

(۱) الكبكة (بالفتح) : الجماعة المنضامة من النامس وغيرهم .

أَبْنُ مَسْعُودٍ يَقُولُ : مَنْ يَقُمُ الْحَوْلَ يُصِيبُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ . فَقَالَ : يَغْفِرُ اللَّهُ لِأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ ! لَقَدْ عَلِمَ أَنَّهَا فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ مِنْ رَمَضَانَ ، وَأَنَّهَا لَيْلَةٌ سَبْعٌ وَعِشْرِينَ ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَلَّا يَتَكَلَّمَ النَّاسُ ، ثُمَّ حَلَفَ لَا يَسْتَتْنِي أَنَّهَا لَيْلَةٌ سَبْعٌ وَعِشْرِينَ . قَالَ قُلْتُ : بِأَيِّ شَيْءٍ تَقُولُ ذَلِكَ يَا أَبَا الْمُنْذِرِ؟ قَالَ : بِالآيَةِ الَّتِي أَخْبَرْنَا بِهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَوْ بِالْعَلَامَةِ أَنَّ الشَّمْسَ تَطْلُعُ يَوْمَئِذٍ لَا شُعَاعَ لَهَا . قَالَ التِّرْمِذِيُّ : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ . وَخَرَّجَهُ مُسْلِمٌ . وَقِيلَ : هِيَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ دُونَ سَائِرِ الْعَامِ ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَغَيْرُهُ . وَقِيلَ : هِيَ فِي لَيَالِي السَّنَةِ كُلِّهَا . فَمَنْ عَلَّقَ طَلَاقَ امْرَأَتِهِ أَوْ عَتَقَ عَبْدَهُ بَلِيلَةَ الْقَدْرِ لَمْ يَقَعْ الْعِتْقُ وَالطَّلَاقُ إِلَّا بَعْدَ مُضِيِّ سَنَةٍ مِنْ يَوْمِ حَلْفِهِ . لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ إِيقَاعُ الطَّلَاقِ بِالشَّكِّ وَلَمْ يَثْبُتْ اخْتِصَاصُهَا بِوَقْتٍ ، فَلَا يَنْبَغِي وَقُوعُ الطَّلَاقِ إِلَّا بِمُضِيِّ حَوْلٍ ، وَكَذَلِكَ الْعِتْقُ ، وَمَا كَانَ مِثْلَهُ مِنْ يَمِينٍ أَوْ غَيْرِهِ . وَقَالَ أَبُو مَسْعُودٍ : مَنْ يَقُمُ الْحَوْلَ يُصِيبُهَا ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبُو عَمْرٍو فَقَالَ : يَرْحَمُ اللَّهُ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ! أَمَّا إِنَّهُ عَلِمَ أَنَّهَا فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَلَّا يَتَكَلَّمَ النَّاسُ . وَإِلَى هَذَا الْقَوْلِ ذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ أَنَّهَا فِي جَمِيعِ السَّنَةِ . وَقِيلَ عَنْهُ : إِنَّهَا رَفَعَتْ - يَعْنِي لَيْلَةَ الْقَدْرِ - وَأَنَّهَا إِنَّمَا كَانَتْ مَرَّةً وَاحِدَةً ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا بَاقِيَةٌ . وَرُوِيَ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ أَيْضًا : أَنَّهَا إِذَا كَانَتْ فِي يَوْمٍ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ كَانَتْ فِي الْعَامِ الْمَقْبَلِ فِي يَوْمٍ آخَرَ . وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّهَا فِي كُلِّ عَامٍ مِنْ رَمَضَانَ . ثُمَّ قِيلَ : إِنَّهَا اللَّيْلَةُ الْأُولَى مِنْ الشَّهْرِ ، قَالَ أَبُو رَزِينِ الْعَقِيلِيُّ . وَقَالَ الْحَسَنُ وَأَبْنُ إِسْحَاقَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ : هِيَ لَيْلَةُ سَبْعِ عَشْرَةٍ مِنْ رَمَضَانَ ، وَهِيَ اللَّيْلَةُ الَّتِي كَانَتْ صَبِيحَتِهَا وَقَعَةَ بَدْرٍ . كَأَنَّهُمْ نَزَعُوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : « وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانِ » ^(٢) وَكَانَ ذَلِكَ لَيْلَةَ سَبْعِ عَشْرَةٍ ، وَقِيلَ هِيَ لَيْلَةُ التَّاسِعِ عَشْرِ . وَالصَّحِيحُ الْمَشْهُورُ أَنَّهَا فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ مِنْ رَمَضَانَ ، وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَالْأَوْزَاعِيِّ وَأَبِي ثَوْرٍ وَأَحْمَدٍ . ثُمَّ قَالَ قَوْمٌ : هِيَ لَيْلَةُ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ . وَمَالَ إِلَيْهِ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، لِحَدِيثِ الْمَاءِ وَالطَّيْنِ ،

(١) أي جزم في حلفه بلا استثناء فيه ؛ بأن يقول عقب يمينه إن شاء الله .

(٢) آية ٤١ سورة الأنفال .

ورواه أبو سعيد الخُدْرِيّ - خرجهُ مالكٌ وغيره . وقيل ليلة الثالث والعشرين ؛ لما رواه ابن عمر أن رجلاً قال : يا رسول الله إني رأيت ليلة القدر في سابعة تبقّى . فقال النبي - صلى الله عليه وسلم : "أرى رؤياكم قد توأطأت على ثلاث وعشرين فمن أراد أن يقوم من الشهر شيئاً فليقم ليلة ثلاث وعشرين" . قال معمر : فكان أيوب يغتسل ليلة ثلاث وعشرين ويمسّ طيباً . وفي صحيح مسلم أن النبي - صلى الله عليه وسلم قال : "إني رأيت أني أسجد في صبيحتها في ماء وطين" قال عبد الله بن أنيس : فرأيتُه في صبيحة ليلة ثلاث وعشرين في الماء والطين كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : ليلة خمس وعشرين ؛ لحديث أبي سعيد الخُدْرِيّ - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "التمسوها في العشر الأواخر في تاسعة تبقّى في سابعة تبقّى في خامسة تبقّى" رواه مسلم ، قال مالك : يريد بالتاسعة ليلة إحدى وعشرين والسابعة ليلة ثلاث وعشرين ، والخامسة ليلة خمس وعشرين . وقيل : ليلة سبع وعشرين . وقد مضى دليله ، وهو قول علي رضي الله عنه وعائشة ومعاوية وأبي بن كعب . وروى ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من كان متحرراً ليلة القدر فليتحزها ليلة سبع وعشرين" . وقال أبي بن كعب : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "ليلة القدر ليلة سبع وعشرين" . وقال أبو بكر الوراق : إن الله تعالى قسم ليالي هذا الشهر - شهر رمضان - على كلمات هذه السورة ، فلما بلغ السابعة والعشرين أشار إليها فقال هي . وأيضاً فإن ليلة القدر كرر ذكرها ثلاث مرات ، وهي تسعة أحرف ، فتجىء سبعة وعشرين . وقيل : هي ليلة تسع وعشرين ؛ لما روى أن النبي - صلى الله عليه وسلم قال : "ليلة القدر التاسعة

(١) لفظ الحديث كما رواه مالك في الموطأ : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الوسط من رمضان ، فأعتكف عاماً حتى إذا كان ليلة إحدى وعشرين وهي الليلة التي يخرج فيها من صبحها من اعتكافه قال : "من كان اعتكف معي فليعتكف العشر الأواخر وقد أريت هذه الليلة ثم أنسيتها وقد رأيتني أسجد من صبحها في ماء وطين فالتمسوها في العشر الأواخر والتمسوها في كل وتر" قال أبو سعيد : فأمرت السماء تلك الليلة ، وكان المسجد على عريش فوق المسجد (قطر) قال أبو سعيد : فأبصرت عيناى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف وعلى جبينه وأنفه أثر الماء والطين من صبح ليلة إحدى وعشرين » .

والعشرون - أو السابعة والعشرون - وأن الملائكة في تلك الليلة بعدد الحصى". وقد قيل: إنها في الأشفاق. قال الحسن: ارتقت الشمس ليلة أربع وعشرين وعشرين سنة فرأيتها تطلع بيضاء لا شعاع لها. يعني من كثرة الأنوار في تلك الليلة. وقيل إنها مستورة في جميع السنة؛ ليجتهد المرء في إحياء جميع الليالي. وقيل: أخفاها في جميع شهر رمضان، ليجتهدوا في العمل والعبادة ليالي شهر رمضان طمعاً في إدراكها؛ كما أخفى الصلاة الوسطى في الصلوات، وأسمه الأظم في أسمائه الحسنى، وساعة الإجابة في ساعات الجمعة وساعات الليل، وغضبه في المعاصي ورضاه في الطاعات، وقيام الساعة في الأوقات، والعباد الصالح بين العباد؛ رحمة منه وحكمة.

الثانية - في علاماتها: منها أن الشمس تطلع في صبيحتها بيضاء لا شعاع لها. وقال الحسن قال النبي صلى الله عليه وسلم في ليلة القدر: "إن من أماراتها أنها ليلة سَمَّحة بَلْجَةٌ لا حازة ولا باردة تطلع الشمس صبيحتها ليس لها شعاع". وقال عبيد بن عمير: كنت ليلة السابع والعشرين في البحر فأخذت من مائه فوجدته عدباً سَلِساً.

الثالثة - في فضائلها. وحسبك بقوله تعالى: «لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ». وقوله تعالى: «تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا». وفي الصحيحين: "من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر الله له ما تقدم من ذنبه". رواه أبو هريرة. وقال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا كان ليلة القدر تنزل الملائكة الذين هم سُكَّانُ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى منهم جبريل ومعهم أُلُوِيَّةٌ ينصب منها لواء على قبري ولواء على بيت المقدس ولواء على المسجد الحرام ولواء على طور سيناء ولا تدع فيها مؤمناً ولا مؤمنة إلا تُسَلِّمَ عليه إلا مُدْمِنَ الخمر وَاكْلَ الخنزير والمتضمخ بالزعفران". وفي الحديث: "إن الشيطان لا يخرج في هذه الليلة حتى يضيء فجرها ولا يستطيع أن يصيب فيها أحداً بخبل ولا شيء من الفساد ولا ينفذ فيها سحر سحر". وقال الشعبي: وليلها كيومها، ويومها كليلها. وقال النتراء: لا يقدر الله في ليلة القدر إلا السعادة والنعم، ويُقرَّر في غيرها البلياء والنقم؛ وقد تقدم عن الضحاك. ومثله لا يقال من جهة الرأي فهو

مرفوع . والله أعلم . وقال سعيد بن المسيب في الموطأ : ^(١) [من شهد العشاء من ليلة القدر فقد أخذ بحظه منها] ومثله لا يدرك بالرأى . وقد روى عبد الله بن عامر بن ربيعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من صلى صلاة المغرب والعشاء الآخرة من ليلة القدر في جماعة ^(٢) فقد أخذ بحظه من ليلة القدر " ذكره الثعلبي في تفسيره . وقالت عائشة رضي الله عنها قلت : يا رسول الله إن وافقت ليلة القدر فما أقول ؟ قال : " قولي اللهم إنك عفوٌ تُحب العفو فاعف عني " .

تفسير سورة « لم يكن »

وهي مكية ، في قول يحيى بن سلام . ومدنية ، في قول ابن عباس والجمهور . وهي تسع آيات ^(٣) . وقد جاء في فضلها حديث لا يصح ، رويناه عن محمد بن عبد الله الحضرمي قال قال لي أبو عبد الرحمن بن نمير : اذهب إلى أبي الهيثم الخشاب فأكتب عنه فإنه قد كتب ، فذهبت إليه فقال : حدثنا مالك بن أنس عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو يعلم الناس ما في [لم يكن] الذين كفروا من أهل الكتاب لعطلوا أهل المال فتعلموها " فقال رجل من خزاعة : وما فيها من الأجر يا رسول الله ؟ قال : " لا يقرؤها منافق أبداً ولا عبدٌ في قلبه شكٌ في الله . والله إن الملائكة المقربين يقرءونها منذ خلق الله السموات والأرض ما يفتنون من قراءتها . وما من عبد يقرؤها إلا بعث الله إليه ملائكة يحفظونه في دينه ودنياه ويدعون له بالمغفرة والرحمة " . قال الحضرمي : بحثت إلى أبي عبد الرحمن بن نمير فألقيت هذا الحديث عليه فقال : هذا

(١) ما بين المربعين زيادة من الموطأ . (٢) الذي في نسخة تفسير الثعلبي التي بين أيدينا : " من صلى المغرب والعشاء الآخرة من ليلة القدر فقد أخذ ... " الحديث . ولم يذكر : « في جماعة » . (٣) في مصاحفنا : « ثمان آيات » . وفي تفسير الألويسي : « وآيات تسع في البصري وثمان في غيره » . (٤) في بعض نسخ الأصل : « قبل خلق السموات ... » .

قد كفانا مؤنته فلا تعدُّ إليه . قال ابن العربي : « روى إسحاق بن بشر الكاهلي عن مالك بن أنس عن يحيى بن سعيد عن ابن المسيب عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم : " لو يعلم الناس ما في [لم يكن] الذين كفروا لعطّلوا الأهل والمال ولتعلموها " . وهذا حديث باطل ؛ وإنما الحديث الصحيح ما روى عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بن كعب : " إن الله أمرني أن أقرأ عليك « لم يكن الذين كفروا » " قال : وسماني لك ! ؟ قال " نعم " فبكي .

قلت : خرّجه البخاري ومسلم . وفيه من الفتنه قراءة العالم على المتعلم . قال بعضهم : إنما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم على أبي ليلى الناس التواضع ؛ لئلا يأنف أحدٌ من التعلم والقراءة على من دونه في المنزلة . وقيل : لأن أبا كان أسرع أخذًا لألفاظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأراد بقراءته عليه أن يأخذ أفاضله ويقرأ كما سمع منه ويعلم غيره . وفيه فضيلة عظيمة لأبي ؛ إذ أمر الله رسوله أن يقرأ عليه . قال أبو بكر الأنباري : وحدثنا أحمد بن الهيثم بن خالد قال حدثنا علي بن الجعد قال حدثنا عكرمة عن عاصم عن زبّ بن حبّيش قال : في قراءة أبي بن كعب : ابن آدم لو أعطى وادياً من مال لا لتمس ثانياً ولو أعطى وادين من مال لا لتمس ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب . قال عكرمة : قرأ على عاصم « لم يكن » ثلاثين آية هذا فيها . قال أبو بكر : هذا باطل عند أهل العلم ؛ لأن قراءة ابن كثير وأبي عمرو متصلتان بأبي بن كعب ، لا يقرأ فيهما هذا المذكور في « لم يكن » مما هو معروف في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه من كلام الرسول عليه السلام لا يحكيه عن رب العالمين في القرآن . وما رواه اثنان معهما الإجماع أثبت مما يحكيه واحد مخالف مذهب الجماعة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ كذا قراءة العامة وخط المصحف . وقرأ ابن مسعود « لم يكن المشركون وأهل الكتاب مُنْفَكِينَ » وهذه قراءة على التفسير . قال ابن العربي : « وهي جائزة في معرض البيان لا في معرض التلاوة ؛ فقد قرأ النبي صلى الله عليه وسلم في رواية الصحيح « فَطَلَّقُوهُمْ لِقَبْلِ عِدَّتَيْنِ » وهو تفسير ؛ فإن التلاوة هو ما كان في خط المصحف » .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعنى اليهود والنصارى . ﴿ وَالْمُشْرِكِينَ ﴾ في موضع جر عطفًا على « أهل الكتاب » . قال ابن عباس : « أهل الكتاب » اليهود الذين كانوا بيثرب ، وهم قريظة والنضير وبنو قينقاع . والمشركون : الذين كانوا بمكة وحولها ، والمدينة والذين حولها ؛ وهم مشركو قريش . ﴿ مُنْفَكِينَ ﴾ أى منتهين عن كفرهم مائلين عنه . ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ ﴾ أى أتتهم البيئنة ؛ أى مجد صلى الله عليه وسلم . وقيل : الانتهاء بلوغ الغاية ؛ أى لم يكونوا ليبلغوا نهاية أعمارهم فموتوا حتى تأتيهم البيئنة . فالأنفكاك على هذا بمعنى الانتهاء . وقيل : « منفكين » زائلين ؛ أى لم تكن مدتهم لتزول حتى يأتيهم رسول . والعرب تقول : ما أنفككُ أفعل كذا ؛ أى ما زلت . وما أنفك فلان قائمًا ؛ أى ما زال قائمًا . وأصل الفك الفتح ؛ ومنه فك الكتاب ، وفك الخلخال ، وفك السالم . قال طرفة :
فَأَلَيْتُ لَا يَنْفَكُ كَشْحِي بَطَانَةً * لِعَضْبٍ رَقِيقِ الشَّفْرَتَيْنِ مَهْنَدٍ^(٢)

(١) كذا في بعض نسخ الأصل . وفي بعضها : « فك السالم وهي » قال طرفة . « بياض بعد » وهي .
وفي تفسير الثعلبي : « وفك السالم وهي حروف الفطن قال طرفة » . ولم نهند لوجه الصواب فيه . (٢) الكشح : الجنب .
والعضب : السيف القاطع . ومهند : أى مشحذ ؛ والمهيد : التشحيد . ويقال : سيف مهند إذا عمل ببلاد الهند .

وقال ذو الرمة :

حراجيج ما تنفك إلا مُناخَةً * على الخسف أو نزمي به بلداً قفراً^(١)

يريد : ما تنفك مُناخَةً ؛ فزاد « إلا » . وقيل : « مُنْفَكِينَ » بarchين ؛ أى لم يكونوا ليرحوا ، ويفارقوا الدنيا حتى تأتيمهم البيئنة . وقال ابن كيسان : أى لم يكن أهل الكتاب تاركين صفة محمد صلى الله عليه وسلم في كتابهم حتى بُعث ؛ فلما بعث حسدوه ووجدوه . وهو كقوله : « فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ » . ولهذا قال : « وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » الآية . وعلى هذا فقوله : « والمشركون » أى ما كانوا يسيئون القول في محمد صلى الله عليه وسلم حتى بُعث ؛ فإنهم كانوا يسمونه الأمين ، حتى أتتهم البيئنة على لسانه وبعث إليهم فيئذ عادوه . وقال بعض اللغويين : « منفكين » هالكين ؛ من قولهم : انفك صلاً^(٢) المرأة عند الولادة ؛ وهو أن ينفصل فلا يلتئم فتهلك . المعنى : لم يكونوا معدئين ولا هالكين إلا بعد قيام الحجّة عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب . وقال قوم في المشركون : إنهم من أهل الكتاب ؛ فمن اليهود من قال : عزير بن الله . ومن النصرارى من قال : عيسى هو الله . ومنهم من قال : هو أبناه . ومنهم من قال : ثالث ثلاثة . وقيل : أهل الكتاب كانوا مؤمنين ثم كفروا بعد أنبيائهم . والمشركون ولِدُوا على الفِطْرَةِ فكفروا حين بلغوا . فلهذا قال : « والمشركون » . وقيل : المشركون وصف أهل الكتاب أيضا ، لأنهم لم ينتفعوا بكتابهم وتركوا التوحيد . فالنصارى مُثَلَّثَةٌ ، وعامة اليهود مُشَبَّهَةٌ ، والكل شِرْكٌ . وهو كقولك : جاءنى العقلاء والظرفاء ؛ وأنت تريد أقواما بأعيانهم تصفهم بالأمرين . فالمعنى : من أهل الكتاب المشركين . وقيل : إن الكفر هنا هو الكفر بالنبى صلى الله عليه وسلم ؛ أى لم يكن الذين كفروا بمحمد من اليهود والنصارى الذين هم أصل الكتاب ، ولم يكن المشركون الذين هم عبدة

(١) الحراجيج (جمع حرجوج) : وهى الناقة الطويلة الضامرة . والخسف : أن تبيت على غير علف . بقول :

ما تنفصل من بلد إلى بلد إلا مناخة على الخسف . (٢) آية ٨٩ سورة البقرة .

(٣) الصلا : وسط الظهر من الإنسان ومن كل ذى أربع . وقيل : هو ما انحدر من الوركين . وقيل :

هو ما عن يمين الذنب وشماله .

الأوثان من العرب وغيرهم — وهم الذين ليس لهم كتاب — متفكين . قال القشيري :
 وفيه بُعد ؛ لأن الظاهر من قوله : « حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ . رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ » إن هذا الرسول
 هو محمد صلى الله عليه وسلم . فيبعد أن يقال : لم يكن الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم
 متفكين حتى يأتيهم عهد ؛ إلا أن يقال : أراد لم يكن الذين كفروا الآن بمحمد وإن كانوا
 من قبل معظمين له ففنتهين عن هذا الكفر إلى أن يبعث الله محمدا إليهم ويبين لهم الآيات ؛
 فينثذ يؤمن قوم . وقرأ الأعمش وإبراهيم « والمشركون » رفعا ، عطفًا على « الذين » .
 والقراءة الأولى أبين ؛ لأن الرفع يصير فيه الصنفان كأنهم من غير أهل الكتاب . وفي حرف
 أبي : « فما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون متفكين » . وفي مصحف
 ابن مسعود : « لم يكن المشركون وأهل الكتاب متفكين » . وقد تقدم . (حَتَّى تَأْتِيَهُمُ
 الْبَيِّنَةُ) قيل حتى أتتهم . والبينة : عهد صلى الله عليه وسلم . (رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ) أى بعث
 من الله جل ثناؤه . قال الزجاج : « رسول » رفع على البدل من « البينة » . وقال الفراء :
 أى هى رسول من الله ، أو هو رسول من الله ؛ لأن البينة قد تذكر فيقال : بيئتى فلان .
 وفي حرف أبي وابن مسعود « رسولاً » بالنصب على القطع . (يَتْلُو) أى يقرأ . يقال :
 تلا يتلو تلاوة . (مُحْضًا) جمع صحيفة وهى ظرف المكتوب . (مُطَهَّرَةٌ) قال ابن عباس :
 من الزور والشك والنفاق والضلالة . وقال قتادة : من الباطل . وقيل : من الكذب
 والشبهات والكفر ؛ والمعنى واحد . أى يقرأ ما تتضمن الصحف من المكتوب ؛ ويدل
 عليه أنه كان يتلو عن ظهر قلبه لاعتن كتاب ؛ لأنه كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ . و « مطهرة »
 من نعت الصحف ؛ وهو كقوله تعالى : « فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ . مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ » فالمطهرة
 نعت للصحف فى الظاهر ، وهى نعت لما فى الصحف من القرآن . وقيل : « مطهرة » أى
 يبنى ألا يمسها إلا المطهرون ؛ كما قال فى سورة « الواقعة » حسب ما تقدم بيانه . وقيل :
 الصحف المطهرة هى التى عند الله فى أم الكتاب الذى منه نسخ ما أنزل على الأنبياء من

(٢) راجع ج ١٧ ص ٢٢٥ فابعدا .

(١) آية ١٣ سورة عبس .

الكتب؛ كما قال تعالى : « بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ » (١) . قال الحسن : يعنى الصحف المطهرة فى السماء . (فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ) أى مستقيمة مستوية مُحْكَمَةٌ ؛ من قول العرب : قام يقوم إذا استوى وضح . وقال بعض أهل العلم : الصحف هى الكتب ؛ فكيف قال فى صحف فيها كتب ؟ فالجواب : أن الكتب هنا بمعنى الأحكام ؛ قال الله عز وجل : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ » بمعنى حكم . وقال صلى الله عليه وسلم : « والله لأقضينَ بينكما بكتاب الله » ثم قضى بالرجم ، وليس ذكر الرجم مسطوراً فى الكتاب ؛ فالمنى لأقضينَ بينكما بحكم الله تعالى . وقال الشاعر :

وما الولاء بالبلَاءِ^(٢) فلتم * وما ذاك قال الله إذ هو يكتب

وقيل : الكتب القِيَمَةُ هى القرآن ؛ بفعله كُتِبَ لأنه يشمل على أنواع من البيان .

قوله تعالى : وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾

قوله تعالى : (وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) أى من اليهود والنصارى ؛ خص أهل الكتاب بالتفريق دون غيرهم وإن كانوا مجموعين مع الكافرين ؛ لأنهم مظنون بهم لم ؛ فإذا تفرقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أدخل فى هذا الوصف . (إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ) أى أتتهم البينة الواضحة . والمعنى به عهد صلى الله عليه وسلم ؛ أى بالقرآن موافقاً لما فى أيديهم من الكتاب بنعته وصفته . وذلك أنهم كانوا جُمُوعاً على نبوته ؛ فلما بُعِثَ بِحَدِّوا نبوته وتفرقوا ، فمنهم من كفر بغياً وحسداً ، ومنهم من آمن ؛ كقوله تعالى : « وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ » (٣) . وقيل : « البينة » البيان الذى فى كتبهم أنه نبي مرسل . قال العلماء : من أول السورة إلى قوله « قِيمَةٌ » حكها فىمن آمن من أهل الكتاب والمشركين . وقوله : « وما تفرق » حكاه فىمن لم يؤمن من أهل الكتاب بعد قيام الحجج .

(١) آخر سورة البرج . (٢) آية ٢١ سورة المجادلة . (٣) كتاب الأصل ، ولم ننف على هذا البيت فى لادينا من المراجع . ولعل صوابه : * وما لولاة بالبلاء... الخ *
(٤) آية ١٤ - سورة الشورى .

قوله تعالى : وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ
وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿٥﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا ﴾ أي وما أمر هؤلاء الكفار في التوراة والإنجيل
﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أي ليوحدوه . واللام في « لِيَعْبُدُوا » بمعنى « أن » ؛ كقوله : « يُرِيدُ اللَّهُ
لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ^(١) » أي أن يبين . و « يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ ^(٢) » . و « أُمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ^(٣) » .
وفي حرف عبد الله : « وَمَا أُمِرُوا إِلَّا أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ » . ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أي العبادة ؛ ومنه
قوله تعالى : « قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ^(٤) » . وفي هذا دليل على وجوب
النية في العبادات ؛ فإن الإخلاص من عمل القلب ، وهو الذي يراد به وجه الله تعالى لا غيره .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ حُنَفَاءَ ﴾ أي مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام .
وكان ابن عباس يقول : حنفاء على دين إبراهيم عليه السلام . وقيل : الحنيف من أختن
وحج ؛ قاله سعيد بن جبيرة . قال أهل اللغة : وأصله أنه تحنّف إلى الإسلام ؛ أي مال إليه .
الثالثة - قوله تعالى : ﴿ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ أي بمحدودها في أوقاتها . ﴿ وَيُؤْتُوا
الزَّكَاةَ ﴾ أي يعطوها عند محلها . ﴿ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ أي ذلك الدين الذي أمروا به دين
القيمة ؛ أي الدين المستقيم . وقال الزجاج : أي ذلك دين الملة المستقيمة . و « القيمة » نعت
لموصوف محذوف . أو يقال : دين الأمة القيمة بالحق ؛ أي القائمة بالحق . وفي حرف
عبد الله « وذلك الدين القيم » . قال الخليل : « القيمة » جمع القيم ، والقيم والقائم واحد . وقال
الفراء : أضاف الدين إلى القيمة وهو نعته لاختلاف اللفظين . وعنه أيضا : هو من باب
إضافة الشيء إلى نفسه ، ودخلت الهاء للدح والمبالغة . وقيل : الهاء راجعة إلى الملة
أو الشريعة . وقال محمد بن الأشعث الطالقاني : « القيمة » هاهنا الكتب التي جرى ذكرها ،
والدين مضاف إليها .

(١) آية ٢٦ سورة النساء . (٢) آية ٨ سورة الصف . (٣) آية ٧١ سورة الأنعام . (٤) آية ١١ سورة الزمر .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ
فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ^ط أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ) «المشركين» معطوف
على «الذين» ، أو يكون مجرورا معطوفا على «أهل» . (فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ
هُم شَرُّ الْبَرِيَّةِ) قرأ نافع وابن ذكوان بالهمز على الأصل في الموضعين ؛ من قولهم : برأ الله
الخلق ، وهو البارئ الخالق ، وقال : « مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا »^(١) . الباقيون بغير همز وشد الياء
عَوَضًا مِنْهُ . قال الفراء : إن أخذت البرية من البرى وهو التراب فأصله غير الهمز ؛ تقول
منه : براه الله يبروه برؤا ؛ أى خلقه . قال القشيري : ومن قال البرية من البرى وهو
التراب قال : لا تدخل الملائكة تحت هذه اللفظة . وقيل : البرية من برت القلم أى قدرته ؛
فتدخل فيه الملائكة . ولكنه قول ضعيف ؛ لأنه يجب منه تخطئة من همز . وقوله « شَرُّ
الْبَرِيَّةِ » أى شر الخليفة . فقيل يحتمل أن يكون على التعميم . وقال قوم : أى هم شر البرية
الذين كانوا في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ؛ كما قال تعالى : « وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ »^(٢)
أى على عالمي زمانكم . ولا يبعد أن يكون في كفار الأمم قبل هذا من هو شر منهم ؛ مثل
فرعون وعاقر ناقة صالح . وكذا « خَيْرُ الْبَرِيَّةِ » إقما على التعميم . أو خير برية عصرهم . وقد
أستدل بقراءة الهمز من فضل بنى آدم على الملائكة . وقد مضى في سورة « البقرة » القول
فيه . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : المؤمن أكرم على الله عز وجل من بعض الملائكة^(٣)
الذين عنده .

(١) آية ٢٢ سورة الحديد . (٢) آية ٤٧ سورة البقرة .

(٣) راجع ج ١ ص ٢٨٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : جَزَأُوهُمُ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ
خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾

قوله تعالى : (جَزَأُوهُمُ) أى ثوابهم . (عِنْدَ رَبِّهِمْ) أى خالقهم ومالكهم . (جَنَّاتُ)
أى بساتين . (عَدْنٍ) أى إقامة . والمفسرون يقولون : « جَنَّاتُ عَدْنٍ » بطنان الجنة أى
وسطها ؛ تقول : عَدَنَ بِالْمَكَانِ يَعْدُنُ [عَدْنًا و] عُدُونَا أَقَامَ . ومعْدِنُ الشَّيْءُ : مركبه
ومستقره . قال الأعشى :

وَإِن يَسْتَضَافُوا إِلَى حِكْمِهِ * يَضَافُوا إِلَى رَاجِحِ قَدِّ عَدْنٍ

(تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا) أى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا (لا يَطْعَنُونَ وَلَا يَمُوتُونَ) (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ) أى
رضى أعمالهم ؛ كذا قال ابن عباس . (وَرَضُوا عَنْهُ) أى رضوا هم بثواب الله عز وجل .
(ذَلِكَ) أى الجنة . (لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) أى خاف ربه فتناهى عن المعاصي .

سورة « الزلزلة »

مدنية؛ فى قول ابن عباس وقتادة . ومكيّة؛ فى قول ابن مسعود وعطاء وجابر .
وهى تسع آيات ^(١)

قال العلماء : وهذه السورة فضلها كثير وتحتوى على عظيم . روى الترمذى عن أنس بن
مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” من قرأ « إذا زلزلت » عدلت له بنصف
القرآن . ومن قرأ « قل يا أيها الكافرون » عدلت له بربع القرآن ومن قرأ « قل هو الله
أحد » عدلت له بثلاث القرآن ” . قال : حديث غريب ، وفى الباب عن ابن عباس . وروى
عن على رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” من قرأ إذا زلزلت أربع
مرات كان كمن قرأ القرآن كله ” . وروى عبد الله بن عمرو بن العاص قال : لما نزلت
« إذا زلزلت » بكى أبو بكر ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ” لولا أنكم تُخطئون وتذنبون
ويغفر الله لكم لخلق الله أمة يخطئون ويذنبون فيغفر لهم إنه هو الغفور الرحيم ” .

(١) فى حاشية الشهاب : « آيات تسع أو ثمان » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾

أى حُرِّكَتْ من أصلها . كذا روى عكرمة عن ابن عباس ، وكان يقول : فى النفخة الأولى يزلزلها - وقاله مجاهد - ؛ لقوله تعالى : « يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . تَتَّبِعُنَّهَا الرَّادِفَةُ ^(١) » ثم تُزَلْزَلُ ثَانِيَةً فُتُخْرَجُ مَوَاتَاهَا وَهِيَ الْأَثْقَالُ . وَذُكِرَ الْمَصْدَرُ لِلتَّأَكِيدِ ثُمَّ أُضِيْفَ إِلَى الْأَرْضِ ؛ كَقَوْلِكَ : لِأَعْطَيْتِكَ عَطِيَّتِكَ ؛ أَيْ عَطَيْتِي لَكَ . وَحَسَّنَ ذَلِكَ لِمُوَافَقَةِ رِئُوسِ الْآيِ بَعْدَهَا . وَقِرَاءَةُ الْعَامَّةِ بِكَسْرِ الزَّيْ مِنْ الزَّلْزَالِ . وَقَرَأَ الْجَمْدَرِيُّ وَعَيْسَى بْنُ عَمْرِو بْنِ بَفْتَحِهَا . وَهُوَ مَصْدَرٌ أَيْضًا كَالْوَسْوَاسِ وَالْقَلْقَالِ وَالْحَرْجَارِ . وَقِيلَ : الْكَسْرُ الْمَصْدَرُ . وَالْفَتْحُ الْاسْمُ .

قوله تعالى : وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾

قال أبو عبيدة والأخفش : إِذَا كَانَ الْمَيْتُ فِي بَطْنِ الْأَرْضِ فَهُوَ ثِقْلٌ لَهَا . وَإِذَا كَانَ فَوْقَهَا فَهُوَ ثِقْلٌ عَلَيْهَا . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ : « أَثْقَالَهَا » مَوَاتَاهَا تُخْرِجُهُمْ فِي النَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ ؛ وَمِنْهُ قِيلَ لِلْجَنِّ وَالْإِنْسِ : الثَّقْلَانِ . وَقَالَتِ الْخَنُزَاءُ :

أَبَعْدَ ابْنِ عَمْرِو بْنِ آلِ الشَّرِّ * يَدِ حَلَّتْ بِهِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا

تقول : لَمَّا دُفِنَ عَمْرُو صَارَ حَلِيَّةً لِأَهْلِ الْقُبُورِ مِنْ شَرْفِهِ وَسُؤْدَدِهِ . وَذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ قَالَ : كَانَتِ الْمَرْبُ تَقُولُ إِذَا كَانَ الرَّجُلُ سَفَاكَ الدَّمَاءِ : كَانَ ثِقْلًا عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ ؛ فَلَمَّا مَاتَ حَطَّتِ الْأَرْضُ عَنْ ظَهْرِهَا ثِقْلَهَا . وَقِيلَ : « أَثْقَالَهَا » كَنُوزِهَا ؛ وَمِنْهُ الْحَدِيثُ : « تَقَى الْأَرْضُ أَفْلَادَ كَيْبِدِهَا أَمْثَالَ الْأَسْطُوانِ ^(٣) مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ... » .

(١) آية ٦ سورة النازعات .

(٢) القلقال : من قلقل الشئ، إذا حركه . والجرجار : من جرجر البعير إذا ردد صوتة فى حنجرة .

(٣) الأسطوان : جمع أسطوانة ، وهى السارية والعمود ؛ وشبهه بالأسطوان لعظمه وكثرته .

قوله تعالى : وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْإِنْسَانُ ﴾ أي ابن آدم الكافر . فروى الضحاك عن ابن عباس قال : هو الأسود بن عبد الأسد . وقيل : أراد كل إنسان يشاهد ذلك عند قيام الساعة في النفخة الأولى من مؤمن وكافر . وهذا قول من جعلها في الدنيا من أشراف الساعة ؛ لأنهم لا يعلمون جميعاً من أشراف الساعة في ابتداء أمرها حتى يتحققوا عمومها ؛ فلذلك سأل بعضهم بعضها عنها . وعلى قول من قال : إن المراد بالإنسان الكفار خاصة جعلها زلزلة القيامة ؛ لأن المؤمن معترف بها ، فهو لا يسأل عنها ، والكافر جاحد لها فلذلك يسأل عنها . ومعنى ﴿ مَا لَهَا ﴾ أي ما لها زلزلت . وقيل : ما لها أخرجت أنقالها ، وهي كلمة تعجيب ؛ أي لأي شيء زلزلت . ويجوز أن يحيي الله الموتى بعد وقوع النفخة الأولى ، ثم تتحرك الأرض فتخرج الموتى وقد رأوا الزلزلة وانشقاق الأرض عن الموتى أحياء فيقولون من الهول ما لها .

قوله تعالى : يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٣١﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٣٢﴾

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ « يَوْمَئِذٍ » منصوب بقوله « إِذَا زُلْزِلَتْ » . وقيل : بقوله « تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا » ؛ أي تخبر الأرض بما عمل عليها من خير أو شر يومئذ . ثم قيل : هو من قول الله تعالى . وقيل : من قول الإنسان ؛ أي يقول الإنسان ما لها تحدث أخبارها ؛ متعجباً . وفي الترمذي عن أبي هريرة قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية « يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا » قال : « أتدرون ما أخبارها — قالوا الله ورسوله أعلم قال — فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها تقول عمل يوم كذا وكذا وكذا — قال — فهذه أخبارها » . قال : هذا حديث حسن صحيح . قال الماوردي : قوله « يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا » فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها — « تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا » بأعمال العباد على ظهرها ؛ قاله أبو هريرة ورواه مرفوعاً . وهو قول من زعم أنها زلزلة القيامة .

الثاني – تحدّث أخبارها بما أخرجت من أنقالها؛ قاله يحيى بن سلام . وهو قول من زعم أنها زلزلة أشرط الساعة .

قلت : وفي هذا المعنى حديث رواه ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا كان أجل العبد بأرض أو ثبتته الحاجة إليها حتى إذا بلغ أقصى أثره قبضه الله فتقول الأرض يوم القيامة رب هذا ما أستودعتني » أخرجه ابن ماجه في سننه . وقد تقدّم .^(١)

الثالث – أنها تحدّث بقيام الساعة إذا قال الإنسان ما لها ؛ قاله ابن مسعود . فتخبر أن أمر الدنيا قد انقضى وأمر الآخرة قد أتى . فيكون ذلك منها جواباً لهم عند سؤالهم ، ووعيداً للكافر، وإنذاراً للمؤمن . وفي حديثها بأخبارها ثلاثة أقاويل :

أحدها – أن الله تعالى يقبّلها حيواناً ناطقاً؛ فتتكلّم بذلك .

الثاني – أن الله تعالى يُحدّث فيها الكلام .

الثالث – أنه يكون منها بيان يقوم مقام الكلام . قال الطبري : تُبَيِّن أخبارها بالرجة والزلزلة وإخراج الموتى . ﴿ يَا أَيُّهَا رَبِّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾ أي إنها تحدّث أخبارها بوحي الله « لها » أي إليها . والعرب تضع لام الصفة موضع « إلى » . قال العجاج يصف الأرض :
وَحَى لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتْ * وَشَدَّهَا بِالزَّاسِيَاتِ الثُّبَّتِ

وهذا قول أبي عبيدة : « أَوْحَى لَهَا » أي إليها . وقيل : « أَوْحَى لَهَا » أي أمرها ؛ قاله مجاهد . وقال السدي : « أَوْحَى لَهَا » أي قال لها . وقيل : سنّرها . وقيل : المعنى يوم تكون الزلزلة، وإخراج الأرض أنقالها، تحدّث الأرض أخبارها؛ ما كان عليها من الطاعات والمعاصي، وما عمل على ظهرها من خير وشر . ورؤى ذلك عن الثوري وغيره . ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا ﴾ أي فرقاً؛ جمع شت . قيل : عن موقف الحساب ؛ فريق يأخذ جهة اليمين إلى الجنة، وفريق آخر يأخذ جهة الشمال إلى النار؛ كما قال تعالى : « يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ »^(٢)
« يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ »^(٣) . وقيل : يرجعون عن الحساب بعد فراغهم من الحساب . ﴿ أَشْتَاتًا ﴾

(١) راجع ج ١٤ ص ٨٣ . (٢) آية ١٤ سورة الروم . (٣) آية ٤٣ سورة الروم .

يعنى فِرَقًا فِرَقًا . (لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ) يعنى ثواب أعمالهم . وهذا كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما من أحد يوم القيامة إلا ويلوم نفسه فإن كان مُحْسِنًا فيقول لم لا أزدت إحسانا وإن كان غير ذلك يقول لم لا نزعّت عن المعاصي " . وهذا عند معاينة الثواب والعقاب . وكان ابن عباس يقول : « أَشْتَاتًا » متفرقين على قدر أعمالهم ؛ أهل الإيمان على حدة ، وأهل كل دين على حدة . وقيل : هذا الصدور إنما هو عند النشور ؛ يصدرون أشتاتًا من القبور فيصار بهم إلى موقف الحساب ليُرَوْا أعمالهم في كتبهم ، أو ليُرَوْا جزاء أعمالهم ؛ فكأنهم وردوا القبور فدُفِنُوا فيها ثم صدروا عنها . والوارد : الجانى . والصادر : المنصرف . (أَشْتَاتًا) أى يبعثون من أقطار الأرض . وعلى القول الأول فيه تقديم وتأخير ؛ مجازه : تحدّث أخبارها بأن ربك أوحى لها ليُرَوْا أعمالهم . واعترض قوله « يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا » متفرقين عن موقف الحساب . وقراءة العامة ، لِيُرَوْا « بضم الياء ؛ أى ليربهم الله أعمالهم . وقرأ الحسن والزهري وقتادة والأعرج ونصر بن عاصم وطلحة بفتحها ؛ وروى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ**

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾**) كان ابن عباس يقول : من يعمل من الكفار مثقال ذرة خيرا يره في الدنيا ولا يثاب عليه في الآخرة ، ومن يعمل مثقال ذرة من شر عوقب عليه في الآخرة مع عقاب الشرك ، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من المؤمنين يره في الدنيا ولا يعاقب عليه في الآخرة إذا مات ويتجاوز عنه ، وإن عمل مثقال ذرة من خير يقبل منه و يضاعف له في الآخرة . وفي بعض الحديث : " إن الذرة لا زنة لها " وهذا مثل ضرب به الله تعالى أنه لا يغفل من عمل ابن آدم صغيرة ولا كبيرة . وهو مثل قوله تعالى :

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ^(١) ». وقد تقدم الكلام هناك في انذر، وأنه لا وزن له . وذكر بعض أهل اللغة أن الذر أن يضرب الرجل بيده على الأرض فما علق بها من التراب فهو الذر؛ وكذا قال ابن عباس : إذا وضعت يدك على الأرض ورفعتها فكل واحد مما لزق به من التراب ذرة . وقال محمد بن كعب القرظي^(٢) : فمن يعمل مثقال ذرة من خير من كافر يرى ثوابه في الدنيا في نفسه وماله وأهله وولده، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير . ومن يعمل مثقال ذرة من شر من مؤمن يرى ^(٣) عقوبته في الدنيا في نفسه وماله وولده وأهله ، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله شر . دليله ما رواه العلماء الأثبات من حديث أنس أن هذه الآية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر يأكل فأمسك وقال : يا رسول الله ، وإنا لنرى ما عملنا من خير وشر؟ قال : « ما رأيت مما تكره فهو مثاقيل ذر الشر ويدخر لكم مثاقيل ذر الخير حتى تعطوه يوم القيامة » . قال أبو إدريس : إن مصداقه في كتاب الله : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ^(٤) » . وقال مقاتل : نزلت في رجلين ، وذلك أنه لما نزل « وَيُطْعَمُونَ ^(٥) الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ » كان أحدهم يأتيه السائل فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة والحبوزة . وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير كالكذبة والغيبة والنظرة ، ويقول : إنما أوعده الله النار على الجائر ، فنزلت ترغيبهم في القليل من الخير أن يعطوه ؛ فإنه يوشك أن يكثر ، ويحذرهم اليسير من الذنب فإنه يوشك أن يكثر ؛ وقاله سعيد بن جبير . والإثم الصغير في عين صاحبه يوم القيامة أعظم من الجبال ، وجميع محاسنه أقل في عينه من كل شيء .

الثانية — قراءة العامة « يره » بفتح الياء فيهما . وقرأ الجحدري والسلمي وعيسى بن عمرو وأبان عن عاصم « يره » بضم الياء ، أي يريه الله إياه . والأولى الاختيار ؛ لقوله تعالى : « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمَّتْ ^(٦) مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا » الآية . وسكن الهاء في قوله « يره » في

(١) آية ٤٠ سورة النساء . راجع ج ٥ ص ١٩٥ (٢) كذا في الأصل وبعض كتب التفسير بإثبات الياء والراجح حذفها . (٣) آية ٣٠ سورة الشورى . (٤) آية ٨ سورة الإنسان . (٥) الحبوزة : واحدة الحبوز الذي يؤكل ؛ فارسي معرب . وهي أيضا : الشربة الواحدة من الماء . (٦) آية ٣٠ سورة آل عمران .

الموضعين هشام . وكذلك رواه الكسائي عن أبي بكر وأبي حيوة والمغيرة . واخترس يعقوب
والزهري والمجذري وشيبة . وأشبع الباقون . وقيل « يره » أى يرى جزاءه ؛ لأن ما عمله
قد مضى وعدم فلا يرى . وأنشدوا :

إن من يعتدى ويكسب إثماً * وزن مثقال ذرة سيراه
ويجازى بفعله الشرّ شراً * وبفعل الجميل أيضاً جزاه
هكذا قوله تبارك ربّي * فى إذا زلزلت وجلّ ثناه

الثالثة — قال ابن مسعود : هذه أحكم آية فى القرآن ؛ وصدق . وقد اتفق العلماء
على عموم هذه الآية ؛ القائلون بالعموم ومن لم يقل به . وروى كعب الأحبار أنه قال : لقد
أنزل الله على محمد آيتين أحصتا ما فى التوراة والإنجيل والزيبور والصحف : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ
ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » . قال الشيخ أبو مدين فى قوله تعالى :
« فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ » قال : فى الحال قبل المآل . وكان النبىّ صلى الله عليه وسلم
يسمى هذه الآية الآيات الجامعة الفائزة ؛ كما فى الصحيح لما سئل عن الحُمْر وسكت عن البغال
والجواب فيها واحد ؛ لأن البغل والحمار لا كتر فيهما ولا فتر ؛ فلما ذكر النبىّ صلى الله عليه وسلم
ما فى الخيل من الأجر الدائم والثواب المستمر ، سأل السائل عن الحُمْر لأنهم لم يكن عندهم
يومئذ بغل ولا دخل الحجاز منها إلا بغلة النبىّ صلى الله عليه وسلم « الدُّدْلُ » التى أهداها له
المقوقس فأفناه فى الحمير بعموم الآية ، وإن فى الحمار مثاقيل دَر كثيرة ؛ قاله ابن العربى . وفى
المَوْطَأ : أن مسكينا استطعم عائشة أم المؤمنين وبين يديها عِنَب ؛ فقالت لإنسان : خذ حبة
فأعطه إياها . فجعل ينظر إليها ويعجب ؛ فقالت : أتعجب ! كم ترى فى هذه الحبة من
مثقال ذرة . وروى عن سعد بن أبى وقاص أنه تصدق بتمرّتين فقبض السائل يده ، فقال
للسائل : ويقبل الله منا مثاقيل الذر ، وفى التمرّتين مثاقيل دَر كثيرة . وروى المطلب بن
حنطب أن أعرابياً سمع النبىّ صلى الله عليه وسلم يقرأها فقال : يارسول الله ، أمثقال ذرة !
قال « نعم » فقال الأعرابى : واسواتاه ! مرارا ، ثم قام وهو يقولها ؛ فقال النبىّ صلى الله

عليه وسلم : «لقد دخل قلب الأعرابي الإيمان» . وقال الحسن : قدم صعصعة عم الفرزدق^(١) على النبي صلى الله عليه وسلم فلما سمع «فمن يعمل مثقال ذرة» الآيات ؛ قال : لا أبالي ألا أسمع من القرآن غيرها ، حسبي فقد أتته الموعظة ؛ ذكره الثعلبي . ولفظ الماوردي : وروى أن صعصعة ابن ناجية جد الفرزدق أتى النبي صلى الله عليه وسلم يستقرئه فقرأ عليه هذه الآية ؛ فقال صعصعة : حسبي حسبي ؛ إن عملت مثقال ذرة شراً رأيتة . وروى معمر عن زيد بن أسلم أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : علمني مما علمك الله . فدفعه إلى رجل يعلمه ؛ فعلمه «إذا زلزلت - حتى إذا بلغ - فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» قال : حسبي . فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال : «دعوه فإنه قد فقّه» . ويحكى أن أعرابياً أحر «خيراً يره» فقيل : قدمت وأحرت . فقال :

خُذَا بَطْنَ هَرَشَى أَوْ قَفَاها فَإِنَّه * كِلَا جَانِبِي هَرَشَى لَمْ نَطْرِيقْ^(٢)

سورة «العاديات»

وهي مكية ؛ في قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء . ومدنية ؛ في قول ابن عباس وأنس ومالك وقتادة . وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَأَلْمُورِيَّتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ قوله تعالى : (وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا) أى الأفراس تعدو . كذا قال عامة المفسرين وأهل اللغة ؛ أى تعدو في سبيل الله فتضبح . قال قتادة : تضبح إذا عدت ؛ أى تُججج . وقال

(١) قال أبو أحمد العسكري : «وقد وهم بعضهم في صعصعة بن معاوية عم الأحنف بن قيس ، فقال : صعصعة عم الفرزدق وهو غلط» . والمعروف أن صعصعة بن ناجية هو جد الفرزدق وليس له عم يسمى صعصعة . راجع كتاب الإصابة وأسد الغابة في ترجمة صعصعة .

(٢) هرشى : ثنية في طريق مكة قريبة من الجحفة يرى منها البحر ، ولها طريقان ، فكل من سلك واحدا منهما أفضى به إلى موضع واحد . في معجم البلدان لياقوت : خدا أنف هرشى ... وفي اللسان : خدا جنب هرشى ...

الفراء : الضَّبْحُ صَوْتُ أَنْفَاسِ الْخَيْلِ إِذَا عَدَّوْنَ . أَبُو عَبَّاسٍ : لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الدَّوَابِّ يَضْبَحُ غَيْرَ الْفَرَسِ وَالْكَلبِ وَالثَّعْلَبِ . وَقِيلَ : كَانَتْ تُكْتَمُ^(١) لِثَلَا تَضْهِلُ فَيَعْلَمُ الْعَدُوُّ بِهِمْ ؛ فَكَانَتْ تَتَنَفَّسُ فِي هَذِهِ الْحَالِ بِقُوَّةٍ . قَالَ أَبُو الْعَرَبِيِّ : أَقْسَمَ اللَّهُ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : « يَس . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ » ، وَأَقْسَمَ بِحَيَاتِهِ فَقَالَ : « لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ »^(٢) ، وَأَقْسَمَ بِخَيْلِهِ وَصَهْلَيْهَا وَغَبَارِهَا وَقَدَحِ حَوَافِرِهَا النَّارِ مِنَ الْجَمْرِ فَقَالَ : « وَالْعَادِيَّاتِ ضَبْحًا » الْآيَاتِ الْخَمْسِ . وَقَالَ أَهْلُ اللَّغَةِ :

وطعنة ذات رشاش واهيه * طعنتها عند صدور العاديه

يعنى الخيل . وقال آخر :

والعادياتُ أسابيُّ الدماءِ بها * كأنَّ أعناقَها أنصابُ تَرْجِيْبِ^(٤)

يعنى الخيل . وقال عنتره :

والخيلُ تعلمُ حينَ تَضُّ * بيحُ في حياضِ الموتِ ضَبْحًا

وقال آخر :

لستُ بالتَّبِعِ الْيَمَانِيِّ لِمَنْ لَمْ * تَضْبَحِ الْخَيْلُ فِي سَوَادِ الْعِرَاقِ

وقال أهل اللغة : وَأَصْلُ الضَّبْحِ وَالضَّبَّاحِ لِلثَّعْلَبِ ؛ فَاسْتَعِيرَ لِلْخَيْلِ . وَهُوَ مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ :

ضَبِحْتَهُ النَّارَ إِذَا غَيَّرْتَ لَوْنَهُ وَلَمْ تَبَالِغْ فِيهِ . وَقَالَ الشَّاعِرُ :

فَلَمَّا أَنْ تَلَهُوْجَنَا شِوَاءً * بِهِ اللَّهْبَانُ مَقْهُورًا ضَبِيحًا^(٥)

وَأَنْضَبِحَ لَوْنُهُ إِذَا تَغَيَّرَ إِلَى السَّوَادِ قَلِيلًا . وَقَالَ :

* عَلَّقْتُهَا قَبْلَ أَنْضَبَاحِ لَوْنِي *

(١) الكمام : شئ . يجعل على فم البعير . (٢) آية ٧٢ سورة الحجر .

(٣) قوله : « قال أهل اللغة ... » إلى آخر البيت . هكذا ورد في جميع نسخ الأصل ، وظاهر أن فيه سقطا ؛ يوضحه أبو حيان في البحر بقوله : « قال أهل اللغة : أصله للثعلب ، فاستعير للخيل ... » الخ . على أن المؤلف أوردته فيما يأتي .

(٤) البيت لسلامة بن جندل . والأسابي : الطرق من الدم . وأسابي الدماء : طرائقها . والترجيب : أن تدعم الشجرة إذا كثرت حملها لئلا تنكسر أغصانها . قال ابن منظور : « فإنه شبه أعناق الخيل بالمرج . وقيل : شبه أعناقها بالمجارة التي تذبج عليها النساءك » .

(٥) البيت لمضرس الأسدي . والملهوج من الشواء : الذي لم يتم نضجه . واللهبان : انقاد النار واشتعالها .

وإنما تَضْبِحُ هذه الحيوانات إذا تغيرت حالها من فَرَغَ أو تَعَبَ أو طَمَعَ . ونصب «ضَبِحًا» على المصدر ؛ أي والعاديات تَضْبِحُ ضَبْحًا . والضَّبْحُ ^(١) أيضا الزماد . وقال البصريون : «ضَبِحًا» نصب على الحال . وقيل : مصدر في موضع الحال . قال أبو عبيدة : ضَبَحَتِ الخيلُ ضَبْحًا مثلُ ضَبَعَتْ ؛ وهو السير . وقال أبو عبيدة : الضَّبْحُ والضَّبْعُ بمعنى العَدْوِ والسير . وكذا قال المبرد : الضَّبْحُ مَدُّ أظباعها في السير . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سَريَّةً إلى أناس من بني كِثانة فأبطأ عليه خبرها ، وكان أستعمل عليهم المنذر بن عمرو الأنصاري ، وكان أحد النقباء ؛ فقال المنافقون : إنهم قُتلوا ؛ فنزلت هذه السورة إخبارًا للنبي صلى الله عليه وسلم بسلامتها ، وبشارة له بإغارتها على القوم الذين بعث إليهم . وممن قال : إن المراد بالعاديات الخيلُ ابنُ عباس وأنس والحسن ومجاهد . والمراد الخيل التي يغزو عليها المؤمنون . وفي الخبر : « من لم يعرف حُرمة فرس الغازي ففيه شُعبة من النفاق » . وقول ثاب : إنها الإبل ؛ قال مسلم : نازعت فيها عكرمة فقال عكرمة : قال ابن عباس هي الخيل . وقلت : قال عليّ هي الإبل في الحج ، ومولاي أعلم من مولاك . وقال الشعبي : ^(٢) تمارى عليّ وابن عباس في «العاديات» ، فقال عليّ : هي الإبلُ تعدو في الحج . وقال ابن عباس : هي الخيل ؛ ألا تراه يقول « فَاثَرَنَ بِهِ نَقْعًا » فهل تثير إلا بجوافرها ! وهل تضبِحُ الإبل ؟! فقال عليّ : ليس كما قلت ، لقد رأيتنا يوم بدر وما معنا إلا فرس أبلق للقداد وفرس لمرثد بن أبي مرثد ؛ ثم قال له عليّ : أتفتي الناس بما لا تعلم ! والله أن كانت لأوّل غزوة في الإسلام وما معنا إلا فرسان : فرس للقداد وفرس للزبير ؛ فكيف تكون العاديات ضبِحًا ! إنما العاديات الإبل من عَرَفة إلى المُزْدَلِفة ، ومن المُزْدَلِفة إلى عَرَفة . قال ابن عباس : فرجعت إلى قول عليّ . وبه قال ابن مسعود وعبيد بن عمير ومحمد بن كعب والسدي . ومنه قول صَفِيَّة بنت عبد المطلب :

فلا والعاديات غداة جَمَع • بأيديها إذا سَطَعَ الغبار

(١) في القاموس : « والضَّبْحُ بالكسر الرماد » . (٢) التمارى والمارة : المجادلة .

يعني الإبل . وسُميت العاديات لاشتقاقها من العَدْو، وهو تباعد الأرجل في سرعة المشي .
وقال آخر :

رأى صاحبي في العاديات نَجِيبَةً * وأمثالها في الواضعات القوامس^(١)

ومن قال هي الإبل فقوله « ضَبْحًا » بمعنى ضَبَعًا ؛ فالحاء عنده مبدلة من العين ؛ لأنه يقال :
ضَبَعَت الإبل وهو أن تمتد أعناقها في السير . وقال المبرد : الضَّبْعُ مَدُّ أضباعها في السير .
والضَّبْعُ أكثر ما يستعمل في الخيل . والضَّبْعُ في الإبل . وقد تبدل الحاء من العين . أبو صالح :
الضَّبْعُ من الخيل المَحْمَمَةُ ، ومن الإبل التنفُّس . وقال عطاء : ليس شيء من الدواب يضبغ
إلا الفرسُ والثعلبُ والكلبُ ؛ وروى عن ابن عباس . وقد تقدّم عن أهل اللغة أن العرب
تقول : ضبغ الثعلب ؛ وضبغ في غير ذلك أيضا . قال توبة :

ولو أن لَيْلَى الأَخْيَلِيَّةَ سَلَّمَتْ * على ودوني تُرْبَةً وِصْفَائِحُ^(٢)
لَسَلَّمْتُ تَسْلِيمَ البِشَاشَةِ أو زَقَا * إليها صدّي من جانب القبر ضابح^(٣)

زَقَا الصدى يَزُقُو زُقَاً ؛ أي صاح . وكل زاقٍ صائح . والزَّقِيَّةُ الصبيحة . (فالْمُورِيَّاتِ
قدحا) قال عكرمة وعطاء والضحاك : هي الخيل حين توري النار بجوافرها ،
وهي سنابكها ؛ وروى عن ابن عباس . وعنه أيضا : أورت بجوافرها غُبَارًا . وهذا
يخالف سائر ما روى عنه في قدح النار ؛ وإنما هذا في الإبل . وروى ابن أبي نجیح عن
مجاهد « والعَادِيَّاتِ ضَبْحًا . فالْمُورِيَّاتِ قَدْحًا » قال ابن عباس : هو في القتال وهو
في الحج . ابن مسعود : هي الإبل تطأ الحصى فتخرج منها النار . وأصل القَدْحُ الاستخراج ؛

(١) في اللسان مادة (عدا) : « وحكى الأزهري عن ابن السكيت . وإبل عادية ترعى الخلة ولا ترعى الحمض ...
وقال : وكذلك العاديات » وساق البيت . وفي اللسان أيضا مادة (وضع) : « وناقاة واضع وواضعة ونوق واضعات :
ترعى الحمض حول الماء . وأنشد ابن بري قول الشاعر ... » الخ . ولفظ « القوامس » هكذا ورد في اللسان
وشرح القاموس . وبعض نسخ الأصل . وفي نسخة : « القرامس » بالراء . ولعل الصواب : « المرامس » جمع مرمس
(بكسر العين) : وهي الناقاة الضلبة الشديدة .

(٢) في نسخة : « جندل » وهي رواية في البيت . (٣) في رواية صالح . ولا شاهد فيه .

(٤) في اللسان : « زقا يزقو يزق زقوا وزقوا وزقوا وزقوا وزقوا وزقوا وزقوا وزقوا وزقوا »

ومنه قَدَحْتُ العينَ إذا أخرجتَ منها الماءَ الفاسدَ . واقتدَحْتُ بالزُّندِ . واقتدحتُ المرقَّ
 غرفته . وَرَكِي قُدُوحٌ تُغْتَرَفُ باليدِ . والقَدِيحُ ما يبقَى في أسفلِ القِدْرِ فيغرفُ بِجَهْدٍ . والمِقْدَحَةُ
 ما تُقَدَحُ به النارُ . والقَدَاحَةُ والقَدَاحُ الحجرُ الذي يُورِي النارَ . يقالُ : وَرَى الزُّنْدُ (بالفتح) يَرِي
 وَرِيًّا إذا خرجتِ نارهُ . وفيه لغةٌ أخرى : وَرَى الزُّنْدُ (بالكسر) يَرِي فيهما . وقد مضى هذا
 في سورة « الواقعة »^(١) . و « قَدَحًا » أنتصب بما أنتصب به « ضَبْحًا » . وقيل : هذه الآياتُ
 في الخليل ؛ ولكن إراءها أن تهيج الحرب بين أصحابها وبين عدوهم . ومنه يقال للحرب إذا ألحمت :
 حَمَى الوَطِيسُ . ومنه قوله تعالى : « كَلِمًا أَوْقَدُوا نَارًا للحَرِّ أَطْفَأَهَا اللهُ »^(٢) . وروى معناه
 عن ابن عباس أيضا ، وقاله قتادة . وعن ابن عباس أيضا : أن المراد بالموريات قَدَحًا مكر
 الرجال في الحرب ؛ وقاله مجاهد وزيد بن أسلم . والعرب تقول إذا أراد الرجل أن يَمَكُرَ
 بصاحبه : والله لا مكرت بك ، ثم لأورين لك . وعن ابن عباس أيضا : هم الذين يَغزُونَ
 فيُورون نيرانهم بالليل لحاجتهم وطعامهم . وعنه أيضا : أنها نيران المجاهدين إذا كثرت
 نَارُهَا إرهابًا . وكل من قُرِبَ من العدو يوقد نيرانا كثيرة ليظنهم العدو كثيرا . فهذا إقسام
 بذلك . قال محمد بن كعب : هي النار تجمع . وقيل : هي أفكار الرجال تُورِي نار المكر
 والخديعة . وقال عكرمة : هي ألسنة الرجال تُورِي النار من عظيم ما تتكلم به ، ويظهر بها من
 إقامة الحجج وإقامة الدلائل وإيضاح الحق وإبطال الباطل . وروى ابن جرير عن بعضهم
 قال : فالمنجحات أمرًا وعملا كنجاح الزُّند إذا أورى .

قلت : هذه الأقوال مجاز ؛ ومنه قولهم : فلان يُورِي زناد الضلالة . والأول الحقيقة ،
 وأن الخليل من شدّة عدوها تُقَدَحُ النار بحوافرها . قال مقاتل : العرب تسمي تلك النار نارَ
 أبي حُبَاحِبٍ ، وكان أبو حُبَاحِبٍ شيخًا من مُضَرَ في الجاهلية من أبجل الناس ، وكان لا يوقد
 نارا لخبز ولا غيره حتى تنام العيون فيوقد نُورًا تَقْدِرُ مرةً وتَمُتُّ أخرى ؛ فإن استيقظ لها أحد

(١) راجع ج ١٧ ص ٢٢١ (٢) آية ٦٤ سورة المائدة .

أطفأها كراهية أن ينتفع بها أحد . فشَبَّهت العَرَبُ هذه النَّارَ بِناره ، لأنه لا يُنْتَفَعُ بها .
وكذلك إذا وقع السيف على اليَئِضَة فأَقْدَحَت نَارًا فَكَذَلِكَ يُسَمُّونَهَا . قال النابغة :

ولا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سُبُونَهُمْ • بَيْنَ فُلُولٍ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَابِ
تَقْدُّ السُّلُوقِ الْمَضَاعَفِ نَسْجُهُ • وَتُوَقَّدُ بِالصَّفَاحِ نَارَ الْجُبَابِ^(۱)

قوله تعالى : فَأَلْمِغِيرَاتٍ صُبْحًا ﴿۴﴾

الخيل تُغَيَّرُ عَلَى الْعَدُوِّ عِنْدَ الصَّبْحِ ؛ عَنْ أَبِي هَبَّاسٍ وَأَكْثَرِ الْمَفْسَرِينَ . وَكَانُوا إِذَا أَرَادُوا
الغارة سَرَوْا لَيْلًا وَيَاتُونَ الْعَدُوَّ صُبْحًا ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ وَقْتُ غَفْلَةِ النَّاسِ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : « فَسَاءَ
صَبَّاحُ الْمُنْذِرِينَ » . وَقِيلَ : لِيَزْمَ أَغَارُوا نَهَارًا ؛ وَ« صُبْحًا » عَلَى هَذَا ، أَيِ عَلَانِيَةً تَشْبِهُهَا
بظهور الصبح . وَقَالَ أَبُو مَسْعُودٍ وَعَلِيُّ بْنُ رِضَى اللَّهِ عَنْهُمَا : هِيَ الْإِبِلُ تَدْفَعُ بِرِجْلِهَا يَوْمَ النَّحْرِ مِنْ
مِنَى إِلَى جَمْعٍ . وَالسُّنَّةُ أَلَّا تَدْفَعُ حَتَّى تُصْبِحَ ؛ وَقَالَ الْقُرْظِيُّ . وَالْإِغَارَةُ سُرْعَةُ السَّيْرِ ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ :
أَشْرَقَ نُبَيْرٌ كَيْمَا نَغِيرٌ .^(۲)

قوله تعالى : فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا ﴿۵﴾

أَيُّ غَبَارًا ؛ يَعْنِي الْخَيْلُ تُثِيرُ الْغَبَارَ بِشِدَّةِ الْعَدُوِّ فِي الْمَكَانِ الَّذِي أَغَارَتْ بِهِ . قَالَ عَبْدُ اللَّهِ
أَبْنُ رَوَاحَةَ :

عَدِمْتُ بُنْيَتِي إِنْ لَمْ تَرَوْهَا • تُثِيرُ النَّقْعَ مِنْ كَنَفِي كَدَاءِ^(۳)

وَالْحِكَايَةُ فِي « بِهِ » تَرْجِعُ إِلَى الْمَكَانِ أَوَّالِ الْمَوْضِعِ الَّذِي تَقَعُ فِيهِ الْإِغَارَةُ . وَإِذَا عَلِمَ الْمَعْنَى جَازَ
أَنْ يُكْتَنَى عَمَّا لَمْ يَجْرُلْهُ ذَكَرَ بِالتَّصْرِيحِ ؛ كَمَا قَالَ « حَتَّى تَوَارَتْ بِالْجُبَابِ » . وَقِيلَ : « فَأَثَرُنَ بِهِ »^(۴)

(۱) الدلوق : الدرع المنسوبة إلى سلوق ، قرية باليمن . والصفاح : جمع صفحة ، وهي الحجر الرخيص .

(۲) آية ۱۷۷ سورة الصافات .

(۳) نبير : جبل بقرب مكة ، وهو على يمين الذهاب إلى مكة . أي ادخل في الشروق ، وهو ضوء الشمس .

(۴) كداء . (بفتح الكاف ومع الدال) : جبل بمكة .

(۵) آية ۳۲ سورة ص .

أى بالعدو «نقعا» . وقد تقدم ذكر العدو . وقيل : النقع ما بين مُزْدَلِفَةَ إلى مِثَى ، قاله محمد ابن كعب القرظي . وقيل : إنه طريق الوادي ؛ ولعله يرجع إلى الغبار المثار من هذا الموضع . وفي الصحاح : النقع الغبار ، والجمع نقاع . والنقع محبس الماء . وكذلك ما اجتمع في البئر منه . وفي الحديث : أنه نهى أن يُمنع نقع البئر . والنقع الأرض الحُرَّة الطين يستنقع فيها الماء ؛ والجمع نقاع وأنقع ؛ مثل بحر وبحار وأبحر .

قلت : وقد يكون النقع رفع الصوت ؛ ومنه حديث عمر حين قيل له : إن النساء قد اجتمعن يبكين على خالد بن الوليد ؛ فقال : وما على نساء بني المغيرة أن يسفكن من دموعهن وهن جلوس على أبي سليمان ما لم يكن نَقْعٌ ولا لَقْلَقَةٌ . قال أبو عبيد : يعني بالنقع رفع الصوت ؛ على هذا رأيت قول الأكثرين من أهل العلم ؛ ومنه قول لبيد :

فَمَتَى يَنْقَعُ صُرَاخٌ صَادِقٌ * يُحْلِبُهَا ذَاتَ جَرِيْسٍ وَزَجَلٍ

ويروى «يحلبوها» أيضا . يقول : متى سمعوا صراخا أحلبوا الحرب ، أى جمعوا لها . وقوله «ينقع صراخ» يعنى رفع الصوت . وقال الكسائي : قوله «نَقْعٌ وَلَا لَقْلَقَةٌ» النقع صناعة الطعام ؛ يعنى فى المأتم . يقال منه : نقعت أنقع نقعا . قال أبو عبيد : ذهب بالنقع إلى النقيعة ؛ وإنما النقيعة عند غيره من العلماء صناعة الطعام عند القدوم من سفر لا فى المأتم . وقال بعضهم : يريد عُمرُ بالنقع وضع التراب على الرأس ؛ يذهب إلى أن النقع هو الغبار . ولا أحسب عُمر ذهب إلى هذا ، ولا خافه منهن ، وكيف يبلغ خوفه ذا وهو يكره لهن القيام . فقال : يسفكن من دموعهن وهن جلوس . قال بعضهم : النقع شق الجيوب ؛ وهو الذى لا أدرى ما هو من الحديث ولا أعرفه ، وليس النقع عندى فى هذا الحديث إلا الصوت الشديد ، وأما اللَّقْلَقَةُ فشدّة الصوت ، ولم أسمع فيه اختلافا . وقرأ أبو حيوَةَ «فأثرن» بالتشديد ؛ أى أرت آثار ذلك . ومن خفف فهو من أثار إذا حرك ؛ ومنه «وأثاروا الأرض^(١)» .

(١) آية ٩ سورة الروم .

قوله تعالى : فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٦٠﴾

«جمعا» مفعول بـ «وسطن» ؛ أى فَوَسَطْنَ بُرْجَانِنِ الْعَدُوِّ ؛ أى الجمع الذى أغاروا عليهم .
وقال ابن مسعود : «فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا» يعنى مُزْدَلِفَةَ ؛ وَسَمَّيْتِ جَمْعًا لِاجْتِمَاعِ النَّاسِ بِهَا .
ويقال : وَسَطْتُ الْقَوْمَ أَسْطَهُمْ وَسَطًا وَسِطَةً ؛ أى صِرْتُ وَسَطَهُمْ . وقرأ على رضى الله
عنه « فَوَسَطْنَ » بالتشديد ، وهى قراءة قتادة وابن مسعود وأبى رجا ؛ لغتان بمعنى ، يقال :
وسطت القوم (بالتشديد والتخفيف) وتوسطتهم بمعنى واحد . وقيل : معنى التشديد جعلها
الجمع قسمين . والتخفيف صرن فى وسط الجمع ؛ وهما يرجعان إلى معنى الجمع .

قوله تعالى : إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦١﴾

هذا جواب القسم ؛ أى طَبَعَ الْإِنْسَانَ عَلَى كُفْرَانِ النِّعْمَةِ . قال ابن عباس : «لَكَنُودٌ»
لَكَفُورٌ جِحُودٌ لِنِعْمِ اللَّهِ . وكذلك قال الحسن . وقال : يَذْكُرُ الْمَصَائِبَ وَيَنْسَى النِّعْمَ . أخذه
الشاعر فنظمه :

يأبى الظالم فى فعله * والظلم مردود على من ظلم
إلى متى أنت وحتى متى * تشكو المصائب وتنسى النعم

وروى أبو أمامة الباهلي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الْكَنُودُ هُوَ الَّذِي
يَأْكُلُ وَحْدَهُ وَيَمْنَعُ رِفْدَهُ ^(١) وَيَضْرِبُ عَبْدَهُ » . وروى ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : « أَلَا أَنْبَيْتُمْ بَشَرَارَكُمْ » ؟ قالوا بلى يا رسول الله . قال : « مَنْ نَزَلَ وَحْدَهُ
وَمَنْعَ رِفْدَهُ وَجَلَدَ عَبْدَهُ » . خرجهما الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول . وقد روى عن
ابن عباس أيضا أنه قال : الكنود بلسان كندة وحضرموت : العاصى ، ولسان ربيعة
ومضر : الكفور . ولسان كنانة : البخيل السبى المَلَكَةُ ؛ وقاله مقاتل . وقال الشاعر :
كَنُودٌ لِنِعْمَاءِ الرِّجَالِ وَمَنْ يَكُنْ * كَنُودًا لِنِعْمَاءِ الرِّجَالِ يُبْعِدُ

(١) الرفد (بكسر الراء) : العطاء والصلة .

- أى كفور . ثم قيل : هو الذى يكفر اليسير ولا يشكر الكثير . وقيل : الجاحد للمحق .
 وقيل : إنما سُميت كندة كندة لأنها جحدت أباه . وقال إبراهيم بن هرمة الشاعر :
 دَعِ الْبُخْلَاءَ إِنْ تَمَيَّحُوا وَصَدُّوا * وَذِكْرَى بَخْلٍ غَانِيَةٍ كَنُودِ
 وقيل : الكنود من كند إذا قطع ؛ كأنه يقطع ما ينبغى أن يواصله من الشكر . ويقال :
 كند الحبل إذا قطعه . قال الأعشى :
 أَمِيطِي تُمِيطِي بِصُلبِ الْفَوَادِ * وَصُورِ حِبَالٍ وَكَنَائِهَا
 فهذا يدل على القطع . ويقال : كند يكند كنوداً ؛ أى كفر النعمة وجمدها ، فهو كنود .
 وأمرأة كنود - أيضاً - وكند مثله . قال الأعشى :
 أَحَدِثْ لَهَا تُحَدِّثْ لَوْصَلِكْ إِنْهَا * كُنْدٌ لَوْصَلِ الزَّائِرِ الْمُعْتَادِ^(٢)
 أى كفور للمواصله . وقال ابن عباس : الإنسان هنا الكافر ؛ يقول إنه لكفور ؛ ومنه
 الأرض الكنود التي لا تُنبت شيئاً . وقال الضحاك : نزلت في الوليد بن المغيرة . قال المبرد :
 الكنود المانع لما عليه . وأنشد^(٣) لكثير :
 أَحَدِثْ لَهَا تُحَدِّثْ لَوْصَلِكْ إِنْهَا * كُنْدٌ لَوْصَلِ الزَّائِرِ الْمُعْتَادِ
 وقال أبو بكر الواسطي : الكنود الذى يُنفق نِعَمَ الله فى معاصى الله . وقال أبو بكر الوراق :
 الكنود الذى يرى النعمة من نفسه وأعوانه . وقال الترمذى : الذى يرى النعمة ولا يرى المنعم .
 وقال ذو النون المصرى : الهلوع والكنود هو الذى إذا مسه الشر جُزوع ، وإذا مسه الخير
 منوع . وقيل : هو الحقود الحسود . وقيل : هو الجهول لقدره . وفى الحكمة : مَنْ جَهَلَ
 قَدْرَهُ هَتَكَ سِتْرَهُ .

(١) ماط الأذى مبطاً وأماطه : نحاه ودفنه . يقول : إن تخيت عنى فإنى صلب الفواد ، وصول لمن وصل ،

كفور لمن كفر . (٢) المعتاد : الذى يعود مرة بعد أخرى .

(٣) تقدم أن هذا البيت للأعشى ، ولم نجده فى ديوان كثير الذى بين أيدينا .

قلت : هذه الأقوال كلها ترجع إلى معنى الكفران والمجود . وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم معنى الكنود بنحو مذبذبة وأحوال غير محمودة؛ فإن صح فهو أعلى ما يقال، ولا يبقى لأحد معه مقال .

قوله تعالى : **وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ** ﴿٧﴾

أى وإن الله عز وجل ثناءؤه على ذلك من ابن آدم لشهيد . كذا روى منصور عن مجاهد ؛ وهو قول أكثر المفسرين، وهو قول ابن عباس . وقال الحسن وقتادة ومحمد بن كعب : « وإنه » أى وإن الإنسان لشاهد على نفسه بما يصنع؛ وروى عن مجاهد أيضا .

قوله تعالى : **وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ** ﴿٨﴾

قوله تعالى : **(وَإِنَّهُ)** أى الإنسان من غير خلاف . **(لِحُبِّ الْخَيْرِ)** أى المال؛ ومنه قوله تعالى : **(إِنْ تَرَكَ خَيْرًا)** . وقال عدي : ^(١)

مَازَا تُرْجَى النَّفْسُ مِنْ طَلَبِ الْخَيْرِ وَحُبِّ الْحَيَاةِ كَارِبَهَا ^(٢)

(لَشَدِيد) أى لقوى فى حبه للمال . وقيل : « لشديد » لبخيل . ويقال للبخيل : شديد ومتشدد . قال طرفة :

أرى الموتَ يعتامُ الكرامَ ويصطفي * عقيلةً مالٍ الفاحش المتشدد

يقال : اعتامه وأعتماه؛ أى آخثاره . والفاحش : البخيل أيضا ؛ ومنه قوله تعالى : **« وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ »** ^(٣) أى البخل . قال ابن زيد : سمي الله المال خيرا؛ وعسى أن يكون شرا وحراما ؛ ولكن الناس يعدونه خيرا فسماه الله خيرا لذلك . وسمى الجهاد سوءا فقال : ^(٤) **« فَأَقْبَلُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضِيلٍ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ »** على ما يسميه الناس . قال الفراء : نظم الآية أن يقال وإنه لشديد الحب للخير؛ فلما تقدم الحب قال شديد وحذف من آخره ذكر

(١) آية ١٨٠ سورة البقرة . (٢) كاربها : غامها ؛ من كربه الأمر : اشتد عليه .

(٣) آية ٢٦٨ سورة البقرة . (٤) فى بعض نسخ الأصل : « شرا وخيرا » .

(٥) آية ١٧٤ سورة آل عمران .

الحب؛ لأنه قد جرى ذكره، ولرءوس الآي؛ كقوله تعالى: «فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ»^(١) وَالْعُصُوفُ لِلرَّيْحِ لَا الْأَيَّامَ، فلما جرى ذكر الريح قبل اليوم طرح من آخره ذكر الريح؛ كأنه قال: في يوم عاصِفِ الريح.

قوله تعالى: أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ أي ابن آدم ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾ أي أثير وقلب وبحث فأخرج ما فيها. قال أبو عبيدة: بعثرت المتاع جعلت أسفله أعلاه. وعن محمد بن كعب قال: ذلك حين يبعثون. الفراء: سمعت بعض أعراب بني أسد يقرأ «بُحْثِرَ» بالحاء مكان العين؛ وحكاها الماوردي عن ابن مسعود، وهما بمعنى. ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي مَيِّزَ ما فيها من خير وشر؛ كذا قال المفسرون. وقال ابن عباس: أْبْرِزَ. وقرأ عبيد بن عمير وسعيد بن جبيرة ويحيى بن يعمر ونصر بن عاصم «وَحَصَّلَ» بفتح الحاء وتخفيف الصاد وفتحها؛ أي ظهر. ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ أي عالم لا يخفى عليه منهم خافية. وهو عالم بهم في ذلك اليوم وفي غيره، ويمكن المعنى أنه يجازيهم في ذلك اليوم. وقوله: «إِذَا بُعْثِرَ» العامل في «إِذَا»: «بُعْثِرَ» ولا يعمل فيه «يعلم»؛ إذ لا يراد به العلم من الإنسان ذلك الوقت، إنما يراد في الدنيا. ولا يعمل فيه «خَبِيرٌ»؛ لأن ما بعد «إِنَّ» لا يعمل فيما قبلها. والعامل في «يَوْمَئِذٍ»: «خَبِيرٌ» وإن فصلت اللام بينهما؛ لأن موضع اللام الابتداء، وإنما دخلت في الخبر لدخول «إِنَّ» على المبتدأ. ويروى أن الججاج قرأ هذه السورة على المنبر يحضهم على الغزو، فجري على لسانه «أَنْ رَبَّهُمْ» بفتح الألف، ثم استدركها فقال: «خَبِيرٌ» بغير لام. ولولا اللام لكانت مفتوحة لوقوع العلم عليها. وقرأ أبو السَّمال «أَنْ رَبَّهُمْ يَوْمَئِذٍ خَبِيرٌ». والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) آية ١٨ سورة إبراهيم.

تفسير سورة « القارعة »

وهى مكية بإجماع . وهى عشر آيات^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾

قوله تعالى : (الْقَارِعَةُ . مَا الْقَارِعَةُ) أى القيامة والساعة ؛ كذا قال عامة المفسرين .
وذلك أنها تفرع الخلائق بأهوالها وأفزاعها . وأهل اللغة يقولون : تقول العرب قرعتهم
القارعة ، وفقرتهم الفارقة ؛ إذا وقع بهم أمرٌ فظيع . قال ابن أحرر :

وقارعة من الأيام لولا * سبيلهم لراحت^(٢) عنك حيناً

وقال آخر :

متى تفرع بمروءتكم نسؤم^(٣) * ولم توقد لنا فى القدر نار^(٤)

وقال تعالى : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ » وهى الشديدة من

شدائد الدهر .

قوله تعالى : (مَا الْقَارِعَةُ) استفهام ؛ أى أى شىء هى القارعة ؟ وكذا (وَمَا أَدْرَاكَ
مَا الْقَارِعَةُ) كلمة استفهام على جهة التعظيم والتفخيم لشأنها ؛ كما قال : « الْحَاقَّةُ . مَا الْحَاقَّةُ .
وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ » على ما تقدم .

(١) فى كتاب روح المعانى : وآياتها إحدى عشرة آية فى الكوفى ، وعشر فى الجازى ، وثمان فى البصرى والشامى .

(٢) فى بعض النسخ : « لراحت » بالراء . (٣) المروءة : حجر يقذف منه النار .

(٤) آية ٣١ سورة الرعد . (٥) راجع ج ١٨ ص ٢٥٧

قوله تعالى : يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾

« يوم » منصوب على الظرف ، تقديره : تكون القارعة يوم يكون الناس كالفراش المبثوث . قال قتادة : الفرّاش الطير الذي يتساقط في النار والسراج . الواحدة فراشة ؛ وقاله أبو عبيدة . وقال الفراء : إنه الهمج الطائر من بعوض وغيره ؛ ومنه الجرّاد . ويقال : هو أطيش من فراشة . وقال :

طُوَيْشٌ مِنْ نَفْرَاطِيْشٍ * أَطِيْشٌ مِنْ طَائِرَةِ الْفَرَاشِ

وقال آخر :

وقد كان أقوام رددت قلوبهم * إليهم وكانوا كالفرّاش من الجهل

وفي صحيح مسلم عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا بِفِعْلِ الْجِنَادِ وَالْفَرَاشِ يَتَمَنَّ فِيهَا وَهُوَ يَذُبُّ عَنْهَا وَأَنَا آخِذٌ بِحُجْرَتِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَفَلَتُونَ مِنْ يَدِي » . وفي الباب عن أبي هريرة . والمبثوث المتفرق . وقال في موضع آخر : « كَانَهُمْ جَرَادٌ مَنْتَشِرٌ » . فأقول حالهم كالفرّاش لا وجه له يتخيّر في كل وجه ثم يكونون كالجراد ؛ لأن لها وجهًا تقصده . والمبثوث : المتفرق المنتشر . وإنما ذكر على اللفظ ؛ كقوله تعالى : « أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ »^(٣) ولو قال المبتوث [فهو] كقوله تعالى : « أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ »^(٥) . وقال ابن عباس والفراء : « كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ » كغوغاء الجرّاد يركب بعضها بعضها . كذلك الناس يجول بعضهم في بعض إذا بعثوا .

قوله تعالى : وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾

أي الصوف الذي يُنفش باليد ؛ أي تصير هباءً وتزول ؛ كما قال جل ثناؤه في موضع آخر : « هَبَاءٌ مُنْبَثًا »^(٦) . وأهل اللغة يقولون : العهن الصوف المصبوغ . وقد مضى في سورة « سأل سائل »^(٧) .

(١) في بعض النسخ : « عليهم » . (٢) آية ٧ سورة القمر . (٣) آية ٢٠ سورة القمر .

(٤) الزيادة من تفسير ابن عادل يقتضيا السياق . (٥) آية ٧ سورة الحاقة .

(٦) آية ٦ سورة الواقعة . (٧) راجع ج ١٨ ص ٢٨٤ .

قوله تعالى : فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾
وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأَمَّهُ هَٰوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا آذْرَتْكَ مَاهِيَةٌ ﴿١٠﴾
نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾

قد تقدم القول في الميزان في «الأعراف والكهف والأنبياء». وأن له كفة ولساناً تُوْزن فيه الصحف المكتوب فيها الحسنات والسيئات . ثم قيل : إنه ميزان واحد بيد جبريل يزن أعمال بني آدم ؛ فعبّر عنه بلفظ الجمع . وقيل : موازين ؛ كما قال :
فَلِكُلِّ حَادِثَةٍ لَهَا مِيزَانٌ ﴿٢﴾

وقد ذكرناه فيما تقدم . وذكرناه أيضاً في كتاب «التذكرة» . وقيل : إن الموازين المحجج والدلائل ؛ قاله عبد العزيز بن يحيى ، واستشهد بقول الشاعر :

قَد كُنْتُ قَبْلَ لِقَائِكُمْ ذَا مِرَّةٍ * عِنْدِي لِكُلِّ مُحَاصِمٍ مِيزَانُهُ

ومعنى «عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ» أى عيش مرضى يرضاه صاحبه . وقيل : «عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ» أى فاعلة للرضا ؛ وهو اللين والآنقياد لأهلها . فالفعل للعيشة لأنها أعطت الرضا من نفسها ؛ وهو اللين والآنقياد . فالعيشة كلمة تجمع النعم التى فى الجنة ؛ فهى فاعلة للرضا ؛ كالفرش المرفوعة ، وأرتفاعها مقدار مائة عام ، فإذا دنا منها وليّ الله آتَضَعَتْ حتى يستوى عليها ثم ترتفع كهيئتها . ومثل الشجرة فروعها ، كذلك أيضاً من الارتفاع ، فإذا أشتهى وليّ الله ثمرتها تدلت إليه حتى يتناولها وليّ الله قاعداً وقائماً ؛ وذلك قوله تعالى : «قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٤﴾» . وحيث ما مشى أو ينتقل من مكان إلى مكان ، جرى معه نهر حيث شاء علواً وسفلاً ؛ وذلك قوله تعالى : «يَفْجَرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٥﴾» . فيروى فى الخبر " إنه يشير بقضيبه فيجرى من غير أخذود حيث شاء من قصوره وفى مجالسه " . فهذه الأشياء كلها عيشة قد أعطت الرضا من نفسها ؛ فهى

(١) راجع ج ٧ ص ١٦٥ وما بعدها . وج ١١ ص ٦٦ و ص ٢٩٣

(٢) صدر البيت : * ملك تقوم الحادثات لعدله *

(٣) راجع ج ١١ ص ٢٩٣ (٤) آية ٢٣ سورة الحاقة . (٥) آية ٦ سورة الإنسان .

فاعلة للرضا، وهي آندلت وأنقادت بَدَلًا وسماحة . ومعنى (فَأُمُّ هَاوِيَةٍ) يعنى جهنم .
وسمّاها أمّا لأنه ياوى إليها كما ياوى إلى أمه؛ قاله ابن زيد . ومنه قول أمية بن أبى الصلت:
فالأرض معقلنا وكانت أمنا * فيها مقابرنا وفيها نُؤلِّدُ

وسميت النار هاوية لأنه يهوى فيها مع بُعد قعرها . ويروى أن الهاوية أسم الباب الأسفل
من النار . وقال قتادة : معنى « فَأُمُّ هَاوِيَةٍ » فصيره إلى النار . عكرمة : لأنه يهوى فيها على
أُم رأسه . الأخفش : « أمه » مستقره . والمعنى متقارب . وقال الشاعر :
يا عمرو لو نالتك أرماحنا * كنت كمن تهوى به الهاويه

والهاوية : المهوأة . وتقول : هوت أمه فهى هاوية أى ثاكلة؛ قال كعب بن سعد الغنوى :
هوت أمه ما يبعث الصبحُ غادياً * وماذا يُؤدّى الليلُ حين يؤوب

والمهوى والمهواة ما بين الجبلين ، ونحو ذلك . وتهاوى القومُ فى المهوأة إذا سقط بعضهم
فى إثر بعض . (وَمَا أُدْرَاكَ مَا هِيَ) الأصل « ما هى » فدخلت الهاء للسكت . وقرأ حمزة
والكسائى ويعقوب وابن محيصن « ماهى . نارٌ » بغير هاء فى الوصل ؛ ووقفوا بها . وقد مضى
فى سورة « الحاقة »^(١) بيانه . (نَارٌ حَامِيَةٌ) أى شديدة الحرارة . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة
أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ناركم هذه التى يُوقد ابن آدم جزءاً من سبعين جزءاً من
حز جهنم » قالوا : والله إن كانت لكافيةً يا رسول الله . قال : « فإنها فضلت عليها بتسعة
وستين جزءاً كلها مثلُ حترها » . وروى عن أبى بكر رضى الله عنه أنه قال : إنما تُقَلُّ ميزانُ
من تُقَلُّ ميزانه لأنه وُضع فيه الحق ، وحُق لميزان يكون فيه الحق أن يكون ثقيلًا . وإنما
خَفَّ ميزانُ من خَفَّ ميزانه لأنه وُضع فيه الباطل ، وحُق لميزان يكون فيه الباطل أن يكون
خفيفًا . وفى الخبر عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : « أن الموتى يسألون الرجل
ياتيهم عن رجل مات قبله فيقول ذلك مات قبلى أما مَرَّ بكم فيقولون لا والله فيقول
إن الله وإنا إليه راجعون ذهب به إلى أمه الهاوية فبئست الأثم وبئست المرئية » .
وقد ذكرناه بكامله فى كتاب « التذكرة » والحمد لله .

(١) راجع ج ١٨ ص ٢٦٩

تفسير سورة « التكاثر »

وهي مكّية، في قول جميع المفسرين . وروى البخاري أنها مدنية . وهي ثمانى آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : **أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾**

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : **(أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ)** « أَلْهَاكُم » شغلكم . قال :

* فَأَلْهَيْتَهَا عَنْ ذِي تَمَامٍ مَّغِيلٍ *^(١)

أى شغلكم المباهاة بكثرة المال والعدد عن طاعة الله حتى متم ودُفنتم في المقابر . وقيل :
« أَلْهَاكُم » أنساكم . « التكاثر » أى من الأموال والأولاد؛ قاله ابن عباس والحسن . وقال
قتادة : أى التفاخر بالقبائل والعشائر . وقال الضحاك : أى أَلْهَاكُم التشاغل بالمعاش والتجارة .
يقال : لَهَيْتُ عَنْ كَذَا (بالكسر) أَلْهَيْتُ لَهْيًا وَلَهْيَانًا إِذَا سَلَوْت عَنْهُ وَتَرَكْتْ ذِكْرَهُ وَأَضْرَبْت عَنْهُ .
وأَلْهَاهُ أَى شَغَلَهُ . وَلَهَّاهُ بِهِ تَلْهِيمَةً أَى عِلَّهُ . وَالتَّكَاثُرُ : المكاثرة . قال مقاتل وقتادة وغيرهما :
نزلت في اليهود حين قالوا : نحن أكثر من بنى فلان ؛ وبنو فلان أكثر من بنى فلان ؛ أَلْهَاهُمْ
ذلك حتى ماتوا ضلّالا . وقال ابن زيد : نزلت في نِخْذٍ مِنَ الْأَنْصَارِ . وقال ابن عباس ومقاتل
والكاسبي : نزلت في حَيِّينَ مِنْ قُرَيْشٍ : بنى عبد مناف ، وبنى سَهْمٍ ؛ تَعَادَا وَتَكَاثَرَا بِالسَّادَةِ
وَالْأَشْرَافِ فِي الْإِسْلَامِ ؛ فَقَالَ كُلُّ حَيٍّ مِنْهُمْ : نحن أكثر سيدا ، وأعز عزيزا ، وأعظم نفرا ،
وأكثر عائدا ؛ فَكَثَرَ بَنُو عَبْدِ مَنْفَافٍ سَهْمًا . ثم تكاثروا بالأموات فَكَثَرَتْهُمْ سَهْمٌ ؛ فنزلت

(١) هذا مجزب بيت من معلقة امرئ القيس ، وصدرة :

* فَنَلَكِ حَبْلِي قَدْ طَرَقَتْ وَمَرْضَعٌ *

وبروى : « تَمَامٌ مَّجُولٌ » ؛ أى قد أتى عليه الحول . و « المغيبل » : الذى تؤق أمه وهى ترضعه .

«أهلآكم التكاثر» بأحيائكم فلم ترضوا (حتى زرتم المقابر) مفتخرين بالأموات. وروى سعيد عن قتادة قال : كانوا يقولون نحن أكثر من بني فلان، ونحن أعد من بني فلان؛ وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم، والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم. وعن عمرو بن دينار : حلف أن هذه السورة نزلت في التجار. وعن شيبان عن قتادة قال : نزلت في أهل الكتاب.

قلت : الآية تعم جميع ما ذكر وغيره. وفي صحيح مسلم عن مطرف عن أبيه قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ «أهلآكم التكاثر» قال : «يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفريت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت [وما سوى ذلك فذهب وتاركه للناس]^(١)». وروى البخاري عن ابن شهاب أخبرني أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لو أن لابن آدم وادياً من ذهب لأحب أن يكون له واديان ولن يملأ فاه إلا التراب ويتوب الله على من تاب». قال ثابت عن أنس عن أبي : كما نرى هذا من القرآن حتى نزلت «أهلآكم التكاثر». قال ابن العربي : وهذا نص صحيح مليح غاب عن أهل التفسير فجهلوا وجاهلوا، والحمد لله على المعرفة. وقال ابن عباس : قرأ النبي صلى الله عليه وسلم «أهلآكم التكاثر» قال : «تكاثر الأموال جمعها من غير حقها ومنعها من حقها وشدها في الأوعية».

الثانية - قوله تعالى : (حتى زرتم المقابر) أي حتى أتاكم الموت فصرتم في المقابر. زوارا ترجعون منها كرجوع الزائر إلى منزله من جنة أو نار. يقال لمن مات : قد زار قبره. وقيل : أي أهلآكم التكاثر حتى عدتكم الأموات ؛ على ما تقدم. وقيل : هذا وعيد. أي اشتغلتكم بمفاخرة الدنيا حتى تزوروا القبور فتروا ما ينزل بكم من عذاب الله عز وجل. الثالثة - قوله تعالى : (المقابر) جمع مقبرة ومقبرة (بفتح الباء وضمها). والقبور جمع القبر؛ قال :

(١) ما بين المربعين من رواية أبي هريرة في سند آخر لا من رواية مطرف (راجع صحيح مسلم).

أرى أهل القصور إذا أميتوا * بنوا فوق المقابر بالصخور
أبوا إلا مباحة ونخرا * على الفقراء حتى في القبور
وقد جاء في الشعر المَقْبَرُ ؛ قال :

لكل أناس مَقْبَرٌ بِفَنَائِهِمْ * فهم ينقصون والقبور تزيد
وهو المَقْبَرِيُّ والمَقْبَرِيُّ لسعيد المقبري ؛ وكان يسكن المقابر . وَقَبْرُ المِيتِ أَقْبَرُهُ وَأَقْبَرُهُ
قَبْرًا أَي دَفَنَتْهُ . وَأَقْبَرَتْهُ أَي أَمْرَتْ بِأَنْ يُقْبَرَ . وقد مضى في سورة « عبس » القول فيه .
والحمد لله .

الرابعة - لم يأت في التنزيل ذِكْرُ المقابر إلا في هذه السورة . وزيارتها من أعظم
الدواء للقلب القاسي ؛ لأنها تذكر الموت والآخرة . وذلك يحمل على قصر الأمل والزهد في الدنيا
وترك الرغبة فيها . قال النبي صلى الله عليه وسلم : " كنتُ نهيتكم عن زيارة القبور فزوروا
القبور فإنها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة " رواه ابن مسعود ؛ أخرجه ابن ماجه . وفي صحيح
مسلم من حديث أبي هريرة : " فإنها تذكر الموت " . وفي الترمذي عن بُرَيْدَةَ : " فإنها تذكر
الآخرة " . قال هذا حديث حسن صحيح . وفيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
أمن زوارات القبور . قال : وفي الباب عن ابن عباس وحسان بن ثابت . قال أبو عيسى :
وهذا حديث حسن صحيح . وقد رأى بعض أهل العلم أن هذا كان قبل أن يرخّص النبي
صلى الله عليه وسلم في زيارة القبور ؛ فلما رخص دخل في رخصته الرجال والنساء . وقال
بعضهم : إنما كره زيارة القبور للنساء لقلّة صبرهن وكثرة جزعهن .

قلت : زيارة القبور للرجال متفق عليه عند العلماء ، مختلف فيه للنساء . أما الشواب
فحرام عليهن الخروج ، وأما القواعد فباح لهن ذلك . وجائز لجميعهن ذلك إذا انفردن بالخروج
عن الرجال ؛ ولا يختلف في هذا إن شاء الله . وعلى هذا المعنى يكون قوله : " زوروا القبور "
عام . وأما موضع أو وقت يُخْشَى فيه الفتنة من اجتماع الرجال والنساء فلا يحل ولا يجوز .

(١) راجع ج ١٩ ص ٢١٧

فبينما الرجلُ يخرج ليعتبر فيقع بصره على امرأة فيفتن وبالعكس ؛ فيرجع كل واحد من الرجال والنساء مأزورا غير ماجور . والله أعلم .

الخامسة - قال العلماء: ينبغي لمن أراد علاج قلبه وانقياده بسلاسل القَهْر إلى طاعة ربه، أن يُكثر من ذكر هاذم اللذات ^(١)، ومُفَرِّق الجماعات، ومُوتِم البنين والبنات، ويواظب على مشاهدة المحتضرين، وزيارة قبور أموات المسلمين. فهذه ثلاثة أمور، ينبغي لمن قسا قلبه ولزمه ذنبه أن يستعين بها على دواء دائه، ويستصرخ بها على فتن الشيطان وأعوانه؛ فإن أنتفع بالإكثار من ذكر الموت، وأنجلت به قساوة قلبه فذاك، وإن عَظُم عليه ران قلبه واستحكمت فيه دواعي الذنب؛ فإن مشاهدة المحتضرين وزيارة قبور أموات المسلمين تبلغ في دفع ذلك ما لا يبلغه الأول؛ لأن ذكر الموت إخبار للقلب بما إليه المصير، وقائم له مقام التخويف والتحذير. وفي مشاهدة من أخصر وزيارة قبر من مات من المسلمين معاينة ومشاهدة؛ فذلك كان أبلغ من الأول؛ قال صلى الله عليه وسلم: "ليس الخبر كالمعاينة". رواه ابن عباس. فاما الاعتبار بحال المحتضرين فغير ممكن في كل الأوقات، وقد لا يتفق لمن أراد علاج قلبه في ساعة من الساعات. وأما زيارة القبور فوجودها أسرع، والانتفاع بها أليق وأجدر. فينبغي لمن عزم على الزيارة أن يتأدب بأدابها، ويحضر قلبه في إتيانها، ولا يكون حظّه منها التطواف على الأجداد فقط؛ فإن هذه حالة تشاركه فيها بهيمة. ونعوذ بالله من ذلك. بل يقصد بزيارته وجه الله تعالى وإصلاح فساد قلبه، أو نفع الميت بما يتلو عنده من القرآن والدعاء، ويتجنب المشي على المقابر والجلوس عليها، ويسلم إذا دخل المقابر، وإذا وصل إلى قبر ميتة الذي يعرفه سلم عليه أيضا، وأتاه من تلقاء وجهه؛ لأنه في زيارته كمخاطبته حيا، ولو خاطبه حيا لكان الأدب استقباله بوجهه؛ فكذلك ها هنا. ثم يعتبر بمن صار تحت التراب، وأنقطع عن الأهل والأحباب، بعد أن قاد الجيوش والعساكر، ونافس الأصحاب والعشائر، وجمع الأموال والذخائر؛ بغاءه الموت في وقت لم يحتسبه، وهول لم يرتقبه. فليتأمل الزائر حال

(١) هاذم (بالذال المعجمة) بمعنى قاطع؛ والمراد الموت؛ إما لأن ذكره يزهد فيها، وإما لأنه إذا جاء لا يبقى من لذائذ الدنيا شيئا.

من مضى من إخوانه ، ودرج من أقرانه الذين بلغوا الآمال وجمعوا الأموال ؛ كيف أنقطعت
 آمالهم ، ولم تُغْنِ عنهم أموالهم ، ومحا التراب محاسن وجوههم ، وأفترقت في القبور أجزاءهم ،
 وترقل من بعدهم نساؤهم ، وشمل ذلُّ اليئم أولادهم ، وأقتسم غيرهم طريفهم وتلادهم .
 ولتذكر ترددهم في المآرب ، وحرصهم على نيل المطالب ، وأنخداعهم لمواتاة الأسباب ،
 وركونهم إلى الصحة والشباب . وليعلم أن ميله إلى اللهو واللعب كليلهم ، وغفلته عما بين
 يديه من الموت الفظيع والهلاك السريع كغفلتهم ، وأنه لا بد صائر إلى مصيرهم ، وليحضر
 بقلبه ذكر من كان مترددا في أغراضه ، وكيف تهدمت رجلاه ، وكان يتلذذ بالنظر إلى ما خوله
 وقد سالت عيناه ، ويصول ببلاغة نطقه وقد أكل الدود لسانه ، ويضحك لمواتاة دهره
 وقد أبلى التراب أسنانه ، وليتحقق أن حاله كحال ، وماله كماله . وعند هذا التذكير والاعتبار
 تزول عنه جميع الأغيار الدنيوية ، ويُقبل على الأعمال الأخروية ، فيزهد في دنياه ، ويُقبل
 على طاعة مولاه ، ويلين قلبه وتخضع جوارحه .

قوله تعالى : **كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ** ﴿٣٠﴾ **ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ** ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا ﴾ قال الفراء : أى ليس الأمر على ما أتم عليه من التفاخر
 والتكائر . والتمام على هذا ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أى سوف تعلمون عاقبة هذا . ﴿ ثُمَّ كَلَّا
 سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وعيد بعد وعيد ؛ قاله مجاهد . ويحتمل أن يكون تكراره على وجه التأكيد
 والتغليظ ؛ وهو قول الفراء . وقال ابن عباس : « كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ » ما ينزل بكم من
 العذاب في القبر . « ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ » في الآخرة إذا حل بكم العذاب . فالأول
 في القبر والثاني في الآخرة ؛ فالتكرار للمخاتين . وقيل : « كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ » عند المعاينة
 أن ما دعوتكم إليه حق . « ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ » عند البعث أن ما وعدتكم به صدق .
 وروى زر بن حبيش عن علي رضي الله عنه قال : كنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت هذه
 السورة ، فأشار إلى أن قوله : « كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ » يعنى في القبور . وقيل : « كَلَّا سَوْفَ

(١) في نسخة : « تزودهم المآب » .

تَعْلَمُونَ» إذا نزل بكم الموت وجاءتكم رسل لتزرع أرواحكم . (ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ) إذا دخلتم قبوركم وجاءكم منكر ونكير، وحاط بكم هَوْلُ السؤال، وانقطع منكم الجواب .

قلت : فتضمنت السورة القول في عذاب القبر . وقد ذكرنا في كتاب « التذكرة » أن الإيمان به واجب والتصديق به لازم؛ حسب ما أخبر به الصادق، وأن الله تعالى يحيي العبد المكلف في قبره برّد الحياة إليه، ويجعل له من العقل في مثل الوصف الذي عاش عليه؛ ليعقل ما يسأل عنه وما يجيب به، ويفهم ما أتاه من ربه، وما أعد له في قبره من كرامة وهوان . وهذا هو مذهب أهل السنة، والذي عليه الجماعة من أهل الملة . وقد ذكرناه هناك مستوفى والحمد لله . وقيل : « كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ » عند النشور أنكم مبعوثون « ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ » في القيامة أنكم معذبون . وعلى هذا تضمنت أحوال القيامة من بعث وحشر، وسؤال وعرض، إلى غير ذلك من أهوالها وأفزاعها؛ حسب ما ذكرناه في كتاب « التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة » . وقال الضحاك : « كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ » يعني الكفار « ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ » : قال المؤمنون . وكذلك كان يقرؤها ، الأولى بالتاء والثانية بالياء .

قوله تعالى : كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾

قوله تعالى : (كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ) أعاد « كَلَّا » وهو زجر وتنبيه ، لأنه عقب كل واحد بشيء آخر؛ كأنه قال : لا تفعلوا فإنكم تتدمون، لا تفعلوا فإنكم تستوجبون العقاب . وإضافة العلم إلى اليقين كقوله تعالى : « إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ » . وقيل : اليقين ها هنا الموت؛ قاله قتادة . وعنه أيضا البعث؛ لأنه إذا جاء زال الشك . أي لو تعلمون علم البعث . وجواب « لو » محذوف؛ أي لو تعلمون اليوم من البعث ما تعلمونه إذا جاءتكم نفخة الصور ، وأنشقت اللُّحُود عن جُنُثِكُمْ كيف يكون حشركم ؛ لشغلكم ذلك عن التكاثُر بالدنيا . وقيل : « كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ » أي لو قد تطايرت الصحف فشقي وسعيد .

(١) آية ٩٥ سورة الواقعة . (٢) كذا في نسخ الأصل .

وقيل : إن « كلا » في هذه المواضع الثلاثة بمعنى « ألا » قاله ابن أبي حاتم، وقال الفراء :
هي بمعنى « حقا » وقد تقدم الكلام فيها مستوفى .

قوله تعالى : لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ هذا وعيد آخر . وهو على إضمار القسم ؛ أي لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ
في الآخرة . والخطاب للكفار الذين وَجَبَتْ لَهُمُ النَّارُ . وقيل : هو عام ؛ كما قال : « وَإِنَّ
مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا »^(٢) فهي للكفار دارٌ وللمؤمنين ممرٌ . وفي الصحيح : « فيمتر أولهم كالبرق ثم
كالريح ثم كالطير... » الحديث . وقد مضى في سورة « مريم » . وقرأ الكسائي وابن عامر
« لَتَرَوُنَّ » بضم التاء من أريته الشيء ؛ أي تحشرون إليها فترونها . وعلى فتح التاء هي قراءة
الجماعة ؛ أي لترون الجحيم بأبصاركم على البعد . ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أي مشاهدة .
وقيل : هو إخبار عن دوام مقامهم في النار ؛ أي هي رؤية دائمة متصلة . والخطاب على
هذا للكفار . وقيل : معنى « لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ » أي لو تعلمون اليوم في الدنيا علم اليقين
فيما أمامكم مما وصفت « لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ » بعيون قلوبكم ؛ فإن علم اليقين يريك الجحيم بعين
فؤادك ؛ وهو أن تتصور لك تارات القيامة وقطع مسافاتهما . « ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ »
أي عند المعاينة بعين الرأس فتراها يقيناً لا تغيب عن عينك « ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ »
في موقف السؤال والعرض .

قوله تعالى : ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة
قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم أو ليلة ، فإذا هو بأبي بكر وعمر ؛ فقال :
« ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة » ؟ قالوا : الجوع يا رسول الله . قال : « وأنا »

(٢) آية ٧١ - سورة مريم .

(١) راجع ج ١١ ص ١٤٧ فا بعدها .

(٣) راجع ج ١١ ص ١٣٧

والذي نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما قوما“ فقاما معه ؛ فاتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس فى بيته ، فلما رأته المرأة قالت : مرحباً وأهلاً . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” أين فلان “ ؟ قالت : يستعذب لنا من الماء ؛ إذ جاء الأنصارى فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه ، ثم قال : الحمد لله ! ما أحد اليوم أكرم أضيافاً منى . قال : فانطلق بجاءهم يعذق فيه بسر وتمر ورطب فقال : كلوا من هذه . وأخذ المذبة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إياك والحلّوب “ فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق ، وشربوا ؛ فلما أن شبعوا ورؤوا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وعمر : ” والذى نفسى بيده لتسألن عن نعم هذا اليوم يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعم “ خرجه الترمذى ، وقال [فيه] : ” هذا والذى نفسى بيده من النعم الذى تسألون عنه يوم القيامة ، ظلّ بارد ، ورطب طيب ، وماء بارد “ وكنى الرجل الذى من الأنصار فقال : أبو الهيثم بن التيهان . وذكر قصته .

قلت : أسم هذا الرجل الأنصارى مالك بن التيهان ، ويكنى أبا الهيثم . وفى هذه القصة يقول عبد الله بن رباحة ، يمدح بها أبا الهيثم بن التيهان :

فلم أرَ كإسلامِ عزّا لأمة * ولا مثلَ أضيافِ الأراثِ ، معشراً
 نبيٍّ وصديقٍ وفاروقٍ أمة * وخيرِ بنى حواءِ فرعاً وعنصراً^(٢)
 فوافقوا لميقاتٍ وقدرِ قضية * وكان قضاءُ اللهِ قدرًا مقدرًا^(٣)
 إلى رجلٍ تجدُّ يبارى مجوده * شمسَ الضحى جودًا ومجدًا ومفخرًا
 وفارسٍ خلقَ الله فى كلِّ غارة * إذا لبس القومُ الحديدَ المسمرًا
 ففدى وحياً ثم أدنى قراهم * فلم يقهرهم إلا سمينًا متمرًا^(٤)

(١) كذا فى جميع نسخ الأصل . (٢) فى نسخة من الأصل : « وخير نبيّ جاء » .

(٣) فى نسخة من الأصل : « أمرا » . (٤) المقطع .

وذكر أبو نعيم الحافظ عن أبي عسيب مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلاً، فدعاني فخرجت إليه، ثم مرّ بابي بكر فدعاه فخرج إليه، ثم مرّ بعمر فدعاه فخرج إليه، فأنطلق حتى دخل حائطا لبعض الأنصار، فقال لصاحب الحائط : "أطعمنا بسرّاً" فجاء بعِدق فوضعه فأكلوا، ثم دعا بماء فشرب فقال : "تسألن عن هذا يوم القيامة" قال : وأخذ عمر العِدق فضرب به الأرض حتى تناثر البُسر نحو وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال : يا رسول الله، إنا لمسئولون عن هذا يوم القيامة ؟ قال : "نعم إلا من ثلاث كسرة يسد بها جوعته أو ثوب يستر به عورته أو حجر يأوى إليه من الحرّ والقُر". وأختلف أهل التأويل في النعيم المسئول عنه على عشرة أقوال : أحدها - الأيمن والصحة؛ قاله ابن مسعود. الثاني - الصحة والفراغ؛ قاله سعيد بن جبير. وفي البخاري عنه عليه السلام : "نعمتان مغبوت^(١) فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ". الثالث - الإدراك بجواس السمع والبصر؛ قاله ابن عباس. وفي التنزيل : «إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ^(٢) عَنْهُ مَسْئُولًا» . وفي الصحيح عن أبي هريرة وأبي سعيد قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يُؤْتَى بِالْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ لَهُ أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعًا وَبَصَرًا وَمَالًا وَوَلَدًا ... " الحديث . خرجه الترمذي وقال فيه : حديث حسن صحيح . الرابع - ملاذّ المأكل والمشروب ؛ قاله جابر بن عبد الله الأنصاري . وحديث أبي هريرة يدلّ عليه . الخامس - أنه الغداء والعشاء؛ قاله الحسن . السادس - قول مكحول الشامي - : أنه شبع البطون ، وبارد الشراب ، وظلال المساكن ، واعتدال الخلق ، ولذة النوم . ورواه زيد بن أسلم عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ" يعني عن شبع البطون ... " فذكره . ذكره الماوردي وقال : وهذا السؤال يعمّ الكافر والمؤمن ، إلا أن سؤال المؤمن

(١) أي ذو خسران فيهما . والنعمة : ما ينعم به الانسان ويستلذه . والغبين : أن يشتري بأضفاف الثمن ، أو يبيع بدون ثمن المثل . فن صح بدنه ، وتفرغ من الأشغال العائقة ولم يسع لصلاح آخرته فهو كالمغبون في البيع .

والمقصود : بيان أن غالب الناس لا ينتفعون بالصحة والفراغ ؛ بل يصرفونها في غير محالها . (عن شرح سنن ابن ماجه) . (٢) آية ٣٦ سورة الإسراء .

تبشير بأن يجمع له بين نعيم الدنيا ونيعم الآخرة . وسؤال الكافر تفريغ أن قابل نعيم الدنيا بالكفر والمعصية . وقال قوم : هذا السؤال من كل نعمة إنما يكون في حق للكفار؛ فقد روى أن أبا بكر لما نزلت هذه الآية قال : يا رسول الله ، أرأيت أكلة أكلتها معك في بيت أبي الهيثم بن التيهان ، من خبز شعير ولحم وبسر قد ذنب^(١) وماء عذب ؛ أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذي تُسأل عنه ؟ فقال عليه السلام : ” ذلك للكفار — ثم قرأ : — « وَهَلْ يُجَازَى إِلَّا الْكَفُورُ^(٢) » . ذكره القشيري أبو نصر . وقال الحسن : لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار . قال القشيري : والجمع بين الأخبار أن الكل يسألون ، ولكن سؤال الكفار سؤال توبيخ ؛ لأنه قد ترك الشكر . وسؤال المؤمن سؤال تشريف ؛ لأنه شكر . وهذا النعيم في كل نعمة .

قلت : هذا القول حسن ؛ لأن اللفظ يعم . وقد ذكر الفريابي قال : حدثنا ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى : « ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ » قال : كل شيء من لذة الدنيا . وروى أبو الأحوص عن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله تعالى ليعدّد نعمه على العبد يوم القيامة حتى يعدّ عليه سألتني فلانة أن أزوجهكها فيسميها باسمها فزوجتكها » . وفي الترمذي عن أبي هريرة قال : لما نزلت هذه الآية « ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ » قال الناس : يا رسول الله ، عن أيّ النعيم تُسأل ؟ فإنما هما الأسودان والعدو حاضر ، وسيوفنا على عواتقنا . قال : « إن ذلك سيكون » . وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ” إن أول ما يسأل عنه يوم القيامة — يعني العبد — أن يقال له ألم نصبح لك جسمك ونزويك من الماء البارد ” قال : حديث غريب . وروى من حديث ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” إذا كان يوم القيامة دعا الله بعبد من عباده فيوقفه بين يديه فيسأله عن جاهه كما يسأله عن ماله ” . والجاه من نعيم الدنيا لا محالة . وقال مالك رحمه الله : إنه صححة البدن وطيب النفس ؛ وهو القول السابع . وقيل : النوم مع الأمن والعافية . وقال سفيان بن عيينة : إن ما سدّ الجوع وستر العورة من خشن الطعام واللباس ، لا يسأل عنه المرء يوم القيامة ، وإنما يسأل عن النعيم . قال : والدليل عليه أن الله تعالى أسكن آدم الجنة .

(١) أي بدأ فيه الإرتطاب . (٢) آية ١٧ سورة سبا ، وهذه قراءة نافع . (٣) الأسودان : التمر والماء .

فقال له : « إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى . وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى » . فكانت هذه الأشياء الأربعة — ما يسد به الجوع ، وما يدفع به العطش ، وما يستكن فيه من الحر ، ويستقر به عورته — لآدم عليه السلام بالإطلاق ، لا حساب عليه فيها ؛ لأنه لا بد له منها .

قلت : ونحو هذا ذكره القشيري أبو نصر قال : إن مما لا يسأل عنه العبد لباساً يوارى سواته ، وطعاماً يُقيم صُلبه ، ومكاناً يُكنه من الحَرِّ والبرد .

قلت : وهذا منتزع من قوله عليه السلام : « ليس لأبن آدم حق في سوى هذه الخصال بيت يسكنه وثوب يوارى عورته وجِلْف الخبز والماء » أخرجه الترمذي . وقال النضر بن شميل : جِلْف الخبز ليس معه إدام . وقال محمد بن كعب : النعيم هو ما أنعم الله علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم . وفي التنزيل : « لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ » . وقال الحسن أيضا والمفضل : هو تخفيف الشرائع وتيسير القرآن ؛ قال الله تعالى : « وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » ، وقال تعالى : « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْرِكٍ » .

قلت : وكل هذه نعم ، فيسأل العبد عنها هل شكر ذلك أم كفر . والأقوال المتقدمة أظهر . والله أعلم .

تفسير سورة « والعصر »

وهي مكية . وقال قتادة مدنية ؛ وروى عن ابن عباس . وهي ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَالْعَصْرِ ﴿١﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : (وَالْعَصْرِ) أى الدهر ؛ قاله ابن عباس وغيره . فالعصر مثل

الدهر ؛ ومنه قول الشاعر :

سَبِيلُ الْهَوَى وَعَرٌّ وَبَحْرُ الْهَوَى عَمْرٌ * وَيَوْمُ الْهَوَى شَهْرٌ وَشَهْرُ الْهَوَى دَهْرٌ

(٢) آية ١٦٤ سورة آل عمران .

(٤) آية ١٧ سورة القمر .

(١) آية ١١٨ ، ١١٩ سورة طه .

(٣) آية ٧٨ سورة الحج .

أى عصر أقسم الله به عز وجل ؛ لما فيه من التنبيه بتصرف الأحوال وتبدلها ، وما فيها من الدلالة على الصانع . وقيل : العصر الليل والنهار . قال حميد بن ثور :
 وَلَنْ يَلْبَثَ الْعَصْرَانِ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ * إِذَا طَلَبَا أَنْ يُدْرِكَا مَا تَجَمَّأُ
 والعصران أيضا الغداة والعشي . قال :

وَأَمَطُّهُ الْعَصْرَيْنِ حَتَّى يَمَلَّنِي * وَيَرْضَى بِنِصْفِ الدِّينِ وَالْأَنْفِ رَاغِمٌ

يقول : إذا جاءني أول النهار وعَدته آخره . وقيل : إنه العشي وهو ما بين زوال الشمس وغروبها ؛ قاله الحسن وقتادة . ومنه قول الشاعر :

تَرَوُّحُ بِنَا يَعْمَرُ وَقَدْ قَصُرَ الْعَصْرُ * وَفِي الرَّوْحَةِ الْأُولَى الْغَنِيمَةُ وَالْأَجْرُ

وعن قتادة أيضا : هو آخر ساعة من ساعات النهار . وقيل : هو قسم بصلاة العصر وهي الوسطى ؛ لأنها أفضل الصلوات ؛ قاله مقاتل . يقال : أذن للعصر ؛ أى لصلاة العصر . وصليت العصر ؛ أى صلاة العصر . وفي الخبر الصحيح "الصلاة الوسطى صلاة العصر" . وقد مضى في سورة «البقرة» بيان^(١) . وقيل : هو قسم بعصر النبي صلى الله عليه وسلم لفضله بتجديد النبوة فيه . وقيل : معناه ورب العصر .

الثانية — قال مالك : مَنْ حَلَفَ أَلَّا يَكْتُمَ رَجُلًا عَصْرًا لَمْ يَكْتُمِهِ سَنَةً . قال ابن العربي : «إنما حمل مالك يمين الخالف ألا يكتم أمرا عَصْرًا على السنة ؛ لأنه أكثر ما قيل فيه ، وذلك على أصله في تغليب المعنى في الأيمان . وقال الشافعي : يبرّ ساعة إلا أن تكون له نية ، وبه أقول ؛ إلا أن يكون الخالف عربيا فيقال له : ما أردت ؟ فإذا فسره بما يحتمله قيل منه إلا أن يكون الأقل ويحىء على مذهب مالك أن يجعل على ما يفسر . والله أعلم » .

قوله تعالى : إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴿١٧٩﴾

هذا جواب القسم والمراد به الكافر ؛ قاله ابن عباس في رواية أبي صالح . وروى الضحاك عنه قال : يريد جماعة من المشركين الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود

(١) راجع ج ٣ ص ٢١٠

ابن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى ، والأسود بن عبد يغوث . وقيل : يعنى بالإنسان جنس الناس . (لَفِي خُسْرٍ) لَفِي غَبْنٍ . وقال الأخفش : هَلَكَةٌ . الفَرَاء : عقوبة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا » . ابن زيد : لَفِي شَرٍّ . وقيل : لَفِي نَقْصٍ ؛ والمعنى متقارب . وروى عن سلام « والعصر » بكسر الصاد . وقرأ الأعرج وطلحة وعيسى الثقفى « خُسْرٍ » بضم السين . وروى ذلك هارون عن أبى بكر عن عاصم . والوجه فيهما الإتيان . ويقال : خُسِرَ وخُسِرَ ؛ مثل عُسر وعُسِرَ . وكان على يقرأها « والعصر ونوائب الدهر إن الإنسان لَفِي خُسْرٍ . وإنه فيه إلى آخر الدهر » . وقال إبراهيم : إن الإنسان إذا عمّر في الدنيا وهَرَمَ ، لَفِي نَقْصٍ وَضَعْفٍ وَتَرَاجُعٍ ؛ إلا المؤمنين فإنهم تكتب لهم أجورهم التي كانوا يعملونها في حال شبابهم ؛ نظيره قوله تعالى : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ » . قال : وقراءتنا « والعصر إن الإنسان لَفِي خُسْرٍ وإنه في آخر الدهر » . والصحيح ما عليه الأمة والمصاحف . وقد مضى الرد في مقدمة الكتاب على من خالف مصحف عثمان ، وأن ذلك ليس بقرآن يُتلى ؛ فتأمله هناك .

قوله تعالى : إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ

وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا) استثناء من الإنسان ؛ إذ هو بمعنى الناس على الصحيح . قوله تعالى : (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) أى أدوا الفرائض المفترضة عليهم ؛ وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال أبى بن كعب : قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم « والعصر » ثم قلت : ما تفسيرها يا نبي الله ؟ قال : « « والعصر » قَسَمَ مِنْ اللَّهِ اقْسَمَ رَبُّكُمْ بِأَخْرِ النَّهَارِ » إن الإنسان لَفِي خُسْرٍ » أبو جهل « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا » أبو بكر « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » عمر « وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ » عثمان « وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » على ؛ رضى الله عنهم أجمعين . وهكذا خطب

(١) آية ٩ سورة الطلاق . (٢) راجع ج ١ ص ٨٠ طبعة ثانية أو ثالثة .

أبن عباس على المنبر موقوفا عليه . ومعنى (وتواصوا) أى تحابوا ؛ أوصى بعضهم بعضاً ، وحث بعضهم بعضاً . (بِالْحَقِّ) أى بالتوحيد ؛ كذا روى الضحاك عن ابن عباس . وقال قتادة : « بِالْحَقِّ » أى القرآن . وقال السدى : الحق هنا هو الله عز وجل . (وتواصوا بالصبر) على طاعة الله عز وجل والصبر عن معاصيه . وقد تقدم (١) . والله أعلم .

تفسير سورة « الهمزة »

مكية بإجماع . وهى تسع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَيَلُّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾

قد تقدم القول فى « الويل » فى غير موضع ، ومعناه الخزى والعذاب والهلكة . وقيل : وادٍ فى جهنم . (لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) قال ابن عباس : هم المشاءون بالنميمة ، المفسدون بين الأحبة ، الباغون للبرآء العيب ؛ فعلى هذا هما بمعنى . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « شرارُ عبادِ الله تعالى المشاءون بالنميمة المفسدون بين الأحبة الباغون للبرآء العيب » . وعن ابن عباس أن الهمزة القتات ، واللمزة العياب . وقال أبو العالية والحسن ومجاهد وعطاء بن أبى رباح : الهمزة الذى يغتاب ويطعن فى وجه الرجل ، واللمزة الذى يغتابه من خلفه إذا غاب ؛ ومنه قول حسان :

هُمَزْتُكَ فَاخْتَضَعْتَ بَدَلَ نَفْسٍ * بِقَافِيَةٍ تَأْجِجُ كَالشَّوَاظِ ﴿٤﴾

(١) راجع ص ٧١ من هذا الجزء .

(٢) راجع ج ٢ ص ٧ طبعة ثانية .

(٣) فى بعض نسخ الأصل « المفقون » .

(٤) رواية البيت كما فى ديوانه :

مجللة تعممه شانارا * مضرمة تأجج كالشواظ

كهمة ضيغم يحى عرينا * شديدمفارز الأضلاع خاظى

وأختار هذا القول النحاس ، قال : ومنه قوله تعالى « وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ » ^(١) .
وقال مقاتل ضد هذا الكلام : إن الهمزة الذي يغتاب بالغيبة ، واللمزة الذي يغتاب في الوجه .
وقال قتادة ومجاهد : الهمزة الطعان في الناس ، واللمزة الطعان في أنسابهم . وقال ابن زيد : الهامز
الذي يهمز الناس بيده ويضربهم ، واللمزة الذي يلمزهم بلسانه ويعيبهم . وقال سفيان الثوري :
يهمز بلسانه ، ويلمز بعينه . وقال ابن كيسان : الهمزة الذي يؤدي جلساءه بسوء اللفظ ، واللمزة
الذي يكسر عينه على جلسه ، ويشير بعينه ورأسه وبجانبه . وقال مرة : هما سواء ، وهو القنات
الطعان للراء إذا غاب . وقال زياد الأعجم :

تُدلي بودي إذا لاقيتني كذبا * وإن أغيب فانت الهامز اللمزة

وقال آخر :

إذا لقيتك عن شحط تكاشرني * وإن تغيبت كنت الهامز اللمزة

الشحط : البعد . والهمزة آسم وضع للبالغة في هذا المعنى ؛ كما يقال : سخره وسخره للسخر
يسخر ويضحك بالناس . وقرأ أبو جعفر محمد بن علي والأعرج « همزة لمزة » بسكون الميم
فيهما . فإن صح ذلك عنهما فهي في معنى المفعول ، وهو الذي يتعرض للناس حتى يهمزوه
ويضحكوا منه ، ويجهلهم على الاغتيال . وقرأ عبدالله بن مسعود وأبو وائل والنخعي والأعمش
« ويل للهمزة اللمزة » . وأصل الهمز : الكسر والعَضُّ على الشيء بعنف ؛ ومنه همز الحرف .
ويقال : همزت رأسه . وهمزت الجوز بكفى كسرتة . وقيل لأعرابي : أتهمزون الفارة ؟ فقال :
إنما تهمزها الهرة . الذي في الصحاح : وقيل لأعرابي أتهمز الفارة ؟ فقال السنور يهمزها .
والأول قاله الثعلبي ، وهو يدل على أن الهرة تسمى الهمزة . قال العجاج :

* ومن همزنا رأسه تهما *

وقيل : أصل الهمز واللز الدفع والضرب . لمزه يلمزه لَمَزًا إذا ضربه ودفعه . وكذلك

همزه أي دفعه وضربه . قال الراجز :

ومن همزنا عزه تبركنا * على أسننه زوبعة أوزوبما

(١) آية ٥٨ سورة التوبة .

الْبِرْكَةُ : القيام على أربع . وبركته فتبركع ؛ أى صرعه فوقع على آسته ؛ قاله فى الصّاح . والآية نزلت فى الأحنس بن شريق فيما روى الضحاك عن ابن عباس . وكان يلمز الناس ويعيبهم مقبلين ومدبرين . وقال ابن جريح : فى الوليد بن المغيرة ، وكان يغتاب النبى صلى الله عليه وسلم من ورائه ويقده فيه فى وجهه . وقيل : نزلت فى أبى بن خلف . وقيل : فى جميل ابن عامر الثقفى^(١) . وقيل : إنها مرسلّة على العموم من غير تخصيص ؛ وهو قول الأكثرين . قال مجاهد : ليست بخاصة لأحد ، بل لكل من كانت هذه صفته . وقال الفراء : يجوز أن يذكر الشىء العام ويقصد به الخاص قصد الواحد إذا قال : لا أزورك أبدا . فتقول : من لم يزرني فلست بزائر ؛ يعنى ذلك القائل .

قوله تعالى : الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢٠﴾

أى أعدّه - زعم - لنواب الدهر ؛ مثل كرم وأكرم . وقيل : أحصى عدده ؛ قاله السدى . وقال الضحاك : أى أعدّ ماله لمن يرثه من أولاده . وقيل : أى فاخر بعدده وكثرته . والمقصود الذم على إمساك المال عن سبيل الطاعة . كما قال : «مناع للخير»^(٢) ، وقال : «وجمع فأوعى»^(٣) . وقراءة الجماعة «جمع» مخفف الميم . وشدها ابن عامر وحمزة والكسائى على التكثير . وأختره أبو عبيد ؛ لقوله : «وعدده» . وقرأ الحسن ونصر بن عاصم وأبو العالقة «جمع» مخففا «وعدده» مخففا أيضا ؛ فأظهروا التضعيف لأن أصله عدّه وهو بعيد ؛ لأنه وقع فى المصحف بدالين . وقد جاء مثله فى الشعر ؛ لما أبرزوا التضعيف خففوه . قال :

مهلاً أمامة قد جربت من خلقي * أنى أجود لأقوام وإن ضينوا

(١) كذا فى نسخ الأصل . والذى فى الطبرى : «جميل بن عامر الجمحى» . وفى سيرة ابن هشام (ص ٢٢٩ طبع أوروبا) وتاريخ الكامل لابن الأثير (ج ٢ ص ٦٦ طبع أوروبا) وبعض كتب التفسير : «جميل بن معمر الجمحى» .
(٢) آية ٢٥ سورة ق ، وآية ١٢ سورة ن . (٣) آية ١٨ سورة المعارج .
(٤) فى اللسان وآب سيبويه : «مهلاً أعاذل» . وقد نسباه لقعب بن أم صاحب .

أراد ضُنُوا وَبَجَلُوا ، فأظهر التضعيف ؛ لكن الشعر موضع ضرورة . قال المهدي : مَنْ خَفَّ «ومدده» فهو معطوف على المال ؛ أى وجمع مدده فلا يكون فعلا على إظهار التضعيف ؛ لأن ذلك لا يستعمل إلا فى الشعر .

قوله تعالى : **يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدُهُ** ﴿٤﴾ **كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ** ﴿٥﴾
وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٦﴾ **نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ** ﴿٧﴾ **الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى**
الْأَفْعِدَةِ ﴿٨﴾

قوله تعالى : **(يَحْسَبُ)** أى يظن **(أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدُهُ)** أى يُبقيه حياً لا يموت ؛ قاله السدى . وقال عكرمة : أى يزيد فى عمره . وقيل : أحياء فيما مضى ، وهو ماضٍ بمعنى المستقبل . يقال : هلك والله فلان ودخل النار ؛ أى يدخل . **(كَلَّا)** رذ لما توهمه الكافر ؛ أى لا يخلد ولا يبقى له مال . وقد مضى القول فى « كَلَّا » مستوفى . وقال عمر بن عبد الله مولى غفرة : إذا سمعت الله عز وجل يقول « كَلَّا » فإنه يقول كذبت . **(لَيُنْبَذَنَّ)** أى ليطرحن ولبلقين . وقرأ الحسن ومحمد بن كعب ونصر بن عاصم ومجاهد وحيد وابن محيصن « لَيُنْبَذَنَّ » بالثنية ؛ أى هو وماله . وعن الحسن أيضا « لَيُنْبَذَنَّ » على معنى لينبذت ماله . وعنه أيضا بالنون « لَنُنْبَذَنَّ » على إخبار الله تعالى عن نفسه ، وأنه ينبذ صاحب المال . وعنه أيضا « لَيُنْبَذَنَّ » بضم الذال ؛ على أن المراد الهَمَزَةُ وَاللُّزَّةُ وَالْمَالُ وَجَامِعُهُ . **(فِي الْحُطَمَةِ)** وهى نار الله ؛ سُميت بذلك لأنها تكسر كل ما يلقى فيها وتحطمه وتهشمه . قال الراجز :

إِنَّا حَطَمْنَا بِالْقَضِيبِ مُضْعَبًا * يَوْمَ كَسَرْنَا أَنْفَهُ لِيَغْضَبَا

وهى الطبقة السادسة من طبقات جهنم ؛ حكاه الماوردى عن الكلبي . وحكى القشيري عنه : « الحطمة » الدرقة الثانية من درك النار . وقال الضمك : هى الدرك الرابع . ابن زيد : أسم من أسماء جهنم . **(وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ)** على التعظيم لشأنها والتفخيم لأمرها .

(١) راجع ج ١١ ص ١٤٧

ثم فسرها ما هي فقال : (نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ) أى التى أوقد عليها ألف عام وألف عام وألف عام ؛ فهى غير خامدة ، أعدّها الله للعصاة . (الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْنِدَةِ) قال محمد بن كعب : تأكل النار جميع ما فى أجسادهم ، حتى إذا بلغت إلى الفؤاد خلقوا خلقاً جديداً فرجعت تأكلهم . وكذا روى خالد بن أبى عمران عن النبي صلى الله عليه وسلم : " أن النار تأكل أهلها حتى إذا اطلعت على أفئدتهم أنتهت ثم إذا صدروا تعود فذلك قوله تعالى : « نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْنِدَةِ » . " . وخص الأفئدة لأن الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه . أى إنه فى حال من يموت وهم لا يموتون ؛ كما قال الله تعالى : « لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا »^(١) فهم إذا أحياء فى معنى الآيات . وقيل : معنى « تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْنِدَةِ » أى تعلم مقدار ما يستحقه كل واحد منهم من العذاب ؛ وذلك بما استبقاه الله تعالى من الأمانة الدالة عليه . يقال : أطلع فلان على كذا أى علمه . وقد قال الله تعالى : « تَدْهُو مِنْ أَدْبُرٍ وَتَوَلَّى »^(٢) وقال تعالى : « إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا »^(٣) . فوصفها بهذا فلا يبعد أن توصف بالعلم .

قوله تعالى : **إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴿٥﴾ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴿٤﴾**

أى مطبقة ؛ قاله الحسن والضحاك . وقد تقدم فى سورة « البلد » القول فيه . وقيل : مغلقة ؛ بلغة قريش . يقولون : أصدت الباب إذا أضلقتة . قاله مجاهد . ومنه قول صيد الله ابن قيس الرقيات :

إِنَّ فِي الْقَصْرِ لَوْ دَخَلْنَا غَزَالًا * مُصَفَّقًا مُوَصَّدًا طَلَبِ الْجَبَابِ

(فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ) الفاء بمعنى الباء ؛ أى موصدة بعمد ممددة ؛ قاله ابن مسعود ؛ وهى فى فراءته « بِعَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ » وفى حديث أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم " ثم إن الله يبعث إليهم

(١) آية ٧٤ سورة طه . (٢) آية ١٧ سورة المعارج . (٣) آية ١٢ سورة الفرقان .

(٤) راجع ص ٧٢ من هذا الجزء . (٥) صفق الباب وأصفقه : أظفقه .

ملائكة بأطباق من نار ومسامير من نار وعمد من نار فتطبق عليهم بتلك الأطباق وتشد عليهم بتلك المسامير وتمد بتلك العمد فلا يبقى فيها خلل يدخل فيه رّوح ولا يخرج منه غم وينسأهم الرحمن على عرشه ويتشاغل أهل الجنة بنعيمهم ولا يستغيثون بعدها أبدا وينقطع الكلام فيكون كلامهم زفيرا وشهيقا فذلك قوله تعالى « **إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّصَدَّدَةٌ** . فِي عَمَدٍ مُّمدَّدةٍ » .
وقال قتادة : « عمد » يعذبون بها . واختاره الطبري . وقال ابن عباس : إن العمدة الممددة أغلال في أعناقهم . وقيل : قيود في أرجلهم ؛ قاله أبو صالح . وقال القشيري : والمعظم على أن العمدة أوتاد الأطباق التي تطبق على أهل النار . وتشد تلك الأطباق بالأوتاد حتى يرجع عليهم غمها وحرها ، فلا يدخل عليهم رّوح . وقيل : أبواب النار مطبقة عليهم وهم في عمد ؛ أي في سلاسل وأغلال مطولة ، وهي أحكم وأرسخ من القصيرة . وقيل : هم في عمد ممددة ؛ أي في عذابها وآلامها يضربون بها . وقيل : المعنى في دهر ممدود ؛ أي لا أنقطاع له . وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم « **فِي عُمَدٍ** » بضم العين والميم جمع عمود . وكذلك « عمد » أيضا . قال الفراء : والعمد والعمد جمعان صحيحان لعمود ؛ مثل أديم وأدم وأدم ، وأفيق وأفق وأفق . أبو عبيدة : عمد جمع عماد ؛ مثل إهاب وأهب . واختار أبو عبيد « عمد » بفتحيتين . وكذلك أبو حاتم ؛ اعتبارا بقوله تعالى : « **رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا** » وأجمعوا على فتحها . قال الجوهري : العمود عمود البيت ، وجمع القلة أعمدة ، وجمع الكثرة عمد وعمد ؛ وقرئ بهما قوله تعالى : « **فِي عَمَدٍ مُّمدَّدةٍ** » . وقال أبو عبيدة : العمود كل مستطيل من خشب أو حديد ، وهو أصل للبناء مثل العماد . عمدتُ الشيء ، فأنعمد ؛ أي أفته بعماد يعتمد عليه . وأعمدته جمعات تحته عمدا . والله أعلم .

(١) الأديم . الجلد المدبوغ . والأفيق : الجلد الذي لم يدبغ . وقيل : هو الذي لم تتم دباغته .

(٢) آية ٢ سورة الرعد .

تفسير سورة « الفيل »

وهي مكية بإجماع . وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ) أى ألم تُخَبَّر . وقيل : ألم تعلم . وقال ابن عباس : ألم تسمع . واللفظ استفهام والمعنى تقرير . والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولكنه عام ؛ أى ألم تَرَوْا ما فعلت بأصحاب الفيل ؛ أى قد رأيتم ذلك وعرفتم موضع منى عليكم ، فما لكم لا تؤمنون . و (كَيْفَ) فى موضع نصب بـ « فَعَلَ رَبُّكَ » لا بـ « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ » من معنى الاستفهام .

الثانية - قوله تعالى : (بِأَصْحَابِ الْفِيلِ) الفيلُ معروفٌ ، والجمع أفيال وفُيُولٌ وفَيْلَةٌ . قال ابن السكيت : ولا تقل أفيلة . [والأُنثى فَيْلَةٌ ^(١)] وصاحبه فَيْالٌ ^(٢) . قال سيبويه : يجوز أن يكون أصل فيل فُفِلًا فُكْسِرَ من أجل الياء ؛ كما قالوا : أبيض وبييض . وقال الأخفش : هذا لا يكون فى الواحد إنما يكون فى الجمع . ورجلٌ فَيْلٌ الرأى ، أى ضعيف الرأى . والجمع أفيال . ورجلٌ فَيْالٌ ؛ أى ضعيف الرأى مخطئ الفراسة . وقد قال الرأى يُفَيْلُ فُيُولَةً ، وقيل رأيه تَفْيِيلًا ؛ أى ضَعْفَهُ ، فهو فَيْلٌ الرأى .

الثالثة - فى قصة أصحاب الفيل ؛ وذلك أن أبرهة بنى القليس بصنعاء ، وهى كنيسة لم يَرِ مِثْلُهَا فى زمانها بشىء من الأرض ، وكان نصرانيا ، ثم كتب إلى النجاشى أنى قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يُبْنِ مِثْلُهَا لِمَلِكٍ كان قبلك ، ولستُ بمته حتى أصرف إليها حج العرب .

(١) من تمة قول ابن السكيت . (٢) فى اللسان : « وصاحبها » .

فلما تحدّثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي^(١) ، غضب رجل من النساء^(٢) ، فخرج حتى أتى الكنيسة فقعدها فيها - أي أحدث - ثم خرج فلحق بأرضه ؛ فأخبر بذلك أبرهة فقال : من صنع هذا ؟ فقيل : صنعه رجل من أهل هذا البيت الذي تمجّع إليه العرب بمكة لما سمع قولك : «أصرف إليها حجّ العرب» غضب بقاء فقعدها فيها . أي إنما ليست لذلك بأهل . فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرون إلى البيت حتى يهدمه ، وبعث رجلاً كان عنده إلى بني كنانة يدعوهم إلى حجّ تلك الكنيسة ؛ فقتلت بنو كنانة ذلك الرجل ؛ فزاد أبرهة ذلك غضباً وحنقاً ، ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهّزت ، ثم سار وخرج معه بالفيل ؛ وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفطعوا به ورأوا جهاده حقاً عليهم حين سمعوا أنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام . فخرج إليه رجل من أشرف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نقر ، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام ، وما يريد من هدمه وإحراجه ؛ فأجابه من أجابه إلى ذلك ، ثم عرض له فقاتله فهزم ذو نفر وأصحابه وأخذ له ذو نفر فأتى به أسيراً ؛ فلما أراد قتله قال له ذو نفر : أيها الملك لا تقتلني ، فإنه عسى أن يكون بقائى معك خيراً لك من قتلى ؛ فتركه من القتل وحبسه عنده في وثاق ، وكان أبرهة رجلاً حليماً . ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له ، حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نقيب ابن حبيب الخثعمي في قبيلتي خثعم : شهران وناهس ومن تبعه من قبائل العرب ؛ فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ له نقيب أسيراً ؛ فأتى به فلما هم بقتله قال له نقيب : أيها الملك لا تقتلني ، فلانى دليلك بأرض العرب ، وهاتان يداى لك على قبيلتي خثعم شهران وناهس بالسمع والطاعة ؛ فغلى سبيله . وخرج به معه يده ، حتى إذا مرّ بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب في رجال من ثقيف فقالوا له : أيها الملك ، إنما نحن عبيدك ؛ سامعون لك مطيعون ، ليس عندنا لك خلاف ، وإيس بيتنا هذا البيت الذى تريد - يعنون اللات^(٣) - إنما تريد البيت الذى بمكة ،

(١) في سيرة ابن هشام : « من النساء أحد بنى فقيم بن عدى ... والنساء : الذين كانوا ينسبون المشهور على العرب في الجاهلية ، فيجلون الشهر من أشهر الحرم ويحرمون مكانه الشهر من أشهر الحل ، ويؤخرون ذلك الشهر ؛ ففيه أنزل الله تبارك وتعالى : « إنما النسيء زيادة في الكفر » . (راجع سيرة ابن هشام طبع أوربا ص ٢٩) .

(٢) بنو كنانة : قبيلة ذلك الرجل الذى أحدث في الكنيسة .

(٣) في سيرة ابن هشام : « واللات بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة » .

وفهن نبعت معك من يدلك عليه ؛ ففجأوز عنهم . وبعثوا معه أبا رِغال حتى أنزله المغمس^(١) ؛
فلما أنزله به مات أبو رِغال هناك فرجمت قبره العرب ؛ فهو القبر الذي يرجم الناس بالمغمس ،
وفيه يقول الشاعر :

وأرجم قبره في كل عام * كرجم الناس قبراً أبي رِغال

فلما نزل أبرهة بالمغمس بعث رجلاً من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود على خيل له ، حتى
أتتهى إلى مكة فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم ، وأصاب فيها مائتي بعير لعبد
المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ؛ فهتمت قريش وكثانة وهذيل ومن كان
بذلك الحرم بقتاله ؛ ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوا ذلك . وبعث أبرهة حناطة الحميري^(٢)
إلى مكة وقال له : سل عن سيد هذا البلد وشريفهم ، ثم قل له : إن الملك يقول إنى لم
أت لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت ، فإن لم تعرضوا لى بحرب فلا حاجة لى بدمائكم ؛
فإن هو لم يرد حربى فأتنى به . فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها ؛
فقيل له : عبد المطلب بن هاشم ؛ فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة ؛ فقال له عبد المطلب :
والله ما نريد حربته ، وما لنا بذلك منه طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم عليه
السلام ، أو كما قال ، فإن يمنعه منه فهو حرمه وبيته ، وإن يُجَلَّ بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع
عنه . فقال له حناطة : فأنطلق إليه فإنه قد أمرنى أن آتية بك ؛ فأنطلق معه عبد المطلب
ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكرة ؛ فسأل عن ذى نفر وكان صديقاً له حتى دخل عليه وهو
فى محبسه فقال له : ياذا نفر ، هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟ فقال له ذو نفر ؛ وما غناء
رجل أسير بيدي ملك ينتظر أن يقتله غدواً وعشياً ! ما عندى غناء فى شىء مما نزل بك ،
إلا أن أنيساً سائس الفيل صديق لى فسارسل إليه وأوصيه بك ، وأعظم عليه حقك ، وأسأله
أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدالك ، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك ؛ فقال

(١) المغمس : موضع قرب مكة فى طريق الطائف . (٢) كذا فى بعض نسخ الأصل وتفسير الثعلبى

وتاريخ الطبرى (قسم أول ص ٩٣٧ طبع أوربا) وتاريخ ابن الأثير (ج ١ ص ٣٢١ طبع أوربا) .

وفى بعض الأصول وتفسير الطبرى وسيرة ابن هشام (ص ٣٣ طبع أوربا) : « مفصود » بالفاء ، بدل الفاف .

(٣) فى هامش نسخة : « عن سيد هذا البيت » .

حَسْبِي . فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة
ويطعم الناس بالسهل والوحوش في رهوس الجبال ، وقد أصاب له الملك مائتي بعير فاستأذن
له عليه ، وأنفعه عنده بما استطعت ؛ فقال : أفعل . فكلم أنيس أبرهة فقال له : أيها الملك ،
هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك ، وهو صاحب عين مكة ، يطعم الناس بالسهل والوحوش
في رهوس الجبال ؛ فأذن له عليك فيكلمك في حاجته . قال : فأذن له أبرهة .

وكان عبد المطلب أوسم الناس وأعظمهم وأجملهم ، فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه عن
أن يجلسه تحته ؛ فنزل أبرهة عن سريره بجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه . ثم قال
لترجمانه : قل له : حاجتك ؟ فقال له ذلك الترجمان فقال : حاجتي أن يرد علي الملك مائتي
بعير أصابها لي . فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه : قل له لقد كنت أعجبتني حين رأيتك
ثم قد زهدت فيك حين كلمتني ، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك ، وتترك بيتاً هو دينك ودين
آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ! . قال له عبد المطلب : إني أنا رب الإبل ، وإن
للبيت رباً سمينه . قال : ما كان ليمتنع مني ! قال أنت وذاك ؛ فرد عليه إبله . وأنصرف
عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في شعف الجبال^(١)
والشعاب تحوفاً عليهم^(٢) . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من
قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده فقال عبد المطلب وهو أخذ بحلقة باب الكعبة :

لَا هُمْ إِنْ الْعَبْدِمْ . * نَحْرَحْلَهُ فَأَمْنَعِ حَلَالِكُ
لَا يَغْلِبَنَّ صَلِيْبُهُمْ . * وَمِحَالُهُمْ عَدُوًّا مِحَالِكُ
إِنْ يَدْخُلُوا الْبَلَدَ الْحَرَا . * مِ فَاْمُرُّ مَا بَدَالِكُ^(٣)

(١) شعف الجبال : رهوسها . (٢) المعزة الأذى . ومعزة الجيش : أن ينزلوا بقوم فيأكلوا من
زرورهم بغير علم . وقيل : وطأتهم من مروا به من مسلم أو معاهد ، وإصابتهم إياهم في حريمهم وأموالهم وزرورهم بما لم
يؤذن لهم فيه . (٣) الحلال (بالكسر) : القوم المقيمون المتجاورون . يريد بهم سكان الحرم .
(٤) « عدوا » بالعين المهملة ؛ ومعناه الاعتداء . وفي اللسان مادة « غدا » : « غَدُوا » بالعين المعجمة .
قال : « الغدو أصل الغد ، وهو اليوم الذي يأتي بعد يومك لحذف لامه ولم يستعمل تماماً إلا في الشعر . ولم يرد
عبد المطلب الغد بعينه ، وإنما أراد القريب من الزمان » .

يقول: أى شىء ما بدالك لم تكن تفعله بنا. والحلال جمع حل. والمحال القوّة. وقيل: إن عبد المطلب لما أخذ بحلقة باب الكعبة قال:

يَارَبِّ لَا أَرْجُو لِمَ سِوَاكَ * يَارَبِّ فَامْنَعْ مِنْهُمْ حِمَاكَ
إِنَّ عَدُوَّ الْبَيْتِ مِنْ عَادَاكَ * لَانَهُمْ لَنْ يَفْهَرُوا قِوَاكَ

وقال عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي:

لَا هُمْ أَنْزَالُ السُّودِ بِنَ مَقْصُودٍ * الْإِخْذَ الْمَهْجَمَةَ فِيهَا التَّقْلِيدُ^(١)
بَيْنَ حِرَاءٍ وَثَبِيرٍ فَالْيَيْدُ * يَحْمِسُهَا وَهِيَ أُولَاتُ التُّطْرِيدِ^(٢)
فَضَّهَا إِلَى طَهَائِمِ سُودٍ * [فَدَأْجَمُوا إِلَّا يَكُونُ مَعْبُودُ^(٣)
وَيَهْدِمُوا الْبَيْتَ الْحَرَامَ الْمَعْمُودَ * وَالْمَرْوَتَيْنِ وَالْمَشَاعِرَ السُّودَ]^(٤)
* أَخْفِرَهُ يَارَبِّ وَأَنْتَ مَحْمُودُ^(٥)

قال ابن إسحاق: ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة، ثم انطلق هو ومن معه من قريش إلى شرف الجبال فتحزروا فيها يتظفرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها. فلما أصبح أبرهة تهباً لدخول مكة وهياً فيله وعباً جهشه، وكان اسم الفيل محموداً، وأبرهة تجتمع لهدم البيت ثم الانصراف إلى اليمن. فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نقيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل ثم أخذ بأذنه فقال له: أبرك محمود، وأرجع راشداً من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام. ثم أرسل أذنه فبرك الفيل. وخرج نقيل بن حبيب يشتد حتى أصعد في الجبل. وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا في رأسه بالطبرزين ليقوم فأبى، فادخلوا

(١) الهجمة: القطعة الضخمة من الإبل. قبل هي ما بين الثلاثين والمائة. وقيل أزلها الأربعون. وقيل ما بين السبعين إلى المائة. (انظر كتب اللغة). وتقليدها أنه يحمل في صفتها شعارهم أنه هدى. (٢) حراء وثبير: جبلان بمكة. واليد: جمع اليداء، وهي الفلاة. وتطريد الإبل: تاجها. (٣) الطمطمة: الهجمة. قال السهيلي: «طماطم سود» بنى الطرج. (٤) ما بين المرهين لم يذكره ابن إسحاق في روايته. (٥) أخفره: أى آقض عهده ورمزه فلا تؤممه. (٦) الطبر (محرّكة): الفأس من السلاح (معربة). والطبرزين آلة من السلاح تشبه الطبر. وقيل هو الطبرجة.

مُحَاجِنٌ لَّهُمْ فِي مَرَّاقِهِ فَبَزَغُوهُ بِهَا لِيَقُومَ فَأَبَى ، فَوَجَّهُوهُ رَاجِعًا إِلَى الْيَمِينِ فَقَامَ يُهْرَوِلُ ، وَوَجَّهُوهُ إِلَى الشَّامِ ففَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَوَجَّهُوهُ إِلَى الْمَشْرِقِ ففَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَوَجَّهُوهُ إِلَى مَكَّةَ فَبَرَكَ . وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا مِنَ الْبَحْرِ أَمْثَالَ الْخَطَّاطِيْفِ وَالْبَلَّاسَانِ ، مَعَ كُلِّ طَائِرٍ مِنْهَا ثَلَاثَةُ أَحْجَارٍ : حَجْرٌ فِي مِنتَقَارِهِ وَحَجْرَانِ فِي رِجْلَيْهِ أَمْثَالَ الْحِمَى وَالْعَدَسِ لَا تُصِيبُ مِنْهُمُ أَحَدًا إِلَّا هَلَكَ ؛ وَلَيْسَ كُلُّهُمْ أَصَابَتْ . وَخَرَجُوا هَارِبِينَ يَبْتَدِرُونَ الطَّرِيقَ الَّتِي جَاءُوا مِنْهَا ، وَيَسْأَلُونَ عَنْ نُفَيْلِ بْنِ حَبِيبٍ لِيَدْلَهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ إِلَى الْيَمِينِ . فَقَالَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ حِينَ رَأَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ مِنْ نَقْمَتِهِ :
 أَيْنَ الْمَفَرُّ وَالْإِلَهُ الطَّالِبُ * وَالْأَشْرَمُ الْمَغْلُوبُ لَيْسَ الْغَالِبُ

وقال أيضا :

بِمَدَّتْ اللَّهُ إِذْ أَبْصَرْتُ طَيْرًا * وَخِفْتُ حِجَارَةً تُلْقَى عَلَيْنَا
 فَكُلُّ الْقَوْمِ يَسْأَلُ عَنْ نُفَيْلٍ * كَأَنَّ عَلَى اللَّحْبُشَانِ دَيْنًا

فَخَرَجُوا يَتَسَاقَطُونَ بِكُلِّ طَرِيقٍ ، وَيَهْلِكُونَ [بِكُلِّ مَهْلِكٍ] عَلَى كُلِّ مَهْلٍ ، وَأَصِيبُ أِبْرَهَةَ فِي جَسَدِهِ ، وَخَرَجُوا بِهِ مَعَهُمْ يَسْقُطُ أُنْمَلَةٌ أُنْمَلَةٌ ، كَمَا سَقَطَتْ مِنْهُ أُنْمَلَةٌ أَتْبَعَتْهَا مِنْهُ مِدَّةٌ تَمَثُّ قَيْحًا وَدَمًا ، حَتَّى قَدِمُوا بِهِ صِنْعَاءَ وَهُوَ مِثْلُ فَرْخِ الطَّائِرِ ، فَمَا مَاتَ حَتَّى أَنْصَدَعَ صَدْرُهُ عَنْ قَلْبِهِ ؛ فِيمَا يَزْعَمُونَ .

وقال الكلبي ومقاتل بن سليمان - يزيد أحدهما وينقص - : سبب الفيل ما روى أن فتيمة من قريش خرجوا تجارا إلى أرض النجاشي ، فتزلوا على ساحل البحر إلى بيعة للنصارى تسميها النصارى الهيكل ، فأوقدوا نارا للطعامهم وتركوها وأرتحلوا ؛ فهبت ريح عاصف على النار فأضرمت البيعة نارا فأحترقت ؛ فأتى الصيرمخ إلى النجاشي فأخبره ،

(١) المحجن : العسا. المنعطفة الرأس كالصولجان . (٢) بزغوه : شرطوه . (٣) في اللسان والنهاية مادة (بلس) : « قال عباد بن موسى أظنها الزرازير » . (٤) الأشرم : أبرهة ؛ سمي بذلك لأنه جاءه حجر فشرم أنفه فسمى الأشرم . (٥) زيادة عن سيرة ابن هشام . (٦) في سيرة ابن هشام : « منهل » . (٧) أي ينثر جسمه ، والأنملة طرف الأصبع . ويعبر بها عن الصغير من الأشياء . (٨) مث السقاء : رشح .

فامتشاط غضبا . فاتاه أبرهة بن الصباح ومجر بن شرحبيل وأبو يكسوم الكنديون ؛
وضمنوا له إحراق الكعبة وسبي مكة . وكان النجاشي هو الملك ، وأبرهة صاحب الجيش .
وأبو يكسوم نديم الملك . وقيل وزير . ومجر بن شرحبيل من قواده . وقال مجاهد :
أبو يكسوم هو أبرهة بن الصباح . فساروا ومعهم الفيل . قال الأثرون : هو فيل واحد .
وقال الضحاك : هي ثمانية فيلة . ونزلوا بذي المجاز ، وأستاقوا سرح مكة وفيها إبل
عبد المطلب . وأتى الراعي نذيراً فصعد الصفا فصاح : واصباحاه ! ثم أخبر الناس بجيء الجيش
والفيل . فخرج عبد المطلب وتوجه إلى أبرهة وسأله في إبله . وأختلف في النجاشي هل كان
معهم ؛ فقال قوم كان معهم . وقال الأثرون لم يكن معهم . ونظر أهل مكة بالطير قد أقبلت
من ناحية البحر ؛ فقال عبد المطلب : إن هذه الطير غريبة بأرضنا ، وما هي بنجدية ولا تهامية
ولا حجازية ، وإنها أشباه العاسيب^(١) . وكان في مناقيرها وأرجلها حجارة ؛ فلما أظلت^(٢) على
القوم ألقتها عليهم حتى هلكوا . قال عطاء بن أبي رباح : جاءت الطير عشيّة فباتت ثم صبحتهم
بالغدادة فرمتهم . وقال الكلبي : في مناقيرها حصي كحصى الخذف^(٣) ، أمام كل فرقة طائر يقودها
أحمر المنقار أسود الرأس طويل العنق . فلما جاءت عسكر القوم وتوافقت أهالت ما في مناقيرها
على من تحتها ، مكتوب على كل حجر أسم صاحبه المقتول به . وقيل : كان على كل حجر مكتوب :
من أطاع الله نجا ، ومن عصاه غوى . ثم انصاعت راجعة من حيث جاءت . وقال العوفي :
سألت عنها أبا سعيد الخدري فقال : حمام مكة منها . وقيل : كان يقع الحجر على بيضة أحدهم
فيخرقها ويقع في دماغه ويخرق الفيل والدابة ، ويغيب الحجر في الأرض من شدة وقعه .
وكان أصحاب الفيل ستين ألفاً ، لم يرجع منهم أحد إلا أميرهم رجع ومعه شزيمة لطيفة . فلما
أخبروا بما رأوا هلكوا . وقال الواقدي : أبرهة جد النجاشي الذي كان في زمان رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وأبرهة هو الأشرم سُمي بذلك لأنه تقاتن^(٤) مع أرباط حتى تراخفا ،

(١) اليسوب : أمير النحل وذكرها . (٢) في نسخة : « أقبلت » . (٣) الخذف : الرمي

بالحصا الصغار بأطراف الأصابع . (٤) انصاع الرجل : انقتل راجعاً ومرّاً مسرعاً . (٥) هي بيضة الحديد .

(٦) المقاتنة : اختلاف الناس في الآراء وما يقع بينهم من القتال .

ثم اتفقا على أن يلتقيا بشخصيهما فمن غاب فله الأمر . فتبارزا - وكان أرباط جسيما عظيما في يده حربا ، وأبرهة قصيرا حاررا حلما ذا دين في النصرانية ، ومع أبرهة وزير له يقال له عتودة - فلما دنوا ضرب أرباط بحربته رأس أبرهة فوقعت على جبينه فشرمت عينه وأنفه وجبينه وشفته ؛ فلذلك سُمي الأشرم . وحمل عتودة على أرباط فقتله . فاجتمعت الحبشة لأبرهة ؛ فغضب النجاشي وحلف ليجزئ ناصية أبرهة ويطأ بلاده . فجز أبرهة ناصيته وملا مزودا من تراب أرضه وبعث بهما إلى النجاشي وقال : إنما كان عبدك وأنا عبدك ، وأنا أقوم بأمر الحبشة ، وقد جزئت ناصيتي وبعثت إليك بتراب أرضي لتطأه وتبر في يمينك ؛ فرضى عنه النجاشي . ثم بنى أبرهة كنيسة بصنعاء ليصرف إليها حج العرب ؛ على ما تقدم .

الرابعة - قال مقاتل : كان عام الفيل قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم بأربعين سنة . وقال الكلبي وعبيد بن عمير : كان قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم بثلاث وعشرين سنة . والصحيح ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ولدت عام الفيل " . وروى عنه أنه قال : " يوم الفيل " . حكاها الماوردي في التفسير له . وقال في كتاب أعلام النبوة : ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول ، وكان بعد الفيل بخمسين يوما . ووافق من شهور الروم العشرين من أسباط في السنة الثانية عشرة من ملك هرمز بن أنوشروان . قال : وحكى أبو جعفر الطبري أن مولده صلى الله عليه وسلم كان لاثنتين وأربعين سنة من ملك أنوشروان . وقد قيل : إنه عليه السلام حملت به أمه آمنة في يوم عاشوراء من المحرم ، وولد يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان ؛ فكانت مدة حملها ثمانية أشهر كمالا ويومين من التاسع . وقيل : إنه ولد يوم عاشوراء من شهر المحرم ؛ حكاها ابن شاهين أبو حفص في فضائل يوم عاشوراء له . ابن العربي : « قال ابن وهب عن مالك : ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل ، وقال قيس بن مخزوم : ولدت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل . وقد روى الناس عن مالك أنه قال :

(١) الحادر : المجتمع الخلق . (٢) في نسخة : « شباط » (بالسين المعجمة كغراب) . وورد بالسين المهملة .

(٣) في بعض نسخ الأصل : « أبو شاهين حفص » .

من مروءة الرجل الا يخبر بسنه ؛ لأنه إن كان صغيرا استحقره وإن كان كبيرا أستهرموه . وهذا قول ضعيف ؛ لأن مالكا لا يخبر بسن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكتم سنه ؛ وهو من أعظم العلماء قدوة به . فلا بأس بأن يخبر الرجل بسنه كان كبيرا أو صغيرا . وقال عبد الملك ابن مروان لعتاب بن أسيد : أنت أكبر أم النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : النبي صلى الله عليه وسلم أكبر مني وأنا أسن منه ؛ ولد النبي صلى الله عليه وسلم عام الفيل ، وأنا أدركت سائسه وقائده أعميين مقعدين يستطعمان الناس . وقيل لبعض القضاة : كم سنك ؟ قال : سن عتاب ابن أسيد حين ولّاه النبي صلى الله عليه وسلم مكة ؛ وكان سنه يومئذ دون العشرين .

الخامسة - قال علماؤنا : كانت قصة الفيل فيما بعد من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن كانت قبله وقبل التحدي ؛ لأنها كانت توكيدا لأمره وتمهيدا لشأنه . ولما تلا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه السورة ، كان بمكة عدد كثير ممن شهد تلك الواقعة ، ولهذا قال : « ألم تر » . ولم يكن بمكة أحد إلا وقد رأى قائد الفيل وسائقه أعميين يتكففان الناس . وقالت عائشة رضي الله عنها مع حدائث سنها : لقد رأيت قائد الفيل وسائقه أعميين يستطعمان الناس . وقال أبو صالح : رأيت في بيت أم هانئ بنت أبي طالب نحواً من قفيزين من تلك الحجارة سوداً مخططة بحمرة .

قوله تعالى : **أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ** ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : **(أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ)** أي في إبطال وتضييع ؛ لأنهم أرادوا أن يكيدوا قرينشا بالقتل والسبي ، والبيت بالتحريب والهدم . فحكى عن عبد المطلب أنه بعث ابنه عبد الله على فرس له ، ينظر ما لقوا من تلك الطير ، فإذا القوم مُشدّخين جميعا ، فرجع يركض فرسه كاشفاً عن نخذه ، فلما رأى ذلك ، أبوه قال : إن أبني هذا أفرس العرب ، وما كشف عن نخذه إلا بشيراً أو نذيراً . فلما دنا من ناديم بحيث يُسمعهم الصوت قالوا : ما وراءك ؟ قال : هلكوا جميعا . فخرج عبد المطلب وأصحابه فأخذوا أموالهم . وكانت

أموال بني عبد المطلب منها، وبها تكاملت رياسة عبد المطلب؛ لأنه احتمل ما شاء من صفراء وبيضاء، ثم خرج أهل مكة بعده فذهبوا . وقيل : إن عبد المطلب حفر حفرتين فملاهما من الذهب والجوهر ، ثم قال لأبي مسعود الثقفي - وكان خليلاً لعبد المطلب - : اختر أيهما شئت . ثم أصاب الناس من أموالهم حتى ضاقوا ذرعاً فقال عبد المطلب عند ذلك :
 أنت منعت الحبش^(١) والأفيالا * وقد رَعَوْا بِمَكَّةِ الْأَجْبَالَ^(٢)
 وقد خَشِينَا مِنْهُمْ الْقِتَالَ * وكلُّ أَمْرٍ لَهُمْ مَعْضَالًا^(٣)
 * شُكْرًا وَحَمْدًا لِكَذَا الْجَلَالَا^(٤) *

قال ابن إسحاق: ولما ردَّ الله الحبشة عن مكة عظمت العربُ قريشًا وقالوا: [هم] أهل الله، قاتل الله عنهم وكفاهم مئونة عدوهم . وقال عبدالله بن عمرو بن مخزوم في قصة أصحاب الفيل:
 أنت الجليل ربنا لم تَدْنِسِ * أنت حبستَ الفيلَ بالمُغَمِّسِ
 من بعد ما همَّ بِشَرِّ مُبْلِسِ * حبستَه في هيئة المَكْرَكْسِ
 * وما لهم من فَرَجٍ وَمَنْفَسِ *

والمكرس : المنكوس المطروح .

قوله تعالى : وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٤﴾

قال سعيد بن جبیر : كانت طيرًا من السماء لم يرَ قبلها ولا بعدها مثلها . وروى جُوَيْرِ عن الضحاك عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إنها طير بين السماء والأرض تُعَشِّشُ وتُفْرَخُ" . وعن ابن عباس : كانت لها خراطيم تكراطم الطير وأكف كأف الكلاب . وقال عكرمة : كانت طيرا خضراء ، خرجت من البحر ، لها رءوس كراءوس السباع ، ولم تر قبل ذلك ولا بعده . وقالت عائشة رضی الله عنها : هي أشبه شيء بالخطاطيف . وقيل : بل كانت أشباه الوطاويط ، حمراء وسوداء . وعن

(١) الحبش : محرّكة وسكنت للشعر . (٢) في روح المعاني : «الأجبالا» بالحاء . (٣) في روح المعاني : «منهم» بدل «لهم» . (٤) كذا في نسخ الأصل وغيرها من المصادر . (٥) زيادة عن سيرة ابن هشام .

سعيد بن جبير أيضا : هي طير خضر لها مناقير صفر . وقيل : كانت بيضاء . وقال محمد ابن كعب : هي طير سود بحرية ، في مناقيرها وأظفارها الحجارة . وقيل : إنها العنقاء المغرب^(١) التي تُضرب بها الأمثال ؛ قال عكرمة : « أبابيل » أي مجتمعة . وقيل : متتابعة بعضها في إثر بعض ؛ قاله ابن عباس ومجاهد . وقيل : مختلفة متفرقة ، تجيء من كل ناحية ، من ها هنا وها هنا ؛ قاله ابن مسعود وابن زيد والأخفش . قال النحاس : وهذه الأقوال متفقة ، وحقيقة المعنى أنها جماعات عظام . يقال : فلان يؤبل على فلان ؛ أي يعظم عليه ويكثر ؛ وهو مشتق من الإبيل . واختلف في واحد أبابيل ؛ فقال الجوهري : قال الأخفش يقال : جاءت إبلك أبابيل ؛ أي فرقا . وطير أبابيل . قال : وهذا يجيء في معنى التكثير ، وهو من الجمع الذي لا واحد له . وقال بعضهم : واحده إبول مثل عجول . وقال بعضهم - وهو المبرد - : إبيل مثل سكين . قال : ولم أجد العرب تعرف له واحدا في غير الصحاح . وقيل في واحده إبال . وقال رؤبة بن العجاج في الجمع :

وَلَعِبْتُ طَيْرُ بِهِمُ أَبَابِيلُ * فَصُيروا مِثْلَ كَعَصِفٍ مَأْكُولٍ

وقال الأعشى :

طَرِيقٌ وَجِبَارٌ رِوَاءُ أَصُولِهِ * عَلَيْهِ أَبَابِيلٌ مِنَ الطَّيْرِ تَنْعَبُ

وقال آخر :

كَادَتْ تَهْدُ مِنَ الْأَصْوَاتِ رَاحَتِي * إِذْ سَالَتْ الْأَرْضُ بِالْجُرْدِ الْأَبَابِيلِ^(٣)

وقال آخر :

تَرَاهُمْ إِلَى الدَّاعِي سَرَاعًا كَأَنَّهُمْ * أَبَابِيلٌ طَيْرٌ تَحْتَ دَجْنٍ مَسْخَنِ^(٤)

(١) هي التي أغربت في البلاد فئات ولم تحس ولم تر . (٢) الجبار من النخل : ما طال وفات اليد . (٣) الجرد (بالضم كالجريدة) : خيل لا رجالة فيها . والجرد - أيضا - : قصر شعر الجلد في الفرس ، وهو من الأوصاف المحودة في الخيل . (٤) كذا في نسخ الأصل ، (بالحاء المعجمة والنون) . وفي تفسير الثعلبي : ... تحت دجن مسخر . (بالحاء المهملة والراء) . وقد نسبة إلى امرئ القيس ؛ ولم نجد في ديوانه . ولعل صوابه : ... تحت دجن مسخر . (بالحاء المعجمة والراء) .

قال الفراء : لا واحد له من لفظه ، وزعم الرُّؤمِيُّ - وكان ثقة - أنه سمع في وأصنحها
«إِبالة» مشددة . وحكى الفراء «إِبالة» مخففاً . قال : سمعت بعض العرب يقول : ضَغَتْ^(١) على
إِبالة . يريد خصبا على خصب . قال : ولو قال قائل إيبال كان صواباً ؛ مثل دينار ودنانير .
وقال إسحاق بن عبد الله بن الحارث بن نوفل : الأبايل مأخوذ من الإبل المؤبلة ؛ وهي
الأفاطيع .

قوله تعالى : تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٥٠﴾

في الصحاح «حِجَارَةٌ مِّن سِجِّيلٍ» قالوا : حجارة من طين طُبخت بنار جهنم ، مكتوب
فيها أسماء القوم ؛ لقوله تعالى : «لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ»^(٢) . وقال عبد الرحمن
ابن أبزى : «مِن سِجِّيلٍ» من السماء ، وهي الحجارة التي نزلت على قوم لوط . وقيل من الجحيم .
وهي «سِجِّين» ثم أبدلت اللام نونا ؛ كما قالوا في أَصِيلَانِ أَصِيلَالٍ . قال ابن مُقْبِلٍ :
* ضَرْبًا تَوَاصَتْ بِهِ الْأَبْطَالُ سِجِّينًا^(٣) *

ولانما هو سِجِّيلًا . وقال الزجاج : «مِن سِجِّيلٍ» أي مما كُتِبَ عليهم أن يُعَذَّبُوا به ؛
مشتق من السجل . وقد مضى القول في سِجِّيلٍ في «هود»^(٤) مستوفى . قال عِكْرَمَةُ : كانت
ترميمهم بحجارة معها ، فإذا أصاب أحدهم حجر منها خرج به الجُدْرِيّ لم يُرَقِبْ ذلك اليوم .
وكان الحجر كالحصاة وفوق العَدْسَةِ . وقال ابن عباس : كان الحجر إذا وقع على أحدهم نَفِطٌ
جلده فكان ذلك أول الجُدْرِيّ . وقراءة العامة «تَرْمِيهِمْ» بالياء لتأنيث جماعة الطير . وقرأ
الأعرج وطلحة «يَرْمِيهِمْ» بالياء ؛ أي يرميهم الله ؛ دليله قوله تعالى : «وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى»^(٥)
ويجوز أن يكون راجعا إلى الطير لخلوها من علامات التأنيث ، ولأن تأنيثها غير حقيق .

(١) الضغث : قبضة من حشيش مختلطة الرطب باليابس . والإبالة : الحزمة من الحطب . في فرائد اللآل :

يضرب لمن حمله مكروها ثم زادك عليه . (٢) آية ٣٣ سورة الذاريات .

(٣) صدر البيت كما في اللسان : * وَرَجَلَةٌ يَضْرِبُونَ الْبَيْضَ مِنْ مَرَضٍ *

(٤) راجع ج ٩ ص ٨١ . (٥) آية ١٧ سورة الأنفال .

قوله تعالى : فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّا كُولٍ ﴿٥٠﴾

أى جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع ، إذا أكلته الدواب فرمت به من أسفل . شبه تقطع أوصالهم بتفريق أجزائه . روى معناه عن ابن زيد وغيره . وقد مضى القول في العصف في سورة « الرحمن » (١) . ومما يدل على أنه ورق الزرع قول علقمة :

تَسْقَى مَذَانِبَ قَد مَالَتْ عَصِيفُهَا * حَدُّورُهَا مِنْ أَيْ الْمَاءِ مَطْمُومٌ (٢)

وقال رؤبة بن العجاج :

وَمَسَّهُمْ مَا مَسَّ أَصْحَابَ الْفِيلِ * تَرْمِيهِمْ حِجَارَةٌ مِنْ سَجِيلِ
وَلَعِبَتْ طَيْرٌ بِهِمْ أَبَابِيلِ * فَصُيِّرُوا مِثْلَ كَعَصْفٍ مَّا كُولِ

العصف جمع واحدة عصفة وعصافة وعصيفة . وأدخل الكاف في « كعصف » للتشبيه

مع مثل ؛ نحو قوله تعالى : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » (٣) . ومعنى « ما كُولٍ » ما كول حبه . كما يقال : فلان حسن ؛ أى حسن وجهه . وقال ابن عباس : « لجعلهم كعصف ما كُولٍ » أن المراد به قشر البر ، يعنى الغلاف الذى تكون فيه حبة القمح . ويروى أن المجر كان يقع على أحدهم فيخرج كل ما فى جوفه فيبقى كقشر الحنطة إذا خرجت منه الحبة . وقال ابن مسعود : لما رمى الطير بالحجارة بعث الله ريحا فضربت الحجارة فزادتها شدة ، فكانت لا تقع على أحد إلا هلك ، ولم يسلم منهم إلا رجل من كندة ؛ فقال :

فإنك لو رأيت ولم تربه (٤) * لدى جنب المغمس ما لقينا (٥)

- (١) راجع ج ١٧ ص ١٥٦ . (٢) المذانب : مسايل الماء . والعصيفة : الورق المجمع الذى يكون فيه السنبل . وحدورها : ما انحدر منها واطمان . والأقنى (كفنى) : الجدول . والمطموم : المملوء بالماء . (٣) آية ١١ سورة الشورى . (٤) هو نقيب بن حبيب ؛ كما فى تاريخ الطبرى وابن الأثير . (٥) فى نسخ الأصل : « ولو ترانا » وهو تحريف ؛ لأنه يخاطب امرأة . والأبيات كما أوردها الطبرى (ص ٩٤٢ قسم أول طبع أوربا) وابن الأثير (ج ١ ص ٣٢٢ طبع أوربا) :

ألا حبيت عنا يارديننا * نعمناكم مع الإصباح عينا
أنا قابس منكم عشا . * فلم يقدر لقابسكم لدينا
ردينة لو رأيت ولم تربه * لدى جنب المحصب مارأينا
إذا لعدرتنى وحدث رأيت * ولم تأسى على ما فات بيننا
حدث الله إذ عاينت طيرا * وخفت حجارة تلقى علينا
فكل القوم يسأل عن نقيب * كأن على الحبشان ديننا

خَشِيتُ اللَّهَ إِذْ قَدَبَتْ طَيْرًا * وَظَلَّ سَحَابَةٌ مَرَّتْ عَلَيْنَا
وَبَاتَتْ كُلُّهَا تَدْعُو بِحَقِّ * كَانَتْ لَهَا عَلَى الْجُبُشَانِ دَيْنًا

ويروي أنها لم تصبهم كلهم، لكنها أصابت من شاء الله منهم . وقد تقدم أن أميرهم رجع
وشرذمة لطيفة معه، فلما أخبروا بما رأوا هلكوا . فالله أعلم . وقال ابن إسحاق : لما رد
الله الحبشة عن مكة عظمت العرب قريشا وقالوا : أهل الله قاتل عنهم وكفاهم مؤونة
عدوهم ؛ فكان ذلك نعمة من الله عليهم .

تفسير سورة « قريش »

مَكِّيَّةٌ ؛ فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ . وَمَدَنِيَّةٌ ؛ فِي قَوْلِ الضَّحَّاكِ وَالْكَلْبِيِّ
وَهِيَ أَرْبَعُ آيَاتٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾

قيل : إن هذه السورة متصلةٌ بالتى قبلها في المعنى . يقول : أهلك أصحاب الفيل
لإيلاف قريش ؛ أى لتألف ، أو لتتفق قريش ، أو لكى تأمن قريش فتؤلف رحلتها .
ومن عد السورتين واحدةً أبى بن كعب ، ولا فصل بينهما في مصحفه . وقال سفيان بن
عيينة : كان لنا إمام لا يفصل بينهما ويقرؤهما معاً . وقال عمرو بن ميمون الأودي : صلينا
المغرب خلف عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ فقرأ فى الأولى « والتين والزيتون » وفى الثانية
« ألم تر كيف » و « لإيلاف قريش » . وقال الفراء : هذه السورة متصلة بالسورة الأولى ؛
لأنه ذكر أهل مكة عظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة ، ثم قال : « لإيلاف قريش » أى فعلنا
ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش . وذلك أن قريشا كانت تخرج فى تجارتها ، فلا يفار
عليها ولا تقرب فى الجاهلية . يقولون : هم أهل بيت الله جل وعز ؛ حتى جاء صاحب الفيل
(١) الذى فى كتاب الفراء : « قال بعضهم كانت موصولة بـ « ألم تر كيف فعل ربك » الخ .

ليهدم الكعبة، ويأخذ حجارتها فيبنى بها بيتاً في اليمن يجمع الناس إليه؛ فأهلكهم الله عز وجل، فذكروهم نعمته. أى بفعل الله ذلك لإيلاف قريش؛ أى ليألفوا الخروج ولا يُجتَرَأ عليهم؛ وهو معنى قول مجاهد وابن عباس في رواية سعيد بن جبيرة عنه. ذكره النحاس: حدثنا أحمد بن شعيب قال أخبرني عمرو بن علي قال حدثني عامر بن إبراهيم — وكان ثقة من خيار الناس — قال حدثني خطاب بن جعفر بن أبي المغيرة قال حدثني أبي عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس في قوله تعالى: «لإيلاف قريش» قال: نعمتى على قريش لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف. قال: كانوا يشتون بمكة ويصيفون بالطائف. وعلى هذا القول يجوز الوقف على رءوس الآي وإن لم يكن الكلام تاماً؛ على ما نبينه أثناء السورة. وقيل: ليست بمتصلة؛ لأن بين السورتين «بسم الله الرحمن الرحيم» وذلك دليل على انقضاء السورة وافتتاح الأخرى، وأن اللام متعلقة بقوله تعالى: «فليعبدوا» أى فليعبدوا هؤلاء رب هذا البيت لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف للأمتيار. وكذا قال الخليل: ليست متصلة؛ كأنه قال: آلف الله قريشا لإيلافهم فليعبدوا رب هذا البيت. وعمل ما بعد الفاء فيما قبلها لأنها زائدة غير عاطفة؛ كقولك: زيدا فأضرب. وقيل: اللام في قوله تعالى «لإيلاف قريش» لام التعجب؛ أى اعجبوا لإيلاف قريش؛ قاله الكسائي والأخفش. وقيل: بمعنى إلى. وقرأ ابن عامر: «لإيلاف قريش» مهموزاً مُخْتَلَساً بلا ياء. وقرأ أبو جعفر والأعرج «ليلاف» بلا همز طلباً للتحفة. الباكون «لإيلاف» بالياء مهموزاً مُشْبَعاً؛ من آلفت أولف إيلافاً. قال الشاعر:

الْمُنْعِمِينَ إِذَا النُّجُومُ تَغَيَّرَتْ * وَالظَّاعِنِينَ لِرِحْلَةِ الْإِيْلَافِ

ويقال: ألفتها إلفاً وإلفاً. وقرأ أبو جعفر أيضاً: «لإلف قريش» وقد جمعتهما من قال:

زَعَمْتُمْ أَنْ إِخْوَتِكُمْ قُرَيْشٌ * لَهُمْ إِفٌّ وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَافٌ

قال الجوهري: وفلان قد ألف هذا الموضع (بالكسر) يألفه إلفاً، وألفه إياه غيره. ويقال أيضاً: آلفت الموضع أولفه إيلافاً. وكذلك آلفت الموضع أولفه مؤلفة وإلفاً؛

(١) أى جلب الطعام.

(٢) كذا في نسخ الأصل بالرفع على الخبر. وفي اللسان وشرح القاموس: «قريشا» بالنصب على البدل.

فصار صورة أفعل وفاعل في الماضي واحدة. وقرأ عكرمة « ليألف » بفتح اللام على الأمر . وكذلك هو في مصحف ابن مسعود . وفتح لام الأمر لغةً حكاه ابن مجاهد وغيره . وكان عكرمة يعيب على من يقرأ « لإيلاف » . وقرأ بعض أهل مكة « إلاف قريش » وأستشهد بقول أبي طالب يوصي أخاه أبا لهب برسول الله صلى الله عليه وسلم :

فلا تتركه ما حيت لمعظم * وكن رجلاً ذا نجدة وعفاف

تذود العدا عن عصبة هاشمية * إلافهم في الناس خير إلاف

وأما قريش فهم بنو النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر . فكل من كان من ولد النضر فهو قرشي دون بني كنانة ومن فوقه . وربما قالوا : قرشي ، وهو القياس ؛ قال الشاعر :

* بكل قرشي عليه مهابة^(١) *

فإن أردت بقريش الحى صرفته ، وإن أردت به القبيلة لم تصرفه ؛ قال الشاعر :

* وكفى قريش المعضلات وسادها^(٢) *

والتقريش الاكتساب ، وتقزشوا أى تجمعوا . وقد كانوا متفرقين في غير الحرم بجمعهم قصى ابن كلاب في الحرم ، حتى اتخذوه مسكناً . قال الشاعر :

أبونا قصى كان يدعى مجماً * به جمع الله القبائل من فهير

وقد قيل : إن قريشا بنو فهير بن مالك بن النضر . فكل من لم يلد فهير فليس بقريشى . والأقول أصح وأثبت . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أنا ولد النضر ابن كنانة لا تقفوا أمنا ولا تندفني من أيدينا " . وقال وائلة بن الأسقع : قال النبي صلى الله

(١) تمناه : * سريع إلى داعي الندى والتكرم *

(٢) هذا مجز بيت لعدى بن الرقاع يمدح الوليد بن عبد الملك . وصدده كما في اللسان :

* غلب المساميح الوليد سماحة *

(٣) قفا فلان فلانا : إذا فذفه بما ليس فيه ، أى لا تهنها ولا نقدفها ، وقيل : معناه لا ترك النسب إلى الآباء

وننسب إلى الأمهات .

عليه وسلم: "إن الله أصطفى كنانة من ولد إسماعيل وأصطفى من بني كنانة قريشاً وأصطفى من قريش بني هاشم وأصطفاني من بني هاشم". صحیح ثابت خرجه البخاری ومسلم وغيرهما . وأخْتَلَفَ في تسميتهم قريشاً على أقوال : أحدها - لتجمعهم بعد التفرُّق . والتقرُّش : التجمع والالتئام . قال أبو خَلْدَةَ اليشكري :

إخوة قرشوا الذنوب علينا * في حديث من دهرهم وقديم

الثاني - لأنهم كانوا تجاراً يأكلون من مكاسبهم . والتقرُّش : التكبُّب . وقد قرش يقرش قرشاً إذا كسب وجمع . قال الفراء : وبه سُميت قريش . الثالث - لأنهم كانوا يفتشون الحاج من ذى الخلة فيسدون خلته . والقرش التفتيش ؛ قال الشاعر :

أيها الشامت المقرش عنا * عند عمرو فهل له إبقاء^(٢)

الرابع - ما روى أن معاوية سأل ابن عباس لم سُميت قريش قريشاً ؟ فقال : لدابة في البحر من أقوى دوابه يقال لها القرش ؛ تأكل ولا تؤكل ، وتعلو ولا تُعلَى . وأنشد قول تبع :

وقريش هي التي تسكن البحر * ربها سُميت قريش قريشاً

تأكل الرث والسمين ولا تت * ركب فيها لذي جناحين ريشاً

هكذا في البلاد حتى قريش * يأكلون البلاد أكل كميثاً^(٣)

ولهم آخر الزمان نبى * يكثر القتل فيهم والخموشا^(٤)

قوله تعالى : إِيَّاكَ فَهِمُ رِحْلَةَ الْشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾

قرأ مجاهد وحُميد « إِيَّاكَ فَهِمُ » ساكنة اللام بغير ياء . وروى نحوه عن ابن كثير . وكذلك روت أسماء أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ « إِيَّاكَ فَهِمُ » . وروى عن ابن عباس

(١) الحاج (بالتحفيف) : جمع حاجة . والخلة (بالفتح) : الحاجة والفقير .

(٢) البيت للحارث بن حلزة اليشكري في معلقته . وروايته كما في شرح المعلقات :

أيها الناطق المرش عنا * عند عمرو وهل لذاك بقاء .

قال التبريزي : « المرش المزين القول بالباطل ليقبل منه الملك باطله . ويقال إنه يخاطب بها عمرو بن كلثوم .

ومعنى « وهل لذاك بقاء » : إن الباطل لا يبق . وعلى هذه الرواية لا شاهد فيه . (٣) أي سريعاً .

(٤) الخموش : (جمع الخمش) وهو مثل الخدش يكون في البدن والوجه .

وغيره . وقرأ أبو جعفر والوليد عن أهل الشام وأبو حيوة « إلافهم » مهموزاً مختلساً بلا ياء .
وقرأ أبو بكر عن عاصم « إئلافهم » بهمزتين ، الأولى مكسورة والثانية ساكنة . والجمع بين
الهمزتين في الكلمتين شاذ . الباقيون « إيلافهم » بالمد والهمز ؛ وهو الاختيار ، وهو بدل من
الإيلاف الأول للبيان . وهو مصدر آلف إذا جعلته يآلف . وآلف هو ألقا ؛ على ما تقدم
ذكره من القراءة ؛ أي وما قد ألقوه من رحلة الشتاء والصيف . روى ابن أبي نجيح عن
مجاهد في قوله تعالى : « إيلافهم رحلة الشتاء والصيف » قال : لا يشق عليهم رحلة شتاء
ولا صيف منة منه على قريش . وقال المروزي وغيره : وكان أصحاب الإيلاف أربعة إخوة :
هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل ؛ بنو عبد مناف . فأما هاشم فإنه كان يؤلف ملك الشام ؛
أي أخذ منه حبلاً وعهداً يأمن به في تجارته إلى الشام . وأخوه عبد شمس كان يؤلف إلى
الحبشة . والمطلب إلى اليمن . ونوفل إلى فارس . ومعنى يؤلف يجير . فكان هؤلاء الإخوة
يسمون المجيرين . فكان تجار قريش يختلفون إلى الأمصار بجبل هؤلاء الإخوة فلا يتعرض
لهم . قال الأزهري : الإيلاف شبه الإجارة بالحفارة ؛ يقال : آلف يؤلف إذا أجار^(١)
الجمائل بالحفارة . والجمائل جمع حمولة . قال : والتأويل أن قريشا كانوا سكان الحرم ولم يكن
لهم زرع ولا ضرع ، وكانوا يميرون في الشتاء والصيف آمنين والناس يتخطفون من حولهم ،
فكانوا إذا عرض لهم عارض قالوا : نحن أهل حرم الله ، فلا يتعرض الناس لهم . وذكر
أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا في تفسيره : حدثنا سعيد بن محمد عن بكر بن مهبل
الدمياطي بإسناده إلى ابن عباس في قول الله عز وجل : « لإيلاف قريش » إلفهم رحلة
الشتاء والصيف . وذلك أن قريشا كانوا إذا أصابت واحدا منهم محمصة جرى هو وعياله إلى
موضع معروف ، فضربوا على أنفسهم خباء فماتوا ؛ حتى كان عمرو بن عبد مناف وكان سيداً

(١) في بعض نسخ الأصل : « الإجارة والحفارة » ولم نجد هذا في كتاب التهذيب للأزهري ولا في غيره من

كتب اللغة . والإجارة : الإغاثة والحماية . والحفارة (مثلثة الخاء) : الأمان .

(٢) الحمولة (بالفتح) : الإبل التي تحمل .

(٣) المحمصة : الهجاعة .

في زمانه ، وله ابن يقال له : أسد ، وكان له رَبٌّ ^(١) من بني مخزوم يحبه ويلعب معه . فقال له : نحن غداً نَعْتَفِرُ . قال ابن فارس : هذه لفظة في هذا الخبر لا أدرى بالدال هي أم بالراء ؛ فإن كانت بالراء فلعلها من العَفْر وهو التراب ، وإن كانت بالدال فما أدرى معناها ، وتأويله على ما أظنه : ذهابهم إلى ذلك الحياء وموتهم واحداً بعد واحد . قال : فدخل أسد على أمه يبكي ، وذكر ما قاله رَبُّه . قال : فأرسلت أم أسد إلى أولئك بشعم ودقيق فعاشوا به أياماً . ثم إن رَبُّه أتاه أيضاً فقال : نحن غداً نعتفر ، فدخل أسد على أبيه يبكي ، وخبره خبر رَبِّه ، فاشتد ذلك على عمرو بن عبد مناف ، فقام خطيباً في قريش وكانوا يطيعون أمره ؛ فقال : إنكم أحدثتم حدثاً تَقْلُونَ فِيهِ وَتَكْثُرُ الْعَرَبُ ، وَتَذَلُّونَ وَتَعِزُّ الْعَرَبُ ، وَأَنْتُمْ أَهْلُ حَرَمِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ ، وَأَشْرَفُ وَلَدِ آدَمَ ، وَالنَّاسُ لَكُمْ تَبَعٌ ، وَيَكَادُ هَذَا الْاِعْتِفَارُ يَأْتِي صَليكُمْ . فقالوا : نحن لك تَبَعٌ . قال : ابتدئوا بهذا الرجل — يعني أبا رَبِّ أسد — فأغنوه عن الاعتفار ؛ ففعلوا . ثم إنه نحر البُذْنُ وذبح الكباش والمعز ، ثم هَشَمَ الثَّرِيدَ وأطعم الناس ؛ فَسُمِّيَ هَاشِمًا . وفيه قال الشاعر :

عَمَّرُوا الَّذِي هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ * وَرَجَالُ مَكَّةَ مُسْتِنُونَ عِجَافُ ^(٤)

ثم جمع كلُّ بني أبي علي رحلتين ، في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام للتجارات ، فما رَيجُ الغنى قَسَمَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْفَقِيرِ حَتَّى صَارَ فَقِيرَهُمْ كَغْنِيهِمْ ؛ بِنَاءِ الْإِسْلَامِ وَهُمْ عَلَى هَذَا ، فَلَمْ يَكُنْ فِي الْعَرَبِ بَنُو أَبِي أَكْثَرَ مَالًا وَلَا أَعَزَّ مِنْ قَرَيْشٍ ؛ وَهُوَ قَوْلُ شَاعِرِهِمْ :

وَإِلْخَالِطُونَ فَقِيرَهُمْ بِغْنِيَتِهِمْ * حَتَّى يَصِيرَ فَقِيرُهُمْ كَالْكَافِ

فلم يزالوا كذلك حتى بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم فقال : « فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ » بصنيع هاشم « وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ » أن تكثر العرب ويقتلوا .

(١) الترب (بالكسر) : اللدة والسن ومن ولد معك . (٢) في اللسان مادة عغد : « الاعتقاد أن

يفلق الرجل بابه على نفسه فلا يسأل أحداً حتى يموت جوعاً » . (٣) في اللسان : « عمرو الملا ... » .

(٤) مستنون : أي أصابهم السنة . والسنة : الجذب والقحط .

قوله تعالى : ﴿ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ « رِحْلَةَ » نصب بالمصدر؛ أى ارتحلهم رِحْلَةً ، أو بوقوع « لإيلافهم » عليه أو على الظرف . ولو جعلتها فى محل الرفع على معنى هما رِحْلَةُ الشتاء والصيف لحاز . والأقول أولى . والرحلة الارتحال . وكانت إحدى الرحلتين إلى اليمن فى الشتاء لأنها بلاد حامية ، والرحلة الأخرى فى الصيف إلى الشام لأنها بلاد باردة . وعن ابن عباس أيضا قال : كانوا يشتون بمكة لدفعها ويصيفون بالطائف لهوائها . وهذه من أجل النعم أن يكون للقوم ناحية حر تدفع عنهم برد الشتاء ، وناحية برد تدفع عنهم حر الصيف ؛ فذكرهم الله تعالى هذه النعمة . وقال الشاعر :

نُشِيتِي بِمَكَّةَ نَعْمَةً * وَمِصِيفَهَا بِالطَّائِفِ

وهنا أربع مسائل :

الأولى — اختار القاضى أبو بكر بن العربى وغيره من العلماء أن قوله تعالى : « لإيلاف » متعلق بما قبله . ولا يجوز أن يكون متعلقا بما بعده ، وهو قوله تعالى : « فليعبدوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ » قال : وإذا ثبت أنه متعلق بالسورة الأخرى — وقد قطع عنه بكلام مبتدأ واستئناف بيان وسطر بسم الله الرحمن الرحيم — فقد تبين جواز الوقف فى القراءة ^(١) للقراءة قبل تمام الكلام ، وليست المواقف التى ينتزع بها القراءة شرعا عن النبي صلى الله عليه وسلم مرويا ، وإنما أرادوا به تعليم الطلبة المعانى ، فإذا علموها وقفوا حيث شاءوا . فأما الوقف عند انقطاع النفس فلا خلاف فيه ، ولا يُعد ما قبله إذا اعتراك ذلك ، ولكن أبدا من حيث وقف بك نفسك . هذا رأى فيه ، ولا دليل على ما قالوه بحال ، ولكنى أعتد الوقف على التمام كراهية الخروج عنهم .

قلت : ومن الدليل على صحة هذا قراءة النبي صلى الله عليه وسلم « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » ثم يقف . « الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » ثم يقف . وقد مضى فى مقدمة الكتاب ^(٢) . وأجمع المسلمون أن

(١) فى ابن العربى : « فى القرآن » . (٢) فى ابن العربى : « تنزع » .

(٣) راجع ج ١ ص ١٠ طبعة ثانية أو ثالثة .

الوقف عند قوله : « كَعَصِفٍ مَا كُوِلٍ » ليس بقبيح . وكيف يقال إنه قبيح وهذه السورة تُقرأ في الركعة الأولى والتي بعدها في الركعة الثانية ، فيتخللها مع قطع القراءة أركان . وليس أحد من العلماء يكره ذلك ، وما كانت العلة فيه إلا أن قوله تعالى : « فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ مَا كُوِلٍ » انتهاء آية . فالقياس على ذلك ألا يمتنع الوقف عند أعجاز الآيات سواء كان الكلام يتم والغرض ينتهي ، أو لا يتم ولا ينتهي . وأيضا فإن الفواصل حلية وزينة للكلام المنظوم ، ولولاها لم يتبين المنظوم من المشور . ولا خفاء أن الكلام المنظوم أحسن ؛ فثبت بذلك أن الفواصل من محاسن الكلام المنظوم ، فمن أظهر فواصله بالوقوف عليها فقد أبدى محاسنه ، وترك الوقوف يُخفي تلك المحاسن ويُشبه المشور بالمنظوم ؛ وذلك إخلال بحق المقروء .

الثانية - قال مالك : الشتاء نصف السنة والصيف نصفها ، ولم أزل أرى ربيعة ابن أبي عبد الرحمن ومن معه لا يخلعون عمائمهم حتى تَطْلُعُ الثَّريَّا ، وهو يوم التاسع عشر من بشنس ، وهو يوم خمسة وعشرين من عدد الروم أو الفرس . وأراد بطلوع الثريا أن يخرج السعاة ويسير الناس بمواشيهم إلى مياههم ، وأن طلوع الثريا أول الصيف ودُبر الشتاء . وهذا مما لا خلاف فيه بين أصحابه عنه . وقال عنه أشهب وحده : إذا سقطت الهقعة نقص الليل ، فلما جعل طلوع الثريا أول الصيف وجب أن يكون له في مطلق السنة ستة أشهر ، ثم يستقبل الشتاء من بعد ذهاب الصيف ستة أشهر . وقد مثل محمد بن عبد الحكم عن حلف ألا يكلم أمرا حتى يدخل الشتاء ؟ فقال : لا يكلمه حتى يمضي سبعة عشر من هاتور . ولو قال : حتى يدخل الصيف ؛ لم يكلمه حتى يمضي سبعة عشر من بشنس . قال القرطبي : أما ذكر هذا عن محمد في بشنس فهو سهو ، إنما هو تسعة عشر من بشنس ؛ لأنك إذا حسبت المنازل

- (١) هوربيعة الرأي ، أدرك بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والأكابر من التابعين ، وكان صاحب الفنون بالمدينة ، وعنه أخذ مالك بن أنس وغيره . توفي سنة ١٣٦ هـ . (٢) كذا في الأصول وابن العربي . (٣) كذا في ابن العربي . وفي نسخ الأصل : « وأرى » . (٤) في ابن العربي : « قبل الصيف » . (٥) الهقعة : ثلاثة كواكب زيرة قريب بعضها من بعض فوق مكتب الجوزاء ، وهي منزل من منازل القمر .

على ما هي عليه من ثلاث عشرة ليلة كل منزلة ، علمت أن ما بين تسع عشرة من هاتير
لا تنقضى منازلها إلا بدخول تسع عشرة من بشنس . والله أعلم .

الثالثة - قال قوم : الزمان أربعة أقسام : شتاء ، وربيع ، وصيف ، وخريف . وقال
قوم : هو شتاء وصيف وقبظ وخريف . والذي قاله مالك أصح ؛ لأن الله قسم الزمان قسمين^(١)
ولم يجعل لهما ثالثاً .

الرابعة - لما آمن الله تعالى على قريش برحلتين ، شتاء وصيفاً ، على ما تقدم ، كان فيه
دليل على جواز تصرف الرجل في الزمانين بين محلين ، يكون حالهما في كل زمان أنعم من^(٢)
الآخر ؛ كالجوس في المجلس البحري في الصيف وفي القبلي في الشتاء ، وفي اتخاذ البادهنجات
والخيش للتبريد ، واللبد واليانوسة للدفء .^(٣)

قوله تعالى : فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾

أمرهم الله تعالى بعبادته وتوحيده لأجل إيلافهم رحلتين . ودخلت الفاء لأجل
ما في الكلام من معنى الشرط ؛ لأن المعنى إما لا فليعبدوه لإيلافهم ؛ على معنى أن نعم الله
تعالى عليهم لا تحصى ؛ فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لشأن هذه الواحدة التي هي نعمة
ظاهرة . والبيت : الكعبة . وفي تعريف نفسه لهم بأنه ربُّ هذا البيت وجهان : أحدهما -
لأنه كانت لهم أوثان فيز نفسه عنها . الثاني - لأنهم بالبيت شرفوا على سائر العرب ؛
فذكر لهم ذلك تذكيراً لنعمته . وقيل : « فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ » أي ليألفوا عبادة ربِّ
الكعبة كما كانوا يألفون الرحلتين . قال عكرمة : كانت قريش قد ألفوا رحلة إلى بصرى

(١) في الأصول : « لأن قسمة الله للزمان قسمين ، ولم يجعل لهما ثالثاً » وهي غير مستقيمة . وفي ابن العربي :

« لأجل قسمة الله الزمان قسمين ... الخ » .

(٢) في كتاب شفاء الغليل للشهاب الخفاجي : « البادهنج » معرب باد خون أو باد كبير ، وهو المنفذ الذي

يجي منه الريح .

(٣) في ابن العربي : « اليانوس » . ولم نجد في المعاجم هذه المادة .

ورحلة إلى اليمن ، فقيل لهم : « فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ »^(١) أي يقيموا بمكة رحلة الشتاء إلى اليمن ، والصيف إلى الشام .

قوله تعالى : **الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ** ﴿٤﴾

قوله تعالى : **(الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ)** أي بعد جوع . **(وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)** قال ابن عباس : وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال : « رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ »^(٢) . وقال ابن زيد : كانت العرب يُغير بعضها على بعض ويتسبي بعضها من بعض ، فأمنت قريش من ذلك لمكان الحرم - وقرأ - « أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُحْيِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتٍ كُلِّ شَيْءٍ » . وقيل : شق عليهم السفر في الشتاء والصيف ، فألقى الله في قلوب الحبشة أن يحملوا إليهم طعاماً في السفن فحملوه ، فخافت قريش منهم ، وظنوا أنهم قد قدموا لحربهم ، فخرجوا إليهم متحززين فإذا هم قد جلبوا إليهم الطعام وأغاثوهم بالآقوات ، فكان أهل مكة يخرجون إلى جدة بالإبل والحمر ، فيشترون الطعام على مسيرة ليلتين . وقيل : هذا الإطعام هو أنهم لما كذبوا النبي صلى الله عليه وسلم دعاء عليهم فقال : « اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سَيْنًا كَسَيْنِي يَوْسُفَ » فأشدت القحط فقالوا : يا محمد أدع الله لنا فإننا مؤمنون . فدعا فأخصبت تبالة وحرس من بلاد اليمن ، فحملوا الطعام إلى مكة وأخصب أهلها . وقال الضحاك والربيع وشريك وسفيان : « وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » أي من خوف الجذام ، لا يصيبهم ببلدهم الجذام . وقال الأعمش : « وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » أي من خوف الحبشة مع الفيل . وقال علي رضي الله عنه : وآمنهم من [خوف^(٤)] أن تكون الخلافة إلا فيهم . وقيل : أي كفاهم أخذ الإيلاف من الملوك . فالله أعلم واللفظ يعم .

(١) يريد : يقيموا بمكة ويتركوا الرحلة ... الخ .

(٢) آية ١٢٦ سورة البقرة .

(٣) آية ٥٧ سورة القصص .

(٤) التكلة عن تفسير الخطيب

تفسير سورة «الماعون»

وهي مكية؛ في قول عطاء وجابر وأحد قولي ابن عباس . ومدنية؛ في قول له آخر، وهو قول قتادة وغيره . وهي سبع آيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالَّذِينَ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ
الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾
الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ
الْمَاعُونَ ﴿٧﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالَّذِينَ) أى بالجزاء والحساب فى الآخرة؛ وقد تقدم فى «الفاحة» . و «أَرَأَيْتَ» بإثبات الهمزة الثانية؛ إذ لا يقال فى أَرَأَيْتَ : رَيْتَ، ولكن ألف الاستفهام سهلت الهمزة ألفا؛ ذكره الزجاج . وفى الكلام حذف؛ والمعنى : أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالَّذِينَ أَمْصِيبُ هُوَ أَمْ مَخْطِئُ . وَأَخْتَلَفَ فِيمَنْ نَزَلَ هَذَا فِيهِ؛ فَذَكَرَ أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : نَزَلَتْ فِي الْعَاصِ بْنِ وَائِلِ السَّهْمِيِّ؛ وَقَالَ الْكَلْبِيُّ وَمَقَاتِلُ . وَرَوَى الضَّحَّاكُ عَنْهُ قَالَ : نَزَلَتْ فِي رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ . وَقَالَ السُّدِّيُّ : نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ ابْنِ الْمَغِيرَةِ . وَقِيلَ فِي أَبِي جَهْلٍ . الضَّحَّاكُ : فِي عَمْرٍو بْنِ عَائِدٍ . قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : نَزَلَتْ فِي أَبِي سَفْيَانَ، وَكَانَ يَنْحَرُ فِي كُلِّ أَسْبُوعٍ جُزُورًا، فَطَلَبَ مِنْهُ يَتِيمٌ شَيْئًا فَقَرَعَهُ بِعَصَاهُ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ السُّورَةَ . وَ (يَدْعُ) أَيْ يَدْفَعُ، كَمَا قَالَ : «يَدْعُونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا» وَقَدْ

(٢) آية ١٣ سورة الطور . راجع ج ١٧ ص ٦٤

(١) راجع ج ١ ص ١٤٣

تقدم . وقال الضحاك عن ابن عباس : « فَذَلِكَ الَّذِي يُدْعُ الْيَتِيمَ » أى يدفعه عن حقه .
 قتادة : يقهره ويظلمه . والمعنى متقارب . وقد تقدم فى سورة « النساء » أنهم كانوا
 لا يؤزثون النساء ولا الصغار ويقولون : إنما يحوز المال من يطعن بالسنان ويضرب
 بالحسام . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ ضَمَّ يَتِيمًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى
 يَسْتَفْنَى فَقَدْ وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » . وقد مضى هذا المعنى فى غير موضع .

الثانية - قوله تعالى : (وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ) أى لا يأمر به من أجل
 بخله وتكذيبه بالجزاء . وهو مثل قوله تعالى فى سورة الحاقة : « وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ
 الْمَسْكِينِ » وقد تقدم . وليس الذم عاقبا حتى يتناول من تركه عجزا ، ولكنهم كانوا يبخلون
 ويعتذرون لأنفسهم ويقولون : « أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ » فنزلت هذه الآية فيهم ،
 وتوجه الذم إليهم . فيكون معنى الكلام : لا يفعلونه إن قدروا ، ولا يحثون عليه إن عسروا .

الثالثة - قوله تعالى : (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ) أى عذاب لهم . وقد تقدم فى غير
 موضع . (الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ) فروى الضحاك عن ابن عباس قال : هو المصلى
 الذى إن صلى لم يرج لها ثوابا ، وإن تركها لم يخش عليها عقابا . وعنه أيضا : الذين يؤخرونها
 عن أوقاتها . وكذا روى المغيرة عن إبراهيم قال : ساهون بإضاعة الوقت . وعن أبى العالية :
 لا يصلونها لمواقبتها ، ولا يتمون ركوعها ولا سجودها .

قلت : ويدل على هذا قوله تعالى : « نَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ » حسب
 ما تقدم بيانه فى سورة « مريم » عليها السلام . وروى عن إبراهيم أيضا : أنه الذى إذا سجد
 قام برأسه هكذا ملتفتا . وقال قطرب : هو ألا يقرأ ولا يذكر الله . وفى قراءة عبد الله « الَّذِينَ
 هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ » . وقال سعد بن أبى وقاص قال النبى صلى الله عليه وسلم [فى قوله] :

(٢) راجع ج ٢ ص ١٤ طبعة ثانية .

(١) راجع ج ٥ ص ٤٦

(٤) آية ٤٧ سورة يس .

(٣) آية ٣٤ راجع ج ١٨ ص ٢٧٢

(٦) راجع ج ١١ ص ١٢١

(٥) راجع ج ٢ ص ٧ طبعة ثانية .

« فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ » - قال - « الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها تهاوناً بها ». وعن ابن عباس أيضاً : هم المنافقون يتركون الصلاة سرّاً ويصلونها علانية « وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى ^(١) » الآية . ويدل على أنها في المنافقين قوله : « الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ » وقاله ابن وهب عن مالك . قال ابن عباس : ولو قال في صلاتهم ساهون لكانت في المؤمنين . وقال عطاء : الحمد لله الذي قال « عَنْ صَلَاتِهِمْ » ولم يقل في صلاتهم . قال الزمخشري : فإن قلت : أي فرق بين قوله : « عَنْ صَلَاتِهِمْ » وبين قولك : في صلاتهم ؟ قلت : معنى « عن » أنهم ساهون عنها سهواً ترك لها وقلة التفات إليها ، وذلك فعل المنافقين أو الفسقة الشطار ^(٢) من المسلمين . ومعنى « في » أن السهو يعتريهم فيها بوسوسة شيطان أو حديث نفس ، وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقع له السهو في صلاته فضلاً عن غيره ؛ ومن ثم أثبت الفقهاء باب سجود السهو في كتبهم . قال ابن العربي : لأن السلامة من السهو محال ، وقد سها رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاته والصحابة . وكل من لا يسهو في صلاته فذلك رجل لا يتدبرها ولا يعقل قراءتها ، وإنما همته في إعدادها ؛ وهذا رجل يأكل القشور ويرمي اللب . وما كان النبي صلى الله عليه وسلم يسهو في صلاته إلا لفكرته في أعظم منها ؛ اللهم إلا أنه قد يسهو في صلاته من يقبل على وسواس الشيطان إذا قال له : اذكر كذا ، اذكر كذا ؛ لما لم يكن يذكر حتى يضل الرجل أن يدرى كم صلى .

الرابعة - قوله تعالى : (الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ) أي يرى الناس أنه يصلي طاعة وهو يصلي تقيّة ؛ كالفاسق يرى أنه يصلي عبادة وهو يصلي ليقال : إنه يصلي . وحقيقة الرياء طلب ما في الدنيا بالعبادة ، وأصله طلب المنزلة في قلوب الناس . وأولها تحسين السمّة ؛ وهو من أجزاء النبوة ، ويريد بذلك الجاه والثناء . وثانيها - الرياء بالثياب القصار والحسنة ؛ ليأخذ بذلك هيئة

(١) آية ١٤٢ سورة النساء . (٢) في نسخة من الأصل : « الشياطين » . والشطار : جمع شاطر

وهو الذي ترك موافقة أهله وأعيانهم لوماً وخبثاً .

الزهد في الدنيا. وثالثها - الرياء بالقول بإظهار التسخط على أهل الدنيا، وإظهار الوعظ والتأسف على ما يفوت من الخير والطاعة. ورابعها - الرياء بإظهار الصلاة والصدقة، أو بتحسين الصلاة لأجل رؤية الناس؛ وذلك يطول وهذا دليله؛ قاله ابن العربي.

قلت: قد تقدم في سورة «النساء وهود وآخر الكهف»^(١) القول في الرياء وأحكامه وحقيقته بما فيه كفاية. والحمد لله.

الخامسة - ولا يكون الرجل مرئياً بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة؛ فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها، لقوله عليه السلام: «ولا غمّة في فرائض الله»^(٢) لأنها أعلام الإسلام وشعائر الدين، ولأن تاركها يستحق الذم والمقت؛ فوجب إمطة التهمة بالإظهار. وإن كان تطوعاً فحقه أن يخفى؛ لأنه لا يلام بتركه ولا تهمة فيه، فإن أظهره قاصداً للاقتداء به كان جميلاً. وإنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين فتثني عليه بالصالح. وعن بعضهم أنه رأى رجلاً في المسجد قد سجد سجدة شكر فأطالها؛ فقال: ما أحسن هذا لو كان في بيتك. وإنما قال هذا لأنه توسم فيه الرياء والسمعة. وقد مضى هذا المعنى في سورة «البقرة»^(٣) عند قوله تعالى: «إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ» وفي غير موضع. والحمد لله على ذلك.

السادسة - قوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ فيه اثنا عشر قولاً: الأول - أنه زكاة أموالهم. كذا روى الضحاك عن ابن عباس. وروى عن علي رضي الله عنه مثل ذلك، وقاله مالك. والمراد به المنافق يمنعها. وقد روى أبو عمرو بن عبد العزيز عن مالك قال: بلغني أن قول الله تعالى: «فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ. الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ. وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ» قال: إن المنافق إذا صلى صلى رياءً، وإن فاتته لم يندم على الصلاة كما خفيت لهم الزكاة التي فرض الله عليهم. قال زيد بن أسلم: لو خفيت لهم الصلاة كما خفيت لهم الزكاة ما صلوا. القول الثاني - أن «الماعون» المال بلسان

(١) راجع ج ٥ ص ١٨١ و ج ٩ ص ١٣ و ج ١١ ص ٧٠ (٢) أي لا تستر ولا تخفى فرائضه

وإنما تظهر وتعلن ويجهرها. (٣) راجع ج ٣ ص ٣٣٢ (٤) في بعض نسخ الأصل: «أبو عمر»

وفي بعضها: «أبو عبد». وفي ابن العربي: «أبو بكر بن عبد العزيز».

قريش؛ قاله ابن شهاب وسعيد بن المسيب، وقول ثالث - أنه أسم جامع لمنافع البيت كالفأس والقدر والنار وما أشبه ذلك؛ قاله ابن مسعود؛ وروى عن ابن عباس أيضا. قال الأعشى:

بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِمَاعُونِهِ * إِذَا مَا سَمَّوُهُمْ لَمْ تَغْنَمْ

الرابع - ذكر الزجاج وأبو عبيد والمبرد أن الماعون في الجاهلية كل ما فيه منفعة، حتى الفأس والقدر والدلو والقذاحة، وكل ما فيه منفعة من قليل وكثير؛ وأنشدوا بيت الأعشى. قالوا: والماعون في الإسلام الطاعة والزكاة؛ وأنشدوا قول الراعي:

أَخْلِيْفَةَ الرَّحْمَنِ إِنَّا مَعَشَرٌ * حُنْفَاءُ نَسْجُدُ بَكْرَةً وَأَصِيلًا
عَرَبٌ نَرَى لِيهِ مِنْ أَمْوَالِنَا * حَقَّ الزَّكَاةُ مُتَزَلًا تَنْزِيلًا
قَوْمٌ عَلَى الْإِسْلَامِ لَمَّا يَمْنَعُوا * مَا عُونُهُمْ وَيَضِيعُوا التَّهْلِيلًا^(١)

يعنى الزكاة. الخامس - أنه العارية؛ روى عن ابن عباس أيضا. السادس - أنه المعروف كله الذي يتعاطاه الناس فيما بينهم؛ قاله محمد بن كعب والكلبي. السابع - أنه الماء والكلاء. الثامن - الماء وحده. قال الفراء: سَمِعْتُ بَعْضَ الْعَرَبِ يَقُولُ:
الْمَاعُونَ الْمَاءُ؛ وَأَنْشَدَنِي فِيهِ:

* يَمَجُّ صَبِيرَهُ الْمَاعُونَ صَبًّا *

الصبير السحاب. التاسع - أنه منع الحق؛ قاله عبد الله بن عمر. العاشر - أنه المُسْتَفْعَلُ من منافع الأموال؛ مأخوذ من المَعْنُ وهو القليل؛ حكاه الطبري وابن عباس. قال قُطْرُبُ: أصل الماعون من القلة. والمعن: الشيء القليل؛ تقول العرب: ماله سَعْنَةٌ ولا مَعْنَةٌ؛ أى شىء قليل. فسمى الله تعالى الزكاة والصدقة ونحوهما من المعروف ماعونا؛ لأنه قليل من كثير. ومن الناس من قال: الماعون أصله مَعُونَةٌ، والألف عوض من الهاء؛ حكاه الجوهري. ابن العربي: الماعون مفعول من أعان يُعِينُ، والعون هو الإمداد

(١) في اللسان:

قوم على التنزيل لما يمنعون * ماعونهم ويبدلوا التنزيلا

(٢) كذا في بعض نسخ الأصل. وفي بعضها الآخر: «حكاه الطبري وابن عيسى».

(٣) هذا مثل يضرب لمن لا مال له. والسعن: الكثير.

بالقوة والآلات والأسباب الميسرة للأمر . الحادى عشر - أنه الطاعة والانقياد . حكى الأخفش عن أعرابى فصيح : لو قد نزلنا لصنعت بناقتك صنيعا تعطيك الماعون ؛ أى تنقاد لك وتطيعك . قال الراجز :

مَتَى تُصَادِفُهُنَّ^(١) فِي الْبُرَيْنِ * يَخْضَعْنَ أَوْ يُعْطِينَ بِالْمَاعُونِ^(٢)

وقيل : هو مالا يحل منعه كالماء والملح والنار ؛ لأن عائشة رضوان الله عليها قالت : قلت يارسول الله ، ما الشيء الذى لا يحل منعه ؟ قال : ” الماء والنار والملح “ قلت : يارسول الله ، هذا الماء ، فما بال النار والملح ؟ فقال : ” يا عائشة من أعطى نارا فكأنما تصدق بجميع ما طبخ بتلك النار ومن أعطى ملحا فكأنما تصدق بجميع ما طُيب به ذلك الملح . ومن سقى شربة من الماء حيث يوجد الماء فكأنما أعتق ستين نسمة . ومن سقى شربة من الماء حيث لا يوجد فكأنما أحيأ نفسا ومن أحيأها فكأنما أحيأ الناس جميعا “ ذكره الثعلبى فى تفسيره ، وخزجه ابن ماجه فى سننه . وفى إسناده ابن ؛ وهو القول الثانى عشر . الماوردى : ويحتمل أنه المعونة بما خَفَ فعله وقد ثَقَلَه الله . والله أعلم . وقيل لعكرمة مولى ابن عباس : من منع شيئا من المتاع كان له الويل ؟ . فقال : لا ، ولكن من جمع ثلاثهن فله الويل ؛ يعنى ترك الصلاة ، والرياء ، والبخل بالماعون .

قلت : كونها فى المنافقين أشبهه وبهم أخلق ؛ لأنهم جمعوا الأوصاف الثلاثة : ترك الصلاة ، والرياء ، والبخل بالمال ؛ قال الله تعالى : « وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا^(٣) » ، وقال : « وَلَا يَنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ^(٤) » . وهذه أحوالهم ، ويبعد أن توجد من مسلم محقق ، وإن وجد بعضها فيلحقه جزء من التوبيخ ، وذلك فى منع الماعون إذا تعين ؛ كالصلاة والزكاة إذا تركها . والله أعلم . إنما يكون منعها قبيحا فى المروءة فى غير حال الضرورة . والله أعلم .

(١) فى تفسير الثعلبى : * متى تجاهدن * وهى الأوجه . (٢) البرين (بض الباء وكسرها) :

جمع بُرَّة ، وهى دنا الحلقة فى أنف البعير . وهى أيضا : كل حلقة من سوار وقرط وخلخال . (٣) آية ١٤٢

سورة النساء . (٤) آية ٤٥ سورة التوبة .

تفسير سورة « الكوثر »

وهي مكية ؛ في قول ابن عباس والكلبي ومقاتل . ومدنية ؛ في قول الحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة . وهي ثلاث آيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾

فيه مسألتان :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ قراءة العامة . « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ » بالعين . وقرأ الحسن وطلحة بن مصرف « أَنْطَيْنَاكَ » بالنون ؛ وروته أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ هي لغة في العطاء ؛ أنطيته : أعطيته . و« الكوثر » فوعل من الكثرة ؛ مثل النوفل من النفل ، والجوهر من الجهر . والعرب تسمى كل شيء كثير في العدد والقدر والخطر كوثرًا . قال سفيان : قيل لعجوز رجع أبناها من السفر : بم آب أبناك ؟ قالت بكوثر ؛ أي بمال كثير . والكوثر من الرجال : السيد الكثير الخير . قال الكمي :

وَأَنْتَ كَثِيرٌ يَا بَنَ مَرْوَانَ طَيْبٌ * وَكَانَ أَبُوكَ ابْنَ الْعَقَائِلِ كَوْثَرًا

والكوثر : العدد الكثير من الأصحاب والأشياء . والكوثر من الغبار : الكثير . وقد تكوثر [إذا كثُر] ؛ قال الشاعر :

* وَقَدْ نَارَ نَقَعُ الْمَوْتِ حَتَّى تَكُوْثَرًا ^(١) *

الثانية - واختلف أهل التأويل في الكوثر الذي أُعطيَه النبي صلى الله عليه وسلم على ستة عشر قولاً : الأول - أنه نهر في الجنة ؛ رواه البخاري عن أنس والترمذي أيضا

(١) هذا مجز بيت لحسان بن نُشبة . وصدده كما في اللسان :

* أبوا أن يبيحوا جارهم لعدوهم *

وقد ذكرناه في آاب التذكرة . وروى الترمذى أيضا عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الكوثر نهر في الجنة حافناه من ذهب ومجراه على الدر والياقوت تربته أطيب من المسك وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج " هذا حديث حسن صحيح .
 الثانى - أنه حوض النبي صلى الله عليه وسلم في الموقف ؛ قاله عطاء . وفي صحيح مسلم عن أنس قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أغفى إغفاء ثم رفع رأسه متبسما فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال " نزلت على آنفا سورة - فقرا - بسم الله الرحمن الرحيم « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » - ثم قال - أتدرون ما الكوثر ؟ قلنا الله ورسوله أعلم . قال : " فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة آينته عدد النجوم فيختلج العبد منهم فأقول إنه من أمتى فيقال إنك لا تدري ما أحدث بعدك " .

والأخبار في حوضه في الموقف كثيرة ذكرناها في كتاب « التذكرة » . وأن على أركانه الأربعة خلفاؤه الأربعة ؛ رضوان الله عليهم . وأن من أبغض واحدا منهم لم يسقه الآخر . وذكروا هناك من يطرد عنه . فمن أراد الوقوف على ذلك تأمله هناك . ثم يجوز أن يسمى ذلك النهر أو الحوض كوثرًا لكثرة الواردة والشاربة من أمة محمد عليه السلام هناك . ويسمى به لما فيه من الخير الكثير والماء الكثير . الثالث - أن الكوثر النبوة والكتاب ؛ قاله عكرمة . الرابع - القرآن ؛ قاله الحسن . الخامس - الإسلام ؛ حكاها المغيرة . السادس - تيسير القرآن وتخفيف الشرائع ؛ قاله الحسين بن الفضل . السابع - هو كثرة الأصحاب والأمة والأشياء ؛ قاله أبو بكر بن عياش . ويمنان بن رثاب . الثامن - أنه الإيثار ؛ قاله ابن كيسان . التاسع - أنه رفعة الذكر ؛ حكاها الماوردي . العاشر - أنه نور في قلبك ذلك على وقطعك عما سواى . وعنه : هو الشفاعة ؛ وهو الحادى عشر . وقيل : معجزات الرب هدى بها أهل الإجابة لدعوتك ؛ حكاها

(١) فى صحيح مسلم طبع الآسنانة وبولاق : « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا

إذ أغفى ... » الحديث . (٢) أى ينزع ويقنطع . (٣) فى بعض نسخ الأصل : « تسهيل » .

الثعلبيّ، وهو الثاني عشر . الثالث عشر - قال هلال بن يساف : هو لا إله إلا الله محمد رسول الله . وقيل : الفقه في الدين . وقيل : الصلوات الخمس ؛ وهما الرابع عشر والخامس عشر . وقال ابن إسحاق : هو العظيم من الأمر ؛ وذكر بيت لبيد :

وصاحب ملحوبٍ يُخْعِنَا بِفَقْدِهِ * وَعِنْدَ الرَّدَاعِ بَيْتُ آخَرَ كَكَوْثُرٍ
أى عظيم .^(١)

قلت : أصح هذه الأقوال الأول والثاني ؛ لأنه ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم نص في الكوثر . وسمع أنس قوما يتذاكرون الحوض فقال : ما كنت أرى أن أعيش حتى أرى أمثالكم يمارون في الحوض ، لقد تركت عجائز خافى ، ما تصلى امرأة منهن إلا سألت الله أن يسقيها من حوض النبي صلى الله عليه وسلم . وفي حوضه يقول الشاعر :

يا صاحب الحوض من يدانيك * وأنت حقاً حبيب باريكا

وجميع ما قيل بعد ذلك في تفسيره قد أعطيه رسول الله صلى الله عليه وسلم زيادة على حوضه ، صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً .

قوله تعالى : فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرِ ﴿٢٠﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (فَصَلِّ) أى أقم الصلاة المفروضة عليك ؛ كذا رواه الضحاك عن ابن عباس . وقال قتادة وعطاء وعكرمة : « فَصَلِّ لِرَبِّكَ » صلاة العيد يوم النحر « وَأَنْحَرِ » تُسَكِّك . وقال أنس : كان النبي صلى الله عليه وسلم ينحر ثم يصلي ؛ فأمر أن يصلي ثم ينحر . وقال سعيد بن جبيرة أيضاً : صلّ لربك صلاة الصبح المفروضة بجمع^(٢) وأنحر البدن بمنى . وقال سعيد بن جبيرة أيضاً : نزلت في الحديبية حين حصر النبي صلى الله عليه وسلم عن البيت ، فأمره الله تعالى أن يصلي وينحر البدن وينصرف ؛ ففعل ذلك . قال ابن العربي : « أما من

(١) ملحوب : ماء لبني أسد بن خزيمه . وصاحبه : عوف بن الأحوص . والرداع (بالكسر) : اسم ماء .

أيضا . والكوثر أيضاً : السيد الكثير الخير . (٢) جمع : الزدلفة .

قال إن المراد بقوله تعالى : « فَصَّلْ » الصلوات الخمس ؛ فلائها ركن العبادات ، وقاعدة الإسلام ، وأعظم دعائم الدين . وأما من قال : إنها صلاة الصبح بالمزدلفة ؛ فلائها مقرونة بالنحر ، وهو في ذلك اليوم ، ولا صلاة فيه قبل النحر غيرها ؛ فخصها بالذكر من جملة الصلوات لأقترانها بالنحر .

قلت : وأما من قال إنها صلاة العيد ؛ فذلك بغير مكة ؛ إذ ليس بمكة صلاة عيد بإجماع فيما حكاه ابن عمر . قال ابن العربي : « فأما مالك فقال : ما سمعت فيه شيئا ، والذي يقع في نفسي أن المراد بذلك صلاة يوم النحر ، والنحر بعدها » . وقال علي رضي الله عنه ومحمد بن كعب : المعنى ضع ايمنى على اليسرى حذاء النحر في الصلاة . وروى عن ابن عباس أيضا . وروى عن علي أيضا : أن يرفع يديه في التكبير إلى نحره . وكذا قال جعفر بن علي : « فَصَّلْ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ » قال : يرفع يديه أول ما يكبر للإحرام إلى النحر . وعن علي رضي الله عنه قال : لما نزلت « فَصَّلْ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ » قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل : « ما هذه النحية التي أمرني الله بها ؟ » قال : « ليست بنحية ولكنه يأمرك إذا تحزمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت وإذا رفعت رأسك من الركوع وإذا سجدت فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين هم في السموات السبع وإن لكل شيء زينة وإن زينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة » . وعن أبي صالح عن ابن عباس قال : آستقبل القبلة بنحرك ؛ وقاله الفراء والنكبي وأبو الأحوص . ومنه قول الشاعر :

أبا حَكَمَ ما أنتَ عمُّ مجالِدٍ * وسيدُ أهلِ الأبطحِ المتناحِرِ

أى المتقابل . قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول : ما زلنا نتناحر ؛ أى نتقابل نحر هذا بنحر هذا ؛ أى قبائله . وقال ابن الأعرابي : هو انتصاب الرجل في الصلاة بإزاء المحراب ؛ من قولهم : منازلهم تتناحر ؛ أى تتقابل . وروى عن عطاء قال : أمره أن يستوى بين السجدين

(١) الذي في كتاب الفراء : « منازلنا تتناحر هذا أى قبالة » . والذي في اللسان نقلا عن الفراء : « منازلهم

تناحر هذا بنحر هذا أى قبالة » .

جالسا حتى يَبْدُو نحره . وقال سليمان التيمي : يعني وارفع يدك بالدعاء إلى نحرك . وقيل : « فَصَلَّ » معناه وأعبد . وقال محمد بن كعب القرظي : « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلَّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ » يقول : إن ناسا يصلون لغير الله رينحرون لغير الله ؛ وقد أعطيناك الكوثر ، فلا تكن صلاتك ولا نحرك إلا لله . قال ابن العربي : « والذي عندي أنه أراد أعبد ربك وأنحر له ، فلا يكن عمرك إلا لمن خصك بالكوثر ، وبالحرى أن يكون جميع العمل يوازي هذه الخصوصية من الكوثر ، وهو الخير الكثير الذي أعطاكه الله ، أو النهر الذي طينه مسك وعدد آنيته نجوم السماء ؛ أما أن يوازي هذا صلاة يوم النحر وذبح كبش أو بقرة أو بدنة ، فذلك يبعد في التقدير والتدبير وموازنة الثواب للعبادة » . والله أعلم .

الثانية - قد مضى القول في سورة « الصافات »^(١) في الأُصْحِيَّة وفضلها ووقت ذبحها ؛ فلا معنى لإعادة ذلك . وذكرنا أيضا في سورة « الحج »^(٢) جملة من أحكامها . قال ابن العربي : « ومن عجيب الأمر أن الشافعي قال : إن من ضحى قبل الصلاة أجزاءه ، والله تعالى يقول في كتابه : « فَصَلَّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ » فبدأ بالصلاة قبل النحر ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في البخاري وغيره عن البراء بن عازب قال : « أول ما نبدا به في يومنا هذا أن نصلي ثم نرجع فننحر من فعل فقد أصاب نُسُكًا وَمَنْ ذَبَحَ قَبْلُ فَإِنَّمَا هُوَ لَحْمٌ قَدَّمَهُ لِأَهْلِهِ لَيْسَ مِنَ النَّسْكِ فِي شَيْءٍ » . وأصحابه ينكرونه ، وحبذا الموافقة » .

الثالثة - وأما ما روى عن علي عليه السلام « فَصَلَّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ » قال : وضع اليمين على الشمال في الصلاة - نحرجه الدارقطني - فقد اختلف علماءنا في ذلك على ثلاثة أقوال : الأول - لا توضع في فريضة ولا نافلة ؛ لأن ذلك من باب الاعتماد . ولا يجوز في الفرض ولا يستحب في النفل . الثاني - لا يفعلها في الفريضة ويفعلها في النافلة استعانة ؛ لأنه موضع ترخص . الثالث - يفعلها في الفريضة والنافلة . وهو الصحيح ؛ لأنه ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع يده اليمنى على اليسرى من حديث وائل

(٢) راجع ج ١٢ ص ٤٢ وما بعدها .

(١) راجع ج ١٥ ص ١٠٧ وما بعدها .

أبن حجر وغيره . قال ابن المنذر : وبه قال مالك وأحمد وإسحاق ، وحكى ذلك عن الشافعي . واستحب ذلك أصحابُ الرأي . ورأت جماعةُ إرسالِ اليد . ومن رَوَيْنَا ذلك عنه ابنُ المنذر^(١) والحسن البصريّ وإبراهيم النَّخَعِيّ .

قلت : وهو مروى أيضا عن مالك . قال ابن عبد البر : إرسال اليدين ووضع اليمنى على الشمال كل ذلك من سنة الصلاة .

الرابعة - واختلفوا في الموضع الذي توضع عليه اليد؛ فروى عن عليّ بن أبي طالب أنه وضعهما على صدره . وقال سعيد بن جبير وأحمد بن حنبل : فوق السرّة . وقال : لا بأس إن كانت تحت السرّة . وقالت طائفة : توضع تحت السرّة . وروى ذلك عن عليّ وأبي هريرة والنخعيّ وأبي مجلز . وبه قال سفيان الثوريّ وإسحاق .

الخامسة - وأما رفع اليدين في التكبير عند الافتتاح والركوع والرفع من الركوع والسجود فأختلف في ذلك ؛ فروى الدارقطنيّ من حديث حميد عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع يديه إذا دخل في الصلاة ، وإذا ركع ، وإذا رفع رأسه من الركوع ، وإذا سجد . لم يروه عن حميد مرفوعاً إلا عبد الوهاب الثقفيّ . والصواب من فعل أنس . وفي الصحيحين من حديث ابن عمر قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة رفع يديه حتى تكونا حدّو منكبيّه ، ثم يكبر ، وكان يفعل ذلك حين يكبر للركوع ، ويفعل ذلك حين يرفع رأسه من الركوع ويقول : سمع الله لمن حمده . ولا يفعل ذلك حين يرفع رأسه من السجود . قال ابن المنذر : وهذا قول الليث بن سعد والشافعيّ وأحمد وإسحاق وأبي ثور . وحكى ابن وهب عن مالك هذا القول . وبه أقول ؛ لأنه الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقالت طائفة : يرفع المصليّ يديه حين يفتتح الصلاة ، ولا يرفع فيما سوى ذلك . هذا قول سفيان الثوريّ وأصحاب الرأي .

(١) في بعض الأصول : « ابن الزبير » .

قلت : وهو المشهور من مذهب مالك ؛ لحديث ابن مسعود ، خرَّجه الدارقطني من حديث إسحاق بن أبي إسرائيل . قال : حدَّثنا محمد بن جابر عن حماد عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : صلَّيتُ مع النبي صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ؛ فلم يرفعوا أيديهم إلا أولاً عند التكبيرة الأولى في افتتاح الصلاة . قال إسحاق : به نأخذ في الصلاة كلها . قال الدارقطني : تفرد به محمد بن جابر وكان ضعيفاً عن حماد عن إبراهيم . وغير حماد يرويه عن إبراهيم مُرسلاً عن عبد الله من فعله غير مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وهو الصواب . وقد روى يزيد بن أبي زياد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن البراء أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم حين افتتح الصلاة رفع يديه حتى يُجاذِي بهما أُذُنَيْهِ ، ثم لم يَعدْ إلى شيء من ذلك حتى فرغ من الصلاة . قال الدارقطني : [وإنما] لَقَنَّ يزيد في آخر عمره : «ثم لم يعد» ؛ فتلقنه وكان قد أخلط . وفي (مختصر ما ليس في المختصر) عن مالك : لا يرفع اليدين في شيء من الصلاة . قال ابن القاسم : ولم أر مالكا يرفع يديه عند الإحرام . قال : وأحبَّ إلى ترك رفع اليدين عند الإحرام .

قوله تعالى : إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣٠﴾

أى مفضك ؛ وهو العاص بن وائل . وكانت العرب تُسمي من كان له بنون وبنات ثم مات البنون وبقى البنات أبتراً . فيقال : إن العاص وقف مع النبي صلى الله عليه وسلم يكلمه ، فقال له جمع من صنديد قريش : مع من كنت واقفاً ؟ فقال : مع ذلك الأبتراً . وكان قد توفى قبل ذلك عبد الله بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من خديجة ؛ فأنزل الله جل شأنه : «إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ» أى المقطوع ذكره من خير الدنيا والآخرة . وذكر عكرمة عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية إذا مات ابن الرجل قالوا : بُتْر فلان . فلما مات إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وسلم خرج أبو جهل إلى أصحابه فقال : بُتْر محمد ؛ فأنزل الله جل ثناؤه :

(١) الزيادة من الدارقطني .

« إِنَّ شَانِيكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » يعني بذلك أجاهل . وقال شمر بن عطية : هو عُقْبَةُ بن أَبِي مُعَيْطٍ .
وقيل : إن قريشا كانوا يقولون لمن مات ذكور ولده قد بُتِرَ فلان . فلما مات لرسول الله
صلى الله عليه وسلم ابنه القاسم بمكة ، وإبراهيم بالمدينة قالوا : بُتِرَ محمد ، فليس له من يقوم
بأمره من بعده ؛ فنزلت هذه الآية ؛ قاله السديّ وابن زيد . وقيل : إنه جواب لقريش
حين قالوا لكعب بن الأشرف لما قدم مكة : نحن أصحاب السقاية والسدانة والحجابة واللواء
وأنت سيد أهل المدينة ، فنحن خير أم هذا الصنير^(١) الأبير من قومه ؟ قال كعب : بل أتم
خير ؛ فنزلت في كعب : « أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ^(٢)
وَالطَّاغُوتِ » الآية . ونزلت في قريش : « إِنَّ شَانِيكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » ؛ قاله ابن عباس أيضا
وعكرمة . وقيل : إن الله عز وجل لما أوحى إلى رسوله ودعا قريشا إلى الإيمان قالوا :
أَبْتَرْنَا مَنَّا مَجْدٌ ؛ أي خالفنا وأنقطع عنا . فأخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أنهم
هم المبتورون ؛ قاله أيضا عكرمة وشهر بن حوشب . قال أهل اللغة : الأبر من الرجال
الذي لا ولد له ، ومن الدواب الذي لا ذنب له . وكلُّ أمرٍ انقطع من الخير أثره فهو أبتَر .
والبتر : القطع . بترتُ الشيء بترًا : قطعتُه قبل الإتمام . والآنبتار : الانقطاع . والباتر :
السيف القاطع . والأبتر : المقطوع الذنب . تقول منه : بتر (بالكسر) يبتَر بترًا . وفي الحديث
« ما هذه البتراء » . وخطب زياد خطبته البتراء ؛ لأنه لم يحمّد الله فيها ولم يصلّ على النبيّ
صلى الله عليه وسلم . ابن السكيت : الأبتران العير والعبد ؛ قال : سُمِّيَا أَبْتَرَيْنِ لِقَلَّةِ خَيْرِهِمَا . وقد
أبتره الله أي صيره أبتَر . ويقال : رجل أبتر (بضم الهمزة) للذي يقطع رحمه . قال الشاعر :

لَيْمٌ نَزَتْ فِي أَنْفِهِ خَزْوَانَةٌ * عَلَى قَطْعِ ذِي الْقُرْبَى أَحَدًا أَبْتَرُ

والبُتْرِيَّةُ : فرقة من الزيدية ؛ نسبوا إلى المغيرة بن سعد ، ولقبه الأبتَر . وأما الصنْبُورُ فلفظ
مشترك . قيل : هو النخلة تبقى منفردة ويدق أسفلها ويتقشر ؛ يقال : صنبر أسفل النخلة .

(٢) آية ٥١ سورة النساء .

(١) في نسخة الصنبور . وسيأتي للصنف بيان معناه .

وقيل : هو الرجل الفرد الذي لا ولد له ولا أخ . وقيل : هو مذهب الحوض خاصة ؛ حكاة أبو عبيد . وأنشد :

* مَا بَيْنَ صُنْبُورٍ إِلَى الْإِزَاءِ ^(۲) *

والصنْبُورُ : قصبة تكون في الإداوة ^(۳) من حديد أو رصاص يُشْرَبُ منها . حكى جميعه الجوهري رحمه الله . والله سبحانه وتعالى أعلم .

سورة « الكافرون »

وهي مكِّيَّة ؛ في قول ابن مسعود والحسن وعكرمة . ومدنيَّة ؛ في أحد قولَي ابن عباس وقتادة والضحاك . وهي ست آيات .

وفي الترمذي من حديث أنس أنها تعدل ثلث القرآن . وفي كتاب (الرد لأبي بكر الأنباري) : أخبرنا عبد الله بن ناجية قال : حدثنا يوسف قال حدثنا القعني وأبو نعيم عن موسى بن وردان عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ » تعدل ربع القرآن . ورواه موقوفاً عن أنس . وخرج الحافظ أبو محمد عبد الغني بن سعيد عن ابن عمر قال : صلى النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه صلاة الفجر في سفر فقرأ « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ » و « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » ثم قال : « قرأت بكم ثلث القرآن وربعه » . وروى جبير بن مطعم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أتحب يا جبير إذا خرجت سفرًا أن تكون من أمثل أصحابك هيئةً وأكثرهم زادًا » ؟ قلت : نعم . قال : « فأقرأ هذه السور الخمس من أول « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ » — إلى — قل أعوذ برب الناس » وأفتتح قراءتك بسم الله الرحمن الرحيم » . قال : فوالله لقد كنت غير كثير المال ، إذا سافرت أكون أبدهم هيئةً وأقلهم زادًا ، فمذ قرأتهم صرت من أحسنهم هيئةً وأكثرهم زادًا حتى أرجع من سفرى ذلك .

(۱) مذهب الحوض : مسيله . (۲) الإزاء : مصب الماء في الحوض .

(۳) الإداوة : إناء صغير من جلد يتخذ للآء . (۴) بد الهيئة : رثها .

وقال قروة بن نوفل الأشجعي: قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: أوصني. قال: "اقرأ عند منامك «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ» فإنها براءة من الشرك". أخرجه أبو بكر الأنباري وغيره. وقال ابن عباس: ليس في القرآن أشد غيظاً لإبليس منها؛ لأنها توحيد وبراءة من الشرك. وقال الأصمعي: كان يقال: «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ»، و«قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» المَقَشَّقَشْتَانِ؛ أي إنهما يبرئان من النفاق. وقال أبو عبيدة: كما يُقَشَّقَشُ الهِنَاءُ الجَرَبَ فُيَبْرُئُهُ. وقال ابن السكيت: يقال للقرح والجُدري إذا بَسَّ رَتَبَتْرف، ولجرب في الإبل إذا قَفَل: قد تَوَسَّفَ جِلْدُهُ، وتَقَشَّرَ جِلْدُهُ، وتَقَشَّقَشَ جِلْدُهُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾

ذكر ابن إسحاق وغيره عن ابن عباس: أن سبب نزولها أن الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب، وأمية بن خلف؛ لقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله؛ فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا، لقد شاركناك فيه وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما بيدك كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت بحظك منه؛ فأنزل الله عز وجل «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ» ﴿١﴾. وقال أبو صالح عن ابن عباس: إنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لو استلمت بعض هذه الآلهة لصدقناك؛ فنزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم بهذه السورة، فيئسوا منه وآذوه وآذوا أصحابه. والألف واللام ترجع إلى معن المعهود

(١) الهناء (بالكسر): القطران. (٢) قفل الجلد: ببس. (٣) اسلم الحجر: لمسه إما بالقبلة أو باليد.

وإن كانت للجنس من حيث إنها كانت صفة لأي؛ لأنها مخاطبة لمن سبق في علم الله تعالى أنه سميت على كفره، فهي من الخصوص الذي جاء بلفظ العموم. ونحوه عن الماوردي: نزلت جواباً، وعنى بالكافرين قومًا مُعَيَّنِينَ لا جميع الكافرين؛ لأن منهم من آمن فعبد الله، ومنهم من مات أو قُتِلَ على كفره، وهم المخاطبون بهذا القول، وهم المذكورون. قال أبو بكر بن الأنباري: «وقرأ من طعن في القرآن: قل للذين كفروا «لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ» وزعم أن ذلك هو الصواب، وذلك افتراء على رب العالمين، وتضعيف لمعنى هذه السورة، وإبطال ما قصده الله من أن يذلل نبيه للمشركين بخطابه إياهم بهذا الخطاب الزري، وإلزامهم ما يأنف منه كل ذي لبٍ وحجماً. وذلك أن الذي يدعيه من اللفظ الباطل قراءتنا تشمل عليه في المعنى، وتزيد تأويلاً ليس عندهم في باطلهم وتحريفهم. فمعنى قراءتنا: قل للذين كفروا بإيها الكافرون؛ دليلٌ صريحٌ هذا أن العربي إذا قال لمخاطبه قل لزيد أقبل إلينا، فعناه قل لزيد يا زيد أقبل إلينا. فقد وقعت قراءتنا على كل ما عندهم، وسقط من باطلهم أحسن لفظ وأبلغ معنى؛ إذ كان الرسول عليه السلام يعتمدهم في ناديم، فيقول لهم: «يا أيها الكافرون»، وهو يعلم أنهم يغضبون من أن يُنسبوا إلى الكفر ويدخلوا في جملة أهله إلا وهو محروس ممنوع من أن تنبسط عليه منهم يد، أو تقع به من جهتهم أذية. فن لم يقرأ «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ» كما أنزلها الله أسقط آيةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وسبيل أهل الإسلام ألا يسارعوا إلى مثلها، ولا يعتمدوا نبيهم باختزال الفضائل عنه التي منحه الله إياها وشرفه بها. وأما وجه التكرار فقد قيل إنه للتأكيد في قطع أطعاهم؛ كما تقول: والله لا أفعل كذا ثم والله لا أفعله. قال أكثر أهل المعاني: نزل القرآن بلسان العرب، ومن مذاهبهم التكرار لإرادة التأكيد والإفهام، كما أن مذاهبهم الاختصار لإرادة التخفيف والإيجاز؛ لأن خروج الخطيب والمتكلم من شيء إلى شيء أولى من اقتصاره في المقام على شيء واحد؛ قال الله تعالى: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ»، «وَيَلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْكَذِّبِينَ»، «كَلَّا سِعَامُونَ» ثم «كَلَّا سِعَامُونَ»، و«فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا» كل هذا على التأكيد.

وقد يقول القائل : أَرِمَ أَرِمٌ ، أَعْجَلَ أَعْجَلٌ ؛ ومنه قوله عليه السلام في الحديث الصحيح :
 ” فلا آذَنُ ثم لا آذَنُ إنما فاطمةُ بَضْعَةٌ مِنِّي “^(١) خرجه مسلم . وقال الشاعر :

هَلَا سَأَلْتُ جُمُوعَ كِنْدَةَ * يَوْمَ وَلَّوْا أَيْنَ أَيْنَا

وقال آخر :

يَا بَكْرُ أَنْشُرُوا لِي كَلْبِيَا * يَا بَكْرُ أَيْنَ أَيْنَ الْفِرَارُ^(٢)

وقال آخر :

يَا صَلِقْمَهُ يَا عَلِقْمَهُ يَا عَلِقْمَهُ - خَيْرَ تَسْمِيَةٍ كَلَّهَا وَأَكْرَمَهُ

وقال آخر :

يَا أَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ يَا أَقْرَعُ * إِنَّكَ إِنْ يُصْرَعُ أَخُوكَ أَصْرَعُ^(٣)

وقال آخر :

أَلَا يَا أَسْلَمِي ثُمَّ أَسْلَمِي تُمَّتْ أَسْلَمِي * ثَلَاثُ تَحِيَّاتٍ وَإِنْ لَمْ تَتَكَلَّمْ

ومثله كثير . وقيل : هذا على مطابقة قولهم : تعبد آلهتنا وتعبد إلهك ، ثم تعبد آلهتنا وتعبد إلهك ، ثم تعبد آلهتنا وتعبد إلهك ، فنَجْرِي على هذا أَبَدًا سَنَةً وَسَنَةً . فأجيبوا عن كل ما قالوه بضده ؛ أي إن هذا لا يكون أبدا . قال ابن عباس : قالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم : نحن نعطيك من المال ما تكون به أغنى رجل بمكة ، ونزوجهك من شئت ، ونطأ عقبك ؛ أي نَمْشِي خلفك ، وتكف عن شتم آلهتنا ، فإن لم تفعل فنحن نعرض عليك خَصْلَةً واحدة هي لنا ولك صلاح ؛ تعبد آلهتنا اللات والعزى سنة ،

(١) لفظ الحديث كما في صحيح مسلم (باب الفضائل) : ” ... أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وهو يقول : إن بني هشام بن المنيرة استأذوني أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم ثم لا آذن لهم إلا أن يحب ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم وإنما ابنتي بضعه مني يريني ما رايها ويؤذيني ما آذاها “ والبضمة (بالفتح وقد تكسر) : القطعة من اللحم . (٢) البيت من أبيات المهلهل بن ربيعة قالها بعد أن أخذ بنأراخيه كليب (راجع الشاهد العاشر بعد المائة في خزنة الأدب) . (٣) البيت لجرير بن عبد الله البجلي . وقيل لعمرو بن خنيس البجلي . (راجع خزنة الأدب في الشاهد الحادي والثمانين بعد الخمسمائة) .

(١) ونحن نعبد إلهك سنة؛ فنزلت السورة . فكان التكرار في « لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ » ؛ لأن القوم كثرُوا عليه مقالهم مرة بعد مرة . والله أعلم . وقيل : إنما كثر بمعنى التخليط . وقيل : أى « لَا أَعْبُدُ » الساعة « مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ » الساعة « مَا أَعْبُدُ » . ثم قال : « وَلَا أَنَا عَابِدٌ » فى المستقبل « مَا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنْتُمْ » فى المستقبل « عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ » قاله الأخفش والمبرد . وقيل : إنهم كانوا يعبدون الأوثان ، فإذا ملوا وثناً وسموا العبادة له رفضوه ، ثم أخذوا وثناً غيره بشهوة نفوسهم ، فإذا مروا بحجارة تعجبهم ألقوا هذه ورفعوا تلك فعظموها ونصبوها آلهة يعبدونها ؛ فأمر عليه السلام أن يقول لهم : « لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ » اليوم من هذه الآلهة التى بين أيديكم . ثم قال : « وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ » وإنما تعبدون الوثن الذى آتخذتموه ، وهو عندكم الآن . « وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ » أى بالأمس من الآلهة التى رفضتموها وأقبلتم على هذه . « وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ » فإنى أعبد إلهى . وقيل : إن قوله تعالى : « لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ » . « وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ » فى الاستقبال . وقوله : « وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ » على نفي العبادة منه لما عبدوا فى الماضى . ثم قال : « وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ » على التكرير فى اللفظ دون المعنى من قبل أن التقابل يوجب أن يكون ولا أنتم عابدون ما عبدت ، فعدل عن لفظ عبدت إلى أعبد ، إشعاراً بأن ما عبد فى الماضى هو الذى يعبد فى المستقبل ، مع أن الماضى والمستقبل قد يقع أحدهما موقع الآخر . وأكثر ما يأتى ذلك فى أخبار الله عز وجل . وقال : « مَا أَعْبُدُ » ولم يقل من أعبد ؛ ليقابل به « وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ » وهى أصنام وأوثان ، ولا يصلح فيها إلا « ما » دون « من » فحمل الأول على الثانى ليتقابل الكلام ولا يتنافى . وقد جاءت « ما » لمن يعقل . ومنه قولهم : سبحان ما سخركن لنا . وقيل : إن معنى الآيات وتقديرها : قل يا أيها الكافرون لا أعبد الأصنام التى تعبدونها ، ولا أنتم عابدون الله عز وجل الذى أعبدته ؛ لإشراككم به واتخاذكم الأصنام ، فإن زعمتم أنكم تعبدونه فأنتم كاذبون ؛ لأنكم تعبدونه

(١) فى حاشية الجمل نقلنا عن القرطبي : ثم تعبد آلهتنا ونعبد إلهك فنجرى على هذا أبدا سنة وستة فزلت الخ .

مشركين . فأنا لا أعبد ما عبدتم ، أى مثل عبادتكم ، ف « ما » مصدرية . وكذلك « وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ » مصدرية أيضا ؛ معناه ولا أتم عابدون مثل عبادتى التى هى توحيد :

قوله تعالى : لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿١٠٦﴾

فيه معنى التهديد ؛ وهو كقوله تعالى : « لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ » (١) أى إن رضيتم بدينكم فقد رضينا بديننا . وكان هذا قبل الأمر بالقتال فنسخ بآية السيف . وقيل : السورة كلها منسوخة . وقيل : ما نسخ منها شئ لأنها خبر . ومعنى « لَكُمْ دِينُكُمْ » أى جزاء دينكم ولى جزاء دينى . وسمى دينهم ديناً لأنهم اعتقدوه وتولوه . وقيل : المعنى لكم جزاؤكم ولى جزائى ؛ لأن الدين الجزاء . وفتح الياء من « وَلِيَ دِينِ » نافع ، والبزى عن ابن كثير باختلاف عنده ؛ وهشام عن ابن عامر ، وحفص عن عاصم . وأثبت الياء فى « دينى » فى الخالين نصر بن عاصم وسلام ويعقوب ؛ قالوا : لأنها أسمٌ مثل الكاف فى دينكم والتاء فى فمت . الباقون بغير ياء ؛ مثل قوله تعالى : « فَهُوَ يَهْدِينِ » (٢) ، « فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا » (٣) ونحوه ، اكنفاء بالكسرة وآتباعاً لخط المصحف ؛ فإنه وقع فيه بغير ياء .

تفسير سورة « النصر »

وهى مدنية بإجماع . وتسمى سورة « التوديع » . وهى ثلاث آيات .
وهى آخر سورة نزلت جميعاً ؛ قاله ابن عباس فى صحيح مسلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾

النَّصْرُ : العون ؛ مأخوذ من قولهم : قد نصر الغيث الأرض ؛ إذا أعان على نباتها ومنع من حطها . قال الشاعر (٤) :

إِذَا انْسَلَخَ الشَّهْرُ الْحَرَامُ فَوَدَّعَى * بِلَادَ تَمِيمٍ وَأَنْصَرَى أَرْضَ عَامِرٍ

(٢) آية ٧٨ سورة الشعراء .

(١) آية ٥٥ سورة القصص .

(٤) هو الراعى يخاطب خيلاً . (عن اللسان مادة نصر) .

(٣) آية ٥٠ سورة آل عمران .

ويروى :

إذا دخل الشهر الحرامُ بجاويزي * بلاد تميم وأنصرى أرض طامير

يقال : نصره على عدوه ينصره نصرا ؛ أى أعانه . والاسم النصره . وأستنصره على عدوه ؛ أى سأل أن ينصره عليه . وتناصروا : نصر بعضهم بعضا . ثم قيل : المراد بهذا النصر نصر الرسول على قريش ؛ قاله الطبرى . وقيل : نصره على من قاتله من الكفار ؛ فإن طائفة النصر كانت له . وأما الفتح فهو فتح مكة ؛ عن الحسن ومجاهد وغيرهما . وقال ابن عباس وسعيد بن جبير : هو فتح المدائن والقصور . وقيل : فتح سائر البلاد . وقيل : ما فتحه عليه من العلوم . و « إذا » بمعنى قد ؛ أى قد جاء نصر الله ؛ لأن نزولها بعد الفتح . ويمكن أن يكون معناه : إذا يجيئك .

قوله تعالى : **وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا** ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ ﴾ أى العرب وغيرهم . ﴿ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ أى جماعات فوجا بعد فوج . وذلك لما فتحت مكة قالت العرب : أما إذا ظفر عهد بأهل الحرم وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل ، فليس لكم به يدان^(١) . فكانوا يسلمون أفواجا أمة أمة . قال الضحاك : والأمة أربعون رجلا . وقال عكرمة ومقاتل : أراد بالناس أهل اليمن . وذلك أنه ورد من اليمن سبعمائة إنسان مؤمنين طائعين ، بعضهم يؤذنون ، وبعضهم يفرعون القرآن ، وبعضهم يهللون ؛ فسر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك وبكى عمر وابن عباس . وروى عكرمة عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ : « **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ** » وجاء أهل اليمن رقيقة أفئدتهم ، لينة طباعهم ، سخية قلوبهم ، عظيمة خشيتهم ، فدخلوا في دين الله أفواجا . وفى صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **أناكم أهل اليمن هم أضعف قلوبا وأرق أفئدة الفقه يمان والحكمة يمانية** » . وروى أنه

(١) أى طائفة .

صلى الله عليه وسلم قال : " إني لأجد نفس^(١) ربكم من قبل اليمن " . وفيه تأويلان : أحدهما - أنه الفرج ؛ اتباع إسلامهم أفواجا . والثاني - معناه أن الله تعالى نفس الكرب عن نبيه صلى الله عليه وسلم بأهل اليمن وهم الأنصار . وروى جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الناس دخلوا في دين الله أفواجا وسيخرجون منه أفواجا " ذكره الماوردي . ولفظ الثعلبي : وقال أبو عمار حدثني جابر قال : سألت جابر عن حال الناس ، فأخبرته عن حال اختلافهم وفرقتهم ؛ فجعل يبكي ويقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الناس دخلوا في دين الله أفواجا وسيخرجون من دين الله أفواجا " .

قوله تعالى : فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ ﴾ أى إذا صليت فأكثر من ذلك . وقيل : معنى سبح صل ؛ عن ابن عباس . « بِحَمْدِ رَبِّكَ » أى حامدا له على ما آتاك من الظفر والفتح . « وَأَسْتَغْفِرْهُ » أى سأل الله الغفران . وقيل : « فَسَبِّحْ » المراد به التنزيه ؛ أى تزفه عما لا يجوز عليه مع شكرك له . « وَأَسْتَغْفِرْهُ » أى سأل الله الغفران مع مداومة الذكر . والأقول أظهر . روى الأئمة واللفظ للبخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت عليه سورة « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ » إلا يقول : « سبحانك ربنا وبحمدك اللهم أغفر لي » . وعنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثُر أن يقول في ركوعه وسجوده : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم أغفر لي » يتأول القرآن . وفي غير الصحيح : وقالت أم سلمة كان النبي صلى الله عليه وسلم آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ، ولا يجيء ولا يذهب إلا قال : « سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب »

(١) قال ابن الأثير : « هو مستعار من نفس الهواء الذى يردّه النفس إلى الجوف فيبرد من حرارته وبعدها . أو من نفس الريح الذى ينسفه فيستروح إليه . أو من نفس الروضة وهو طيب روائحها فينفرج به عنه . يقال : أنت فى نفس من أمرك ، وأعمل وأنت فى نفس من عمرك ؛ أى فى سعة وفحة قبل المرض والهزم ونحوهما . »

إليه - قال - فلاني أمرت بها - ثم قرأ - « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ » إلى آخرها . وقال أبو هريرة : أجهت النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزولها حتى تورمت قدماه ، ونحل جسمه ، وقل تبسمه ، وكثر بكأؤه . وقال عكرمة : لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم قط أشد اجتهادا في أمور الآخرة ما كان منه عند نزولها . وقال مقاتل : لما نزلت قرأها النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه ، ومنهم أبو بكر وعمر وسعد بن أبي وقاص ، ففرحوا وأستبشروا وبكى العباس ؛ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « ما يبكيك يا عم » ؟ قال : نُعيت إليك نفسك . قال : « إنه لكما تقول » فعاش بعدها ستين يوماً ما رُئي فيها ضاحكاً مستبشراً . وقيل : نزلت في مني بعد أيام التشريق في حجة الوداع ، فبكى عمر والعباس ، فقيل لهما : إن هذا يوم فرح . فقالا : بل فيه نعي النبي صلى الله عليه وسلم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « صدقما نُعيت إلى نفسي » . وفي البخاري وغيره عن ابن عباس قال : كان عمر بن الخطاب يأذن لأهل بدر ويأذن لي معهم . قال : فوجد بعضهم من ذلك فقالوا : يأذن لهذا القتي معنا ومن أبنائنا من هو مثله ! فقال لهم عمر : إنه من قد علمتم . قال : فأذن لهم ذات يوم وأذن لي معهم ، فسألهم عن هذه السورة « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ » فقالوا : أمر الله جل وعز نبيه صلى الله عليه وسلم إذا فتح عليه أن يستغفره وأن يتوب إليه . فقال : ما تقول يا ابن عباس ؟ قلت : ليس كذلك ، ولكن أخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم حضور أجله فقال : « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ » فذلك علامة موتك . « فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً » . فقال عمر رضي الله عنه : تلوه ونبي عليه ؟ وفي البخاري فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول . ورواه الترمذي قال : كان عمر يسألني مع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال له عبد الرحمن ابن عوف : أتسأله ولنا بنون مثله ؟ فقال له عمر : إنه من حيث تعلم . فسأله عن هذه الآية « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ » . فقلت : إنما هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أعلمه إياه ؛ وقرأ السورة إلى آخرها . فقال له عمر : والله ما أعلم منها إلا ما تعلم . قال : هذا

(۱) الذي في الطبري والكشاف : « ستين » . (۲) أي غضب . (۳) أي من جهة

ذكانه وزيادة معرفته . أو من جهة قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حديث حسن صحيح . فإن قيل : فماذا يُغفر للنبي صلى الله عليه وسلم حتى يؤمر بالاستغفار؟
 قيل له : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه : « رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي
 وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَايَا وَعَمْدِي وَجَهْلِي وَهَزْلِي وَكُلَّ
 ذَلِكَ عِنْدِي اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ أَنْتَ الْمَقْدَمُ وَأَنْتَ
 الْمُؤَخَّرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » . فكان صلى الله عليه وسلم يستقصر نفسه لعظم ما أنعم الله به
 عليه، ويرى قصوره عن القيام بحق ذلك ذنوباً . ويحتمل أن يكون بمعنى : كن متعلقاً به
 سائلاً راغباً ، متضرعاً على رؤية التقصير في أداء الحقوق ، لئلا ينقطع إلى رؤية الأعمال .
 وقيل : الاستغفار عبادة يجب إتيانها لا للنفرة بل تسبداً . وقيل : ذلك تبيه لأمته لكيلا
 يأمنوا ويتركوا الاستغفار ، وقيل : « وَأَسْتَغْفِرُهُ » أي استغفر لأمتك . ﴿ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾
 أي على المسبحين والمستغفرين ينوب عليهم ويحبهم ، ويحبون توبتهم . وإذا كان عليه
 السلام وهو معصوم يؤمر بالأستغفار من الخطيئتين . روى مسلم عن عائشة قالت : كان
 رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثرون قول « سبحان الله وبحمده » . استغفر الله وأتوب
 إليه . قالت : فقلت يا رسول الله ، أراك تكثرون قول « سبحان الله وبحمده » . استغفر الله
 وأتوب إليه ؟ فقال : « خبرني ربي أنى سارى علامة في أمتي فإذا رأيتها أكثرت من
 قول سبحان الله وبحمده استغفر الله وأتوب إليه فقد رأيتها » إذا جاء نصر الله والفتح . فتح
 مكة . « وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ
 تَوَّابًا » . وقال ابن عمر : نزلت هذه السورة بمثي في حجة الوداع ، ثم نزلت « الْيَوْمَ اكْتُمْتُ
 لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي » فعاش بعدهما النبي صلى الله عليه وسلم ثمانين يوماً . ثم
 نزلت آية الكلاله فعاش بعدها خمسين يوماً . ثم نزل « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ » فعاش
 بعدها خمسة وثلاثين يوماً . ثم نزل « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ » فعاش بعدها أحداً
 وعشرين يوماً . وقال مقاتل سبعة أيام . وقيل غير هذا مما تقدم في « البقرة » بيانه والحمد لله .

(١) آية ٣ سورة المائدة .

(٢) آخر سورة النساء .

(٣) آية ٢٨ سورة التوبة .

(٤) آية ٢٨١ سورة البقرة .

سورة « تَبَّتْ »

وهي مَكْتَبَةٌ بإجماع . وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ) في الصحيحين وغيرهما واللفظ لمسلم عن ابن عباس قال : لما نزلت « وَاَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » ^(١) ورهطك منهم المخلصين ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صَعِدَ الصَّفَا ، فهتَفَ : يا صباحاه ! فقالوا : من هذا الذي يهتف ؟ قالوا محمد . فأجتمعوا إليه . فقال : « يا بني فلان يا بني فلان يا بني فلان يا بني عبد مناف يا بني عبد المطلب » فأجتمعوا إليه . فقال : « أرايتكم لو أخبرتكم أن خَيْلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مُصَدِّقِيَّ »؟ قالوا ، ما جربنا عليك كذباً . قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » . فقال أبو لهب : تَبَّ لك ! ، أما جمعنا إلا لهذا ! ثم قام فنزلت هذه السورة « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَقَدَّتْ » كذا قرأ الأعمش إلى آخر السورة . زاد الحميدى وغيره : فلما سمعت أمراته ما نزل في زوجها وفيها من القرآن ، أنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد عند الكعبة ، ومعه أبو بكر رضى الله عنه ، وفي يدها ^(٢) فِهْرٌ من حجارة ، فلما وقفت عليه أخذ الله بصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى إلا أبا بكر . فقالت : يا أبا بكر ، إن صاحبك قد بلغني أنه يهجونى ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهرفاه ، والله إنى لشاعرة :

مُذَمَّمًا عَصِينَا * وَأَمْرَهُ أَبِينَا * ودينه قَلِينَا

(١) آية ٢١٤ سورة الشعراء . (٢) قال النووي في شرح مسلم : « وظاهر هذه العبارة أن قوله ورهطك منهم المخلصين كان قرآناً أنزل ثم نسخت تلاوته » . (٣) الفهر (بالكسر) : الحجر مملء الكف . وقيل الحجارة مطلقاً .

ثم أنصرفت . فقال أبو بكر : يا رسول الله ، أما تراها رأيتك ؟ قال : " ما رأيتني لقد أخذ الله بصرها عنى " . وكانت قريش إنما تسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم مذمماً ؛ يسبونه . وكان يقول : " ألا تعجبون لما صرف الله عنى من أذى قريش ، يسبون ويهجون مذمماً وأنا مجد " . وقيل : إن سبب نزولها ما حكاه عبد الرحمن بن زيد أن أبا لهب أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما ذا أعطى إن آمنت بك يا محمد ؟ فقال : " كما يُعطى المسلمون " قال : ما لي عليهم فضل ؟ ! . قال : " وأى شيء تبغى ؟ " قال : تبا لهذا من دين أن أكون أنا وهؤلاء سواء ؛ فأنزل الله تعالى فيه : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » . وقول ثالث حكاه عبد الرحمن بن كيسان قال : كان إذا وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وقد أنطلق إليهم أبو لهب ، فيسألونه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون له : أنت أعلم به منا . فيقول لهم أبو لهب : إنه كذاب ساحر . فيرجعون عنه ولا يلقونه . فأتى وفد ففعل معهم مثل ذلك فقالوا : لا ننصرف حتى نراه ونسمع كلامه . فقال لهم أبو لهب : إنا لم نزل نعالجه ، فتبأ له وتعباً ؛ فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتتاب لذلك ؛ فأنزل الله تعالى « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ » السورة . وقيل : إن أبا لهب أراد أن يرمى النبي صلى الله عليه وسلم بمحجر فمنعه الله من ذلك ، وأنزل الله تعالى : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » لمنع الذي وقع به . ومعنى « تَبَّتْ » خسرت ؛ قاله قتادة . وقيل : خابت ؛ قاله ابن عباس . وقيل : ضلت ؛ قاله عطاء . وقيل : هلكت ؛ قاله ابن جبير . وقال يمان بن رثاب : صَفِرَتْ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ . حكى الأصمغنى عن أبي عمرو ابن العلاء أنه لما قُتل عثمان رحمه الله سمع الناس هاتفا يقول :

لَقَدْ خَلَوْتُكُمْ وَأَنْصَرَفُوا • فَا أَبَوْا وَلَا رَجَعُوا
وَلَمْ يُؤْفُوا بِنَذْرِهِمْ • فَيَا تَبًّا لِمَا صَنَعُوا^(١)

وخصَّ اليمين بالتباب لأن العمل أكثر ما يكون بهما ؛ أى خسرتا وخسر هو . وقيل : المراد باليمين نفسه . وقد يعبر عن النفس باليد ؛ كما قال الله تعالى : « بِمَا قَدَّمْتُ يَدَاكَ^(٢) »

(١) فى بعض نسخ الأصل : • فبأ للذى صنعوا •
(٢) آية ١٠ سورة الحج .

أى نفسك . وهذا مهيع كلام العرب ؛ تعبر ببعض الشيء عن كله ؛ تقول : أصابته يدُ الدهر ،
ويدُ الرزايا والمنايا ؛ أى أصابه كل ذلك . قال الشاعر :

لَمَّا أَكَبَّتْ يَدُ الرَّزَايَا * عَلَيْهِ نَادَى أَلَّا مُجِيرُ

(وتبّ) قال الفراء : التبّ الأول دعاء والثانى خبر ؛ كما يقال : أهلكه الله وقد هلك .
وفى قراءة عبد الله وأبى « وقد تب » . وأبو لهب اسمه عبد العزى ، وهو ابن عبد المطلب عم
النبي صلى الله عليه وسلم . وأمراته العوراء أم جميل ، أختُ ابى سفيان بن حرب ، وكلاهما ،
كان شديد العداوة للنبي صلى الله عليه وسلم . قال طارق بن عبد الله المحاربى : إني بسوق
ذى المجاز ، إذ أنا بإنسان يقول : ” يا أيها الناس ، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا “ . وإذا رجل
خلفه يرميه ، قد أدمى ساقيه وعرقوبيه ويقول : يا أيها الناس ، إنه كذاب فلا تصدقوه . فقلت
من هذا ؟ فقالوا : محمد ، زعم أنه نبي . وهذا عمه أبو لهب يزعم أنه كذاب . وروى عطاء عن
أبن عباس قال قال أبو لهب : سحركم محمد ! إن أحدنا لياكل الجذعة^(٢) ، ويشرب العس^(٣) من
اللبن فلا يشبع ، وإن محمداً قد أشبعكم من فيخذ شاة ، وأرواكم من عس لبن .

الثانية - قوله تعالى : (أَبِي لَهَبٍ) قيل : سُمى باللّهب لحسنه وإشراق وجهه .
وقد ظن قوم أن فى هذا دليلاً على تكنية المشرك ؛ وهو باطل ، وإنما كتّاه الله بأبى لهب - عند
العلماء - لمعان أربعة : الأول - أنه كان اسمه عبد العزى ، والعزى صنم ، ولم يصف الله
فى كتابه العبودية إلى صنم . الثانى - أنه كان بكنيته أشهر منه باسمه ؛ فصرح بها .
الثالث - أن الأسم أشرف من الكنية ؛ فخطه الله عز وجل عن الأشرف إلى الأنقص ؛
إذ لم يكن بد من الإخبار عنه ، ولذلك دعا الله تعالى الأنبياء بأسمائهم ولم يكن عن أحد
منهم . ويدلُّك على شرف الأسم على الكنية أن الله تعالى يُسمى ولا يكنى ، وإن كان ذلك
لظهوره وبيانه ؛ واستحالة نسبة الكنية إليه لتقدسه عنها . الرابع - أن الله تعالى أراد أن

(١) يقال طريق مهيع : أى واضح واسع بين . (٢) الجذعة : ولد الشاة فى السنة الثانية .

(٣) العس (بالضم) : القدح الكبير .

يحقق نسبه بأن يدخله النار ، فيكون أباً لها ؛ تحقيقاً للنسب ، وإمضاءً للقال والطيرة التي اختارها لنفسه . وقد قيل : اسمه كُنِيْتُهُ . فكان أهله يُسَمُّونَه أباً لهب لتلُّهَبُ وجهه وحُسنه ؛ فصرفهم الله عن أن يقولوا : أبو النور وأبو الضياء الذي هو المشترك بين المحبوب والمكروه ، وأجرى على ألسنتهم أن يضيفوه إلى لهب الذي هو مخصوص بالمكروه المذموم ؛ وهو النار . ثم حقق ذلك بأن يجعلها مقتره . وقرأ مجاهد وحُميد وابن كثير وابن مُحَيِّصن . « أَبِي لَهَبٍ » بإسكان الهاء . ولم يختلفوا في « ذَاتَ لَهَبٍ » أنها مفتوحة ؛ لأنهم راعوا فيها رءوس الآي .

الثالثة — قال ابن عباس : لما خلق الله عز وجل القلم قال له اكتب ما هو كائن . وكان فيما كتب « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ » . وقال منصور : سئل الحسن عن قوله تعالى : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ » هل كان في أم الكتاب ، وهل كان أبو لهب يستطيع ألا يصلِّي النار؟ فقال : والله ما كان يستطيع ألا يصلها ، وإنما لفي كتاب الله من قبل أن يُخلَقَ أبو لهب وأبواه . ويؤيده قول موسى لآدم : أنت الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسكنك جنته ، وأسجد لك ملائكته ، خَبِثَ النَّاسُ وَأَخْرَجْتَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ . قال آدم : وأنت موسى الذي أصطفاك الله بكلامه وأعطاك التوراة ، تلومني على أمر كتبه الله عليّ قبل أن يخلق الله السموات والأرض . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « فُحِجَّ آدَمُ مُوسَى » ، وقد تقدّم هذا . وفي حديث همام عن أبي هريرة أن آدم قال لموسى : « بكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن يخلقني ؟ » قال : « بالفى عام » قال : « فهل وجدت فيها : « وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى » » قال : « نعم » قال : « أفتلومني على أمر كتب الله عليّ أن أفعله من قبل أن أُخْلَقَ بِالْفَى عام » . فحج آدم موسى . وفي حديث طاوس وابن هرْمُزٍ والأعرج عن أبي هريرة : « بأربعين عاما » .

(١) في الأصول : « أغويت » . (٢) أى غلبه بالحجة . (٣) راجع ج ١١ ص ٢٥٦

قوله تعالى : مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢٠﴾

أى ما دفع عنه عذاب الله ما جمع من المال ولا ما كسب من جاه . وقال مجاهد : من الولد ؛ وولد الرجل من كسبه . وقرأ الأعمش « وَمَا أَكْتَسَبَ » ورواه عن ابن مسعود . وقال أبو الطَّفِيل : جاء بنو أبي لهب يختصمون عند ابن عباس فاقتتلوا ، فقام ليحجز بينهم فدفعه بعضهم فوق علي الفراش ؛ فغضب ابن عباس وقال : أخرجوا عنى الكسب الخبيث ؛ يعنى ولده . وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه " . خرجه أبو داود . وقال ابن عباس : لما أنذر رسول الله صلى الله عليه وسلم عشيرته بالنار ، قال أبو لهب : إن كان ما يقول ابن أخى حقاً فلانى أفدى نفسى بمالى وولدى ؛ فنزل : « مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ » . و « ما » فى قوله : « مَا أَغْنَىٰ » يجوز أن تكون نفيًا ، ويجوز أن تكون استفهامًا ؛ أى أى شىء أغنى [عنه] . و « ما » الثانية يجوز أن تكون بمعنى الذى ، ويجوز أن تكون مع الفعل مصدرًا ؛ أى ما أغنى عنه ماله وكسبه .

قوله تعالى : سَيَصِلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٢١﴾

أى ذات اشتعال وتلهب . وقد مضى فى سورة « المرسلات » القول فيه . وقراءة العامة : « سَيَصِلَىٰ » بفتح الياء . وقرأ أبو رجاء والأعمش بضم الياء . ورواها محبوب عن إسماعيل عن ابن كثير ، وحسين عن أبي بكر عن عاصم ، ورويت عن الحسن . وقرأ أشهب العقيلي وأبو سَمَّالِ العَدَوِيّ ومحمد بن السَّمِيقِ « سَيَصِلَىٰ » بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام ؛ ومعناها سَيَصِلِيهِ اللهُ ؛ من قوله : « وَتَصَلِّيَةُ جَحِيمٍ » . والثانية من الإصلاء ؛ أى يصليه الله ؛ من قوله : « فَسَوْفَ نُصَلِّيهِ نَارًا » . والأولى هى الاختيار ؛ لإجماع الناس عليها ؛ وهى من قوله : « إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ » .

(٢) آية ٩٤ سورة الواقعة .

(١) راجع ج ١٩ ص ١٦٠ .

(٤) آية ١٦٣ سورة الصافات .

(٣) آية ٣٠ سورة النساء .

قوله تعالى : وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَمْرَأَتُهُ ﴾ أم جميل . وقال ابن العربي : العوراء أم قبيح ، وكانت عوراء . ﴿ حَمَّالَةُ الْحَطَبِ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي : كانت تمشي بالنميمة بين الناس ؛ تقول العرب : فلان يحطّب على فلان إذا ورّش عليه . قال الشاعر :

إِنِّ بَنِي الْأَدْرَمِ حَمَّالُو الْحَطَبِ * هُمُ الْوُشَاةُ فِي الرِّضَا وَفِي الْغَضَبِ

* عَلَيْهِمُ اللَّعْنَةُ تَتَرَى وَالْحَرْبُ *^(٣)

وقال آخر :

مِنَ الْبَيْضِ لَمْ تُصَطِّدْ عَلَى ظَهْرٍ لَأَمِيَّةِ * وَلَمْ تَمْسِ بَيْنَ الْحَيِّ بِالْحَطَبِ الرَّطْبِ

يعنى لم تمش بالنمائم ، وجعل الحطّب رطباً ليدلّ على التدخين الذي هو زيادة في الشر . وقال أكرم بن صيفي لبنيه : إياكم والنميمة ! فإنها نارٌ محرّقة ، وإن التمام ليعمل في ساعة ما لا يعمل الساحر في شهر . أخذه بعض الشعراء فقال :

إِنَّ النَّبِيَّةَ نَارٌ وَبِكَ مُحْرِقَةٌ * فَفَرَّ عَنْهَا وَجَانِبٌ مِنْ تَعَاظَاهَا

ولذلك قيل : نار الحقد لا تحبو . وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم : ” لا يدخل الجنة تمام ” . وقال : ” ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً ” . وقال عابيه الصلاة والسلام : ” من شرّ الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه ” . وقال كعب الأحبار : أصاب بني إسرائيل قطط ، فخرج بهم موسى عليه السلام ثلاث مرات يستسقون فلم يسقوا . فقال موسى : ” إلهي عبادك ” فأوحى الله إليه ” إني لا أستجيب لك ولا لمن معك لأن فيهم رجلاً تماماً قد أصرّ على النميمة ” فقال موسى : ” يا ربّ من هو حتى نخرجه من بيننا ؟ ” فقال : ” يا موسى أنهاك عن النميمة وأكون تماماً ” . قال : فتابوا بأجمعهم فسقوا . والنميمة من الجائر ، لا خلاف في ذلك ؛ حتى قال الفضيل بن عياض : ثلاث تهتد العمل الصالح

(١) « حمالة » بالرفع قراءة نافع ، وبها يقرأ المؤلف . (٢) التوريش : التحريش ؛ يقال : ورّشت

بين القوم وأرّشت . (٣) الحرب (بالتحريك) : نهب مال الانسان وتركه لاشئ له .

ويفطرن الصائم وينقضن الوضوء : الغيبة ، والنميمة ، والكذب . وقال عطاء بن السائب : ذكرت للشعبي قول النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يدخل الجنة سافك ديم ولا مشاء بنميمة ولا تاجر يري " فقلت : يا أبا عمرو ، قرن التمام بالقاتل وآكل الربا ؟ فقال : وهل تُسفك الدماء وتنتهب الأموال وتُهيج الأمور العظام إلا من أجل النميمة .

وقال قتادة وغيره : كانت تُعير رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفقر . ثم كانت مع كثرة ما لها تحمل الخطب على ظهرها أشدّة بخلها ، فعُيرت بالبخل . وقال ابن زيد والضحاك : كانت تحمل العضاه والشوك فتطرحه بالليل على طريق النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وقاله ابن عباس . قال الربيع : فكان النبي صلى الله عليه وسلم يطؤه كما يطأ الحرير . وقال مرة الهمداني : كانت أم جميل تأتي كل يوم بإبالة من الحسك فتطرحها على طريق المسلمين ، فبينما هي حاملة ذات يوم حُرمة أُعيت فقعدت على حجر لتستريح ، فخذبها الملك من خلفها فأهلكها . وقال سعيد بن جبير : حاملة الخطايا والذنوب ، من قولهم : فلان يحتطب على ظهره ؛ دليله قوله تعالى : « وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ » . وقيل : المعنى حاملة الخطب في النار ؛ وفيه بعد . وقراءة العامة « حَمَّالَةٌ » بالرفع على أن يكون خبراً « وَأَمْرَاتُهُ » مبتدأ . ويكون « فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ » جملة في موضع الحال من المضمرة في « حَمَّالَةٌ » . أو خبراً ثانياً . أو يكون « حَمَّالَةُ الْخَطْبِ » نعتاً لامراته . والخبر « فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ » ؛ فيوقف على هذا على « ذَاتَ لَهَبٍ » . ويجوز أن يكون « وَأَمْرَاتُهُ » معطوفة على المضمرة في « سَيَّصَلَى » فلا يوقف على « ذَاتَ لَهَبٍ » ويوقف على « وَأَمْرَاتُهُ » وتكون « حَمَّالَةُ الْخَطْبِ » خبر ابتداء محذوف . وقرأ عاصم « حَمَّالَةُ الْخَطْبِ » بالنصب على الذم ؛ لأنها اشتهرت بذلك بجفاءات الصفة للذم لا للتخصيص ؛ كقوله تعالى : « مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا تُقِفُوا » . وقرأ أبو قلابة « حاملة الخطب » .

(١) الإبالة : الحزمة الكبيرة .

(٢) الحسك ؛ نبات له ثمرة ذات شوك تعلق بأصواف الغنم وهو السعدان .

(٣) آية ٣١ سورة الأنعام . (٤) آية ٦١ سورة الأحزاب .

قوله تعالى : فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

قوله تعالى : (فِي جِيدِهَا) أَي عُنُقِهَا . وَقَالَ أَمْرُؤُ الْقَيْسِ :

وَجِيدٌ يَكِيدُ الرِّيمَ لَيْسَ بِفَاحِشٍ * إِذَا هِيَ نَصَّتَهُ وَلَا بِمَعْطَلٍ^(١)

(حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ) أَي مِّن لَيْفٍ ؛ قَالَ النَّابِغَةُ :

مَقْدُوفَةٌ بِدَخِيْسِ النَّحِضِ بَازِلُهَا * لَهُ صَرِيْفٌ صَرِيْفٌ الْقَعْوُ بِالْمَسَدِ^(٢)

وَقَالَ آخَرُ :

يَا مَسَدَ الْخُوصِ تَعَوَّذْ مِنِّي * إِنَّ كُنْتَ لَدُنَّا لَيِّنًا فَلَانِي

* مَا شِئْتَ مِّنْ أَشْمَطٍ مُّقْسِنٍ^(٣)

وَقَدْ يَكُونُ مِّنْ جُلُودِ الْإِبِلِ أَوْ مِّنْ أَوْبَارِهَا ؛ قَالَ الشَّاعِرُ :

وَمَسَدٍ أَمْرٌ مِّنْ أَيَانِقٍ * لَيْسَ بِأَنْيَابٍ وَلَا حَقَائِقٍ^(٤)

وَجَمْعُ الْجِيدِ أَجْيَادٌ . وَالْمَسَدُ أَمْسَادٌ . أَبُو عُبَيْدَةَ : هُوَ حَبْلٌ يَكُونُ مِّنْ صُوفٍ . قَالَ الْحَسَنُ : هِيَ حَبَالٌ مِّنْ شَجَرٍ تَنْبَتُ بِالْيَمَنِ تُسَمَّى الْمَسَدَ ، وَكَانَتْ تُقْتَلُ . قَالَ الضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُ : هَذَا فِي الدُّنْيَا ؛ فَكَانَتْ تُعِيرُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْفَقْرِ وَهِيَ تَحْتَطِبُ فِي حَبْلِ تَجْمَلُهُ فِي جِيدِهَا مِّنْ لَيْفٍ ، فَخَنَقَهَا اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ بِهِ فَأَهْلَكَهَا ؛ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ حَبْلٌ مِّنْ نَّارٍ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ

(١) الجيد : العنق . والرِّيم : الظبي الأبيض الخالص البياض . و « نصته » رفعته . والمعطل : الذي لا حل

عليه . وقوله « فاحش » : أي ليس بكريه المنظر .

(٢) قال التبريزي : « مقدوفة » : أي مربية باللحم . والدخيس : الذي قد دخل بعضه في بعض من كثرته .

والنحض : اللحم ، وهو جمع نحضة . والبازل : الكبير . والصريف : الصباح . والقعو : ما يضم البكرة إذا كان

خشبا ؛ فإذا كان حديدا فهو خطاب . ويروي : له صريف صريف القعو (بالضم) على البدل ، والنصب أجود .

(٣) الأشمط : من خالط بياض رأسه سواد . والمقسن : الذي قد انتهى في سنه فليس به ضعف كبر ولا قوة

شباب . وقيل : هو الذي في آخر شبابه وأقل كبره . (٤) أمرًا الحبل : فتله فتلا شديدا . وأيانق : جمع

أيتق ، وأيتق جمع ناقة . والأنياب : جمع ناب وهي الناقة الهرمة . والحقائق : جمع حقة وهي التي دخلت في السنة

الرابعة وليس جلدها بالقوى .

في رواية أبي صالح : « فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ » قال : سلسلة ذرعها سبعون ذراعا -
وقاله مجاهد وعُروة بن الزبير : تدخل من فيها وتخرج من أسفلها، ويلوى سائرُها على عنقها .
وقال قتادة : « حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ » قال : قِلادة من ودع . الودع : خرز بيض تخرج من البحر،
تفاوت في الصغر والكبر . قال الشاعر :

* وَالْحِلْمُ حِلْمٌ صَبِيٍّ يَمِثُّ الْوَدْعَ ^(١) *

والجمع ودعات . الحسن : إنما كان خرزا في عنقها . سعيد بن المسيب : كانت لها قِلادة
فاخرة من جوهر فقالت : وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَا تُفِقَنَّاهُ فِي عداوة محمد . ويكون ذلك عذابا
في جيدها يوم القيامة . وقيل : إن ذلك إشارة إلى الخذلان ؛ يعني أنها مربوطة عن الإيمان
بما سبق لها من الشقاء، كالمربوط في جيدها بحبل من مسد . والمسد : القتل . يقال : مَسَدَ
حَبْلَهُ يَمْسُدُهُ مَسَدًا أَي أَجَادَ قَتْلَهُ . قال :

* يَمْسُدُ أَعْلَى لِحْمِهِ وَيَأْرِمُهُ ^(٢) *

يقول : إن البقل يقوى ظهر هذا الحمار ويشده . ودابة ممسودة الخلق إذا كانت شديدة
الأسر . قال الشاعر ^(٣) :

وَمَسَدٍ أَمْرَةٍ مِنْ أَيْانِقٍ * صُهْبٍ عِتَاقٍ ذَاتِ مَحٍّ زَاهِقٍ

* لَيْسَ بَأَنْيَابٍ وَلَا حَقَائِقٍ ^(٤) *

ويروى :

* وَلَا ضَعْفِ مَحْمُونٍ زَاهِقٍ *

قال الفراء : هو مرفوع والشعرُ مكفأ . يقول : بل محمُونٌ مُكْتَنَزٌ رَفَعَهُ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ . قال :
ولا يجوز أن يريد ولاضعافٍ زاهقٍ محمُونٌ . كما لا يجوز أن تقول : مررت برجل أبوه قائمٌ ؛

(١) مرث الودع يمرثه ويمرثه مرثًا : مصه . (٢) هورؤبة . (٣) الأسر : الخلق .

(٤) أمرٌ الحبل : قتله فتلا شديدا . والأيانق : جمع ناقة . والصهب : جمع الأصهب وهو بعير ليس بشديد البياض .

وعتاق : جمع عتيق وهو الكريم . وزهق المخ : إذا اكتنز (اجتمع) لحمه ؛ فهو زاهق . (٥) الإكفاء في الشعر :

المخالفة بين ضروب إعراب قوافيه . ومن الإكفاء أيضا المخالفة بين هجاء قوافيه إذا تفارقت مخارج الحروف أو تباعدت .

بالخفض . وقال غيره : الزاهق هنا بمعنى الذاهب ؛ كأنه قال : ولاضعاف ^(١) مُخُونٌ ، ثم رد الزاهق على الضعاف . ورجل مَسُودٌ أى مجدول الخلق . وجارية حَسَنَةٌ المَسْدُ والعَصَبُ والجَدَلُ والأَرَمُ ؛ وهى مَسُودَةٌ ومَعصُوبَةٌ ومَجْدُولَةٌ ومَأْرُومَةٌ . والمِسادُ على فِعال لغةٌ فى المساب ، وهو نَحْيُ السَّمَنِ وسِقاء العسل . قال جميعه الجوهري . وقد آعترض فقييل : إن كان ذلك حَبَلَهَا الذى تحتطب به فكيف يبقى فى النار ؟ وأجيب عنه بأن الله عز وجل قادر على تجديده كلما احترق . والحكم ببقاء أبى لهب وأمراته فى النار مشروط ببقائهما على الكفر إلى المواتة ؛ فلما ماتا على الكفر صدق الإخبار عنهما . ففيه معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم . فأمرته خنقها الله بحبلها ، وأبو لهب رماه الله بالعدسة ^(٢) بعد وقعة بدر بسبع ليال ، بعد أن شجته أم الفضل ^(٤) . وذلك أنه لما قدم الحيسمان مكة يُخبر خبر بدر ، قال له أبو لهب : أخبرنى خبر الناس . قال : نعم ، والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمئناهم أكتافنا ، يضعون السلاح منا حيث شاءوا ، ومع ذلك ما لمست الناس . لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق ، لا والله ما تبقى منا ؛ يقول : ما تبقى شيئاً . قال أبو رافع : وكنت غلاماً للعباس أنحت الأقداح فى صفة زمزم ، وعندى أم الفضل جالسة ، وقد سرنا ما جاءنا من الخبر ، فرفعت طنب الحجر فقلت : تلك والله الملائكة . قال : فرفع أبو لهب يده فضرب وجهى ضربةً منكراً ، وثاورته ^(٥) وكنت رجلاً ضعيفاً ، فأحتملنى فضرب بى الأرض وبرك على صدرى يضربنى . وتقدمت أم الفضل إلى عمود من عمود الحجر فتأخذه وتقول : استضعفته أن غاب عنه سيده ! وتضربه بالعمود على رأسه فتفلقه شجرةً منكراً . فقام يجر رجليه ذليلاً ورماه الله بالعدسة فمات ، وأقام ثلاثة أيام لم يُدفن حتى أتن ؛ ثم إن ولده غسلوه بالماء قذفاً من بعيد مخافة عدوى العدسة . وكانت قريش تتقيها كما يتقى الطاعون . ثم احتملوه إلى أعلى مكة فأسندوه إلى جدار ، ثم رَضُّوا ^(٦) عليه الحجارة .

(١) أى مجدولة الخلق . (٢) وقد مزيفقال مساب ، كبير . (٣) العدسة : برة تخرج

بالدن فقتل . (٤) هى لبابة الكبرى بنت الحارث بن حزن الهلالية ، أخت بيوتة أم المؤمنين .

(٥) ثاوره : واثبه . (٦) أى جعلوا الحجارة بعضها على بعض .

سورة «الإخلاص»

مَكِّيَّة ؛ في قول ابن مسعود والحسن وعطاء وعكرمة وجابر . ومدنيَّة ؛
في أحد قولي ابن عباس وقتادة والضحاك والسدي . وهي اربع آيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ
وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾

قوله تعالى : (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) أى الواحد الوتر الذى لا شبيه له ، ولا نظير ولا صاحبة
ولا ولد ولا شريك . وأصل « أحد » وحَد ؛ قلبت الواو همزة . ومنه قول النابغة :
(١)

* بذي الجليل على مُستأنيسٍ وحَدٍ *

وقد تقدم في سورة « البقرة » الفرق بين واحد وأحد ، وفي « كتاب الأسنى في شرح أسماء
الله الحسنى » أيضاً مُستوفى . والمجد لله . و « أحد » مرفوعٌ على معنى هو أحد . وقيل :
المعنى قل الأمر والشأن لله أحدٌ . وقيل : « أحدٌ » بدلٌ من قوله : « الله » . وقرأ
جماعةٌ « أحدُ الله » بلا تنوين طلباً للخفة ، وفرارا من التقاء الساكنين ؛ ومنه قول الشاعر :

(٢)
* ولا ذاكرَ الله إلا قليلاً *

(١) صدر البيت كما في معلقته :

* كان رحل وقد زال النهار بنا *

و « ذو الجليل » مكان ينبت الجليل ، وهو الثام . والثام : نبت ضعيف قصير لا يطول .

(٢) هذا مجز بيت لأبي الأسود الدؤلى . وصدده .

* فألفيته خير مستعجب *

(الله الصمد) أى الذى يُصمَدُ إليه فى الحاجات . كذا روى الضحاك عن ابن عباس قال : الذى يُصمَدُ إليه فى الحاجات ؛ كما قال عز وجل : « ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ » .^(١)
قال أهل اللغة : الصمد السيد الذى يُصمَدُ إليه فى النوازل والحوائج . قال :

أَلَا بَكَرَ النَّاعِي بِنَجِيرِ بْنِ أَسَدٍ * بَعْمَرِ بْنِ مَسْعُودٍ وَبِالسَّيِّدِ الصَّمَدِ

وقال قوم : الصمد الدائم الباقى الذى لم يزل ولا يزال . وقيل : تفسيره ما بعده « لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ » . قال أبو بن كعب : الصمد الذى لا يلد ولا يولد ؛ لأنه ليس شىء يولد إلا سموت ، وليس شىء يموت إلا يورث . وقال على بن عباس أيضا وأبو وائل شقيق بن سلمة وسفيان : الصمد هو السيد الذى قد انتهى سُودُهُ فى أنواع الشرف والسُّودد ؛ ومنه قول الشاعر :

عَلَوْتُهُ بِحُسَامٍ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ * خُذْهَا حُذَيْفَ فَأَنْتَ السَّيِّدُ الصَّمَدُ

وقال أبو هريرة : إنه المُستَغْنَى عن كلِّ أحد ، والمحتاج إليه كلُّ أحد . وقال السدى : إنه المقصود فى الرغائب ، والمستعان به فى المصائب . وقال الحسين بن الفضل : إنه الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . وقال مقاتل : إنه الكامل الذى لا عيب فيه ؛ ومنه قول الزبير بن

سَيَرُوا جَمِيعًا يَنْصِفِ اللَّيْلَ وَاعْتَمِدُوا * وَلَا رَهِيْنَةَ إِلَّا سَيِّدُ صَمَدٍ

وقال الحسن وعكرمة والضحاك وابن جبیر : الصمد المصممت الذى لا جوف له ؛ قال الشاعر :

شَهَابٌ حُرُوبٌ لَا تَزَالُ جِيَادُهُ * عَوَابِسٌ يَعْطُكَنَّ الشِّكِيمَ الْمَصْمَدًا^(٤)

قلت : قد أتينا على هذه الأقوال مُبَيَّنَةً فى الصمد فى (كتاب الأسنى) وأن الصحيح منها ما شهد له الاشتقاق ؛ وهو القول الأول ، ذكره الخطأبى . وقد أسقط من هذه السورة من أبعده الله وأخره وجعل النار مقامه ومثواه وقرأ « الله الواحد الصمد » فى الصلاة والناس يستمعون فأسقط « قل هو » وزعم أنه ليس من القرآن . وغير لفظ « أحد » وأدعى أن هذا هو الصواب ،

(١) آية ٥٣ سورة النحل . (٢) وروى : بنجرى . (٣) وهذا لا يجوز على الله تعالى .

(٤) علكت الدابة النجم تملكه (من باب قتل) علكا : لا كنه وحركته . والشكيم والشكيمة : الحديد المعترضة

فى فم الفرس .

والذى عليه الناس هو الباطل والمحال ، فأبطل معنى الآية ؛ لأن أهل التفسير قالوا : نزلت الآية جواباً لأهل الشرك لما قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : صِفْ لَنَا رَبَّكَ ، أَمِنْ ذَهَبٌ هُوَ أَمْ مِنْ نُحَاسٍ أَمْ مِنْ صُفْرٍ؟ فقال الله عز وجل ردّاً عليهم : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » .
 ففى « هو » دلالة على موضع الردّ ومكان الجواب ، فإذا سقط بطل معنى الآية وصحّ الافتراء على الله عز وجل والتكذيب لرسوله صلى الله عليه وسلم . وروى الترمذى عن أبى بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : انْسُبْ لَنَا رَبَّكَ ؛ فأنزل الله عز وجل « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ » . والصمد : الذى لم يلد ولم يولد ؛ لأنه ليس شىء يولد إلا سموت ، وليس شىء يموت إلا سيورث ، وأن الله تعالى لا يموت ولا يورث . (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)^(١)
 قال : لم يكن له شبيهه ولا عدل وليس كمثل شىء . وروى عن أبى العالية أن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر آلهتهم فقالوا : انْسُبْ لَنَا رَبَّكَ . قال : فاتاه جبريل بهذه السورة « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » فذكر نحوه ، ولم يذكر فيه عن أبى بن كعب ، وهذا أصح ؛ قاله الترمذى .

قلت : ففى هذا الحديث إثبات لفظ « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » وتفسير الصمد . وقد تقدّم .
 وعن عكرمة نحوه . وقال ابن عباس : « لم يلد » كما ولدت مريم ، ولم يولد كما ولد عيسى وعزير . وهو ردٌّ على النصارى وعلى من قال : عزير بن الله . « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » أى لم يكن له مثلاً أحد . وفيه تقديم وتأخير ؛ تقديره : ولم يكن له أحد كفواً ؛ فقدّم خبر كان على اسمها لينساق أو انحر الآى على نظم واحد . وقُرئ « كفوا » بضم الفاء وسكونها . وقد تقدّم فى « البقرة » أن كل أسم على ثلاثة أحرف أوله مضموم فإنه يجوز فى عينه الضم والإسكان ؛ إلا قوله تعالى : « وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْأً »^(٢) لِعِلَّةِ تَقَدُّمِ . وقرأ حفص « كُفُوا » مضموم الفاء غير مهموز . وكلها لغات فصيحة .

(١) فى نسخة من الأصل : « فأسقط آية وأبطل المعنى وصحّف آفراء على الله عز وجل ... الخ » .

(٢) بالهمز قراءة نافع ، وهى قراءة المؤلف . (٣) راجع ج ١ ص ٤٤٧ طبعه ثانية أو ثالثة .

(٤) آية ١٥ سورة الزنرف راجع ج ١٦ ص ٦٩

القول في الأحاديث الواردة في فضل هذه السورة ؛ وفيه ثلاث مسائل : -

الأولى - ثبت في صحيح البخارى عن أبي سعيد الخدرى أن رجلا سمع رجلا يقرأ « قل هو الله أحد » يرددها ؛ فلما أصبح جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ، وكان الرجل يتقلها ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده إنها تعدل ثلث القرآن » . وعنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة » فشق ذلك عليهم وقالوا : أينما يطيق ذلك يا رسول الله ؟ فقال : « الله الواحد الصمد ثلث القرآن » خرجه مسلم من حديث أبي الدرداء بمعناه . وخرج عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحشدوا فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن » ^(١) أحشد من حشد ؛ ثم خرج نبي الله صلى الله عليه وسلم فقرأ « قل هو الله أحد » ثم دخل فقال بعضنا لبعض : إني أرى هذا خيراً جاءه من السماء ، فذاك الذى أدخله . ثم خرج فقال : « إني قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن ألا إنها تعدل ثلث القرآن » قال بعض العلماء : إنها عدلت ثلث القرآن لأجل هذا الاسم الذى هو « الصمد » فإنه لا يوجد في غيرها من السور . وكذلك « أحد » . وقيل : إن القرآن أنزل أثلاثاً ، ثلثاً منه أحكام ، وثلثاً منه وعد ووعيد ، وثلثاً منه أسماء وصفات ؛ وقد جمعت « قل هو الله أحد » ^(٢) [أحد] الأثلاث وهو الأسماء والصفات . ودل على هذا التأويل ما فى صحيح مسلم من حديث أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله جل وعز جزأ القرآن ثلاثة أجزاء بفعل « قل هو الله أحد » جزءاً من أجزاء القرآن » . وهذا نص ؛ وبهذا المعنى سُميت سورة الإخلاص ، والله أعلم .

الثانية - روى مسلم عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلاً على سيرة وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بـ « قل هو الله أحد » ؛ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي صلى

(١) أى يعتقد أنها قليلة في العمل لا في التقبيل . (٢) فى شرح العيني على البخارى فى فضائل القرآن :

« قوله الله الواحد الصمد كناية عن قل هو الله أحد » . (٣) من باب قتل وضرب ، ويستعمل متعدها ولازماً .

(٤) أى اجتمع من اجتمع . (٥) زيادة عن الخطيب .

الله عليه وسلم فقال : ” سلوه لأى شىء يصنع ذلك “ ؟ فسألوه فقال : لأنها صفة الرحمن ، فأنا أحب أن أقرأ بها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” أخبروه أن الله عز وجل يحبها “ . وروى الترمذى عن أنس بن مالك قال : كان رجل من الأنصار يؤتمهم في مسجد قباء وكان كلما أفتتح سورة يقرأها لهم في الصلاة فقرأ بها ، افتتح بـ « قل هو الله أحد » ؛ حتى يفرغ منها ، ثم يقرأ بسورة أخرى معها ، وكان يصنع ذلك في كل ركعة ؛ فكلّمه أصحابه فقالوا : إنك تقرأ بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزيك حتى تقرأ بسورة أخرى ، فإما أن تقرأ بها وإما أن تدعها وتقرأ بسورة أخرى ؟ قال : ما أنا بتاركها ، إن أحببتم أن أوتممكم بها فعلت ، وإن كرهتم تركتكم ؛ وكانوا يرونه أفضلهم وكرهوا أن يؤتمهم غيره ؛ فلما أتاهم النبي صلى الله عليه وسلم أخبروه الخبر ، فقال : ” يا فلان ما يمنعك مما يأمر به أصحابك وما يحملك أن تقرأ هذه السورة في كل ركعة “ ؟ فقال : يا رسول الله ، إني أحبها ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إن حبها أدخلك الجنة “ قال : حديث حسن غريب صحيح . قال ابن العربي : « فكان هذا دليلاً على أنه يجوز تكرار سورة في كل ركعة . وقد رأيت على باب الأسباط فيما يقرب منه إماماً من جملة الثمانية والعشرين إماماً كان يصلى فيه التراويح في رمضان بالأتراك ؛ فيقرأ في كل ركعة « الحمد لله » و « قل هو الله أحد » حتى يتم التراويح ؛ تخفيفاً عليه ورغبةً في فضلها . وليس من السنة ختم القرآن في رمضان » .

قلت : هذا نص قول مالك ، قال مالك : وليس ختم القرآن في المساجد بسنة .

الثالثة — روى الترمذى عن أنس بن مالك قال : أقبلت مع النبي صلى الله عليه وسلم فسمع رجلاً يقرأ « قل هو الله أحد » ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” وجبت “ قلت : وما وجبت ؟ قال : ” الجنة “ . قال : هذا حديث حسن صحيح . قال الترمذى :

(١) الرواية في الترمذى عن أبي هريرة .

(٢) في الترمذى : « حسن غريب » .

حدثنا محمد بن مرزوق البصري قال حدثنا حاتم بن ميمون أبو سهل عن ثابت البناني عن أنس ابن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ كل يوم مائتي مرة قل هو الله أحد مَحْيَى عنه ذنوب خمسين سنة إلا أن يكون عليه دين " . وبهذا الإسناد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من أراد أن ينام على فراشه فنام على يمينه ثم قرأ قل هو الله أحد مائة مرة فإذا كان يوم القيامة يقول الرب يا عبدى أدخل على يمينك الجنة " . قال : هذا حديث غريب من حديث ثابت عن أنس . وفي مسند أبي محمد الدارمي عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ قل هو الله أحد خمسين مرة غفرت له ذنوب خمسين سنة " قال : وحدثنا عبد الله بن يزيد قال حدثنا حيوة قال أخبرني أبو عقيل أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : إن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ قل هو الله أحد عشر مرات بُني له قصر في الجنة . ومن قرأها عشرين مرة بُني له بها قصران في الجنة . ومن قرأها ثلاثين مرة بُني له بها ثلاثة قصور في الجنة " . فقال عمر بن الخطاب : والله يا رسول الله إذا لتكثرن قصورنا ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أوسع من ذلك " قال أبو محمد : أبو عقيل زهرة بن معبد ، وزعموا أنه كان من الأبدال . وذكر أبو نعيم الحافظ من حديث أبي العلاء يزيد بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ قل هو الله أحد في مرضه الذي يموت فيه لم يُفتن في قبره . وأمين من ضغطة القبر . وحملته الملائكة يوم القيامة بأكفها حتى تُجيزه من الصراط إلى الجنة " . قال : هذا حديث غريب من حديث يزيد تفرد به نصر بن حماد البجلي . وذكر أبو بكر أحمد بن علي ابن ثابت الحافظ عن عيسى بن أبي فاطمة الرازي قال سمعت مالك بن أنس يقول : إذا نُقس بالناقوس أشتد غضبُ الرحمن فتزل الملائكة يأخذون بأقطار الأرض فلا يزالون يقرءون « قل هو الله أحد » حتى يسكن غضبه جل وعز . وخرج من حديث محمد بن خالد الجندی عن مالك عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من دخل يوم الجمعة المسجد فصلى أربع ركعات يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد خمسين مرة

فذلك مائتا مرة في أربع ركعات لم يمت حتى يرى منزله في الجنة أو يرى له . . وقال أبو عمر مولى جرير بن عبد الله البجلي عن جرير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ قل هو الله أحد حين يدخل منزله نفت الفقر عن أهل ذلك المنزل وعن الجيران".

وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ قل هو الله أحد مرة بورك عليه ومن قرأها مرتين بورك عليه وعلى أهله ومن قرأها ثلاث مرات بورك عليه وعلى جميع جيرانه ومن قرأها اثنتي عشرة مرة بنى الله له اثني عشر قصرًا في الجنة وتقول الحفظة انطلقوا بنا ننظر إلى قصر أخينا فإن قرأها مائة مرة كفر الله عنه ذنوب خمسين سنة ما خلا الدماء والأموال فإن قرأها أربع مائة مرة كفر الله عنه ذنوب مائة سنة فإن قرأها ألف مرة لم يمت حتى يرى مكانه في الجنة أو يرى له . . وعن سهل بن سعد الساعدي قال : شكى رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الفقر وضيق المعيشة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا دخلت البيت فسلم إن كان فيه أحد وإن لم يكن فيه أحد فسلم على واقرا قل هو الله أحد مرة واحدة" ففعل الرجل فأدر الله عليه الرزق حتى أفاض على جيرانه . وقال أنس : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبوك ، فطلعت الشمس بيضاء لها شعاع ونور ، لم أرها فيما مضى طلعت قط كذلك ، فأتى جبريل ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا جبريل مالي أرى الشمس طلعت بيضاء بشعاع لم أرها طلعت كذلك فيما مضى قط" ؟ فقال : "ذلك لأن معاوية بن معاوية اللثبي توفي بالمدينة اليوم فبعث الله سبعين ألف ملك يصلون عليه" . قال : "وَمِمْ ذلك" ؟ قال : "كان يكثر قراءة قل هو الله أحد أثناء الليل وأثناء النهار وفي ممشاه وقيامه وقعوده فهل لك يا رسول الله أن أقبض لك الأرض فتصلي عليه" ؟ قال : "نعم" فصلى عليه ثم رجع . ذكره الثعلبي ، والله أعلم .

تفسير سورة « الفلق »

وهي مَكِّيَّة؛ في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . ومدنيَّة؛ في أحد قولي
أبن عباس وقتادة . وهي خمس آيات .

وهذه السورة وسورة « الناس » و « الإخلاص » تعوذ بهنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين
سحرته اليهود؛ على ما يأتي . وقيل : إن المعوذتين كان يقال لهما المُقَشِّشَتَان ؛ أي تبرئان من
النفاق . وقد تقدم . وزعم ابن مسعود أنهما دعاء تعوذ به ، وليستا من القرآن ؛ خالف به
الإجماع من الصحابة وأهل البيت . قال ابن قتيبة : لم يكتب عبد الله بن مسعود في مصحفه
المعوذتين ؛ لأنه كان يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين - رضی الله
عنهما - بهما ، فقدّر أنهما بمنزلة : أعيد كما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين
لافة . قال أبو بكر الأنباري : وهذا مردود على ابن قتيبة ؛ لأن المعوذتين من كلام ربِّ
العالمين المعجز لجميع المخلوقين ؛ وأعيد كما بكلمات الله التامة من قول البشريين . وكلام الخالق الذي
هو آيةٌ محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، وحجةٌ له باقية على جميع الكافرين ، لا يلتبس بكلام
الآدميين على مثل عبد الله بن مسعود الفصيح اللسان ، العالم باللغة ، العارف بأجناس الكلام
وأفانين القول . وقال بعض الناس : لم يكتب عبد الله المعوذتين لأنه أمن عليهما من النسيان
فأسقطهما وهو يحفظهما ؛ كما أسقط فاتحة الكتاب من مصحفه ، وما يُسَكِّ في حفظه وإتقانه
لها . فردَّ هذا القول على قائله ، وأجَّج عليه بأنه قد كتب « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ » ،
و « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ » ، و « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » وهن يجزى مجزى المعوذتين في أنهن
غير طوال ، والحفظ إليهن أسرع ، ونسيانهن مأمون ، وكلهن يخالف فاتحة الكتاب ؛
إذ الصلاة لا تتم إلا بقراءتها . وسبيل كل ركعة أن تكون المقدمة فيها قبل ما يقرأ من بعدها ،
فإسقاط فاتحة الكتاب من المصحف على معنى الثقة ببقاء حفظها ، والأمن من نسيانها صحيح ،
وليس من السور ما يجزى في هذا المعنى مجراها ، ولا يسلك به طريقها . وقد مضى هذا
المعنى في سورة « الفاتحة »^(١) . والحمد لله .

(١) راجع ج ١ ص ١١٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾
وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾
وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى - روى النسائي عن عتبة بن عامر قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو راكب : فوضعت يدي على قدمه ، فقلت : أقرئني سورة [هود] أقرئني سورة يوسف . فقال لي : " ولن تقرأ شيئا أبلغ عند الله من « قل أعوذ برب الفلق » " . وعنه قال : بينا أنا أسير مع النبي صلى الله عليه وسلم بين الجحفة والأبواء ، إذ غشيتنا ريح مظلمة شديدة ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ بـ « أعوذ برب الفلق » و « أعوذ برب الناس » ويقول : " يا عتبة تعوذ بهما فما تعوذ متعوذ بمثلهما " . قال : وسمعتة يقرأ بهما في الصلاة . وروى النسائي عن عبد الله قال : أصابنا طش وظلمة ، فانتظرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج . ثم ذكر كلاما معناه : نخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم [ليصلي بنا] فقال : " قل " . فقلت : ما أقول ؟ قال : " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَالْمَعُودَتَيْنِ حِينَ تَمْسَى وَحِينَ تَصْبِحُ ثَلَاثًا يَكْفِيكَ كُلَّ شَيْءٍ " وعن عتبة بن عامر الجهني قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قل " . قلت : ما أقول ؟ قال قل : " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ . قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ " - فقرأهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال - لم يتعوذ الناس بمثلهن أولا يتعوذ الناس بمثلهن " . وفي حديث ابن عباس « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ

(١) زيادة عن سنن النسائي . (٢) الطش (بفتح الطاء وتشديد الشين) : المطر الضعيف .

(٣) الذي في سنن النسائي : « فانتظرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي بنا ثم ذكر ... الخ » .

(٤) زيادة عن سنن النسائي .

الْفَلَقِ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ « . وفي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى قرأ على نفسه بالمعوذتين وَيَنْفُثُ ، فلما آتتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عنه بيده رجاء بركتها . النَّفْثُ : النفخ ليس معه ريق .

الثانية - ثبت في الصحيحين من حديث عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم سحره يهودى من يهود بنى زريق يقال له لبيد بن الأعصم ، حتى يُحَيَّلَ إليه أنه كان يفعل الشيء ولا يفعله ، فكث كذلك ما شاء الله أن يمكث - في غير الصحيح : بسنة - ثم قال :
 ” يا عائشة أشعرت أن الله أفنانى فيما استفيتته فيه . أتانى ملكان بخلس أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلي فقال [الذى عند رأسى للذى عند رجلي] ما شأن الرجل قال مَطْبُوبٌ قال (٢) (١)
 وَمَنْ طَبَّه قال لبيد بن الأعصم قال فيما ذا قال فى مُشْطٍ ومشاطة وُجِّفَ طَلْعَةٌ ذَكَرْتُ تحت (٣) (٤)
 راعوفة فى بئر ذى أروان “ . بقاء البئر واستخراجه . انتهى الصحيح . وقال ابن عباس : (٥) (٦)
 ” أما شعرت يا عائشة أن الله تعالى أخبرنى بدائى “ . ثم بعث علياً والزبير وعمار بن ياسر فترحوا ماء تلك البئر كأنه نقاعة الحناء ، ثم رفعوا الصخرة وهى الراعوفة - صخرة ترك أسفل (٧)
 البئر يقوم عليها المائح ، وأخرجوا الجُفَّ فإذا مُشاقفة رأس إنسان ، وأسنان من مشط وإذا وتر معقود فيه إحدى عشرة عقدة مغرزة بالإبر ، فأنزل الله تعالى هاتين السورتين ، وهما إحدى عشرة آية على عدد تلك العقدة ، وأمر أن يتعوذ بهما ، بفعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ، ووجد النبي صلى الله عليه وسلم خفة ، حتى انحلت العقدة الأخيرة فكأنما أنشط من عقال ، وقام ليس به بأس . وجعل جبريل يرقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : ” بأسم الله

(١) زيادة عن الصحيحين . (٢) المطبوب : المسحور . (٣) فى بعض نسخ الأصل وبعض كتب

الحديث : «ومشاقة» بالفاء بدل الطاء ، وهو ما يستخرج من الكنان . والمشط : الآلة التى يمشط بها الشعر .

(٤) الجف (بضم الجيم وتشديد الفاء) : الغشاء الذى يكون على الطلع ويطلق على الذكر والأنثى ؛ فلذا قيده

بقوله « ذكر » . (٥) الراعوفة : حجر نائى على رأس البئر لا يستطاع قلعه يقوم عليه المستقى . وقيل هو

فى أسفلها . (٦) ويقال : «بئر ذروان» وهى بئر بالمدينة فى بستان بنى زريق . (٧) أى فى روايته .

(٨) فى بعض نسخ الأصل : « المائح » بالناء المثناة من فوق ، وهو المستقى من البئر بالدلو من أعلى البئر .

أما المائح بالهمز فهو الذى يكون فى أسفل البئر يملا الدلو .

أَرَقِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ مِنْ شَرِّ حَاسِدٍ وَعَيْنٍ وَاللَّهُ يَشْفِيكَ ” . فقالوا : يا رسول الله ، ألا نقتل الخبيث . فقال : ” أما أنا فقد شفاني الله وأكره أن أثير على الناس شرا ” . وذكر القشيري في تفسيره أنه ورد في الصحاح أن غلاما من اليهود كان يخدم النبي صلى الله عليه وسلم ، فدنت إليه اليهود ، ولم يزالوا به حتى أخذ مشاطة رأس النبي صلى الله عليه وسلم . والمشاطة (بضم الميم) ما يسقط من الشعر عند المشط . وأخذ عدة من أسنان مشطه فأعطاه اليهود فسحروه فيها ، وكان الذي تولى ذلك لبيد بن الأعصم اليهودي . وذكر نحو ما تقدم عن ابن عباس .

الثالثة — تقدم في البقرة القول في السحر وحقيقته وما ينشأ عنه من الآلام والمفاسد ، وحكم الساحر ، فلا معنى لإعادته .^(٢)

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ الْفَلَقِ ﴾ اختلف فيه ، فقيل : سَجْنٌ فِي جَهَنَّمَ ؛ قاله ابن عباس . وقال أبي بن كعب : بيت في جهنم إذا فتح صاح أهل النار من حره . وقال الحُبَلِيُّ أبو عبد الرحمن : هو آسم من أسماء جهنم . وقال الكلبي : واد في جهنم . وقال عبد الله ابن عمر : شجرة في النار . سعيد بن جبير : جُبٌّ فِي النَّارِ . النحاس : يقال لما اطمأن من الأرض فَلَاقَ ؛ فعلى هذا يصح هذا القول . وقال جابر بن عبد الله والحسن وسعيد بن جبير أيضا ومجاهد وقتادة والقُرَظِيُّ وأبن زيد : الفلق ، الصبح . وقاله ابن عباس . تقول العرب : هو أئين من فَلَاقَ الصَّبْحَ وَفَرَّقَ الصَّبْحَ . وقال الشاعر :

يا لَيْلَةً لَمْ أَنْهَهَا بِتُّ مُرْتَفِقًا * أَرْعَى النُّجُومَ إِلَى أَنْ نَوَّرَ الْفَلَاقُ

وقيل : الفلق : الجبال والصخور تنفلق بالمياه ؛ أي تتشقق . وقيل : هو التفليق بين الجبال والصخور ؛ لأنها تتشقق من خوف الله عز وجل . قال زهير :

مَا زِلْتُ أَرْمُقُهُمْ حَتَّى إِذَا هَبَّطْتُ * أَيْدِي الرِّكَابِ بِهِمْ مِنْ رَاكِبٍ فَلَقَا

(٢) راجع ج ٢ ص ٤٣ فابعدا طبعة ثانية .

(١) في نسخة : فدست .

(٤) المرتفق : المنكى على مرفق يده .

(٣) هو عبد الله بن يزيد المعافى .

الراكس : بطن الوادي . وكذلك هو في قول النابغة :

* أَنَانِي وَدُونِي رَاكِسٌ فَالضَّوَاجِعُ ^(١) *

والراكس أيضا : الهادي ، وهو الثور وسط البيدر تدور عليه الثيران في الدياسة . وقيل : الرحم تنفلق بالحيوان . وقيل : إنه كل ما انفلق عن جميع ما خلق من الحيوان والصبح والحب والنوى ، وكل شيء من نبات وغيره ، قاله الحسن وغيره . قال الضحاك : الفلق الخلق كله ؛ قال :

وَسَوْسَ يَدْعُو مُخْلِصًا رَبَّ الْفَلَقِ * سَرًّا وَقَدْ أَزَنَ تَأْوِينَ الْعَقَقِ ^(٢)

قلت : هذا القول يشهد له الاشتقاق ؛ فإن الفلق الشق . فلقت الشيء فلقا أي شققته .

والتفليق مثله . يقال : فلقته فأنفلق وتفلق . فكل ما أنفلق عن شيء من حيوان وصبح وحب ونوى وماء فهو فلق ؛ قال الله تعالى : « فَالِقُ الْإِصْبَاحِ ^(٤) » وقال : « فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ^(٥) » . وقال ذو الرمة يصف الثور الوحشي :

حَتَّى إِذَا مَا انْجَلَى عَنْ وَجْهِهِ فَلَاقَ * هَادِيَهُ فِي أُخْرِيَاتِ اللَّيْلِ مُنْتَصِبُ ^(٦)

يعنى بالفلق هنا الصبح بعينه . والفلق أيضا المطمئن من الأرض بين الربوتين ، وجمعه فُلُقَانٌ ؛ مثلُ خَلَقَ وَخُلُقَانٌ . وربما قالوا : كان ذلك بفالق كذا وكذا ؛ يريدون المكان المنحدر

(١) صدر البيت : * وعيد أبي قابوس في غير كنهه * والضواجع جمع ضاجعة وهي منحني الوادي .

(٢) البيدر : الموضع الذي يداس فيه الحبوب . (٣) ورد هذا البيت في الأصول محرفا . وهو من أرجوزة

رؤبة بن العجاج التي مطلعها : * وفاتم الأعماق خاوي المخترق *

وقوله : « أَزَنَ » أي أكل وشرب حتى امتلأ بطنه . والعقق : جمع عقوق كرسول ورسول وهي التي تكامل حملها

وقرب ولادها . وصف صائدا لما أحس بالصيد — وهي الآن التي وردت الماء فشربت حتى امتلأت خواصرها —

وأراد رمية وسوس نفسه بالدعاء حذر الحية . (٤) آية ٩٦ سورة الأنعام . (٥) آية ٩٥ سورة الأنعام .

(٦) كذا في الأصول واللسان . والذي في الديوان : « ماجلا » . وقال ابن بري : الرواية الصحيحة :

* حتى إذا ما جلا عن وجهه شفق * وقوله : « هاديه » أي أوله ؛ مأخوذ من الهادي وهو مقدم العنق .

بين الرُّبُوتَيْن . والفلق أيضا مِقْطَرَةٌ السَّجَانُ ^(١) . فأما الفلق (بالكسر) فالداهية والأمر العجب ؛ تقول منه : أفلق الرجل وأفلق . وشاعر مُفْلِقٌ ، وقد جاء بالفلق [أى بالداهية] . والفلق أيضا القضيْب يُسَّقُ باثنين فيعمل منه قوسان ؛ يقال لكل واحدة منهما فُلُقٌ . وقولهم : جاء بَعْلَقٌ فُلُقٌ ؛ وهى الداهية ؛ لا يجرى [مجرى عمر ^(٢)] . يقال منه : أَعْلَقَتْ وَأَفْلَقَتْ ؛ أى جئت بَعْلَقٌ فُلُقٌ . ومَرَّتْ يَفْتَلِقُ فى عَدْوِهِ ؛ أى يأتى بالعجب من شدته .

وقوله تعالى : (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ) قيل : هو إبليس وذريته . وقيل جهنم . وقيل : هو عام ؛ أى من شر كل ذى شر خلقه الله عز وجل .

الخامسة - قوله تعالى : (وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ) اختلف فيه ؛ فقيل : هو الليل . والغسق : أول ظلمة الليل ؛ يقال منه : غَسَقَ الليلُ يَغْسِقُ أى أظلم . قال قيس الرقيات :

إِنَّ هَذَا اللَّيْلَ قَدْ غَسَقَا * وَاشْتَكَيْتُ الْهَمَّ وَالْأَرْقَا

وقال آخر :

يَا طَيْفَ هِنْدٍ لَقَدْ أَبْقَيْتَ لِي أَرْقَا * إِذْ جِئْتَنَا طَارِقًا وَاللَّيْلُ قَدْ غَسَقَا

هذا قول ابن عباس والضحاك وقتادة والسُّدِّيّ وغيرهم . و « وَقَبَ » على هذا التفسير أظلم ؛ قاله ابن عباس . الضحاك : دخل . قتادة : ذهب . يَمَانُ بن رِثَابٍ : سكن . وقيل : نزل ؛ يقال : وقب العذاب على الكافرين ؛ نزل . قال الشاعر :

وَقَبَ الْعَذَابُ عَلَيْهِمْ فَكَانَهُمْ * لِحَقَّتْهُمْ نَارُ السَّمُومِ فَأُحْصِدُوا

وقال الزجاج : قيل لليل غاسق لأنه أبرد من النهار . والغاسق : البارد . والغسق البرد ؛ ولأن فى الليل تخرج السباع من آجامها والهوام من أماكنها ، وينبعث أهل الشر على العيث

(١) المقطرة (بكسر الميم) : خشبة فيها خروق كل خرق على قدر سعة الساق يدخل فيها أرجل المحبوسين ؛ مشتق من قطار الإبل . (٢) زيادة من اللسان مادة (علق) يقتضها السياق . وفى الأساس مادة (فلق) : « وجاء بعلق فلق » على التركيب تكلمة عشر .

والفساد . وقيل : الغاسق الثَّريَّا ؛ وذلك أنها إذا سقطت كثرت الأسقام والطواعين ، وإذا طلعت أرتفع ذلك ؛ قاله عبد الرحمن بن زيد . وقيل : هو الشمس إذا غربت ؛ قاله ابن شهاب . وقيل : هو القمر . قال القُتَيْبِيُّ : « إِذَا وَقَبَ » القمرُ إذا دخل في سَاهُورِهِ ، وهو كالغلاف له وذلك إذا خسف به . وكل شيء أسود فهو غَسَقٌ . وقال قتادة : « إِذَا وَقَبَ » إذا غاب . وهو أصح ؛ لأن في الترمذى عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم نظر إلى القمر فقال : « يَا عَائِشَةُ اسْتَعِيدِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ » . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وقال أحمد بن يحيى ثعلب عن ابن الأعرابي في تأويل هذا الحديث : وذلك أن أهل الرِّيبِ يتحيمون وجبة القمر . وأنشد :

أَرَاخِي اللَّهَ مِنْ أَشْيَاءٍ أَكْرَهُهَا * مِنْهَا الْعَجُوزُ وَمِنْهَا الْكَاثِبُ وَالْقَمَرُ
هَذَا يَبُوحُ وَهَذَا يُسْتَضَاءُ بِهِ * وَهَذِهِ ضَمْرٌ قَوَامَةٌ السَّحْرِ^(١)

وقيل : الغاسق الحية إذا لدغت . وكأن الغاسق نأبها ؛ لأن السم يغسق منه ؛ أي يسيل . ووقَبَ نأبها إذا دخل في اللدغ . وقيل : الغاسق كل هاجم يضر ، كأننا ما كان ؛ من قولهم : غَسَقَتِ الْقَرْحَةُ إِذَا جَرَى صَدِيدُهَا .

السادسة - قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ يعني الساحرات اللاتئ ينفثن في عقد الخيط حين يرقين عليها . شبه النفخ كما يعمل من يرقى . قال الشاعر :
أَعْوَدُ رَبِّي مِنَ النَّافِثَا * ت فِي عِضِّهِ الْعَاضِهِ الْمُعْضِضِ^(٢)
وقال ميمون بن نويرة :

نَفَثَتْ فِي الْخَيْطِ شَيْبَةَ الرَّقِيِّ * مِنْ خَشْيَةِ الْجِنَّةِ وَالْحَاسِدِ

وقال عنتره :

فَإِنْ يَبْرَأُ فَلَمْ أَنْفِثْ عَلَيْهِ * وَإِنْ يَفْقَدُ فَحُقَّ لَهُ الْفُقُودُ

(١) الضمرز (كزبرج) : الناقة المسنة . ومن النساء الغليظة . وقد وردت هذه الكلمة في نسخ الأصل محرقة ، ففي بعضها « صمود » وفي البعض الآخر : « ضمور » وهو تحريف . وفي البيت إقواء ؛ وهو اختلاف حركات الروى .
(٢) العضه (كعنب) : الكذب والسحر والبهتان . والعاضه : الساحر .

السابعة - روى النسائي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 " من عَقَدَ عُقْدَةً ثم نَفَثَ فيها فقد سَحَّرَ ومن سَحَّرَ فقد أشْرَكَ ومن تعلق شيئاً ^(١) وكل إليه " .
 وَأَخْتَلَفَ في النَّفْثِ عند الرُّقِيِّ ؛ فمنعه قوم وأجازه آخرون . قال عكرمة : لا ينبغي للراقي أن
 يَنْفُثَ ولا يَمْسَحَ ولا يَعْقِدَ . وقال إبراهيم : كانوا يكرهون النفث في الرقي . وقال بعضهم :
 دخلتُ على الضحاك وهو وَجِعٌ ، فقلت : ألا أعوذك يا أبا محمد؟ قال : بلى ، ولكن لا تنفث ؛
 فعوذته بالمعوذتين . وقال ابن جريج قلت لعطاء : القرآن يُنْفَخُ به أو يُنْفَثُ ؟ قال :
 لا شيء من ذلك ولكن تقرأه هكذا . ثم قال بعدُ : أَنْفِثْ إن شئت . وسئل محمد بن سيرين
 عن الرُّقِيَةِ يُنْفَثُ فيها فقال : لا أعلم بها بأساً ، وإذا اختلفوا فالحاكم بينهم السنة . روت
 عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يَنْفُثُ في الرقية ؛ رواه الأئمة ، وقد ذكرناه أول
 السورة وفي (سبحان) ^(٢) . وعن محمد بن حاطب أن يده احترقت فأتت به أمه النبي صلى الله
 عليه وسلم ، فجعل ينفث عليها ويتكلم بكلام ؛ زعم أنه لم يحفظه . وقال محمد بن الأشعث :
 ذهب بي إلى عائشة رضي الله عنها وفي عيني سوء ، فرقتني ونفثت .

وأما ما روى عن عكرمة من قوله : لا ينبغي للراقي أن ينفث ؛ فكأنه ذهب فيه إلى أن
 الله تعالى جعل النفث في العُقْدِ مما يُسْتَعَاذُ به ، فلا يكون بنفسه عوذة . وليس هذا هكذا ؛
 لأن النفث في العُقْدِ إذا كان مذموماً لم يجب أن يكون النفث بلا عقد مذموماً . ولأن
 النفث في العُقْدِ إنما أريد به السحر المضر بالأرواح ، وهذا النفث لاستصلاح الأبدان فلا
 يقاس ما ينفع بما يضر . وأما كراهة عكرمة المسح بخلاف السنة . قال علي رضي الله عنه :
 اشتكيت فدخل علي النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أقول : اللهم إن كان أجلى قد حضر
 فارحني ، وإن كان متأخراً فأشفي وعافني ، وإن كان بلاءً فصبرني . فقال النبي صلى الله عليه

(١) أى من علق شيئاً من الزواجر والتمايم معتقداً أنها تجلب إليه نفعاً أو تدفع عنه ضرراً . وقيل : المراد
 تمايم الجاهلية مثل الخرزات وأظفار السباع . أما ما يكون من القرآن والأسماء الإلهية فهو خارج عن هذا الحكم .
 (شرح سنن النسائي) . (٢) راجع ج ١٠ ص ٣١٥ فما بعدها .

وسلم : " كيف قلت " ؟ فقلت له . فمسحني بيده ثم قال : " اللهم آشفه " فما عاد ذلك الوجع بعد . وقرأ عبد الله بن عمرو وعبد الرحمن بن سابط وعيسى بن عمر ورويس عن يعقوب « ومن شر النافثات » في وزن فاعلات . ورويت عن عبد الله بن القاسم مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنهما . وروى أن نساء سحرن النبي صلى الله عليه وسلم في إحدى عشرة عقدة ، فأنزله الله المعوذتين إحدى عشرة آية . قال ابن زيد : كثر من اليهود ؛ يعني السواحر المذكورات . وقيل : هن بنات لبيد بن الأعصم .

الثامنة - قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ قد تقدم في سورة « النساء » معنى الحسد ، وأنه تمنى زوال نعمة المحسود وإن لم يصر للحاسد مثلها . والمنافسة هي تمنى مثلها وإن لم تزل . فالحسد شر مذموم . والمنافسة مباحة وهي الغبطة . وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " المؤمن يغبط والمنافق يحسد " . وفي الصحيحين : " لا حسد إلا في اثنتين " يريد لا غبطة . وقد مضى في سورة « النساء » والحمد لله .

قلت : قال العلماء : الحاسد لا يضر إلا إذا ظهر حسده بفعل أو قول ، وذلك بأن يحمه الحسد على إيقاع الشر بالمحسود فيتبع مساوئه ويطلب عثراته . قال صلى الله عليه وسلم : " إذا حسدت فلا تبغ ... " الحديث . وقد تقدم . والحسد أول ذنب عصي الله به في السماء ، وأول ذنب عصي به في الأرض ، لحسد إبليس آدم ، وحسد قابيل هابيل . والحاسد ممقوت مبغوض مطرود ملعون . ولقد أحسن من قال :

قل للحسود إذا تنفس طعنة * يا ظالما وكأنه مظلوم

التاسعة - هذه سورة دالة على أن الله سبحانه خالق كل شر ، وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتعوذ من جميع الشرور . فقال : « مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ » . وجعل خاتمة ذلك الحسد ،

(١) معنى الحسد تقدم في سورة البقرة ج ٢ ص ٧١ طبعة ثانية . وراجع أيضا سورة النساء ج ٥ ص ٢٥١ .

(٢) هذا مذكور في سورة البقرة لا في سورة النساء . فليراجع .

تنبيهها على عظمه وكثرة ضرره . والحاسد عدو نعمة الله . قال بعض الحكماء : بارز الحاسدُ ربَّه من خمسة أوجه : أحدها — أنه أبغض كلِّ نعمة ظهرت على غيره . وثانيها — أنه ساخط لقسمة ربه ، كأنه يقول : لم قسمت هذه القسمة ؟ وثالثها — أنه ضادُّ فعل الله ، أى إن فضل الله يؤتیه من يشاء ، وهو يخل بفضل الله . ورابعها — أنه خذل أولياء الله أو يريد خذلانهم وزوال النعمة عنهم . وخامسها — أنه أعان عدوه إبليس . وقيل : الحاسد لا ينال في المجالس إلا ندامة ، ولا ينال عند الملائكة إلا لعنة وبغضاء ، ولا ينال في الخلوة إلا جزماً وغماً ، ولا ينال في الآخرة إلا حزناً واحترافاً ، ولا ينال من الله إلا بُعداً ومقتاً . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” ثلاث لا يستجاب دعائهنَّ ما آكل الحرام ومكثرت الغيبة ومن كان في قلبه غلٌّ أو حسد للمسلمين “ . والله سبحانه وتعالى أعلم .

سورة « الناس »

مِثْلُ « الفلق » لأنها إحدى المَعُوذَاتِ . وروى الترمذی عن عُقْبَةَ بنِ عامر الجُهَنِيِّ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” قد أنزل الله على آيات لم ير مثلهنَّ « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ » إلى آخر السورة و « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ » إلى آخر السورة “ . قال : هذا حديث حسن صحيح . ورواه مسلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِهِ النَّاسِ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ أى مالِكهم ومُصْلِح أمورهم . وإنما ذكر أنه ربُّ الناس ، وإن كان رباً لجميع الخلق لأمرين : أحدهما — لأن الناس معظَّمون ، فأعلم بذكرهم أنه ربُّهم وإن عظموا . الثانى — لأنه أمر بالاستعاذة من شرهم ، فأعلم بذكرهم

أنه هو الذي يُعبد منهم . وإنما قال : (مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ) لأن في الناس ملوكا فذكر أنه ملكهم ، وفي الناس من يعبد غيره فذكر أنه إلههم ومعبودهم ، وأنه الذي يجب أن يُستعاذ به ويُلبأ إليه دون الملوك والعظماء .

قوله تعالى : مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾

يعنى من شر الشيطان . والمعنى : من شر ذى الوسواس ؛ فحذف المضاف ؛ قاله الفراء . وهو (بفتح الواو) بمعنى الأسم ؛ أى الوَسْوَسِ . و (بكسر الواو) المصدر ؛ يعنى الوسوسة . وكذا الزَّلْزَال والزَّلْزَال . والوسوسة : حديث النفس . يقال : وَسَّسَتْ إِلَيْهِ نَفْسَهُ وَسَّسَةً وَوَسَّسَتْ (بكسر الواو) . ويقال لهَمَسَ الصائد والكلاب وأصوات الحلي : وسواس . قال ذو الرمة :

فَبَاتَ يُسَيِّرُهُ نَادٍ وَيُسَيِّرُهُ * تَدْوِبُ الرِّيحِ وَالْوَسْوَاسُ وَالْهَضْبُ ^(١)

وقال الأعشى :

تَسْمَعُ لِلْحَلِيِّ وَسْوَاسًا إِذَا أَنْصَرَفَتْ * كَمَا اسْتَعَانَ بِرِيحِ عَشْرِقٍ زَجَلٍ ^(٢)

وقيل : إن الوسواس الخناس ابن إبليس ، جاء به إلى حواء ووضع بين يديها وقال : آكفليه . فجاء آدم [عليه السلام] فقال ما هذا [يا حواء] ^(٣) ! قالت : جاء عدونا بهذا وقال لي : آكفليه . فقال : ألم أقل لك لا تطيعه في شيء هو الذي غرانا حتى وقعنا في المعصية ، وعمد إلى الولد فقطعه أربعة أرباع ، وعلق كل ربيع على شجرة غيظا له ؛ فجاء إبليس فقال : يا حواء ، أين أبني ؟ فأخبرته بما صنع به آدم [عليه السلام] فقال : يا خناس ، فخي فأجابه . فجاء به إلى حواء وقال : آكفليه ؛ فجاء آدم [عليه السلام] فخرقه بالنار وذر رماده في البحر ؛ فجاء إبليس [عليه اللعنة] فقال : يا حواء ، أين أبني ؟ فأخبرته بفعل آدم إياه ؛ فذهب

(١) شتر الرجل : قلق من مرض أوهم . والناد : الندى والقصر والأمر القبيح . وتذوب الريح : هبوبها من كل وجه ، وهو مأخوذ من خداع الذئب . والهضب (بكسر الهاء) : الأمطار .
(٢) العشريق (كزبرج) : نبت له ورق فإذا يس طار . ونبت زجل : صوت فيه الريح .
(٣) زيادة عن نواتر الأصول للترمذى الحكيم .

إلى البحر فقال: يا خناس، فحيي فأجابته . فجاء به إلى حواء الثالثة وقال: اكفليه . فنظر؛ إليه آدم فذبجه وشواه وأكله جميعا . فجاء إبليس فسألها فأخبرته [حواء] ^(١) . فقال: يا خناس، فحيي فأجابته [فجاء به] من جوف آدم وحواء . فقال إبليس: هذا الذي أردت، وهذا مسكنك في صدر ولد آدم؛ فهو ملتقم قلب ابن آدم مادام غافلا يوسوس، فإذا ذكر الله لفظ قلبه وانخس . ذكر هذا الخبر الترمذي الحكيم في نوادر الأصول بإسناد عن وهب بن منبه . وما أظنه يصح، والله تعالى أعلم . ووُصِف بالخناس لأنه كثير الاختفاء؛ ومنه قوله تعالى: « فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ ^(٢) » يعني النجوم لاختفائها بعد ظهورها . وقيل: لأنه يخنس إذا ذكر العبد الله؛ أي يتأخر . وفي الخبر: « إن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا غفل وسوس وإذا ذكر الله خنس » أي تأخر وأقصر . وقال قتادة: « الخناس » الشيطان له خرطوم نخرطوم الكلب في صدر الإنسان، فإذا غفل الإنسان وسوس له، وإذا ذكر العبد ربه خنس . يقول: خنسته نخنس؛ أي أخرته فتأخر . وأخنسته أيضا . ومنه قول أبي العلاء الحضرمي - أنشد لرسول الله صلى الله عليه وسلم - :

وَإِنْ دَحَسُوا بِالشَّرِّ فَأَعْفُ تَكْرِمًا * وَإِنْ خَنَسُوا عِنْدَ الْحَدِيثِ فَلَا تَسَلَّ ^(٤)

الدَّحْسُ: الإفساد . وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله خنس وإذا نسي الله التقم قلبه فوسوس » . وقال ابن عباس: إذا ذكر الله العبد خنس من قلبه فذهب، وإذا غفل التقم قلبه فخذته ومنه . وقال إبراهيم التيمي: « أول ما يبدو الوسواس من قبل الوضوء . وقيل: سمي خناسا لأنه يرجع إذا غفل العبد عن ذكر الله . والخنس: الرجوع . وقال الرازي:

وَصَاحِبٌ يَمْتَعِسُ امْتِعَاسًا * يَزْدَادُ إِنْ حَيِيَّتَهُ خِنَاسًا ^(٥)

(١) زيادة عن الترمذي الحكيم . (٢) آية ١٥ سورة التكوير .

(٣) في نسخة من الأصل: « ابن آدم » . (٤) في اللسان: « عنك » .

(٥) ينعس: يترك . (٦) في بعض الأصول « جنته » وبعضها « جنته » وفي بعضها بدون اجماع .

وقد روى ابن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: «الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ» وجهين: أحدهما
— أنه الراجع بالوسوسة عن الهدى — الثاني — أنه الخارج بالوسوسة من اليقين .

قوله تعالى: **الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ** ﴿١٠٠﴾

قال مقاتل: إن الشيطان في صورة خنزير يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق، سألته
الله على ذلك؛ فذلك قوله تعالى: «الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ». وفي الصحيح عن النبي
صلى الله عليه وسلم: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم». وهذا يصحح ما قاله مقاتل.
وروى شهر بن حوشب عن أبي ثعلبة الخشني قال: سألت الله أن يريني الشيطان ومكانه
من ابن آدم فرأيتَه، يدها في يديه، ورجلاه في رجله، ومشاعبه في جسده؛ غير أن له خطماً
نحطم الكلب، فإذا ذكر الله خنس ونكس، وإذا سكت عن ذكر الله أخذ بقلبه. فعلى ما وصف
أبو ثعلبة أنه متشعب في الجسد؛ أي في كل عضو منه شعبة. وروى عن عبد الرحمن بن الأسود
أو غيره من التابعين أنه قال — وقد كبر سنه — : ما أمّنت الزنى وما يؤمنني أن يدخل
الشيطان ذكره فيوتده! فهذا القول ينبئك أنه متشعب في الجسد، وهذا معنى قول مقاتل.
ووسوسته هو الدعاء لطاعته بكلام خفي يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع صوت .

قوله تعالى: **مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ** ﴿١٠١﴾

أخبر أن الموسوس قد يكون من الناس. قال الحسن: هما شيطانان؛ أما شيطان الجن
فيوسوس في صدور الناس، وأما شيطان الإنس فيأتي علانية. وقال قتادة: إن من الجن
شياطين وإن من الإنس شياطين؛ فتعوذ بالله من شياطين الإنس والجن. وروى عن أبي ذر
أنه قال لرجل: هل تعوذت بالله من شياطين الإنس؟ فقال: أو من الإنس شياطين؟ قال:
نعم؛ لقوله تعالى: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ» الآية. وذهب
قوم إلى أن الناس هنا يراد به الجن. سُمُوا نَاسًا كَمَا سُمُوا رِجَالًا فِي قَوْلِهِ: «وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ

(١) آية ١١٢ سورة الأنعام .

الإنس يُعَوِّدُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ» ^(١) — وَقَوْمًا وَنَفَرًا ^(٢) . فعلى هذا يكون « وَالنَّاسِ » عطفاً على « الْجِنَّةِ » ويكون التكرير لاختلاف اللفظين . وذكُر عن بعض العرب أنه قال وهو يحدث : جاء قوم من الجن فوقفوا . فقيل : من أتم ؟ فقالوا : ناس من الجن . وهو معنى قول الفراء . وقيل : الوسواس هو الشيطان . وقوله : « مِّنَ الْجِنَّةِ » بيان أنه من الجن « وَالنَّاسِ » معطوف على الوسواس . والمعنى : قل أعوذ برب الناس من شر الوسواس الذي هو من الجنة ومن شر الناس . فعلى هذا أمر بأن يستعيز بالله من شر الإنس والجن . والجنة جمع جنى ؛ كما يقال : إنس وإنسي . والهاء لتأنيث الجماعة . وقيل : إن إبليس يوسوس في صدور الجن كما يوسوس في صدور الناس . فعلى هذا يكون « في صدور الناس » عاماً في الجميع . و« من الجنة والناس » بيان لما يوسوس في صدره . وقيل : معنى « مِّنَ شَرِّ الْوَسْوَاسِ » أي الوسوسة التي تكون من الجنة والناس ، وهو حديث النفس . وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله عز وجل تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به » . رواه أبو هريرة أخرجه مسلم . فالله تعالى أعلم بالمراد من ذلك .

(١) آية ٦ سورة الجن . (٢) وذلك في قوله تعالى : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن ... » آية ٢٩ سورة الأحقاف .

+ +

بعون الله وتوفيقه ، تم تصحيح هذا الكتاب ” الجامع لأحكام القرآن ” للقرطبي في يوم ٢٦ من شهر رمضان سنة ١٣٦٩ هـ الموافق ١١ من شهر يوليو سنة ١٩٥٠ م . وذلك في عهد صاحب الجلالة مولانا ” الفاروق العظيم ” راعي العلم والعلماء . وكان رئيس المجلس الأعلى لدار الكتب المصرية معالي الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين بك ، وزير المعارف العمومية . والأستاذ أمين مرسى قنديل المدير العام لها . هذا . ونسأل الله تعالى دوام التوفيق للدار فيما تبذله من جهود في نشر العلم والثقافة . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ما

أحمد عبد العليم البردوني
بالقسم الأدبي

إصلاح خطأ

صواب	خطأ	ج	ص	س
الذى تثنى	الذى تثنى	۱	۱۳۵	۱۱
لاهم رب	لاهم رب	۱	۳۶۸	۶
في قوله « من يتخذ »	في قوله « ومن يتخذ »	۲	۲۰۴	۷
على علاته هريماً	على علاته هريماً	۲	۲۴۲	۱۸
كثير أبو صخر	كثير بن صخر	۲	۳۰۵	۱۵
للذين يقاتلون	للذين يقاتلون	۲	۳۴۷	۱۳
لما رجعوا من	لما رجوا من	۳	۲۳۲	۱۶
« نضاعفها » بنون العظمة	« يضاعفها » بنون العظمة	۵	۱۹۵	۱۵
ج ۵	ج ۴	۶	۷۹	۲۱
عتاب بن أسيد	عتاب بن أسيد	۶	۲۳۲	۲۰
يتوفى الأنفس	يتوفى الأنفس	۷	۷	۱۲
تطيف به شد	تطيف شد	۷	۱۳۶	۲
هذا وليكم	هذا وليكم	۱۰	۱۲۲	۲
نشر الله الميت فنشر	نشر الله الميت فنشر	۱۱	۲۷۸	۱۶
لى خمسة أسماء	الى خمسة أسماء	۱۴	۲۰۰	۴
« تكون قريباً »	« تكون قريباً »	۱۴	۲۴۸	۱۰

صواب	خطأ	س	ص	ج
فمن الرفق به أن يتحلله	فمن الرفق به أن يتحلله	٧	٤٣	١٦
وانما خالف بينها	وانما خالف بينهما	٨	١٦٤	١٦
ويردون الثواب	ويرون الثواب	١٥	١٧٢	١٦
صدر بيت للراعى ، وعجزه	عجز بيت للراعى ، وصدره	١٨	١٨٤	١٦
فتماريا حتى ارتفعت	فتماديا حتى ارتفعت	١٩	٣٠٠	١٦
الصوت الذى [لا] يتأذى به	الصوت الذى يتأذى به	١٦	٣٠٧	١٦
على قنطاردين	على قنطار دین	١٦	٣١٢	١٦
اللهم ربّ السموات... وربّ...	اللهم ربّ السموات... وربّ...	٩	١٧٥	١٨
خرج مخرج الإذلال	خرج مخرج الإذلال	٥	٢٧٦	١٨
قوما صالحين بين آدم ونوح	قوما صالحين من آدم ونوح	٥	٣٠٨	١٨
وأصل اللّم	وأصل اللّم	٤	٥٣	٢٠

